

تاريخ العصر الوسيط في أوربة

الجزء الثاني

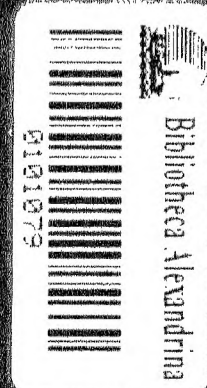
من القرن الثاني عشر إلى القرن الخامس عشر

تأليف وتحرير

الدكتور نور الدين جاليم

دار الفكر
دمشق - سورية

دار الفكر المسافر
بيروت - لبنان



تاريخ
العصر الوسيط في اوروبا

تاريخ العصر الوسيط في أوردية

الجزء الثاني

من القرن الثاني عشر إلى القرن الخامس عشر

تأليف وتعريب

الدكتور نور الدين جاطوم

رئيس قسم التاريخ في جامعة دمشق

دار الفكر
بيروت - سورية

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان



الكتاب ٨٥٥

الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ = ١٩٩٣ م

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل
والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق
إلا بإذن خطي من دار الفكر بدمشق

سورية - دمشق - برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد - ص.ب (٩٦٢)
برقياً: فكر - س.ت ٢٧٥٤ هاتف ٢٣٩٧١٧ ، ٢١١١٦٦ - تلكس FKR 411745 Sy

الصف التصوييري: دار الفكر بدمشق

الإهداء

إلى

رامة و دانة

القسم الأول

تاريخ العصر الوسيط في أوربة
القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر

المقدمة

نهضة الغرب الأوربي

من القرن العاشر إلى القرن الخامس عشر

إن الغارات البربرية ، وإقامة اقتصاد أوربي مبني بصورة أساسية على الأرض ، كان من نتيجتهما ، في أعلى العصر الوسيط ، أفول الحياة المدنية الذي نجت منه إيطاليا وحدها . أما في مناطق الغرب الأخرى ، فإن المدن المحصورة داخل نطاق ضيق من الحصون ، فلم تكن أكثر من مواقع عسكرية ، إدارية أو دينية ، أو مقام لكونت أو أسقف . ومنذ العصر الكارولنجي ، ظهرت مؤشرات تتم عن تجديد مدني ، مالبث أن تعرض لخطر الغارات الجديدة في القرن العاشر . وانطلاقاً من القرن الحادي عشر ، شجع التقدم الديمقراطي و (الثورات الزراعية) نمو الإنتاج الحرفي والمبادلات ، ونهضة المدن الواقعة في جوار عقدة مواصلات أو معبر ، أو جسر ، أو مصبّ نهر . وفي أغلب الأحيان كان النمو انطلاقاً من نواة قديمة ، كأن يكون قصراً ، قصر كونت ، أو أسقفية ، أو ديراً ؛ فحول البورتوس ، أي السوق المقام على مسافة من الأسوار ، ينشأ حيٌّ جديدٌ ، مدينةٌ صغيرة يقيم فيها الحرفيون والتجار . كما أن نمواً أو تزايد عدد الشعب ، البورجوازي (المدني) ، يفسّر بتوسع المنطقة المدنية التي تنتهي باحتواء الحصن القديم والمدينة التجارية الأولى في جدار جديد من التحصينات . وفي بعض المناطق ، كانت المدن إبداعات كما يدلُّ على ذلك الترتيب الهندسي لخططها . وفي شرق أوربة ، كانت هذه المنشآت الجديدة مرتبطةً بتقدم حركة الاستعمار . ففي

فرنسا ، ولا سيما في جنوبها ، كانت المدن الجديدة ودور الريف تنشأ من أديانها إلى أعلاها ، أي بكاملها ، على يد دير ، أو سيد إقطاعي ، أو الملك ، لغرض سياسي أو عسكري . وفي القرون الأخيرة من العصر الوسيط ، تدلّ خارطة المدن على تفاوت النمو الاقتصادي في أوربة ؛ فالمناطق الكثيرة العمران تتطابق مع المراكز الأساسية الهامة للنشاط الحرفي والتجاري ، كما في الفلاندر ، وألمانيا الجنوبية ، وشمال إيطاليا . أما المناطق ، التي ظلت ريفية أساساً ، فتتميز بالكثافة الضعيفة للمدن .

ومنذ أن استيقظ نشاط المبادلات في الغرب ، من القرن الحادي عشر إلى بداية القرن الثاني عشر ، وجدت منطقتان أساسيتان ظلتا حتى آخر العصر الوسيط أكبر المراكز الاقتصادية في أوربة . وهما : إيطاليا التي سيطر تجارها على تجارة المنتجات الشرقية في البحر المتوسط ، وعلى إعادة توزيعها على القارة ، وملتقى الطرق الفلاماندي الذي كان بإنتاجه الأقمشة في مركز المبادلات في البحار الشمالية . ومع ذلك ، ففي القرون الثلاثة التالية ، تعرضت خارطة أوربة الاقتصادية لتحولات كان من نتيجتها مشاركة مناطق جديدة في النهضة التجارية . وإذا ظل الإيطاليون يوسعون ميدان نشاطهم ويحافظون على حصر حقيقي في علاقاتهم مع الشرق البيزنطي والإسلامي وبحار الشمال ، فقد حلّ تجار الهانس ، في القرن الثالث عشر والرابع عشر ، محلّ الإسكاندينافيين ، وما لبثوا بدورهم أن طردوا في القرن الخامس عشر بمنافسة الهولانديين والإنكليز .

وفي الحقيقة ، لقد عرف الغرب الأوربي من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر ، تقدماً في الاقتصاد الريفي الأوربي كان بمثابة ثورة زراعية . وذلك بفضل التقدم العظيم في مضمار التقنيات ؛ من انتشار الطواحين المائية والهوائية وتحسين المحصول بعمل حيوانات الجر وتحسين المحراث ، إلى تقدم الدورة الزراعية

الثلاثية وظهور زراعات جديدة . وهذه التجديدات ساعدت حركة إحياء الأرض التي زادت بشكل عظيم سطح الأراضي المزروعة في أوربة كلها .

وأسهمت هذه التحويلات في تبديل الحياة الاقتصادية من حيث استغلال الأراضي الزراعية وتحسين ظروف الفلاحين الحقوقية والاجتماعية بعد أن استعاض عن السخرات بإتاوات مالية ، وعن العبودية بتحرر الأقنان ؛ وأنشئت مدن وقرى جديدة على مواقع إحياء الأرض . وفي هذه المدن الجديدة تمت نشاطات وفئات اجتماعية جديدة من تجار وحرفيين وعمال .

ووجدت في الوقت نفسه زيادة عظيمة في السكان ، ثورة ديموغرافية حقيقية ، ارتبطت بها الثورة الزراعية بصورة وثيقة واستجابت لزيادة الطلب على المنتجات الغذائية .

وكذلك الطرق ، التي كانت توحد المراكز الكبرى للحياة الاقتصادية ، قد غيرت مكانها أيضاً . ففي القرن الثالث عشر ، كانت أسواق إقليم الشامانيا ، في فرنسا ، ملتقى دولياً للتجارة الأوربية الكبرى . وفي القرن التالي أثار أفولها نمو طريقين جديدين : الطريق البري الذي يسلكه الشعب الآلية ووادي نهر الراين ، ويؤمن ازدهار مدن ألمانيا الجنوبية ؛ والطريق البحري ، الذي أصبح يصل ، منذ الآن فصاعداً ، البحر المتوسط بالبحار الشمالية وينعش بعبوره تجارة إقليم كاتالونيا وتجارة قشتالة .

وفي هذا القرن الثالث عشر ، بلغ البناء الاقتصادي والسياسي والثقافي نقطة التوازن التي تجعل منه العصر الكلاسيكي للعصر الوسيط في الغرب الأوربي . فقد توسعت الآفاق الاقتصادية ، وسقطت الحواجز التي تجزئ الحياة المادية ، وتشكلت تيارات مختلفة ، من طرف لطرف في أوربة ، تربط القارة الأوربية بالبلاد البعيدة . وفي آخر العصر الوسيط ، نرى أن تكاثر تيارات

المبادلات التي تشق الغرب في كل الاتجاهات ، وحضور الفلورانسيين في كل المواقع الكبرى الصناعية والمصرفية تشير بشكل واضح إلى تضامن أوربة الاقتصادي .

وجرى تجمع القوى السياسية : ففي نطاق الملكيات ، التي توطدت ، ارتسمت أولى الدول الحديثة .

وعلى صعيد الفكر والفن، كان للقرن الثالث عشر دور التركيب . فقد شهدت الجامعات رجالاً أتوا من جميع البلاد المسيحية لمقارنة أفكارهم وتجاهها ، وإجراء حوار وموازنة لمعارفهم ، ونشأ الفن القوطي في إقليم جزيرة - فرنسا ، وانتشر في جميع البلاد الأوربية .

الفصل الأول

توسع الآفاق الاقتصادية وتحول مجتمع العصر الوسيط

لقد كانت الأرض ، في بداية القرن الحادي عشر ، في الغرب ، المصدر الأساسي للغنى والثراء . لأن التقدم ، الذي قامت به الزراعة منذ العام ألف ، ساعد على توسيع السطوح المزروعة وتحسين المردود . ولكنه لم يقلب ملكية اقتصاد الأرياف : فقد ظلت ملكية كبرى تكفي تقريباً بنفسها إلا قليلاً ، بتغيير زراعتها وصنع أدواتها . وفي الحقيقة ، حدثت منذ القرن الحادي عشر يقظة في الاقتصاد المدني ، ولكن التجديد ، وإن كان خجولاً ، في الإنتاج الحرفي والمبادلات ، لم يكن إلا نتيجة غير مباشرة لازدهار الأرياف : لقد اقتصر دور التجار على العموم على تجارة الفائض من محاصيل الأملاك الزراعية ، وتجهيز الأمراء الأثرياء ببعض منتجات البذخ الآتية من الشرق . وبالشكل نفسه ، قدم حرفيو المدن بعض أشياء حسنة الصنع للقلة الضيقة من زبائنهم الأغنياء الذين لا يمكنهم أن يكتفوا بالمنتجات الخشنة التي تجهزهم بها المشاغل الريفية . وما زال تداول النقد قليلاً . ولذا فإن مختلف فئات المجتمع كانت تتميز عن بعضها تبعاً لعلاقتها مع الأرض .

وانطلاقاً من ١١٥٠ م على وجه التقريب ، أخذت علاقة القوى الاقتصادية تنجح إلى العكس ، تحت تأثير ثورة تجارية حقيقية ، لأن بعض مناطق الغرب ،

تضاعفت فيها المبادلات ؛ فمن ذلك أن جرى تداول العملات الجيدة العيار ، ونشأ الاعتماد . وأكثر من ذلك أن التجار لم يعودوا وسطاء بسطاء . وظهرت فئة من كبار التجار المتعهدين . فقد تهيأت لهم رؤوس أموال متراكمة بفضل التجارة ، ولذلك شغلوا الحرفيين ، وجهّزهم بالمواد الأولية ، وأخذوا على عاتقهم توزيع المنتجات المصنوعة . وانتعشت المدن بالأسواق والمعارض والصنائع وأصبحت في عزّ نهضتها . وتغلغل اقتصاد المبادلة أيضاً ، في قطاعات واسعة في الزراعة . فمن ذلك أن مناطق بكاملها انقطعت للزراعات التجارية . وكانت بذلك أول رسم للتخصص الإقليمي . وبشكل أعمّ ، لقد تعلم العالم الريفي استعمال النقد . وهكذا تغير الترتيب التقليدي للمجتمع ، لأن الأرض لم تعد القيمة الوحيدة ، ولأن المال أصبح ، منذ الآن فصاعداً ، يخول القوة أيضاً .

١ - الثورة التجارية والعمل المدني

أصول الثورة التجارية

لقد كانت (الثورة التجارية) في القرن الثالث عشر هامة بالنسبة لأوروبا العصر الوسيط ، كالثورة الصناعية بالنسبة للعالم المعاصر . ومن الصعب تحديد وتعيين أصولها . فلم تكن فحسب تفتحاً للاتجاهات التي ظهرت في سياق العصور السالفة ؛ لأن الأمن الذي حصل حديثاً ، وتقدم الزراعة ، والجيل الأول للهيئات المدنية ، أعدت ولا شك تجديد الحياة الاقتصادية ، ولكنها لا تفسر هذه الثورة بشكل كامل ، لأن عوامل أخرى تدخلت في الحساب . ففي المقام الأول ، يجب أن نضع تقدم التقنية على صعيد النقل البحري : فحتى القرن الثاني عشر ، كانت السفن تحكم بواسطة المجاديف الجانبية . وفي بداية القرن الثالث عشر ، أضيفت قطعة خشبية ثقيلة وأثبتت في كوثل السفينة (مؤخرها) في الاتجاه الشاقولي ، فساعدت على التحكم بالسفينة بأمان أعظم وأكثر . وهذه الخشبة هي

سَكَّان (دَفَّة) السفينة ، التي توضع خلف القسم الغائص في الماء من هيكل السفينة . يضاف إلى ذلك أن استعمال الشراع اللاتيني ، وهو اختراع إسلامي في الواقع ، جعل السفينة أكثر سهولة في الاستعمال أيضاً : وهذا الشراع الذي يمكن توجيهه ، في كل الاتجاهات ، يساعد على السير ضد الرياح بمنة ويسرة ، وحتى الملاحة ضدَّ الرياح . وأمكن بناء سفن أضخم وأكثر سرعة . وفي الوقت نفسه تعلم ملاحو البحر المتوسط بسرعة استخدام وسائل مخترعة في الشرق ، البوصلة والإسطرلاب . وفي آخر القرن ، ظهرت الخارطيات البحرية الأولى . وأصبحت الملاحة أكثر أمناً . ولم تتوقف في الفصول الرديئة ، حتى أن السفن الضخمة أمكنها الابتعاد عن السواحل وليست مضطرة إلى اللجوء إليها والرسو فيها كل ليل . وفي ١٢٧٧ م ، اجتاز قرقور (سفينة طويلة) جنوبي مضيق جبل طارق ووصل مباشرة ميناء بروج^(١) . وفتح على هذا النحو خطاً للملاحة الكبرى . وفي الحقيقة ، لقد انتشر هذا التقدم ببطء ، وبقيت الرحلات البحرية مفعمة بالصدف . ولكن النقل تكاثف بعد أن أصبح أقل كلفة .

وفي داخل البر ، كان تقدم المواصلات أكثر تواضعاً ، ويشكل التجوال (التنقل) طريقة نقل صعبة ومكلفة ؛ لأن شبكة الطرق الرومانية قد تخربت تماماً في الواقع . ولم تكن الطرق في العصر الوسيط أكثر من (مكان يمكن المرور منه) ، ممر غير معين تسير عليه العربات ذات الدواليب ، والعجلات الثقيلة ذات الأربعة دواليب وحيوانات الحمل . ومع ذلك فإن هذه الطرق الضئيلة كانت تجتاز الجبال والأنهار . وفي القرن الثالث عشر ، أنشأ الأمراء المهتمون بدفع رسم المرور ، والبورجوازيون المهتمون بالأرباح التجارية ، جسوراً : ففي ١٢٣٧ م ، أطلق أول جسر معلق على نهر روس^(٢) ، ففتح بشعب سن-غوتار أقصر طريق بين ألمانيا وإيطاليا .

(١) في شمال غربي بوردو .

(٢) نهر في سويسرا .

ومنذ أن أصبح المرور ممكناً سلكت البضائع والمسافرون الطريق النهري :
وفي إيطاليا الشمالية ، نهر البو وروافده ؛ وفي الفلاندر ، الأنهار المتصلة منذ القرن
الثاني عشر بشبكة قنوات (فارتان) وسدود ؛ وأخيراً المحور الكبير
شمال - جنوب الذي يشكله نهر الراين . وانتعشت كل هذه الطرق بتجارة هامة .

واستطاع التجار الغربيون ، بفضل سفنهم خاصة ، الوصول إلى مناطق
بعيدة أكثر فأكثر ، وفتحت أمامهم الأسواق . إن التوسع السلمي والحربي لأوروبا
في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، والعمل المنظم للمستعمرين وفرنسا في
الحروب الصليبية والمبشرين هيأت لها الطريق . وفي شرقي البحر المتوسط ، أفاد
فتح الساحل السوري على يد الصليبيين بشكل مضاعف تجارة المدن البحرية
الإيطالية : فمقابل السند أو الدعم الذي قدمه أسطولها للحرب الصليبية ، حصلت
جنوة ، وبيزا والبندقية على مراكز وامتيازات جديدة في الإمارات الفرنجية .
ومن جهة أخرى ، ظل التجار الإيطاليون يمدون بل وينمون العلاقات التجارية
مع البلاد الإسلامية . وهكذا توطدت حلقة مثمرة للمبادلات بين الموانئ الإيطالية
والإسكندرية ، ومراكز الفرنجة في سورية والقسطنطينية . وفي هذه المرحلة
توصلت ثروات آسيا أيضاً إلى التجار الإيطاليين المقيمين على السواحل المتوسطية
بأسعار مرتفعة وزادها شدة الوسطاء العرب أو البيزنطيون . ولتحسين الأرباح
كان على التجارة الغربية أن تقتحم المعابر التي تحرس الوصول إلى أسواق الانتاج .
وأخفقت الحملات التي أطلقت ضد مصر ، ولذا فإن الدخول المباشر للبحر الأحمر
ظل ممنوعاً على الغربيين . وبالمقابل ، نجح البنادقة ، بتحويل الحرب الصليبية
الرابعة عن أهدافها الأولية ، وذلك باجتياز المضائق (البوسفور ، الدردنيل) التي
تفصل البحر المتوسط عن البحر الأسود : وهذا البحر ، الذي كان حتى ذلك الحين
محتجزاً للتجارة البيزنطية ، فتح لهم بأخذ القسطنطينية (١٢٠٤ م) ، وأصبحت
البندقية حينئذٍ إمبراطورية بحرية واسعة . فقد أسست مراكز في كافٍ في القرم ،

وفي تاننا في أقصى بحر آزوف . وفي آخر القرن الثالث عشر ، بدأ أن انهيار الإمبراطورية اللاتينية ، قوض مصالح البندقية لخير مصالح جنوة ؛ ولكن البنادقة ، بفضل مهارتهم الدبلوماسية استعادوا الوضع الذي خسروه : وذلك بتقسيم الامتيازات التجارية بين البندقية و جنوة . وأصبحت المدينتان في وضع جيد يمكنهما من كسب الظروف التي فتحت أخيراً للغربيين سوق الشرق الأقصى . إن إنشاء إمبراطورية مغولية تمتد على كل آسيا ، وسيادة السلام المغولي ساعدا الرحالة الإيطاليين ، في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، على عقد علاقات اقتصادية مباشرة مع الصين وجنوب شرقي آسيا . وفي الوقت نفسه ارتسمت في البحر المتوسط الغربي حركة مشابهة ، وإن كانت أقل سعة . فقد أفاد الجنويون من ضعف الإسلام في إسبانيا ، ومن تقدم التقنيات البحرية ، فاجتازوا في آخر القرن مضيق جبل طارق ، ونزلت سفنهم على طول الساحل الإفريقي تبحث عن إقامة علاقات تجارية مباشرة ، أو أبحروا نحو مراكز التجارة في شمال - غربي أوربة . وفي هذه المناطق من العالم الغربي أيضاً ، يرى أن حركات الاستعمار الزراعي الواسعة والفتح السياسي والديني التي قام بها الألمان باتجاه البلاد السلافية قد رافقها نهوض تجارة الباطيك . وتأسست عدة مدن جديدة على الساحل الجنوبي والشرقي : لبيك (١١٤٣ م) ، ريغا (١٢٠١ م) ، روفال (١٢٣٠ م) . وأقام تجار ألمان مراكز في المدن البولونية وفي إسكاندينافيا ، وساقوا نحو الغرب ثروات العالم الشمالي ، قح أراضي الاستعمار ، ورنكات (سمك) البحار الشمالية ، وفرو وجلود التايغا . واتصلوا أيضاً ، عبر العالم السلافي ، مع تجار آتين من آسيا الوسطى لشراء الحيوانات والعسل والشمع . وهكذا أغلقت دورة المبادلات التي جعلت من القارة الأوراسية (الأوربية - الآسيوية) الواسعة سوقاً وحيداً .

إن سعة هذه المبادلات الجديدة تفترض تداول كتلة نقدية عظيمة ومحاصيل تصدير عديدة . ورأت أوربة ، في الواقع ، أكاداسها المعدنية تزداد في سياق القرن

الثالث عشر . فقد اكتشفت مناجم فضة جديدة واستثمرت من قبل مهاجرين ألمان (فرايبرغ في ساكس انطلافاً من ١١٧٠ م) ؛ وبخاصة التجارة التي عقدها الإيطاليون مع سواحل إفريقيا الشمالية كانت فائضة . وهكذا أخذ تجار الساحل الإيطالي قليلاً من ذهب السودان ، وهذه المجلوبات من المعادن الثينة ساعدت مشاغل النقد المتجمعة أكثر فأكثر بين أيدي العواهل الأقوياء ، على إصدار عملة (نقد) ذات عيار أفضل ، مثل الإسترلينات الإنكليزية في آخر القرن الثاني عشر . وفي الوقت نفسه ، وإلى ضرب الدانق وأجزائه ، التي كان يكتفى بها حتى ذلك الحين ، ضرب قطع نقدية ذات قيمة أعلى ، متكيفة بشكل أفضل مع المعاملات الهامة ، من القطع الصغيرة السوداء التي تخرج من المشاغل الخاصة لكبار الأمراء ، الأساقفة ، الأديرة ؛ وقطع الفضة : الغروسات التي تعادل اثني عشر دانقاً أو نحاسة (النحاسية لم تكن منذ أعلى العصر الوسيط إلا عملة حساب) ، سكّت أولاً في البندقية ، في آخر القرن الثاني عشر ، ثم في النصف الأول من القرن التالي في مدن إيطالية أخرى (فيرونه ، فلورنسا ، نابولي ...) وأخيراً ، وبيطء أكثر ، قلد باقي أروبة هذا المثل (النموذج) : وظهر الغرو الفرنسي في ١٢٦٦ م ، وأفاد نموذجاً لضرب النقود القشتالية والآراغونية والهولندية . وفي منتصف القرن الثالث عشر ، ظهر ثانية صنع العملة الذهبية نفسه في إيطاليا (١٢٥٢ م) : وكان كلٌّ من الجنوي والفلورن (من فلورنسا) يساوي عشرين فلساً فضياً . وجرت محاولات مشابهة في فرنسا وفي إنكلترا ولكنها منيت بالإخفاق .

ومع ذلك يجب أن نشير إلى أن المخزون المعدني الذي تتصرف به أروبة ، وبالتالي كتلة النقد ، لم يزيدها بالجملة بكية كبيرة جداً . وثبت التقدم بخاصة بتداول (الفضة) السريع ؛ ونظراً لأن كتلة الوسائل المعدنية الموضوعة تحت تصرف الاقتصاد ، بقيت أدنى جداً من حاجات المصالح . فقد اعتمدت الحياة

الاقتصادية في القسم الأعظم جداً على الاعتماد . والتسليف على الرهن ، في المقام الأول ، لعب دوراً لا يمكن إهماله ، وخاصةً في الأرياف ، وكان اليهود يحتلون مكان الصف الأول في إسبانيا ، وفي اللانغدوك الفرنسي وفي إنكلترا ؛ وفيما عدا ذلك يتحدد نشاطهم في الغالب ، بين دورين ، المصادرة أو الطرد ، على القرض على الاستنفاد الذي يطبقه أيضاً الأراجويون^(١) الذين أفل دورهم في آخر القرن الثاني عشر ، أو تجار كاهور في الغرب ، حتى أصبح اسم كاهورسي مرادفاً لاسم مراب ؛ وبالشكل نفسه وجدت بعض عائلات ييموتية من آستي وشييري ، متوطدة في أسواق فرنسا أو البلاد المنخفضة ، وصنعت شهرة اللومباردين . ومع ذلك فإن كل هؤلاء المقرضين على الرهن منصرفون على العموم إلى نشاط عوز ، لا تتجاوز سعته دور مون دو-بيتيه^(٢) في العالم الحديث . وأكثر من ذلك دلالة ظهور وسائل دفع غير النقد المعدني تساعد على سدّ عدم كفاية النقد ، وهي (العملة الورقية) تحت شكل الاعتراف بالدين (النقد بطريقة الأسناد) ، تحت شكل سلفية على وديعة أو تحويل حساب إلى آخر . وهذا النشاط المصرفي نشأ من عمليات صرافة (قطع) ؛ وقد أقام الصيارفة مقاعدهم في كل الأسواق التي لها بعض أهمية ؛ وفي الواقع ، إن العدد الكبير من النقود المتداولة يجعل مكاتبهم لاغنى عنها . ثم إن هؤلاء الصيارفة لم يكفوا عن الصرف اليدوي للقيام بوظيفة مصرف (بنك) وديعة وتحويل ، وحتى من أجل قبول قروض . ومنذ القرن الثاني عشر ، قبل الجنويون الحفاظ بشكل وديعة على المبالغ التي يضيق زبائنهم ذرعاً بنقلها ، ويفضلون أن يعهدوا بها إليهم . وينقل وديعة إلى آخر ، أو بعمل بسيط للتعويض ، يردون المعادل بعملة أخرى في مكان مغاير . وهكذا كانوا يتصرفون بمال جاهز يمكن أن يخدم بتقديم سلف أو تحقيق استثمارات .

(١) سكان مدينة أراس ARRAS .

(٢) بنك الرهون .

وفي القرن الثالث عشر أمكن تقدم جديد بدافع ظهور بنوك أعمال حقيقية . وعلى سبيل المثال وجد بنك إيطالي يقبل بأن يسلف تاجراً الرأسمال الضروري لشراء سفينة شحن الحرائر أو التوابل المخصصة إلى السوق الفرنسية ، ومراسل البنك في مدينة السوق حيث تباع البضائع كان يقبض ، بعد إنجاز عمل ، المبلغ المستقرض مضافاً إليه (سعر القطع) أي حسم يكافئ الدائن .

وأخيراً ، إن هذا التقدم في الحياة التجارية كان في أصل نهضة الإنتاج في أوربة الغربية ، لأن الحرفية لم تلعب دوراً محركاً في اقتصاد القرن الثالث عشر . وإذا تكاثرت المشاغل أو تضخمت ، فليس ذلك نتيجة ثورة تقنية . أما دور العمل اليدوي فقد ظل متفوقاً وراجحاً ، ويكفي أن يقتصر على مثال النسيج ليرى بأي خجل وبأي نفور تبنيت جميع الطرق الميكانيكية الجديدة . إن انتشار طاحونة الضغط تتابع ببطء شديد . وتحقق دولاب الغزل على وجه التأكيد في النصف الثاني من القرن الثالث عشر : فبالضغط على دواصة وبفضل جهاز آلة دافعة ذات مقبض لإدارتها تستطيع العاملة أن تطبع على المغزل حركة دوارة ؛ وبذلك يكون عملها سهلاً ومتسارعاً . ومع ذلك ، فإن هذه الطريقة ليست معروفة لدينا إلا بالنصوص الرسمية التي تمنع استعمالها (في سبير ، وفي أبيشيل) . وهذه الوسيلة ، باعتبارها أسرع ، حام الشك حولها في أن تعطي نتائج رديئة . وكذا الحال بالنسبة للحلج الذي ظل ممنوعاً زمنياً طويلاً ، أو قاصراً على إنتاج الأقمشة من نوعية أدنى ، لأنه فكّر بأن الألياف المارة في الأمشاط (المحالج) يمكن أن تنقطع بسهولة . والدفع الحاسم أعطي إذن إلى المشاغل بالتجارة . إن ارتفاع الأسعار ، الذي رافق ، منذ القرن الحادي عشر ، نمو المبادلات والتداول النقدي تتابع بانتظام في القرن الثالث عشر ، ونشط الإنتاج لأنه أُمّن للمنتجين أرباحاً متزايدة . وأكثر من ذلك أيضاً ، أن التجار أنفسهم هم الذين تدخلوا لتووين الإنتاج .

تحولات الخارطة الاقتصادية

وفي أوربة الثورة التجارية هذه في القرن الثالث عشر ، ظل قطب الحياة الاقتصادية المناطق المجاورة لبحر الشمال وشبه الجزيرة الإيطالية ؛ ولكن ، الأسواق الموسمية في الشامبانيا ألقت بينها محطة .

أ - بلاد بحر الشمال

إن ازدهار بلاد بحر الشمال ظل بصورة أساسية مؤسساً على صنع وبيع القماش ، المصبوغ بألوان مختلفة وزاهية ، وظل هذا القماش ملكاً دون منازع ، فنه تخاط ألبة الطبقات الغنية . والأنسجة القديمة ، مثل الكتان ، والجديدة مثل الحرير ، التي بدأت بصنعها المشاغل الإيطالية ، كان لها استعمالات محدودة : فنها تصنع البياضات والألبسة التي تغطي درع الفرسان . أما الأقمشة القطنية التي تستعمل القطن المزروع في البلاد الإسلامية ، فلم يبدأ ظهورها إلا بنجل . فالأقمشة إذن تتمتع بسوق عريضة جداً . أما المشاغل الريفية التي تبنت الطواحين الضاغطة لصنع اللباد فقد ظلت تنمو ، وتعمل غالباً من أجل زبائن الأرياف ، وتصنع أقمشة ذات نوعية متوسطة . ومع ذلك فإن بعض الملاكين الريفيين النبيهين ، أقاموا طواحينهم بالقرب من المدن وبدؤوا يضاربون على طلب الزبائن من أبناء المدن ، كما هي الحال بالقرب من هسدين في الأرتوا . ولكن المدن القماشية في عز نهضتها هي التي ربحت بخاصة من تقدم الحياة الاقتصادية . وتغيرت جغرافية الاقتصاد نوعاً ما ، بعض الشيء ، منذ بداية القرن الثاني عشر ؛ وأصبح الإنتاج الإنكليزي تافهاً ، لأن المنتجين الإنكليز فضلوا بيع صوفهم على القارة . وعلى هذه القارة تغطت كل مناطق الشمال الغربي قبل ١٢٥٠ م بأنوال تصنع الأقمشة الكبرى . ففي نورمانديا ، روان ، مونفيليه ؛ وفي بيكارديا ، بوفيه وأميين ؛ وفي الشامبانيا ، شالون على المارن - رنس وأوباتون ؛

وفي البرابان ، بروكسل ومالين شاركتا في تنمية صناعة الأقمشة . ولكن التفوق اقتصر في هذا الصعيد على المدن الفلاماندية ، ومن بينها بروج ، دوويه ، ولا سيما إيبير وغاند ، اللتين احتلتا المكان الأول . وفي كل هذه المدن ، ظلت الصناعة مبعثرة كما في القرن السابق بين العديد من المشاغل التي يختص كل منها بمرحلة من العمليات . وعلى الصعيد المالي ، كانت الأعمال متركزة أكثر فأكثر بين أيدي بعض كبار « المتعهدين بصناعة الأقمشة » . فالمعلم صانع القماش أو المعلم الصباغ ، الذي يعمل في مشغل مع بعض الرفاق ، ويدفع أجرة من جهة أخرى لعدد من العمال المكلفين بتحضير عمله أو يأنهائه (صناعات التحضير أو الإنهاء) ، نادراً ما يكون مستقلاً ، لأن تاجر الأقمشة يدفع له الأجر على عمله . وأحياناً يعيره تاجر الأقمشة جزءاً من آلاته . وفي الغالب الأكثر يتكفل بتجهيزه بالمواد الأولية التي يشتريها من بعيد ، ويبيع القماش المصنوع الجاهز للاستعمال .

لقد كان إنتاج الأقمشة إذن في مركز النشاط التجاري للملتقى الفلاماندي ؛ فالصوف الذي يجب أن يكون من نوعية جيدة جداً ، يجهز خاصة من إنكلترا . والتجار الفلامانديون يذهبون إليها في كل الأعوام ليؤمنوا مشترياتهم ، ويصرفوا بعض قماشهم . وفي بعض الحالات كانوا يقومون بالعملية بواسطة تجار إنكليز من أبناء البلاد . فهؤلاء يذهبون لشراء الصوف من الأسواق المحلية ، وخاصة الأسواق التي تجهز المشاريع الفلاحية أو الأميرية الصغيرة . ثم يبيعونه للمصدرين في الموانئ أو في عدة مدن حيث تتوالى أسواق موسمية متخصصة طوال السنة في دورة منظمة : ستامفورد ، سن - إيف ، سن - بوتولف ، ونيشستر أو نورثامبتون تؤلف على هذا النحو نوعاً من سوق دائمة للصوف . ولكن كبار المصدرين الأجانب يميلون إلى الدخول مباشرة في علاقة مع المنتجين الهاميين ، الأديرة السيترسية أو كبار الأمراء العلمانيين ، ويعقدون معهم سوقاً شاملاً . وهكذا نجد في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، أن أكثر التجار غنى في سن - أومير ،

وهو غليوم كاد ، اشترى من بارون إنكليزي كبير ، غليوم السمين ، كونت أومال ، كامل إنتاجه . وفي الغالب توقع عقود لمدة ثلاثة أو خمسة أعوام ، وتربط بالبائع المشتري الذي يدفع سلفاً عربوناً مرتفعاً . واحتج الوسطاء الإنكليز ضد هذه الممارسات ، ولكنهم لم ينجحوا حتى في منع كبار منتجي الصوف من تضخيم عمليات البيع بشرائهم إنتاج صغار المستثمرين المجاورين .

وسيطر التجار الفلامنديون على سوق الصوف الإنكليزي حتى نحو ١٢٧٠ م ، وهذا لم يمنع المنافسة بين المغتربين من مدن الفلاندر المختلفة . وانطلاقاً من ١٢٧٠ م ، نجد أن الصعوبات الدبلوماسية بين كونتس الفلاندر مرغريت والحكومة الإنكليزية قد أثارت من جانب هذه عدة إجراءات طرد ومصادرات كان ضحاياها التجار الفلامنديون . وحاولت بروج أن تقيّد من ذلك ، بعد عودة السلام ، لتفرض نفسها على رأس (هانس فلاماندي) في لندن . ولكن البروجيين طردوا نهائياً في آخر القرن من قبل التجار الإيطاليين الذين ظهروا على هذه الأسواق في شمال أوربة ، ومن قبل المصدرين الإنكليز . وكان عليهم أن يتجهوا نحو بلاد منتجة جديدة مثل البلاد الجديدة في ألمانيا الشرقية .

ولتأمين الصناعات الفلامندية ، كان التجار يستوردون منتجات أخرى غير الصوف ، مثل المنظفات الضرورية لعمليات إزالة المواد الدهنية ولتثبيت اللون . ولأجل الأقمشة من النوعية الجارية الاستعمال ، يستعمل البوتاس ، المستحصل من رماد الخشب ؛ والبلاد البالطية المغطاة بغابات واسعة هي المجهزة الأساسية له . ومن أجل الأقمشة الأكثر جمالاً ، كان (سلفات الألومنيوم) ضرورياً ، ويؤتى به من إسبانيا (من قشتالة) ، ومن إفريقية الشمالية (بوجة) ، وإيطاليا (جزر ليباري) حيث هو في طريق النفاد ، ولا سيما من آسيا الصغرى (فوسيه ، وقرحصار) حيث توجد أغنى المناجم وأفضلها . ومن هذه البلاد الجنوبية أيضاً تأتي الأصبغة الملونة العديدة : فمن أجل الأصبغة الحمراء

والصفراء ، (حبوب) جنوب فرنسا وإسبانيا التي تعطي اللون الأحمر المحي ،
 وخشب البرزيل ، الذي يجهز باللون الصباغ الأحمر ، من بلاد الشرق ، والقفوة
 من جميع بلاد البحر المتوسط . وبذل جهد لأقلمة هذا النبات الأخير في المناطق
 التي تجاور المدن (القماشية) ، الآرتوا ، وهولاندا والهانيوت . والصباغ الذي
 يفسح مجالاً للتجارة العظيمة يبقى العظم أو الوسمة ، الضروري للصباغ بالأزرق
 والأسود وللحصول ، بالخلط مع أصبغة أخرى ، على اللون الأخضر والبنفسجي .
 وسوق العظم الذي يزرع بخاصة في أتورتوا ، وفي بيكارديا وفي السهل
 اللومباردي ، هو بكامله تقريباً في أيدي التجار البيكارديين الذين يمونون المدن
 القماشية في الفلاندر . وفي آخر القرن ، نهضت منطقة جديدة منتجة ، هي
 منطقة تولوز التي جهزت بعد قليل مشاغل عديدة جداً بعجائن صغيرة من أوراق
 العظم المجففة والمعجونة تحت اسم باستل (مسحوق مصلب بشكل معجونة بإضافة
 الماء المصغ ، أو هو رسمٌ بالوان ينفذ بأقلام الباستل) .

إن كل هذه الواردات التي تتجه نحو بلاد شمال - غربي أوربة ، وبخاصة نحو
 الفلاندر ، يجب أن تعوض بصادرات . ومنذ زمن طويل ، أثرى تجار المدن
 النورماندية ببيع نسيج القنب النورماندي ، وملح الشاطئ الأطلسي وخمر
 المناطق الأكيثانية حتى إنكلترا . وفي كل المناطق التي تحاذي بحر الشمال ، كان
 توزيع التوابل الشرقية ومنتجات أوربة الشرقية مثل : الخشب والسمك والعسل ،
 يفسح مجالاً لتجارة مربحة . ولكن منتجات صناعة الأقمشة بخاصة كانت مادة
 صادرات عظيمة . فمدن الفلاندر في إيبير ، وفي ليل ، وفي توروت ، وفي مسينا ،
 تقام في كل سنة معارض (أسواق موسمية) تعقد فيها أضخم المعاملات ؛ وتجار
 البلد يذهبون إليها لا لبيعوا فيها أقشتهم فحسب ، ولكن أيضاً ليشترى منها ،
 لأن التاجر الذي يريد أن يصدر شيئاً من الأقمشة إلى بعيد عليه أن يشكل مجموعة
 بإضافته نوعيات أخرى إلى إنتاجات مدينته الخاصة . ولكن المعارض تجلب أيضاً

أكثر فأكثر المشترين الأجانب . ومنذ منتصف القرن ، نجد فيها تجاراً من غاسكونيا ، وكاهور بل وحتى إيطاليين .

ولأجل المبادلات بطريق البحر ، تتركز التجارة في بروج وفي موانئها الأمامية : دام وليكلوز . والبروجيون الذين يقومون بهذا النشاط التجاري ليسوا أنفسهم لا ملاحين ، ولا أصحاب سفن . إن الحركة التجارية على البحر كان يسيطر عليها الأجانب وبخاصة الهانسيون ، فعلى طول ضفاف البالطيك التي تحدد التقدم الألماني (انظر الفصل الثامن) تأسست في جوف المصببات النهرية مدنٌ جديدةٌ ؛ وفي النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، وبمبادرة من مدينة لوبيك ، اتحد تجار هذه المدينة في رابطة ؛ ونحو ١١٦٠ م أقيم مركز ترانزيت في فيسبي في جزيرة غوتلاند . وفي القرن الثالث عشر ، انضمت إلى هذا التجمع موانئ بحر الشمال : هامبورغ ، بريم ، وموانئ نهر الراين ، مثل كولونيا . وهذا هو الهانس التوتوني الذي طرد التجار الإسكندينافيين وحصل على مراكز في الأماكن التجارية الرئيسية في أوربة الشمالية ، في لندن ، في نونفورود ولا سيما في بروج . وفي القرن الثالث عشر ، كانت السفن الثقيلة كوغن الهانسية تمخر البحار الشمالية في أوربة دون أن تلقى فيها منافسين ؛ فمن الشرق تأتي بالقمح وعظم أراضي الاستعمار ، وسمك هارنغ البالطيك ، والفرو ، والخشب وعسل البلاد السلاقية . وباتجاه معاكس ، كانت وسيطة التجارة بين الأطلسي وبحر الشمال ، وتنقل الملح والخمر نحو إنكلترا ، والمبادلات في بحر الشمال والبالطيك ، ناقلة الصوف الإنكليزي والقماش الفلاماندي . وفي آخر القرن بدأ مع ذلك خصومٌ أقوياء بالظهور في صعيدهم الخاص ، كما ظهروا في أسواق ومعارض الفلاندر ، وهؤلاء الخصوم هم الإيطاليون .

ب - الفاعليات الإيطالية

وفي الحقيقة ، إن نشاط التجارة الإيطالية مافتئ ينمو في سياق القرن الثالث عشر في اتجاهات بعيدة أكثر فأكثر . وفي الوقت نفسه تركز ؛ وفي الأدرياتيك ، سادت البندقية دون تقسيم ؛ وفي البحر التيراني تقدمت جنوة بوضوح جداً على مارسيليا وعلى بارشلونة ، وفي ١٢٨٤ م ، سحقت منافستها المباشرة أكثر من غيرها ، بيزا ، في معركة لاميلوريا . واستطاعت المدينتان أن تتقاسما أرباح التوسع الأوربي في البحر المتوسط . وفي آخر القرن ، كانتا تتصرفان بعدة مراكز تحيط بكل العالم المتوسطي . وفي البحر المتوسط كله ، تتلاقى واردات الألن^(١) والأصبغة ، والتوابل ، والقطن ، والمواد الزيتية الآتية من الشرق والخصصة للسوق الأوروبية ، وصادرات المنتجات المصنوعة في أوربة : أقمشة ، نسيج ، أسلحة ، يضاف لها الخيول . وألف الإيطاليون أيضاً المبادلات بين الموانئ الإسلامية في إسبانيا ، والمغرب ، ومصر ؛ وهذه النشاطات كانت مثمرة ، لأن المراد منها بخاصة مواد البذخ ، ولكنها خطيرة لأن القرصنة تضاف إلى المجازفات والصدف في البحر . وفي آخر القرن ، اجتاز التجار الإيطاليون مضيق جبل طارق وبدؤوا يفرضون أنفسهم في الأطلسي وفي بحر الشمال ، ودحروا الهانسين في الباطيك .

وصحب هذا النهوض في التجارة الإيطالية في المقام الأول نمو المنشآت البحرية والتسلح البحري ، أي الصناعات الأساسية للموانئ الإيطالية : حصر الدولة في البندقية ، وعمل البناة الخاصين في جنوة . ولجابهة أخطار أقل ، تجمعت العوائل في قوافل ؛ ففي القرن الثاني عشر ، كانت البندقية توجه عمارتين في العام نحو مصر وسورية ، وثلاث نحو الإمبراطورية البيزنطية . ومع ذلك فقد ظلت أخطار الملاحة والقرصنة رصينة ؛ وكانت عقود المشاركة تساعد على تقسيم هذه الأخطار بتأمين أفضل لتمويل المشاريع .

(١) الألن Alun هو كبريتات الألومنيوم والبوتاسيوم .

وفي القرن الثالث عشر ، تحسن وضع مدن الداخل بنشاط المبادلات . وتمّ ذلك بتشكيل رابطات فيها جمعت رؤوس أموال هامة ، واستأجرت سفن المدن الساحلية . ولكن الذي صنع بخاصة ثروة مدن الداخل وبعض مدن الساحل التي لم تلعب دوراً بحرياً هاماً ، كان صناعة البنك . والنسيج يشغل هنا ، كما في الفلاندر ، معظم الصناعات الحرفيين . ففي فلورنسا ، تمت صناعة القماش ، والأنوال تنسج الصوف الآتي من إنكلترا ولا سيما من ساردينيا والمغرب . ولكن في هذا الصعيد ، تأسست شهرة فلورنسا على تقنية خاصة ، وتقوم على أقمشة فلاماندية غير مقصورة (مبيضة) من نوعية عالية . مثل بياضات ليل التي يشتريها التجار الإيطاليون . وفي المشاغل الفلورانسية ، حيث فن الصباغة والتحضيرات النهائية الذي بلغ فيه أعلى نقطة في الكمال ، أصبح القماش نسيج البذخ . وعمل الحرير الذي أدخله العرب إلى صقلية ، انتشر في إيطاليا القارية . وفي القرن الثالث عشر ، كانت مدينة لوك المركز الأساسي للحرائر في العالم المسيحي كله . وأخيراً ، بالقرب من البندقية ، في مورانو ، حيث أقي صنع شريون بأسرار صناعة الزجاج النقي ، يصنع زجاج النوافذ ، والجوامات ، والأواني التي أصبح تحسينها شهيراً .

وفي سيين ، وبليزانس ، ولوك تمت شركات تقاسمت النشاطات بين التجارة والبنك ؛ ولكنها كلها كسفت في آخر القرن بغنى وثراء البيوتات الفلورانسية . وهي رابطات تضم أعضاء عائلة واحدة ، ومن الممكن أن يضاف إليهم بعض أشخاص آخرين ، لوضع رأسمال مشترك . وللبنك فروع في كل المراكز الأوربية الكبرى حيث تفاوض الأعمال ، في باريس ، وبروج ، ولندن ... فهو يثر رؤوس الأموال بالاستثمار مباشرة في التجارة ، بتحقيق عمليات القطع ، وبخاصة ، بقرض المال بالفائدة إما إلى تجار أو إلى أمراء . وهكذا فإن فتح مملكة صقلية على يد شارل آنجو كان ممولاً من قبل أصحاب مصارف من توسكانا ؛

وكذلك البيوتات السينوازية كانت مكلفة بتقبل موارد الكنيسة الرومانية من ماوراء الجبال . وفي آخر القرن ، كان آل فريسكوبالدي في فلورنسا في تنافس مع آل ريكاردي في لوك . وتوصلوا لأن يلعبوا دوراً من المستوى الأول في إنكلترا ، وسيطروا على السوق الإنكليزي للصوف الذي طردوا منه الفلامانديين . وأفادوا كعملاء للبابوية من أجل جباية ونقل ضريبة العشر والرسوم الأخرى المقطعة من الأكليروس الإنكليزي . ولم يتركوا للنوم رؤوس المال العظيمة التي تقع بين أيديهم ، لقد كانوا يثمرونها بإقراضها . وانطلاقاً من ١٢٩٠ م ، أصبح آل فريسكوبالدي مقرضين أساسيين للمال لإدوارد الثاني ملك إنكلترا . إنها عمليات عظيمة ، ولكنها تحت رحمة أقل انقلابٍ للظرف السياسي .

ج - أسواق الشامبانيا موعد لقاء التجار الأوربيين

بين المركز الاقتصادي في الفلاندر ومركز إيطاليا ، كان التماس مؤمناً في القرن الثالث عشر ، بأسواق الشامبانيا . وكانت بروغن ، وتروا في القديم سوقين ، إلا أن نشاطهما في بداية القرن الثاني عشر ، لا يتجاوز النطاق الإقليمي ؛ كانت تباع فيهما الأصواف وجلود البلاد . ومنذ النصف الثاني للقرن الثاني عشر أفادت المدن الشامبانية من وضعها على الطرق التي تصل البحر المتوسط ببحر الشمال ، فبسطت شعاع عملها ، وحينئذ ارتسمت دورة أسواقها . وقد فهم كونتات الشامبانيا ما يمكن أن تربح أموالهم من العمليات الهامة ، فحموا التجار ، ونظموا الأسواق ، ففي بروغن تأسس مستشفى أساسي لاستقبال التجار المرضى . وانطلاقاً من ١٢٣٠ م استقر أصحاب المصارف السينوازيون . ومنذ الآن فصاعداً ، أصبحت أسواق الشامبانيا مركزاً لتجارة دولية حيث يلتقي التجار الإيطاليون والفلامنديون ، والسوق الأساسية التي تتبادل فيها الأقمشة الشمالية من جهة ، والتوابل والحرائر الشرقية من جهة أخرى ؛ وفي الوقت نفسه ، ظل الدور المالي والمصرفي في ازدياد ونمو .

وفي عزّ أكبر ازدهار لها وضع تقويم الأسواق على النحو التالي : في كانون الثاني ، يفتح سوق لايني - على - المارن ؛ ويوم الثلاثاء الذي يسبق منتصف الصوم الكبير أو الأربعين^(١) ، تتبعها بار - على - الأوب ، وفي النصف الثاني من السنة ، تجري العمليات بالتعاقب في بروفن (أيار وأيلول) وفي تروا (تموز ، آب ، وتشرين الأول) . وكل سوق يدوم من ثلاثة إلى ستة أسابيع ويجري بالشكل التالي : في الأيام الأولى يستأجر التجار خوانات (طاولات) في سوق الساحة العامة أو على الطريق العام ويعرضون بضاعتهم ؛ وعندئذ يبدأ البيع . ويتوقف قبل نهاية السوق الأصلي ليخصص أسبوعاً واحداً تقريباً لتسوية الحسابات . إن ممارسة نقل الاعتماد من سوق إلى سوق ، واستعمال (سند السوق) وهو نوع من الاعتراف بالدين ، قد أقر بها . ومن جهة أخرى ، أفاد بذلك التجار لتسوية ديون معاهد عليها في أمكنة أخرى ، وبالتالي فإن العمليات المصرفية تتطلب مهلة طويلة تقريباً . وفي النهاية القصوى للقرن الثالث عشر ، كشف عن مؤشرات أقول في نشاط أسواق الشامبانيا ، والأسباب كثيرة في ذلك ، فلم تعد الظروف السياسية مواتية ؛ لأن حروب الفلاندر قطعت مؤقتاً ، ابتداءً من ١٢٩٦ م ، العلاقات بين الفلاندر والشامبانيا ؛ وبخاصة إن ضم الشامبانيا إلى الأملاك الملكية كان من نتيجته زيادة الضريبة التي تثقل على التجار . وكانت التبدلات التي طرأت في التجارة الدولية أكثر حسماً من غيرها ؛ لأن التجار اجتذبوا في الوقت نفسه بطرق أخرى ابتعدت عن الشامبانيا : مثل افتتاح شعاب آلبية جديدة ، تشجيع المواصلات على الطرق التي تصل مباشرة شمال إيطاليا بالبلاد الريمانية ؛ وفي الوقت نفسه إن رحلة إسبانيا البحرية حول القارة ساعدت الإيطاليين على الوصول مباشرة للسوق الفلاماندي . وأخيراً ، مال التجار أكثر فأكثر إلى الاستقرار ؛ فانطلاقاً من الحين الذي امتلكت الشركات

(١) عند الكاثوليك ، زمن التوبة ويبدأ من أرباء الرماد إلى يوم الفصح .

التجارية والمالية الكبرى فروعاً للإقامة في المراكز المدنية الكبرى الأساسية في الغرب ، ألقت هذه المراكز ، مثل باريس ، أسواقاً دائمة ، ولم يعد للأسواق الموسمية دور قطعي جازم .

٢ - تحول الاقتصاد الريفي

لقد انتهى تقدم اقتصاد المبادلات ، في القرن الثالث عشر ، بالتغلغل أيضاً في عالم الريفيين .

توسع السطوح المزروعة وصل إلى نهايته

في أرياف القرن الثالث عشر ، يرى أن التوسع الزراعي الذي يميز القرون السابقة ، قد تتابع ولكن بوتيرة أبطأ . وفي الواقع ، إن توسع الزراعات وصل إلى نهايته ؛ لأن اتساع البقع الجرداء البدائية في الغابات ، الذي جرى في نطاق الجماعات القروية القديمة ، انقطع في وقت مبكر في سياق القرن الثالث عشر . وإن كل الأراضي تقريباً التي كان يمكن أن تزرع حسب تقنيات العصر ، قد أحييت منذ ذلك الحين وأصبحت صالحة للزراعة . ومن جهة أخرى ، إن الغابات والمراعي أصبحت نادرة ، ولم يكن كسبها ممكناً دون الإضرار بخطورة في توازن الاقتصاد القروي . وأخيراً ، لقد أعطى تقدم تربية الحيوانات إلى هذه المساحات قيمتها ، ورفض الآن ملاكو الأراضي البور أن يقيموا فيها معمرين . وبالمقابل ، إن فتح الأراضي العذراء ظل ، في بعض المناطق ، حتى آخر القرن ، مرتبطاً باهتمامات عسكرية ودينية واقتصادية معاً . وفي جنوب - غربي فرنسا ، ظل العمل في تأسيس مدن محصنة . وفي أوربة الشرقية تسارع غو الجبهة الرائدة ؛ ففي النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، قام الأمراء المقيمون على حدود الإمبراطورية بتوسيع سيطرتهم على الأراضي المأهولة بالسلاخ المسيحيين : شيرين ، ميكلامبورغ ، پوميرانيا ، وسيليزيا ؛ وأطلقوا من جهة أخرى عملية فتح وحملة تنصير باتجاه بلاد مازالت وثنية ، مثلاً ، في نوردالينجي . وفي كل

هذه المناطق البعيدة أكثر من غيرها والمأهولة بالباليطين ، والبروسيين ،
والفينيين والليتوانيين ، انفتحت أراضي جديدة للاستعمار الزراعي . ولجريمة
ونصرنة هذه البلاد الشرقية ، دعا إليها الفاتحون فلاحين ألماناً ؛ وتكفل
متعهدون ، كما في الدور السابق ، بسوق المعمرين وإقامتهم في القرى الجديدة .

وأخيراً ، وفي مناطق أخرى ، أخذ الاستيطان والاستغلال شكلاً آخر : فمن
ذلك أن رواداً منعزلين أسسوا مستغلات في مناطق ظلت حتى ذلك الحين ضعيفة
الاستيطان ، وأنشأوا أشكالاً للسكن إضافية . وأحياناً كانت فروعاً لأنظمة دينية
فسحت لحياة النسك والزهد مجالاً هاماً ، أو مخازن كبرى أسستها أنظمة ديرانية .
وفي ظروف أخرى ، كانوا فلاحين مهووسين بالفردية . وكان تقدم الأداة بالنسبة
إليهم يساعد وحده على محاولة المغامرة . ففي البلاد المؤهلة لتربية الحيوانات ،
مثل البولدرات الفلاماندية ، يفضل المعمرون أن يبقوا على مقربة من أراضي
الرعي عوضاً عن التجمع في قرى ، وكثير من التجمعات أسسها أيضاً أمراء هجروا
منازلهم القديمة الواقعة في وسط القرية ، من أجل مناطق على حافتها ، أو نبلاء
أسسوا بالقرب من المدن الكبرى ، بجمع عدة قطع من الأراضي ، ملكاً خاصاً
منفصلاً بوضوح عن جماعة القرية . وهذه البدعة الجديدة لاحتلال الأرض كانت
في أصل نموذج خاص لمنظر يسود فيه الملك الخاص الدائم المحاط بسور ، وهو في
عرفنا المزرعة . وعلى كل حال ، في آخر القرن الثالث عشر ، وفي كل مكان في
أوربة ، وصل عمل إحياء الأرض إلى نهايته . ومنذ ذلك العصر بدأت هنا وهناك
حركة تراجع ، لأن الزراعات امتدت إلى أراضي تخرب بسرعة ، مما اضطر
الفلاحين لهجرها . وإنها لحالة خطيرة ؛ لأن نمو السكان استمر بينما استقر عدد
الأراضي القابلة للزراعة . وهددت زيادة الاستيطان : ففي المناطق ذات الزراعة
القديمة ، كانت الأراضي مجزأة بين عدد كبير جداً من العائلات ، وكل واحدة منها
تكاد تعيش على قطعها من هذه الأراضي . هذا بالإضافة إلى أن الأزمات المتعلقة

بالحنطة التي كانت تبدو كارثة وزالت منذ بداية القرن الحادي عشر ، عادت للظهور في فرنسا وإنكلترا ابتداءً من منتصف القرن الثالث عشر .

ازدياد المردود بنسب ضعيفة

ولسد هذا العجز المتزايد تتابعت جهود بغية تحسين المردود . فمن ذلك أن عدة أعمال فلاحية تشكلت في النصف الثاني من القرن الثالث عشر وأظهرت تجديداً للاهتمام بكل ما يختص بالأرض . فمن ذلك أن فصول (كتاب) البولوني (من بولون في إيطاليا) بيتر كريسانتزي ، والكتاب اليدوي في الاقتصاد المنزلي للإنكليزي ولتر دو هنلي ، يؤلفان باللغة العامية مجموعتين عمليتين لكبار ملاكي الأقطان . وهما بالنسبة للمؤرخ الحديث مصدر معلومات ثمين . وأصبح تحضير الأرض أكثر عناية ، فالسرقين (الزبل) ، النادر دوماً ، خصص لكروم العنب والبساتين (حقول الأشجار المثمرة) وتقدم التسوير في القرن الثالث عشر ربما كان يستجيب لرغبة ملاكي القطعان في تخصيص السواد الثمين لأراضيهم الخاصة . وفي آخر القرن الثالث عشر ، اتسعت زراعة الحنّار وساعدت على تجهيز أراضي الحقول بالعناصر المنشطة . والتربة أيضاً قلبت (حرثت) بشكل أفضل : ففي النصف الثاني من القرن ، بدا أن ممارسة الحراثة الرابعة قد تعممت في الأرياف الفرنسية . وهذا التحسين الأخير يرتبط باستعمال الحصان باعتباره أسرع من الثور في الحراثة . ولكن حصان الحراثة لم يتغلغل في مناطق جنوب فرنسا . وأخيراً ، كنتيجة منطقية ، تحسنت دورات الزراعة ؛ وإذا بقي استعمال (الحقلين) ، أحدهما في راحة ، والآخر مزروع ، في كثير من المناطق ، في البلاد (الغرينية) في الحوض الباريسي ، فإن سنة البور تحددت بثلاث المجال الصالح للزراعة .

وفي آخر القرن يمكن حتى الكشف عن التطبيقات الأولى لدورة رباعية من

أربعة أعوام . وقصارى القول ، إن المحاصيل بقيت ضعيفة . وقد وضع المهندسون الزراعيون الإنكليز في كتبهم المعدلات : ٨ للشعير ، و ٧ للشليم ، و ٥ للقمح ، و ٤ للشوفان ، التي تبدو أنها متفائلة جداً وليس لها قيمة إلا من أجل أفضل الأراضي . والمعدلات الجارية (الشائعة) يجب أن تكون أدنى بكثير . ويجب أن نشير مع ذلك ، إلى أنه لم يعمل أفضل من ذلك حتى الثورة الزراعية الحديثة . لقد بلغت الفلاحة (الزراعة) في آخر القرن الثالث عشر مستوى تقنياً معادلاً إلى مستوى العصور التي سبقت مباشرة الثورة الزراعية .

تغلغل اقتصاد المبادلة في الأرياف

لقد انقلبت أرياف القرن الثالث عشر بنفوذ اقتصاد المبادلة أكثر من تقدم التقنية والمردود . فبادئ ذي بدء ازداد طلب المنتجات الزراعية بشكل محسوس ، ولم يكن على الفلاحين تغذية أسرهم العديدة جداً فحسب ، وإنما كان عليهم أن يؤمنوا تموين المدن المأهولة بالسكان أكثر فأكثر . فقد ازداد عدد الرجال الذين لا يؤمنون غذاءهم الخاص بعمل الأرض ، من حرفيين ، وجنود ، وتجار . ومن أجل المدن الكبرى كان على المنطقة المجهزة بما هو ضروري أن تمتد بعيداً جداً . وهكذا فلورنسا التريستاتو (أي سنوات ١٣٠٠ والتالية ، أي القرن الرابع عشر) لم تستطع العيش إلا خمسة أشهر في العام من إنتاج كونتيتها (كونتادو) ، وباقي تموينها يجب أن يؤمن بتجارة طويلة المسافة . ومن جهة أخرى ، كان هؤلاء المستهلكون الذين يكون مستوى حياتهم أعلى من غيرهم ، بفضل الازدهار العام ، يطالبون بغذاء أكثر وفرة وتنوعاً . ففي المجالس الفروسية ، انتشرت بدعة شرب الخمر بشكل واسع ، ومن أجل طبقات المجتمع كلها أصبح الكومبانا جيوم أي اصطحاب الخبز ، أكثر وفرة وغنى . إن مقارنة التعيينات (وجبات الطعام) المخولة في المستشفيات وفي الطوائف الديرانية ، في القرن الثاني عشر ثم في القرن

الثالث عشر ، تعتبر في هذا الصدد كاشفة : فقد بقي الخبز الغذاء الأساسي ، ولكنه لم يكن الغذاء الوحيد . إن الفلاحين ، في الوقت الذي يطلب فيه منهم إنتاج أكثر من أجل البيع ، كان يغريهم أن يشتروا جزءاً أكبر من المنتجات المصنوعة في المدينة . وكفّ الأمراء عن طلبهم من فلاحهم تقدمات تحت شكل مواد مصنوعة . ومنذ آخر القرن الثاني عشر ، في فرنسا ، توجه الفلاحون أنفسهم إلى المشاغل المدنية لشراء حديدية محراث أكثر صلابة أو أحذية أفضل صنفاً . وانتشر النقد الضروري لهذه المبادلات في الأرياف ، ونمت فيها قرى تجارية .

ماهي المنتجات التي تتناولها هذه المضاربات ؟ إنها عدد من الزراعات المخصصة معاً إلى تأمين إعاشة الفلاحين وإلى تغذية التجارة : القمح ، والتمر . والقمح ، انطلاقاً من آخر القرن الثاني عشر ، كان مادة تجارية هامة ، وكانت الأراضي الجديدة في أوربة الشرقية تقدم منه كميات كبرى مخصصة لتوطين مناطق مدنية مثل الفلاندر أو البلاد المحرومة بسبب المناخ مثل النورفيج . وفي الغرب نفسه وجدت بعض المناطق التي تتصرف بفائض قابل للتصدير : مثل صقلية وإنكلترا . وكان التجار الجنوبيون يأتون ويشتررون على شاطئ بروكسانس ، وأسواق فريجيوس حنطة الداخل . وبقي الطلب مدعوماً لأن الأسعار ماقتت في صعود حتى حوالي ١٣٠٠ م فقد بلغت تجارة الحبوب الكبرى آنذاك نقطة الذروة في أوربة ، حتى أن مستغلات متواضعة نظمت للتصرف بزيادة يمكن تصديرها . ونمت الكروم أيضاً تبعاً للطلب ؛ فمن ذلك أن كروم الشمال والشرق في فرنسا ، كروم أوفي وسانتونج زادت إنتاجها ، وأفادت منطقتان كرميتان بخاصة من تقدم استهلاك التمر ، حتى إن العواهل الإنكليز الذين لا يملكون على القارة أكثر من الغوين أنما فيها (كروم بوردو) ، وفي الوقت نفسه شجع أدواق بورغونيا إنتاج وتصدير خمور بون . إلا أن الجنوب الورداني (من نهر الرون) وحده والمتوسطي البعيد كثيراً جداً عن مراكز الاستهلاك الكبرى ، بقي جانباً عن هذا النهوض .

ودعت أرباح استغلال الكروم بعض المناطق إلى التخصص في زراعة الكرمة والتخلي عن كل زراعة غذائية .

وفي بعض المناطق كان الاستغلال يتناول زراعات صناعية : زراعة النباتات الصباغية . ولنذكر على سبيل المثال ، إلى جوار (مدن الأفشة) أن الفوة التي تعطي اللون الأحمر ، تدخل في دورة مع الكتان والقنب . وفي الآرتوا وبيكارديا ، كان العظم (الوسمة) الذي يعطي اللون الأزرق ، يزرع في دورة زراعية مع القمح .

وفي القرن الثالث عشر ، عرفت تجارة الخشب نهوضاً مشابهاً لنهوض الحجر . وكان الطلب قوياً على حطب التدفئة بشكل حزم ، وعلى الخشب الضروري لبناء الدور المدنية والسفن أو لصنع البراميل . وما فتئ سعر الخشب في تزايد ، وازدادت بذلك قيمة الغابات التي تجهز ، من جهة ثانية ، بمنتجات أخرى مثل الصمغ ، والراتنج ، والقشر وفحم الحطب . ومنذ آخر القرن الثاني عشر ، بدأ ملاك الغابة بتثمين ثروتهم وحمايتهم . ولم تعد الغابة احتياطياً عريضاً للمحروقات مفتوحاً للجميع ، ومرعى للحيوانات المنزلية في المنطقة ؛ لقد أصبحت (زراعة محمية للشجرة) . وكان الملاكون العقاريون يبيعون الأشجار المقطوعة لمتهنين بالتجارة .

ومع ذلك فإن الاستثمار أو الاستغلال لتربية الحيوانات كان أكثر كثافة من غيره . ويرجع ازدياد الطلب إلى عوامل عدة : أولاً : التذوق النامي للتغذية باللحوم ومنتجات الحليب ، ويدل على ذلك نمو صناعات المجازر في المدن (مجازر اللحم البقر) ، (مجازر اللحم الماعز ، ولحم الغنم) الذي يقدر قليلاً إلا في البلاد المتوسطية . ومن جهة أخرى ، أخذ تثمين السماد يزداد أكثر فأكثر لحاجات

الزراعة ؛ فمن ذلك أن كتب الفلاحة الإنكليزية كانت تتكلم عن (الظلف الذهبي) للخروف الذي يخصب التراب الذي يدوسه . ولكن نمو تربية الحيوانات كان يرتبط بخاصة بحاجات الصناعة المتزايدة . إن سمن الغنم والبقر يمكن أن يفيد في صنع شحم الشمع الضروري للإنارة ، وكان الجلد المادة الأولية لصناعات السروج والأحذية ، وجلد الخروف لصنع الرق الذي يكتب عليه ، وجلد العجل لصنع الورق . وأخيراً ، إن صوف الغنم يؤلف إنتاجاً نسيجياً يكثر عليه الطلب في أوربة .

وهذه الأسباب المجتمعة كلها أدت إلى تكاثر القطعان وتحسين الحيوانات . ففي القرن الثالث عشر ، كانت إنكلترا تضم من الخراف الخاصة للفلاحين والأمرأ أكثر مما تحتوي بشراً . وجبال البروفانس ، في فرنسا ، التي هي اليوم خالية ، كانت تحتلها قطعان الخراف العديدة ، حتى أن هذا الحمل الثقيل المفرط الرعوي انتهى إلى تداع لا يمكن رده للغابات والعواسج . وتقدمت نوعية الحيوانات أيضاً ، ففي إنكلترا ، حيث يؤق منها آنذاك بأفضل أصواف أوربة ، كان المربون يشترون من بعيد الأكباش المولدة ، ويجربون تهجينات جديدة . وبصورة عامة ، إن التوسع التدريجي للرّق في سياق القرن الثالث عشر يبرهن على النمو الحيوي للحيوانات التي يستعمل جلدھا .

ومع ذلك لانلقى جماعات رعوية على سبيل الحصر : لقد كان المربون مضطرين لتترك جزء من الأراضي للزراعة لتغذيتهم . ولكن ، إلى جانب الأراضي الزراعية ، التي يدخل فيها الاستثمار في وتيرة التقويم الزراعي ، والحيوانات ترعى في الأراضي البور ، كانت توجد مناطق يجهز فيها النشاط الرعوي الأساسي من الموارد . وهذه حالة الأراضي الزراعية التي كانت أقل ملائمة لزراعة الحبوب ، مثل البراح الرطبة الباردة في غرب وشمال إنكلترا : إن الأديرة الكبرى للرهبان السيستريين والبريموتريين ، الذين أقاموا فيها في القرن

الثاني عشر ، اتجهوا منذ البدء نحو الاستثمار الرعوي ؛ وخارجاً عن بعض الزراعات الغذائية الصغيرة ، كانت الأراضي فيها مخصصةً لتربية الأغنام ، وهذا يوضح ما يتكلم به جرياً على كل لسان عن (صوف الدير) وفي البولدرات (الأراضي المكتسبة من البحر) الفلاماندية يرى أن إحياء الأراضي الذي تمّ بدافع من الأمراء الكنسيين أو العلمانيين ، كان يرافقه ، على الأقل بصفة مؤقتة ، غزو القطعان : فعلى جزيرات ماكدت تجفف حتى أقيمت في البدء أغنام ، وما أن أزيلت ملوحة الأرض ، حتى حلت محلها الأبقار بانتظار أراضي جديدة تخصب لتكون صالحة للزراعة . وأخيراً ، انطلقت المناطق الجبلية أيضاً للتربية بخاصة ؛ ففي القرن الثالث عشر بدأ استغلال (جبال الألب) في مناطق التيرول وفي بافاريا ، على مراعي ألبية ظلت غير منتجة حتى ذلك الحين . ونظم الانتجاع أيضاً في مناطق أخرى ؛ ففي البيارن ، أنزلت الجماعات الجبلية في الوديان العالية ، قطعانها في الشتاء إلى مناطق التلال الصغيرة في بيونت ؛ وفي البروفانس ، بالعكس تفوق الانتجاع الصيفي ، فلما عز والأغنام تصعد في الصيف إلى المرتفعات ، مثل قطعان دير سن - فكتور في مرسيليا التي تذهب صيفاً إلى المراعي البعيدة في منطقة الأوباي في جبال الألب في بروفانس العليا .

كان الاستغلال الرعوي قبل كل شيء عمل مال وتجارة وكاستغلال الغابة وزراعة الكرمة . وكانت حالة إنكلترا أكثر دلالةً من غيرها . لقد كان كبار الملاكين من أصحاب الأقطان أمراء أو ديريين ، يشيدون ثروتهم على تربية الغنم . إن أديرة رامسي وإيلي كانت تملك قطيعاً بلغ أكثر من ٢٠٠٠٠ رأس ؛ وفي ١٢٥٩ م كان المانس الأسقف ، مجمع المنازل والبساتين والحقول الزراعية ، في وينشستر يغذي ٢٩٠٠٠ خروف . وكان هؤلاء الملاكون الكبار يحمون بشدة أراضي مراعيهم من حريق العواسج الذي يقوم به الفلاحون . وكان مجموع الصوف المنتج يشتري منهم في الغالب سلفاً قبل عدة سنوات من قبل التجار الإنكليز

أو الأجانب . وقيمة هذا الإنتاج عظيمة جداً ، حتى أن الحكومة الإنكليزية ، لجمع المال المخصص لدفع فدية ريتشارد قلب الأسد ، اكتفت بأن يقتطع سلفاً جزءاً من أكداس صوف الأديرة الكبرى . ولكن كبار الملاكين لم يكونوا وحدهم في إنكلترا للمضاربة على الصوف . إن قطيع الفلاحين كان على الأقل ضعف قطيع الأمراء . وفي هذه المستغلات المتواضعة ، كان النشاط الرعوي مدعوماً من قبل سكان المدينة حسب طرق مطبقة عن سعة أيضاً على القارة .

إن اللحامين وتجار الصوف وبورجوازي كل مهنة الذين يتمنون فقط وضع ما لهم بالفائدة ، كانوا يسلفون الفلاحين بالدوايق . وهكذا تألفت رابطة بين رأس المال والعمل ، نظمت بعقد يسمى في جنوب فرنسا ، عقد الشاكرية (غازاي)^(١) وبموجبه يقدم الرأسمالي القطيع ؛ والمربي ، المراعي التي يتصرف بها عماله ويأخذ على عاتقه نفقات الاستغلال كلها . وفي غاية ثلاثة أو أربعة أعوام ، حسب العقود ، يجب أن يعيد للمالك القطيع سليماً ، والأرباح المتحققة في غضون ذلك من بيع الصوف ونمو القطيع تقسم مناصفة . وأحياناً كان العقد قرضاً مقنعاً ؛ فمقابل قرض رأسمال ، كان المتصرف بالمال يملك القطيع ؛ وفائدته تتمثل بنصف ثمار التريبة ؛ ويستطيع المقرض في آخر العقد أن يسترجع قطيعه ، إذا دفع له رأس المال . ومهما يكن ، فإن هذا النموذج من العقد يمثل شكلاً من الاعتماد الريفي الذي يحول عمل الأرض ويعطيه صفة مضاربة .

وكانت نتيجة هذا التطور الاقتصادي ، تبديل العلاقات بين مختلف طبقات المجتمع لأنه أدى في المدينة ، كما في الريف ، إلى تحويلات هامة في توزيع الدخل أي الموارد أو الغلات .

(١) غازاي Gasaille .

الفصل الثاني

المدن

(الشعب الطرير) و (الشعب النحيل)

في شعب المدن ، في الفلاندر كما في إيطاليا ، نمت الفروق الاجتماعية . لقد تعايش فيها عالمان ، كما دلَّ على ذلك المؤرخ الإيطالي أ . سابوري : من جهة ، العالم التقليدي ، وبالتالي العصر الوسيطى أساساً بنودجه في نظام الحرف . وهذا هو عالم المعلمين والصناع ، عالم المشاغل التي لا عدَّ لها ، حيث يشتغل جمهور الصناع الأميين في الغالب وغير المثقفين لسوق ضيق على حدود مدينة أو حي ، مستعملين ، كوسيلة مبادلة (البيكولي)^(١) ... وإلى جانب هذا العالم الصغير يعيش من جهة أخرى عالم طليعي . نرى فيه تنظيم الشركات التجارية الدولية ، صاحبة المستودعات الغنية التي تتكدس فيها البضائع الثمينة ، ورجالاً مجهزين بتجربة مديدة وثقافة طلعة ومتنوعة ... يقومون بأعمال تجارية ومالية مع المراكز الاقتصادية الأساسية الهامة في بلاد ما وراء الجبال وما وراء البحار . وذلك بدفعهم بغزارة الفلورينات الذهبية والنقد الجاري في جميع بلاد العالم ... إن رجال الدراسة ، الذين لم يراجعوا كمصدر غير أنظمة الحرف ، انتهى بهم الأمر إلى رؤية وفهم عالم واحد ، عالم الأصناف الحرفية . ومع ذلك ، فإن هذه القوانين بالنسبة للصناع كانت إجبارية في الواقع ... بينما كان لها بالنسبة لكبار التجار قيمة شكلية أكثر منها جوهرية .

(١) بيكولي Piccoli .

مدن شمال - غربي أوربة

أ - لفيف أغنياء التجار يفرض سيطرته الاقتصادية

في المدن المقمشة ، في شمال - غربي أوربة ، وجدت أوليغارشية (أقلية) من أغنياء التجار ، وصفها المؤرخون المحدثون بلفيف بسط سيطرته الاقتصادية والسياسية على جمهور الصناع والعمال واستغل عملهم . وهذا الفريق الاجتماعي يضم أغني بورجوازي المدينة ، ويبقى منفتحاً لكل الذين يمكنهم أن يرتفعوا لمستوى ثروتهم . وأعضاؤه يتمتعون بامتيازات اقتصادية عديدة ، فلهم وحدهم حق الدخول إلى سوق المدينة لبيع الجوخ ؛ وهم وحدهم أعضاء الصنف ، ويستطيعون بهذه الصفة تصدير الأجواخ . ولما كانوا وحدهم يتصرفون برؤوس أموال كافية للتموين بالمادة الأولية لصناعة الصوف ، كما من جهة أخرى على الصناع أن يملأوا إجبارياً عن طريقهم لتصريف إنتاجهم المنتهي في الأسواق البعيدة ، إن هؤلاء التجار ، الذين يسكون بطرفي سلسلة الصنع ، كانوا في الوقت نفسه متعهدين يعطون العمل ، ولا يمتنعون عن إساءة استعمال هذا الوضع ، وذلك بانتقاصهم أجور المأجورين ، وزيادتهم قيمة الفوائد الطبيعية التي تقوم مقام جزء من الأجرة . وأخيراً ، باعتبارهم ملاكي دور عديدة للإيجار في المدينة وفي الأحياء المتطرفة ، لذلك كانوا سادة الأجور لهذه الدور . إن تجارة وعمل القماش ساعداً على إشادة أضخم الثروات . ولكن يقع أحياناً أن التجار المغتنسون أو ورثتهم يثرون فيما بعد هذه الثروة بشكل آخر للتجارة ، ويتعاطون تجارة المال . أو أيضاً ، يضعون رؤوس أموالهم ثناً للأراضي . وهكذا فإن أشهر وربما أغني جميع تجار مدينة دوويه ، جان بوانبروك يملك فندقاً في دوويه وعدة دور للإيجار يؤجرها ، وأراضي للبناء في طرف المدينة ، ومطحنة وعدة أملاك ريفية لزراعة الحنطة والعظم . وفي مدينة أراس فضلت أسرة كريسين أن تتجه شطر تجارة المال .

وتحت هذا الفريق ، توجد فئة من صغار تجار الأقمشة الذين يسمون هم أيضاً العمل إلى المستحدثين (الصناع) ، ولكنهم نظراً لضعف ثروتهم ، لم يكونوا إلا وسطاء بين هؤلاء الصناع وكبار التجار . والفريق الثاني الاجتماعي الفردي بوضوح هو فريق معلمي الحياكة . لقد كانوا في الغالب يملكون مجموع أدوات العمل ، ويشغلون في مؤسستهم بمساعدة صانع يثقون به وبعض الخدم . ويؤلفون فئة اجتماعية معتبرة أيضاً نوعاً من أرستقراطية العالم العامل ؛ وللوصول إلى المعلمية ، يجب في الواقع أن يكون الواحد بورجوازي مدينة أي أن يملك فيها داراً ويقبله قضاة البلدية . ويأتي بعد ذلك على سلم أدنى قليلاً ، اللبادون (من صناع اللباد) ، والصباغون ، وصناع التحضير ، والمعلمون يصنعون إنتاجهم في مشغلهم الخاص ، ولكن أجرتهم يدفعها لهم في الغالب معلمو الحياكة الذين يوزعون عليهم العمل . وفي أدنى السلم الاجتماعي يوجد أخيراً فريق ثالث يتألف من (عمال الصوف) ومن خدم الحرف المختلفة . والأوائل مكلفون بعمليات تحضيرية ، يشغلون في المنزل ، وتدفع لهم أجورهم بشكل بائس على العمل والسعر المألوف المتفق عليه . ويمنعون من أخذ عمل من عدة أشخاص معاً . وهذه الأعمال مخصصة عموماً لليد العاملة النسوية ، وفي الغالب فلاحات من الريف المجاور . وهذه حال المشاطات اللواتي وصفهن الشاعر والنحوي الإنكليزي جان دو غارلاند في قاموسه : « إنهن جالسات في ركن النار ، بالقرب من البالوعات والمستنقعات ، لابسات أردية مبطنة بالفرو رثة ممزقة ، ومبلايس قذرة » . وهذه هي الطبقة العاملة الكادحة الدنيا في صناعة الأقمشة . والخدم هم العمال المأجورون الذين يشغلون في مشغل المعلم ومعه . وهم قلة في كل مؤسسة عمل ، لأن المشروع أساساً له صفة عائلية . ومن جهة أخرى ، إن الأنظمة المدنية تجدد عدد العمال الذين يمكن للمعلم أن يستخدمهم . ويبدو أن هؤلاء الخدم كانوا عند الانطلاق ، في البدء ، عمالاً يدويين بسطاء يتعلمون الحرفة قليلاً قليلاً .

ويساقون حسب عقد بسيط شفهي لعمل أو لأسبوع ، وفي الغالب ، متى تنتهي هذه المهلة ، يستخدمهم المعلم من جديد . والأجور محددة من قبل أتباع القضاة البلديين الذين يمنعون ، من حيث المبدأ ، كل دفع عيني (طبيعي) . وفي الواقع ، إن حالة هؤلاء الخدم ضعيفة جداً . ففي كل مرة ينتهي عقدهم ، يجب عليهم أن ينتظروا مع الآخرين ، على الساحة العامة حيث يجري السوق ، حسب إرادة المعلم الطيبة . وعلى هذا توجد يد عاملة عامة عديدة جداً . وفي الحقيقة ، إن عمال المدينة يساقون مسبقاً قبل الأجانب . ومن جهة أخرى ، وبالرغم من هذه الأنظمة ، لأنها يمكن أن تفرض شروطها على المستخدمين المهددين بالبطالة دوماً ، فإن المستخدمين يعطون جزءاً من الأجرة العينية . لقد كان البؤس عظيماً في هذا العالم العمالي ، ويجد صدى له في بعض الأوساط الأدبية ، كما في رواية كريتيان تروا (١١٧٢ م) وفيها يصور بواقعية فقر عاملات النسيج .

وأخيراً لقد كان خدم وعمال الصوف موضوع عزل حقيقي ، فليس لديهم الحق في سكن المدن ، وإنما في أطرافها ؛ وفي كل مساء تغلق أبواب المدينة وراءهم .

ب - احتفاظ النبلاء بالحكم المدني

لقد توصل الأشراف ، لتأمين نفوذهم الاقتصادي بشكل أفضل ، عن طريق ثروتهم ، لأن يؤمنوا لأنفسهم حصراً الإشراف تقريباً على الحكم المدني ، وعلى القضاء البلدي الذي يدير المدينة . وكانوا وحدهم يتصرفون في البدء بالأوقات الكافية للاهتمام بالشؤون العامة . ومن جهة أخرى ، نجحوا منذ آخر القرن الثاني عشر بإقامة أنظمة انتخابية في كل المدن تفضلهم على غيرهم ؛ ففي الأصل كانت وظيفة القاضي البلدي في كل مكان على مدى الحياة تقريباً ؛ ولما كان هذا يؤلف التزاماً ثقيلاً جداً ، لذلك أصبح فيما بعد سنوياً ؛ وفي الواقع ، أن الأنظمة

التي تتغير حسب المدن ترجع دوماً إلى إقامة نظام يقضي بأن يعين المجلس أعضاء : وهكذا نرى دوماً أن عائلات الأشراف نفسها تمارس دورياً وظائف القضاء البلدي . إن جان بوانوبروك كان قاضياً بلدياً لمدينة دوويه على الأقل تسع مرات . وعلى هذا فإن الطبقة الموجهة تستطيع أن تفرض سياستها . وكان القضاء البلدي ، في الواقع ، محكمة عامة مكلفة بالقضاء من حيث المبدأ باسم الكونت ، بالدعاوى التي تهم سكان المدينة . والقضاة البلديون الذين يقومون بالقضاء ، يقيمون العدل ، ولا يتوانون في خدمة مصالح الطبقة . ومن جهة أخرى ، كان للقضاة المدنيين دور مالي : كانوا يعدون موازنة المدينة ، ويحددون الرسوم على يسوع البضائع ، ويقررون ضريبة العامة واللجوء إلى القروض ، ولا يندران ينسوا وضع اسمهم على قائمة المكلفين بدفع الضريبة .

إن الإدارة المالية لنبل المدن مكروهة ، ولكن لما كان القضاة البلديون غير مسؤولين إلا أمام أخلاقهم ، لذلك فإن تضامن الطبقة يلعب في إبعاد كل حكم بحقهم . وأخيراً إن لوظيفة القاضي البلدي دوراً تشريعياً يسمح له مباشرة أيضاً بأن يفضل مصالح تجار الأقمشة ، وهو في الواقع ، الذي يحدد قواعد الصنع ، وأنظمة العمل ، والأجور ، والأسعار . فثلاً يكون سعر الكلفة عالياً جداً ، وليترك لهم للتصدير هامشاً عريضاً مفيداً ، يتدخلون على مستويين : من جهة ، في دور الارتفاع البطيء للأسعار ، يحاولون أن يحددوا سعر السلع الغذائية الأساسية ليكنهم إبقاء الأجور منخفضة تقريباً . وهذا التحديد يضر مصالح تجارة التغذية التي ينتمي ممثلوها ، كالصناع ، إلى الطبقات الوسطى في المدينة ، ويؤدي لأن يكون أول سبب في التوتر . ومن جهة أخرى ، يحاول القضاة البلديون تحديد الأجور في الحد الأدنى . وبما أنهم لا يستطيعون ذلك دوماً ، وهم أنفسهم يستخدمون من المأجورين ، لذلك يقومون بسهولة على هذا الصعيد

بتنازلات ، ويسقط ثقل هذه الأجور على المعلمين المستحدثين ، فيكون هؤلاء مستائين أيضاً .

وأخيراً ، إن الأوليغارشية التجارية تعاكس بكل قواها إحداث أنظمة لصنف صناعات الأقمشة في المراكز الكبرى .

وفي المدن الأخرى ، في الشمال الغربي لأوربة نجد الحالة نفسها : ففي باريس ، مثلاً ، حيث لا توجد ناحية (كومون) وإنما قاضي ملكي يقوم بوظائف قضائية ، كان كبار التجار يسيطرون أيضاً بواسطة (عصبة تجار الماء) أي التجار الذين يستوردون ويصدرون بواسطة نهر السين . وكان زعيم هذه العصبة قديراً جداً . وختمه ، سفينة ، وشعاره ، « العوم دون الغرق » ^(١) أصبحت أسلحة وشعار باريس .

وبالمقابل ، خضع الصناع لنظام ضيق جداً . وقد نَقَّح القاضي الملكي في باريس إيتين بوالو هذا النظام بين ١٢٦٠ و ١٢٧٠ م .

ج - الثورات المدنية

إن التوتر الاجتماعي بين الأوليغارشية التجارية من جهة ومن جهة أخرى ، معلمو الصناعات والطبقة الكادحة المدنية ، مافتئ ينمو في غضون القرن الثالث عشر . ومنذ منتصف هذا القرن ، انفجرت إضرابات حقيقية في المراكز الكبرى ، وإن تسوية دوويه تبرهن على ذلك ، وتمنع ، تحت طائلة الغرامات أو النفي ، التآلب بين العمال ، و (ترك العمل) أي الإضراب ، وتحرم أيضاً (منع الآخر من العمل) . ولكن هذه الانتقطاعات المدبرة للعمل ، لا يمكن أن تكون إلا حركات ثورية عابرة ، لأن الطبقة الكادحة المدنية كانت فقيرة جداً ومجبرة على معاودة العمل بسرعة . وأصبحت الحالة أكثر خطراً عندما استلم الحياك توجيه الحركات الثورية . وهؤلاء الصناع (المستحدثون) الذين وجدوا

(١) Fluctuat nec mergitur .

على رأس تسلسل العمال ، متأثرون بهرطقات ذات طابع إنجيلي تؤلف شكلاً لاحتجاج جماعي ضد تفاوت الثروات . وكان عالم الحياك أول عالم نظم في كل مكان . وقد أخذ فيه ظهور الأوصاف المهنية طابعاً ثورياً في الوقت الذي زادت فيه المصاعب الاقتصادية والسياسية والأحقاد الاجتماعية في الثلث الأخير من القرن . إن الحرب التجارية الإنكليزية - الفلاماندية بين ١٢٧٠ و ١٢٧٥ م أبطأت وصول الأوصاف الإنكليزية ورفعت أسعار المواد الأولية ، وفت البطالة ، وتفجرت الاضطرابات في دوويه وتورنيه ، وبروج وإيپر ، وفي هذه المدينة الأخيرة ، يرى أن تحديد الأجرة ، في الحد الأدنى لعمال الصوف ، تسقط ثانية على المعلمين الحياك ، الذين كانوا في حالة صعبة ، قد أثار مشادة . وانتشر الثائرون ، وبخاصة الحياك في المدن يصرخون (كوكيرول) أي (ابتهاج جماعي) ، وطردهوا القضاة البلديين حتى بيوتهم وانصرفوا للنهب . ولكن الثورة كانت دون غد ، لأن التآلب الموجه ضد لفيف الأشراف قد لغم بالانقسامات الداخلية . والثورة الحقيقية حدثت أجلاً بمناسبة حروب الفلاندر التي قام بها فيليب الطيب . فقد ضاعف العامل الكبسي تدخلاته لدى تابعه كونت فلاندر . والمنازعات الاجتماعية التي قسمت سكان النواحي بدت تشجع نواياه . ودعم عمال الملك أغنياء البورجوازيين ضد الحياك ؛ وفي ١٣٠٢ م دبح الحامية الفرنسية في بروج ، وسحق جيش الفرسان الفرنسيين من قبل قادة العمال الفلامانديين في كورترية . وأدت هذه الظروف إلى سقوط الأوليغارشية التجارية في مدن كثيرة حتى اضطرت ، على الأقل ، أن تقبل بمشاركة معلمي المهنة بالحكم . وفي بروج أخذت مطالبات الشعب أيضاً نبرة مهددة .

المدن الإيطالية

وفي المدن الإيطالية حدث تطور مماثل : فقد كانت الحياة الاقتصادية يسيطر عليها في الأصل أرستقراطية مؤلفة من بورجوازيين أغنياء ، أصحاب سفن وتجار

صيارفة ، ولكن الفريد أكثر من ذلك أيضاً ، أن النبلاء ، كبار ملاكي الأفيان ، لم يترددوا بوضع رؤوس أموال في التجارة . وبالعكس ، إن كبار التجار الذين قاموا بأعمال مربحة جيدة وضعوا جزءاً من ثروتهم بعيداً عن صدف التجارة : اشترؤا أراضى ، وشادوا بيوتاً لتأجيرها ، وأقرضوا المال ، وكالنبلاء كانوا يعيشون في منازل تعرف من بعيد بأبراجها العالية ، ويحملون أسلحة ويكافحون وهم على صهوات الجياد ، ومن هنا جاء اسم العسكر Milites ، الذي أطلق على أعضاء هذه الطبقة الأرستقراطية المدنية . وهذه الأشرية تسيطر على كل الحياة الاقتصادية في المدينة ، وكما في الفلاندر ، تمارس ضغطاً قوياً على عالم المستحدثين ، من صغار أصحاب الدكاكين والعمال . ومنذ أصل الكومونات (النواحي) احتكرت الأرستقراطية أيضاً حكم المدينة ؛ وكفت مجالس الشعب العامة المجردة من السلطة عن الاجتماع بسرعة . والحكومة ، هيئة قناصل أو مجالس كانت مأهولة بالعسكر فحسب . وبفضل المنازعات بين النبلاء والبورجوازيين في داخل الطبقة الموجهة ، بدأ البوبولو ، الشعب ، بالظهور على المسرح السياسي ، في القرن الثالث عشر . وطالب بالمشاركة في حكم الناحية (الكومون) كما طالب بحق الجلوس في المحاكم . وفي الواقع ، لم يكن القصد اتجاهاً ديموقراطياً بحق : لأن الطبقة العليا للشعب (الشعب الطرير) ، الطبقة التي اغتنمت بالصناعة ، أعضاء الأصناف المهنية ، التي تتمتع باعتبارها خاص (الفنون العظمى) ، نجحت في الحصول على المشاركة في الحكم الذي لم تشأ فيه المشاركة مع (الشعب النحيل) . وفي كل مكان يحدث فيه هذا التطور ، كان يؤدي إلى وصول الشعب الطرير إلى السلطة . إلا أن الحركة لم تنجح سواها في كل مكان : ففي البندقية ، توصلت أرستقراطية أصحاب السفن بتضامنها إلى الحفاظ على نفوذها ، أمام شعب طيع وخال من التنظيم . وفي جنوة أيضاً ، دخل الشعب في نضال بين شيع الطبقة النبيلة ، وكان دوره محدوداً . وفي الحقيقة ، كان لاهتين المدينتين بنية اقتصادية واجتماعية تختلف عن البنيات الأخرى ، وذلك يرجع إلى الأهلية الضعيفة

التي كانت لطبقة المستحدثين . وبالمقابل انتصر الشعب الطرير في مدن لومبارديا وتوسكانا : ففي ميلانو ، استولى العمدات ، على السلطة ومارسوها باسم الشعب . وفي فلورنسا ، حصلت الفنون الخمسة العظمى على سبعة عشر مقعداً في المجلس على حين أن الفنون الصغرى لم يكن لها غير خمسة ممثلين . وهكذا فقد توصلت أرستقراطية جديدة إلى السلطة ، وأدى صهر بطيء بين أعضائها وأعقاب العائلات الفروسية القديمة إلى تشكيل طبقة موجهة واحدة .

الأرياف : الأجلاف والأرستقراطية الطينية

إن المجتمع الريفي ، مجتمع الفلاحين والملاك النبلاء ، قد تحول هو أيضاً بشكل عميق في القرن الثالث عشر . ودخلت منتجات الريف بصورة عريضة وواسعة في دورة المبادلات . وعرف سعرها ، كسعر الأرض ، ارتفاعاً منتظماً خلال هذا القرن الثالث عشر . وكل الذين يتصرفون بفائضات زراعية يمكنهم بيعها ، أفادوا من هذا الظرف الملائم .

وبالمقابل ، إن الفلاحين والنبلاء كانت لهم أيضاً حاجات جديدة لا يمكنهم إرضائها أو إشباعها إلا بالمال . ودفعتهم تسهيلات الاعتماد إلى نفقات لا تستطيع مواردهم العادية تغطيتها . ولذا فإن تغلغل النقد في الأوساط الريفية أدى إلى تغير العلاقات الاقتصادية بين مختلف الفئات الاجتماعية التي تعيش من الأرض ، وبالتالي إلى تغيير الظروف الاجتماعية .

تحول اقتصاد الأملاك

كان سلوك الأمراء الاقتصادي يسيطر عليه قلق كسب المال بغية سدّ حاجاتهم للبذخ . وإن اقتصاد الدومين من النموذج القديم ، الذي يهدف إلى الحصول من الأرض التي يعمل فيها من بيده الأرض على الأساسي من المحاصيل

الضرورة لغذاء الأمير وعائلته ، قد تمّ تجاوزه . ومنذ الآن فصاعداً ، كان الأمراء يتمنون الحصول من مستأجر الأرض على دنائير أكثر من العمل أو من السلع الزراعية . وفي الوقت نفسه يظهرون كسباً جديداً من فائدة إعمار ملكيتهم من الأرض عندما يمكن لهذه الملكية أن تجهزهم بحاصيل تمكن المتاجرة بها .

وبالتالي ، فإن الملاك ، دون التخلي تماماً عن السخرة ، يحاولون أن يقلبوا الخدمات والإتاوات إلى دخل مالي . وفي دفع الضرائب ، يحدث في الغالب أن يدفع الفلاحون لهم المال عوضاً عن الحبوب أو بعض الحيوانات الداجنة ، من طيور وغيرها ، التي يعطونها عادة . وكان بعض الفلاحين أكثر همة من غيرهم ، وأخذوا بفكرة الحفاظ على الفائض الذي يمكن أن يحملوه إلى السوق . أما الأمراء فقد استهواهم في البدء أخذ النقد الرنان ، ولكن ربح الاستبدال ظهر بسرعة أنه كان باطلاً جداً . ولما كانت الأسعار آخذة بالازدياد دوماً ، فإن الدخل الذي ظلّ ثابتاً يمثل في آخر الأمر أجرة بسعر وهمي تافه . وعلى سبيل المثال ، نرى حوالي ١٣٠٠ م ، أن حصة الضرائب لا تمثل أكثر من ١ ٪ من الموارد السنوية لدير القديس - دوني . ولتعويض هذا الهبوط في إيجار الأرض ، حاول الأمراء أن يفيدوا بشكل أفضل من مصادر أخرى للدخل ، مثل رسوم انتقال الملكية من يد ليد . وقبل الأمراء طوعاً في القرن الثالث عشر بأن يجزئ المستأجرون قطع أرضهم لبيعوها منها أو يورثوا منها قطعة أو جزءاً ، وذلك لأن الفرصة تتاح لهم لأخذ رسم الانتقال نقداً . وبالشكل نفسه حاولوا أن يزيدوا أرباح الإمارة العادية ، المرتبطة بالسلطة التي يمارسونها على الناس ، ورافق ذلك ميل إلى تثبيت هذه الرسوم الأميرية ؛ ففي إيطاليا منذ القرن الثاني عشر ، وفي فرنسا في الآجل قليلاً نمت حركة (تحرير) : وهي أن يبيع أمير القرية للمجموعة الفلاحية ، مقابل مبلغ هام من المال ، ميثاق حرية . ويحقق بذلك مباشرة ربحاً كبيراً ولا يتخلى كذلك عن المبالغة في رفع كل المتطلبات ، حتى أنه لا يقبل دوماً

بإنقاصها . وأصبحت هذه المبالغة في المتطلبات منتظمة ، وهذا ما كان يرجوه الفلاحون الراغبون في معرفة ما يجب عليهم دفعه . ومن جهة أخرى ، كان الفلاحون أنفسهم يوزعون ضريبة القامات بين المنازل .

وهكذا فإن العلاقات بين الأمراء والفلاحين وضعت منذ الآن تحت مؤثر المال . ولكن هل أصبح الأمراء حقاً أصحاب مداخيل من الأرض ؟ إن بعض حالات تقسيم الاحتياطي من الأرض ، استطاعت أن تترك مثل هذا الظن . وفي الواقع ، رأى الأمراء الملاكون أن من الأفضل إحياء هذا الاحتياطي ليجنوا من بيع المحاصيل أرباحاً متزايدة . ففي إنكلترا استأنف الأمراء الكنسيون العودة إلى استثمار مباشر للملك بأيديهم ، حتى أنهم طالبوا بسخرات هامة من المستأجرين . وهذه الممارسة الأخيرة ، التي كانت آنذاك في غير زمانها ، ظلت قاصرة على الأديرة الإنكليزية الكبرى . وبصورة عامة ، في إنكلترا ، كما في القارة ، كان اللجوء إلى العمالة المأجورة (طبقة الأجراء) من قبل صغار ومتوسطي الملاكين الذين يوجهون بأنفسهم إحياء الاحتياطي .

وأحياناً يفضل الأمير ، عوضاً عن إدارة الإمارة مباشرة ، أن يؤجرها . وفي القرن الثالث عشر ، حقق إيجار الأرض تقدماً كبيراً على القارة ، وفي الوقت نفسه تحول ، فبعد ١٢٥٠ م ، تراجع التأجير على (حياتين) بسرعة لصالح العقود القصيرة الأجل (٦ ، ٩ ، ١٢ أو ٢٤ عاماً) . كان الأمير ينتظر ، في الغالب ، ممن يقومون عوضاً عنه بالاستثمار ، نصيباً من المحصول ، وأن يوضع جانباً له في النهر (شونة) بعد الدراس ؛ وعلى هذا النحو يقيم العقد مقاسمة . وكان هذا النظام يتمتع بمحظوة كبيرة في القرن الثالث عشر ، لأنه سمح للمعلم (السيد) بأن يستفيد من زيادة الإنتاجية ومن ارتفاع الأسعار الزراعية .

وفي هذا الظرف الجديد ، كيف أصبحت حالة الفلاحين ؟ لقد تأثروا هم

أيضاً بالتداول السريع للعملة (النقد) . وإذا ساعدهم بيع بعض فائض عملهم في الحصول على بعض الدوانق ، فبالمقابل كان يفرهم الشراء أكثر من أجدادهم : حيوانات ، غط زراعة ، أداة أو لباس مصنوع في المدينة . ومن جهة أخرى ، إن نهوض الضريبة أجبر كل واحد على أن يكون تحت تصرفه نقدٌ ليرضي جباة الضرائب ، وإذا كان شراء وثيقة التحرير (الاستثناء) - مناسبةً تكلف مصاريف ضخمة - قد ساعد نوعاً ما على تحديد الضريبة الأميرية ، فإن تقدم السلطة الملكية أو الكونتية ، انطلاقاً من بداية القرن الثالث عشر ، قد أثقل عليهم بأعباء جديدة ، تحت شكل ضرائب القامة الثقيلة والمتناوبة . ولسد كل هذه الحاجات التي لا تغطي الواردات بشكل كامل ، كان الفلاحون مضطرين للقرض : هذا فضلاً عن أنهم يرغبون في الغالب بتوسيع أو تحسين ملكهم بغية الإفادة من ارتفاع الأسعار الزراعية . ويمكنهم الحصول من بورجوازي على استثمار رأسمال صغير في مستغلهم ويوقعون معه عقد الشاكرية . ولكن القصد في الغالب قروض استهلاك تجرى لدى اللومبارديين ، واليهود أو جارا أكثر يساراً . وهكذا نرى في ١٣٠٠ م أن ٦٥ ٪ من ديون المرابين في مدينة برنيان قد عقدت من قبل فلاحين ، وهؤلاء يدفعون مقابل دينهم خلال عدة سنوات جزءاً من محصولهم لدائنهم . وأخيراً هناك ممارسة أخرى انتشرت في القرن الثالث عشر ، وهي ممارسة الدخول المتشكلة ، فمقابل المبلغ الذي يكون المستقرض بحاجة إليه ، كان يتخلى عن دخل سنوي ودائم (يشكله) على أرضه . وهكذا فإن الفلاحين لا يقيدون إلا جزئياً من ارتفاع الأسعار الزراعية ، والاقتطاعات تجري على أرباحهم ، من قبل الأمراء ، وسكان المدينة ، وعمال إدارة الضريبة الملكية .

الاضطراب في سلم الثروات

إن الدور الجديد ، الذي لعبه المال ، أدى إلى تغييرات هامة في عالم الفلاحين كما في عالم النبلاء .

من جهة الأرباح ، ومن جهة أخرى الدين أو الاستدانة ، كل شيء عجل التطور الاقتصادي والحقوقى للفلاحين في اتجاه فارق متزايد بين الأغنياء والفقراء ، وبين الأحرار وغير الأحرار . لقد حصلت الجماعات الفلاحية الموسرة أكثر من غيرها على فوائد من وثائق الإعفاء (الاستثناء) . فقد حذفت عن أعضائها الخدمة الشخصية . وبالمقابل ، يلاحظ في كل مكان تقريباً ، عودة العبودية ثانية ، والأسباب مختلفة : إن إعلان حرية بعض الأجلاف ، هو « بالمقابل الدلالة على أن الآخرين مصفدون بأغلال العبودية » . ومن جهة أخرى ، إن نهضة الدراسات الحقوقية شجعت حالة وعي يانعش مفهوم العبودية القديم ، ولكن بخاصة أن فقر جزء من مجموعة الفلاحين ساعد على ظهور الأقدان المرتبطين بالتراب ، وبالسخرة دون رحمة : وهم نادرون تقريباً في فرنسا ، وكثير في إنكلترا .

ومع ذلك فإن جمهور الفلاحين أفاد من إجراءات التحرير من العبودية ومن ارتفاع الأسعار الزراعية معاً . وهذا لا يعني أن المستوى المتوسط للحياة المادية للأجلاف قد تحسن بشكل محسوس منذ القرن الحادي عشر ، وأن الموارد الجديدة تكاد تعوض النفقات الجديدة . ولكن يوجد الآن فوق هذا المستوى المتوسط جماعة فلاحين أغنوا ، وهم مزارعو الأملاك الكنسية ؛ فقد استطاعوا بمهارة أن يوسعوا أرضهم ، وعرفوا كيف يقبلون على استثمارات مفيدة ، مثل تربية الحيوانات ، وأصبح بعضهم غنياً .

وهذا الاختلاف في الفئات الاجتماعية ، في داخل جماعة الفلاحين ، كان في البدء ملائماً للأمراء الذين أفادوا منه بنهب المال ممن هم أكثر غنى ومطالبة الأكثر فقراً بالخدمات الثقيلة . وفي الواقع ، على الرغم من أن أرباح الفلاحين تسيل في القسم الأعظم منها نحو صناديق (خزائن) الأمراء ، فإن ثروات الأمراء ، هي أيضاً ، مهددة في الغالب . لقد تذوق الأمراء حياة البذخ ، وأحبوا احتساء الخمر ،

والاستعراض بالملابس الجميلة ، في البلاطات وفي المجالس . وبنو استعمال المال ، توصلوا إلى تشكيل مهر بناتهم أو هباتهم التقية للكنيسة تحت شكل مبلغ من المال (النقد) . وأخيراً إن الحرب نفسها كانت مصدراً لنفقات متزايدة . ففي أوربة ، تحولت الحرب ولعبت القصور الحصينة دوراً أساسياً ، لأن فن التحصين والهجوم حقق تقدماً كبيراً . وأخذ سكان القصور يننون بالحجر . وفي الجيوش زاد مكان المشاة ، أو من هم مرتزقة يستأجرهم الكونتات أو الأمراء . وتجهيز الفارس نفسه أصبح مكلفاً أكثر فأكثر . وفي آخر القرن الثالث عشر ظهرت الدروع المصفحة التي يمكن أن تحمي الفارس من السهام . وأفقر الكثير من عائلات الفرسان بخاصة بسبب الحروب الصليبية التي نزلت لأن تصبح مؤسسة دائمة .

وإزدادت إيرادات الأرض التي يتصرف بها الأمراء ، إزدادت بسرعة أقل من النفقات التي يجب أن يواجهوها . إلا في إيطاليا ، حيث أسهموا بالنشاط التجاري ، ولم يكن لهم مصدر آخر للإيرادات ، ولذا كانوا مضطرين للقرض . وأصبح دين الطبقة النبيلة مزمناً منذ منتصف القرن الثاني عشر . وللحصول على قروض ، توجه النبلاء الملاكون للمؤسسات الدينية ، والبورجوازيين ، والمرايين ، وأصحاب المصارف الإيطاليين .

وكان الأمراء مضطرين ، عندما ينضب اعتمادهم ، إلى ثقل قطع من أرضهم . وهذه الأراضي النبيلة والحقوق المرتبطة بها تنتقل على هذا النحو غالباً إلى فلاحين أغنياء أو إلى رؤساليين بورجوازيين يبحثون عن تثير (حقيقي) . والآثار الأدبية المؤلفة للجمهور النبيل ، في القرن الثالث عشر ، مفعمة بالتهكم حيال الفلاحين الذين يقيمون في قصور المزارع ويحاولون أن يعتبروا أناساً طيبين الأصل . إن الجلف أو التاجر المغتني ، اللذين اكتسبا إمارة يباشران العيش بنبيل . وعلى سبيل المثال يذكر الأستاذ دوبي في مؤلفه (الاقتصاد الريفي وحياة الأرياف في الغرب في العصر الوسيط) ، أن تاجراً من كلوني ، في ١٢٦٥ م ، حصل مقابل قرض غير مسترد من ٨٠٠

ليرة ، على حق التصرف في قصر اعتبر إقطاعاً من دوق بورغونيا ، مع كل العدالة العليا والسلطات على جميع التابعين مباشرة للأمير .

محاولة رد فعل الطبقة النبيلة

لقد أحست الطبقة النبيلة بالفقر الذي ألم بها وشهدت صعود أغنياء جدد ، فرسمت رد فعل دفاعي . وللجزم رقة الحال في الأموال المتوارثة تخلت الأسر الأميرية قليلاً قليلاً عن العرف في التقسيم المتساوي بين الورثة . وكانت الحصة الكبرى مخصصة للابن البكر ، أما الباقيون فينصرفون للدين . وفي الوقت نفسه يحاول أمراء سلاسل الفروسية القديمة أن يمتازوا عن الحديثي الغني . وبما أنهم ليسوا الوحيدين لتلك وقف الثروة ، وبالتالي لا يقدرون على تسليح أنفسهم . فقد زعموا أن يؤسسوا تفوقهم على ميلاد يخولهم امتيازات خاصة . ونزعت الطبقة النبيلة إلى تحويل نفسها إلى طبقة مغلقة . وأول مؤشر لهذه الحالة الجديدة الفكرية ظهرت في قاعدة فرسان المستشفى (الاسبتارية) (١١٤٢ م) ؛ فقد تقرر أن يساق الإخوة الفرسان فقط من بين أبناء الفرسان أو من العائلات الفرسانية . ومن بعد ، نظراً لأن أعقاب الفرسان لا يملكون الوسائل لتسليم الدروع لأبنائهم ، فقد تبناوا ، لتعيين هؤلاء ، تعابير جديدة تدلّ على ميلادهم النبيل ، وهذه التعابير هي : دونزو أو داموازو وسكوتيفير أو أي مرشح للفروسية . وأخيراً كان النبلاء أوفياء لمثل أعلى يقاومون به البورجوازي أو الجلف . كانوا فطنين ، مقتصدين ، كيسين . وفي (رواية الوردة)^(١) ترى هذه (الروح) النبيلة موضحة :

(١) قصيدة تحتوي جزأين :

الأول : قصة رمزية لمغامرة حب ، مؤلفها غليوم دولوريس Guillaume de Lorris (نحو ١٢٣٦ م) .

الثاني : قصة هجائية وتعليلية ترجع إلى جان دو مونج Jean de Meung (١٢٧٥ - ١٢٨٠ م) .

« أريد وأمل أن تطرد من سلوكك كل عمل دنيء . والعمل الدنيء يصنع أدنياء . والأدنياء ، الذين أكرههم ، خونة لأمرهم ، سيدهم ، وغير أكفاء لخدمتي ، غير أكفاء لعواطف ناعمة ... تجنب أن تلفظ كلمات خشنة وشعبية ، وإياك أن تلفظ بشفتيك أشياء قبيحة . ولا أعتبر من يتكلم لغة عامية مبتذلة رجلاً مهذباً ... يجب أن تكون لبقاً ، واللباقة ليست مؤشر كبرياء . اعتن حسب إراداتك بملابسك وأحذيتك ... واحتذ بأحذية جديدة لها أشرطة ، وعندما يراك الأدنياء تأخذها ضيقة جداً وتمر أمامهم يتساءلون ، مستهزئين بك ، كيف استطعت أن تدخل فيها وتخرج منها . وفوق كل شيء فر من البخل ، وتعلم العطاء . »

إن مفهوم النبيل ينفصل إذن عن الفروسية . النبيل صفة نوعية تنتقل بالدم وتعطي حقاً بامتيازات شرفية، لحمل الأسلحة أو لبس بعض الألبسة . وتخول (اللطافة) . ولا يبدو في الواقع أن رد الفعل النبيل هذا قد بلغ غايته كاملاً ، والطبقة النبيلة لم تصبح طبقة مغلقة حقيقة . أما شُراة المال النبيل ، الذين يعيشون حياة نبيلة خلال بضع سنوات ، خلال جيل على الأكثر ، فقد نجحوا في فرسة أبنائهم وتغلغلوا بفضل الرضى المحلي في الطبقة العليا .

وقصارى القول ، إن هذا التطور الاجتماعي ، في الحد الذي تضعف فيه سلطة الطبقة النبيلة ويؤدي إلى تشكيل طبقات غنية جديدة تستطيع أن تدفع ضرائب أو تستجيب لقروض ، هذا التطور يشجع تقدم السلطة الملكية .

الفصل الثالث

توطيد الملكيات

فرنسا وإنكلترا

لقد شجع تجديد حياة العلاقات ، وعودة الصلات الاقتصادية والفكرية ، انطلاقة من منتصف القرن الثاني عشر ، تجمع السیادات الصغرى وإمارات العصر الإقطاعي الأول في أراض قومية واسعة كانت الملامح الأولى لدول أوربة الحديثة . وفي مناطق الغرب تمّ هذا التطور حتى نهايته مفيداً سلطة الملكيات المركزية ؛ فقد بسط الملوك سلطتهم بفضل فقر الطبقة النبيلة وصعود طبقات اجتماعية جديدة اعتمدوا عليها ، كما في فرنسا ، أو قبلوا معها أخيراً تقسيم السلطة ، كما في إنكلترا . وبالمقابل ، إن السلطة الامبراطورية ، وإن كانت مازال متألفة بعد في القرن الثاني عشر ، فقد لاقت أفولاً عرّض أوربة الوسطى للفوضى . وهكذا ولّى زمن السيطرة الكونية كما زال زمن سكان القصور الحصينة .

لقد تشكلت ، في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الامبراطورية الأنجفية التي وحدت بين أيدي عواهل آل بلانتاجونية ، إنكلترا والنصف الغربي كله من فرنسا ، وشكلت للملوك الكابسيين ، وللوحدة الفرنسية ، تهديداً فظيماً استطاع فيليب أوغست تلافيه في السنوات الأولى من القرن الثالث عشر ، ومنذ ذلك الحين ، بدأ اتجاه تاريخ إنكلترا ، التي لا تملك على القارة أكثر من الغويين ، يختلف عن تاريخ فرنسا ، التي آل فيها الدومين الملكي إلى استعادة القسم الأعظم

من الأرض . لقد ضعفت الملكية الإنكليزية وقبلت رقابة البرلمان . وفي فرنسا ، بالعكس ، بلغت السلطة الكابسية الأوج ، في سياق القرن الثالث عشر ، وشجعت إشعاع الحضارة الفرنسية في أوربة كلها .

أ - الإمبراطورية الأنجفوية ضد الملكية الكابسية فيليب أوغست وآل بلانتاجونة

في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، ورثت عائلة من القارة إرث السلالة الأنغلو - نورماندية وأعدت في إنكلترا عمل غليوم الفاتح . ولكن بيت آل أنجو كان يملك دومينا (قارباً) أوسع من دومينه في الجزيرة ، وجرّ إنكلترا في خلاف طويل مع الملوك الكابسيين .

منذ وفاة الملك هنري الأول (١١٣٥ م) ، كانت إنكلترا فريسة الفوضى ، ونظراً لعدم وجود ورثة ذكور مباشرين ، كان العرش متنازعا بين حفيد غليوم الفاتح ، الذي استطاع أن يتوج نفسه تحت اسم إيتين الأول ، وبنت الملك الراحل ماتيلد . وبفضل هذا الخلاف ، تحررت البارونية الإنكليزية من السلطة الملكية ، وعندئذ تقدم مدع جديد بالملك في شخص أمير أنجفي .

١ - تشكيل الإمبراطورية الأنجفوية

إن السلالة الأنجفوية ، التي استأنفت ووسعت المحاولة النورماندية ، كانت قد توطدت في زمن اصطدمت فيه مزاعمها بمزاعم غليوم الفاتح . وبعد أفول بضعة سنوات ، استعداد بيت أنجو كل سنه بوصول الكونت جوفروا بلانتاجونيه إلى السلطة . فقد وطد هذا الأخير النظام في إرثه : أنجو ، تورين ، ومين . وأضاف له نورمانديا التي فتحها باسم زوجته ماتيلد . وهكذا ورث ابن جوفروا وماتيلد ، هنري بلانتاجونة ، إمارة واسعة (١١٥١ م) . وزواجه من آليينور

(١١٥٢ م) التي انفصلت عن ملك فرنسا لويس السابع ، كان عملية سياسية حاذقة ؛ فقد وقعت أكيثانيا كلها تحت سلطته وسيطرته . ولم يكفه هذا الدومين القاري الواسع ، فقام باسترداد مملكة جده هنري الأول . وفي كانون الثاني ١١٥٣ م ، نزل على الشاطئ الإنكليزي . وكان الملك إيتين مسناً ، فتخلى عن النضال بعد بضعة أشهر ، واعترف بهنري وارثاً للعرش ودعي للمشاركة في الحكم ليبقى بعد وفاة إيتين (١١٥٤ م) وحيداً على السلطة .

وثبت هنري الثاني ، لدى تنويعه في ميثاق « كل الامتيازات والهبات ، والحريات والأعراف الحرة التي أعطاهها وخولها جده الملك هنري » ، وألغى « جميع الأعراف السيئة التي كان قد ألغاهها جده وأسقطها » . وبذا أكد إرادته على العودة بها إلى ما قبل عشرين عاماً من الفوضى ، إلى سياسة جده السلطوية . لقد كان هنري الثاني (١١٥٤ - ١١٨٩ م) بنشاطه وقوته ، أحد كبار ملوك فرنسا . ففي عهده حققت السلطة الملكية تقدماً حاسماً ، وهياً فيها مستشارو الملك نظرية الحكم الملكي المطلق . وفي ذلك العصر شرع الديوان الملكي باستعمال له دلالاته وهو الصيغة : « ملك بفضل الله » .

وفي أقل من عام ، أنهى هنري الثاني الفوضى الإقطاعية التي نمت في إنكلترا في عهد حكم إيتين . إن (قصور الفساد) التي شيدت دون ترخيص ملكي طرحت أرضاً ، وردّ الأمراء المشاغبون إلى حظيرة الطاعة . ولإنهاء التهدة ، أراد الملك أن يصلب حدوده ، فمن ذلك أن ملك إيكوسيا أعاد كوتتيا الشمال التي احتلها أثناء الفوضى ، وقدم له احترام مملكته . ومع ذلك ظلت هذه الروابط الإقطاعية رخوة . وفي بلاد الغال ، قام العاهل بثلاث حملات صعبة حتى اضطر إلى الاكتفاء بسيادة لاتضايق الملكين الأصليين من أبناء البلاد . وأخيراً فكّر هنري بفتح إيرلاندة التي كانت فريسة المنازعات القبلية . وكان البابا أدريان يرغب

ياصلاح الكنيسة السلطية (الكلتية) ، فأعطى إلى هنري الثاني مرسوماً يخوله إيرلاندة بصفة وراثية ، ولكن لم يعمل شيئاً لتأمين الفتح الحقيقي للجزيرة .

وأتمت الإدارة الحسنة في المملكة ، النجاحات العسكرية . فقد استندت حكومة هنري الثاني محلياً على (موظفي الإدارة) الذين أصبحوا بحق عمال السلطة التنفيذية ، وصلة الوصل بين السكان والسلطة المركزية . وهذه الأخيرة كانت مؤمنة دوماً بالبلاط الملكي . وحافظ البلاط ، في الظاهر ، على طابعه الإقطاعي ؛ وفي الاجتماعات الكبرى ، البلاطات العامة ، يتزاحم الكونتات ، والبارونات ، وفرسان المملكة وكذلك الأخبار . ويعطي المجلس رأيه في قضايا السلام والحرب ، والأحلاف ، والزواج الملكي ، ولكنه لا يستطيع معارضة القرارات الملكية ، ولم يكن ذلك المجلس برلماناً بعد . وبالمقابل ، بدأ البلاط الملكي ، بشكله العادي ، خلال تطور بدأ من قبل في عهد هنري الأول ، بالتخصيص في المصالح التي تصور مسبقاً البوروقراطية (الديوانية) الحديثة . أما الديوان الملكي المكلف بتحرير الرسائل والصكوك (الأعمال) فيخضع إلى قواعد متشابهة ، وبدأ الأكليروس بإنشاء محفوظات بشكل منظم ، وهذه أقدم المحفوظات التي يمكن للمؤرخ أن يجدها في أوربة . أما بلاط الملك المعترف كبلاط مالي ، بلاط الملك الجالس في وزارة المالية ، المذكور لأول مرة في ١١١٨ م فقد وصل إلى أعلى درجة في التنظيم . وتؤلف وزارة المالية الدنيا (الخزينة) . وإلى هنا يأتي موظفو المالية ليدفعوا المبالغ المجدبة ، وهنا تحفظ حساباتهم ، وأول حساب حفظ ، يرجع تاريخه إلى ١١٣٠ - ١١٣١ م ، ولم تبدأ المجموعة المستمرة للحسابات إلا في السنة الثانية من حكم هنري الثاني . وكان بعض الاختصاصيين يشاركون في هذا القطاع من وزارة المالية . وعلى العكس ، كانت وزارة المالية ديوان محاسبات حقيقي يجلس فيه إلى جانب الفنيين ، كبار شخصيات البيت الملكي : وأمام هذا المجلس ، كان على المأمورين أن يبرروا نفقاتهم وجباياتهم ،

ويمكن عند الحاجة أن يتعرضوا للقضاء . وجاء اسم هذه الهيئة من الطاولة المستعملة للعمليات المالية ؛ فقد كانت مغطاة بسجادة سوداء رسمت عليها بيوت . ويحسب بالقريصات (أحجار لعب) التي تختلف قيمتها حسب الموقع الذي تحتله ؛ وهكذا فإن العمليات الحسابية يمكن أن تجرى بسرعة . وأخيراً يمكن للبلاط الملكي أن يتحول إلى محكمة . وهذه المزية ليست جديدة^١، فحتى وصول هنري الثاني إلى العرش ، كان القصد منها محكمة فائقة للعادة ، تستأنف فيها بعض قضايا تحكم بها المحاكم المحلية ، أو الأميرية ، أو تجلس للحكم بدعاوى خطيرة جداً . وانطلاقاً من حكم هنري الثاني ، أصبح البلاط محكمة عادية لكل المملكة . وللاستجابة لهذا التوجه الجديد يوفد قضاة جوالين إلى المملكة كلها وأصبحت جولاتهم منتظمة منذ ١١٧٦ م . وهناك قضاة آخرون يجلسون على الدوام لدى الملك ، ويشكلون ماسمي فيما بعد (محكمة أو مجلس الملك) . وهكذا حدثت ثورة في اتجاه المركزية والمماثلة الملكية في الشكل .

لقد ماثل نمو المحاكم الملكية نمو التشريع والحقوق ، ولم تأخذ العدالة الملكية في إنكلترا بعين الاعتبار الأعراف المحلية ، بل بالعكس ، إن (المحاكم الملكية) العديدة جداً في عهد حكم هنري الثاني ، كانت تصدر ، كما كانت في السابق البراءات الكارولنجية ، قواعد عملية ، فقهاً قضائياً قابلاً للتطبيق على المملكة كلها . وهذه المحاكم المعادية للروح الأميرية ، كانت تشجع أحرار الناس من حالتهم صغيرة ورقيقة : فالأمير لا يمكنه أن يستولي على إرث واصلع اليد على الأرض ورفع يد وارثه عنها . ووجدت لجنة جيران تدعى من قبل موظف عام مختص وتكلف بالنطق بالحكم . وهكذا أدخلت منذ القرن الثاني عشر ، الدعوى بلجنة محلفين . ولم يكن التشريع الملكي أقل عداوة لتجاوزات العدالة الكنسية ، فهو جوب دساتير كلارندون أراد هنري الثاني أن يقيّد القضاء الكنسي ، أي الامتياز الذي لا يقاضى بموجبه الإكليركيون إلا في محاكم كنسية ، ويؤمن بنفسه عقوبة الإكليركيين

المجرمين . لقد كانت سلطة الملك قوية جداً جداً حتى أن ذوي الامتيازات المستائين لم يكونوا على درجة من الجرأة للتواطؤ ضدَّ الإرادة الملكية . ومع ذلك فإن قرية كلارندون پارك حرضت ثورة توماس بيكيت ضدَّ الملك ، مع أنه كان له مشاوراً وصديقاً ، وكانت في أصل درامة شهيرة جداً لموته .

على أن هذا الموقف من الملك ، لم يثر مجموع الإكليروس ضده ، فقد بقي وفيّاً له ؛ ولكنه بعد الإذلال الذي لحق به في كنيسة آفرانش وإخضاعه للتوبة اضطر إلى التخلي عن تطبيق دساتير كلارندون . وبعد هذا الإذلال حاول الكثير من البارونات النورمانديين والإنكليز أن يشوروا بتحريض من أبناء الملك (١١٧٣ م) ، فلم يجدوا أي سند لهم في الشعب الذي اكتفى بالنظام الذي فرضته إدارة هنري الثاني الشديدة . وتوطدت السلطة الملكية ، واضطر الملك ريتشارد أن يقضي كل حكمه تقريباً خارج إنكلترا دون أن يضطرب حبل السلام المدني .

ولم تكن الآفاق الضيقة لإنكلترا العصر الوسيط تكفي لإرضاء طموح هنري الثاني . فقد كانت لهذا العاهل وجهات نظر سياسية ، وميول كونية إمبراطورية أكثر من ملكية ؛ ولهذا فإن لتعبير (الإمبراطورية الآتجفية) الذي اخترعه المؤرخون المحدثون له ما يبرره . كان هنري الثاني رجل المشروعات الواسعة ، سلك دبلوماسية (أوربية) ، وأبرم أحلافاً مع قشتالة وأراغونة وربما فكر بأن يصبح إمبراطوراً . ولكن في فرنسا بخاصة تمت هذه (الإمبريالية) للسلالة الآتجفية . وسعة ممتلكاتها القارية الأعلى بكثير عن ممتلكات الدومين الإنكليزي ، تكفي لإيضاحها . لقد كان آل بلانتاجونيه يملكون بشكل إقطاع النصف الغربي من فرنسا . وكانوا قبل كل شيء أمراء فرنسيين ، ولم يقض هنري الثاني في الجزيرة إلا ثلاثة عشر عاماً من حكمه خلال أربعة وأربعين عاماً . كان يقرأ اللاتينية ، ويفهم البروفانسية والإيطالية ، ويتكلم الفرنسية ولا يعلم الإنكليزية . وحكم الدومين القاري كان بالنسبة له ذا أهمية عظيمة ؛ ففي قراراته

الرسمية كان العاهل يتوجه إلى (أوفياؤه في فرنسا وإنكلترا) ، ولم يكن قصده سياسة توحيد منظمة ، فهناك بعض القرارات التي طبقت في مجموع ممتلكاته الإنكليزية ، وكان الموظفون القائلون في خدمة السلالة يعبرون البحر في الغالب ، ولكن كل عنصر من عناصر الدومين الأنجلي حافظ على شخصيته . ولم يكن بين الأراضي القارية وإنكلترا ، دوماً إلا رابطة ، ولكن تعابير هذه الرابطة قد انقلبت ؛ لأن إنكلترا ، منذ الآن ، كان عليها أن تقدم جزءاً كبيراً من مواردها الضرورية للدفاع أولنو الأموال القارية . ولم يعد يكفي لهذه الأرياف البعيدة الجيش الإقطاعي^(١) والفيرد^(٢) . وخدمة الفيرد لا يمكن أن تطلب إلا في حدود الكونتية والدفاع عنها . وخدمة الجيش لها مدة قصيرة جداً ، أربعون يوماً ، والبارونات النورمانديون الذين يملكون أموالاً (أملاكاً) وراثية في نورمانديا كانوا مستعدين للدفاع عنها . ولكن البارونات الإنكليز قلما كانوا يميلون إلى عبور بحر المانش . والوسيلة الوحيدة لحفظ الجنود زمناً طويلاً تحت الأسلحة هي أن تدفع لهم أعطيات ؛ فقد كان جيش المرتزقة يؤلف قسماً صالحاً من جيوش الحملات التي استخدمها هنري الثاني على القارة ، ومثل هذا الجيش يكلف غالباً . لذا ، كان على ملوك آل بلانتاجونه ، كالملوك الكابسين ، مبدئياً ، أن يسحبوا كل مواردهم العادية من دومينهم . وفي الحقيقة ، أضافت السلالة الأنجليزية على الرسوم الدومينية (امتياز الغابة) . ويقصد بذلك أراضي الصيد التي لا يحق للسكان فيها أن يمسوا لا حيوانات الصيد ولا الخضرة من شجر أو نبات أو عشب ، وكانت الغرامات التي تصيب المخالفين مصدر واردات لا يستهان بها . ومن جهة أخرى ، إن الملوك الأنجليين ، باعتبارهم سادة ، كانوا يتمتعون بحقوق

(١) الأوست أي الجيش الإقطاعي الذي تتوجب فيه على الأتباع الخدمة العسكرية حيال أميرهم للدفاع عن البلد (OST) .

(٢) الفيرد : الجيش الموكل إليه الدفاع عن الكونتية (La FYRD) .

غاية في الإفراط : رسم الأرض ، حق الحراسة ، المساعدة الإقطاعية . ومع ذلك يبقى كل هذا غير كاف . وهكذا توصلت الملكية الإنكليزية ، وهي الأولى في الغرب ، إلى فرض الضريبة . وكجده هنري الأول ، بتعميمه هذه الممارسة ، سمح هنري الثاني بإعفاء النبلاء الإنكليز من خدمة الجيش ، مقابل دفع مبلغ محدد . وهذا المبلغ يمثل إعاشة فارس مع درعه ومجنه . أما ابنه ريتشارد قلب الأسد فقد فرض مراراً ضريبة عقارية ، ضريبة على الأرض ، « ضريبة المحراث » وضرائب « الأعراف » التي تجبى أيضاً على البضائع في الموانئ وفي الأسواق . وضرائب (المساعدات) هذه بقيت استثنائية ولا تنبئ سلفاً إلا بعيداً عن الضريبة الحديثة . ومع ذلك فإن الملكية الإنكليزية ، في الصعيد الضريبي كما في الصعيد القضائي ، قد سبق وتجاوزت ، منذ ذلك الحين ، الإطار الإقطاعي .

وبين بلاد ماوراء البحار ، كانت أراضي الشمال - الغربي أقل إقلاقاً للملوك الأنجليين . لقد كانت نورمانديا ممهورة مع قضائها في القرن الثاني عشر بإدارة ماثلة لإدارة إنكلترا تقريباً ، وهزتها بعنف ثورة ١١٧٣ م . لقد جرّ أولاد هنري الثاني في تمردهم ، عدة بارونات نورمانديين . ولكن هؤلاء كانوا معادين جداً للملكية الفرنسية ، ولم يستطع الملك الكاسي أن يفيد من كل هذه الاضطرابات . ولم تكن الأملاك الوراثية للعائلة الأنجلية : الأنجو ، التورين ، والمين أقل خضوعاً ، ولكنها ظلت طيعة نسبياً ، وكان هنري الثاني يطمع منذ زمن طويل بإقليم بروتانيا ، واستطاع أن يستقر فيها وزوج ابنه جوفروا بوارثة الكونت كونان ، وساعدت ولادة آرثور الصغير على زيادة ارتباط البلاد البروتانية بدومين الأنجويين . وفي الجنوب الغربي ، بالعكس ، بدا عمل الملك صعباً وشاقاً ؛ فقد كانت أكييتانيا فريسة الفوضى الإقطاعية ، ورفض العديد من السادة الأمراء تقديم الطاعة والولاء من أجل إقطاعهم ، لملك إنكلترا . ولإخادهم أقام هنري الثاني في أماكن محصنة بعض حاميات من المرتزقة ، حتى أنه حاول

مراراً أن يحتل الأملاك القديمة التابعة لأكيتانيا : لوبري ، والأوفيرن ، وكونتية أنغوليم . وجرت هذه السياسة كثيراً من المصادمات مع ملك فرنسا . كان الإنكليز يهددون كونت تولوز ، فطلب مساعدة سيده ، الملك لويس السابع . ولما كان هذا لا يستطيع إرسال جيش لنجدة تابعه ، فقد جاء وهاجم ، وانتقض على مدينة تولوز (١١٥٩ م) . واضطر حضوره إلى تراجع ملك إنكلترا الذي خاطر بنفسه بعيداً عن قواعده . ولكن الجيوش الأنجليزية والكاسبية ، في كثير من الظروف الأخرى ، تدخلت في الكفاح .

كان تقسيم هذا الدومين القاري في أصل درامة عائلية أغمت آخر حياة هنري الثاني . أبناءه يكره بعضهم بعضاً ولم يتفاهموا إلا على خيانتهم . ومات الولدان البكران هنري وجوفروا قبل أبيهما ، وترك جوفروا البروتانيا لابنه آرثور . والابن الثالث ، ريتشارد المهيأ لوراثة تاج إنكلترا ، تأمر مع ملك فرنسا الجديد ، فيليب أوغست . وأعلن هنري الثاني عن نيته في تخصيص أكيتانيا لابنه الأخير جان ، وتملك ريتشارد الغيظ لهذا الخبر ، فقدم احترامه وطاعته لملك فرنسا من أجل أراضي والده القارية كلها ، ودخل في نزاع ضده . ولما ضغط على هنري الثاني من قبل أعدائه ، وفي عداوهم وجد جان أيضاً أصغر أولاده ، اضطرب إلى الفرار فجأة من مدينة مانس ، ومات من الحزن بعد بضعة أيام بالقرب من شينون (١١٨٩ م) .

٢ - فيليب أوغست : حكمٌ حاسمٌ لفرنسا

منذ أن فقدت الآمال الأكيتانية مع آلينور (١١٥٢ م) بدا الملك الكاسبى ، لويس السابع ، في آخر حكمه ، أنه وجه صغير إلى جانب تابعه القوي البلانتاجوني ، ملك إنكلترا هنري الثاني ، فلم يكن غير عاهل لدومين ضئيل في وسط الحوض الباريسي مطوق من كل جانب بأمارات أوسع وأصلب ظاهراً .

ومع ابن وخلف لويس السابع ، فيليب الثاني (١١٨٠ - ١٢٢٣ م) وجدت الجهود الخفية أخيراً لأوائل الكابسيين خاتمة مجيدة . إن هذا الرجل الصغير والأعور والموهوب بطبع مرء ومحتال ، كان قليل التعاطف . غير أن هذا الملك النشيط والحاذق في الإفادة من الظروف ، كان أول أعظم عاهل كابسي . لقد وسع الدومين الملكي في كل الاتجاهات ؛ وأفاد بخاصة من المنازعات التي تقسم ورثة الإمبراطورية البلاناجونية ، وضمّ قسماً كبيراً من الأملاك الأنجفية . واستحق بذلك لقب (المبارك) أي الذي يزيد . وقوي بانتصاراته ، وقوى السلطة الملكية ونظمها . وفي بداية القرن الثالث عشر ، وانتصرت بفضل السلطة الكابية خارج الدومين إن في جنوبي فرنسا أو أمام تألب أوربي خطر .

توسيع الدومين الملكي

لقد كان توسيع الصعيد (الدومين) الملكي أول اهتمام لفيليب الثاني . فالاتحادات الزوجية ، والمفاوضات ، والحرب أخيراً ، كلها صالحة بالنسبة له للوصول إلى أهدافه . حتى أن الملك الكابسي عندما يلجأ إلى السلاح ، يحاول دوماً أن يضع الحق الصالح إلى جانبه ، أي الحق الإقطاعي . وعلى هذا النحو عرف بشكل عجيب كيف يتلاعب بالأعراف التبعية ، فمن ذلك أن تحققت بعض المكتسبات بتوكيل بسيط لأموال تابع خائن .

وفي آخر القرن الثاني عشر ، اصطدمت الملكية الكابية في الشمال بقوة فلاندر الهائلة ؛ فقد كان كونت الفلاندر ، ملتزماً بمعاونة ملك فرنسا ، وتابعاً للإمبراطور الجرمانى بسبب فلاندر الإمبراطورية ، وتدر عليه أيضاً بإقطاع من ملك إنكلترا أموال نقدية . واستطاع أن يضيف إلى صعيده الفلاماندي : الآرتوا ، الأمينوا (منطقة آميان) ، الفيرماندوا ، والفالوا . وكان فيليب الثاني حياله تارة مصالحاً وتارة مهدداً .

وفي بداية حكمه تزوج ابنة أخ الكونت ، إيزابل هينوت (١١٨٠ م) .
وقدمت له مهرها ، إقليم الآرتوا ، الذي سيصبح فعلاً مرتبطاً بالملك الكاسي ،
كما كان متفقاً على ذلك ، بعد موت الكونت (١١٩١ م) . ولكنه في غضون
ذلك ، استطاع أن ينتزع من تابعه أقاليم أخرى ؛ فقد ادعى بأن التابع أعطى
لنفسه بصورة غير شرعية بواسطة زوجته أموالاً ترجع إلى أخت هذه ، إيليينور
دوبومون ، وتدخل فيليب أوغست بالسلاح . ورأى كونت الفلاندر نفسه
منعزلاً ، فتخلى بمعاهدة بوث عن الأمينوا والفرماندوا للملك الكاسي ، وأرجع إلى
إيليينور الفالوا التي انتقلت عند موتها إلى ملك فرنسا . وهناك إمارة أخرى
شكلها بيت بلوا - شامبانيا وتحقق بشكل خطر الملك الملكي . وبسرعة هز فيليب
أوغست وصاية أمه آديل دو شامبانيا وأخواله الأمراء الشامبنوازيين . ولكن
التهديد ظلّ ، لأن التابع الشامبنوازي انضم طواعية إلى أعداء التاج للتمرد عليه .
ولكن فيليب أوغست خدمه ، لحسن الحظ ، قصور الكونت تيبو الرابع . فقد
لعب بحقوقه سيداً وطالب بتسليمه القصور ؛ كما حصل على أن يجهزه الكونت
بالرجال والمال بكية كبرى . أما البورغونيا فكان يملكها فرع ثانٍ للأسرة
الكاسبية ، فلم تصنع مشكلة . أما تابعو جنوبي فرنسا (الجنوبيون) ، الذين ظلوا
حتى ذلك الحين مستقلين ، فكانوا مستعدين إلى الاعتراف بشكل فعلي ، حقيقي
بسيادة ملك فرنسا ، لأنهم شعروا بأنهم مهددون بالتسلط (الإمبريالية)
الأنجفي .

النضال ضد آل بلانتاجونية

أ - فيليب وريتشارد

كانت هذه القوة الأنجفية الكبرى تؤلف خصماً خطيراً لفيليب ، لأن الكاسي
أفاد أولاً من الخلاف الذي اشتبك فيه ملك إنكلترا مع أولاده . فقد بدأ نزاع أصم
تاريخ العصر الوسيط ج ٢ (٥)

في السنوات الأخيرة من حكم هنري الثاني . وفيه دعم فيليب ريتشارد ، الذي ثار على أبيه ، وحاول أن يفاقم النزاع . وفي الوقت نفسه قامت عمليات عسكرية على تخوم الدومين الكاسي والأنجفي . وكان القصد منها معرفة من سيفرض سيادته على الإمارات بيري ، والأفيري ، وكونتية تولوز . وقطعت الحرب بهدنة فافضت بها البابوية التي كانت ترغب في مصالحة العاهلين بغية إرسالهما إلى الجرب الصليبية في المشرق العربي .

وأطلق هنري الثاني غارات على منطقة تولوز . وفي ١١٨٨ م اجتاح فيليب البري والأفيري وتقبل ولاء وطاعة ريتشارد . ومع هذا الأخير قام بحملة ، في ١١٨٩ م ، في وادي اللوار أدت بهنري الثاني إلى الهزيمة والموت . غير أن هذا النصر كان رقيقاً بالنسبة للملك الكاسي . وأخيراً عمل على تثبيت ريتشارد على العرش . وأصبح هذا الأخير ملكاً . ولكن هل يمكن أن يظل حليفه ؟ ومع ذلك فقد ذهب ريتشارد وفيليب صديقين طيبين للحرب الصليبية الثالثة في ١١٩٠ م . ولكن علاقاتهما مالبت أن فسدت بعجرفة ريتشارد . وبعد استسلام عكا ، غادر فيليب أوغست الحملة لأنه كان ، قبل كل شيء ، مهتماً بالسهر على مصالحه . وعندما علم أن ريتشارد رجع هو أيضاً من الأراضي المقدسة ، ووقع بين أيدي عدوه الإمبراطور هنري السادس ، بدأ بمكايدته . فقد عمل على أن يتنازل له أخو الملك الأمير جان الذي نفذ صبره للوصول إلى الحكم عن حصون نورمانديا وتورين ، وكلا الاثنين وعدا بمبالغ جسيمة للإمبراطور ليحتفظ بريتشارد أسيراً . وأخيراً ، إن الزواج الثاني لفيليب من أخت ملك الدانمارك إيزامبور ، ربما كانت غايته أن يؤمن له حقوقاً بتاج إنكلترا ، الذي سبق وحمله في السابق كنوت الكبير . ولكن ريتشارد حرر ، في شباط ١١٩٤ م ؛ وهو الذي حصل بأعمال شجاعته في الحرب الصليبية على لقب قلب الأسد ، كان العدو الأول الخطر والعازم على أن يشار لنفسه من خيانات الملك الكاسي . ومن أول

القرارات التي اتخذها عند عودته ، لحماية النورمانديا ، بناء حصن في وادي نهر السين .

وخلال عدة سنوات قام نزاع شرس بين الملكين على تخوم نورمانديا ، وتورين ، وبرّي كادت تدور فيه الدوائر في الغالب على فيليب : ففي فريتيغال (١١٩٤ م) اضطر الملك الكاسي إلى الفرار تاركاً محفوظات وثائقه وثروته ؛ وفي كورسيل (١١٩٨ م) اضطر تقريباً إلى الاستسلام ، وأوشك أن يغلب على أمره لولا أن البابا إينوسان الثالث فرض هدنة (١١٩٩ م) بغية جرّ الاثنين إلى حرب صليبية جديدة . وخدم الحظ فيليب أوغست : ففي ٢٦ آذار ١١٩٩ م قتل ريتشارد قلب الأسد في حصار شالوس في إقليم ليوزن أثناء عمل ضد تابع متمرّد ، واستطاع ملك فرنسا أن يبرم ، مع خلف ريتشارد ، أخيه جان ، الذي لم تتوطد سلطته ، صلحاً ملائماً جداً ؛ ففي غوليه بالقرب من غايون ، تخلى جان عن بلاد إيفرو ، وجزء من الفيكسن النورماندي ، وأراضي في بيرّي وفي إفيرني (٢٢ أيار ١٢٠٠ م) ؛ وتزوجت ابنة أخيه ، بلانش قشتالة ، لويس وارث عرش فرنسا ؛ وأخيراً قدم جان ولاءه وطاعته لفيليب أوغست ودفع خراجاً جسيماً لتملك دومينات العائلة الأنجفية في القارة .

ب - فيليب وجان

لقد أفاد تغيير العاهل خطط ومقاصد فيليب أوغست : فلم يقف أمامه زعيم حربي متحمس ، وإنما مريض عقلي بدا ، على ضوء معلومات دراسة ومعالجة الأمراض العقلية الحديثة ، أنه مصاب بالاختلال العقلي الدوري ؛ فتارةً يكون فريسة الغضب والحلق ؛ وتارةً غير مبالي بشيء ، بل وحتى الهزيمّة . إنه كائن غير مستقر وغير مسؤول . وكان فيليب في ظروف ملائمة ليستعمل ضده جميع موارد الحق التبعي ؛ ففي ١٢٠٠ م تزوج جان فجأة وبسرعة ابنة كونت أنغوليم ، إيزابل ؛ غير أن الأنسة كانت موعودة بزواجها من هونج لوبرن دولوزينيان ،

كونت المارش . والبواعث التي دفعت ملك إنكلترا كانت سياسية أكثر منها عاطفية : فمنذ أن احتل فيليب أوغست إقليم البري ، كانت المنطقة البواتوفينية (من بواتية) تشرف وحدها على المواصلات بين شمال الإمبراطورية الأنجلية وأكيتانيا . وكان من الممكن أن تسوى القضية لو أن جان أعطى إلى الخطيب المطرود التعويضات التي كان له حقّها . ولكنه لم يعمل شيئاً . وما كان من آل لوزينيان إلا أن دعوا لذلك السيد الأعلى ، ملك فرنسا ، ثم بدؤوا يناوشون ضدّ جان بعد أن صادر أراضيهم . وهكذا استطاع فيليب أوغست ، بشكل شرعي ، أن يدعو جان للمثول أمام محكمته ، فلم يحضر .

عندئذٍ حصل ملك فرنسا على توكيل بجميع أراضي التابع المتمرّد ، ومُلِك آرثور بروتانيا ، ابن أخ جان وخطيب ماري فرانس . وفي تموز ١٢٠٢ م قدم هذا الخطيب ولاءه لفيليب أوغست عن أراضيّه في بروتانيا ، وأنجو ، وألمين ، وتورين ، واعدأ بأن يفعل الشيء نفسه بشأن بواتو (منطقة بواتيه) إذا توصل لفتحها . أما ما يتعلق بنورمانديا فقد تمّ التوصل إلى أن يحتفظ ملك فرنسا « بما يعجبه مما كسب وما سيخوله الله بكسبه » . بدأ فيليب بفتح نورمانديا وآرثر بفتح بواتو ، ولكن فيما كان ملك فرنسا يتقدم بانتظام ، أسر آرثر من قبل عمه (آب ١٢٠٢ م) : وزجّ في برج روان ولم يعد أحد يتكلم بشأنه . وقد قتل بيد الملك جان الخاصة ، كما أكّد ذلك بعد بضع سنوات حارس البرج . ولم يترك فيليب أوغست الفرصة تمرّ ليستغل لصالحه الفضيحة التي سببتها الجريمة : واستطاع شيئاً فشيئاً أن ينال ثقة الناس بالأسطورة المختلقة التي حكم بموجبها الملك جان من قبل محكمة فرنسا من أجل مقتل آرثور بروتانيا ؛ وعلى الصعيد الأخلاقي أيضاً ، إن فتح الدومينات القارية لآل بلانتاجونية وجد مبرراً . وفي أربعة أعوام ، انتزع فيليب من ملك إنكلترا ، الذي وقع في حالة عدم حراك لا يصدق ، النورمانديا (١٢٠٢ - ١٢٠٤ م) ، حيث استسلم قصر غيارد بعد

حصار دام ثمانية أشهر ، والآنجو والمين والتورين وبروتانيا (١٢٠٢ - ١٢٠٦ م) ، وهذه الأخيرة البعيدة جداً والمضطربة بقيت خارج الدومين الملكي مع دخولها في التبعية الفرنسية . وعلى إثر هذه العمليات العسكرية ، أبرمت هدنة في ١٢٠٦ م بين فيليب أوغست وجان . لم يبق للبلانتاجوني في فرنسا سوى الغويين .

توطيد السلطة الملكية

وفما كان فيليب يناضل ضد العدو البلانتاجوني ، كان يعمل على تقوية سلطة الملك . وكأجداده بدا مهتماً قبل كل شيء ، بتأمين وارث للتاج ؛ لقد توفيت زوجته الأولى إيزابل دوهينوت في (١١٩٠ م) تاركة له ابناً ، الأمير لويس ، وكانت صحته تثير الشكوك . ولم يكن زواج الملك من إيزامبور الدانمارك سعيداً : فغداة عرسه ، أخذه هلع مرضي لامبر له من الأميرة البائسة . وأراد طلاقها وزجّها في دير . ودون أن ينتظر من الكنيسة إلغاء الزواج ، تزوج امرأة ثالثة ، آنيس دوميران (١١٩٦ م) ، وصّح البابا بأن مملكة فرنسا في حالة منع كنائسي^(١) ، واضطر فيليب عندئذ أن يخضع لكوميديا (ملهاة) مصالحة مع الزوجة المهجورة للحصول على رفع حكم المنع ، ولما ولد له ولد ثانٍ من آنيس ، فإن وراثة العرش أصبحت مؤمنة بصلاية . وشعر فيليب بأنه على درجة كافية من القوة حتى يتخلى في حياته عن تتويج ابنه البكر . ولذا كان أول الكابسين الذي لم يلجأ إلى هذه الأصول .

لقد كان مطمئناً بأنه لن يترك لورثته دومينا واسعاً فحسب ، بل وأيضاً غنياً ومنظماً : فقد كانت مكاسب فيليب هامة بمساحتها وبقيتها الاقتصادية أيضاً . فهي تؤمن للدومين مساحة واسعة على بحر المانش وعلى المحيط الأطلسي .

(١) المنع الكنائسي : حكم يمنع الكليركي من ممارسة وظائف نظامه ، أو يحرم ممارسة العبادة في مكان معين .

وأصبح بإمكان الملكية أن تفيد من النشاط الاقتصادي الذي ينشأ أودية اللوار والسين والسوم . لقد فهم فيليب جيداً الفائدة التي يجنيها التاج من أشكال الاقتصاد الجديدة ، فرسوم المعابر والجسور والرسوم على الأسواق أغنت الخزانة الملكية . وعرف أيضاً أن البورجوازية كانت في عزّ نموها وتحاول في كل مكان أن تهز السلطة الأميرية ، وأنها تستطيع أن تقدم دعماً حاسماً للسلطة الملكية : وشجع فيليب بصورة منتظمة حركة تحرير المدن . وأسس في الدومين الملكي عدة قرى ، في شومون ، في بوتنواز ، في بواسي وفي مونتروي على البحر ؛ وأيد حركات أخرى بمنحها ميثاقاً (وثيقة تحرير) . ومقابل هذه الامتيازات ، حصل الملك على دخل ولا سيما على مساعدة عسكرية . وهذا التعاون بين الملك والمدن وجد في باريس تطبيقه الخاص . فلم يكن للمدينة ميثاق ، وكان يديرها حاكم ملكي يختلف عن حاكم التجار ، ولكنها أصبحت منذ الآن عاصمة المملكة .

ولما أثرت الملكية وصارت تُخدم بشكل أفضل ، ومن الممكن مكافأة موظفين طيعين ومأمونين . وكان الدومين الملكي ، حتى ذلك الحين ، يدار من قبل ولاة ، ولكن إدارتهم كانت في الغالب غير شريفة . واقتداء بما وجده الملك في نورمانديا وفي آنجو ، من قضاة ورؤساء قضاء سبق أن عيّنهم هنري الثاني في وظائفهم ومواقعهم ، أوجد فيليب في كل الدومين هيئة موظفين مماثلين : فبصفة مفتشين جوالين بادئ بدء ، ثم بشكل أكثر استقراراً ، كان القضاة مكلفين بإقامة العدل ومراقبة دخول الإيرادات ، وما فتئت أهميتهم في ازدياد ، كلما توطدت السلطة الملكية .

أصبح فيليب أقوى وأغنى أمير في المملكة . وحاول بنجاح أن يُعترف في كل مكان بسيادته . وللوصول إلى ذلك حسن مؤسسات السلطة الملكية . فبينما كانت الوظائف التقليدية لرئيس القضاة والرئيس الأعلى للقضاء ، محجوزة لكبار الأمراء الكنسيين والعلمانيين ، أصبحت شرفية بخاصة . ووظائف أخرى مثل

خباز الملك ، والسقاء ، وأكبر موظف لغرفة الملك أخذت صراحة شكلاً منزلياً وتمثل جزءاً من جهاز بيت الملك ، بدأ العاهل يحيط نفسه بمشاورين . وهؤلاء هم موظفون مرتبطون بالملك بصورة وثيقة . كانوا من أصل متواضع في الغالب ، وتثقفوا عموماً بالدراسات الحقوقية ، وتشبعوا بالحق الروماني الذي يجعل من الملك تجسيداً للدولة - وكان هؤلاء الموظفون عمالاً متحمسين للمركزية الملكية . أما البلاط الملكي (المجلس) ، الهيئة التي يمارس الملك فيها وظائفه القضائية والتشريعية ، فقد تحول قليلاً ، « ومع ذلك كان الملك يجمع في الغالب ، البارونات والأساقفة في جلسة استثنائية » ، وفي هذه الاجتماعات ، تتخذ قرارات ذات مصلحة عامة ، القرارات التي تمس تنظيم الحرب الصليبية أو النضال ضد انكلترا . هذه القرارات تتخذ باتفاق كبار المملكة . ومن جهة أخرى ، تقدمت العدالة الملكية على حساب العدالة الأميرية : ففي التحقيقات التي تساعد على تقويم المفساد التي ترتكب في داخل الدومين ، يضاف أصول الاستئناف ؛ وكل ساكن في المملكة يرى بأنه مضار يمكنه أن يتوجه إلى الملك مباشرة ليحكم في الأمر حكماً نهائياً لا يقبل المراجعة . وهذه الوسيلة ساعدت فيليب ، في ١٢٠٢ على أن يحكم على ملك إنكلترا بأنه تابع متمرّد . وأخيراً ، حاول العاهل أن يمد الملكية بموارد أكثر أهمية : فمن حيث المبدأ عليه دوماً « أن يعيش من موارده » أي أن يحصل على إيراداته من دومينه الخاص . ولكن هذه الإيرادات ، وإن تحسنت ، ظلت غير كافية لتغطي النفقات الآخذة بالازدياد ؛ فمن أجل حاجات الإدارة ، يجب مكافأة الموظفين العديدين . ولحاجات الحرب ، بدأ الملك بإقامة جيش صغير من الفرسان والرقباء المرتزقة الذين يجب أن تدفع لهم أعطياتهم . وإلى هذه الموارد الأميرية تضاف الرسوم الإقطاعية على اعتبار أن الملك سيد يتطلبها من أتباعه ، واستطاع فيليب أن يجبي رسم الخراج عند تسلم أمراء هامين كرسي إمارتهم مثل كونت فلاندر (١١٩٢ م) أو كونت نوفيير (١١٩٩ م) . ومن أجل

الباقى ، لزمه أيضاً ، لعدم القدرة على فرض ضرائب دائمة ، أن يلجأ إلى وسائل أخرى كفرض ضريبة القامة ، ضريبة مباشرة تفرض على غير النبلاء (العامة) ، أو مساعدات تفرض من أجل حرب أو الحرب الصليبية ، ضرائب عن الكنائس ، ضرائب على اليهود . وهذه الإيرادات المختلفة تجمع في الخزينة الملكية ، في حصن المعبد التابع للرهبان الفرسان في باريس .

وبفضل كل هذه الجهود في المركزية ، لم يقف إشعاع الشوكة الملكية على حدود الدومين . ففي كل مكان تقريباً ، كان أساقفة ، وأباء ، ومدن يضعون أنفسهم تحت الحماية الملكية . وساعدت معاهدات (اتفاق) بين الملك والأمراء على أن يصبح نائب - أمير لدومينات صغيرة كنسية أو علمانية . وبهذه التدخلات في إمارات كبار التابعين دلّ فيليب على أنه في قمة التسلسل الإقطاعي . ولكنه أكد في الوقت نفسه بأنه لا يستطيع أن يكون أسير هذا التسلسل ؛ فقد رفض أن يقدم احترامه لأمير ، عندما يجد نفسه قد أصبح تابعاً له بكسب أرض جديدة .

وأكثر من ذلك ، بناء على طلب فيليب ، أعلن البابا إينوسان الثالث ، في ١٢٠٢ م ، بأن ملك فرنسا لا يعترف بأي أحد أعلى في الزمني ؛ وبأنه (إمبراطور في مملكته) . وعلى هذا النحو طرحت بوضوح مزاعم الأباطرة في التفوق الكوني (العام) .

انتصارات آخر حكم الملوك

تؤكد انتصارات آخر حكم الملك ، بشكل واضح ، تصاعد الشوكة الفرنسية في الغرب . لقد جابه فيليب أوغست تألباً عقدته سياسته الطموحة ضده . وجد بين أعدائه بادئ بدء جان دون أرض الذي أذكت مناورات ملك فرنسا غيظه ؛ وعندما حكم البابا بعزل جان دون أرض لاضطهاده الكنيسة الإنكليزية ، طلب فيليب أوغست من البابا إينوسان الثالث أن يوكل إليه مهمة تطبيق الحكم . وبدأ

بإعداد أسطول ، ولم تتوقف مشروعات الإنزال إلا بخضوع الملك الإنكليزي للبابوية . وفي الوقت نفسه ، تدخل فيليب نفسه في شؤون ألمانيا ، ففي ١١٩٨ م كان قد دعم فيليب دو سواب ضد أوتون الأول أمير برنسيك ؛ ثم انحاز ضد هذا الأخير أيضاً إلى شاب مدع بالعرش الإمبراطوري ، فريديريك صقلية . وهكذا عقد ملك فرنسا بنفسه التآلب الذي تشكل ضده ؛ فيألى جانب جيوش أوتون الإمبراطورية والإنكليزية ، كان هذا التآلب يضم تابعين لفيليب ، كونت بولون وكونت فلاندر . وهاجم المتآلبون من الجانبين معاً : قاد جان بنفسه الحملة في الغرب ؛ ولكن الذعر تملكه بوصول جيش فرنسي ، وفرّ دون أن يقاتل في لاروش - أو - موان ، في ٢ تموز ١٢١٤ م أمام الجيش الذي يقوده ابن فيليب أوغست . وفي الشمال ، كان على فيليب أن يعمل على أكثر من جبهة قوية ، الألمان حول الإمبراطور أوتون ، وجيوش كونت فلاندر ، وكونت بولون انضمت إلى بعضها في فالانسين للزحف على باريس . وقامت معركة حاسمة بالقرب من تورنيه في بوقين (في ٢٧ تموز ١٢١٤ م) . وبفضل قصة غليوم البروتاني ، كانت هذه المعركة إحدى المعارك المعروفة أكثر من غيرها في العصر الوسيط كله .

وهكذا انتصر الكابسي على التآلب في كفاح يمكن أن يبدو لنا ضعيفاً تقريباً . إن هذه المعركة التي اشتبك فيها ، ربما عشرون أو خمسة وعشرون ألف رجل ، قامت قليلاً بصدفة ، وفاجأت على كل حال ملك فرنسا . والقتال الذي تلا كان ملتبساً ؛ فن جهة كما في الجهة الأخرى ، لم يتصور أي مناورة تكتيك ، وآل الكفاح إلى مجموعة صدامات فردية قضت خلالها محلياً أعمال الشجاعة الجميلة على القرار . وأخيراً ، عندما فرّ الزعماء الأعداء ، لم يحاول فيليب أوغست أن يستغل هذا الفرار لصالحه للملاحقتهم . ومع ذلك فإن بوقين أمنت انتصار السلالة الكابسية . في ألمانيا ، تفوق فريديريك الثاني ، حليف فيليب أوغست على منافسه ؛ وفي فرنسا نفسها ، قويت سلطة الملك نهائياً . وحافظ فيليب على كل

الأراضي المفتوحة قبل ١٢٠٦ م ؛ والفلاندر ، التي ظل كونتها أسيراً في اللوفر حتى ١٢٢٧ م ، أصبحت تحت وصاية الملك الوثيقة . وجان الذي أعيته الحيلة ، عاد إلى إنكلترا حيث وقف باروناته ضده . وعرض بعضهم التاج على الكابسين ، حتى أن الأمير لويس نزل في ١٢١٦ م ودخل لندن دون قتال تقريباً . ولكن موت جان دون أرض (١٢١٦ م) ، وتدخل إينوسان الثالث الذي منع ملك فرنسا من فتح المملكة الإنكليزية ، وأخيراً إن وصول الشاب هنري الثالث بن جان دون أرض إلى العرش ، بعد أن انضم إليه البارونات الإنكليز ، أدى بالكابسين إلى التخلي عن التاج الإنكليزي . ولكن إخفاق هذا المشروع المخاطر لم يكن شراً على فرنسا ؛ لأن الملكية وجهت نشاطها نحو الامتداد الطبيعي للدومين الملكي وهو بلاد جنوبي فرنسا . ومع ذلك ، فإن فيليب أوغست رفض بعظمة في البدء، التدخل ، عندما دعا تقدم الهرطقة الكثيرة البابا إلى التبشير بمكافحتها في هذه المنطقة (١٢٠٨ م) ؛ والفتح الذي تحقق على أيدي بارونات شمال فرنسا تم تحت إدارة فارس نورماندي ، سيمون دو مونفور . وبعد انتصار المكافحين (١٢١٣ م) خضع فيليب أوغست أمام قرار جمع لاتران الذي خصص دوميئات كونت تولوز لسيمون مونفور ؛ واكتفى بقبول ولاء واحترام هذا الأخير . غير أن موت سيمون في ١٢١٨ م ، والثورة التي قامت ضد ابنه آموري ، والنداء الذي أطلقه هذا الأخير لسيده ، قررت أخيراً تدخل الملكية الكاسبية . وأمر فيليب أوغست ابنه بأن ينجد التابع المهدد . ولما أصبح الابن ملكاً تحت اسم لويس الثامن (١٢٢٣ م) طبق هذا الأخير أثناء السنوات الثلاث القصيرة الأمد لحكمه ، سياسة أوضح : بدأت الحملة بمركيزية بروفانس التي كانت تابعة لريمون السابع . وساعد أخذ أفينيون (١٢٢٩ م) واحتلال اللانغدوك الملك على كسب بوكير وكاراكسون . وخاطر موته ، في ٨ تشرين الثاني ١٢٢٦ م ، وافتتاح قضية ولاية العهد بقطع جهد الملكية بشكل فظ .

ب - فرنسا من القديس لويس إلى فيليب الجميل أوج السلطة الكابسية

بعد حكم لويس الثامن القصير الأمد ، استمر عمل فيليب أوغست على يد عاهلين كبيرين ؛ ففي عهد لويس التاسع (القديس لويس) (١٢٢٦ - ١٢٧٠ م) بلغت سلطة فرنسا وإشعاعها الأوج ؛ ودعم فيليب الثالث الجريء (١٢٧٠ - ١٢٨٥ م) وفيليب الرابع الجميل (١٢٨٥ - ١٣١٤ م) أيضاً بعظمة ومجد جاء فرنسا . ولكن أزمة اعترضت حكمها فقلبت الاقتصاد الأوربي كله .

١ - في زمن الملك الصالح لويس

وصاية بلانش قشتالة وحرب لويس الصليبية الأولى

ظهرت بدايات حكم لويس التاسع تنذر بأفول السلطة الفرنسية . فقد سبق أن شكل أبوه لويس الثامن على حساب الدومين الملكي إقطاعات وقفية عديدة وقوية لصالح أخيه - النصف فيليب هوريل (كونتية بولون ، دومفرون ، مورتن ، كليرمون وأومال) ولأولاده الذين ولدوا بعده : الثاني ، روبير أخذ الأرتوا ، الثالث ، جان ، الأنجو والمين ، الرابع ، الفونس ، البواتو والأوفيرن . ولم تظفر فكرة الوحدة الملكية والقومية بعد تماماً ، على العرف الجرمانى القديم في تقسيم المملكة بين أبناء الملك . ومن جهة أخرى ، لم يكن لوارث التاج غير اثني عشر عاماً من العمر عند وصوله إلى العرش . وكان لويس الثامن على فراش الموت قد قلد الملكة (بلانش قشتالة) الوصاية . أما البارونات الفرنسيون فقد كانت الفرصة متاحة لهم للقيام ضد السلطة الملكية التي أصبحت كاسحة كثيراً . ولذلك فإن امرأة ، علاوة عن أنها أجنبية ، يمكن أن توضع بسهولة تحت الوصاية .

ولسوء حظ حسابات البارونات كشفت الوصية عن امرأة قوية موهوبة بحس سياسي عظيم . أمنت تربية الملك الفتى ، وأخذت الأمراء الشائرين الواحد بعد الآخر : كونت شامبانيا ، تيبو ، ودوق بروتانيا ، بيير موكليرك اللذين كانا على رأس معظم التآلبات التي عقدت وانحلت خلال عشرة أعوام . وفي غرب فرنسا كانت هذه التآلبات يساندها عدة أمراء صغار وكل المنطقة الشرقية المتمردة . وفي جنوبي فرنسا أفاد ريمون السابع من هذه الحالة لاستعادة كونتية تولوز وطرد بارونات الشمال . وفي ١٢٢٨ م قام البارونات بمحاولة لخطف الملك ولكنها أخفقت . وبمساندة المندوب الحبري الملكة ، حصلت على أول نجاح . فقد خضع لها ريمون السابع ؛ وفي معاهدة باريس (١٢٢٩ م) اعترف به تابعاً للملك فرنسا ، وثبت التخلي عن بوكير وكاركاسون وأخيراً تعهد بأن يزوج ابنته إلى أخ للعاهل . وانتخب الفونس بواتيه . وهيمى كل شيء على أنه في حال وفاة الزوجين دون ولد ، أن تنضم كونتية تولوز إلى التاج ، وقد أحسنت الملكة في رد التابع الكبير إلى حظيرة الطاعة ؛ وكانت قد هيأت ارتباط اللانغدوك بالدومين الملكي . ونجحت في فصل كونت الشامبانيا الشاعر في حينه ، عن المؤامرة . وقام المتآمرون بمحاولة أخرى ، فأخفقت في ١٢٣٠ م ؛ فقد قدم كونت بروتانيا ولاءه للملك إنكلترا ، وأنزل هنري الثالث جيوشاً في سان - مالو ولكن البارونات البروتانيين رفضوا في هذه المرة أن يتبعوا كونتتهم واضطرب ملك إنكلترا إلى الإقلاع ، فيما رجا بيير موكليرك العفو عنه وذهب للحرب الصليبية . وفي ١٢٣٤ م زوجت بلانش قشتالة ابنها مرغريت ، البنت البكر لكونت بروفانس . ويبدو أن دورها قد انتهى لأن الملك في السنة التالية بلغ سن الرشد المحدد بالعرف الإقطاعي .

غير أن ظروف وإرادة العاهل الشاب قررت غير ذلك ، لقد ترك لويس التاسع احتراماً لأمه قسماً كبيراً من إدارة الحكم . وأخذ هو نفسه رئاسة الجيش

لشحق محاولة جديدة لثورة إقطاعية ، في ١٢٤١ م ، وذلك أن كونت المارش الذي كان قد أسهم من قبل بمؤامرات كثيرة وتزوج أرملة جان دون أرض ، تمرد مرة ثانية . ومن جديد نزل هنري الثالث على القارة ، فهزمه لويس التاسع على نهر الشارانت واستولى على مدينة سَنُت . وانتابته حمى مرزغية (مستنقعية) (مالاريا) أثناء العمليات واضطرته إلى قبول هدنة طلبتها إنكلترا ، ثم أصيب بنزلة ثانية أشرف فيها على الموت (١٢٤٤ م) . وعندما شفي ، أعلم أمه المجهدة بقراره للذهاب والمشاركة في الحرب الصليبية في المشرق العربي ، حتى إنه لم يفكر فقط بسلامته الخاصة وإنما أيضاً بمصير المشرق المسيحي الواقع تحت الخطر بعد هجوم الأتراك الخوارزميين وأخذهم القدس (١٢٤٤ م) . وفي هذه الظروف امتدت الوصاية بإرادة الملك المهتم في الدفاع عن المسيحية أكثر من اهتمامه بالحكم .

كانت الحملة الصليبية السابعة فرنسية تماماً ، انطلقت من أيبغ - مورت في آب ١٢٤٨ م ؛ لأن زواج أخ الملك ، شارل ، كونت أنجو ، مع وريثة بروفانس قد ساعد على إقامة قاعدة لانطلاق الصليبيين على الشاطئ البروفانسالي . وقدر لويس التاسع أن يهاجم المسلمين في مصر . نزل أمام دمياط ، واستولى على المدينة في حزيران ١٢٤٩ م ، غير أن فيضان النيل اضطره إلى البقاء خمسة أشهر دون عمل . وعندما باشر بالزحف على القاهرة ، كان لدى المسلمين متسع من الوقت لبناء حصن المنصورة خلف القناة . واستطاع الجيش الفرنسي أن يجتاز هذه العقبة الأخيرة ، ولكن روبرت آرتوا ، أخ الملك ، بإطلاقه هجوماً جنونياً على الحصن تسبب في قتل طليعة الجيش كلها . وأهلك مرض التيفوس باقي الجيش الذي أصبح مطوقاً . ومع أنه كان مع الملك متسع من الوقت ، إلا أنه رفض الفرار ، واستسلم في نيسان ١٢٥٠ م . أما المرتزقة الأتراك ، المماليك الذين استولوا على السلطة في مصر ، في غضون ذلك ، فقد قبلوا ، مقابل فدية ٥٠٠٠٠٠ ليرة ، وإرجاع دمياط بتحرير العاهل الكابسي . ثم أبحر هذا إلى سورية ، وقضى

ففيها أربعة أعوام ، من أيار ١٢٥٠ م إلى نيسان ١٢٥٤ م ، ولم يستطع أخذ القدس . بيد أنه قام في الأرض المقدسة بعمل ممتاز : أزال استحكامات عكا ، ويافا وصيدا ، ووطد النظام بين الفرنجة . وبفضل هذا التدخل عرفت المملكة اللاتينية مهلة أربعين سنة .

وأخيراً قرر لويس التاسع العودة إلى فرنسا حيث توفيت والدته بلانش قشتالة (١٢٥٢ م) ، وأمن أخوه الفونس بواتيه الإدارة بشكل فائق .

وعندما بلغ الملك سن الرابعة والأربعين ، في ١٢٥٤ م ، استأنف ممارسة السلطة ، وكان مثار الإعجاب العميق لدى معاصريه .

لويس التاسع عاهل تقي ولكنه متسلط مستبد

إن من صنع نفسه في الشرق جندي المسيح ، وعرض حياته في النضال ضد المسلمين في عصر لم يكن فيه المثل الأعلى للفراس التقي المثل الأعلى لأكثرية الأمراء ، كان مسيحياً كاملاً ، واضطر لحكم البلاد أن يتخلى عن الحياة الديرانية التي كانت تفتنه ، وحاول أن يوجه حياته حسب التعاليم الإنجيلية . وكرس للممارسات الدينية ساعات طويلة . ويذكر لنا مؤرخ حياته ، غليوم دوسان - پاتوس ، أنه كان يكرس نفسه لدراسة الكتاب المقدس .

وخوفاً من الذنب أخضع نفسه لحياة النسك حتى في خارج أدوار الصوم أو التوبة . وأخيراً دفعته التقوى الفرنسيسكانية إلى القيام بروح الخشوع بأعمال الإحسان . وكان من عاداته أن يغسل أقدام الفقراء ويساعد البائسين ويعتني بالمرضى والجذامى . وبين المستشفيات والملاجئ التي شيدت بأمر القديس لويس ، كان مستشفى الكنز - ثان لأجل « فقراء العميان في مدينة باريس » و « دار بنات الله حيث ألجأ الكثير الكثير من النساء اللائي اضطرهن الفقر إلى

ارتكاب ذنب الدعارة والفجور) أكثرهن شهرة . وأخيراً أسس عدداً من الكنائس والأديرة مثل كنيسة رويومون ؛ ولحفظ بقايا جسد القديسة إيبين شاد في جزيرة المدينة باريس (الكنيسة المقدسة) . وهذه اللوحة التي رسمها المؤلفون الأتقياء لسير القديسين ، ويبدو أنها مقتبسة في ظرف ما من « الأسطورة الذهبية » ، هي صحيحة دون شك ولكن ينقصها بعض الملامح . ولا نجد أي تفاهة في طبع القديس لويس ، لقد كان الملك تقياً ، ولكنه لم يكن غارقاً في الورع ، وكان عرضة لثورات غضب عنيفة . والإحسان عنده لا ينفي الخزم في سلوك الحكم . إن لويس التاسع الذي قبل المنصب الملكي ، شغله دون ضعف ودون تنازل . وأكثر من أي ملك كابسي ، كان مفعماً بالامتيازات الملكية وحتى الاستبدادية . وإذا أضفى طواعية لنصائح رئيس أساقفة روان ، أود ، أو لنصائح روبر دو سوربون ، فلم يكن لديه وزير أو محظي يقاسمها حكم المملكة . وهذه السلطة لاتنحني أمام أي سلطة ، حتى ولا سلطة كبار التابعين . فقد ذكر بشدة أخاه شارل الذي سجن تابعاً له بغير حق : « لا يوجد إلا ملك واحد في فرنسا » ، واستمر في سياسة التدخل الملكي التي طبقتها فيليب أوغست في الإمارات ؛ ولا سلطة الأساقفة : فالأخبار الذين يطالبون بتدخل الذراع الزمنية ضد الكافرين المحرومين (المطرودين من الجماعة) ، فقد ردّ الملك عليهم بأنه لا يعمل إلا إذا كان واثقاً من أخطائهم ؛ حتى ولا سلطة البابا ؛ فقد حمى كنيسة فرنسا من مزاعم البابوية بالتصرف بالأموال التي تعطيها أحياناً إلى أجانب ، وبفرض ضرائب على الأكليروس الفرنسي . وأكد لويس التاسع على أن يستعمل سلطته ليحدث في فرنسا نظاماً دينياً لا نظاماً أكليروسياً ؛ ففي مملكته رغب في سيادة العدل وفي البلاد المسيحية في ترقية العدل .

(١) الأسطورة الذهبية : اسم أطلق في القرن الخامس عشر على مجموعة حياة القديسين التي ألفها جاك دو فوراجين نحو ١٢٦٠ م .

لويس التاسع عاهل « عادل »

وفي النصائح التي يسديها إلى ابنه ، كان يعبر عن مثل أعلى في الحكم مؤسس على العدل ، ودأب طوال حكمه على أن يكون ذلك العاهل (العادل) . ويعجبه أن يقيم العدل بنفسه . وهناك صورة للملك القديس وهو يقيم العدل تحت شجرة السنديان في غابة فانسين ، ترمز بشكل ضارب إلى التقدم الجديد الذي تم بالعدل الملكي على حساب العدل الأميري . وفي الحقيقة ، إن الملك لا يقاضي بنفسه كل الحالات المطروحة عليه ؛ ولكن قسماً من بلاطه تخصص قليلاً قليلاً في القضايا القضائية . وبراءة ١٢٦٠ م تنظم هذا الأصول في اللجوء إلى الملك .

يهدف كل التشريع الذي أعلنه لويس التاسع رسمياً إلى تأمين نصر العدل مشاركاً الفضيلة ؛ العدل الأخلاقي (المعنوي) أولاً . لقد صدرت براءات تحرم الدعارة والقمار (١٢٥٤ - ١٢٥٦ م) وتهدد المجدفين بعقوبات شديدة . وتصر على العدل في المعاملات التجارية . وعلى أن العملة الملكية الصالحة ، يجب أن تتداول في المملكة . لقد ضرب لويس التاسع عملة فضية وعملة ذهبية . وفي الوقت نفسه ، اتخذ إجراءات لتضييق سطح تداول النقود الأميرية . والعدل في الأخلاق الإقطاعية : إن حمل السلاح ممنوع على النبلاء كالفلاحين (١٢٥٨ م) ، وكذلك الحروب الخاصة . والعمل أمام محكمة يجب أن يحل محل الثأر الخاص . ومنذ الآن يجب ألا يكون هذا إلا دعوى ، لأن المبارزة القضائية ، الأصول القديم في قضاء الله ، قد ألغيت وحل محلها ، بينات الشهود والمواثيق . وأخيراً ، العدل في الإدارة الملكية : إن من يكلفهم الملك بتطبيق هذا التشريع يجب أن يكونوا أنفسهم في غنى عن كل لوم ، ففي ١٢٤٧ م ، قبل أن يذهب إلى الحرب الصليبية ، ثم من جديد في ١٢٥٦ م ، أمر الملك بإجراء تحقيقات على إدارة القضاة ، وكان المحققون مكلفين بإصلاح الأخطاء التي تسببت فيها الإدارة السيئة لعمال السلطة . وفي ١٢٥٦ م ، ثبتت براءة ملكية بوضوح حقوق وواجبات القضاء ورؤساء القضاء .

لقد كان لويس التاسع مشعباً بمثل أعلى في العدل . وباختصار ، عمل في الاتجاه نفسه الذي سلكه فيليب أوغست ، وتابع عمل المركزية الذي بدأ به جدّه ، وكل شيء يلتقي فيه . وكذلك تدخلات العدل الملكي إن في الإمارات أو في نهوض التشريع الملكي المطبق في الحقيقة بصورة أساسية في الدومين الملكي أو في تقديم ضرب النقود الملكي . وعقب حكمه ، حتى وإن لم تطبق كل هذه الإجراءات ، فإن السلطة الملكية قد تعززت بشكل عظيم . وفي الوقت نفسه عظم نفوذها الروحي : إن الصورة المعنوية السامية للملك باهتامة بحماية المساكين والفقراء أنمت عند الشعب صوفية الملكية .

العاقل داعية سلام

بين التوصيات التي خلفها لويس التاسع لابنه إلى جانب العدل ، ترك مكاناً هاماً للسلام .

في السياسة الخارجية ، حاول لويس التاسع ، خلال حكمه ، أن يكون ، كما يقول ، (مهدئاً) . وما من ضعف في هذا الموقف ؛ لأن الملك في بداية حكمه عرف كيف يتخذ السلاح لدفع الإنزالات الإنكليزية على الشواطئ الفرنسية . وأطرح دوماً كل تدخل لدولة أجنبية سواء أكان تدخل البابا أم تدخل الإمبراطور . ولكنه تمسك بالسلام . ولئلا يكون هذا السلام هدنة بسيطة قصيرة الأمد ، كان مستعداً للقيام بتنازلات خاصة لإرضاء الخصم . وهذه الحالة الفكرية ظهرت في معاهدة كوربي الموقعة في ١٢٥٨ م مع ملك أراغونة ، على أن تكون بموجبها إيزابل أراغونة خطيبة لفيليب وارث العرش الفرنسي ؛ وأن يتخلى العاقل الفرنسي عن سيادته الاسمية منذ زمن طويل ، عن روسيون وكونتية بارشلونة . وبالمقابل يتخلى ملك أراغونة عن كل ادعاء في كونتية تولوز ، باستثناء مونبيلييه التي ظلت تحت سيادته . وأراد أن يقيم مع إنكلترا صلحاً

نهائياً ، فموجب معاهدة باريس (١٢٥٩ م) يتخلى لويس التاسع للملك إنكلترا عن الليموزن والبيريغورد وكيرسي التي ضحمت الغويين دوقيته . وبالمقابل ، يتخلى هنري الثالث نهائياً عن نورمانديا ، والآنجو ، والتورين وبواتو ويعترف به علناً بصورة رسمية تابعاً للملك فرنسا من أجل إقطاعة الغويين . ووعد ملك إنكلترا أيضاً أن يدفع ثمن تجهيز خمس مئة فارس خلال عامين (لخدمة الله والكنيسة) . وكان ملك فرنسا لويس التاسع يأمل أن يجز فرنسا وإنكلترا المتصالحتين إلى مشروع جديد للحرب الصليبية .

وهذا الصدق والاستقامة ، وهذه الروح العادلة جعلت من القديس لويس حكماً لأوربة ؛ وفي كل الخلافات ، ترجى وساطته . ففي ١٢٦٤ م مثلاً ، حاول أن يصلح ذات بين ملك إنكلترا مع كبار بارونات مملكته الذين ثاروا ضده . ولسوء الحظ ، اقتنع في آخر حكمه ، بدعم سياسة أخيه (شارل) الطموحة : فقد قبل هذا الأخير ، بناء على طلب أورينو الرابع بتقليد مملكة صقلية . وكان شارل آنجو يحلم بأن يرجع لصالحه إمبراطورية القسطنطينية اللاتينية ومملكة القدس ، وأراد أن يؤمن لنفسه السيطرة على البحر المتوسط الغربي . ونجح في جرّ لويس التاسع الذي شارك من جديد في الحرب الصليبية في ١٢٦٣ م ، في مغامرة حملة على تونس . ركب الملك البحر من إيغ - مورت ، في ٤ تموز ١٢٧٠ م ؛ وما أن نزل الجيش على الساحل التونسي ، إلا وأصيب بوباء الطاعون ، وهلك الملك في ٢٥ آب تحت أسوار تونس .

وبعد حكم كرس لنصرة الإيمان والعدل ، توفي الملك شهيداً . ومنذ ذلك الحين ، اعتبره الكثير من معاصريه قديساً ؛ وفي ١٢٩٧ م ، أعطى البابا لهذا الحكم تتويجه الرسمي وحكم بتطويب القديس لويس . وانعكس جاء العاهل على المملكة الفرنسية بكاملها ، وأسهم في إشعاع الفكر والفن الفرنسي الذي بلغ آنذاك قمة الأوج في أوربة الغربية .

٢ - فيليب الجميل وبدايات الأزمة الفرنسية

لم تأت السنوات الخمس عشرة التي تلت وفاة القديس لويس بأي تغيير هام في السياسة الفرنسية ؛ لأن ابن لويس التاسع ، فيليب الثالث (١٢٧٠ - ١٢٨٥ م) ، بالرغم من التربية السياسية الفائقة التي تلقاها ، كان عاهلاً ممحياً تقريباً منجذباً بين نفوذ محظيه الجراح بيير دولا بروس ، ونفوذ زوجاته المتعاقبات . ولكن السياسة الفرنسية استمرت أيضاً على الانطلاقة التي طبعها بها القديس لويس ، فإليه تعزى نجاحات الحكم . لقد ضم فيليب الثالث إلى الدومين الملكي تركة الفونس بواتيه ، الذي توفي دون وارث في ١٢٧٠ م ؛ واتحاد بلاد لغة أويل ، بلاد الشمال ، مع بلاد لغة دوك ، بلاد الجنوب ؛ كونتية تولوز ، البيجوا وروويرغ ، كان قد تمّ دون أن يكون للملك الحاكم فيه أي نصيب . وإن زواج فيليب ، ابنه الثاني ، بوارثة كونتية الشامبانيا أصبح ، بفضل الحظ ، عملية سعيدة . إن موت الابن البكر لفيليب الثالث جعل من فيليب وارثاً للعرش وساعد في المستقبل على ربط الشامبانيا والبري بالدومين الملكي . أما إخفاقات الحكم فتعود أيضاً إلى العناد الذي تابع به فيليب الثالث الأخطاء السياسية لآخر حكم القديس لويس . فقد دعم دون تحفظ سياسة شارل أنجو ، عمه ، ملك صقلية . وحامى عنه في النزاع الذي وقع بينه وبين ملك أراغونة ، والجيش الفرنسي شارك في (صليبية أراغونة) . وفي ١٢٨٥ م ، أخذت جيرونة ولكن الأسطول الفرنسي تبعثر في لاس فورميغاس ؛ لقد أصيب الأسطول بوباء ، واضطر إلى الانسحاب . ومات الملك في سياق هذا الانسحاب .

فيليب الجميل وجه غامض

إن حكم فيليب الرابع الجميل (١٢٨٥ - ١٣١٤ م) كان بالمقابل ، حكم جده ، حاسماً بالنسبة لفرنسا . ومع ذلك ، فمن الصعب إعطاء حكم أكيد على

شخصية هذا العاهل الذي كتب عنه الإخباري جيوفاني فيلاني يقول : « كان من أجمل رجال العالم ، ومن أعظمهم قامة ، وأجود تناسباً في كل عضو » . وفيليب الرابع أسيئت معرفته كما عرف جيداً القديس لويس ، واستخف به كما أعجب بجده . وقد تردد المعاصرون كالمؤرخين المحدثين ، هل هو متعصب للسلطة الملكية . ويرتاب في كل مكان بالخيانة ، والهرطقة واللاأخلاقية ، ومستبد . إن الدرامات التي جرت في حياته الأسرية الخاصة يمكن أن تبعث إلى الظن ؛ ففي ١٣١٤ م انفجرت فضيحة فظيعة ، فقد اتهمت إيزابيل فرنسا ، بنت الملك ، زوجات أخوتها الثلاث بالزنى . فقد تركن على الأقل أنفسهن بكثير من الخفة يتعرضن للخطر من قبل فارسين من البلاط ، فيليب وغوتيه دونيه . وبأمر الملك ، أعدم هذان الفارسان ببساطة ، وحكم على الأميرات الثلاث الرعنات بقضاء باقي أيامهن في السجن . ووجد الكسندر دوما في ذلك موضوعاً لميلودرامته (برج نيل) . ولكن في السياسة ، هل كان هذا التشدد من المليك مخلصاً ، ألم يكن مرئياً يتظاهر بتصديق كل الاتهامات عندما تساعده على التخلص ممن يضايقونه . ويرى آخرون ، بالعكس ، أن فيليب لم يكن إلا ألعوبة بين أيدي مشاوريه .

من الأفضل التمسك بالوقائع ، فالإتهام ، عن خطأ أو صواب ، ضد مشاوري الملك ، في ذاته كاشف للسرمذيع للخبر . والملك ، حتى ولو تغلبت إرادته أخيراً ، لم يكن الوحيد في الحكم . إن عدد ونفوذ موظفي الملك ما فتئ في ازدياد ، وأدى إلى تسارع المركزية الملكية . لقد كان حكم فيليب الجليل حكم (المشرعين) بشكل فائق ، « هؤلاء الأناس الرقيقين الحال ، جعلهم الملك سادة في البلاط » كما أظهر ذلك أيضاً (التاريخ الشعري) . وهؤلاء الحقوقيون ، من بورجوازيين وصغار النبلاء المختصين بالحقوق الرومانية ، الذين يعينهم الملك ويعزلهم ، كانوا يفكرون بأن الملك سيد مطلق ، لأنه المعبر عن الخير العام .

وبين أهم مشاريه ، وعلى الأقل من يظهرون لنا في الوثائق ، نذكر أولاً :
 بيير فلوت حافظ الاختام من ١٢٩٨ م حتى وفاته (١٣٠٢ م) ، وغليوم
 دو نوغاريه Guillaume de Nogaret ؛ وفي السنوات الأخيرة أصبح أنغيران
 دو ماريني المشاور المحظي . وهؤلاء وأمثالهم استوطنوا بلاط الملك القديم . وتحت
 نفوذهم ، ولمعالجة الشؤون العديدة والمعقدة ، أكثر فأكثر ، انقسم البلاط إلى أقسام
 مختصة : فلأجل المشاكل القضائية ، البرلمان ، الذي كان منفرداً في عصر القديس
 لويس ، نظم في ١٣٠٣ ونمى عمله . واختص قسم آخر من المشاورين في الشؤون
 المالية ، ديوان المحاسبات الذي بدأ بمراقبة إيرادات الدولة ونفقاتها . ومحلياً تعزز
 عمل القضاة ورؤساء القضاة . وكل هؤلاء القضاة يفكرون بأن الملك لا يمكن أن
 يعرف حدوداً لسلطته ولا سلطة أعلى من سلطته . وظهرت وجهة النظر هذه
 بخاصة في سياسة الملك حيال كبار أتباعه بل وحتى البابا .

فيليب الجميل وأتباعه

عاود فيليب الجميل تجاه تابعه ، ملك إنكلترا ، السياسة التي وضعها فيليب
 أوغست موضع التطبيق ؛ فمن ذلك أن إدوارد الأول قدم له ولاءه ؛ ولكن
 التنافس الذي وقع بين الملاحين البروتانيين والنورمانديين ضد ملاحي الغويين
 تحول إلى معارك بحرية ؛ ففي الإقطاع البلانتاجوني ضاعف عمال الملك
 التجاوزات ، مما حث الدعوات لبرلمان باريس . وفي تشرين الأول ١٢٩٣ م ، دعا
 فيليب الرابع ملك إنكلترا للحضور أمام محكمته ، ولما رفض هذا المشول ، حكم
 برفع يده عن الإقطاع وردها ، في أيار ١٢٩٤ م . واستؤنفت الحرب . وفي سياق
 العمليات ، استولى ملك فرنسا على ما يقارب كامل الغويين . ومع ذلك ، كان
 يعمل أيضاً ملكاً لا يمكن أن يدرك نظاماً سياسياً أجنبياً عن المؤسسات
 الإقطاعية ، ورضي أن يقبل هدنة مؤقتة يفاوض فيها النواب الجيريون ومن ثم
 سلام مصالحة كما فعل القديس لويس ؛ وردّ أكتانيا إلى إنكلترا ليرسخ بشكل

أفضل الوفاق الذي وجد من جديد ، ويفاوض زواجاً مضاعفاً يوحد السلالتين : وذلك بأن تتزوج أخت فيليب الجميل إدوارد الأول ، ويتزوج وارث عرش إنكلترا ابنة ملك فرنسا . وإذا رضي بذلك فيليب فذلك لأنه كان مضطراً ، لأن آخر أتباعه ، كونت فلاندر ، غي دو دامبير ، الذي دفعته رعاياه في المدن (القماشية) التي ترغب بالإبقاء على علاقات اقتصادية طيبة مع الجزيرة المجهزة بالصوف ، كان قد انتقل إلى معسكر إنكلترا وهدد بشكل خطر شمال الدومين الملكي . وما أن وقعت الهدنة مع الملك الإنكليزي ، إلا واثق فيليب الجميل ضد الفلاندر ؛ فقد سجن الكونت غي وأخذ ملك فرنسا ، باعتباره سيداً ، على عاتقه إدارة الكونتية الفلاماندية مؤقتاً . غير أن الحاكم الملكي ، جاك دو شاتيون ، بالعكس ، عقد حلفاً مع الطبقة النبيلة الفلاماندية ؛ وبين الشعب الصغير في المدن والكونت ، تحقق الوفاق بعد ذلك ضد الفرنسيين والبيليارت (أنصار أزهار الزنبق) : ففي ١٣٠٢ م دبح الحامية الفرنسية في بروج . وأرسل الملك إلى الفلاندر جيشاً من الفرسان وبادر هؤلاء إلى الكفاح بشكل فوضوي وسحقهم جيوش الحياك واللباد الفلامانديين في كورترية (١٣٠٢ م) .

وبعد عامين ، وطد الحال من جديد بفضل النصر الذي أحرزه في مونس - أن - پيشيل (١٣٠٤ م) ، واستطاع أن يضم إمارات ليل ، ودوويه ، وبيتون . ولكن الشعب الفلاماندي لم يخمد .

فيليب الجميل وبونيفاس الثامن

حتى آخر القرن الثالث عشر ، لم تضع العلاقات ، بين الزماني والروحي ، مشاكل خطيرة في فرنسا . غير أن خلافاً عنيفاً انفجر ، عندما وجد وجهاً لوجه - عاهل منعم بالسلطة الملكية ، فيليب الرابع ، وحبر متشدد ومدافع متحمس عن النظريات التيقراطية (المشيئية) ، وهو البابا بونيفاس الثامن

(١٢٩٤ - ١٣٠٣ م) . حدثت أول مناوشة بمناسبة ضريبة الأعشار التي فرضها ملك فرنسا على الأكليروس أثناء الحرب الإنكليزية . غير أن البابا منع بقراره (١٢٩٦ م) كل دولة زمنية من أن تفرض ضريبة على الأكليروس دون ترخيص من الكرسي الأقدس . احتج الملك ، ولكن الحادث انتهى بعد تبادل بعض المكاتبات القذحية والعنيفة .

وبعد بضع سنوات قفز الخلاف من جديد على إثر قضية أسقف پاميه : فقد اتهم بأنه تأمر مع ملك إنكلترا ، ومثل أمام القضاء . وطالب البابا عندئذ أن يطلق سراحه ويأتي إلى روما ويبرر نفسه ، وفي الوقت نفسه شجب كل مزاعم الملك وأعلن بالمرسوم « اوسكولتا فيلي » دعوة مجمع حيث اجتمع الأساقفة الفرنسيون خارج فرنسا وتناقشوا بـ « إصلاح شكل المملكة من جديد » . وهدد فيليب الجميل بالخلع ، وناور مشاوروه بمهارة قوية . وللنضال ضد البابا ، أمن الملك لنفسه قبل كل شيء مساندة الأمة : ولأول مرة في تاريخ فرنسا ، انعقد ، في ١٠ نيسان ١٣٠٢ م ، في كنيسة نوتر-دام ، مجلس مؤلف من ممثلي طبقات المملكة الثلاث ، الأكليروس ، الطبقة النبيلة ، الطبقة الثالثة . وهذا هو أول اجتماع لما « سيصبح فيما بعد » مجلس المملكة العام . ووافقت الطبقات الثلاث على سياسة الملك . وحصل فيليب أيضاً على مساندة كنيسة فرنسا : فأمام الكبار ، من كنسيين وعلمانيين ، مجتمعين في ١٤ حزيران ١٣٠٣ م ، أطلق ضد الخبر الروماني اتهام بالهرطقة والسيونية .

وقبل الآباء والأساقفة الحاضرون بأن يطلق فيليب الجميل ضد البابا دعوة لمجمع عام . وبرفض البابا دعوة المجمع ليبرئ نفسه ، يكون قد صرح بهذا بأنه مجرم ويجب أن يوقف ليقاضى . وكلف غليوم دو نوغارية من قبل الملك بتنفيذ هذه المهمة : ففي مدينة أناغني ، دعمت نوغارية جيوش آل كولونا ، أعداء البابا الرومانيون ، وألقي القبض على شخص بونيفاس الثامن (٧ أيلول ١٣٠٣ م) .

وبعد قليل ، خلع سكان آناغي البابا ، ولكنه توفي بعد شهر . ولم يلق الملك السلاح بهذه الوفاة . فقد حصل من البابا كليان الخامس على دعوى ضد مذكرة بونيفاس . واعترف بغيره ملك فرنسا بأنها طيبة وعادلة . ومحيت جميع الأعمال (الصكوك) الموجهة ضده من السجلات الحبرية . وانتصر ملك فرنسا .

المشكلة المالية - قضية فرسان المعبد

هذه النجاحات أساءت إخفاء المشاكل المتزايدة التي يلاقيها الملك على الصعيد المالي : فقد عظممت حاجات الملكية كثيراً وبأسرع من موارده في عصر بدأت فيه بالظهور أولى المؤثرات لأزمة اقتصادية . والحادث كان أورياً ، ولكنه أصاب فرنسا بخاصة ، كان اقتصادها عرضة للنقد لأنه كان تابعاً للخارج . تصدر فرنسا منتجات أرضها ، الحمر ، العظم ، وما تستخرجه من البحر مثل الملح . وأثرت من تيار المبادلات الدولية الكبير الذي يجتازها وأدى إلى نمو أسواق الشامانيا ؛ وأخيراً ، إن النمو الاقتصادي كان في القسم الأعظم منه بفضل القروض التي يقبل بها أصحاب المصارف الإيطاليون : وهم متولون فلورانسيان بيسشيو وموستشياتو المشاوران الماليان للملك . وعلى إثر الأزمة الدولية ، عندما بدأ الزبائن الأجانب يقلصون مشترياتهم ، وعندما نأت الطرق الدولية عن الأرض الفرنسية ، وأشرفت أسواق الشامانيا على الخطر ، تأثر اقتصاد البلاد بشدة ، وانفجرت اضطرابات اجتماعية في المدن الكبرى . وفي هذه الظروف ، أسيء قبول متطلبات الملك المالية أكثر فأكثر . وحاول فيليب الرابع كسلافه إقامة ضرائب نظامية . ولكن هذه الضرائب التي تضرب شعباً مصاباً من قبل بالأزمة دخلت من جديد بشكل سيء جداً : ففي ١٢٩٥ م ، وضع رسم على السلع فأثار ثورة في باريس . وفي آخر حكمه ، حاول الملك الحصول من رعاياه أنفسهم أن يقبلوا بالضريبة : ففي الأول من آب ١٣١٤ م اجتمع مجلس الملكة العام في باريس والتمس منه أن يقوم بمساعدات للملك . وضربت الرسوم الثقيلة اليهود

واللومبارديين ؛ وأحياناً صودرت كل أموالهم وطردوا . وكان يسعدهم ألا يكونوا ضحايا المذابح الجماعية ، لأن الملك بعد أن أحس بتعاضم الاستياء حاول أن يحول غضب الشعب إلى اليهود المسؤولين عن كل الأخطاء والأغلاط . ولم تكن الضرائب والرسوم كافية . ولعب الملك أيضاً بتحويل النقد . فإما أن يزيد القيمة الاسمية لقطع النقد ، أو ينقص كمية المعدن الثمين التي تحتويها . وهكذا حقق ربحاً بالضرب أو الإصدار . وهذا التخفيض في قيمة النقد ساعده في الوقت نفسه على وفاء ديونه بنقد ضعيف .

ولم يهتم فيليب الرابع بالنتائج الاقتصادية لمثل هذه العمليات ، لأن تخفيض النقد يؤدي بالنتيجة إلى ارتفاع في الأسعار قاسٍ بالنسبة لرقيقي الحال ؛ وفقد الشعب والتجار الأجانب الثقة بمثل هذه النقود وتأثرت المبادلات بها .

وعلى ما يبدو ، يجب ربط إحدى درامات آخر العهد بالقضية المالية ، وهي دعوى فرسان المعبد ، فبعد سقوط عكا وخسارة آخر قصور الأرض المقدسة ، انطوى النظام ورجع إلى أوربة . وكان يتمتع بعد بإيرادات هامة يحفظها في صناديقه ، وتوصل إلى الانشغال بالمسائل المالية : فقد أخذ على عاتقه نقل الأموال ، وقبل أن يحفظ ودائع الأفراد في ملجأ داخل الأسوار القوية لقياداته . وفي معبد باريس كانت تحفظ الخزينة الملكية . وأغرى الملك ومبستشاريه حذف النظام والاستيلاء على أمواله ، لاسيما وأن الإشاعات المقلقة منذ زمن طويل كانت تسري ضد النظام . فقد كان يحكى بأن الرهبان الفرسان كانوا قد باعوا الأرض المقدسة للمسلمين ، وأنهم يمارسون السحر . وكان من السهل استغلال هذه الإشاعات والضجيج حولهم . وحصل الملك من البابا كليمان السابع على السماح بالقيام بتحقيق في الأمر . وفي ١٣ تشرين الأول ١٣٠٠ م ، أمر فجأة بإيقاف جميع المعبدين ، وسؤالهم بعماله الخاصين قبل أن يسلمهم لمحكمة التفتيش ، وعندما خضع الإخوة الفرسان للتعذيب اعترفوا . ومن ثمَّ رجع العديد من الإخوة عن

اعترافاتهم . ولكن اثنين وخمسين معبدياً حاكمتهم المجمع الأسقفية وشجبوا على أنهم هراطقة وأحرقوا أحياءً . وهكذا كان مصير المقدم الكبير جاك دومولية (١٣١٤ م) آخر مدير كبير لفرسان المعبد .

أما الإخوة الآخرون الذين لم يرجعوا عن اعترافاتهم ، فقد تفرقوا في أنظمة ديرانية مختلفة بغية التكفير عن أخطائهم . وبفضل هذه الدعوى فإن جميع الاحتياطات النقدية التي وجدت في صناديق المعبديين قد احتجزها رجال الملك دون رقابة ولم ترد إطلاقاً . وحتى ١٣١٨ م ، قبضت الملكية إيرادات الأملاك التابعة للنظام ، ثم نقلت جزءاً من هذه الأملاك إلى المعبديين ، واحتفظت بالباقي لنفسها . وهكذا كانت العملية المالية مربحة .

وبقيت الأزمة الاقتصادية والمالية خطيرة كثيراً بنتائجها على الحياة السياسية . وعندما توفي فيليب الجميل (١٣١٤ م) ، كان الاستياء عظيماً : لقد حاول النبلاء أن يفيدوا من زوال قوة العاهل ليأخذوا بثأرهم من عصر التقدم الملكي ؛ وشكلوا عصبات وألقوا المسؤولية على مشاوري الملك الراحل .

كان لويس العاشر « المباحك » الابن البكر والخلف للملك فيليب الجميل ، وكان عليه أن يضحي لهم انغرّان دوماريني الذي شنق في مشنقة مونفوكون (مكان بين لافيللت وأكات شومون) ، ولجأه رد فعل الطبقة النبيلة ، حاولت الملكية أن تعتمد على مجموع الأمة ولا سيما الطبقة البرجوازية . فقد سبق أن جمع الملك فيليب الجميل مراراً ، في مجلس المملكة العام، الأخبار ، والبارونات وأثرياء البورجوازيين في المدن الطيبة ، فدل بذلك على الطريق . ولكن كان من المحتم أن يصل الأمر بالمثلثين في مجلس المملكة العام أن يطالبوا ، مقابل المساعدات ، بإصلاحات وبالرقابة على استعمال الأموال . وبالإضافة إلى المشاكل الاقتصادية أعدت أزمة سياسية في الوقت الذي ضعفت فيه الملكية بسبب المشاكل السلالية :

إن أبناء فيليب الجميل الثلاثة ، لويس العاشر المباحك ، الراج ، المنازع (١٣١٤ - ١٣١٦ م) ، وفيليب الخامس الطويل (١٣١٧ - ١٣٢٢ م) ، وشارل الرابع الجميل (١٣٢٢ - ١٣٢٨ م) تعاقبوا بسرعة جداً على العرش . ونظراً لعدم وجود وارث ذكر في الخط المباشر كان على البارونات ، في ١٣٢٨ م ، أن يختاروا من بين وارثين بعيدين : إدوارد إنكلترا وهو أقرب من غيره ، ولكنه أجنبي . ولذلك استبعده البارونات ، مدعين بالقانون السالي الذي يمنع كل وراثة في الخط المؤنث ، ووقع اختيارهم على فيليب دوقالوا : ولكن هذا القرار الذي يمكن أن ينازع ألا يخاطر بنش الخلاف القديم الفرنسي - الإنكليزي ؟

إنكلترا من جان دون أرض

إلى إدوارد الثالث

عرفت السلطة الملكية أوجها في إنكلترا في آخر القرن الثاني عشر ، في السنوات الأخيرة من حكم هنري الثاني . وبعد بضع سنوات ، تحت حكم جان دون أرض (١١٩٩ - ١٢١٦ م) ، تفجرت أزمة خطيرة امتدت حتى وفاة الملك هنري الثالث (١٢١٦ - ١٢٧٢ م) ، ولم يبدأ النهوض من هذا العثار إلا في آخر القرن الثالث عشر .

١ - جان دون أرض وأصول الأزمة

الميثاق الكبير

إن مباغطة الأزمة التي انفجرت تحت حكم جان دون أرض يجب ألا تخدع . فقد أعدت في الأعماق منذ زمن طويل . وتعززت السلطة الملكية بشكل عظيم في القرن الثاني عشر . ولكن في الوقت نفسه ازدادت أو نمت أيضاً قوة بعض طبقات المجتمع الإنكليزي التي ستصبح خصوماً تخشاهم الملكية . فالنبلاء في منازلهم المحاطة بالأراضي الزراعية اهتموا مباشرة بالاستغلال الزراعي وجنوا من أرضهم أرباحاً هامة ؛ وأعضاء الأكليروس الأعلى ، من آباء وأحبار ، ينتسبون أيضاً لهذه الفئة من كبار الملاكين العقاريين ، وهم بخاصة أصحاب قطيع غنم واسع يباع صوفه بشكل مربح في الخارج . ولأجل تجارة الصوف هذه ، كما لاستيراد الخمر والملح من القارة ، نمت ، في لندن خاصة ، بوجوازية تجارية عديدة . وكل هؤلاء الناس الحريصين على الدفاع عن مصالحهم الاقتصادية ، يهتمون في الغالب بالشؤون الإنكليزية الخاصة ، ولذا فإن كبار الملاكين بالتالي معادون للأرياف

على القارة التي تقتلهم من أرضهم وتضطربهم إلى دفع غرامة ثقيلة ؛ ووجدت البورجوازية أيضاً بأن هذه المشاريع العسكرية تكلف غالباً ، ولا سيما أنها تعكر الحياة الاقتصادية والاضطراب في المبادلات . أما الأكليروس ، فيدافع عن مصالحه المادية وأيضاً عن استقلاله الروحي أمام ملكية فقدت منذ مقتل بيكيت كل حالة دينية .

وما فتئ الظلم الملكي يتفاقم تحت حكم هنري الثاني وريتشارد قلب الأسد ، مثيراً الاستياء والحق في الطبقات الغنية من الأمة . وعلى الأقل إن الجهد المالي والعسكري ، اللذين طالب بهما الملكان ، وجد تبريره في انتصارات عديدة أحرزت على القارة . وزعم جان دون أرض أن يستمر بل ويصلب سياسة أسلافه على صعيد المركزية الإدارية وعلى صعيد العلاقات مع الكنيسة ، في الوقت الذي دار فيه الحظ على الأسلحة الإنكليزية وتلت الهزائم الهزائم . إن افتتاح الأزمة يرجع إلى هذا التناقض .

لم يكتف جان دون أرض برفع سعر النقد ، ودفع إلى الحد الأقصى ، في الحكم الداخلي لإنكلترا ، استغلال الرسوم الإقطاعية ، والقضائية في المملكة . وعند وفاة تابعه ، تحفظ الملك بالآ يقلد وارثه إلا مقابل دفع رسم الخراج . وهذه الممارسة ليست جديدة ، ولكن الملك جان رفع كثيراً سعر هذا الرسم : ولما كان كبار التابعين ينقلون إلى رجالهم الدين الذي يجب أن يدفعوه برفع ضريبة القامة (التاي) عليهم ، لذلك كان الاستياء عاماً . وهناك امتيازات أخرى استغلها العاهل حتى النهاية : كرم حراسة القاصرين ، ورسم زواج الفتيات والأرامل . وعندما يكون وارث الإقطاع قاصراً ، فللملك الحق في أن يجبي ، مقابل عدم الخدمة ، إيرادات الإقطاع . ومن حيث المبدأ يجب أن يرد هذه الإقطاعية في حالة جيدة عند بلوغ الوارث سنّ الرشد . وفي الواقع ، إن موظفي الملك

يستغلون الأراضي دون الاهتمام بتدبير مردودها في المستقبل . وعندما يكون الإقطاع نصيب امرأة ، يبيع الملك للأمير الذي يدفع أكثر من غيره يد الوارثة ، إلا إذا ترك هذه ، مقابل مال ، الحق في اختيار زوجها . وأخيراً كان قانون الغابة يحتل بعسر . إن الملوك الآنفلو - نورمانديين ، الذين كانوا صيادين كباراً ، أحدثوا أراضي كبيرة ذخراً لهم ظلت تعظم بعدهم . وفي آخر القرن الثاني عشر غطت الغابة ثلث إنكلترا ، ويقصد بها مسافات محرجة ، ولكن أيضاً أراضي عديدة دون غابة جردها هنري الثاني . وفي هذه المناطق ، ليس للسكان الحق على الإطلاق في قتل حيوان الصيد ، حتى ولو أتلّف المزروعات ، ولامس الخضرة ، أي النبات الطبيعي . ووجد جمع من الموظفين يطارد المجرمين ، الذين يستحقون في الحالات الخطيرة عقوبة الموت . ووجدت قصائد غنائية شعبية استوحى منها والتر سكوت في «ايفانهوويه» ، أحدثت صورة أسطورية لـ (روبين هود) ، روبن الغابات ، الذي يجسد ثورة صغار الناس ضد ظلم جان دون أرض . ولكن ، في الغالب تحت حكم جان دون أرض ، كان نظام الغابة وسيلة ضريبية ، لأنه يساعد على دفع غرامات عظيمة . وكل هذه الرسوم التي تثقل أتباع الملك وسكان الغابات ، كانت أيضاً وسيلة حكم . فقد كان بإمكانه أن يمسك حسب هواه بسهولة تابعين مدينين دوماً له .

لقد بلغ الاستياء درجة كاد فيها الخلاف أن ينفجر بين الملك وهيئة البارونات منذ سنوات ١٢٠٨ - ١٢١٢ م على إثر سياسة العاهل الدينية . إن موت هبرت غوتيه رئيس أساقفة كانتربري (١٢٠٥ م) كان في أصل خلاف خطير وقع بين الملك والبابوية ووضع الملك في حالة صعبة جداً . فقد انتخب مرشحان متنافسان ، أحدهما انتخبه الرهبان ، والآخر مرشح الملك ، انتخبه مجلس الأساقفة . وذهب وفد من الرهبان وممثلي الملك إلى روما لعرض القضية على إينوسان الثالث . وبعد أن أجرى البابا تحقيقه ، صرح بأن الانتخابين غير

قانونيين وأمر بانتخاب مرشحه الخاص إيتين لانغتون ، وهو إنكليزي خدم زمناً طويلاً في البلاط البابوي . رفض جان دون أرض قبول قرار الحبر الأعظم . وفي ١٥ آذار ١٢٠٨ م وضع البابا مملكة إنكلترا في حالة منع . رد الملك جان بأن أمر بمصادرة مباشرة لكل أراضي وأموال الكنيسة . وقبل كثير من الأساقفة مخالفة المنع الذي أصبح بهذا الواقع عديم التأثير . وفي ١٢٠٩ م قرر البابا حرمان العاهل الإنكليزي ، وبموجب ذلك تخلى الأساقفة عن العاهل . وما فتئت حالته تزداد سوءاً في السنوات التالية . ثارت هيئة البارونات وانضمت للأحبار في معارضتهم . ومن جهة أخرى ، بدأ أن إينوسان مستعد لخلع العاهل ، ودعم الترشيح إلى عرش إنكلترا ، الأمير لويس ، الابن البكر لفيليب أوغست . واضطر جان دون أرض إلى المفاوضة ، وتحت تهديد الغزو الفرنسي ، إلى تقديم خضوعه . وكان عليه أن يتوب ، ويدعو كل من نفاهم ، ويدفع للكنيسة الإنكليزية جميع الإيرادات التي صادرها ؛ وأخيراً أن يعد بالألأكليركيين . وكانت هذه الشروط قاسية جداً ، ومع ذلك فإن الملك جان شعر بأن الخضوع لها لا يكفي لتجنب جميع الأخطار التي تهدده ، الحملة التي أعدها الكابسيون وثورة البارونات التي تهيأ . فقدم أكثر من خضوع ، وأعلن بأنه يسلم مملكته للبابا ، وأعاده المفضو الحبري إليه كإقطاع من الكرسي الأقدس . وكوشر على إقطاعه إياها ، تدفع أتاوة سنوية . وهذا العمل السياسي الخالي من الذل كان حاذقاً للغاية ، فالبابا المخدوع ، المتباهي أصبح حليف جان وأخطر فيليب أوغست بأن يتخلى عن الإنزال . وانضم الأكليروس ، ماعدا لانغتون ، وجراًقسماً من البارونات إلى الانضمام له . وأنقذ جان دون أرض عرشه واحتفظ بكل سلطاته .

وكان أقل حظاً في سياسته القارية . فالبرغم من الهزائم التي دمغت بداية حكمه (١٢٠٢ - ١٢٠٥ م) ، لم يتخل جان دون أرض عن استرداد الإمبراطورية

الآنحفية . وفي السنوات التالية كلها ، اهتم بتشكيل خزانة حربية وعقد ضد فرنسا تآلباً أوريباً . وفي ١٢١٣ م ، قرر تنظيم حملة في بواتو ؛ ودعا باروناته إلى بورتسموث ، ولكن الجيش الإقطاعي كان قد خدم في الربيع لتأمين حراسة السواحل في الوقت الذي كان يخشى فيه من إنزال فرنسي . ورفض العديد من البارونات ، وبخاصة بارونات شمال إنكلترا أن يستجيبوا لهذه الدعوة ، فانحنى الملك لأنه فكر في إطلاق حملة واسعة النطاق في السنة التالية . وبالفعل ، ففي سنة ١٢١٤ م ، وبعد أن فرض ضريبة مالية على جميع التابعين الذين لم يشاءوا اجتياز المانش ، أبحر مع جيش فرسان صغير . ولسوء حظه ، لم تكن العمليات العسكرية لصالحه ؛ ففي ٢ تموز ١٢١٤ م ، هزم في لاروش - أو - موان ، وحليفه الإمبراطوري في بوفين ، في ٢٧ تموز ١٢١٤ م . وهكذا فإن كل الجاه الذي استطاع أن يحتفظ به حتى ذلك الحين ، قد ضاع تحت وطأة هذه الهزائم . غير أن بعض البارونات الذين رفضوا الانضمام إلى الحملة خشوا من جهة أخرى انتقامه . وأخيراً ، في بداية ١٢١٥ م ، وردت رسائل من الخبر الأعظم تأمر البارونات أن تدفع مرة جديدة الضريبة المالية إلى الملك . وكلف رئيس أساقفة كانتوربري بجرمان البارونات الذين لا ينفذون الأمر . وفي هذه الظروف ، عقدت ضد الملك مؤامرة ، وكان لانغتون روحها . فقد تجمع حوله بارونات وبورجوازية لندن ، وطالب الجميع بميثاق حريات . وحاول جان آخر جهد لتفريق التآلب ؛ ثم حاول أن يجرده من سلاحه معلناً عن نيته بأخذ الصليب والكفاح . بيد أنه أمام هذه الثورة المكشوفة ، اضطر للانحناء . وفي ١٥ حزيران ١٢١٥ م هجره الجميع في براج رونييد بالقرب من وندسور ، واضطر إلى قبول متطلبات البارونات وأقسم باحترام نص أطلق عليه فيما بعد الميثاق الأكبر .

إن الوثيقة التي أعدها البارونات وقبلها الملك ، لا يوجد في شكلها عمل ثوري . وهي لا تختلف في الظاهر على الأقل ، عن المواثيق التي خولها هنري الأول أو هنري

الثاني عند اعتلائها العرش . ولم يكن القصد التجديد ، وإنما بالعكس ، الرجوع إلى حالة قديمة . بحذف عدد من المساوئ الحديثة . وإن عمل العواهل الأنجليين ، وعن الإدارة ، والممارسة المشروعة للسلطة الملكية لم توضع على بساط البحث والتساؤل ؛ لأن القصد كان إحياء ضمانات قديمة لم يحترمها جان دون أرض . وهذه هي وجهة النظر التي تتضح في المواد الأولى التي تهم علاقات الملك مع الكنيسة من جهة ، ومع تابعيه ومدنه من جهة أخرى . لقد استعادت الكنيسة الإنكليزية (حرياتها) ، وبخاصة حرية الانتخابات الأسقفية ؛ أما البارونات فقد أمنوا من أن الملك لن يسيء تفسير الحقوق التي يخوله إياها العرف الإقطاعي .

وتحول مواد أخرى حماية الملك للتجار وتوجد نظام الأوزان والمقاييس .

ومع ذلك ، ذهب البارونات إلى أبعد من إرجاع بسيط للأعراف القديمة . وفي هذا المعنى يمكن أن يعتبر أن الميثاق الأكبر عمل إنكلترا أول خطوة نحو حكم مراقب من أسلوب برلماني ؛ لأن الملك لا يمكنه أن يفرض ضرائب استثنائية دون الحصول على موافقة مجلس المملكة الأكبر .

وهكذا حصل كبار المملكة على ما كانوا يرغبون به ، من احترام امتيازاتهم وحقوق قبول الضريبة .

ومع ذلك ، فإن مطالب البارونات تجاوزت في نقطة أخيرة إطار المصالح الأنانية لطبقة أصحاب الامتيازات ؛ لأن الميثاق الأكبر ضمن الحرية الشخصية لجميع الناس الأحرار ضد الاستبداد الملكي .

وبهذا يمكن أن يعتبر الميثاق الأكبر أول نص تأسست عليه الضمانات الدستورية الإنكليزية .

ولرقابة تطبيق هذا النص ، توقع البارونات تشكيل نوع من لجنة رقابة ؛

تاريخ العصر الوسيط ج ٢ (٧)

ففي الحالة التي لا يفي فيها الملك بوعوده ، توقع الميثاق الأكبر ، من أجل هيئة البارونات ومن أجل (عموم البلد بكامله) حقاً حقيقياً بالعصيان .

وكان مع البارونات الحق في الشك بحسن نية المليك واتخاذ الحيلة . فقد حاول الملك جان أن يتخلص بكل الوسائل من التزاماته ؛ فنذ بداية ١٢١٦ م . حصل على أن يلغي البابا الميثاق الأكبر . فحقن البارونات وحكموا بخلعه وقدموا العرش إلى ابن فيليب أوغست ، الأمير لويس ، الذي نزل في إنكلترا . وفي غضون ذلك حضهم موت جان دون أرض المفاجئ ، في تشرين الأول ١٢١٦ م ، على إعادة النظر في سياستهم ، وفضلوا على أمير أجنبي ، هنري ، الابن الشاب للملك جان . وما أن اعتلى العرش حتى وافق وأيد الميثاق الأكبر . ولم يكن في وسع لويس إلا أن عاد إلى فرنسا .

٢ - هنري الثالث (١٢١٦ - ١٢٧٢ م) : عودة الأزمة ونشأة البرلمان

إن قصور هنري الثالث ترك البارونات يأملون بأن يكون العاهل الجديد أكثر احتراماً من أبيه للتعهدات التي اتخذتها الملكية حيالهم . وفي الواقع ، عندما بلغ الملك سن الرشد ، في ١٢٢٥ م ، قبل أن يؤيد علناً الميثاق الأكبر .

نشأة إنكلترا البرلمانية

و قليلاً قليلاً ظهر الخلاف من جديد بين العاهل وهيئة البارونات . فقد استأنف هنري سياسة أبيه القارية ، وأفاد مراراً من مشاكل بلانش قشتالة ونزل في فرنسا في ١٢٤٢ م وسحق جيش القديس لويس جيشه في سنت . وبفضل إرادة العاهل الكابسي في التهدئة فقط ، لم تكن معاهدة باريس (١٢٥٩ م) كارثة لإنكلترا . ولم تكن هذه السياسة الخارجية الموضوع الوحيد لاستياء

البارونات الإنكليز . لقد كان الملك مسرفاً جداً ، ويحاول العودة إلى الامتيازات التي أجراها أبوه . فقد تخلص من لجنة الرقابة البارونية ، وأحاط نفسه بمشاورين أجانب عن المملكة ، مما أثار حنق الإنكليز وغضبهم .

تألب البارونات المستأؤون تحت إدارة فرنسي أصبح كونت ليسستر وصهر الملك ، سيمون دو مونفور ، أحد أبناء زعيم مكافحة الهرطقة الألبيجية . فقد أحاطوا أنفسهم بمجهور من صغار الفرسان المدججين بالسلاح واجتمعوا في أوكسفورد وقدموا للملك مطالبهم . وبراءات هذه الأحكام المتخذة في أوكسفورد أصبحت أنظمة أوكسفورد بعد موافقة البرلمان (١٢٥٩ م) ، وأحدثت حكومة يسيطر عليها النبلاء : أي مجلس من خمسة عشر باروناً يراقب على الدوام الملك والموظفين الملكيين . وأبعد المستشارون الأجانب ؛ وأخيراً توجب على الملك أن يعقد ثلاث مرات في العام مجلساً كبيراً أو برلماناً . وأقسم الملك على ذلك .

ولكن الملك في ١٢٦١ م طلب من البابا شجب أنظمة أوكسفورد وطرد سيمون دو مونفور . ولتجنب الحرب المدنية المهددة ، قبل هنري الثالث والبارونات الإنكليز اللجوء إلى تحكيم القديس لويس . وقد خطأ « مرسوم أميين » (١٢٦٤ م) البارونات الذين رفضوا الامتثال . كان الخلاف محتماً ، لا مفر منه ؛ فقد انضم بروجوازيو المدن الكبرى إلى الطبقة النبيلة تحت إدارة سيمون دو مونفور بعد أن عاد إلى إنكلترا . وفي أيار ١٢٦٤ م غلب الملك وأسر في ليويس . وما وسعه إلا أن سلم بالأمر ، وأصبح دو مونفور منذ الآن سيد السلطة الحقيقي . انتخب مشاوري الملك وأراد أن يخصص في حكم البلاد مكاناً للطبقة النبيلة الصغيرة إلى جانب كبار البارونات . وفي ١٢٦٥ م عقد برلماناً جلس فيه إلى جانب كبار الأمراء والأحبار فرسان يمثلون الكونتيات بمعدل فارسين عن الكونتية ، ونواب المدن والقرى . وهذا النظام سيكون مدعواً لمستقبل سياسي عظيم . ومع ذلك فقد آل الأمر بالبارونات إلى الملل من دكتاتورية سيمون

دو مونفور ، وشجع الشقاق من داخل المعارضة الملك . وفي ١٢٦٥ م ، جمع الأمير الوارث للعرش الأنصار وقاتل سيون دو مونفور الذي غلب وقتل في إيفرشام واستطاع عندئذ هنري الثالث أن يمسك بالسلطة من جديد ، ولكن كان عليه أن يوافق ويؤيد الميثاق الأكبر وأنظمة أوكسفورد وانتهى حكمه بالفوضى .

٣ - نهضة السلطة الإنكليزية تحت حكم إدوارد الأول (١٢٧٢ - ١٣٠٧ م) وإدوارد الثاني (١٣٠٧ - ١٣٢٧ م)

لقد كان حكم إدوارد الأول لإنكلترا حكماً عظيماً مصلحاً . كان الملك الجديد بمزاجه مستبداً ، ولكنه عرف بوضوح كيف يقبل التطور الضروري للحكم . جدد الميثاق الأكبر وجميع المواثيق السابقة . وانطلاقاً من ١٢٩٥ م يرى أن البرلمان ، الذي أسسه في ١٢٦٥ م من ممثلي الكونتيات والمدن والقرى ، قد انعقد بانتظام ، واعترف الملك بأن الضريبة الملكية ، ضريبة القامة (التاي) ، لا يمكن أن تفرض دون موافقته . وبعد فما هو معنى المؤسسة الجديدة ؟ إنها لا تعطي أبداً لإنكلترا السيماء الملكية المراقبة أو الدستورية التي ستكتسبها فقط في الآجل كثيراً ... إنها تبدي صفة مجلس كبير موسع حيث ينضم مشاورو الملك العاديون من أجل جلسة قصيرة ... وإن عدداً من البارونات والأخبار مدعوون بصورة فردية بسبب قطعة أرضهم الإقطاعية . إنهم يؤلفون المجلس في برلمان ، وهو بخاصة شكل رسمي لبلاط الملك . وفيه جرت العادة أيضاً ، منذ جيلين ، في استشارة ممثلي طبقات الأمة الأخرى ، من تجار ، وأكليركيين ، وبورجوازيين وفرسان الكونتيات ... وانقطع فيه الأكليركيون عن الحجيء . وبقي فيه فارسان عن كل كونتية ، وبورجوازيان عن كل مدينة ، وأربعة عن العاصمة ، وهؤلاء جميعاً وحدهم يشكلون ما يسمى في الآجل (مجلس العموم) ... ودورهم ثانوي ولا يشاركون في مناقشات المجلس وقلماً يمثل البرلمان المشكل على هذا النحو مجلساً أساسياً سياسياً أو

تشريعياً . وبقي المجلس حكماً وحيداً للإجراءات التشريعية التي تعلن في البرلمان ... وباختصار ، إن البرلمان يمكن أن يكون للعاهل أفضل مساعد في سياسته كما هو أقبح عقبة لإرادته . فإلى الملك الشعبي قدم المساندة التي لا مثيل لها من الشعب ، وساعده على الكلام عالياً إلى العواهل الأجانب كما إلى زعيم الكنيسة ، باسم الأمة . وإذا حرض العاهل الأخرق ضده هيئة بارونات مستعدة دوماً لكشف أخطائه ، فهو يفيد أداة للمعارضة ويفرض على الملك وصاية خصومه . ومنذ آخر الحكم ، اتضح التنظيم : إن كبار الأمراء الكنسيين والعلمانيين يجتمعون على العموم في مدينة صغيرة مجاورة للندن (وستنستر) ، ويشكلون مجلس اللوردات ؛ وإن الطبقة النبيلة الصغيرة والبورجوازيين الذين يتجمعون قبل جلسة البرلمان في مجلس يشكل مجلس العموم ، يعينان رئيساً مكلفاً بإعلام عاطفتهم إلى اللوردات . ولم تضعف السلطة الملكية بنشأة البرلمان ، بل بالعكس ، إن إدوارد الأول الذي أحاط نفسه بالحقوقيين ، مثل فيليب الجميل ، عزز المركزية الإدارية في المملكة .. وإن محكمة قضاء الملك ، المكلفة بالقضاء الجنائي ، ومحكمة الدعاوى العامة ، المكلفة بالقضاء المدني ترفعان أمامها دعاوى عديدة . ومحكمة المالية تراقب الإدارة المالية للعمال المحليين . وأخيراً ، خلال حكمه كله ، بدا البرلمان ليناً مطيعاً وجهز الملك بالموارد التي كان بحاجة إليها لسياسته .

غير أن الحكم الذي يرثي له خلفه إدوارد الثاني (١٣٠٧ - ١٣٢٧ م) لم يفسد المواقع الحصينة التي استردتها الملكية . كان عاجزاً ومسرفاً ، ومتأثراً بمحظييه ، ودخل في خلاف مع البرلمان . ونظراً لعدم خضوعه لقوانين الإصلاح التي حكم بها هذا المجلس ، كان عليه أن يستغني عن الإعانات المنظمة ويعيش بالقروض . وزوجته الملكة إيزابل ، الأميرة الفرنسية ، المكلفة مع ابنها بسفارة في فرنسا ، وجدت فيها عاشقها المنفي مورتير . وجمعت بعض الجنود ونزلوا في إنكلترا (١٣٢٦ م) . وأسر إدوارد الثاني واضطر للتنازل عن العرش لصالح ابنه الذي

اعتلى العرش تحت اسم إدوارد الثالث ، واستطاع أن يستأنف سياسة جده القوية (١٣٢٧ م) .

توسع إنكلترا الأرضي في القرن الثالث عشر

وفي السياسة الخارجية أيضاً أدى حكم إدوارد الأول وإدوارد الثاني إلى تعزيز القوة الإنكليزية . إن إدوارد الأول الذي غلب على القارة ، حيث نجح على الأقل ، باعتباره بلاتاجونياً صالحاً ، بالحفاظ على أكتانيا أمام تجاوزات فيليب الأول . وباشر سياسة أكثر واقعية وأكثر مطابقة لمصالح إنكلترا : لقد حاول أن يبسط نفوذه على كافة الجزر البريطانية . وإيرلاندة فتحها هنري الثاني ولكن خضوعها في ١١٧١ م لم يكن إلا مؤقتاً . وبالرغم من بناء بعض القصور الحصينة ، فقد ظلت السيطرة على الجزيرة وهمية في القرن الثالث عشر كله . وحتى في الجزيرة الكبرى وجدت في بداية القرن الثالث عشر منطقتان مستقلتان : مملكة إيكوسيا وبلاد الغال ، حيث وجد جبليون قساة ومنظمون في أحزاب قاومت التغفل الإنكليزي . وفي إيكوسيا ، منيت حملات العواهل البلاتاجونية بالإخفاق : ففي ١٢٨٦ م ، مع ذلك ، شجعت أزمة سلالية مشاريع إدوارد الأول ؛ وفي ١٢٩٧ م استطاع هذا أن يفرض على الملك الجديد روبرت بروس الاعتراف بسيادته . ولكن هذا الأخير دشن سياسة تحالف مع فرنسا ، وأجبر الملك الإنكليزي على الكفاح مراراً عديدة على جبهتين . وأخيراً ، في ١٣١٤ م ، سحق روبرت بروس إدوارد الثاني في بانوكورن . وحافظت إيكوسيا على استقلالها .

وبالمقابل ، دخلت بلاد الغال في جسم المملكة : ففي ١٢٦٧ م اعترف الملك الغالوي ليوبلين بسيادة هنري الثالث ؛ وبعد عدة حملات أجبره إدوارد الأول على الخضوع تماماً ، بموجب معاهدة كونوي (١٢٧٧ م) ، وعندما توفي ليوبلين جعل إدوارد من ابنه أول أمير لبلاد الغال . وفقدت البلاد استقلالها نهائياً . وبنيت

شبكة حصون ساعدت على تأمين السيطرة الإنكليزية ، فيما كان رئيس الأساقفة جون بيكام يعمل على أنكلزة الأكليروس والمؤمنين . ولم تكن نتائج هذه العمليات العسكرية كلها مرضية ، ولكن الجيش الإنكليزي المشكل والمدرّب على حرب الجبل ضد الأنصار الإيكوسيين والغالويين ، تبنى أسلحة جديدة ، أسلحة خصومه ، وبخاصة القوس الغالوية الكبرى . وشارك جيش المشاة في الكوتيتيات والقرى مشاركة هامة في هذه الحملات ، إلى جانب جيش الفرسان النبيل .

وكانت إنكلترا تتصرف بقدرة عسكرية قوية وحديثة في عصر كان فيه الجيش الفرنسي الوفي لتقاليد الفروسية قد سحق في كورترية ، دون أن يأخذ منها درساً ، بجيش العمال الفلامانديين . وبالخروج من الأزمات السياسية ، تصلبت الوحدة القومية في إنكلترا بمشاركة جميع طبقات المجتمع في الحياة السياسية والعسكرية ، بينما كانت الملكية في فرنسا هدفاً لرد فعل الطبقة النبيلة ومتردة في الاعتماد بوضوح على دعم البورجوازية . وكانت هذه بالنسبة لإنكلترا حظوظاً رصينة في الوقت الذي يخاطر فيه نزاع سلافي يجرها إلى نزاع جديد مع فرنسا .

الفصل الرابع

ألمانيا وإيطاليا

توطيد الملكيات

لقد ولد تقسيم إمبراطورية شارلومان في (٨٤٣ م) المملكة الجرمانية . وفي النصف الثاني من القرن العاشر ، استطاع أوتون الأول وأخلافه القضاء على الفوضى الإقطاعية ، برد الأدواق والكونتات ، والأساقفة ، والآباء إلى دور عمال السلطة العامة . وبدفع التهديد الذي يثقل به السلافيون والهونغاريون على الحدود الشرقية لجرمانيا ، حقق العواهل الأوتونيون فتح مملكة إيطاليا التي ارتبط مصيرها بمصير ألمانيا لعدة قرون ، وبسطوا سيطرتهم على مملكة بورغونيا .

وبعد أن تزين ملوك جرمانيا باللقب الإمبراطوري منذ تتويج أوتون الأول في ٩٦٢ م ، ترأسوا منذ ذلك الحين مقدرات مجموعة أراضٍ واسعة أطلق عليها في القرن الحادي عشر اسم الإمبراطورية الرومانية .

وشغل الأباطرة الفرنكونيون (السلالة السالية ، ١٠٢٤ - ١١٢٥ م) وأباطرة عائلة آل هوهنشتاوفن (١١٣٨ - ١٢٥٤ م) أنفسهم بنزاع طويل ضد البابوية في خصومة التقليد العلماني والكنسي ؛ ونزاع الكهنوت والإمبراطورية . وإذا لم يستطع الكرسي - الأقدس تأمين السيطرة العالمية ، رهان الخلاف ، فإن الأباطرة نهلوا منها أفضل القوى : لقد أدخلتهم سياستهم أكثر فأكثر في إيطاليا التي لبس فيها فريديريك الثاني تاج مملكة صقلية . وفي ألمانيا ظل العواهل بمعزل عن

حركة التوسع الكبرى نحو الشرق ويتولون سلطتهم دوماً بالانتخاب ، ولذلك كانوا مضطرين للقيام أكثر فأكثر بتنازلات للأمراء ، وأخذت سلطتهم تتضاءل وتضجر .

وبعد موت فريديريك الثاني قهر الأنجليون أعقابهم في إيطاليا واستولوا على مملكة نابولي بدعم من البابا ؛ وعرفت السلطة الملكية في ألمانيا خسوفاً تاماً من ١٢٥٤ م إلى ١٢٧٣ م (فترة خلو كرسي الملك الكبرى) فترة كانت فيها الدولة (دون رئيس) . وفي سياق القرنين الأخيرين من العصر الوسيط ، فصلت شبه الجزيرة الإيطالية التي لم يقيم فيها العواهل الألمان إلا بمحملات نادرة ، والكاثونات السويسرية ، مصيرها عن مصير ألمانيا . وتجزأت هذه الأخيرة إلى إمارات متعددة واتجهت لتصبح نوعاً من اتحاد (كونفودراسيون) ليس للإمبراطور فيه إلا الرئاسة .

ومع ذلك فإن التجميع الأرضي الذي قام به بيت آل هابسبورغ قد هيا نهضة السلطة الإمبراطورية .

وعلى نقيض ماجرى في ألمانيا ، نجد أن العواهل ، في فرنسا كما في إنكلترا ، استطاعوا بفضل جهودهم الصابرة ، أن يوطدوا سلطتهم على دول قدرتها متواضعة ، ولكنها متجانسة متلاحمة . أما في أوربة الوسطى فقد نما التطور السياسي منحى مختلفاً جداً ؛ فبين ١١٥٠ م تقريباً ومنتصف القرن التالي ، ظل الأباطرة الألمان يتابعون بنجاح الحلم القديم في الهيمنة العالمية . وبألقاب مختلفة ، بسطوا سيطرتهم على مجموعة بلاد تمتد من سواحل الباطيك إلى شواطئ صقلية ، ومن سفوح تلال بورغونيا إلى سهول پوميرانيا . وانطلاقاً من منتصف القرن الثالث عشر تفتت عناصر هذه القوة ، ووصل بها مسار التفتت إلى كل من ألمانيا وإيطاليا اللتين أصبحتا منذ الآن فصاعداً مؤهلتين للتفتت .

أ - آل شتاوفن وآخر بریق للسلطة الامبراطورية (١١٣٧ - ١٢٥٠ م)

عندما انطفأت في ١١٢٥ م السلالة السالية ، استأنف المبدأ الانتخابي حقوقه في ألمانيا ؛ ووقع اختيار الناخبين تباعاً على دوق ساكس الذي حكم تحت اسم لوتير الثالث (١١٢٥ - ١١٣٧ م) ، ثم على ممثل لأسرة منافسة ، كونراد شتاوفن الذي أصبح كونراد الثالث (١١٣٨ - ١١٥٢ م) . وكان حكم هذين العاهلين مطبوعاً بأزمة خطيرة للسلطة الملكية . ولكن كونراد الثالث استطاع أن يؤسس سلالة ظلت متماسكة أكثر من قرن على العرش مع فريديريك الأول بارباروسا (١١٥٢ - ١١٩٠ م) ، هنري السادس (١١٩٠ - ١١٩٧ م) ، وفريديريك الثاني (١٢١٥ - ١٢٥٠ م) . وأعاد آل شتاوفن للمنصب الإمبراطوري كامل وجهته ونفوذه . وولدت سياستهم الطموحة نزاعاً جديداً مع البابوية . وبضرورة وعن ذوق ، تدخل الأباطرة الجدد أكثر فأكثر في إيطاليا ؛ وانطلاقاً من هنري السادس ، جمعوا بين منصب ملك صقلية ومنصب ملك الرومانيين . وفي نطاق هذه السياسة ، لم يكن لألمانيا إلا مكان ثانوي ؛ ومع ذلك فقد تحولت البلاد ؛ وتلاحقت حركة توسع قوية نحو الشرق ، ولكن دون أن تشارك فيها الملكية بأي نصيب . ولذا رجحت الطبقة النبيلة الجرمانية من غياب العواهل ، ومن صعوباتهم الإيطالية ، لتحرر نفسها ؛ ولغم هذا التطور الخطير قليلاً قليلاً صلابة البناء الإمبراطوري .

١ - نزاع الكهنوت والإمبراطورية وسياسة آل شتاوفن الإيطالية

بعد وفاة هنري الخامس (١١٢٥ م) ، لعبت البابوية بالوصف المبهم لبعض بنود كونكوردات ثورمس ، وحاولت وضع الأباطرة تحت الوصاية . وكل

محاولة لإرجاع السلطة الملكية كانت تثير حتماً نزاعاً جديداً مع روما . وهذا (النزاع بين الكهنوت والامبراطورية) كما سَمَّاه بعض المؤرخين امتد بحظوظ مختلفة للدفاعيين له خلال قرن ؛ ولم يكن الرهان فقط مسألة تقليد الأساقفة لوظائفهم فحسب ، حتى ولو ذكر هذا الغرض أيضاً . لأن القضية الحقيقية هي معرفة إلى من يجب أن تعود السيطرة العالمية ، إلى الإمبراطور أو إلى البابا ؟

الفوز الإمبراطوري : فريديريك بارباروسا وهنري السادس

بالرغم من كونكوردات فورمس ، ظل الخلاف عتيداً . وأول مرحلة للخلاف سيطر عليها شخص فريديريك بارباروسا ومحاولاته لفرض انتصار السلطة الإمبراطورية . وفي عهده انفجر النزاع الجديد مع البابوية ، بعد أقل من ثلاثين عاماً على توقيع كونكوردات فورمس . إن اتفاق ١١٢٢ م كان أبعد من أن يسوي بوضوح كل المشاكل . كما أن بعض المواد الغامضة أو غير الدقيقة تركت هامشاً كبيراً جداً للتفسيرات ؛ وهكذا فإن تقليد الأسقف يجب أن يتم قبل التكريس . فهل هذا يعني أن الملك يستطيع أن يستعمله كنوع من حق الرفض (الفيتو) ؟ إن شكل الكونكوردات يبيدي صعوبات ، فقد وجد نصان مستقلان تماماً أحدهما عن الآخر . في أحدهما ، كان هنري الخامس يعدد الامتيازات التي خولها لكنيسة القديس بطرس ، بصفة دائمة ؛ وبالعكس ، إن الفوائد التي تخلى عنها البابا كاليكست كانت ممنوحة إلى ابنه الحبيب هنري ، بشكل امتياز شخصي وقابل للإلغاء دوماً . وكل هذه الملابس التي استعملتها البابوية أولاً ، ثم فريديريك الأول ، الذي رغب في إرجاع السلطة الملكية ، كانت في أصل النزاع الجديد .

لقد اتفق موت هنري الخامس ، في الواقع ، مع ضعف السلطة الملكية التي أفاد منها الأحرار الرومانيون . وانتخاب خلف هنري الخامس ، الإمبراطور لوثير

الثالث (١١٢٥ - ١١٣٨ م) كان من صنع الحزب الحبري ، وفي الواقع ، إن ابني أخ الإمبراطور الراحل ، فريديريك وكونراد هوهنشتاوفن ، اللذين كانا نصيرين مؤمنين للباطرة السالين ، قد أبعدا لصالح الكونت لوثير دو ذوبلنبورغ الذي كان على رأس ثورة ضد هنري الخامس . وكان لوثير الثالث مخلصاً تماماً للكنيسة ، كما يبرهن على ذلك أحد أعماله الأولى : فقد أعلم البابا بارتقائه عرش جرمانيا ، وأتمس من الحبر الأعظم الموافقة على انتخابه . وكان الحزب الحبري ما يزال بعد يدعم ، بتغيير غير منتظر ، ترشيح كونراد شتاوفن في ١١٣٨ م ، وجعل منه كونراد الثالث (١١٣٨ - ١١٥٢ م) . وقد وضع العاهلان قواهما لخدمة البابوية : أطلق لوثير حملتين إلى إيطاليا ، لالتمص حقوقه ، وإنما لتأمين فوز إينوسان الثاني على عدو البابا أناكليت الثاني ؛ أما كونراد الثالث فقد قاد جنوده الألمانية وشاركت في الأرض المقدسة بالحرب الصليبية الثانية . وفي ألمانيا بقي الإمبراطوران أيضاً متساويين وتماماً بعيدين عن الانتخابات الأسقفية ، حتى أن لوثير أعفى الأساقفة من تقديم الاحترام والولاء أثناء التقليد . وهذا الامتناع الملكي استخدمته بصورة طبيعية البابوية التي حاولت آنئذ أن تلحق بها الكنيسة الألمانية ، بتطبيق نظرياتها في التفوق المطلق للحبر الروماني على الكنيسة . وهكذا أرسل البابا في الغالب مفوضين إلى ألمانيا لمراقبة انتخاب الأساقفة ، والفصل في حال منازعة ، وتعليق أو خلع الأحرار . وبدأ الأساقفة الألمان ، من جهتهم ، يلتمسون من البابا تأكيد وتثبيت انتخابهم .

ظفر بارباروسا أولاً

انتخب فريديريك الأول بارباروسا في ١١٥٢ م ، واهتم في إرجاع السلطة الملكية في ألمانيا وفي إيطاليا ، وحاول أن ينهي تجاوزات البابوية . ففي عهد أسلافه ، كان تعيين الأساقفة الألمان قد تخلص تماماً من العاهل ؛ وأخطر من ذلك

أنهم ظلوا يشاركون في حكم المملكة . ولم يكتف فريديريك بالحفاظ بشدة جداً على التقليد قبل التكريس . فقد كان يحضر الانتخابات التي لا يساهم فيها الأكليركيون وحدهم بل أيضاً العلمانيون ، بالرغم من الحملة الخاصة ضدهم أثناء انعقاد مجمع لاتران (١١٣٩ م) . وفي حال انتخاب يحتمل الجدل والنزاع يأمر بإعادة عملية الانتخاب ؛ ويبعد في الغالب المتنافسين ليفرض مرشحه . وهذه الحريات التي اتخذها فريديريك حيال نص كونكوردات فورمس أوشكت أن تؤدي إلى خلاف مع البابوية منذ بداية الحكم . ولكن البابا أوجين الثالث كان آنذاك في حالة عسيرة جداً ، وهدفاً لتمرّد الشعب الروماني الذي حصل في ١١٤٣ م ، في مدينة روما تحت إدارة آرنود دوبرشيا ، وللتهديد الذي كان يثقل على دوله طموح الملكية الصقلية - النورماندية ، مما اضطر الحبر الأعظم إلى التماس مساعدة فريديريك الذي استولى أثناء الحملة الإيطالية (١١٥٤ - ١١٥٥ م) على آرنود دوبرشيا وسلمه إلى والي المدينة ليأمر بإعدامه . ومقابل ذلك ، قام أوجين الثالث بالتتويج الإمبراطوري . ولكن خلفه ، هادريان الرابع ، قطع علاقته مع سياسة التخلي هذه ، وقرر أن يعتمد على المملكة النورماندية في صقلية وعاود لحسابه النظريات الغريغورية التي تؤكد تفوق السلطة الروحية على السلطة الزمنية . وبدأ كفاح طويل بين دولتين تريد كل منهما أن تكون عالمية (كونية) : البابوية التي أصبحت ، منذ نزاع التقليد الكنسي والعلماني ، السلطة المعنوية المتفوقة في السلطة والنفوذ على المسيحية . وفي ألمانيا ، في أوساط البلاط الإمبراطوري ، أعادت النهضة الفكرية وتجديد الحقوق الرومانية شرف فكرة إمبراطورية عالمية تدوم حتى آخر الأزمنة . وفي هذا المنظور تمت إمبراطورية آل شتاوفن إمبراطورية شارلومان ، ومن ثم إمبراطورية الرومان . وظهرت المسألة منذ حكم فريديريك الأول كما برهن على ذلك إعلان تقديس شارلومان (١١٦٥ م) الذي رقي إلى صف قديس حامي

للإمبراطورية ، والأدب المعاصر الذي بدا فيه فريديريك سيد الكون القادر على إعطاء أوامر إلى « ملوك الأقاليم » . وكان بارباروسا نفسه يشعر بأنه كان خلف الأباطرة الرومانيين . وعند وصوله إلى روما استقبله ممثلو المدينة بخطاب ملؤه الزهو والإعجاب .

وهذان المفهومان للسلطة العليا اصطدما للمرة الأولى عندما صرح البابا هادريان الرابع بأن الإمبراطور قد تناول من الكرسي - الأقدس « فضلاً » وهذا يعني في لغة العصر ، الإقطاع . وأجاب فريديريك الأول مؤكداً بأنه تسلم الإمبراطورية من الله وحده عندما انتخبه الأمراء (١١٥٧ م) .

وفي الوقت الذي يدفع فيه فريديريك الأول على هذا النحو الادعاءات الحبرية ، كان يحاول أن يوطد السلطة الملكية في إيطاليا الشمالية . فكيف كانت الحالة فيها في منتصف القرن الثاني عشر ؟ لقد بدأت حركة المدن القوية التي تشجعت بالفراغ الإمبراطوري في زمن لوثير الثالث وكونراد الثالث . فمن ذلك ، أن المدن ، عواصم الكونتيات أو الأسقفيات تشكلت في قومونات واحتكرت قليلاً قليلاً الحقوق الملكية ، بما فيها القضاء الجنائي على حساب الملك أو ممثليه من كونتات وأساقفة . وهذه القومونات المدنية ، التي امتدت سلطتها بسرعة إلى ضاحية المدينة ، ثم على مجموع الكونتية (الكونتادو) حيث خضع الأمراء والمدن الصغيرة ، قد أصبحت كذلك دولاً صغيرة ولها هيئات حكم خاصة : مجمع القناصل ويمسك بالسلطة التنفيذية ؛ ويساعده على العموم مجلسان يتمتعان بالسلطة التشريعية . ومجلس الشعب العام ويمكنه أيضاً أن ينعقد ، ولكن سلطاته قليلة محجمة ؛ لأن فتوحات الحركة القومونية قد صادرتها في الحال الأرستقراطية المدنية . وفريديريك الأول ، منذ بداية حكمه أخذ على نفسه أن يخضع من جديد مدن شمال إيطاليا ويحبرها على إعادة الحقوق الملكية المغتصبة . كان الصراع قاسياً وخاصة ضد ميلانو لأن قوتها كانت أعظم من قوة غيرها . فقد أرسل إليها

الإمبراطور مفوضين إمبراطورين مهمتهم أن يقيموا إلى جانب القناصل ، قاضياً إمبراطورياً . وللمرة الأولى في ١١٥٨ م أعلنت المدينة خضوعها ، ولكن ، من بعد ، تفجرت ثورة ، وتطلب استسلامها سنتي حصار . وبأمر من الإمبراطور اعتصبت ضدها مدنٌ أخرى في شمال إيطاليا وقوضت تماماً (١١٦٢ م) .

انتصرت السلطة الإمبراطورية ، وأعيد إلى جميع المدن الموظفون الإمبراطوريون . ولكن فريديريك الأول لم يتخل عن أهدافه الإمبراطورية في إيطاليا الجنوبية ، حتى أنه فكر بفتح المملكة النورماندية . غير أن تقارب الملكية النورماندية والكرسي الأقدس في الوقت الذي عاد النزاع من جديد بين البابا والإمبراطورية ، حوله عن مشاريعه .

اضطرار بارباروسا للذهاب إلى كانوسا

لم يكتف فريديريك باستقلاله عن البابوية ، وطن أنه يستطيع أن يضع هذه الأخيرة تحت الوصاية كما فعل العواهل الألمان في القرن الحادي عشر ، وهذه المزامم المفرطة ستغير معسكر النصر .

في ١١٥٩ م ، وفي روما ، أدت انقسامات هيئة الكرادلة والنزاع بين أشيع الطبقة النبيلة الرومانية إلى انتخاب حبري مضاعف .

اعترف الإمبراطور بأحد البابوين ، وهو فيكتور الرابع الذي قبل أن يثل أمام مجمع انعقد بناء على أمره . ولكن المنتخب الآخر وهو ألكسندر الثالث ، كانت معه أغلبية المسيحية ، وحرّم فريديريك الأول وفيكتور الرابع . ولم يستطع هذا الأخير ، ومثله خلفه أن يبسط طاعته إلا على الإمبراطورية . أما ألكسندر الثالث ، بالعكس ، فقد وجد دعماً لدى الملك النورماندي في صقلية وبخاصة كسب التحالف الفعلي من مدن شمال إيطاليا . وقد عوملت هذه المدن

بقساوة ، وخضعت لإداريين ألمان دنقنين متنطسين . فاهتبلت الفرصة لاسترداد استقلالها ، وشكلت مدن لومبارديا وثرغ فيرون حول ميلانو عصبة قوية « العصبة اللومباردية » (١١٦٧ م) . وتعهد قناصل المدن على اليمين بالبقاء متحدين في الصراع .

وشيدت مدينة محصنة بسرعة عظيمة لإيقاف الجيوش الإمبراطورية المنحدرة من أعلى وادي سوز ، وعلى شرف البابا سميت هذه المدينة ألكسندريه (١١٦٨ م) . وفي لينيانو ، هزم الجيش الإمبراطوري هزيمة خطيرة (١١٦٧ م) . وعندئذ اضطر بارباروسا إلى الانطواء على سياسة أقل تشدداً ؛ فقد اعترف بألكسندر الثالث ، كما في السابق فعل هنري الرابع في كانوسا ، واضطر إلى خفض جناحيه في البندقية أمام البابا ، وخرّضارعاً إلى قدميه على فناء كنيسة القديس - مارك وساعد الخبر الأعظم على امتطاء صهوة الجواد مسكاً بركابه . وأخيراً ، وفي معاهدة كونستانس (١١٨٣ م) اضطر فريديريك الأول إلى التنازل عن الحقوق الملكية في مدن إيطاليا الشمالية . وحافظ فقط على الامتياز الذي يخوله تقليد القناصل .

غير أن فريديريك بارباروسا لم يتخل عن فكرة الأخذ بالشأر ؛ ففي آخر حكمه تصالح مع المدن اللومباردية وباشر بمناورة تطويق حول الدول الخيرية . وزوج ابنه بعمة ووارثة ملك صقلية ، الأميرة كونستانس (١١٨٦ م) . وكان البابا كليمان الثالث بحاجة إلى طلب تعاون الإمبراطور في الوقت الذي استرد فيه المسلمون القدس ، الأمر الذي دعا إلى ضرورة القيام بحرب صليبية ثالثة . ولذلك خول لقب (إمبراطور الرومانيين المنتخب) إلى ابن فريديريك ، هنري . وتوفي بارباروسا على هذا النحو في عز مجده في الحرب الصليبية (حزيران ١١٩٠ م) . ونمت في الحال أسطورة في ألمانيا تؤكد على أن الإمبراطور لم يمت ، وأنه ينام في كهف وسيستيقظ ذات يوم ويعيد إلى بلده عظمته القديمة .

حام هنري السادس الإمبراطوري

لقد كانت مشاريع الإمبراطور الشاب هنري السادس أيضاً أعظم من مشاريع أبيه . وبتطبيق هذا المبدأ ، حاول ، في المقام الأول ، أن يلحق بالإمبراطورية الدول الأوربية الأخرى : ملك إنكلترا ، ريتشارد قلب الأسد ، الذي عاد من الحرب الصليبية وسقط بين يديه ، ولاستعادة حريته ، قبل بأن يقسم له بتبعية مملكة إنكلترا . وعندما توفي ملك صقلية ، غليوم الثاني ، دون ولد في ١١٨٩ م ، ورث هنري السادس مملكته بواسطة زوجته الإمبراطورة كونستانس . وفي إيطاليا الشمالية كانت الحالة ملائمة لتدخل الإمبراطور ؛ فقد ضعفت المدن بالخلافات الداخلية ، وأصبحت متنافسة في جهدها لإخضاع الكونتادو . وهكذا انقسمت العصبة اللومباردية إلى فريقين متخاصمين : أحدهما حول ميلانو ، والآخر حول كريمون . وأفاد هنري السادس بمهارة من هذه الخلافات ونجح في توطيد جزء من السيطرة الملكية . وأخيراً استطاع هنري السادس أن يهدد سلطة البابا في داخل أرضه . ومرة أخرى كان الخبر الأعظم في صعوبة مع قومون روما . فأفاد من ذلك هنري السادس للتدخل في إيطاليا الوسطى . إن ثغر أنكونة ، ودوقية سبوليت والرومانيو ، التي اعترفت بحقوق البابوية عليها دبلومات إمبراطورية عديدة ، قد ضمت عملياً إلى مملكة إيطاليا . وهكذا تأمن الارتباط بين هذه المملكة ومملكة صقلية . وطوقت الدولة الحبرية تماماً بأراضٍ تعود بشكل أو بآخر إلى الإمبراطور ، وحجمت إلى إقليمين : لاتوشيا الرومانية ، وكامبانيا البحرية اللتين اقتصرتا على اسم (تراث القديس - بطرس) لأنها لم تفلتا من سلطة البابا منذ عهد شارلومان . وإذا وضعت هذه المنطقة جانباً ، فإن السيطرة الإمبراطورية امتدت إذن على إيطاليا كلها . وقد اتفقت تطلعات الإمبراطور العظيمة في البحر المتوسط مع نبوءة سرت آنذاك ، ومفادها

أن إمبراطوراً ألمانياً سيضم الشرق إلى الغرب . وعندما أخذ هنري السادس تاج الملوك النورمانديين ، ورث من حقوق سيادتهم على الأمراء الموحدون في إفريقية الشمالية ومشاريعهم في فتح الإمبراطورية البيزنطية . واهتم الإمبراطور بتعزيز حقوقه بتزويج أخيه أميرة بيزنطية . وأخيراً نظم حملة صليبية ألمانية لمحاولة استرداد الأرض المقدسة حيث كان يأمل بفرض سيادته على الممالك المسيحية . ولكن لم يكن لهنري الوقت لتحقيق حلمه . ومات بعد بضعة أيام على ذهاب الصليبيين الألمان إلى المشرق العربي (١١٩٧ م) .

إينوسان الثالث وفريديريك الثاني

إينوسان الثالث والتيوقراطية (المشيئية) الظافرة

كان على ابن هنري السادس ، فريديريك روجر ، كما يدل على ذلك اسمه المزدوج ، أن يجمع سلطتين في شخصه ؛ فبالحق الوراثي كان ملك صقلية ؛ وقد انتخبه الأمراء الألمان ملك الرومانيين . ولكن ، في ١١٩٧ م ، كانت سنّ فريديريك روجر أربعة أعوام . ورأت أمه ، الإمبراطورة كونستانس ، أن من الحكمة ألا يدعي بحقوقه في الإمبراطورية . وقدم غياب السلطة الإمبراطورية للبابا الجديد إينوسان الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦ م) ، الرجل الواسع الذكاء والإرادة ، الفرصة لتحقيق النظريات التيوقراطية الحبرية ، وأصبح في حبريته زعيم الكنيسة والمسيحية القدير القادر . وأفاد من سلطته الروحية لإطلاق الفرسان المسيحيين في مغامرة الحرب الصليبية الرابعة وتوطيد سلطته على العواهل الزمانيين . وإن الذين يجروون على مقاومته يجرمون مثل فيليب أوغست وجان دون أرض . وفرض سيادته على ملك أراغونة وملك قشتالة ، وملوك البرتغال وهونغاريا وملك إنكلترا الذي عاد وحسنت عواطفه .

ولكن في إيطاليا نفسها ، أرض الحكمة الإلهية في نظره ، وفي ألمانيا البلاد التي كانت فيها حقوق السيادة الحبرية مشاراً للنزاع والجدل ، انتصرت التيقراطية بشكل أفضل مما في غيرها . وفي شبه الجزيرة الإيطالية استرجع الحبر الأعظم سلطته بسهولة : ففي ١٢٠٥ نجح في فرضه على القومون الرومانية قبول دستور يؤمن للبابا تسمية الشيخ ، عامل القومون التنفيذي ، وجاب العمال الحبريون دوقية سبوليت و ثغر إنكونه وفرضوا فيها ، دون كبير صعوبة ، سلطة الكرسي الأقدس . وهكذا استعادت الدولة الحبرية قوتها وامتدت من الأدرياتيك إلى البحر التيراني ، قاطعة مملكة إيطاليا من مملكة صقلية . وفي هذه المنطقة الأخيرة ، مارس إينوسان الثالث نوعاً من وصاية منذ أن عهدت إليه الإمبراطورة كونستانس قبل موتها في (١١٩٨ م) الوصاية على ابنها . وفي ألمانيا أخيراً ، نصب البابا نفسه حكماً .

وفي ١١٩٨ م انتخب إمبراطوران متنافسان ، فيليب دوسؤاب أخ الإمبراطور الراحل ، وأوتون برنسفيك . وكانت هذه أول فرصة لتدخل إينوسان الثالث . ففي ١٢٠١ حكم لصالح أوتون الذي طلب من البابا تثبيت وتأكيد انتخابه ، وتعهد بتأمين كامل الحرية للانتخابات الأسقفية في ألمانيا . غير أن موت فيليب دوسؤاب الطارئ (١٢٠٨ م) أنهى بشكلٍ مرضٍ جداً للبابوية في هذه (الحيدة) الملكية الأولى . ولكن أوتون ، منذ أن تخلص من منافسه ، ادعى بحقوقه الملكية في إيطالية الشمالية والوسطى ، وانطلق في فتح مملكة صقلية (١٢٠٩ م) . عندئذ قلب إينوسان الثالث سياسته ، وبعد أن حرم أوتون ، شجع انتخاب فريديريك روجر ملكاً للرومانيين ، فأثار بذلك حيدة ملكية ثانية . والمنتخب الجديد فريديريك الثاني وحد مصالحه مع العاهل الكاسي ، فيليب أوغست . وأمن الفوز الذي أحرزه في بوفين ، في ١٤ تموز ١٢١٤ م ، ملك فرنسا على جيش أوتون ، نجاح فريديريك الثاني . وأنهى موت أوتون في ١٢١٨ م تقوية سلطته . ومرة أخرى

انتصرت السياسة الحبرية : فقد بدأ أن فريديريك خضع تماماً لإرادة وصيه ؛ وتعهد بأن يترك كامل الحرية للكنيسة الألمانية .

وضاعف إينوسان الثالث الاحتياطات : فلکسر تطويق الدول الحبرية ، كان قد طلب من مرشحه قطع كل اتحاد شخصي بين مملكة صقلية والإمبراطورية الرومانية : ففي شباط ١٢١٢ م ، توج الابن الفقى لفريديريك ، هنري الصغير ، الذي كان عمره عاماً واحداً آنذاك ، ملكاً على صقلية ، وبعد انتخاب فريديريك الثاني للإمبراطورية وتتويجه تعهد بتحرير ابنه الشاب والتخلي له عن منصب ملك صقلية .

فريديريك الثاني عاهل فريد

ولكن مهارة إينوسان الثالث بذلت عبثاً ، لأن فريديريك الثاني لم يكن ابناً طيعاً . لقد كان بمولده ، وتربيته وذوقه أميراً إيطالياً . وألمانيا ، التي يجهل لغتها ، لا تحتل إلا مكاناً ثانوياً في اهتماماته . وبالعكس ، كانت مملكة صقلية في نظره المقوم الأساسي لسلطته . ولم يكن التخلي عنها موضع تساؤل . ومن جهة أخرى ، إن الإمبراطور الجديد ، الأمين في ذلك على تقاليد آل شتاوفن ، أراد أن يرجع السلطة الملكية في جميع دوله . ولا سيما في إيطاليا ، ومملكة صقلية ، التي مهرها العواهل النورمانديون بيهئات ملكية مركزية ، استردت بسهولة . ففي ١٢٢٥ م ، خضع البارونات الصقليون الثائرون وساد السلام في صقلية . وقبيل عام أحدث فريديريك الثاني جامعة (١١٢٤ م) مخصصة لتكوين موظفين لخدمته . وأخيراً أمن سلطته بموجب دساتير ملفي (١٢٣١ م) التي أعلنت العقوبة بالموت ضد كل من تسول له نفسه القيام علناً بالحرب في المملكة . وكان يجب أيضاً توطيد النفوذ الإمبراطوري على إيطاليا الوسطى والشمالية لتأمين الارتباط بين الملكية الجرمانية وصقلية . ولخدمة هذا البرنامج الواسع بذل

الإمبراطور الجديد ذكاءً استثنائياً وطبعاً خارجاً عن المألوف . ومع ذلك فظهره الخارجي على ما يبدو تنقصه (الجلالة) ، وكتب مؤرخ عربي : « كان أشقر الشعر ، أصلع وقصير النظر ، ولو كان عبداً ، لما كان يسوى مثني درهم » .

وتحت مظاهره الخارجية القليلة الجاذبية ، كان يختفي سياسي عظيم ، فقد كان قادراً على تأكيد وتثبيت سلطته بمجد وزهو ، كما كان يعرف اللجوء أيضاً إلى الخداع عندما يكون القدر معاكساً له .

وكان بصورة طبيعية (نبيلاً وكرماً) ، ومديناً لشبابه المنعزل بمزاج حذر ورابي . وفوق ذلك ، كان كل شيء فيه يبرق بالذكاء . ومع ذلك كانت تربية اليتيم الصغير مهمة كثيراً . لقد اكتسب فريديريك بنفسه ، بفضل تطلعه العام ، والبيئة الصقلية التي امتزجت فيها تيارات الحضارة اللاتينية والإغريقية والعربية ، هذه الثقافة الواسعة جداً التي صنعت منه رجلاً فريداً في عصره « كان يعرف اللاتينية ، لغتنا الشعبية ، (هذا مقال فلورانسي) والفرنسية ، والإغريقية ، والعربية » .

كان فيلسوفاً يعرف تماماً مذهب أرسطو تحت الشكل الذي أعطاه له ابن رشد ؛ ورجل علم ، يهتم خاصة بالرياضيات ، والطب ، والعلوم الطبيعية ، وكتب مطولاً في فن الصيد والقنص ، نجد فيه ملاحظاته الشخصية على الطيور . وشاعراً ، جمع في بلاطه في بالرمو عدة كتاب . وأصبح هذا البلاط مركزاً لمدرسة شعرية صقلية نقلت إلى الإيطالية موضوعات ومفاهيم الشعر البروفانسي ، وغاوية فن ، أمر بتشديد عدة قصور ، وزين التاثيل على الطراز القديم . وهكذا ظهر طليعة للأمرء الإيطاليين في عصر النهضة ، هذا فضلاً عن أن ثقافته أمنت في نفسه صفتين : الفكر النقدي والتسامح . ولا يتردد في الواقع في مطوله في الصيد والقنص أن يدحض سلطة أرسطو القوية باسم العقل والتجربة .

ومن جهة أخرى ، « كان يحب المسلمين ، فقد تربى في جزيرة صقلية التي كان أكثر سكانها مسلمين » ، ولا عجب في أن مثل هذا العقل المفكر قد أيقظ قلق معاصريه ولا سيما قلق الأكليركيين . فقد اتهم بالأخلاقية والكفر . ولم يوجد إلا خطوة اجتيزت بسرعة من قبل خصومه عندما ساقتهم الظروف السياسية للدخول في نزاع ضد البابوية .

وفي تسامحه مع المسلمين ، لا تكفي بعض العبارات التي انتزعها الغضب ، لأن تجعل من فريديريك الثاني كافراً (جاحداً) . إن النضال الذي قام به ضد البابوية يرجع كنضال أسلافه ، إلى اهتمامات سياسية .

عودة النزاع

بعد أربع سنوات على وفاة إينوسان الثالث ، نجح فريديريك الثاني في تحويل التزاماته . ولم يقطع نفسه وعده ؛ ولكنه لعب من واقع أن ابنه لم يكن ملزماً بأي عيب . وفي نيسان ١٢٢٠ م حصل من الأمراء على انتخاب هذا الابن ملكاً على الرومانيين تحت اسم هنري السابع . وتحقق من جديد الاتحاد السلالي لصالح طفل لم يكن بالنسبة لسلطة فريديريك إلا اسماً مستعاراً . واستسلم البابا الضعيف هونوريوس الثالث للمديح والتلق والملاطفة باحتجاجات براءة فريديريك الذي ادعى بأن الأمراء عملوا دون علمه وقبل بتتويج هنري السابع . وفي الواقع ، لم يكن في رأس الخبر إلا فكرة واحدة وهي ، تنظيم حملة صليبية جديدة ، ولتشكيلها كان مستعداً للكثير من التنازلات . وفريديريك الثاني شارك في الحملة الصليبية أثناء تتويجه في اكس في ١٢١٥ م ، ووعد ، بعد أن طلب مهلة بأن يذهب ويكافح الكافرين . وبالعكس إن خلف هونوريوس ، غريغوار التاسع ، كان مصمماً قبل كل شيء على النضال ضد سلطة فريديريك ، وعاد وكرر ، في رسالته إلى الإمبراطور ، مؤكداً تفوق السلطة الروحية .

وأخيراً تعهد الإمبراطور ، تحت طائلة الحرمان ، بأن يذهب في ١٢٢٧ م . وطوال صيف تلك السنة ، في برند حيث احتشد جيش الصليبيين ، انتشر وباء عنيف ؛ وأصيب فريديريك نفسه وحرّم من قسم كبير من جنوده . وقرر أن يعيد تجهيز الحملة في السنة التالية . ولم يأخذ غريغوار التاسع بعين الاعتبار حالة هذه القوة القاهرة ، وحرّم فريديريك ، وكان هذا مهتماً بالبرهان عن حسن نيته فأبحر إلى عكا في صيف ١٢٢٨ م . ونظراً لكونه صليبيّاً محروماً ، كان تحت تصرفه عدد قليل من الجنود ، وعوضاً عن الحرب ، فاوض بمهارة . وقع مع الملك الكامل معاهدة صلح اعترفت للمسيحيين بامتلاك القدس والأماكن المقدسة التي كانت الحرب الصليبية غير قادرة على استردادها . ومع ذلك ، أفاد غريغوار التاسع من غياب فريديريك وباشراً بالاستيلاء على مملكة صقلية . ولكن عمله كان تعباً ضائعاً ، لأن الإمبراطور لدى عودته استردها وحصل بموجب معاهدة سان جرمانو (١٢٣٠ م) على رفع الحرمان .

أما قضية نظام المدن اللومباردية فقد ولدت من جديد الخلاف انطلاقاً من ١٢٣٧ م . كما تألفت ثانية العصبة اللومباردية منذ بداية حكم فريديريك الثاني . وفي تشرين الثاني ١٢٣٧ م ، أحرز الإمبراطور نصراً على العصبة في كورتونوفا ، في جنوب برغام . وللاحتفال بنصره في روما على شاكلة الأباطرة القديسة ، أرسل إلى الرومانيين غنائم تصحبها رسالة بهذا الشأن .

ثم قام فريديريك الثاني بإخضاع شمال إيطاليا كلها إلى السلطة الملكية . وبعد بضعة أشهر (١٢٣٨ م) خول أحد أبنائه غير الشرعيين ، أنزيو ، اللقب الملكي وساردينيا التي كان البابا يطالب بها . ودون أي شك كان العاهل يأمل بإدخال الدولة الحبرية كمملكة إيطاليا في إمبراطوريته : أعطى لكافة إيطاليا ، دون تمييز ، نظاماً إدارياً واحداً ، وعيّن نواباً عامين يرتبطون به مباشرة ، ولهم اليد العليا على حكام المدن ورؤساء البلاد السهلية .

ولكن الدولة الحبرية والمدن اللومباردية كانت مهددة أيضاً ، ولذلك كان من الطبيعي أن تعقد حلفاً ضد الإمبراطور ، وفي آذار ١٢٣٩ م ، حكم البابا بجرمان فريديريك الثاني . ومزق الخلاف شبه الجزيرة كلها ، واعتمد فريديريك الثاني على مملكة صقلية ، وسيطر على جزء من الدول الحبرية ، لاتوسكانا وثرغر تريفيث الذي يؤمن الارتباط مع ألمانيا . وفي المناطق الأخرى ، حتى في داخل المدن ، قام نزاع حاد بين أنصار الإمبراطور وأنصار البابا . وحاول الأحرار من جانبهم إسقاط نفوذ الإمبراطور وشجبه من المسيحية كلها له . وجرى تبادل رسائل بين البابا والإمبراطور وردّ كل من الجانبين على الآخر .

ودعا غريغوار التاسع إلى روما مجعاً عاماً يعقد في عيد الفصح ١٢٤١ م . وهاجم فريديريك السفن الجنوية التي تنقل آباء المجمع ، وألقى القبض عليهم وأرسلهم أسرى إلى إقليم البوي . وقرر خلف غريغوار التاسع ، إينوسان الرابع ، أن يفر من الدول الحبرية ، وفي ١٢٤٥ م ، استطاع أن يعقد في ليون مجعاً حكم بخلع فريديريك الثاني ، ولتدارك من يحل محله ، أرسل مفوض حبري إلى ألمانيا ، وجمع دون صعوبات بعض الناصحين الكنسيين الذين خلعوا لقب ملك الرومانيين على اللاندغراف ، هنري راسب (١٢٤٦ م) ، ثم على كونت هولانده غليوم (١٢٤٧ م) . وبالرغم من النوايب التي مني بها فريديريك في الوقت نفسه في إيطاليا الشمالية ، فما كان ليفكر بأنه خسر القضية . وأعد نفسه في مملكته الصقلية لاستئناف النزاع ، لولا أنه توفي في ٣ كانون الأول ١٢٥٠ م .

ولم يضع موته حداً قطعياً للخلاف ، فموجب الوصية التي تركها فريديريك جعل من ابنه كونراد الرابع وارثاً للإمبراطورية ومملكة صقلية . واستمر النزاع حتى ١٢٦٨ م . هذا التاريخ ، الذي كانت فيه هزيمة وموت كونرادين حفيد فريديريك الثاني ، أمن النصر الحاسم للبابوية .

٢ - تطور ألمانيا في حكم آل شتاوفن

لقد ضحى أباطرة آل شتاوفن بألمانيا في سبيل سياستهم الإمبراطورية والإيطالية . وهكذا فإن فريديريك الثاني ، خلال ثمانية وعشرين عاماً من الحكم ، لم يقض ، بالإجمال ، إلا اثني عشر عاماً في ألمانيا . وأكثر من ذلك ، في صيف ١٢٤١ م ، وفيما كان الجيش المغولي يحتاز الأودر ويتغلغل في بولونيا وفي هونغاريا ويستعد لاجتياح ألمانيا من الجنوب ، كان فريديريك الثاني منصرفاً بكليته للعمليات الإيطالية ورفض مغادرة إيطاليا . وأنقذت ألمانيا من الغزو لأن ثورة مفاجئة في آسيا الوسطى أجبرت المغول بشكل غير منتظر على أن يعودوا وأدراجهم .

التوسع الجرمانى

وفيما كان آل شتاوفن يوجهون أنظارهم نحو الآفاق البعيدة في البحر المتوسط ، وجه العالم الجرمانى توسعه في اتجاه أكثر تطابقاً مع الوقائع الجغرافية ، في مناطق تؤلف امتداداً طبيعياً لألمانيا ، نحو الشمال ونحو الشرق .

في الغرب ، في الواقع ، ثبت تاريخ طويل الأمد حدود جرمانيا في تماسها مع المملكة الفرنسية . وفي القرن الثالث عشر ، كانت الدولتان متحالفتين بصلاصة أكثر من أي وقت مضى ، إن الكابسيين في كل نضالهم ضد الخطر الأنجفي ، كان من مصلحتهم التقارب مع آل شتاوفن ، والقديس لويس نفسه احترز من التدخل في الخلاف بين البابا والإمبراطور . وأخيراً ، وبشكل غير محسوس ، نجد أن المناطق الحدودية التي تتعلق حقوقياً بملك جرمانيا ، كانت تميل أكثر فأكثر إلى الخلاص منه ، وإمارات البلاد المنخفضة التي أثرت من التجارة ، تؤكد استقلالاً ذاتياً حقيقياً . وإلى الجنوب مملكة بورغونيا كانت منجذبة بشكل لا يقاوم في فلك فرنسا منذ أن تزوج أخ القديس لويس ، شارل داغجو ، في ١٢٤٦ م ، الأميرة الوارثة لكونتية بروفانص .

وفي المناطق الباطيكية والإسكاندينافية ، كان نفوذ ألمانيا ، بالمقابل ، محل في جميع الأصعدة ، محل نفوذ إنكلترا . وشمال أوربة بدأ آنذاك يستيقظ على الحضارة الغربية . في النورفيج ، أدخلت الكنيسة ثم بعض كبار العواهل مثل هاكون الرابع (١٢١٧ - ١٢٦٣ م) أو ماغنوس المشرع (١٢٦٣ - ١٢٨٠ م) البلاد في محفل الأمم الأوربية : فالإصلاح الغريغوري ، والشرعية الملكية ، والأدب الفروسي ، حلّ فيها محل الروح الفايكنغية ، ولكن منذ آخر القرن ، وقفت الطبقة النبيلة والأكليروس الأعلى ضد الملكية . وبفضل الفوضى ، ثبتت وتأكدت بخاصة سيطرة ألمانيا الاقتصادية ؛ فقد انتقلت التجارة إلى أيدي التجار الجرمانيين . وتحت شعار الجرمنة أيضاً يوضع تطور السويد . ففي القرن الثاني عشر ، ظلت تدين بالوثنية التي ورثتها عن أسلافها . غير أن الرهبان السيستريسين وتجار الهانس أدخلوا إليها الحضارة قليلاً قليلاً . وفي ١١٦٤ م أحدثت أبرشية مكان المعبد الوثني في أوبسالا . ثم باشر السويديون الذين اعتنقوا المسيحية بأداء رسالة الإيمان إلى فنلندة . وفي القرن الثالث عشر تثبيتت السلطة الملكية ، والملك برجر الذي أقام عاصمته في موقع جديد ، في ستوكهولم (١٢٥٠ م) أسس سلالة الفولكونغ وبني دولة صلبة . ومع ذلك ظل المجتمع السويدي يتجرمن ؛ فقد سمح العواهل بالتجارة الهانسية . واشتغل تقنيون ألمان في مناجم الحديد والنحاس . والدانيمارك أخيراً ، الأمة المجاورة مباشرة ، كانت في بداية القرن الثاني عشر إمارة تابعة لمملكة جرمانيا ، وكانت الإبرشيات الدانيماركية تحت وصاية الكنيسة الألمانية . وسيطر تجار لوبيك على التجارة كلها . وأخيراً كان الرباط الجرمانى حكماً للخلافت السلالية العديدة . وحاول أمراء دانيماركيون ، مثل فالديمار الكبير انطلاقاً من ١١٥٤ م أن يدفع التغلغل الألماني . اعتمد على أكليروس مصلح ، ودعا رهباناً فرنسيين . وكانت السواحل الدانيماركية محفوفة بالحصون ، وأصبح أهمها مدينة كوبنهاغن . وأنقذت أخيراً

التقاليد القومية من النسيان . والراهب ساكسو غراماتيكوس (١١٤٠ - ١٢٠٦ أو ١٢١٦ م) الذي أتم دراساته في باريس كتب باللاتينية تاريخ الدانمارك ، وهو أهم أبدة أدبية في العصر الوسيط الدانماركي . ويقص هذا الأثر ، في ستة عشر كتاباً ، تاريخ البلاد منذ أصولها حتى ١١٨٧ م . وأراد فالديمار الثاني بن فالديمار الكبير أن يذهب إلى أبعد من ذلك . فلم يكتف بالتدخل في السويد وقطع روابط التبعية بألمانيا وفرض سيادته على الإمارات الألمانية المؤسسة في شرق نهر الإلب . ولكن كونتات هولشتاين وشفيرين فرضوا عليه هزيمة نكراء . ولم يعد التفوق الدانماركي موضع اهتمام في البaltيك ؛ لأن الدانمارك وقعت في الفوضى وأصبحت نوعاً من مستعمرة ألمانية .

وعلى الحدود الشرقية أخيراً ، بدأت للجرمانية حركة توسع كبرى ، (الزحف نحو الشرق) . ولم تكن هذه الحركة من عمل الأباطرة ، فقد اقتصر هؤلاء على الحفاظ كثيراً أو قليلاً على سيادتهم على الدول التي تشكلت قديماً في شرق ألمانيا ، هونغاريا ، بوهيميا ، بولونيا . وقد نظمت هذه الأخيرة في عهد بوليسلاف بوش تورس (١١٠٢ - ١١٥٨ م) وأصبحت مؤقتاً سيدة بوميرانيا التي أمنت لها منفذاً إلى البaltيك . ولكن ، في القرن الثالث عشر ، عادت البلاد وسقطت في الفوضى لصالح النفوذ الجرمانى . وبوهيميا - مورايا ، التي تشكلت في ١٢١٨ م مملكة وراثية ، أصبحت دولة عظيمة منذ فتح العاهل أوتو كار الثاني الشتيريا والكارنثيا والكارنيول . وكان الأباطرة منهمكين فقط في النزاع ضد بولونيا وبوهيميا .

وهكذا تم فتح الأراضي الجديدة تحت إدارة أدواق ومارغرافات ألمانيا الشرقية . وأمنت إقامة الفلاحين الألمان الذين استعمروا الأراضي الجديدة أو تبشير السكان المحليين بالإنجيل على أيدي الأكليروس الألماني ، جرمنة المناطق المفتوحة .

ومنذ الثورة الكبرى للشعوب السلافية في ٩٨٦ ، ظلت الحدود الشرقية لألمانيا ثابتة على خط نهري الإيلب والسّال (زالة) . وفي سياق القرن الثالث عشر فقط ، استؤنف التوسع في بلاد فيند . وفتح ألبرت الدب ، كونت ثغر الشمال ، مناطق الهافل وأخذ في ١١٥٠ م لقب مارغراف براندبورغ . واستأنف أخلافه الحركة نحو الشرق : ففي النصف الأول من القرن الثالث عشر ، فتحت بلاد الأودر والفارتا وشكلت « الثغر الجديد » . وإلى الشمال ، بسط دوق ساكس ، هنري الأسد سيطرته على بلاد الأوبودريت والثاغرين والبولاو ، وهكذا تشكلت كونتيات ودوقيات ميكلامبورغ وبوميرانيا . وأخيراً ، وأبعد كثيراً نحو الشرق وفيما وراء نهر القيستول ، عند الشعوب البaltية ، والبروسية والليتوانية ، والليتوانية ، والاستونية ، بوشر عمل الفتح والصبأ في سياق القرن الثالث عشر ، على يد نظام فرسان بورت - غليث الذين ذابوا واندمجوا في ١٢٣٦ م مع الفرسان التوتونيين . وعندما عاد هؤلاء من (الأرض المقدسة) أخذوا من فريديريك الثاني في ١٢٢٦ م حقوق سيادة في بروسيا شبيهة بالحقوق التي يتمتع بها كل الأمراء الألمان . بدأ الفتح معيناً ومحددأ بإنشاء قصور ومدن ، كولم م كونيغسبرغ وماريانبورغ ؛ ومضاعفاً بسياسة استعمار داخلي . وأيّد الشعب الأصلي ، أو ردّ إلى العبودية وحلّ محله معمرّون ألمانيون .

أفول السلطة الملكية في ألمانيا

وما فتئت سلطة الأمراء الألمان تنمو في سياق ذلك الدور . ومقابل المجندين العسكريين الذين يجهزونهم لسياسة الأباطرة الإيطالية ، كان بإمكانهم أن يطلبوا امتيازات هامة أكثر فأكثر . وقد بدأ أفول السلطة الإمبراطورية مع زوال السلالة السالية ، وتفاقم بالحرب التي قامت بين الولفيين (أو الغلفيين) والشتاوفن للحصول على السلطة . لقد قسمت أحداث هذا الصراع ألمانيا خلال قرن تقريباً . وعندما أصبح فريديريك الأول ، الشتاوفني ، ملكاً ، نمت سلطة

الولفين بشكل خطر ، لقد جمع هنري الأسد ، سليل ولف الأول ، بين يديه دوقية ساكس والأراضي التي فتحها من بلاد الفيند (اسم أطلقه الألمان على السوربيين وهؤلاء هم سلافيو لوزاس الذين وقعوا ، في القرن التاسع ، تحت سيطرة الألمان الذين يسمونهم فيند) . وفي ١١٧٦ م رفض أن يمّد فريديريك بارباروسا بمساعدته من أجل حملة إيطالية . واهتبل العاهل أول فرصة لرفع دعوى عليه . دعي هنري الأسد ثلاث مرات للمثول أمام المحكمة الملكية ، ورفض . فاتهم بأنه قطع السلام العام وطرد ، وأقطعت إقطاعاته إلى أمراء آخرين : قسم من الساكس إلى برنارد دانهالت والباقاريا إلى آل فيتلسباخ اللذين ظلّا فيها حتى ١٩١٨ م .

انتصر آل شتاوفن على الولفين بفضل الدعم الذي وجدوه لدى الأمراء الآخرين . وبالمقابل ، خوّل العواهل فوائد عظيمة بدلت بعمق البنية السياسية لألمانيا . وهذه التحويلات توطدت قليلاً قليلاً بطريق العرف ، واللوحه التي يقدمها لنا ، في ١٢٢٥ م ، آيك فون ريغاو في (مرآة الساكسونيين) ليست إلا نهاية تطور مظلم . كان فريديريك الأول مضطراً للتنازل إلى العائلات القوية عن مكانة ممتازة في المملكة . وفي القرن العاشر كان ممثلو الملك ، الكونتات كالأدواق ، يؤلفون جزءاً من طبقة الأمراء . وانطلاقاً من ١١٨٠ م ضيقت المستشارية الملكية استعمال التعبير (أمراء) . إلا أن الأقوياء وخدم الذين بسطوا سلطتهم على كونتيات كثيرة كان لهم الحق بلقب أمراء الإمبراطورية . واحتفظ هؤلاء منذ الآن بحق المشاركة في الانتخابات الملكية . وعليه فإن طبقة الأمراء تشكل طبقة مغلقة . وحيال هؤلاء الإقطاعيين الكبار ، تعهد فريديريك الأول أن يُقطع من جديد كل إقطاع شاغر في مهلة عام ويوم . وعلى هذا فإن ملك جرمانيا لا يستطيع ، كالعاهل الكاسي ، أن يضخم ملكه من الإقطاعات التي تقع في حال عدم وجود ورثة لامتلاك ميراث . وفي هذه الظروف ، يرى أن

السلطة التي يمكن أن يبلغها بعض الأمراء الألمان ، كانت عظيمة . وأن حالة ثغر النمسا ، التي ارتقت لصف دوقية على يد فريديريك الأول كانت بخاصة مؤثرة ؛ فقد أقطع بارباروسا الدوقية إلى هنري دو بابنبرغ وزوجته وأولاده ، بمنحهم امتيازات باهظة .

ومنذ كونكورات فورمس ، لم يعد الأساقفة أيضاً موظفين يعينهم الملك وتابعين له بصورة وثيقة . ولعب الانتخاب في حالهم الدور الذي أخذته الوراثة في دور الأمراء العلمانيين ؛ لأن الملك كان ملزماً كثيراً أو قليلاً بتقليد المنتخب الجديد زماني الأسقفية ، ومنذ حكم فريديريك الأول كان جميع الأساقفة يقدمون احترامهم للعاهل وإذا شاركوا أيضاً في الحكم ، فذلك بصفة تابعين .

وعاش النظام الأوتوني . وكان فريديريك الأول أكثر اهتماماً من سيكون حفيده بالشؤون الجرمانية ، كما كان أبعد من أن يكون غير حساس بأفول السلطة الإمبراطورية في ألمانيا . ويأمل بأن يستغل لصالح الملكية الممارسات الإقطاعية . إن الأمراء الذين خولهم الكثير من السلطة يجب أن يكونوا في نظامه تابعي الملك ؛ وإلى الملك ينتهي هرم الاحترامات التابعة ، الدرجات السبع « للمجن التابعي » وكان بارباروسا يفكر بأن يجد في تعزيز روابط التبعية مصدراً جديداً للسلطة الملكية . أمل خلب ، ففي عهد أخلافه ، وخاصة في عهد فريديريك الثاني ازداد ضعف السلطة الإمبراطورية . وليحصل فريديريك الثاني على انتخاب ابنه ملك الرومانيين ، قدم تنازلات جديدة : تعهد أولاً باحترام الحرية الكاملة للانتخابات الأسقفية ، وفي الامتياز المنشور في ١٢٢٠ م ، وسع امتيازات القضاء الكنسي ؛ ثم خول كافة الأمراء (في ١٢٣١ م) جميع الحقوق الملكية . ومن جهة أخرى ، إن البعد الذي كانت فيه الشؤون الإيطالية تشغل العاهل ، وإدارة البلاد بأشخاص وسطاء ، لم يكونا ملائمين للسلطة الملكية ؛ فن ذلك أن هنري ، الابن البكر لفريديريك الثاني ، الذي عهد إليه أولاً بإدارة الشؤون الجرمانية ،

طبق سياسة شخصية خرقاء ، معادية للأمراء ، حتى آل به الأمر إلى الثورة علناً ضد أبيه ولكنه كسر وطرح في السجن حيث مات في ١٢٤٢ م . وأخوه كونراد ، انتخب بدوره ملك الرومانيين ، وحل محله . ولكنه لجم بمستشارين انتخبهم فريديريك الثاني ، ومارسوا سلطة متنطسة . وحيال الإمبراطور الغائب دائماً ، ازداد عدم محبة الأمراء له ، وأواخر حوادث العهد ، خلع الملك ، وتعيين الملك ، لم تستطع تحسين الحالة .

وفي منتصف القرن الثالث عشر أفلست السلطة الملكية في ألمانيا . وبعد موت فريديريك الثاني ، انهار أيضاً كل البناء السياسي الذي شيد بأيدي ملك الرومانيين . كذلك تراخت الروابط التي كانت تشد ممالك بورغونيا وإيطاليا وصقلية إلى مملكة جرمانيا .

تفتيت الصرح الإمبراطوري

١ - الألمانيات

فترة خلو العرش الكبرى

من ١٢٤٥ إلى ١٢٧٣ م ، كانت ألمانيا فريسة الفوضى وكان المنصب الإمبراطوري موضع نزاع بين عدة مطالبين متنافسين .

إن غياب السلطة الملكية يبرر الاسم (خلو العرش الأكبر) الذي أطلقه المؤرخون على هذا الدور : لأن العواهل ، زعماء حزب أو أجنب ، خالي الوفاض من دومينات هامة لتجهزم بالموارد التي يحتاجونها ، لا يتمتعون بأي وجهة أو نفوذ . وما من أحد منهم قادر على أن يقوم بعمل سلطة في ألمانيا . إن الفونس قشتالة ، انتخب إمبراطوراً ، ولم يضع قدمه أبداً في الإمبراطورية . وعدم الأمن أيضاً أصبح مزمناً ، الأمراء يتنازعون بأسلحة الإقطاعات التي لا وارث لها . والفرسان ، من أصل رقيق أو مملوك ، الذين يملؤون بعدد كبير حكومة آل شتاوفن ، ونكبوا بسقوطهم ، انصرفوا للشقاوة وقطع الطرق وأعمال العصابات . وأخيراً ، وبفضل هذه الفوضى ، تمت التجزئة السياسية في ألمانيا ؛ فالأمراء ، علمانيون أو كنسيون ، كان لكل فريق منهم حكومته الخاصة التي تفلت من السلطة الملكية . والأكثر قوة من بينهم احتفظوا لأنفسهم بحق انتخاب الإمبراطور . ففي ١٢٣٧ م ، لدى انتخاب كونراد الرابع ملك الرومانيين ، يرى أن الهيئة الانتخابية ، التي أخرج منها الكونتات البسطاء في آخر القرن الثاني عشر ، اقتصرت على سبعة أعضاء ممتازين : وهم ثلاثة أمراء كنسيين ، رؤساء أساقفة مانيس ، وكولونيا وتريف ، وأربعة أمراء علمانيين كونت بالاتينا

الراين ، دوق ساكس ، مارغراف براندبورغ ، وملك بوهيميا . وطوال فترة خلو العرش الكبرى ، وضعت هذه الهيئة القليلة العدد الملكية تحت الوصاية . ولينتخب المرشحون كان عليهم ، في الواقع ، أن يقبلوا مع الأعضاء المتمازين بالتزامات تربطهم بشدة .

لقد حصل الأمراء السبعة على ألا يتخذ الملك أي قرار خطير دون الحصول على موافقة مجلس الطبقة النبيلة ، الرايخشتاغ ، الذي كان نفوذهم فيه متفوقاً . أما الملكية التي ظلت متنقلة ، ولا تتصرف إلا بمصالح قليلة ، إدارة ملكية ومحكمة ملكية ، فقلما يمكنها استعادة استقلالها ، لاسيما وأنها تملك القليل من الموارد . وإن معظم الحقوق الملكية قد تنازل عنها إلى الأمراء فريديريك الثاني أو أخلافه . وكانت الموارد الوحيدة للملكية أموال التاج ، التي هي أيضاً بددت وبذرت ، تضاف لها الأموال الموروثة للمرشح المنتخب . وانطلاقاً من ١٢٤٥ م ، اهتمت الهيئة الانتخابية للحفاظ على امتيازاتها ، بمعارضة تشكيل سلالة ملكية ، وذلك بعدم انتخاب العواهل من أسرة واحدة مرتين ، وإبعاد الأمراء الأقوياء كثيراً عن الملكية .

محاولات إرجاع السلطة الإمبراطورية في آخر القرن الثالث عشر

في ١٢٧٣ م ، انتهت الحيدة الملكية ، ولكن ملوك جرمانيا حاولوا عبثاً حينئذ أن يتعاقبوا على العرش دون صدام . وما من واحد منهم ، ولا رودولف دو هابسبورغ (١٢٧٣ - ١٢٩١ م) ، ولا أخلافه المباشرين ، أدولف دوناسو (١٢٩١ - ١٢٩٨ م) ، وألبير دو هابسبورغ (١٢٩٨ - ١٣٠٨ م) ، حتى ولا هنري السابع دو لوكسمبورغ (١٣٠٨ - ١٣١٣ م) توصلوا إلى إرجاع السلطة الملكية .

إن العودة إلى الحالة الطبيعية تمت بدعم البابوية ؛ لأن غريغوار العاشر ، الذي يرغب في تنظيم حملة صليبية جديدة ويرجو أيضاً أن يهز وصاية ملك

صقلية ، كان يميل لأن يعيد للملكية الجرمانية قليلاً من جاهها . وبإيجاء منه ، اختار الناخبون بين المرشحين العديدين من ألما وأجانب (ملك فرنسا فيليب الثالث الجريء في عدادهم) ، في ٢٩ أيلول ١٢٧٣ م ، في فرنكفورت ، الكونت رودولف دو هابسبورغ ، ملك الرومانيين . وكانت أسرة آل هابسبورغ من أغنى العائلات الكونتية في جنوب - غربي ألمانيا وأموال هذا البيت تقع في الأصل في أرغويا ، بين نهري الآر ورويس ، هناك ، حيث يرتفع منذ القرن الحادي عشر قصر هابسبورغ الذي أعطى اسمه لهذا البيت . وفي القرن الثاني عشر ، تلقى آل هابسبورغ لاندغرافيا الألزاس العليا وكونتية زوريخ ، واكتسبوا في هذه المناطق دومينات عديدة . ورودولف ، الذي أظهر ولاء تاماً حيال آل شتاوفن ، أفاد من فترة خلو العرش الكبرى لزيادة ممتلكاته ، وتحسين إدارة دومينه . والعاهل الجديد رجل بسيط وبشوش وملاحه الجسدية ظهرت جيداً بالتمثال المتقن المعبر الذي يزين به ضريحه في كاتدرائية سپير . وهناك قصص عديدة تكشف عن الشعبية التي تمتع بها خلال حكمه . ففي الريف ، يرقع بنفسه لباسه (لباس من العنق إلى الحزام ، استعمل من القرن الثالث عشر حتى القرن السابع عشر) الممزق ، ويتغذى ببعض اللفت ، السلجم المقتلع من الحقل . وفي زمن السلام ، يختلط طوعاً ودون تكلف بشعب المدن . وذات يوم كان يستدفع بموقد فرن ، فعاملته صاحبة الفرن بقساوة وجفاء ، دون أن تعلم هوية هذا المتفرج الذي يقضي وقته بالنظر طويلاً إلى كل ما يراه . وعندما اعتلى رودولف العرش الإمبراطوري ، وإن كان متعلماً قليلاً ، برهن عن حكم أكيد وواقعية صلبة . لقد فهم أنه يتوجب على ملك جرمانيا أن يتخلى عن كل تطلعات آل شتاوفن الإمبريالية . وكانت كل جهوده موجهة إلى ألمانيا حيث حاول أن يثبت سلطة بيته الأرضية ، ويفيد بشكل أفضل من النظم الملكية . ومن جهة أخرى ، حاول أن يعيش باتفاق ووافق مع البابوية ، ووعد ألا يسبب ضرراً

إلى الكنيسة الرومانية . وحصل من غريغوار العاشر على الوعد بتتويجه إمبراطوراً . ولم يتوقع من المباركة أو التقديس ، إرجاع سلطته إلى إيطاليا ، ويأمل فحسب في أن يستطيع بعد هذا الاحتفال أن يحصل في حياته على أن ينتخب الأمراء أحد أولاده ملك الرومانيين .

ولتحقيق هذا البرنامج ، فرض رودولف نفسه أولاً على كل ألمانيا وبخاصة أن يجبر ملك بوهيميا أوتكار الذي لم يشارك في انتخابه بالاعتراف به ملكاً شرعياً . لقد كان أوتكار خصماً خطراً ؛ كان سيد بوهيميا ومورافيا ودوقية كارانثيا وكارنيول والنسا وشتيريا . ودوله غنية ومنظمة جيداً . غير أن جزءاً من هذه المكتسبات قد جرى بصورة غير قانونية على حساب حقوق التاج . وجه رودولف ضد ملك بوهيميا حملتين : الواحدة في ١٢٧٦ م ، والأخرى في ١٢٧٨ م ؛ وانتهت الأخيرة بهزيمة وموت أوتكار ، واستغل الإمبراطور نصره وأقطع ابنه ألبرت دوقتي النسا وشتيريا وضخم على هذه الصورة بشكل عظيم الثروة الوراثية لآل هابسبورغ . وبفضل هذه السلطة الأرضية المعززة ، حاول أن يرجع السلطة الملكية في ألمانيا : حاول أن يعمر الدومينات الإمبراطورية المستلبة أثناء فترة خلو العرش الكبرى وأعاد تنظيمها من جديد . وأمن بهذا الشكل إلى الملكية الألمانية موارد أكثر وفرة وانتظاماً . ولكن رودولف أخفق في مشروعه في لبس التاج الإمبراطوري ؛ لأن خلفاء غريغوار العاشر لم يروا ضرورة لإعادة الحياة إلى المنصب الإمبراطوري ، وفرضوا على رودولف التزامات جديدة أخرت دون انقطاع تاريخ التتويج . ولم يفز رودولف في جهوده للحصول من الناهبين على انتخاب أحد أولاده .

إن عمل الإرجاع الملكي الذي دشنه رودولف دو هابسبورغ بقي دون غد ؛ ففي ١٢٩٢ م عمل الناهبون الكنسيون وفانيسلاس بوهيميا على إخفاق ترشيح ألبرت دو هابسبورغ وقبول ترشيح كونت أدولف دوناسو . ولم يكن تحت

تصرف هذا غير سلطة أرضية ضئيلة ومهيأة لجذب الناكبين . وعندما اعتلى أدولف العرش حاول عبثاً تثبيت وضعه واستقلاله ، فأثارت هذه السياسة قلق الأمراء الناكبين . وفي ٢٣ حزيران ١٢٩٦ م حكموا بخلعه وانتخبوا ألبرت النسا ، ابن رودولف ، ملكاً على جرمانيا . ولأول مرة يختار الناكبون الممتازون عدواً للملك دون أن يلفظ البابا خلع العاهل الشرعي . وبعد شهر ، غلب أدولف وقتل في معركة غولهايم (في ٢ تموز ١٢٩٨ م) . وأصبح ألبرسي الموقف . وأقطع أولاده بوهيميا ومورافيا . وهكذا فإن السلطة الأرضية لعائلته ، يضاف إليها الصوت الانتخابي المتعلق بمنصب ملك بوهيميا ، جعلت من ألبرسي العاهل الألماني أقوى عاهل منذ موت فريديريك الثاني . ولكن الوقت لم يحن لآل هابسبورغ لاحتكار السلطة الإمبراطورية وإعادة كامل بريقتها إليها ؛ وفي الأول من أيار ١٣٠٨ م ، قتل ألبرسي من قبل أحد أبناء أخيه . وبادر الناكبون باختيار خلف له ، أمير يتصرف بسلطة أرضية أضعف من أن تصبح خطرة ، وهو هنري السابع ، كونت دولوكسبورغ . وهذا العاهل الفرنسي الثقافة ، قضى شبابه في بلاط فيليب الجميل ، ولا يهتم بألمانيا ، حيث ترك الجبل على غاربه ، وعدم خضوع الأمراء للنظام . وفي إيطاليا ، حيث تجتذبه أذواقه الشخصية ، سيحاول عبثاً مع ذلك ، في إحياء الجاه الإمبراطوري .

٢ - سويسرا وإيطاليا

إن المناطق المنضمة تقليدياً إلى مملكة جرمانيا بدأت بفضل أفول السلطة الملكية ، تنفصل عنها . ففي الجنوب - الغربي للمناطق الجرمانية نفسها ، بدأت بعض الكانتونات الألبية النضال الذي ولد الكونفدراسيون السويسري .

بدايات الكونفدراسيون السويسري (الهلفيتي)

منذ بداية القرن الثالث عشر حصل جليو أوري وشفيتز على حق محاكمتهم بالمحاكم المحلية وإبعاد كل قاض أجنبي . ولكن آل هابسبورغ الذين كسبوا حقوقاً عديدة في السيادة على هذه المناطق ، حاولوا بالتالي أن يفرضوا فيها سيطرتهم . ففي ١٢٩١ م ، وجد أن « الكانتونات الثلاث الغاية » : أوري ، شفيتز وأوترتالدين التي تسيطر على طريق سان - غوتار ، قد أبرمت بينها اتحاداً تعهدت بموجبه احترام المبدأ التالي : الملك مصدر كل عدالة ، ولكن القضاة يجب أن يكونوا من رجال البلد . وقاومت بانتصار ضغوط آل هابسبورغ ، وفي ١٣١٥ م شكت السلاح الذي سحب منها وحصلت على الحقوق التي كانت تمارسها حتى ذلك الحين في الكانتونات الثلاث . وفي معركة مورتغانتن كشفت لأول مرة القيمة العسكرية السويسرية .

وفي الوقت نفسه تفتت سلطة ملوك جرمانيا أيضاً في مملكة بورغونيا : إن كونتية بورغونيا (فرانش - كونه) التي تزوجت وارثتها في ١٢٩٥ م أحد أولاد فيليب الجميل ، وضعت تحت سيطرة الكابسين الذين ضموا أيضاً ليون وبسطوا في الشمال سيطرتهم على الباروا . وكل القسم الجنوبي من مملكة بورغونيا ، تحت اسم مملكة آرل ، انتقل أيضاً إلى أمراء أجانب ، بينما أنجز كونت الساقوا استقلاله الحقيقي .

خلاص إيطاليا من السلطة الإمبراطورية

وفي هذا النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، فصلت إيطاليا مصيرها عن مصير البلاد الجرمانية ؛ لأن جهود البابوية التي مافتئت تناضل ضد مزاعم العواهل الجرمانيين ، قد توجت أخيراً بالنجاح والفوز . وفي الحقيقة ، سىرى أيضاً عواهل جرمانيين ينحدرون إلى إيطاليا : ولكن أشواط المباركة هذه لم يكن لها

من غاية الآن إلا أن تؤمن للإمبراطور في حياته انتخاب أحد أبنائه ملكاً للرومانيين ، لأن التقليد احتفظ بهذا الامتياز إلى الذين يلبسون التاج الإمبراطوري في روما . ومن جهة أخرى ، إن الروابط التي تضم إيطاليا للبلاد الجرمانية تراخت كثيراً أو قليلاً بسرعة حسب مناطق شبه الجزيرة : في إيطاليا الجنوبية ، وبفضل مساندة البابوية ، أقيمت سلالة أجنبية ، سلالة الأنجفين ؛ وفي الوسط ، عملت البلاد على إرجاع وتوسيع الدولة الحبرية ؛ وفي الشمال ، بالمقابل ، ظلت مملكة إيطاليا مرتبطة مبدئياً بمملكة جرمانيا ؛ واصطدم فيها الأحرار ببقاء الفكرة الإمبراطورية في بعض المدن ؛ وكانت المنطقة كلها ممزقة بالنزاع بين الحزب الحبري والحزب الإمبراطوري ، بين الغلفيين والجلبيين .

أ - إيطاليا الجنوبية متنازعة بين الأنجفين والأراغونيين

وفي ١٢٥٣ م ، كان البابا إينوسان الرابع قد قدم إلى أخ القديس لويس ، شارل ، كونت أنجو وبروفانص ، تاج صقلية ، وقبل شارل العرض ، ولكنه لم يعمل شيئاً في البدء لحيازة هذه المملكة الجديدة . وأخيراً في ١٢٦٥ م ، قرر شارل أنجو أن يستجيب لدعوات الكرسي - الأقدس الملحة ، وتقلد رسمياً من البابا كليمان الرابع مملكة صقلية ، ولكنه اضطر أن يجابه جنود ابن سفاح لفريدريك الثاني ، مانفرد . وفي شباط ١٢٦٦ م ، أحرز الأنجفي انتصاراً بالقرب من بينيفنت في معركة أولى لقي فيها مانفرد حتفه . غير أن كونرادين ، آخر شتاوفاي ، أسرع من ألمانيا وحاول بدوره مصير السلاح ، وسحق هو أيضاً في معركة تاغلياكوزو (بالقرب من أكويلا) وأمر شارل أنجو بإعدامه . وبعد بضعة أشهر ، سقطت آخر المقاومات ، واستطاع الملك الجديد ، سيد الموقف ، أن ينقل إلى أمراء فرنسيين وبرفانصيين أموال « المتمردين » . ونشأت دولة جديدة في جنوب شبه الجزيرة نجت نهائياً من الأباطرة الجرمانيين .

لم تنتصر البابوية على هؤلاء الجرمانين إلا بتثبيت ملك على العرش ظهرت سياسته الإيطالية والمتوسطية ، فيما بعد ، بالنسبة لها ، تهديداً رصيناً . وفي السنوات التي تلت الانتصار ، حاول شارلد أنجو في الواقع بسط نفوذه على مناطق إيطاليا الأخرى : في روما ، أفاد من شغور الكرسي الأقدس فترة طويلة (١٢٦٨ - ١٢٧٢ م) لينتخب شيخاً لروما ويخضع القومون الرومانية لسلطته .

وفي طوسكانة ، حيث عينه كليمان الرابع نائباً وكلفه أن يحجم مدن الحزب الإمبراطوري ، أمن شارل لنفسه السيطرة على الحياة السياسية في المدن الأساسية : ثبت الحاكم المعين وطلب ضريبة لإعاشة جيشه . إلا أن مدن إيطاليا الشمالية وحدها قاومتها بعداء مصم . ونظراً لأنه أصبح وارثاً للملكية النورماندية في صقلية ، فقد استأنف لحسابه أيضاً برنامج أسلافه الذين كانوا يهدفون إلى بسط سيطرة ملك صقلية على المتوسط الشرقي كله : وحلم بإرجاع الإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية لصالحه وأعد تألباً معادياً للإغريق . إلا أن الحملة الصليبية التي نظمها في ١٢٧٨ م أخوه القديس لويس ، اضطرت إلى إرجاء مشاريعه ؛ وعلى الأقل أفاد منها ليحاول بسط نفوذه في المتوسط الغربي : وعلى ما يبدو في الواقع أن لويس التاسع قرر بناء على أبحاثه ، مهاجمة تونس ، التي كانت في حيازة الخليفة المستنصر ، عدوه . وكان الوحيد الذي أفاد من الحملة . وبعد موت القديس لويس حصل من الخليفة على وعد بضريبة سنوية مرتفعة .

غير أن الحوادث وضعت كبحاً للطموح السياسي الأنجفي ، لأنه كان على شارل أولاً أن يجابه سياسة البابوية المعادية أكثر فأكثر . فلإقامة معادل مضاد لسلطة ملك صقلية ، شجع غريغوار العاشر انتخاب رودولف هابسبورغ . ومن جهة أخرى ، نجح الحبر الأعظم مؤقتاً في توطيد الاتحاد مع الكنيسة الإغريقية الراغبة في حشد كل القوى المسيحية في حملة صليبية ضد مصر (حزيران ١٢٧٤ م) ، ولكن انتخاب بابا فرنسي ، مارتن الرابع ، الذي عهد

من جديد بوظائف شيخ روما إلى شارل ، وأنكر الاتحاد مع الإغريق (١٢٨١ م) ، يبدو أنه أعاد إلى العاهل الأنجفي كل الآمال . وكان شارل على أهبة الهجوم على القسطنطينية عندما انفجر العصيان الصقلي .

مجزرة عامة للفرنسيين في صقلية في ١٢٨٢ م

في يوم الاثنين لعيد الفصح ، في الوقت الذي تقرر فيه الأجراس لتدعو المؤمنين في صلاة الستار أو العصر أو الغروب ، ثار الصقليون ضد شارل الأول أنجو ، ودعهم بيير الثالث دآراغون . وذبحوا الفرنسيين الموجودين في الجزيرة . وأصبح البيت الآراغوني سيد صقلية .

لقد كان الصقليون متعبين وسئوا من شدة الإدارة الأنجفية ، وكان بيير دآراغون عاهلاً طموحاً وسيداً على الشواطئ المتوسطية ، من فالانس إلى مونبليه ، ويطمع بصقلية . عرف كيف يفيد من هذا الاستياء . فقد انفجرت مشادة في بالرمو بين الشعب والشرطة ، في ٣٠ آذار ١٢٨٢ م ، وتردت إلى مجزرة جميع الفرنسيين في المدينة والجزيرة .

وفي الجزيرة الثائرة ضد السيطرة الأنجفية نزل بيير الثالث وأعلن نفسه ملكاً . وعندئذ باتت عبثاً كل محاولات شارل لاستعادة الجزيرة . والحملة الكفاحية التي قام بها ملك فرنسا فيليب الثالث بناءً على طلب العاهل الأنجفي ضد الآراغوني ، منيت أيضاً بالإخفاق . وخلال عشرين عاماً أيضاً ناضل الآراغونيون ضد الأنجفيين المنطوين في شبه الجزيرة ، في نابولي . وبقي هؤلاء أقوياء بالرغم من خسارتهم لصقلية ، وتدخلوا في إيطاليا كلها وظلوا يلعبون دور زعيم الحزب الحبري .

إيطاليا الشمالية الممزقة بنزاع الغلفيين والجبلين

بعد أن ثبتت وتأكدت الحركة القومونية في إيطاليا الشمالية ، كانت هذه الأخيرة فريسة المنافسات . إن النزاعات المختلطة التي مافتتت تقاوم فيها المدن المدن الأخرى ، والأشياء الأشياء الأخرى ، والشعب الطبقة النبيلة ، تحولت في النصف الثاني من القرن الثالث عشر إلى مقاومة عظيمة بين حزينين كبيرين ، الحزب الغلفي والحزب الجبيلي . وفي الأصل وضعت خصومة خاصة اشتبكت فيها بمطالبة فظيعة بالثأر عائلتان نبيلتان من فلورنسا ، ولما انفجرت الخصومة في الوقت الذي كان فيه فريديريك الثاني وأوتون برنشيك يتنازعان في ألمانيا على التاج الإمبراطوري ، تحزبت كل عائلة بقصد إيجاد غذاء جديد للخصومة ، إلى مطالب مدعٍ بالعرش . وأوتون برنشيك ينتسب إلى عائلة آل غيلف أو غيلف ، وأطلق اسم جيبيليين على أنصار فريديريك الثاني لأن عائلة شتاوفن كانت تملك قصرًا بهذا الاسم (فاييلفن) . وابتداءً من منتصف القرن الثالث عشر بطل استعمال المفردين فقط في فلورنسا ، وتجمعت المدن في عصبة حسب أحقادها أو مصالحها العامة . ففي فلورنسا وفي لوقا ، كان الحزب الغلفي في السلطة . وشكلت بيزا ، وسين ، وبيستويا بالعكس العصبة الغيبيلية . وبعدها الغلفيين لآل شتاوفن ، تحزبوا لشارل دأنجو ؛ ومولت المصارف الفلورانسية مشروعه . غير أن تحولاً مسرحياً يمكن أن يحدث في الأحلاف : فعندما يتغلب حزب في مدينة يطرد أنصار الأقلية ، وتصادر أموالهم . ويحاول المنفيون عندئذٍ عقد حلف مع أعداء المدينة التي ولدوا فيها بغية الاستيلاء عليها من جديد .

وفي سياق هذه الخلافات يتضح برنامج الحزين قليلاً قليلاً : يبدو الغلفيون مدافعين عن الكنيسة وعن البابوية . ويعتمدون على « الشعب » ، وهم مشجعون للسياسة الفرنسية ؛ والغيبيليون ، الذين يعتبرون في صفوفهم أمراء إيطاليا العليا ينكرون على البابا كل سلطة زمنية لتمجيد السلطة الإمبراطورية . وقرروا

دعوة هنري السابع إلى إيطاليا . وأراد هنري السابع أن يلعب دور المصلح والموفق والحكم بين الأحزاب . وكان دأته يحيه بلقب (موسى الجديد) ، ويعتبر أن مهمته تحقيق المصالحة بين الكهنوت والإمبراطورية .

« يا خلف قيصر وأوغست ، لقد عبرت إذن وديان الآبين وكما تشرق الشمس المرغوبة كثيراً ، فإن الأمل بعصر أفضل أشرق من أجل إيطاليا » .

لقد أخفقت الحملة الإمبراطورية (١٣١٠ - ١٣١٣ م) ، وأصبح هنري بالرغم منه زعيم الحزب ، وأسير جنوده . وعندما وصل روما اصطدم بالغلفيين الذين تخندقوا في المدينة الليونية ، واضطر إلى قبول تتويجه في لاتران ، في ١٩ حزيران ١٣١٢ م .

وهذا الإرجاع الذي انقطع فجأة بموت الأمير في آب ١٣١٣ م ، قد مني بالفشل حتماً ، لأن القومونات الغيبيلية التي كانت قد دعمت القضية الإمبراطورية ، كانت تنتظر في الواقع تثبيت الامتيازات التي تجعل منها دولاً مستقلة صغيرة ، وهذا معناه نفى أو إنكار حقوق الإمبراطورية على إيطاليا . ولم يكن ممكناً فيها إحياء السلطة الإمبراطورية . وانتصر الحزب الغلفي ولا سيما البابوية ، فضلاً عن أن أزمة سلالية انفجرت في ١٣١٤ م في ألمانيا . ولم يعد يختلط منذ الآن تاريخ إيطاليا بتاريخ ألمانيا .

الفصل الخامس

الكنيسة في كفاح جديد

قرن المسيحية الذهبي

إن الدور الذي يبدأ من العقود الأخيرة للقرن الثاني عشر إلى آخر القرن الثالث عشر ، يعتبر ، في الرأي السائد ، العصر الذي بلغت فيه حضارة العصر الوسيط الأوج . فقد أعطى القرن الثالث عشر القديس فرانسوا أسّيز ، والجامعات ، والكاتدرائيات ، ولذلك يستحق أن يطلق عليه (القرن الذهبي) للمسيحية في العصر الوسيط .

ومع ذلك يجب ألا نستسلم إلى تبسيط يرجع إلى صناعة الصور وتجارتها في أپينال ، لأنها صور شعبية ذات أسلوب ساذج قام بنشرها التجار الجوالون وطبع منها الكثير في أپينال ، وإنكار تعقيد التيارات التي اخترقته . إن أجمل (عصور الإيمان) ، عصر إينوسان الثالث والقديس لويس ، هو أيضاً عصر الهرطقة الالبيجوازية . فقد شهد نشوء مذهب القديس توماس الاكوييني الموفق بين العلم والإيمان ، مقولات الفكر الإغريقي واللاهوت المسيحي ؛ ولكنه كان مطبوعاً أيضاً بتناقضات عميقة ، ومنها رواية الوردة ، التي تضم ٢٨٠٠٠ بيت بين مؤلفين ، ودورين ، ومفهومين للحياة والحب ، ويمكن أن تبدو كرمز من الرموز . لقد شهد القرن الثالث عشر تشييد أوأبد تعد من بين أروع أوأبد المسيحية القوطية (الغوطية) ، مثل كاتدرائيات رَنسُ أوأميان ؛ ولكنه شهد

أيضاً مسيحي شمال فرنسا يجتاحون ويدمرون ، باسم (الأصولية) المهدة ، ساحة حضارة المسيحية الجنوبية . إلا أنه بالرغم من تعقيده وتناقضاته يظل أكثر غنىً وسحراً .

وفي هذا العصر الذي ثبت فيه البابا إينوسان الثالث سلطة الكرسي الأقدس على المسيحية ، وبشر القديس فرانسوا بحب الله ومخلوقاته ، ومات ملك فرنسا لويس التاسع في نضاله ضد المسلمين ، لا يمكن أن توجز الحياة الدينية المسيحية في تمجيد هادئ للإيمان . فلقد عرفت الكنيسة أزمت خطيرة جداً وإخفاقات عديدة . والنجاحات التي أحرزتها لم تكسب إلا بعد كفاح مرير . لأن محاولة القديس وحدها لم تستطع منع الدمار النهائي للحروب الصليبية فحسب ، ولا مزاعم التيقراطية (المشيئية) الحبرية ، ولا عودة النزاع العنيف ، بين السلطات الزمنية والسلطة الروحية ، الذي غلبت هذه الأخيرة في نهايته . لقد تمزقت الكنيسة حتى في داخلها . وكان عليها أن تكافح حركات هرطقية أكثر خطراً من الحركات التي ظهرت في العصر السابق ، لأنها استجابت لتطلعات انتشرت عن سعة عند المؤمنين . وللنضال ضد هذه الهرطقات ظهرت أنظمة جديدة ، أنظمة المتسولين ، وحاولت البابوية تعزيز نفوذها على جميع أشكال الحياة الدينية .

الهرطقات

ونظراً إلى أن الكنيسة القائمة لم تسد الحاجات الروحية للعديد من المسيحيين الشديدي الإيمان ، فقد نمت هرطقات رهيبة مريعة ، هرطقة الفودوازيين^(١) ، وبخاصة هرطقة الكتريين^(٢) اللتان أجبرت السلطات الكنسية على المبادرة لاستعمال القوة بتنظيم حملة مكافحة الألبيجوازيين وإقامة محكمة التفتيش .

(١) الهرطقة الفودوازية تنسب إلى إقليم Vaud وهو كانتون سويسري لغته الفرنسية .

(٢) الهرطقة الكترية أو الألبيجوازية انتشرت منذ القرن الثاني عشر في جنوب فرنسا بالقرب من مدينة ألي . والكترية فرقة مانوية .

وفي منتصف القرن الثاني عشر يمكن أن يعتبر أن الحركة الغريغورية كان من نتيجتها النجاح ؛ لأن الكنائس تحررت في الجزء الأعظم منها من سيطرة السلطات الزمنية ، مما ساعد على تذكير الأكليركيين والرهبان بمراعاة النظام الكنسي مراعاة دقيقة . ومع ذلك فقد ظهر لكثير من المسيحيين أن هذا الإصلاح المادي والنظامي بصورة أساسية لم يكن كافياً .

التطلع إلى الفقر والهرطقة القودوازية

ماذا يؤخذ على الأكليركيين والرهبان ؟ في المقام الأول ، الغنى وحب الثراء والكسب . وقد ظهر على إثر ذلك أدب هجائي وشعبي يشهر بحياة اللين والفتور والبذخ التي يعيشها الحبر أو الأب الأكبر ، بفضل عمل العملاء والتابعين ، ويغنى على حسابهم ، والشدة التي يجبي بها الأكليركيون والديرانيون الرسوم الثقيلة على المؤمنين (العشر ، التقدّمات ، الهدايا) ، أو يطلبون من المسيحيين ، عند الوفاة ، هبات حبوساً . وهؤلاء الذين يجب عليهم ، بخاصة أكثر من غيرهم ، أن يضربوا المثل في الحياة الإنجيلية الحق ، كاليسترين ، ينكرون المثل الأعلى في الكمال الروحي والتخلي عن الأعراض المادية الذي هو على رأس تأسيس نظامهم . يضاف إلى ذلك أن تطور العالم المسيحي نفسه أسقط هذا المثل الأعلى . لقد جرت الكنيسة في حركة الثراء الكبرى التي استهوت المجتمع الغربي كله . وأفادت المؤسسات الدينية من توسع إحياء الأراضي سواء أشاركت فيها بنفسها ، أم بالإنتاج الزراعي المتزايد الذي يعني بالنسبة لها نتاجاً أكبر من الأعشار أو من أجرة الأرض . وأفادت من يقظة الحياة العمرانية التي حثت على الاتجار المندفع لنتاجات الأرض ، وسببت ارتفاعاً بطيئاً ملائماً للمنتجين . وأكثر من ذلك ، ظلت الثروة الكنسية في ازدياد بعامل الهبات التقية . ونظام سيتو ، الذي فرض عليه « ميثاق الإحسان » الفقر التام (١١١٩ م) ، حتى في العبادة الإلهية ، أعطى المثل المؤثر لهذا التطور : فنذ النصف الثاني للقرن الثاني عشر ، أصبحت

الاهتمامات المادية لهؤلاء ، الذين أصبحوا قبل كل شيء « مزارعين نموذجيين » ، مسببين ضرراً عظيماً لروحانيتهم . ففيما كان يجب في الأصل أن يكتفى بإنتاج ما هو ضروري لغذاء زهيد للربان وإعاشة الضيوف والفقراء ، انطلقت الأديرة السيسترية في مضاربات تجارية أو مالية . وهكذا فإن الأديرة الإنكليزية لم تكتفِ ببيع صوف غنمها الخاص ، وكانت تجمع صوف فلاحى الجوار لبيعه ثانية بربح . وفي الوقت نفسه ، تخلى الرهبان السيستريون في الغالب عن عمل الأرض ، وأقاموا فلاحين على دومينهم وتحولوا إلى أصحاب دخل من الأرض . وبهذا يتضح عدم رضى العديد من المؤمنين وبزوغ حركات هرطقية في بعض مناطق الغرب .

بين المذاهب المارقة (المخالفة للدين الصحيح) ، التي عبرت بوضوح عن الفقر ، كان أقدمها المذهب الذي يرتبط بفكر آرنود برشيا . فهو الذي اقترح على الكنيسة ، لتتطهر ، أن تعزف عن الأموال الزمنية وتردها للعلمانيين ، وكشف عن طمعها بالمال وعن ريائها ، فأوقف وأعدم (١١٥٤ م) . وظل تلاميذه الارنالديون يمشون بمذهبه ، ولا سيما في لومبارديا . لقد أنكر هؤلاء على الكنيسة وعلى الأكليروس كل حق في الملكية . وانزلقوا بسرعة إلى هرطقة معادية للكهنوت : فقد اعتبروا أن جميع الكهان الذين يتمتعون بفوائد زمنية ، أي العالم الكهنوتي بأسره ، ساقطين حقيرين ، وبالتالي فإن الأسرار المقدسة المخولة من قبلهم لا قيمة لها . وهذه الحركة الارنالدية أسىء فهمها وشجبت في مجمع فيرونة في ١١٨٤ م بالصفة نفسها التي عرفت بها حركات أخرى مناوئة للأكليروس وملائمة للفقر اختلطت بها هذه الحركة في بلاد البحر المتوسط في آخر القرن الثاني عشر .

بين هذه الحركات حركة عرفت انتشاراً كبيراً هي الثالدية . ففي وسط عمراى أيضاً ، مدينة ليون ، التي أثرت بدورها محطة تجارية في القرن الثاني عشر ، وفي داخل الطبقة التجارية ، نشأت هذه الهرطقة . ومبادهها

بيير فالدو ، كان تاجراً غنياً وتقياً ومشجعاً (وهذا متاعه الفكري الوحيد) ،
 بقراءة الإنجيل وسير القديسين . تأثر بفضل الله و (اهتدى) نحو ١١٦٠ ، وباع
 أمواله وصار يعمل ويبشر بالفقر الإنجيلي . ومع بعض التلاميذ الذين أخذوا من
 بعد اسمه (فودوا دو فالدانس) ، عاش من الإحسان العام . وعملاً بذلك ، سمي
 فالدو وتلاميذه (فقراء ليون) ، وأصبحوا مجرمين بقيامهم بالتبشير مع أنهم لم
 يكونوا غير علمانيين بسطاء . وبمنع هذا التبشير بشراسة وبخرق في (١١٨٠ -
 ١١٨١ م) ، دفعهم رئيس أساقفة ليون والبابا إلى الهرطقة ، فثاروا ضد هذا القرار
 وأخذوا يفشون فساد الأكليروس ، مؤكدين على أن السلطة الدينية والنظامية
 مؤسسة على فضيلة المسك بها وليست مخولة بترقية إلى درجة كنسية ،
 واستخلصوا أن جميع المؤمنين الأفاضل هم كهان الله ويمكنهم أن يعملوا كما هم . وفي
 رغبتهم الحارة في الرجوع إلى الحياة الإنجيلية توصلوا إلى غني تبسيط أقصى
 للمسيحية ، وأنكروا صحة وحتى وجود معظم الأسرار تحت الشكل الطقسي الذي
 أعطته لها الكنيسة . ورفضوا مذهب مناولة القديسين والمطهر ، حتى أنهم رأوا
 من غير المفيد كل مكان عبادة ، كل صورة ، وكل طقس . وفي عطشهم إلى
 الطهارة المطلقة ، أوصى الفودوازيون النخبة بالعفة التامة وشجبوا الكذب بشكل
 مطلق .

ونما عدد تلاميذ فالدو ، وانتظموا في جماعات أخوية . والنخبة ، التي بيدها
 التوجيه الروحي للجماعة ، تتألف من يبيعون أموالهم لصالح إخوانهم ،
 ويقبلون ، بوضع يدي (الرئيس) على رأسهم لمباركتهم ، سلطة الحواريين
 ويتعهدون بالعفة التامة ليعيشوا حياة تشبه حياة الأديرة . وعين مبشرون أثناء
 انعقاد المجالس لتبشير كافة المؤمنين ومتابعة نشر الأفكار الجديدة والدفاع عن
 مذهبها . وكتاب الطقوس أو الرتب يتألف من تفسير حر للكتاب المقدس ،
 وصلوات جماعية ، ووجبة طعام في يوم خميس العهد ، خميس القربان

أو الأسرار ، ويذكر بالعشاء الرباني أو (السري) ، وقد اضطهد الفودوازيون بشكل متقطع خلال القرن الثالث عشر ، ولكنهم نشروا مذهبهم بخاصة في الوديان الألبية (جبال الألب) ، في بريانسونية والبيونت حيث حققت القالدية تقدماً هاماً ودائماً أكثر من غيرها .

ولكن أفكار فقراء ليون راجت على طول الطرق التجارية الكبرى ، وبلغت أبعد المناطق . من ذلك أن عرف وجود طائفة في مدينة أراس في منتصف القرن الثالث عشر من الاضطهاد الذي استشرى عليها . وفي المناطق المتوسطة اتحد الفودوازيون مع حركات هرطقية أخرى ؛ وفي أوساط مستحدي (الصناع) المدن (القماشية) في لومبارديا انضموا إلى المهانين الذين ظلوا في معظمهم أوفياء للكنيسة القائمة . وفي اللاندوك اختلطوا بحركة هرطقية ، من طبيعة مختلفة ، حركة الكاتاريين .

التطلع إلى الطهارة والهرطقة الكاتارية

في سياق القرن الثاني عشر نمت هرطقة الكتاريين ، من كلمة إغريقية تعني (الأطهار) ، ومن العسير جداً ، نظراً للصفة الجزئية والمنحازة جداً في الوثائق (لأن الكتاريين يبدو لنا في الغالب عبر الردود والانعكاسات التي أثارها هرطقتهم من جانب الأصوليين الأورثوذكس) ، أن نوضح بدقة أصول الحركة ومراحل انتشارها . ويبدو أن الفرق الكاتارية نشأت ، في الغرب ، من تبشير البوغوميليين ، الهرطقة المانويين العديدين في البلقان في القرن العاشر والحادي عشر : والأسماء (بلغاريون) ، أو (بوغريون) ، التي يدل بها عليهم في كل مكان ، تبدو أنها كانت الدليل على ذلك إن بقايا المانوية في المناطق الغربية ، حيث كانت الكنيسة ، في شخص القديس أغسطينوس خاصة ، تكافحهم في القرن الرابع والخامس ، استطاعت أن تسهل نجاح المبشرين الشرقيين .

ومهما يكن ، ومنذ الأصل ، فإن الهرطقة الكاتارية في الحد الذي تنتمي فيه إلى تعاليم لاهوت عالم ، تتميز عن الحركات الهرطقية ، مثل الفالدية ، الناشئة من تطلعات أناس سذج وجاهلين . وإذا كانت هنالك مشاهات لا تنكر ، بين الفرقتين ، يمكن أن توضح ، فهي توضح بالعدوى التي لم تأل الكاتارية جهداً في ممارستها على الفالدية في المناطق التي نمت فيها الحركتان جنباً إلى جنب . لقد كوّن الكاتاريون في الواقع ، مريدين ، حيث كان المناخ الديني مضطرباً من قبل : فمن ذلك يدل على شمال فرنسا (بورغونيا ، شامبانيا ، فلاندر) ، وعلى بلاد الراين ؛ ونجدهم أكثر في إيطاليا الشمالية ، على طول الطرق التجارية التي تصل هذه المناطق بالشرق البيرنطي ، حيث تلقوا تركة الحركة الباتارينية^(١) القديمة ؛ ولكن موطنهم الأصلي جنوب فرنسا (بروفانس ، لانغدوك) حيث يسمون (البيجوازيين) ، وإن نجاحهم في هذه المنطقة الأخيرة يعزى أولاً إلى قباحة ولا شعبية قسم كبير من الأكليروس اللانغدوكي ، الذي يعتبر غليوم دو بويلورنس^(٢) صدق له .

ومن جهة أخرى ، إن جو التسامح السياسي والاجتماعي شجع تقدم الهرطقة . لقد سأل أسقف فارساً كاثوليكياً طيباً لماذا لا يطرد الهرطقة من أراضيهم ، فأجاب : « لانستطيع ، لأننا تربينا معهم ، ولنا أهل بينهم ونراهم يعيشون بشرف » .

ما هو المذهب الذي يعلمه الألبيجوازيون ؟ إنهم يعتقدون كمانوية بوجود مبدئين ، الخير والشر في نزاع دائم . وفي بداية القرن الرابع عشر ، عرف الأخ برنارد غي في : (كتاب المفتش) ، فكرهم بهذه العبارات :

« فرقة المانوية تعترف وتعلم بوجود إلهين أو سيدين ، وهما إله الخير وإله

(١) حركة فرق هرطقية في إيطاليا الشمالية في القرنين ١١ و ١٢

(٢) بويلورنس مدينة في إقليم كاهور في فرنسا .

الشر . ويؤكدون بأن خلق كل جميع الأشياء المرئية والمادية ليس من عمل الله ،
الأب السماوي - من يسمونه إله الخير - وإنما هو من عمل الشيطان ، إبليس ، إله
الشر ، إله هذا القرن وأمير هذا العالم .

فهم يميزون إذن خالقين ، الله والشيطان ، وخلقين ، خلق الكائنات غير
المرئية وغير المادية ، والآخر خلق الأشياء المرئية والمادية « (ترجمة مولاً -
شامبيون) .

ولما كان العالم الأرضي من عمل روح الشر ، فإن الكاتاريين يبشرون بازدراء
كل ما هو مادي . ولتستطيع الروح الانفصال عن العالم ، يوصون بممارسة الزهد
وبخاصة تجنب الزواج الذي يديم اللحم . وباسم هذا المبدأ نفسه ، يشجبون
الكنيسة القائدة وينكرون كل قيمة لطقوسها ولأسرارها ، ويطرحون بعض
عقائدها ، قبل تجسيد المسيح وألوهيته ؛ ومن المستحيل في نظرهم أن يصنع إله
الخير نفسه لهما .

وعلى هذا فقد نظم الكاتاريون « كنيسة - مضادة » حقيقة لها طقوسها
الخاصة ، أساقفتها ، مجالسها . وانعقد مجمع كاتاري دولي كبير في ١١٦٧ م في
سان - فيليكس - دو - كارامان بالقرب من تولوز . والفرق الكاتارية تضم فئتين
من المؤمنين :

١ - من هم أكثر تقدماً في طريق التجرد ويشكلون فريق الكاملين ، وهم في
الواقع الذين تلقوا نوعاً من تعميد روحي ، يجري بوضع الأيدي على الرأس ويجبر
من يتلقاه على ممارسة الزهد الشديد .

٢ - المؤمنون البسطاء ، وهم كثر .

وكان هؤلاء المؤمنون ينتظرون لحظة الموت لتلقي التعميد الروحي لأنه
كان بالنسبة لهم نوعاً من مباركة قصوى بالمسح بالزيت .

وفي جنوب فرنسا ، كان تقدم هذه العقيدة صاعقاً ، ففي آخر القرن الثاني عشر ، كان الكاتاريون كثيراً حتى أنهم لا يخفون أنفسهم . وكما هي الحالة في القالدية ، مست الحركة الكاتارية المدن بخاصة ، حيث انتسبت البورجوازية والطبقات الشعبية بكتلتها ، بجاهيرها ، إلى المذهب الجديد . ولكن كان أيضاً بين الكاتاريين ، نبلاء مؤمنون عن إخلاص أو مفتونون بأمل تملك أموال الكنيسة ، مثل كونت فوا وفيكونت بيزيه ، هذا ويرسم لنا كونت تولوز ، ريمون السادس الذي كان ولا شك متعاطفاً مع الهرطقة ، بهذه العبارات ، الحالة في المجلس العام لنظام سيتو .

« لقد تغلغلت الهرطقة في كل مكان ، واستسلم الكهان أنفسهم للعدوى . الكنائس خالية وسقطت في دمار . أما أنا ، فأعمل كل ما بإمكاني لإيقاف هذا الوباء ، وأشعر بأن قواي تحت هذه المهمة . إن الشخصيات الهامة في أرضي استسلموا للفساد . وسار الجمهور على منوالهم ، وهجر الإيمان ، وهذا ما يجعلني لأجرو حتى ولا أقدر على قمع الشر » .

قع الهرطقة : مكافحة الإلبيجوازيين ومحام التفتيش

لقد كان عمل الأكليروس المحلي ، ضد الألبيجية غير مجد ، عديم التأثير ، لأن رجال الدين النظاميين والزمنيين كانوا أنفسهم في الغالب مصابين بالعدوى . والبابا إينوسان الثالث ، منذ أن اعتلى العرش الحبري (١١٩٨ م) قرر أن يأخذ على عاتقه هدي الهرطقة ، ولكن المبشرين السيستريين المرسلين لتبشيرهم لم يلقوا نجاحاً . وعندئذ تلقى أسقف أوسا الإسباني ، ديينغو ، من البابا السماح باستعمال طرق جديدة في التبشير ، وصحبه رفيق واحد ، مساعد رئيس مجلس الدير ، دومينيك ، وباشر برد الهرطقة إلى الإيمان الحقيقي بإعطائه نفسه المثل لحياة زاهدة وفاضلة : وتخلّى عن نمط الزهو الذي كان عليه المرسلون الحبريون

وسار عاري القدمين ، بلباس فقير ، في طرق لانغدوك . وفي كل مكان قدم نفسه لدعم مؤتمرات مضادة للكاملين . وبدأت حركة هداية خفيفة للكاتوليكية الأصولية (الأرثوذكسية) . ولكن الكثرية كانت قد تجذرت بعمق حتى لا يكفي لاستئصالها رجلان في بضعة أشهر .

ولهذا العمل الطويل النفس ، قرر إينوسان الثالث أن يعهد به إلى نظام مبشرين دائمين ، وكلف رفيق ديينغو ، دومينيك ، بتنظيمه . وعلى هذا النحو نشأ نظام الدومينيكيين .

ومع ذلك تفاقمت الحالة السياسية والدينية بفضاعة في اللانغدوك ، ففي ظروف غير واضحة تماماً ، في ١٢٠٨ م ، قتل المفوض الحبري بيير دو كاستيلنو من قبل موظفي كونت تولوز ، ريمون السادس . واتهم هذا الأخير بأنه شجع على القتل ، وحرمه البابا إينوسان الثالث الذي قرر أن يقوم بإعداد حملة مكافحة ضد الهرطقة . رفض ملك فرنسا فيليب أوغست ، المشاركة بها ، ولكنه ترك أتباعه أحراراً للقيام بذلك .

وللاستفادة من جميع الفوائد المادية والروحية المعترف بها للمكافحين المنضوين تحت إمرة الممثلين الحبريين ، انطلق أمراء صغار ومغامرون أتوا من الشمال ، بينهم سيمون دومونفور ، الذي ترأسهم ، إلى اللانغدوك . وتحولت مكافحة الألبيجوازيين بسرعة إلى حرب الشمال ضد الجنوب وإلى حملة نهب وسلب .

وبالرغم من ضمانات الخضوع التي أعطاها ريمون السادس للبابا ، بقبول توبة علنية في ١٢٠٩ ، فقد قام المكافحون بمذابح شرسة ، كما جرى في نهب مدينة بيزيه (١٢٠٩ م) .

وتكررت فصول الهول والرعب نفسها عند أخذ قصر لاثور (في إقليم التارن) في فرنسا .

وليحافظ ريمون السادس على دوله ، نظم عندئذ المقاومة ، فني بشجب حبري جديد (كانون الثاني ١٢١١ م) ، وهزيمة وموت بيير الثاني داراغون ، في مورية ، (١٢١٣ م) ، بعد أن بادر لنجدته ؛ وأخيراً سقوط تولوز بعد سنتين من الحصار (١٢١٣ - ١٢١٥ م) . كل ذلك أجبر ريمون السادس على تسليم البابا جميع دوميناته ، وأعطيت هذه إلى سيمون دومونفور . ولم يكن لهذا الأخير الوقت الكافي للإفادة من فتحه . ففي ١٢١٧ م قامت ثورة عامة استدعت حضور ريمون السادس الذي عاد ظافراً إلى مدينته تولوز . ولا سيمون دومونفور الذي قتل آنذاك عندما قام بهجوم جديد في (١٢١٨ م) ، ولا ابنه آموري دومونفور ، ولا حتى الأمير الملكي لويس (١٢١٩ م) استطاعوا استعادة المدينة .

وهكذا فإن الكونت ريمون السادس ، ثم بعد موته (١٢٢٢ م) ابنه ريمون السابع ، استطاعا أن يدخلوا من جديد في حوزتهما كل أراضيها . أما بالنسبة للكنيسة فكل شيء يجب أن يبدأ من جديد ، لأن الهرطقة ، بفضل سياسة كونتات تولوز المتساعمة ، عاودت نهوضها . ثم إن البابا هونوريوس الثامن حرم ريمون السابع ، وأطلق حملة مكافحة جديدة استلم ملك فرنسا لويس الثامن توجيهها . وأخيراً ، بعد سقوط آفينيون (١٢٢٦ م) خضع اللانغدوك للملك . وانتهى الخلاف بنصر الشمال على الجنوب والأصولية على الهرطقة . وفي معاهدة باريس (١٢٢٩ م) ، سلم ريمون السابع مباشرة إلى ملك فرنسا القسم المثل على البحر المتوسط من دوله (كاركاسون ، بيزيه ، آغد ، نيم وجنوب الألبيجوا) . وقبل أيضاً بزواج ابنته الوحيدة جانّ بالفونس بواتيه ، أخ لويس التاسع . وهكذا تهيأ الالتحام النهائي للانغدوك في الدويين الكاسي . وحاول ريمون

السابع عبثاً بمساعدة ملك إنكلترا ، هنري الثالث ، استئناف النزاع (١٢٤٢ - ١٢٤٣ م) . وعندما توفي الفونس بواتيه وجانّ دون خلف ، في ١٢٧١ م ، ضم ملك فرنسا ، فيليب الثالث الجريء ، وارثها ، اللانغدوك إلى التاج .

ولم يكن انتصار الأصولية أكثر من قضية زمن ؛ ففي ١٢٢٩ م ، اضطر ريمون السابع بأمر من البابا وملك فرنسا ، إلى اتخاذ إجراءات لكفاح الهرطقة ؛ وفي الوقت الذي أنشئت جامعة في تولوز (١٢٢٩ م) لنشر المذهب الأصولي ، بوشر بملاحقات ضد الكاتاريين على يد محكمة التفتيش . إن الأصول التفتيشي المبني على تحقيق سري وعلى اللجوء إلى التبليغ السري للكشف عن الهرطقة ، أحدثه إينوسان الثالث في سياق النضال ضد الكاتاريين وهذا الأصول عهد به أولاً إلى الأساقفة الذين كلفهم مجمع لاتران (١٢١٥ م) بتنظيم جولات زيارات خاصة عبر الأبرشية وطلب الشهادات . وفي الوقت نفسه شدد آباء المجمع الدينية العقوبات ضد الهرطقة الذين لا يتوبون ، وذلك بمصادرة أموالهم لصالح سيدهم ، وكان هذا التدبير واسطة لتشجيع الإفشاء . أما الهرطقة فيحكون بالسجن مدى الحياة أو يسلمون إلى السلطة الزمنية ليلقوا في النار . وهذا (التفتيش الأسقي) على اعتبار أنه يحصر البحوث في حدود الأسقفية ويعهد بها إلى أساقفة تتغير غيرتهم ونشاطهم ، ظهر أنه غير كاف . ولهذا قرر غريغوار التاسع أن يعهد بملاحقة الهرطقة إلى مفوضين رسوليين مقلدين بسلطات واسعة ، ولكنها مؤقتة . وهؤلاء هم المفتشون . وكانوا أعضاء نظام الدومينيكيين الجديد واختيروا (١٢٣٢ - ١٢٣٣ م) للقيام بهذه المهمة ، وخاصة في جنوب فرنسا . وكان أول ضحايا الاضطهاد الأسقف الكاتاري فيغورو دو باكونيا (١٢٣٣ م) ، ومن بعد أخذ الاضطهاد بالاستشارة .. حتى أن أهل وأصدقاء الهرطقة أنفسهم ساورهم القلق . وكانت ردود الفعل الشعبية اللانغدوكية حتمية ؛ ففي ناربونة ، أحرق الجمهور الدير الدومينيكي . وفي تولوز خضع الإخوة لحصار حقيقي وغادروا المدينة .

وأخيراً ، إن أهوال القمع ليست غريبة على الثورة الأخيرة التي أشعلها ريمون السابع كونت تولوز في ١٢٤٢ م وأطلقت تحدياً للكنيسة وللملك بقتل ثلاثة مفتشين دومينكيين .

أخذ البابا إينوسان الرابع درساً من هذه الحوادث ، فقرر ، دون أن يمنع نفسه عن اختيار وتسمية المفتشين ، أن يضعهم تحت سلطة رؤسائهم المباشرين ليستطيع هؤلاء منع إساءة استعمال السلطة التفتيشية (١٢٤٤ م) . ثم إن ربط الأراضي اللانغدوكية بالدومين الملكي (١٢٧١ م) أمن لحاكم الكنيسة مساعدة غيورة من قبل موظفي الملك . وإذا وضعت جانباً بعض المراكز المبعثرة القليلة الخطر ، فيمكن أن يعتبر أن الهرطقة الكاتارية قد أوقفت في نهوها ، في بداية القرن الرابع عشر .

ولم يرجع نجاح الكنيسة فقط إلى استعمال القوة وحدها . ففي الوقت نفسه بذلت جهود في داخل الكنيسة لرد الهرطقة إلى الأصولية بالإقناع وبالمثل : وذلك بعمل أنظمة جديدة ، أنظمة المتسولين والبابوية نفسها .

تطور الحياة الدينية

أنظمة المتسولين

كانت نظم المتسولين الأداة النشطة لرد فعل الكنيسة تجاه تهديدات الفرقة والبعثرة ؛ فقد ساعدتها على خلق أسلوب فكر وحياة مسيحية جديداً تماماً ، وعلى رد العناصر التي اتجه بها العصر بسهولة إلى إبعادها عن حضن الكنيسة . إن الفرانسيסקان والدومينيكان ؛ وإن اختلفوا في أصولهم ، يمثلون حركات نشأت من المدينة ، كلفة بالفقر والحياة الإنجيلية . وهم يبتعدون عن المجتمع ويقتصرون على الطلب منه ، بالتسول ، حذاً أدنى من الغذاء . وبخاصة لا يتعلقون إلا بالكرسي - الأقدس .

الإخوة الصغار ، إخوة القديس فرانسوا

في الأصل ، إن الإخوة الصغار ، إخوة القديس فرانسوا داسيز يتميزون قليلاً جداً عن الخشع المستكينين المشجوبين في فيرونه . كان فرانشيسكو دي برناردون ابناً لتاجر غني من أسيز ، وكان في هذه المدينة أحد الأعضاء البارزين في الشبيبة الجديدة الذهبية ، التي كانت تهتم بتشبيه نفسها بالطبقة النبيلة بمظهرها الخارجي وبحثها عن الأسلوب الجيد في الحياة الاجتماعية . وقد جعله حلمه بالفروسية يسهم في حرب بين مدينة أسيز وبيروز (أوفيروز) . وعندما سجن اتجه نحو الله بعد عودته بقليل ، في ١٢٠٦ م ، وبالرغم من جميع الضغوط الأسرية ، والاجتماعية ، والكنسية ، تخلى عن إرثه وأصبح ناسكاً . عاش زمناً طويلاً وحيداً في الجبال ، واعتنى بالمجذومين ، وبشر في الشوارع وهو يتسول طعامه . وبالرغم من أن العديد من التلاميذ قلده ، فقد كره وأبى طويلاً أن يؤسس طائفة حقيقية . « في الغالب الأعم ، كانوا يتيهون ، كل من جهة ، مشاة دوماً عارين القدمين ، فرحين ، مرحين ، ومنشدين دوماً ، ويعلنون عن أنفسهم أنهم مرتلون مداحون بحب الله ، ويساعدون الفلاحين في أعمال الحقول » وتبشيرهم يقوم على التوبة والسلام ؛ لأن فرانسوا وتلاميذه لا يريدون شيئاً آخر إلا التائبين ، وباعتبارهم علمانيين متواضعين ، تخلوا عن أموال هذا العالم وأصبحوا خدم (سيده الفقر) ولكن النجاح وضع بسرعة قضايا خطيرة ، وذهب فرانسوا في ١٢١٠ م يطلب من روما الموافقة على حركته . وبعد تحقيق دقيق سمح إينوسان الثالث لفرانسوا بالتبشير بالتوبة ، شريطة ألا يستعمل البرهنة اللاهوتية . فن ١٢١٠ إلى ١٢٢٠ م كان تقدم الحركة صاعقاً وامتد إلى كل المسيحية . ولتحقيق الروح الإنجيلية بكاملها ، لم يكتف الإخوة الصغار بالتبشير ، بل كانوا أيضاً يعملون ، ويعتنون بالمرضى ، ويمارسون التأمل . ومنذ الآن أصبح فرانسوا أسيز يلقب بـ (الفقير الصغير) ، ومجد التأمل الديني كتطابق ، تماثل ، للطبيعة خالقة الله .

وذهب حتى النهاية في الرمز ، وتكلم مع العصافير بلغتها ، وفي آخر حياته بلغ قمة الزهد المسيحي ، بتقبله الوسوم أسوة بجروح السيد المسيح المصلوب الخمسة . وضم إلى النظام الناشئ طائفة نسوية ، الكلاريسات ، وحجّ مبشراً في الأرض المقدسة ثم في إسبانيا وفي مراكش . وتضاعفت المهام والواجبات حتى أن البابا الجديد غريغوار التاسع ، الكاردينال القديم هغولن ، حامي الفرنسيسكان ، فكر بأن يستعمل بشكل أوسع وأعقل كل الطاقات بتأسيس نظام حقيقي . ولهذا كان يكفي أن يكيف تنظيمه مع الأطر الموجودة من قبل في تسلسل الأنظمة الدينية . وانطلاقاً من ١٢٢٠ م ، قبل فرانسوا قاعدة ، تشكيل المجالس ، وتحويل المؤسسات المؤقتة والبالسة في البدء إلى أديرة حقيقية . واختير ألكيركيون مثقفون لوضع نظام تسلسل ، ومنذ الآن لم يقبل العلمانيون إلا في نظام طبقات ثالث . وهذه الحركة المضطربة والمجنونة قليلاً لأصدقاء (سيدة الفقر) تأطرت بصلابة بواسطة الآلة الكنسية القوية .

وبعد وفاة فرانسوا (١٢٢٤ م) لم يكذب نجاح الفرنسيسكان ؛ ففي ١٢٣٩ م وجد الإيطاليون في حالة أقلية . والرئيس نفسه كان من أصل إنكليزي . ومنذ ١٢٦٣ م كان في فرنسا أكثر من ألف دير ، ونظراً لأهميتها فإن المجالس العامة ، لا يمكن أن تنعقد إلا كل ثلاثة أعوام . ووسع الفرنسيسكان من جهة أخرى دورهم في التبشير في الجامعات . وابتعدوا عن مدح الجهل ، وأصبح الإخوة تلاميذ ، ثم معلمين للاهوت في باريس ، حيث علم ألكسندر دو هاليس وفي بولونيا حيث استقر برنارد دو كونتاغال ، وفي أوكسفورد . وفي الحقيقة إن تحويل الإخوة العلمانيين الصغار إلى نظام ألكيركيين مثقفين لم يجر دون أزمات ، لأن عدة إصلاحات وانقسامات فتتت الأسرة الفرنسيسكانية ، الممزقة بين المنتسبين والمتسكين بأهداف المؤسس المتواضعة ، وهم الروحانيون ، وبين من يمسك بهم مع نظام (المؤسسة) الرسمية ، غنى تدريجي بانحراف المؤسسات التقية .

ولكن ، أخيراً ، بلغت الغاية التي كانت البابوية قد عينتها للنظام وهي : أن تعاد إلى حضن الكنيسة كل الطاقات الكريمة التي سحرها الفقر الإنجيلي .

إخوة القديس دومينيك المبشرون

على خلاف الفرنسيين الذين لم يدخلوا إلا تدريجياً في القالب ، كان إخوة القديس دومينيك المبشرون تشجعهم البابوية منذ بداياتهم . فمن ذلك أن الكاهن القانوني المنتظم دومينيك دو غوزمان ، عندما زار اللانغدوك ، استطاع أن يدرك إخفاق التبشير السيستري تجاه الهرطقة الكاتارية . وقدم حينئذ مشروع تبشير بالفقر قبله البابا ، وظل مكانه ليضرب المثل عنه . فمن ١٢٠٥ إلى ١٢١٥ م بشر دومينيك مع بعض النجاح ، ولكن دون أن يكسر الألبينية بعمق . وهذا ما جعله يوافق على مكافحة سيون دو مونفور ، المعتبرة كقصاص إلهي . وبعد استعادة تولوز ، أقام فيها أوائل تلاميذه وقبلوا هبات عديدة . ثم وافق إينوسان الثالث ، في ١٢١٦ م ، على هذه الطائفة الصغيرة التي تبنت قاعدة القديس أغسطينوس لتحول المنع الذي تم في مجمع لاتران في تأسيس نظم جديدة . ولبس هؤلاء الكهنة القانونيون اللباس الأبيض ، وأخذوا من بعد لقباً أكثر تواضعاً وهو (إخوة) . وعندئذ شكل دومينيك شخصية نظامه بتوجيهه حصراً نحو التبشير بالعقيدة ، الذي يفرض ، في بلد عالم وعادل ، معارف واسعة جداً . وأصبحت كل طائفة مدرسة ، والعمل الفكري خلال أربع ساعات في اليوم إجباري على الإخوة . كما أصر النظام بحق على الفقر الإنجيلي . ولكن الاهتمامات التربوية تفوقت في البدء . وبعد رحلة إلى روما استطاع دومينيك خلالها اللقاء بفرانسوا أسيز ، وتقرر على إثره انتشار جغرافية الطائفة . وحوالي ١٢٢٠ م وجد دومينيكيون في باريس ، في شارع القديس جاك ، وفي ليون ، وسيغوفيا ، ومدير ، وروما وبولوني . واستطاع النظام النسوي الدومينيكي المقيم منذ ١٢٠٦ م في بروي ، في لانغدوك أن ينتشر بدوره . وفي ١٢٢١ م ، انعقد المجلس

العام في بولوني وأعد نظاماً أصلب من نظام الإخوة الصغار ، وهو نظام (الإخوة المبشرين) الذي يجمع بين شدة النظام والروح الديوقراطية . وكان على رأس كل دير رئيس منتخب ؛ والرؤساء الإقليميون يؤمنون الارتباط مع المعلم العام الذي يرتبط مباشرة بالكروسي - الأقدس . وهذا المفهوم السواسي يذكر قليلاً بمفهوم القومون العمرانية (المدينة) التي أقيمت فيها الأديرة . وبسرعة جاء الفوز : فقد حسب تقريباً خمس مئة دير في آخر القرن . وفي الغالب يرى في مدارس الأديرة القريبة التناول من المبتدئين بالترهب (الأغرار) في النظام ومن الأكليروس الزماني ، أن نفاذ التعليم كان عظيماً ، كان الدومينيكيون يعملون الفنون الحرة ، ومن ثمّ الفلسفة الأرسطاطاليسية . وقد جهد الأساقفة في أن يجدوا فيهم مساعدين أحياناً مزعجين ، ولكن ثمينين . وعلى المستوى المتوسط يوجد حلقة وسطى للاهوت في الإقليم ، وفي القمة خمس مدارس كبرى : أوكسفورد ، كولونيا ، بولونيا ، تولوز وباريس . وأحياناً يدخل الأساتذة المديريون في خلاف مع الأساتذة الزمانيين ، وخاصة في باريس حيث قدم الإضراب الجامعي لعام ١٢٢٩ م إلى النظام الفرصة لاحتكار وظائف جديدة . ومنذ منتصف القرن ، كان مشاهير الأساتذة دومينيكان : مثل بيير دو تارانتيز ، البابا في المستقبل ، ألبير الكبير المولود في سواب ، وتوماس الإكويني ، النابوليتاني ، ولكن كليهما علما في باريس . ولم ينس النظام كذلك بأنه تأسس لقمع الهرطقة ؛ فبالنسبة إلى اللاشعبية التي تعرض لها ربما كانت النتائج التي حصلت عليها المحاكم الاستثنائية ، مشجعة قليلاً . ومع ذلك فقد شارك المبشرون في كل نضال العصر ، وحتى السياسية صراً ، مثل نضال مدن إيطاليا الشمالية للحصول على مواثيقها .

تعزير السلطة الخبرية

وللنضال ضد قوى الشقاق والانفصال التي تهدد المسيحية آنذاك ، حاول بابوات القرن الثالث عشر تعزير السلطة الخبرية وتقوية مركزية وتوحيد شكل العالم الأكليري .

ظهرت هذه الإرادة من قبل في السياسة التي تابعتها الأحبار لتوجيه رغبات الإصلاح الفوضوية ولكافحة الهرطقات . وبعد بعض الترددات شجعت البابوية أخيراً الطرق المتسولة ووضعتها تحت حمايتها ، وهذا ماساعدها على مراقبتها ، وكذلك وجد البابوات في شخص الرهبان الجدد ، الموضوعين خارج الأطر الأبرشية أو الوطنية ، العمال الأوفياء لها والغيورين على سياستهم . وبنفس الشكل رفع قمع الحركات الهرطقية ، مؤقتاً وجزئياً على الأقل ، عن الأساقفة ليسلم إلى مفوضين حبريين ، ومن ثم إلى الدومينيكان . وأخيراً ، لمراقبة تكاثر وازدياد الأفكار الجديدة التي يمكن أن تؤدي أيضاً إلى الهرطقة ، وضعت البابوية تحت وصايتها الجامعات الناشئة .

ولكن تعزيز السلطة الحبرية يقرأ بشكل أوضح أيضاً في عدة إجراءات تنزع إلى أن تجعل من الكنيسة ملكية مركزية حقيقية . وقد جرى عمل المركزية هذا على الصعيد التشريعي بادئ بدء . فللمساعدة على توحيد الحق الكنسي ، حاول أحبار القرن الثالث عشر تقنين الكتلة العظيمة من القرارات الحبرية التي لها قوة القانون أو تشكل سابقة حقوقية . وحق آخر القرن الثاني عشر ، كان القانونيون ، رجال القانون ، يكتفون بالمجموعات الخاصة ، مثل المجموعة التي كان قد نشرها غراسيان في بولونيا في ١١٤٠ م (مرسوم غراسيان) ، والتي كانت غير كاملة . وفي ١٢٣٤ م أمر غريغوار التاسع بجمع أربعة كتب من القرارات البابوية في أول مدونة ؛ فقد أضيفت إلى مجموعة المذهب التي جمعها غراسيان ، قرارات أسلافه المباشرين على عرش القديس بطرس والجامع الدينية الأخيرة . وفي ١٢٧٤ م تم غريغوار العاشر ، ومن بعده بونيفاس الثامن ، في ١٢٩٨ م ، عمل التقنين بإصدار الكتاب الخامس والسادس من القرارات البابوية . وأصبح رجال القانون من رجال الدين يتصرفون منذ الآن بأداة عمل هامة بالنسبة لهم ، كما (المدونة الأصولية للحقوق) ، وأشهرها مجموعة مدونة جوستينيان أو باندكتا

[٥٣٣] ، بالنسبة لرجال القانون المدنيين . وهذا التنظيم لتشريع الماضي كان أبعد من أن يمثل كل النشاط التشريعي لبابوات القرن الثالث عشر . ويظهر هذا النشاط أيضاً بدعوة الكثير من الحجاج الدينية المسكونية : مثل مجمع لاتران الرابع في ١٢١٥ م الذي عقده إينوسان الثالث ونظم التعليم في كل المسيحية وأملى الالتزام بتناول القربان المقدس السنوي ؛ والمجمع الثاني المنعقد في ليون (١٢٧٤ م) الذي دعا إليه غريغوار العاشر ، نظم وضبط أصول الانتخاب الحبري ، فمنذ الآن على الكرادلة أن يبقوا في حال انعقاد مجلس مغلق أو مجمع كرادلة حتى انتخاب البابا . وازدوجت المركزية التشريعية بمجهود المركزية المالية : فليتنصر قانون روما في الكنيسة والسياسة الحبرية في العالم المسيحي ، شعرت البابوية ، كالعواهل العلمانيين في الوقت نفسه ، بالحاجة إلى زيادة مواردها المادية . وبالفعل فإن البابا ، بالرغم من أنه كان زعيم كنيسة غنية جداً محلياً ، كان يعيش حتى ذلك الحين مما يخصه ويكتفي بإيرادات متواضعة تأتيه من جهة ، من أسقفية روما ، ومن جهة أخرى ، من الدولة الإقطاعية الصغيرة التي هي تركة القديس بطرس . أما الكنيسة الكونية ، العامة ، فلم تقدم للكرسي الأقدس إلا ضريبة ضعيفة جداً تتمثل بصدقات الزائرين الآتين للحج في روما ، وبدانق (دينار) القديس بطرس المفروض في إنكلترا وفي الدانمارك (بمعدل دينار على المؤمن) وبالضرائب الإقطاعية ذات القيمة الرمزية أكثر منها واقعية ، والتي تدفع من بعض الممالك التابعة لروما ، الأراغونة ، وصقلية وإنكلترا . ولذا كان البابوات منذ آخر القرن الثاني عشر مهتمين بإعداد نظام ضريبي حقيقي ، ونظراً لعدم القدرة على وضع ضريبة على كافة المؤمنين (والإخفاق الذي منيت به ضريبة « عشر » صلاح الدين في ١١٨٧ م كان قاطعاً) ، حاولوا أن يفرضوا على كل كنيسة في الدول المسيحية ضريبة على إيراداتها . ولكن رغبة البابوات في أن يجعلوا من هذه (الأعشار) ضريبة دائمة ومنظمة ، اصطدمت بمعارضات

شديدة ، عندما لا يكون القصد تمويل حملة صليبية . ولذا اضطرت البابوية أن تطلق اسم (حملة صليبية) أو (صليبية) على كل مشاريعها السياسية حتى المشاريع الموجهة ضد المسيحيين ، صليبية ضد فريديريك الثاني ، صليبية صقلية ، صليبية آراغونه ... وعندما لم تكف هذه الحملات ، قرروا توسيع عدد (المناصب الدينية) التي يمكنهم اللجوء إليها مباشرة . ففي ١٢٦٥ م ، وضع كليمان الرابع مبدأ تصرف البابا الكامل ، بجميع الفوائد والتكاليف الكنسية . وهذه الموارد المتعلقة بالمناصب الكنسية هي مخصصة لتجهيز أجرة موظفي الهيئة الحكومية والإدارية والقضائية للكرسي - الأقدس (البلاط الحبري) ، ومعظمهم إيطاليون ، وأخذ عددهم يزداد كثيراً .

وهذه الممارسات التي تتضمن غياب المستفيدين تمت على حساب معالجة وصحة الأرواح ، وأثارت معارضة متزايدة من قبل الأكليروس القومي في البلاد الأوربية .

وبعد ، فهل كانت نتيجة هذه السياسة تعزيز السلطة الحبرية في آخر الأمر ؟ إذا أخذ الصعيد الزمني بعين الاعتبار ، فعلى العموم كانت النهاية الإخفاق . لأن بابوات القرن الثالث عشر لم ينجحوا لا في إطلاق الحرب الصليبية ، ولا في تحقيق اتحاد كنائس الغرب والشرق ، ولا في ، الغالب ، في نصر نظريتهم في التيقراطية الحبرية . إن القرن الذي افتتح مشرقاً بإينوسان الثالث الذي فرض تفوق خلف القديس بطرس في الصعيد الروحي والزمني ، اختتم بإذلال البابا بونيفاس الثامن الذي أوقفه رسل ملك فرنسا في أناغني (١٣٠٣ م) . وبالمقابل ، ازدادت سلطة البابا وجاهه . ففي نظر جميع الأكليركيين من جامعيين ورهبان وأحبار ، إن البابا فرض نفسه حكماً أعلى لجميع المؤمنين ، وأصبح شخصه موضع احترام وإجلال : وإن اليوبيل ، عيد سنة الأبراء أو الرجعة ، أو السماح العام ، الذي أسسه البابا بونيفاس الثامن في ١٣٠٠ م ، ويخول جميع الحجاج الآتين إلى روما بهذه المناسبة سماحاً كاملاً ، يعتبر نصراً للبابوية .

الفصل السادس

الأشكال الجديدة

لقد توالى النهضة الفكرية التي حدثت في القرن الثاني عشر في الغرب ، وتوسعت في القرن التالي . كما أن تطور الإخوة الصغار ، الذين كان مؤسستهم يعارض العلم والدراسات في داخل نظامه ، له في هذا الاعتبار دلالة .

وفي الوقت نفسه ، طبعت نزعات جديدة حياة الفكر . فقد انتظم التعليم في إطار الجامعات ؛ ونزعت أصناف الأساتذة والطلاب إلى تشكيل وسط منفرد انتهى بتأسيس طبقة فكرية حقيقية . وفي الأدب العالمي انتصرت الطريقة الجامعية أو المدرسية (سكولاستيك) ؛ وعبرت عن نفسها في عناوين كتب لاهوتية أو في دوائر معارف ، معلمات (أنسيكلوبيديات) كتبت في معظمها باللاتينية ، وكانت هذه التراكيب عظيمة ، كانت كاتدرائيات فكرية في القرن الثالث عشر .

وفي الوقت نفسه تفتح الأدب الدنيوي بلغة عامية ، يعبره أحياناً عداء عتيد للأكليريكية ، وأعطى روائع مثل « الملهاة الإلهية » لدانتي .

الجامعات

في آخر القرن الثاني عشر وفي بداية القرن الثالث عشر تشكل أساتذة وطلاب المراكز المدرسية الهامة على غرار هيئات المهن الأخرى ، في أصناف ، والجامعات ، للدفاع عن استقلالها وامتيازاتها .

أصول الجامعات

إن أصول الأصناف الجامعية غامضة بالنسبة لنا في الغالب ، كما هي أصول هيئات المهن الأخرى . لقد انتظمت ببطء ، وإثر فتوحات متعاقبة ، وبطريق الصدفة حوادث هي الأخرى مناسبات . ولم تؤيد وتثبت النظم غالباً هذه الفتوحات أخيراً إلا أجلاً . ولسنا متأكدين دوماً بأن التي نملكها كانت الأولى . ولا عجب في ذلك . ففي المدن ، حيث تشكلت ، أظهرت الجامعات بعدد وبنوعية أعضائها سلطة أقلق السلطات الأخرى . ففي النضال ، تارة ضد السلطات الكنسية ، وتارة ضد السلطات العلمانية ، اكتسبت استقلالها الذاتي » .

وهذا النجاح الذي حصلت عليه الجامعات يتضح أولاً بتلاحم الوسط الجامعي وبنفاذ وسائل الضغط التي كانت تحت تصرفه : فالتهديد بالإضراب أو الانفصال ، وأحياناً الوضع موضع التنفيذ ، يشكل بالنسبة للأساتذة والطلاب سلاحاً هائلاً .

» لقد وجدت السلطات المدنية والكنسية الكثير من الفوائد في حضور الجامعات التي كانت تقدم مجموعة زبائن لا تهمل ، مؤسسة وحيدة من المستشارين والموظفين ، ومصدراً براقاً بالجاه ، لمقاومة وسائل الدفاع هذه » .

ومن جهة أخرى ، أفادت الحركة الجامعية من مساندة أو دعم سلطة قديرة وهي سلطة البابوية . إن الأحرار الذين يحاولون آنذاك تعزيز قبضة الكرسي الأقدس على مجموع المسيحية ، بتركيز إدارة الكنيسة ، وإلحاق النظم الدينية الجديدة ، إهتبلوا على عجل الفرصة المتاحة لهم للتدخل في حياة المراكز الفكرية الأساسية . إن إخراج الجامعيين من أحكام العلمانيين وسيطرة السلطات الكنسية المحلية ، أساقفة أو أبائية ، كان الوسيلة لوضعهم مباشرة في تبعية البابوية .

إن تاريخ جامعة باريس ، في أصوله ، يؤلف أفضل صورة لهذا المسار .
 ففي القرن الثاني عشر ، أثارغو الفلسفة في باريس ، حيث تعلم من جهة أخرى
 كل العلوم ، إقبال عدد كبير من الطلاب المفتونين بدروس أساتذة مشهورين مثل
 غليوم دوشامبو وبيير آييلار . وكانت إدارة الدراسات خاصة بالأسقف الذي يعهد
 بسلطاته إلى مدير مدرسة أسقفية ؛ وهذا الأخير الذي بدئ بتسميته حافظ الختم ،
 كان له الحق وحده في منح الدرجات العلمية ، وبخاصة السماح بالتعليم . وكان
 الأساتذة والطلاب خاضعين لسلطته . ومن جهة أخرى ، كان هؤلاء في الغالب
 على علاقة مع موظفي الملك ، وبخاصة مع رئيس الشرطة الباريسية . ومنذ
 القرن الثاني عشر ، بدأ الجامعيون يجدون دير الكنيسة ضيقاً ، وسلطة الرئيس
 حافظ الختم ثقيلة . وعندئذ ترك بعضهم جزيرة المدينة وذهبوا إلى مراكز دراسات
 لاسلطة لحافظ الختم عليها ، مثل أديرة القديس فيكتور ، والقديسة جونيفيف ،
 والقديس جرمن - دي - پريه ، وشكلوا رابطة صنفية حقيقية ، منحها ، منذ
 ١١٩٤ م البابا سيلستن الثالث امتيازاتها الأولى . ومع ذلك ، فإن السلطات
 الكنسية والعلمانية المصممة جيداً على ألا تتخلى عن حقوقها ، باشرت ضد الجامعة
 الفتية نضالاً تحول مراراً إلى حوادث عنيفة . وفي ١٢٠٠ م ، نشبت مشاجرة بين
 بعض الطلاب وصاحب حانة (خمار) ؛ فالتمس البورجوازيون تدخل الشرطة
 ورئيس شرطة الملك . وكانت هذه الشرطة أكثر من فظة ، لأن العديد من
 الطلاب قتل . وانحاز الأساتذة للطلاب وهددوا بقطع دروسهم . وخشي
 فيليب أوغست انصرافهم ، فأمر بهدم بيوت البورجوازيين المتورطين . وطلب
 رئيس الشرطة العفو من الجامعة ؛ وحكم عليه بالسجن الأبدي ، ففضل الموت .
 وبعد بضع سنوات أيدت البابوية تقدم الحركة الجامعية الباريسية ودافعت عنها
 ضد الأسقف والملك . وفي ١٢٠٩ م ، اعترف رسمياً بجامعة الأساتذة والطلاب
 الباريسيين ؛ وفي ١٢١٥ م ، منح الكردينال رويير دوكورسون ، مفوض البابا

إينوسان الثالث ، الجامعة أنظمتها الأولى . وفقد حافظ الختم امتيازاه في منح الإجازة وانتقل هذا الحق إلى أساتذة الجامعة . على أن الاستقلال الذاتي للجامعة لم يكتسب نهائياً إلا بعد حوادث دامية دارت من ١٢٢٩ إلى ١٢٣١ م . وفي هذه المرة أيضاً بدأ كل شيء بمشاجرة بين الطلاب والبورجوازيين وتدخل الموظفين الملكيين الفظ . وقررت أكثرية الجامعيين الإضراب وانسحبت إلى أورلئان . وخلال عامين حرمت باريس تقريباً من دروسها . وتدخل البابا من جديد ولام الأسقف عام ١٢٢٩ م في رسالة شديدة اللهجة .

ومنذ الآن خرجت الجامعة عن سلطة الأسقف . واضطر لويس التاسع وبلانش قشتالة أيضاً ، إثر تدخل غريغوار التاسع ، إلى الاعتراف باستقلال الجامعة وامتيازاتها . وبموجب المرسوم العلمي أخذت جامعة باريس أنظمة جديدة (١٢٣١ م) منحها حق تنظيم نفسها بنفسها وربطها مباشرة بالكروسي الأقدس .

وتاريخ الجامعات الأخرى يكرر مع بعض الفروق تاريخ جامعة باريس . ففي أوكسفورد أفادت حركة التحرير أولاً من ابتعاد الأسقف الذي كان مقره في لينكولن ، ومن كسوف السلطة الملكية عندما حرم جان دون أرض . وانتهى النزاع بالانفجار بين ١٢٣٢ و ١٢٤٠ م عندما زعم هنري الثالث استئناف الوضع بيده ، وناصر إينوسان الرابع قضية الأساتذة والطلاب بوضع الجامعة « تحت حماية القديس بطرس والبابا » . وفي بولونيا (إيطاليا) لم يناعز الجامعيون السلطات الكنسية المحلية التي لم تكن لتتهم بتعليم الحقوق المدنية . وبالمقابل أرادت القومون أن تحول الأساتذة إلى موظفين حقيقيين ، وتتابع الإضرابات وانفصال الجامعيين حتى الحين الذي اعترفت فيه المدينة ، في ١٢٧٨ م ، بالبابا سيداً .

على أن بعض الجامعات كانت بالعكس إبداعات اصطناعية ترجع إلى إرادة عاهل علماني أو حبر .

في ١٢٢٤ م أنشئ في نابولي أول مؤسسة للجامعة بالمعنى الدقيق للتعبير ، وخصصت عمداً لخداع البولونيين ، سكان مدينة بولوني ، فسجلت على هذا النحو أول خرق حقيقي في النظام الفكري للقرن الثاني عشر . وكان المؤسس ، فريديريك الثاني ، يقصد من ذلك لتعليم الحقوق خلق مركز منافس لغلف بولونيا ويؤمن على هذا النحو لملكة صقلية ، بتشكيل موظفين نخبة ، جاهاً خاصاً لتعزيز مزاعم العاهل . وفي الحقيقة إن مقدمة ميثاق التأسيس تلمح إلى الله : القصد تثقيف رجال أكفاء للخدمة بشكل أفضل ، ولكن يجب أيضاً أن يكون هؤلاء الرجال مقبولين باهتمامهم بالعدل . « ويجب بخاسة على الجائعين إلى العلم أن يحدوه » في المملكة نفسها « لأن يذهبوا » لتسوله عند أمم أخرى ، ولا البحث عنه في مناطق أجنبية . « ومن جهة أخرى ، كان محرماً منذ ذلك الحين » التجروء على الخروج من المملكة بحجة الدراسات . وعلى هذا نرى أن فكراً جديداً للغاية ، من مسلك علماني ووطني ، كان على رأس هذه المؤسسة التي قلدت منذ ١٢٢٥ م في سالامنكا من قبل الفونس ليون التاسع .

وتدخلت الكنيسة أيضاً لتأسيس جامعات ، بصورة أساسية في فرنسا . فقد أحدثت جامعة تولوز برمتها في ١٢٢٩ م لغاية نضالية . فبعد مكافحة الألبيجوازيين ، كان يجب الإعمار ، وبخاصة الحيلولة دون رجوع الهرطقة . وقد قال ذلك غريغوار التاسع بوضوح في مرسوم التأسيس الذي وجهه إلى كونت تولوز ، وفيه يمنح المؤسسة الجديدة كافة الامتيازات التي تتمتع بها جامعة باريس . وليؤمن لجامعة تولوز صفة علنية في أوربة كلها ، حرر جان دو غارلاند رسالة ظلت شهيرة : سيعهد إلى تولوز بدراسة أرسطو ، والمدونة ، وجالينوس وحتى الأرغن . والكتب الممنوعة في باريس (الحقوق الرومانية والعلوم الطبيعية) يمكن أن توسع فيها وتفسر . وهكذا فإن التطلعات الفكرية اجتذبت إلى تولوز وأرفقت بها نهضة الإيمان .

تنظيم الحياة الجامعية

إن الجامعات التي مهتت بأنظمة انتزعت بنضال أعلى أو بالعكس منحها المؤسس ، كانت كلها ذات طابع صنف حقيقي . وأعضاؤها ، الذين يساقون بطريق تعيين أعضاء مجالسهم لهم بفضل حصر منح الدرجات الجامعية ، كانوا يقسمون اليين باحترام الأنظمة ، والدفاع عن الأعراف والامتيازات الجامعية ، وينتخبون رئيسهم ، مدير الجامعة . وللصنف الجامعي ختم ، دليل سيادته ، وصندوق . وتحدد الأنظمة الأعياد والتسليات الجماعية « التي تثبت الوحدة الروحية للجماعة وقبول الجديد في داخلها . وكالمشاركة في التلذذ بالشراب عند الأصناف الأولى ، كانت هذه الظاهرات الطقس الذي يشعر فيه الصنف بتضامنه العميق » . وتثبت الأنظمة أيضاً الأعمال التقيية ، وأعمال الورع (الوظائف الدينية ، والمواكب) التي يقوم بها الصنف . وأخيراً ، تضع الجامعة تنظيمها الداخلي على الصعيد الإداري وعلى الصعيد المهني .

ويمكن أن تتخذ جامعة باريس نموذجاً ، يميز فيها أربع كليات : كلية الفنون ، كلية القرار (أو القوانين الكنسية) ، كلية الطب ، وكلية اللاهوت . والإقبال على كلية الفنون أكثر مما في غيرها وذلك لأن دورة الدراسات الجامعية تبدأ إجبارياً بدراسة الفنون الحرة . وهكذا فإن الأساتذة والطلاب يتجمعون فيها في (أمم) : فرنسيون ، بيكارديون ، إنكليز ، ونورمانديون . والأساتذة أو الوكلاء عن كل أمة ينتخبون نائباً . وعلى رأس النواب الأربعة مدير الجامعة . والكليات الثلاثة الأخرى يوجد على رأسها عميد منتخب أيضاً . ولكن عندما مست الحاجة إلى سلطة مركزية ، وجد بعد ذلك أن مدير الفنون كانت له اليد العليا على الجامعة . فهو الذي يتصرف بأموال الجامعة ويرأس مجلس الأساتذة العام . ويجب مع ذلك ألا نتصور مركزية إدارية شديدة لأن القضايا المادية التي يجب أن تحل مشاركة قلما كانت عديدة . ولم يكن الأساتذة في الواقع مكافئين من

قبل الجامعة التي لا تملك أيضاً على العموم عمائر خاصة ؛ فالاجتماعات كالدروس تعقد في دور خاصة ، في الأديرة والكنائس أو في الصالات التي تعقد فيها مجالس الكهنة القانونيين أو الرهبان .

وتثبت الأنظمة بعد ذلك نظام الدراسات : مدة الدراسة ، وشروط الامتحانات . ومن العسير التعميم ، لأن هذا التنظيم المتغير من جامعة لأخرى قد تحول أيضاً في سياق القرن . ومن الممكن مع ذلك رسم المراحل الأساسية لطالب باريس يملك بتاتاً ابتدائياً (قراءة وكتابة) منتشرأ في مدارس النحو (الثانوية) ، التي لا يعلم بالضبط ما إذا كانت تؤلف أو لا تؤلف قسماً من الجامعة . لأن العصر الوسيط يسيء التمييز بين مختلف حلقات التعليم . إن الطالب الشاب كان يتبع أولاً خلال ستة أعوام ، تقريباً من أربعة عشر إلى عشرين عاماً ، دروس كلية الفنون . وفي نهاية السنتين الأوليين كان يقبل باجتياز فحص البكالوريا . « أولاً ، على الطالب المتقدم أن يدعم نقاشاً مع أستاذ خلال استجابات تجري أثناء شهر كانون الأول الذي يسبق الصوم الكبير أو الأربعيني الذي يقع فيه الامتحان . فإذا نجح في الامتحان يقبل في الامتحان النهائي أو البكالوريا حيث يجب عليه أن يبرهن ، بأجوبته عن أسئلة لجنة من الأساتذة ، أنه يعرف المؤلفين المقررين في برنامجه . فإذا اجتيزت هذه الخطوة يتدخل القرار الختامي . وفي الصوم الكبير ، يعطي سلسلة دروس ، وعليه أن يبرهن فيها عن كفاءته في متابعة (الحياة) الجامعية » . وبعد أربعة أعوام ، تجرى امتحانات تتضمن أيضاً أسئلة ، ومناقشة ، ودرساً تمنح الطالب الفني الذي نجح في هذه الامتحانات ، الإجازة (الليسانس) والدكتوراه .

وبعد أن يحصل على الأستاذية في الفنون ، يتطلب التخصص أيضاً دراسات طويلة : خمسة أو ستة أعوام للحصول على الإجازة أو الدكتوراة في الطب أو في الحقوق ، وثمانية أعوام للاهوت .

وبعد أن يعين على هذا النحو إطار الدراسات ، يبقى أن نوضح مم يتألف التعليم ، وما هي طرقه ؟

إن كل تعليم يبنى على دراسة النصوص : الكتاب المقدس والآباء من جهة ، أفلاطون ، أرسطو والعرب من جهة أخرى ، يجب أن تجهز بكل معطيات المعرفة . ولذا يصبح الكتاب أداة لاغنى عنها : والمؤلفون في البرنامج ، يجب أن يقرؤوا من قبل الأساتذة والطلاب ؛ والدروس التي تعلم تشر أيضاً . ونتيجة كل ذلك تحويل عميق في الكتاب . ففي أعلى العصر الوسيط ، كان الكتاب موضع بذخ مزين بشكل فائق ولكنه مخصص لبعض الشخصيات الكبرى . وفي عصرنا ، أصبح أداة عمل ، أي يجب أن ينسخ على نسخ عديدة بسرعة وبسعر رخيص . وهذه المتطلبات الجديدة تطابقها صفات جديدة . فقد أصبح حجم الكتاب أصغر مما كان ، إذ يجب إمكان حمله وتداوله ونقله بسهولة ؛ والكتابة أيضاً تحولت ؛ فالحرف الصغير ، الذي يخط بعناية بواسطة قصبة ، هجر لصالح الحرف الدقيق القوطي الذي يرسم بسرعة بريشة الإوزة ويفسح مجالاً لاختلالات عديدة . ولم يعد الكتاب عملاً فنياً ، وإنما أصبح ينتج (صناعياً) وبثن رخيص . وانتظم عالم بكامله من الكتاب والوراقين في ظل الجامعات ، التي جعلتهم يفيدون من امتيازاتها بغية نشر المؤلفين والدروس بعدد كبير من النسخ .

وبعد أن أصبح الأساتذة والتلاميذ يتصرفون بنصوص لعددٍ كافٍ أمكنهم أن يطبقوا في دراستهم الطريقة الجامعية التي أسست في القرن السابق وهي المدرسية (السكولاستيك) . وهذه الطريقة المدرسية كانت أبعد من أن تحصر المحاكاة في منطق صوري ، كما سيحدث ذلك آجلاً ، وإنما ساعدت الفكر على التقدم .

مشاكل العالم الجامعي

ومن هذا التقدم في التعليم يجب ألا يستنتج مع ذلك أن الحياة الجامعية

كانت في القرن الثالث عشر دون مشاكل . وهذه المشاكل بالعكس كثيرة وعديدة .

إن أول مشكلة توضع لكل جامعي ، سواء أكان أستاذاً أم طالباً هي من نوع مادي : كيف يعيش ؟ بالنسبة للأستاذ ، الإغراء عظيم ، لأنه يثبت نفسه بأنه رجل مهنة ، ويعيش من هذه المهنة ، أي أن يطلب من طلابه أجر المعرفة التي يقدمها لهم . ويرى في هذا الحل استقلاله لأنه لا ينتظر من أمير ، أو كنيسة أو مدينة مكافأته . ولكن هذا النظام له محذوره وهو إغلاق الجامعة في وجه الطلاب الفقراء . وكذلك الكنيسة ، التي تعتبر أن التعليم جزء لا يتجزأ من وظيفة الأكليريكي ، تتدخل أيضاً ؛ فمندمج لاتران الثالث ، في ١١٧٩ م ، أعلن البابا ألكسندر الثالث مبدأ مجانية التعليم . وعندئذ يجب أن تؤمن حياة الأستاذ بمنحه رتبة كنسية ذات إيراد . وهذا الحل لا يخلو من محذور ، لأن التعليم بهذا الواقع يبقى من شأن الأكليركيين ، وهذا يكون على حساب الثقافة والكنيسة معاً . وعلى هذا فإن كافة الدراسات ، وبخاصة الطب والحقوق المدنية ، الخالية من الطابع الديني تكون مشلولة لقرون في نحوها . حقاً ، لقد تأسست ، إلى جانب الجامعات ، مدارس علمانية ، ولكن الكنيسة كانت تنظر إليها نظرة سوء ، بيد أنها اقتصررت على إعطاء تعليم تقني للتجار ، وبقيت الثقافة وقفاً على حلقة ضيقة من المفكرين . ولحق الضرر الكنيسة أيضاً : فلسد حاجات عدد يتعاضم من الأساتذة ، يجب أن يوزع عليهم (حتى ولو كانوا علمانيين) وظائف عادية . وعلى هذا النحو تفاقمت إحدى مفاصد الكنيسة عدم إقامة الرعاية الذين تخلوا عن صحة الأرواح في سبيل الانصراف والتكريس للدراسات .

وبالنسبة للطلاب الفقراء لم تحل مع ذلك مشكلة العيش بكاملها بمجانبة التعليم ، إذ يلزمهم السكن ، والغذاء وشراء الكتب التي ظلت غالية بالرغم من التقدم المتحقق . والكثير منهم ردة إلى التسول أو الاهتمام بالحصول على لقمة العيش

بشكل أقل مما هو مقدر أيضاً . على أن هنالك أرواحاً تقية اهتمت باكراً لحصول هؤلاء الشبان على وسيلة يعيشون بها حياة أكثر ملاءمة للدراسة وأكثر تطابقاً للحالة الكنسية التي رصد الكثير أنفسهم لها . ففي ١٢٠٨ م أسست كلية الأولاد الصالحين . ونحو ١٢٥٧ م أقام روبر دوسوربون ثمانية عشر أستاذاً في الفنون فقيراً ، طلاباً للاهوت ، في كلية حملت اسمه : السوربون . ثم ظهرت كليات هاركور ، وناثار ، وكليرون .

وقبل فيها طلاب لهم رواتبهم موضوعون تحت رقابة مدير ، ويقدم لهم في البدء الطعام والمأوى ، ثم آل الأمر لإعطائهم دروساً بها .

وهناك مشكلة أخرى من نوع مسلكي . وهذه المشكلة عكرت حياة الجامعات ، وهي نزاع الأكليركيين النظاميين والزمنيين . كما أن تفوق التعليم الجامعي قد تأكد بسرعة . فنذ النصف الأول من القرن الثالث عشر ، فتح الفرنسي سكان والدومينيكان لطلاب نظامهم دوراً بالقرب من الجامعات الأساسية وكثير من أعضائهم يعلمون فيها بصفة أساتذة . وأثارت هذه الحالة عدااء الأساتذة الزمنيين . وأخذ هؤلاء على المتسولين أنهم لا يحترمون الأنظمة الجامعية : فهم يحصلون على الدرجات في اللاهوت ويعلمونه دون أن يحصلوا على الأستاذية في الفنون . ويعيشون من الصدقات ، ولذلك لا يهتمون بمشاكل الحياة المادية التي توضع للأساتذة الآخرين . وأخيراً ، يكسرون التضامن الجامعي باستمرارهم بإعطاء دروس عندما تكون الجامعة في إضراب . وهذا النزاع هيج باريس بخاصة ، بين سنوات ١٢٥٠ و ١٢٩٠ م ، وتحول إلى هجوم عام ، على الصعيد العقائدي ، على الحياة الديرانية من قبل الزمنيين وأنصارهم . وبين هؤلاء ، الأستاذ غليوم دوسان - أمور الذي شجبه البابا وطرده من الجامعة لأنه نشر ضد الإخوة كتاباً بعنوان : « أخطار الأزمنة الجديدة » ، وكتاب مثل روتبوف وجان دومونج ، وهؤلاء الثلاثة شككوا في المثل الأعلى لفقر المتسولين واتهموهم

بالمهرطقة . وبفضل البابوية والملك القديس لويس الموالين تماماً للفرنسيين ، كسب النظاميون القضية .

وأخيراً ، قسمت المشاكل الفكرية الجامعيين ، والأولى منها عرضت بأنها تناقض بين الاحترام الواجب لسلطة القدامى التي اعتمد عليها المدرسيون ، ومعطيات التجربة . وهذه هي مدرسة أوكسفورد وفيها ظهر الفرنسيكاني روجه باكون ، الذي حاول طريق التجربة .

ويتابع روجه باكون بتعريف برنامج جديد في (الأبوس ماجوس) (١٢٦٧ - ١٢٦٨ م) :

« وضع اللاتينيون أسس العلم فيما يتعلق باللغات والرياضيات والمنظور ، وأريد الآن أن أهتم بالقواعد التي أعدها العلم التجريبي ، لأنه لا يمكن دون تجربة أن يعلم شيء بشكل كافٍ . وإذا لم ير أحد النار أبداً وبرهن بالمحاكمة أن النار تحرق ، وتفسد الأشياء وتخربها ، فإن فكر المستمع لا يرضى بذلك ، ولا يتجنب النار قبل أن يضع اليد أو شيئاً قابلاً للاحتراق على النار ، ليبرهن بالتجربة ماعلمته المحاكمة . ولكن ما أن تكتسب تجربة الاحتراق ، حتى يطمئن الفكر ويستريح في نور الحقيقة . إذن المحاكمة لا تكفي ، وإنما التجربة . »

ولكن آثار روجيه باكون ، كانت مشبوهة ، وشجبت نظرياته .

وهكذا يتضح الفصل بين العقل والتجربة ، بين النظرية والتطبيق .

أما التوازن الذي يجب الحفاظ عليه بين الإيمان والعقل فيضع قضية أخرى . والنقاش يقع حول أثر أرسطو المعروف بشكل أفضل مما في القرن الثاني عشر بفضل ترجمات عدة كتب ، والمتمم بتفسيرات كبار الفلاسفة العرب ، ابن سينا ، ولا سيما ابن رشد . وقد حرمت قراءة بعض كتب أرسطو مراراً : منذ ١٢١٠ ، في جامعة باريس ، (الطبيعة) و (ما وراء الطبيعة) . وبالرغم من الشجب ، فقد

استمرت دراسة هذه النصوص ، لأن أساتذة مثل توماس الأكوييني نجحوا بشكل لامع بالإفادة من الفلسفة الأرسطاليسية لصالح العقيدة المسيحية . ولكن في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، وصلت أفكار ابن رشد ، مفسر أرسطو ، بعض الجامعيين الذين شكلوا ، في باريس ، حزباً حقيقياً ابن رشدياً تحت إدارة الأستاذ سيجردو برابان .

لقد علم هذا الأستاذ أن من الممكن أن توجد حقيقة غير الحقيقة التي أوحى بها الدين ، وأن العالم خالد ولم يخلقه الله . وهذه الهرطقة العالمة ، هاجمها القديس توماس نفسه ، وشجبها أسقف باريس في ١٢٧٠ م ، ولا سيما في ١٢٧٧ م .

وسجن سيجردو برابان ، ونشرت قائمة نظريات هرطقية ، ولكن وجد بين هذه إلى جانب الأطروحات الابن رشدية خاصة ، نظريات نشرها توماس الأكوييني الذي توفي منذ ثلاث سنوات أي في (١٢٧٤ م) . وقد أوقف رد فعل الكنيسة هذا كل محاولة لإدخال فكر حرية العقيدة في الدين وفي التعليم .

الأدب العالم والأكليري

إن المدرسية التي تعلم في الجامعات لم تثقف فقط عدة أجيال من الطلاب ، وإنما أنتجت أيضاً أعمالاً من أهم الأعمال في القرن الثالث عشر . ومؤلفوها هم في الواقع جامعيون .

ويجب أن نذكر في المقام الأول كتب اللاهوت التي تحاول أن تعطي عرضاً كاملاً لكل المعرفة اللاهوتية . وبين الأكثر شهرة يمكن أن نذكر كتب ألكسندر هاليس (١١٩٠ - ١٢٤٥ م) . وهو فرانسيسكاني إنكليزي علم الفلسفة واللاهوت في باريس . وإذا كان من أوائل من استخدم بشكل نافع الترجمات العربية لأرسطو ، وظل فكره أوغستينياً بعمق ؛ وألبير الكبير (١١٩٣ - ١٢٨٠ م) ، وهو

دومينيكي ألماني علم أيضاً عدة سنوات في باريس ، وحاول هو أيضاً أن يستعمل الفلسفة الأرسطاطاليسية لصالح العقيدة المسيحية . ولكن أثره هياً بخاصة أثر تلميذه الشهير القديس توماس الإكويني . وبفضل هذا الأخير ، مارس الدومينيكان في صعيد الفكر نفوذاً قاطعاً .

« إن إنجيلية المبشرين ، حسب الأب شونولم تولد مؤسسة فحسب ، وإنما مذهباً متجانساً لهذه المؤسسة . والقديس توماس اللاهوتي هو ابن دومينيك المبشر . والمبشرون ، دون القديس توماس الإكويني لا يمكن التفكير بهم » . وكفرانسوا داسيز كان توماس إيطالياً وغنياً . وأبوه الكونت أكويني ، خصص له إقطاعات الدير البندكتي في مون كاسينو . ومثل البوثيريللو ، قطع الصلة بعائلته في ١٢٤٤ م ، ليتبع دعوة كهنوتية أكثر حداثة . تتلمذ على يد ألبير الكبير في باريس ، ثم أقام في كولونيا وعلم في فرنسا وفي شبه الجزيرة الإيطالية . وأثره الأساسي (المختصر اللاهوتي) ، و (المختصر ضد الوثنيين) ظلا غير منتهيين ، ولكن كما هما أعطيا إلى فلسفة العصر الوسيط والمسيحية الأبدية العقائدية التي تنقصها .

وهناك شرط مزدوج سيطر على نمو الفلسفة التوماسية وهو : التمييز بين العقل والإيمان وضرورة اتفاقهما . العقل يسود الفلسفة ، وكل ما هو في متناول النور الطبيعي يبرهن عليه بموارده الوحيدة ؛ اللاهوت يبني بالعكس على الوحي . ينتج عن ذلك ، حسب كلمة جيلسون « إن الاستحالة التي نعالج فيها الفلسفة واللاهوت بطريقة واحدة لا تمنعنا من اعتبارهما يشكلان فكراً حقيقياً واحدة شاملة » . وإذا وجد تناقض ، فالعقل هو الذي يخدع ، ويجب إذن استئناف طريقته حتى الانسجام الذي يوضح به العقل الإيمان . إن لاهوت توماس الإكويني قد تهيأ بلاهوت ألبير الكبير ، وعلى هذا النحو قدم الممثل الأكثر كلاً والأكثر تنظيماً في اكتشاف الطبيعة ليجد المعنى المسيحي للوحي ،

وهو إعطاء معناه في ربط الروح والجسد . وفي الحقيقة أن توماس وسّع وفُسّر عدة مؤلفين إغريق وعرب ، وكان تلميذاً وفيماً لأرسطو في صعيد الفيزياء والفيزيولوجيا والشهب . ولكنه لم يستسلم أبداً لإغراء إثبات وجود الله ، والوقوع في اللانهاية السببية الأرسطاطاليسية . وهذا لم يمنع أثره من إثارة جدل عنيف أظهرت بعض صداه (الرواية الوردية) . إن التفسير في الدفاع والنقاش في هذه المصالحة بين الإيمان المسيحي والمجموعة الفكرية الدفاعية الإغريقية ، كان خلال النصف الثاني كله من القرن الثالث عشر ، الشاغل الأساسي للجامعات الجديدة والنشطة .

وإلى جانب هؤلاء اللاهوتيين الذين تتقفوا بدروس الفلسفة ، يجب أن يترك مكاناً للقديس بونافانتور (١٢٢١ - ١٢٧٤ م) الذي كان في الغالب صوفياً مع بقاءه « في الوقت نفسه فيلسوفاً لأنه أدرك مشروع تنظيم المعرفة والأشياء تبعاً للصوفية » لقد انحدر من أسرة نبيلة إيطالية ، وكان اسمه جيوفاني فيدانزا ، وأخذ لقب بونافانتور من القديس فرانسوا نفسه في الوقت الذي مازال بعد طفلاً . دخل النظام الفرنسيسكاني ، وكان أحد تلاميذ ألكسندر دو هاليس في باريس حيث أصبح أستاذاً في الوقت الذي كان يعلم فيها توماس الإكويني . إن الوظائف الثقيلة التي أخذها على عاتقه ، جنرال الفرنسيسكان في عصر كان فيه النظام ممزقاً بالمنازعات الداخلية (١٢٥٧ م) ، منصب الكاردينالية ، لم تصرفه عن أعمال الفكر . وكتابه (طريق الروح إلى الله) ، أهم أثر له ، يصف مراحل الطريق الذي يجب سلوكه للوصول إلى الله . إن الخنوع والتقوى أهم مساعدين يمكن للإنسان استخدامهما للارتقاء نحو الخالق .

وأثر روجيه باكون (١٢١٤ - ١٢٩٤ م) يتعلق ببحث يختلف كثيراً . وحياته (عمله) تشبه مع ذلك ، في بداياتها ، حياة معاصريه المشهورين . وبعد دراسات في أوكسفورد ، ثم في باريس ، دخل النظام الفرنسيسكاني وباشر بتفسير أرسطو .

ولكنه انطلاقاً من ١٢٤٧ م ، اتجه نحو الدراسات العلمية ، لأنه ينتظر من التجربة أكثر من قراءة القدامى . وفي كتابه أوبوس ماجوس (١٢٦٧ - ١٢٦٨ م) ظهر أنه من أنبه وأفطن الأفكار العلمية في زمانه ؛ وكان أيضاً أول من لاحظ بأن التقويم الجولياني مغلو ط ، وأشار إلى النقاط الضعيفة في منظومة بطليموس . وفي البصريات وضع قوانين انعكاس وحوادث انكسار النور . وأثره لا يخلو ، في الحقيقة ، من أخطاء ، ولكن مأتاة في وضع (الطريقة) التجريبية كان الأهم .

وإلى جانب الكتب اللاهوتية ، شهد القرن أخيراً ظهور معلمات (انسيكلوبيديات) عديدة من بينها وأشهرها (المرأة العظيمة) لواعصها الدمينيكي الفرنسي فانسان دوبويه (١١٩٠ - ١٢٦٤ م) .

وهذه المعلمة اللاتينية تجمع ، في ثلاثة مطولات ، كل ما يمكن معرفته في القرن الثالث عشر ، وتحاول أن تؤلف انسجماً بين جميع الوقائع في رؤية دينية للعالم . والمرأة الطبيعية تبحث في خلق العالم والله والملائكة ، وكل العناصر ، أجسام (معادن ، أحجار ثمينة) وكائنات حية (تصنيف النباتات والحيوانات) وأخيراً النفس البشرية . و (المرأة المذهبية) مكرسة للفنون الحرة ، والفلسفة ، والحقوق ، والسياسة ، واللاهوت . و (المرأة التاريخية) هي تاريخ عام لأصول العالم حتى القرن الثالث عشر . وفي بداية القرن الرابع عشر ، أضيفت (المرأة الأخلاقية) من قبل متم لفانسان دو بويه . وإذا كان هذا ينقصه في الغالب الفكر النقدي في الأحداث التي ينقلها ، فإن عمله ، أثره ، يبقى شاهداً هاماً جداً على معارف وعقلية الأوساط المثقفة في القرن الثالث عشر .

الأدب الدنيوي والعلماني

لقد كان القرن الثاني عشر ، من وجهة النظر الأدبية قرناً فرنسياً . وفي الحقيقة ، يرى في آخر القرن الثاني عشر وفي القرن الثالث عشر ، أن الأنواع ،

التي كان يمجدها ، ظلت تجد لدى جمهور أكثر فأكثر سعة واهتماماً متزايداً . لقد استمرت كتابة أغاني الملاحم والبطولات والطوافين من الشعراء الغنائيين الذين يؤلفون أغاني بلغة الشمال في فرنسا المعروفة بلغة اويل ، شمال خط بواتيه - غرونوبل ؛ ومن الشعراء الغنائيين الذين يؤلفون أشعارهم بإحدى لغات الجنوب ، لغة أوك ، وكلا الفريقين دلّ على النجاح المستمر الدائم للشعر الغنائي . وقد أعطى كريتيت دو تروا للرواية التهذيبية المصفاة ، أعظم روائعه . ومع ذلك فقد تغير الجو قليلاً قليلاً ، وأظهرت القيمة الضعيفة أكثر فأكثر لآثار الغنائية والتهذيبية ، مع بعض الاستثناءات الكبرى ، بأن عصر التهذيب قد انتهى . ولكن التطور كان بطيئاً ، لأن كل طبقة صاعدة كانت تميل إلى تبني المثل الأعلى للنخبة في مكانها . ولذا فإن نجاح البورجوازية لم يؤد بالحوال إلى تجديد الموضوعات الأدبية ؛ وفي فرنسا ، من جهة أخرى ، يبدو أن حكم القديس لويس قد أطال بقاء المثل الأعلى الفروسي الذي فهم قليلاً قليلاً . ولكن الأهمية غيرت مكانها . وهذا العصر الذي كان أقل حساسية للشعر المحض ، استهوته القضايا الحالية . وهذه الاهتمامات الجديدة نفذت عبر الأنواع التقليدية أكثر من غيرها . فهي توضح نحو التاريخ ، وتذوق العلم الذي نفذ إلى جزء من الجمهور العصري المتعلق بلذائذ المجتمع والعالم . ظهرت بنمو اللغات الوطنية الذي قلل الحصر المطلق للغة اللاتينية في تعليم الجامعات . لقد شرع بترجمة الآثار القديمة التي دخلت في مكتبات الكبار ، وأخيراً ، كلما تقدم القرن الثالث عشر سجل تفضيله لأدب الأفكار . وهذا التغيير حول بعمق سماء الأدب في أوربة . وصحب أفول الأجناس الغنائية والتهذيبية في الواقع انخفاض النفوذ الأدبي للبلاد التي ولد فيها ، فرنسا الشمالية والأوكسيتانيا^(١) ، بالرغم من أن الروايات الفرنسية مازالت تلقى النجاح عبر أوربة كلها . وكان النفوذ الفرنسي ، من جهة أخرى ، ضحية

(١) الأوكسيتانيا : اسم أطلق على مجموع بلاد لغة أوك ، لغة الجنوب .

نجاحه نفسه . ففي إسبانيا ، والبرتغال ، وألمانيا ، بعد أن اكتفي بترجمة الروايات الفرنسية بدئ بتأليفها باللغات الوطنية ، وكانت إنكلترا ما تزال تدور في فلك فرنسا الثقافي ، ولكن شعر بتفتح الزمن الذي ستبتعد عنه . وفي أدب الأفكار الجديد ، كانت فرنسا مسلحة أقل من غيرها بكثير ، وأكثر مفكرها أصالة ، هؤلاء الذين كانوا يعلمون في جامعة باريس ، كانوا يأتون من سواب أو من نابولي . ومع ال (دولشه ستيل نيوغو) ودانتي الذي ورث وأفضى إلى خمسة قرون من البحوث المتنوعة التقت فيها الغنائية والتعليمية والتفكير الفلسفي والسياسي ، أخذت إيطاليا الشمالية بدورها مقدمة المسرح ، وستحتلها زمناً طويلاً .

نهاية العصر البطولي

يبدو بادئ بدء أن العقود الأخيرة من القرن الثاني عشر وخاصة عقود القرن الثالث عشر كانت خاتمة براقة أحياناً للعصر المذهب . ففي فرنسا ، كان مؤلفو أغاني البطولة يكتبون في الغالب بتعديل نتاجات سابقة . وهكذا فإن غريندور دو دوويه ، في بداية القرن ، ألف ، من القصائد الثلاث القديمة في الحرب الصليبية ، أغنية (فتح القدس) ، وهذا العمل عمل تصنيف وترتيب يراد منه شد أواصر قنوات القربات بين الأبطال ، ويرى فيه الجمهور معاً لذة فكرية وأكثر سطحية معاً ، وأكثر حداثة في معنى ما . وما كان ثانوياً أصبح أساسياً . لأن المثل الأعلى نفسه ، المسيحي والفروسي ، الذي أنعش وحرك القصص الشعرية في البطولة والمغامرات السابقة ، لم يُشعر به .

إن نضوب العبقريّة الفروسية كان أيضاً أكثر تظاهراً في النتاجات الأصلية . وهكذا فإن أربع أغاني ألفت بين ١٢١٠ و ١٢٤٠ م لم تعمل سوى أن أتمت بشكل غير مفيد مسلمة (معطاة) رولان الأولى . لقد عرض مؤلف قصيده

« هون دو بوردو » أكثر من شخصية ، ولكنه باستغلاله بمهارة ، من جهة أخرى ، التأثيرات السحرية (أوبرون ، ملك الإلفات في روايات أعلى العصر الوسيط ، والإلفات ، آلهات جوية ترمز إلى الهواء ، النار ، الأرض ، إلخ ... جنيات ، أقزام ، أرواح الغابات) ، صنع من أثره قصة خالصة فائقة . وعلى هذا ففي الوقت الذي بلغ فيه عالم الفرسان أقصى توسعه وتشكل في مجموعات ، فرغ من محتواه . ماذا كانت هذه المجموعات ؟ مجموعات الحرب الصليبية ، الملك - الذي أعاد رسم ملحمة شارلومان - وفي آخر القرن ، مجموعة غارن دو مونغلان الذي كان بطله غليوم دو رانج ، كونت تولوز .

ومع ذلك ، يوجد ، في الوقت نفسه ، أدب حماسي أكثر إخلاصاً . وقد جعل منه الشعراء الفرنسيون مدرسة . وعلى هذا النحو ، ظهرت آثار وطنية في إسبانيا والبرتغال ؛ وخاصة في النمسا ، على حدود العالم الجرمانى . وضع مؤلف مجهول أغنية النيبلونغن^(١) بموهبة نادرة نحو ١٢٠٠ م ، مادة جرمانية بعمق . إن إخلاص وحيه انفصل عن الرتبة المتبدلة في الأعمال الأدبية الفرنسية في نفس العصر . وفي الحقيقة ، إن سيفغريد ، هاغن ، غونتر لم يكونوا مطلقاً محاربين بدائيين ، وبأهواء ابتدائية وعنيفة . تأدبوا بالتهذيب الفروسي الذي أصدرته فرنسا ، وظلوا دوماً حساسين بالطرق والأساليب الفرنسية ، واهتمامهم كبير بأداب اللياقة . ولكنهم لا ينتسبون إلى فروسية دولية . وهؤلاء هم الأسلاف ذوي النفوذ للأمة الألمانية .

(١) Niebelungen : في الأسطورة الألمانية ، أقزام يملكون ثروات كبيرة تحت الأرض وملكهم نيبيلونج Niebelung . وإن محاربي سيفغريد ثم البورغونديين أخذوا تبعاً اسم Niebelungen بعد أن استولوا على أموالهم .

و Niebelungen أغنية النيبلونغن ملحمة جرمانية كتبت نحو ١٢٠٠ م في وسط ألمانيا العليا . وتقص مغامرات سيفغريد ، سيد كنز النيبلونغن ، لمساعدة غونتر Gunther لكسب يد برونهيلد Brunhild ، وزواجه من كريهيلد Krimhild أخت غونتر ، وموته تحت ضربات الخائن هاغن HAGEN ، وثأر كريهيلد .

الأدب المذهب والغنائي

إن الجمهور النبيل ، الذي تحول عن الجنس الحاسي ، أخذ يفضل الأدب ، وخاصة القصة المذهبة . فنذ النصف الأول للقرن الثاني عشر ، عرف جنوب فرنسا عذوبة حضارة محبة كثيراً وصافية كثيراً . لقد كان السادة الأمراء والسيدات يجذبون إلى بلاطهم الشعراء التروبادور الذين يغنون جمال الطبيعة وآلام الحب وأفراحه . وفي النصف الثاني من القرن الثاني عشر بلغت هذه المواضع الجديدة المناطق الشمالية تحت تأثير ألينور أكيثانيا بخاصة . وقد تزوجت هذه طوراً وطوراً ملك فرنسا ، لويس السابع ، ثم كونت أنجو ، هنري بلانتاجوني الذي أصبح في ١١٥٤ م ملك إنكلترا . وأقامت في الدومين الملكي الفرنسي ، ثم في لندن ، التهذيب الجنوبي . وسارت على منوالها ابنتها مارية ، كونتس شامبانيا ، التي جعلت نفسها حامية كريتين دو تروا ، ونظمت (دروس الحب) التي تناقش فيها رقة ولطافة العاطفة المحبة .

إن التخيلات ، التي تعبر فيها الحساسية الجديدة ، كانت مقتبسة إما من الأدب القديم ، أي اللاتيني ، المنسوخ والموسع والمفسر مراراً عديدة في القرن الثاني عشر ، أو من الأسطورة السلتية (الكلتية) ، والقصص القديمة مثل قصة إينياس (١١٦٠ م) ، التي هي نقل روماني مذهب ولبق عن الإنيادة ، أو قصة طروادة العظيمة التي ألّفها في ١١٦٥ م بنوا سانت - مور ؛ هذه التخيلات تخرج الأبطال الإغريق أو الرومان بتحويلهم إلى فرسان شجعان ومهذبين . وإن (موضوع بروتانيا) وعلى الأخص ، القصة الأسطورية الأثرية تجهزان بإطارها قصصاً مذهبة أخرى . إن مآثر الملك آرثر زعيم المقاومة البروتانية ضد المحتاحين الساكسون في القرن السادس ، التي وصفها جوفروا دو مونوث في تاريخ مملكة بريطانيا في ١١٣٥ م ، وضعت في متناول جمهور عريض بالترجمة

الحرّة جدّاً التي قام بها واس الكاهن القانوني في مدينة بايُو ، لهذا الأثر منذ ١١٥٥ م . وهذا الكنز من الأساطير استغله الكتاب المهذبون .

بين هؤلاء الكتاب يحسن أن نذكر ، من فرضوا على الجنس الأدبي طابع عبقريتهم الشخصية . إن مارية فرنسا التي عاشت في بلاط آليَنور وهنري الثاني ملك إنكلترا ، كانت امرأة مثقفة تعرف الأدب الفرنسي وأيضاً اللاتينية والإنكليزية . استخدمت الأساطير البروتونية القديمة وألفت (قصائد وصفية أو غنائية بأشعار قصيرة ، على العموم من ثمانية مقاطع) . وقد أجادت في فن إحياء أدق العواطف ورسم الاكتئاب السريع التأثير .

وكان من معاصري مارية ، بيرول وخاصة توماس الإنكليزي ، الذي عاش هو أيضاً في بلاط آليَنور ، وقد اقتبس كل واحد منهما من (مادة بروتانيا) أسطورة « تريستان وإيزوت » . والمقطوعات التي وصلتنا من آثارها تدل على أنها عرفنا ، كل واحد منهما بشكل يختلف عن الآخر ، كيف يرسم قوة الهوى القادرة وحتميته .

ومع ذلك فإن كريتين تروا (١١٣٠ ؟ - ١١٩٠ ؟) ظل أكبر ممثل للقصة المهذبة . ففي أثره تلتقي عدة مؤثرات : فبواسطة مارية دو شامبانيا حاميته التي أهداها قصة وموضوعها أن أحد فرسان (المائدة المستديرة) ربه الجنية فيثيان في قعر بحيرة ، وفتن بالملكة غونيفر ، زوجة الملك أرتوس ، وتحمل بحبه لها كل أنواع الحن . ولهذه القصة اسم آخر وهو : « لانسيلو » أو لانسيلو ذو العربة (نحو ١١٦٨ م) . لقد تدرب على المفهوم البرفانسي في الحب ؛ وفرسانه الذين يقومون بمآثرهم الشجاعة في سبيل الحب وأحياناً طيش نسائهم ، هم أبطال وجدوا لإرضاء جمهور نسوي . ودخل كريتين تروا ، في آخر حياته ، في خدمة فيليب دالزاس كونت فلاندر ، وتحت تأثير هذا الأخير ، أخذ أثره

لونا صوفياً . والبرسفال أو (قصة غرال) التي لم تتم ، تقص (الإناء الأقدس) الذي استعمله يسوع - المسيح في (العشاء الرباني) ، وجمع فيه يوسف رامة الدم الذي سال من جنب السيد المسيح وهو مصلوب بعد أن ثقبه القائد الروماني . وساعد بقوة أسلوب كريتين دو تروا الخفيف والرشيقي على انتصار الفرنسيين (لهجة جزيرة فرنسا) على سائر اللهجات . وأوصل إلى الكمال فن عقدة القصة وتجديد اهتمام القارئ دوماً ، وتحليل عواطف الأبطال بدقة ووضوح ، وأبدع نهائياً في جنس القصة .

وفي القرن الثالث عشر ، وضعت نثراً جميع القصص الشعرية للقرن الفائت ؛ وأخذت آثار كريتين دو تروا وعدلها مؤلفون ظلوا مجهولين في قصة « لانسيلو » واحد ، أصبحت درامة واسعة رمزية للحالة البشرية الممزقة بين الذنب والسعادة ، تخترقها نحن (البحث عن الإناء - الأقدس) ذات دلالة قربانية . والبحث عن الكأس - الأقدس كان يقترب على هذا النحو من الحنين الذي يطبع ويميز العاطفة الدينية في القرن الثالث عشر .

والبطل لانسيلو يعرض ، جزئياً ، صفة عصرية ، وهذه الصفة كانت خاصة في (القصة الوردية) للأورلثاني غليوم دو لوريس المؤلفة شعراً في ١٢٣٠ م . وكان الحب موضوعها الوحيد ، المعبر عنه في صفائه الباطني ؛ والوردة فيه هي رمز العذراء المرغوبة التي يحاول الواصف أن يستعطفها بدع أو برغم دسائس شخصيات رمزية ، مثل ، ترحاب جميل ، كرم ، كره ، خيانة أو خطر . وتناول لوريس موضوعات تقليدية للأدب المهذب ، ولكن بصهرها في حرارة الحياة الشديدة التي حولت الرموز إلى حركات صافية للروح . وانمحي التعليم أمام حساسية يشعرتوا بأنها ناجمة عن التجربة . لقد أنشئت (قصة الوردية) بعناية ، ولذا فهي ، كما قيل ، تقدم معاً (آخر وأجل ثمرة التقليد المهذب) . وفي

نهاية أربعة آلاف بيت شعر أنهى لوريس أثره . وبعد خمسين عاماً أعطاه جان دو مونج تكملة طويلة ، ولكن ، وجه القرن قد تغير آنذاك .

الشعر الغنائي

يؤلف هذا الشعر القطاع الثالث للأدب التقليدي . وكان في تراجع ، هو أيضاً ، في البلاد التي رأى فيها النور ، ومع ذلك فقد أثار ، في شمال فرنسا ، بعض الآثار الجميلة .

وكانت أوكستانيا (الاسم المطلق على مجموع بلاد لغة الأوك) غنية بالشعراء ، ولكن الأصالة فيها كانت نادرة بعد الحرب الصليبية . والأثر الغزير للتولوزي أيميريك دو بيغيلهان لا يرتفع فوق الرشاقة . وغنائية الإيطالي سورديل ، التروبادوري الأكثر شهرة ، يبقى من الضعاف . وفي شمال وشرق فرنسا ، بالمقابل ، كان الفن التقليدي مثلاً بقوة . وأعظم هؤلاء (التروفر) في بداية القرن ، كان تيبو الرابع ، كونت شامبانيا ، ثم انطلاقاً من ١٢٣٤ م ، ملك نافار . كان موسيقياً شهيراً ، وترك أثراً عظيماً ، وكله مخصص تقريباً للحب . وتأمنت المرحلة في النصف الثاني من القرن على يد آدم دولاهال الملقب بالأحذب الذي عاش في البدء في أراس ، المنافسة الفكرية الكبرى لباريس ، ثم استقر في بلاط شارل أنجو ، وكان مؤلفاً لأغاني الحب ، وألف قطع ترتيلات جميلة أخذ نصها من الصلوات الطقسية ، ولكن بخاصة مع لعبة الظل ، لعبة روبن وماريون ، كان أحد مبدعي مسرح العصر الوسيط . وفي أثره حسم بوضوح ، في هذا القرن المنتهي ، في ضعف معظم معاصريه . وذلك لأن اهتمامات العصر ذهبت إلى أخرى غيرها : لأن الأسطورة ، وعبادة المثل الأعلى الذي لا يهتم بالجسد ، كانت أهميتها أقل من تحليل أدق للحاضر ، والحياة أو العلم . وهكذا انتهى عصر البطولة .

ظفر الأدب البورجوازي

لقد كان التعليم والهجاء أهم ملامح العصر البورجوازي الجديد ؛ سواء أكان القصد إيضاحاً أم تفسيراً وتعليقاً ، أو صلباً في أشكال أدبية واقعاً موفوراً ، أو بالعكس تصويره تصويراً هزلياً . ففي كلا الحالين ينطلق المؤلف من الحاضر . وإلى تذوق الواقع هذا ، يجب أن يذكر في المقام الأول ، نمو التاريخ في القرن الثالث عشر .

لقد ولد شمال فرنسا أشهر مؤرخي ذلك العصر ، وفيه عاش ثلاثة مؤرخين الحوادث التي رووها ، كلٌ حسب مزاجه وكفاءته . وحرصوا على أن يسجلوا هذه الصفة التي يتصف بها أثرهم : « الحقيقة ، كما في الواقع فتحت القسطنطينية . وإن من كان فيها ورآه ، وسمعه ، يبرهن عليه ، روبر دو كلاري الفارس ، وكتب الحقيقة كما فتحت » . هذه هي النتيجة النهائية لمؤلف روبر دو كلاري ، فارس منطقة بيروت . ذهب وشارك في الحرب الصليبية الرابعة ، وحررقسته نحو ١٢١٠ م ، ولم يكن بين زعماء الحملة الأساسيين ، ولكنه أحد هؤلاء « الفرسان الفقراء » الذين عبروا غالباً عن حقدهم وعدم صبرهم . إن تواضعه (لا ينسب لنفسه أي مغامرة « مأثرة » ، ولا يتكلم عن نفسه إلا عندما يذكر شجاعة أخيه) أظهر في تاريخه اليومية البسيطة لجندي بسيط ، ومع ذلك حاول أن يصعد إلى أسباب السياسة الكبرى ، أو ما يفكر بالتنبؤ به . وثقافته وفكره النقدي لم يكونا على ارتفاع هذا الطموح ، ولكن الواقع البسيط الذي أدركه إنما هو صفة هامة بالنسبة للمؤرخ .

وهناك صليبي آخر كان أحد الزعماء ، وقد نجح حيث أخفق كلاري وهو : جوفروا دو فيلهاردون ، ماريشال شامبانيا ، وكان أحد المستشارين الأساسيين للبارونات وعمل على هذا النحو على قبول اختيار بونيفاس دو مونفرا زعيماً

للحملة الصليبية الرابعة . ومؤلفه الذي حرره نحو ١٢١٠ م (فتح القسطنطينية) هو عمل غير شخصي أقل من عمل روبير دو كلاري لأن فيلهاردون دخل المسرح بحيلة وتحفظ وتواضع ، ولم يستطع تجنب ذكر اسمه ، أثناء المفاوضات أو المعارك التي لعب فيها دوراً قاطعاً ، حاسماً ، ولكنه عامل صورته الخاصة دون أقل إعجاب بالذات . ومع ذلك كان أثر فيلهاردون عملاً (ذا أطروحة) لأنه حاول أن يجيب فيه كل من عجبوا من انحراف هذه الصليبية التي تركت القدس جانباً لتفتح القسطنطينية المسيحية . « واعلموا أنه بأرض بابل أو باليونان ، ستستعاد أرض ماوراء البحار إذا ما استعادت ذات يوم » . وتاريخه المنطقي ، والمختصر ، وحتى الجاف ، يدل على وضوح الفكر الذي كان إحدى الصفات المميزة والأكثر جاذبية وفننة للقرن الثاني عشر .

و (تاريخ القديس لويس) لمؤلفه جوثفيل ، له صورة مغايرة تماماً . لقد حرره ، بين ١٣٠٠ و ١٣٠٩ م ، رجل عمره ثمانون عاماً ، يروي بسداجة محبة (الكلام المقدس والأعمال الطيبة للملكا القديس لويس) ، ولكنه هو أيضاً أصّر على صحة القصة : « أعلم الجميع بأني أعلم قسماً كبيراً من أحداث ملكنا القديس لويس مما قاله وسمعتة .. وإن كل من يقرؤون هذا الكتاب يعتقدون بجزم بكل ما يقوله الكتاب بأني حقاً رأيت وسمعت : أما الأشياء الأخرى المكتوبة فيه ، فلا أبرهن لكم على أنها حقيقية لأنني لم أرها ولم أسمعها » .

وهذه الصفة يبقى أثر جوثفيل ثيناً حقاً كوثيقة عن الصليبيات الأخيرة ، ولكن أيضاً عن عقلية ودين القرن الثالث عشر ، وتاريخه ثرثرة محارب قديم ، لم يكن على الأقل ، مؤلفاً خبيثاً صادراً عن سوء نية من مسيحي (متوسط) تجاه بطل من عصر آخر ، يعجب به دون أن يفهمه دوماً . « قال الملك ياسينشال : أي شيء هو الله ؟ فقلت له : يا صاحب الجلالة إنه شيء طيب ولا يمكن أن يكون أفضل منه حقاً ، قال : إجابة حسنة : وإني أطلب منك أيها أحب إليك أن تكون

مجدوماً أو أن ترتكب ذنباً يفقد فيه المذنب عفو الله . وأنا الذي لا أكذب أحبته
بأنني أفضل أن أرتكب ثلاثين ذنباً على أن أكون مجدوماً . وسألني ما إذا كنت
أغسل أقدام الفقراء يوم الخميس الأعظم (خميس العهد أو الخميس الأقدس) ،
(وغسل الأقدام حفلة طقس ديني تقع في يوم الخميس الأقدس ذكرى ليسوع
الذي ، نقلاً عن القديس يوحنا المعمدان ، غسل أقدام حواريه عشية موته) .

- قلت : يا صاحب الجلالة ، يا للمصيبة ! لن أغسل أرجل هؤلاء الوضيعين
أبدأ . حقاً ، قال : لقد أسأت القول ، لأنه لا يجب عليك أن تحتقر ماصنعه الله
لتعلينا » .

والاهتمام بالحالة الحاضرة لا يرى فقط في التواريخ الخاصة على سبيل الحصر :
إن أغاني البطولات (الملاحم) نفسها كانت طوعاً مراجع للحوادث المعاصرة . إن
الأغنية الأوكسيتانية التي تروي في ١٢٠٠٠ بيت من الشعر مكافحة
الألبيجوازيين ، والتاريخ الشرقي ، لجاك فيتري الذي يروي تاريخ الدول
الفرنجية في الشرق (١٢٤٠ م) أوقصة إيراكل (١٢٣١ م) التي تصور العلاقات
بين القدس والقسطنطينية ، هي أيضاً شواهد .

ولللكلام عن الحاضر ، كان يجب في الغالب ، كما فعل كلاري ، وفيلهاردون
وجوانفيل ، الكتابة بالفرنسية . وهذا ما فعله روتيبوف ، أول شاعر تكلم عن
نفسه بلغة شعبية ، كان حراً وأصيلاً لعمل ذلك بشكل مباشر دون أن يتكيف مع
القبول الجامدة (الثابتة) للقصص المهدبة .

كتب روتيبوف نحو ١٢٦٠ م وألف عدة قطع عن الحال الحاضر ، خاصة
بصليبيات لويس التاسع أو ضياع القسطنطينية ، وغطى بالتهكم اللاذع (نزاع
الجامعة) . وللهجوم على الأنظمة الدينية كتب « رونار بصورة حيوان » الذي
اقتبس رموزه من العمل الشعبي الشهير . ولم يكن الوحيد في القرن الثالث عشر ،

فعديدة كانت (التكمالات) التي أعطيت إلى « قصة رونار » بقصد جدلي . ومغامرات الحيوانات فيها أصبحت حجة لهجاء سياسي أوحى عروض فلسفية . وهذا كان فكر (تنويج رونار) و (رونار الجديد) الذي ألفه في ١٢٨٨ م جاكار جوليه .

وفي الوقت نفسه أعطى جان دو مونج للقصة الوردية تكماتها (الفلسفية) والمعادية للأكليروس . هذه التهجئات العنيفة ضد الدومينيكان كانت ، بالرغم من وحدة العنوان ، بعيدة كل البعد عن الرموز اللطيفة لغلوم دو لوريس . وريزون ، في (قصة الوردية) الجديدة حول عاشق عن (خدمة) الحب ، وفينوس تشهر فيها إلى المرأة وهم (العفة) . وجان دو مونج ، الممثل النموذجي للبورجوازية يهاجم على هذا النحو أسس الأخلاق المهذبة : الاحترام العصري للمرأة ، واحترام أرستقراطية الدم . ولهذا اعتمد على عدة مؤلفات فلسفية من سيجردو برابان إلى روجيه باكون .

والأشكال الشعرية الجديدة ، استعمال اللغة العامية ، تركيب المعارف المكتسبة ، الحديث عن قصة جميلة لحب معاكس ، كل هذا وجد شرحه الأعلى في أبدة القرن الثالث عشر الأدبية ، ألا وهو أثر دانتي .

بدايات الأدب الإيطالي : دانتي

إن التفوق الناشئ لإيطاليا على فرنسا يتضح في الحقيقة بسبب بسيط ؛ وهو أنه في الوقت ، الذي ازداد فيه الفصل في فرنسا بين الفكرة والغنائية ، نجحت عبقرية دانتي في صهرهما في عمل ، أثر ، يحتفظ بأحد المواقع الأولى بين كلاسيكيات البشرية الغنائية . وفي الحقيقة أن دانتي كان حقاً غنائياً : ففي أول مجموعة من القصائد له ، (الحياة الجديدة) المنشورة بين ١٢٩١ و ١٢٩٣ م ، يغني حبه لبياتريس التي أحبها منذ سن التسعة أعوام . ولكنه كان أيضاً كاتباً سياسياً : غلفياً معتدلاً أثناء إقامته في فلورنسا ، وطنه ، وكان ضحية أنصار غير

مرتبطين بالبابا بونيفاس الثامن ، نفوه في ١٣٠٢ م . وعندئذ ما انفك دانتي يعارض المزاعم الزمنية للبابا ، في مؤلفات فلسفة سياسية مثل « الملكية » ، ولكن أيضاً في (الملهاة الإلهية) ، وفيها أغرق عدة بابوات في الجحيم ، وضاعف اللعنات ضد المتبردين على الإمبراطورية ، التي هي الضامن الوحيد للسلام العالمي . وأخيراً ، كان دانتي عالماً ، تثقف بفلسفة أرسطو وفلسفة توماس الأكويني . وقد أمكن اكتشاف مشاهبات في الصور بين فقرات من (الكوميديا الإلهية) والدروس التي ألقاها في فلورنسا تلميذ (الدكتور الملائي) . وبخاصة لا يعين لمشروعه حدوداً أخرى غير حدود الفكر البشري ، وكان هدفه احتواء الحقيقة بكاملها . ولهذا فإن تعاليم بطليموس وتعليم دكاترة الكنيسة كانت ثمينة بالنسبة له . وشارك كلياً بالرؤيا الرمزية التي أعدت في سياق القرون السالفة . وفي الكونثيقيو استأنف مذهب المعاني الأربعة للكتاب المقدس : « يجب أن نعرف أن الكتاب المقدس يمكن أن يفهم ويجب أن يعرض حسب أربعة معاني : أحدها يسمى الحرفي وهو الذي لا يذهب إلى أبعد من الحرف بالمعنى الدقيق للكلمة ، والثاني يسمى الرمزي وهو الذي يخفي تحت الستار خرافات ؛ والثالث أخلاقي (معنوي) وهو المعنى الذي يجب على القراء أن يكشفوا عنه بعناية عبر الكتاب المقدس لخيرهم ولخير الناس الذين يعلمونهم . ويسمى دانتي المعنى الرابع أيضاً المسمى تفسيري ، وبحسبه أن الحقيقة التي تتعلق بالنفس البشرية تختفي تحت حقيقة حرفية مثقلة بمعنى حرفي أكثر تحديداً ؛ وهكذا بمناسبة خروج إسرائيل خارج مصر ، « قال النبي بأن جبال اليهودية أصبحت مقدسة وحررة » ، يجب أن نفهم عدا ذلك ، بأن الروح تقدست وتخلصت وردت إلى سلطتها الخاصة بالخروج من الخطيئة » . (وكلمة تفسيري هنا تعني تفسير الكتاب المقدس بشكل يرتفع من المعنى الحرفي إلى المعنى الصوفي) .

وكذلك أدخل دانتي هذه المعاني الأربعة في (الكوميديا الإلهية) التي تظهر

بذلك صفتها التعليمية ؛ ففي الأعماق ، تصف الكوميديا الإلهية مغامرة روح تائهة توصلت إلى الله بنجدة الحكمة والإيمان . ولكن الشاعر نظراً أيضاً إلى التاريخ في مظهره الحرفي جداً . وأخيراً ، لا حاجة للإصرار على المعنى المعنوي للرحلة التي قاده فيها فيرجيل ، ثم بياتريس ، والتقى به في نظام لم يترك فيه مكان للصدفة ، أنصار جميع مختلف المفاصد ، في جهنم وفي المطهر ، ثم في الجنة جماعة السعداء التي تكاد تختلف قليلاً .

ولكن مشروع دانتي لا يقتصر على جمع صفات مبعثرة في مختلف مؤلفي القرن الثالث عشر لقد جدد وأبدع أسلوباً شخصياً تماماً ، يزيل كل ما اتفق عليه ، ويوسع إلى كل العالم الصعيد الشعري وبذلك بنى عالماً روحياً جديداً . لقد كان أسلافه يمارسون نظاماً شعرياً شكلياً كانت فيه الأجناس منفصلة بشدة . إن شاعراً مجهولاً من آخر القرن الثالث عشر كتب على هذا النحو نظاماً شعرياً يسمى (البحر العاشق) ولم يكن إلا تعداداً لموضوعات وصور خاصة بالشعر الغنائي . وكذلك الشعراء السياسيون التزموا بالجدل أو المديح . أما دانتي ، فعلى العكس ، لم يقبل بأن يكون الأدب خاضعاً لتقاليد أو شروط : إن معلمه الوحيد هو الواقع . ومنذ البدء ظهر أنه يهتم بحقيقة العاطفة ، وعرف نفسه في الأغنية الرابعة والعشرين للمطهر كالشاعر الذي « عندما ينفخ الحب فيه ، يقيد (يلاحظ) وينطلق كما هو معبراً عما أملى عليه الحب » . وهنا العذوبة الجديدة ولكنه بهذا يغير العاطفة لدرجة يفجر فيها المفهوم التقليدي لـ (الجنس) . وبهذا قام بأكثر من تجديد تقني ، أي بثورة روحية حقيقية .

وفي القصائد الأولى من (الحياة الجديدة) التي كتبها تحت تأثير أستاذه غيدو كافالكانتي ، قدم دانتي الحب كقوة غامضة ، حتمية للحرية البشرية والمشاركة الوحيدة فيها تساعد على إدراك السعادة . إن رؤية بياتريس تحركه ، تهيجته حتى أنها تغرقه في نوع من الرعب . وسلام ، تحية تكفي لنشوته . وإذا لم تحي تسقطه

في وهدة الألم . وقوة هذا السحر يلخصها على هذا النحو : « وجهت خطاي في هذا الجزء من الحياة التي فيما وراءها لا يمكن التقدم بنية العودة » .

ثم ، في وسط (الحياة الجديدة) حدث انقطاع ؛ إن جوهر الحب لا يمكن في المشاركة ، ولكن في كل ما يخص بصورة أساسية من يحب ، ولا يمكن أن ينتزع منه ، الحماسة . وهكذا فإن شعر المديح والتجيد ، يحل محل شعر الرثاء . وإن كل ما يأتي من الحب ، ولو كان الألم ، له قيمته لأنه حركة الروح . ولكن ليس هذا ببساطة مديحاً يقدم للواقع ، لأن الحب بكامله يتجه نحو المثل الأعلى ، وحركة الروح الخالصة هذه هي فضيلة وتساعد على التقدم المعنوي ؛ والحب أيضاً سعادة : واقع طبيعي ، معنوي ، روحي . وهذا هو موضوع (الكوميديا الإلهية) التي يرتفع فيها الشعر الغنائي إلى الشعر دوغماً زيادة .

وإن عملاً عظيماً كهذا غير مهياً لتفسير مختصر ، ولكن يحسن بخاصة الإمساك منه بتوسيع عجيب للمضمار الشعري . ولا شيء غريب على دانتي ، ففي الكوميديا يجانب الفقراء كبار الأمراء . وعذوبة نهر الجنة تجد فيها مكانها ، كل شيء كرائحة البراز البشري . أراد دانتي كل الواقع ، ولكن لأن كل شيء إشارة على الله . الجمال ، والقبح ، الخير والشر تتبع نظاماً وحيداً ، الاختلاف معروفاً واقع العالم . لقد غنى دانتي الكون ، وغنى في الوقت نفسه عقلانيته : وبهذا التداخل ، هذا التوازن ، يقترب في الأعماق من المهندسين المعماريين أو نحّاتي العصر الغوطي . ولهذا أمكن أن يكتب بأن الكاتدرائية الحقيقية الإيطالية هي (الكوميديا الإلهية) . إن وحدة المكان ، تحت شعار العقل الإلهي ، توجد في حالة تعاظم (تراكب) كلي للأزمنة تحت شعار (السلام) . إن سقوط طروادة يصور مسبقاً ، قبل التجسيد بزمان طويل ، العذاب الضروري للمسيح . والعودة السرية للسعادة التي تتبع الفداء على يد الخالص ، والفخاخ التي نصبها الجشع تخبر

بمجيء المنقذ الذي تبقى ملاحمه غير واضحة ، ولكن دانتي ينادي بها من كل روحه .

وهكذا تعكس الطبيعة الكمال الإلهي ، ولكن التاريخ كما هو صنع من خطيئة الإنسان . وعبر الحب ، دانتي ، إينه الجديد ، القديس بول الجديد يجهد نحو أراضى المثل الأعلى ، فهو يختصر على هذا النحو في نفسه ما اعتبره تطلعات القرن الثالث عشر ما هو أعلى وما هو أحدث .

الفصل السابع

الفن القوطي^(١)

فن حديث

إذا كان القرن الثاني عشر يسجل ظفر الأسلوب الرُّوماني ، فإن القرن الثالث عشر قرن الفن الغوطي الفائق . ومع ذلك فن غير الممكن القول بأن الأسلوبين تعاقبا ، وأقل من ذلك أيضاً أن أحدهما نتج عن الآخر . وفي الواقع ، في إيطاليا ، وإسبانيا ، وألمانيا ، وحتى قبل ذلك بكثير في العصر الوسيط ، استمر بناء العائير والصروح (الرومانية) ، إلا أن الفن الغوطي ، بخاصة ، أخذ ينهض في منطقة لم تُطبع بالطابع الروماني : فبينما الكتلة المركزية ، وبورغونيا ، وجنوب فرنسا كانت في القرن الحادي عشر والثاني عشر مقرأً لمدارس مجددة بجرأة وشجاعة ، تأخرت جزيرة - فرنسا في الفن القديم . ولذا أمكن كتابة : « إن فنها الروماني كان الفن الغوطي » . فن اليوم الذي اخترع فيه (العقد) من قبل بناء نورماندين ببساطة لتقوية القبة ، ونصادف من قبل في هذه الرائعة من الفن الروماني التي هي كنيسة فيزلي اعتبره المعمارون الفرنسيون العنصر القطعي ، مبدأ البناء ، ولد الفن الغوطي . وانتشر العقد بكل سهولة في جزيرة - فرنسا ، فضلاً عن أن الطرق التي أعدها المهندسون المعمارون الرومان كانت فيها قليلة الاستعمال . ولكنه بعد ذلك ما لبث أن اجتاحت الصعيد الروماني نفسه : دخل فيه أجنبياً ، ولكن منطقته كان قوياً ، ويطابق في هذه النقطة متطلبات المهندسين

(١) الفن القوطي أو الغوطي بالاصطلاح الحديث .

المعماريين العقلانية ، حتى أنه تفوق بسرعة ، وهذا النزاع ، الذي انتهى بنصر تام للأسلوب الغوطي في جزء عظيم من الغرب ، احتل النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، وعندما بدأ القرن الثالث عشر ، كان قد بلغ بالضبط مرحلته الكلاسيكية (الاتباعية) .

وفي الحقيقة ، لا خلاف في أن الفن الروماني بلغ نضجه قبل الفن الغوطي بأكثر من قرن ، ولكن تطور الاقتصاد والتقنيات والفكر في هذه الفترة أثرت بشكل قاطع في المفاهيم الفنية . فالأزمة أصبحت أكثر ليناً ، والأخلاق أقل قساوة ، وازداد الأمن ، وجعل تقدم الزراعة المجاعات أقل تهديداً . كل ذلك أعطى لإنسان القرن الثالث عشر رؤية للحياة أكثر هدوءاً من رؤية سابقيه .

ولكن هذا التدرج في الزمن يدل أيضاً وبصورة خاصة على ارتقاء مكان جديد . فبين نهري الموز واللوار ، في هذه المنطقة التي تجتازها الطرق القابلة للملاحة ، والغنية بالغابات ، والسهول الخصبة ، ومراعي الأغنام ، نمت منذ القرن العاشر حضارة جديدة مدنية (عمرانية) . وهنا ، أكثر من الجنوب بكثير ، أدى سقوط الإمبراطورية الرومانية في السابق إلى تقلص المدن وبخاصة تراجع الزراعة والتقنيات . بيد أن نهوض التجارة والصناعة جذبا من جديد جماهير خارجة عن الإطار الضيق للمدينة القديمة إلى مدن جديدة . أما المستحدثون والتجار فيختلفون بصورة عظيمة عن الإقطاعيين بنمط حياتهم وأيضاً باهتماماتهم . أرباح التجارة التي تنافس أرباح الأرض ، ومنذ ذلك الحين شجع الأمراء مركزية التجار ، وذهبوا حين سئوا من إقاماتهم الريفية . والأكليركيون أنفسهم جذبوا لنوع الحياة المدنية ، وتأثروا بالعقلية البورجوازية المعاكسة كثيراً مع ذلك للمواقع التقليدية للكنيسة . ففي مدن الشمال الشرقي من فرنسا ، التي جذبت إليها كل الطاقات ، طاقات العلمانيين والأكليروس ، ولد الفن الغوطي ونما . وتجاه الفن الروماني الذي هو بالأساس ريفي وجنوبي ، ظهر كإبداع للمدن وللشمال .

وهناك أكثر من صفة تتضح بهذه الملحمة : فبادئ ذي بدء الكاتدرائية الغوطية تبدو ، أكثر بكثير من بناء روماني ، مطبوعة بالفكر العقلاني . إن الإشراف في التفصيل سلم هذا الفكر ، وعلى الأقل في البداية ، إلى التلاحم ، والضبط ، ومنطق المجموع لأجزاء واتفاقها مع بعض . وبين مختلف العائثر تكون الوحدة أعظم بكثير مما في العصر الروماني . وهذا يدل على ظفر الفكر الموحد على تنوع الأمزجة . وهنا نجد الخاص في الأفراد النشيطين المتجهين إلى الخارج والمالئين أكثر للحساب ، وإن مشهد العالم الذي يعيشون فيه يدعو إلى التفكير أكثر من الحلم ؛ لأن خيالهم أقل إغراء للهروب من الواقع ، وخلق عالمه الخاص ، ولأن العالم الخارجي قد أنتظم ، وتأكد في مؤسسات منطقية نظامية ، فهو يؤمن بذاته وبإنجازاته . وظلت الكنيسة بحق تدبر وتوجه الأبنية ، ولكن الكهنة ، من المسؤولين غالباً عن مشاغل الكاتدرائيات ، كانوا مطبوعين بعمق بالروح البورجوازية ويسهمون بالوطنية المحلية ، وفوق ذلك ، كانوا بحاجة إلى كرم رجال التجارة الذين يريدون أن يجنوا من استثماراتهم ربحاً ، معنوياً فقط وصالحاً لإرضاء جهم الذاتي وحده . والرؤية التي تركها لنا ميشلية عن شعب مأخوذ بالإيمان يشارك مجاناً في بناء بيت الله لا تقاوم فحص الوقائع والأحداث ؛ والبنية الذين يبنون مجاناً لوجه الله يظلون استثناءً . وفي الواقع كان يجب اللجوء إلى عمال مأجورين . فالكاهن أو البورجوازي الذي يمول يأمل بأن تخوله هباته الوجاهة والنفوذ . ولا يمكن ، في الجو الجديد الأخلاقي (المعنوي) الذي يسود في المدن ، أن يطلب إليهم التواضع أكثر من رهبان كلوني الذين لم يستطع القديس برنارد لجم الذوق الذي لاحد له . ولذا فإن بناء مختلف الكاتدرائيات كانوا يتنافسون فيما بينهم . وكل قومون تريد أن تبني أعظم من منافستها . وبممارسة موهبة فنية سيدة نفسها أكثر فأكثر ، هذا ما يوضح الارتفاع المتزايد للقبب كلما تقدمنا في القرن . فقباب نوتردام باريس ترتفع إلى ٣٥ متراً ؛ وفي شارتر التي

كرست كاتدرائيتها في ١١٩٤ م ، تبلغ ٣٦,٥٥ متر . وفي ١٢١١ م ، حققت قباب
 رنس رقماً جديداً بـ ٣٨ متراً ، ولكن ضربتها أميان في ١٢٢٠ م ،
 بـ ٤٢,٣٠ متراً . وفي بوفيه عمل ما هو أعلى فأدى إلى انهيار الخورس . إن الأبعاد
 الواسعة للكاتدرائيات ، وهذه صفة أخرى للكاتدرائيات الغوطية ، إذا قارناها مع
 معظم العمار الرومانية ، تتضح أيضاً بوصفها في قلب المدن الكبرى . وباعتبارها
 مخصصة لتكون مركز الحياة الروحية المحلية ، كان يجب في أيام الأعياد الكبرى ،
 أن تقدر على استقبال مجموع السكان ، فضلاً عن أن المقدس والديني لم يكونا
 منفصلين بشكل واضح ، وإن الكاتدرائية تفيد أيضاً نوعاً ما بيتاً للشعب .
 وأخيراً ، في هذه المناطق الشمالية ، كان من المهم أن تضاء الكنائس إلى الحد الأقصى :
 فارتفاع القبة ، والنوافذ العديدة أكثر فأكثر ، والعالية أكثر فأكثر ، واللجوء إلى
 الزجاج تستجيب أولاً إلى الإرادة في تدبر وصول النور بسهولة ويسر .

ولم ننظر حتى الآن إلى الفن الغوطي إلا تحت مظهره الهندسي المعماري ،
 وذلك لأن هذا المظهر أساسي ، ولأن كل الأشكال الأخرى تتعين بالهندسة
 المعمارية وملحقة بها . فالمنحوتات تدخل في الأبدية أو على الأقل يجب أن تتلاءم
 معها . والزجاج ، هذا (الرسم) للفن الغوطي يأخذ بشكل طبيعي مكانه في
 المجموع الذي يحتويه . وبالإجمال ، إن المهندس المعماري هو الذي يبدع فكرة
 الأسلوب ، وحتى من أجل الأشكال الصغرى . « إن إطار المنمنمات في القرن
 الثالث عشر هو إطار هندسي معماري » ، كما لاحظ هنري فوسيون . ويريد أن
 نلاحظ « الأثاث أبدية ، والأشكال المرتبة من أجل توازن صحيح للكتل المبنية
 تنعكس بصفة تزيين في زخرفة الخشب . وعلى هذا النحو ، حتى ولو كانت
 صغيرة ، تذكر بعظمتها الأصلية ، وتظهر في دقة الأعمال الثينة ، ذكرى الكتل
 الجسيمة التي من أجلها فهمت في البدء » وليس بغير سبب تبنيت الكاتدرائية كرمز
 للعصر الغوطي حتى عندما يكون القصد أعمالاً فلسفية أو أدبية .

الكاتدرائية الغوطية

لا توجد هندسة معمارية غوطية مثالية تترتب جميع عناصرها في نظام ثابت لا يتغير ، عضوي تماماً ، خارجاً تَوّاً من رأس مهندس معمار متفوق : لقد تكون الفن الغوطي خلال قرن من التاريخ كانت فيه التجارب الأولى مندفعة بالتدريج حتى أقصى نتائجهما ، وإذا تابع الفن الغوطي تطوراً ، كما رأينا ، فهو لا يؤلف نهاية أو خاتمة . لقد نشأ منذ أن أصبح تصالب العقود القطعة الأساسية في توازن القباب . ومع ذلك فمن الواضح أن النظام الجديد ، في البدء ، قد وجد مع العناصر التي كانت سابقة عليه . ولا يمكنه أن يهدم في يوم الترتيب العام الذي اخترعه المهندسون الرؤمان . إذن يوجد عصر أول للفن الغوطي هو بالذات ، ولكن نسبياً ؛ ثم العصر الكلاسيكي ، للغوطي المطلق . ولكن هنا أيضاً يجب الاحتراس . فإذا سجلت بداية القرن الثالث عشر بعض الاستقرار ، فإن الحركة لم تتوقف ، فكل فن حيّ في صيرورة دائمة . ومن جهة أخرى ، وحتى في العصر الكلاسيكي لا يوجد كاتدرائية نموذجية ، تلك التي رسمها فيوليه - لو - دوك - مهما تكن قيمتها التربوية - تبقى نظرة فكرية . ومع ذلك ، فكلماً فرضت الحلول الجديدة نفسها ، فإن الأسلوب الجديد كان ينتشر خارج صعيده الأصلي ، نحو جنوب فرنسا ، في إسبانيا ، في إيطاليا ، في إنكلترا . وكان عليه أن يأخذ بعين الاعتبار الظروف المحلية والمادية أو الجمالية . وهكذا نشأت أشكال أصيلة للفن الغوطي .

إن الزمن ، والناس ، والجغرافيا نوعت البناء الغوطي . ولكنه في الوقت نفسه ، وإن لم يبلغ الوحدة ، كان ينزع أو يتجه نحوها .

إن البناء الذين استخدموا العقود الأولى كانوا مجهولين في عزّ العصر الروماني .. إلا أنه على الأقل وجد (مخترع للفن الغوطي) وهو سوجر ، مستشار

لويس السابع ، فن طريقة استحداثية أوجد مبدأ فن جديد للبناء . ويجهل اسم المهندس المعماري الذي دشن في خورس كنيسة سان - دوني هذه اللغة الثورية ، ولكن ، على أي حال ، لم يكن إلا ذراعاً مساعداً ، فما هي الدوافع المحركة للأب سوجر ؟

لقد كان يرغب أن يمجّد لقبه الذي لم يرثه من أحد ، وأن يعطي بريقاً خاصاً للبيت الملكي ، وأراد أن يكون خورس الدير الذي خدم منذ زمن طويل ضريحاً لملوك فرنسا ، من أوسع مآراته عين . وأراد أيضاً أن يكون مضيئاً . وعليه يجب عمل فتحات بعدد كبير جداً . ولكن كيف تثقب الجدران دون أن تحدث الضرر بمتانة العمارة ؟ إن التقنيات الرومانية لا تقدم حلاً . ففي الفن الروماني يحصل توازن القبة بالقوس المضاعف الذي يقوي السقف (الطاق) أي السقف الممتد بالقوس الرافد الذي يمتن الطاق بعضادة الدعم ، بسماكة الدعائم والجدران ؛ وقبة الروافد المشكلة بتداخل طاقين متقاطعين بزواوية قائمة ، قد ساعد حقاً على رقة الجدران وفتح نوافذ ، لأن الدفعات ، عوضاً عن أن تكون مستمرة كما في سقف قبوي بسيط ، تكون متوضعة على حوامل إسناد ، موضوعة في النقاط التي تنتهي إليها الروافد ، وفي فرجة الحوامل يمكن عمل فتحات . ولكن سوجر أراد أن يذهب إلى أبعد في هذا الطريق ، وهنا أدرك كل الفائدة التي يمكن الحصول عليها من قبة العقود ، والعقد هو عصب مستعرض ناتئ يعتمد عليه السقف القبوي . وقد ظن بعضهم أنه لا يؤلف إلا زينة وليس له إلا قيمة شكلية . وفي الواقع ، بدل بنية البناء ، لأن هذه الأعصاب الناتئة ، المتشابكة ، تؤلف طرفاً مستقلاً عن السقف القبوي . إن الدفعات التي يمارسها وزن السقف القبوي تتقنّى نحو أربع دعائم زاوية تزيل تماماً عبء الجدران . وهذه الجدران ليست ضرورية لتوازن البناء ، إذ من الممكن ، منذ الآن ، ودون محذور ، ثقب عدة فتحات . وأقواس العقود المتصالبة تشكل هيكلًا بنائياً حقيقياً من الحجر . وهو

الذي سيساعد سوجر على توسيع فكرته بحرية . والخورس الواسع محاط بمصليات مشعة غير محاطة بجدران وإنما بأعمدة . وبفضل عقد قبة ملحقة ، أمكن فتح نافذتين في كل مصلى من المصليات . وهكذا يستطيع النور أن ينفذ بسعة في بناء يمكن أن يستقبل عدة مؤمنين . لقد وضع سقف سوجر القبي لخدمة غرض معنوي ، وهو اعتزازه بفتوحات العقل ، ولذلك أراد أن يخرج الإنسان من الظلمات . والإله لا يقيم من أجله في هذا السر المعتم الذي لا يكف عن العتمة التي يوحى بها عمق وظلمة المعابد الرومانية . وليس القصد إغراق الأفكار في الرعب ولا إخضاعها « وإنما تنويرها والوصول بها من أنوار الطبيعة إلى النور الحقيقي الذي يكون المسيح بابه الحقيقي » . هذه هي عبارات سوجر الخاصة .

وما دام القوس العقدي يتكيف مع عوائر تظل بنيتها ومفهومها العامان غير متغيرين ، فالفن الغوطي لم ينشأ . إن كل فن جديد هو قبل كل شيء فكرة ، حتى ولو تطلب تعبيرها تقنية . وهذا ما جعل لقاء سوجر وهؤلاء النورمانديين أو الإنكليز المجهولين عجيبياً . إن عصوراً أخرى تجدد التقنية يمكن أن تعجب من أسلوب (عمائري) جديد يرجع إلى أكليركي ، إلى رجل سياسي لم يكن نفسه مهندساً معمارياً . ولكنه لا يكون العبقرية الوحيدة للفن التي لا تدخل نفسها أي تجديد تقني . ومن جهة أخرى ، إن الظروف التي تهيأ فيها فن العصر الوسيط تختلف عن التي نعرفها منذ عصر النهضة ؛ إن الكنيسة ، في العصر الوسيط التي تعين البرنامج ، تحدد محتوى الأعمال الفنية . ورجال الفن ليسوا إلا منفذين . وحتى نقطة ما لا يفصل أي فارق أساسي العامل اليدوي الذي ينقل الأحجار بالعجلة ، من النحات الذي يقطعها أو المهندس الذي يقيها . المسؤول الحقيقي هو : (صاحب العمل) ، وصاحب العمل هو في الغالب رجل كنيسة . فقد تتقف على أنظمة متينة وصلبة ، ويتحدث مع المهندس المعماري بالخطط العقلانية والقياسية والمستوحاة من طرق تسود في السكولاستيكية . فهو ينظر ويراقب

التنفيذ بمراحله المختلفة ، ولا يمكنه حقاً أن يمنع من أن يكون للطريقة التجريبية والمبادهة الفردية ، نصيب واسع جداً في الغالب - وفي هذا المعنى ، يمكن أن ينظر للكاتدرائيات كعمل جماعي - ولكن هذا المفهوم لا ينفي وحدة الدفع والحركة .

وقد أسهم تأثير الدير الملكي أيضاً في إعطاء إعلام لهذا العمل الذي يتكلم بنفسه . وفي النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، كان لسوچر منافسون في كل جزيرة فرنسا ، في نويّون ، وفي لان وباريس . وفي كل هذه الكاتدرائيات ، يتصف الأسلوب الجديد بإضاءة كثيفة ونسب واسعة . والمخططات تختلف ، فتارة يفصل الجناح المصالب في الكنيسة بوضوح ، وتارة بالعكس يكون المنظور واحداً من الرواق أمام جناح الكنيسة إلى الخورس ، كما في كنيسة نوتردام في باريس ، ولكن ، في كل مكان ، تكثر الفتحات ويرتفع السقف القبوي .

هذا الفن الغوطي الأول يبدي وحدة حقيقية تساعد على تمييزه بوضوح من الأعمال اللاحقة : إن الوثبة في البناء التي أصبحت أقوى مما كانت في العصر الروماني ، لم تمنع بعض كثافة المجموع . والأعمدة ، التي تدعم المجاز الجانبي في كنيسة نوتردام بباريس تدعوان الإعجاب قبل كل شيء بقوتها . وهذا الانطباع بالقوة ، وانطلاقاً ، من التقشف الذي تعطيه العائري في هذا العصر ، يرجع إلى أن الارتفاع يصل إلى أربعة طوابق موضوع بعضها فوق بعض ، مستقلة ، من طاقات الطابق الأرضي حتى النوافذ العالية . والطاقت تعلوها منابر (منصات) ، بقايا من الدور الروماني ، تقطع المكان إلى كتل متميزة . والأسلوب ، في نويون بخاصة ، صنع طوعاً أكثر أعصاباً ؛ وفي لان تخف البنية بوضوح ولكن التسلسل الذي يؤلفه تصالب العقود لم يندفع بعد حتى النهاية . وظلت الجدران تلعب دوراً هاماً في بنية العمارة . والوردة التي تنمو على ألواجهة

لا تحدث فيها إلا فرضة (حزة) . والمادة البنائية خفت ولكن فن البناء (العبارة) ظل فن المادة .

إن حريق كاتدرائية شارتر الذي لم يوفر إلا البوابة الملكية ، وتعميرها الذي بوشر به في ١١٩٤ م ساعد على تسجيل مرحلة ثانية للفن الغوطي ، والسهم الذي ينتصب على أفق الخنطة البوسية من (منطقة البوس) هو أفضل رمز لهذا الفن بكامل ارتفاعه ، الذي يضحي توازن مختلف الكتل لوحدة الانطلاق . ومن بعد ، في ١٢١١ و ١٢٢٠ م ، أعطت كاتدرائية رنس وأميان للفن الغوطي رائعتين أخريين : إن النزعات العقلانية التي دل عليها فكر سوجر تجد هنا خاتمتهما (نتيجتهما) ، فالقباب ترتفع ، والمنظور يتركز على تقاطع مصلبة الكنيسة (نقطة تقاطع المصلبة والجناحين) ، والنور يدخل أمواجاً عبر النوافذ العالية . وهذا هو التداخل بين العالم الخارجي والعالم الداخلي ، الذي يعرف ، في كل الحضارات ، العصر الكلاسيكي . لقد تحول الإنسان لدرجة طاقة فكرية محضة حتى قارب أن يمس الله . وأصبح غير منفصل عنه إلا بإنسانيته التي تصنع مجده . الإنسان عاقل ، والله عقل . وقد بدأ الحوار ، والذنب الأصلي وحده يفصلها . والكاتدرائية جهد لإلغاء أو لتحديد نتائجه . والإنسان يطارد في داخله أقل خفية للظل ، بينما الله مجرد من آخر نعوته البربرية . وهذا التميز في فكر سوجر يتضح بصورة طبيعية في كاتدرائيات شارتر ، رنس ، أميان بعبارات بنائية ؛ ويفسر بإدخال مفاهيم جديدة عنصرية في لغة البناء ، تزيد في قوة تأثيرها . وهذه العناصر هي : المخطط الأطول من جهة أكثر من الأخرى ، المقصورة أي القوس الجانبي لمعزبة (مسافة بين عارضتين) الموازي لمحور السقف القبي ، والزافرة . فبفضلها يستطيع منذ الآن ، هيكل البناء ، الذي ظل اتساعه محدوداً ، أن يتسع ، ويرتفع ، ويقوى .

والقباب القائمة على تقاطع العقود للأبنية الغوطية الأولى كانت سداسية ذات

ست قبيبات ، أي أن التقاطع لا يتألف من عقدين وإنما من ثلاثة عقود : اثنان مستعرضان ، والثالث مواز للأقواس الرافدة التي تعزز وتقوي السقف القبي . والعقود الطولانية المستعرضة تتطلب سندا أقوى من العقود العرضانية المعترضة ، ولهذا فإن كلاً من معربات جناح الكنيسة الأوسط تطابق معزبتين من الجناح الجانبي . وهذا هو المخطط المربع . وعليه كان جسم البناء (الصرح) مؤلفاً من عدة كتل متميزة . وعلى العكس منذ الآن فصاعداً ، في المخطط المستطيل (الحُرْد) غير المتساوي في الطول ، أي بعضه أطول من بعض ، يتألف السقف القبي من أربعة أجزاء . وإن التوالي بين السند الضعيف والقوي قد حذف على هذا النحو ، وتطابقت معزبة الأجنحة الجانبية المنخفضة مع معزبة صحن الكنيسة . وبذا تكون بنية الكنيسة قد توحدت ، وقلب الكنيسة أزيل دفعة واحدة .

كما إن اختراع القوس المقوصرة في السنوات الأخيرة من القرن الثاني عشر لم يكن أقل أهمية . وهي قوس موازية لمحور السقف القبي وتندس في الجدار الجانبي . هدفها أن تجعل الجدار غير مفيد لأنه يدعم دفع السقف القبي في مكانه . وعلى هذا فإن تأسيس القوس المقوصرة يساعد على تعديل الجدران بثقبها بفتحات واسعة بحيث لا يبقى بينها إلا رابطة رقيقة . وبفضلها لا تكون المنابر ضرورية لحفظ التوازن . ويمكن للجوانب المنخفضة أن تنتصب بشكل أجنحة جانبية حقيقية . ويتعزز عملها بالزافرة التي يسجل اختراعها بالنسبة لبعضهم النشأة الحقيقية للفن الغوطي ، ووجودها يعرف على كل حال عصرها الكلاسيكي ، والزافرة قوس خارج البناء ، طويل يستند على الدعامة ، وينقل دفع السقف القبي الأوسط إلى الكتف المغروسة بشكل شاقولي في الأرض والتي تفيد أيضاً كدعامة لقلاب الأجنحة الجانبية المنخفضة . ولما كانت ذروتها تصل إلى نقطة الدفع المجتمعة للأقواس الرافدة والعقد ، فإن الدعامة تفيد كنقطة ارتكاز للبناء

بكامله . ومن ثم أصبحت الزافرات ، في سياق القرن الثالث عشر ، ذات منعطفين عندما ازدوجت الأجنحة الجانبية ومهرت بطابقين لتتقبل بشكل أفضل دفع السقف القبي . وهكذا فإن الأقسام المفيدة تكون قد انتقلت إلى خارج البناء ، بينما جُوف الداخل تماماً ؛ وأخذ النور يدخل إليه من النوافذ العليا المقسمة إلى فتحات ، ويغمر توالي الأقواس المنكسرة (المدببة) .

هذه هي اللغة البنائية العامة في سائر الكاتدرائيات الغوطية الكبرى في القرن الثالث عشر ، « إن حالة فكر كلاسيكي في فن البناء هي حالة لغة جميلة ، متى ثبتت لا تكون بحاجة إلى كلمة جديدة » . ولهذا فإن الاختلافات أقل بكثير بين شارتر ورُسْ ، مما بين باريس ولانْ . وبهذا يلاحظ هذا السير نحو الوحدة التي تؤلفها المغامرة الغوطية . ولكن كل واحدة من الكاتدرائيات الثلاث الكبرى تحتفظ بخصيتها . ففي شارتر يؤخذ الإنسان بسعة الجناح العرضاني للكنيسة الذي ينتهي كل ساعد منه بواجهة ملتجئة تحت بوابة ؛ والأجراس ، والسهم والأبراج تجذر البناء أكثر مما في رنس وأميان . ورنس أكثرها أبهة ، ولذا كان من الطبيعي أن يبارك فيها الملوك . والجناح الأوسط (الصحن) أوسع بكثير مما في شارتر ، والواجهة أكثر جلالاً ؛ والكلمة الرئيسية السيدة هنا هي الرشاقة . ولا نجد في أي مكان أن تلاعب ذرى البناء الغوطي في الكنيسة المضاء بدقة ولطافة ورقة ، والجبهات الثلاثية التي تتوج البوابات ، وكثرة الأقواس المدببة المتطاولة إلى أعلى ، تفرض مثل هذا الانطباع في الخفة والانطلاق نحو السماء . ألا ربما كنيسة أميان التي صحنها ، حسب أفاضل المختصين ، أكمل تعبير للنظام الغوطي ، ففيها تتتابع الدعائم ، في موكب جميل ، متزايدة في كل طابق بعميد جديد ليحمل مدماك العقد (رقبة القبة) زيادةً على ذلك .

إن قوة ، وخفة وتجريد هذا الفن الغوطي ستزداد أيضاً في النصف الثاني من القرن الثالث عشر وتولد ما يسمى بـ (الفن المشع) . والمعبر الأساسي عنه هو

بيير مونترو . ومنذ الآن نرى أن فن البناء لا يطبق على الممتلئ وإنما على الفارغ . وقد أمكن تسمية (القابلة المقدسة) التي بنيت في باريس ، بأمر من القديس لويس ، لتحفظ فيها بقايا القديسة - إيبين : (مذخر من حجر وزجاج) ، لما حاول المهندس المعماري الكثير لتحميل الدعائم كتلة المادة بكاملها . وفي سن - دوني ، ونوتردام باريس ، فتح بيير دو مونترو وردات ضخمة أخذت كل الواجهة تقريباً . ولم تعد العمارة أكثر من محصلة قوى تتوازن ويتدافع بعضها على بعض في لعبة مجردة بشكل فاتن . لقد تمّ التطور ، والمرحلة القادمة ستكون بالفعل نفياً لفن البناء ، (الصفحة البيضاء) التي تعهد للتأمل المحض بمهمة استيعاب سعة السماء . ومن المؤكد ، أن بناء كنائس ، وقابلات صغرى ، وكاتدرائيات قد استمر ، ولكن مامن حل جديد بحق أكثر قابلية للفهم مما في داخل النظام الغوطي . إن المهندسين المعماريين ، مثل فيلاردو هونكور ، الذي تعرفنا دفاتره النشاط المبدع لبناء في القرن الثالث عشر ، ما عليهم إلا أن يستلهموا من النماذج الكبرى ، التي مازالت حديثة بعد ، ولا يمكنهم أن يحددوا إلا في التفاصيل . ومع ذلك فإن الانحطاط ما يزال بعيداً . وكذلك العصر الذي سيمتص فيه فن التزيين الأساسي من القوى المبدعة .

وخلال القرن كله ، تغطت فرنسا ومن ثمّ البلاد المتاخمة بعماير تدل على قوة وإشعاع الفن الغوطي الفرنسي . ولكن لم يكن القصد ، على العموم ، تقليداً حرفياً . وإذا لم تمس المبادئ فإن تطبيقاتها كانت في الغالب تأخذ بعين الاعتبار التقاليد المحلية . وهذا يعني دليلاً على نفوذ صحيح وعميق .

وفي المناطق التي تحد جزيرة - فرنسا مباشرة ، كانت التبدلات ، التي أتى بها المهندسون المعماريون المحليون إلى الفن الفرنسي ، ضعيفة . ففي نورمانديا ، في ليزيو ، وفرن ، ترى الجدران أقل فراغاً . وقد حافظت كنيسة روان على نظام المنابر الذي قلده فيه العهد الغوطي الأول الفن الروماني . لأن الفن الغوطي

النورماندي كان أكثر تكتلاً وكشافة من الفن الفرنسي . وفي بورغوندي ، في ديجون ، كان العمل جيداً ، ولكنه لا يدل على تأثير محلي خاص . وفي الألزاس ، تعتبر كاتدرائية ستراسبورغ عظمة باستعمال الحجر الرملي الذي يؤتى به من جبال الفوج . وانتشر الفن الغوطي بصعوبة تقريباً في إيطاليا ، ولم يعط روائع . ويجب أن نذكر أن كاتدرائية أسيز الممتلئة البنية أكثر مما في الفن الفرنسي ، قد أنشئت لاستقبال فرسكات الفنان جيوٲو . وبالمقابل ، كان نجاح الفن الغوطي تاماً في البلاد الإيبيرية . فن كاتالونية إلى جيرونة ، إلى تراغونة ، حتى قشتالة ، إلى طليطلة ، ظهر فن غوطي إسباني بطابع أصيل يرجع في أساسه إلى التأثير العربي وإلى استعمال القوس الحدوية . ولكن البنية تبقى البنية التي حددها المهندسون المعماريون الفرنسيون . لقد فهمت الرسالة وقبلت ، ولكنها كانت تلبس لكل حالة لبوسها حسب موضة البلاد . وهذا يعني أن إشعاع هذا الأسلوب الذي ظل الألمان وحدهم على العموم يناوؤونه خلال القرن الثالث عشر . ومع ذلك فإن إقليمين غوطيين يستحقان ذكراً خاصاً ؛ لأن النموذج فيها قد تكيف بعمق مع التقاليد المحلية وتبدل بها وهما : جنوب فرنسا وإنكلترا .

ففي منطقة تولوز وألي ، كان الفن الغوطي فن الغزاة ومع ذلك فقد تكيف مع الكنائس المبنية بالآجر وبصحن وحيد ، والعديدة جداً في المدن الجديدة التي بنيت فيها آنذاك ، والنموذج هو كنيسة نوتردام تور في تولوز . ولكن النجاح الوضاء لهذا الفن الغوطي الجنوبي هو كاتدرائية القديسة سيسيل في ألي . فالدعائم الضخمة بشكل أبراج ، والصحن الواسع المبني بالآجر الذي لا تؤثر نوافذه العالية على كتلته ، تنقلنا بعيداً جداً عن القابلة المقدسة في باريس .

أما في إنكلترا ، فإن العقد ظل فيها ، زمناً طويلاً ، عنصراً إضافياً وتكملة . ومن ثمّ ، في منتصف القرن ، يرى أن الارتفاع والتجوييف لم يزيلا عن كاتدرائية يورك ، تكتلها ، وسبقى الفن الغوطي البريطاني عملياً دوماً أكثر

بكثير ، بغزارته التزيينية ، ، التي تنفيها الصرامة الفرنسية . ولكن الجزيرة البريطانية أعطت أيضاً فلسفة دونز سكوت الذي عرض فكره دوماً كمضاد للعقلانية التوماسية ... وعبر هذا التنوع ، سادت ، رغم ذلك ، وحدة العالم الغوطي وأفضل رمز لها هو انتشار فن البناء السيسترسي المتقشف ، الهندسي ، المتعلق بالصفاء المجرد للأسلوب العقدي الذي طبع أوربة الغربية ، من بورغونيا حتى باتالها في البرتغال ، بفكر القديس برنارد المتشدد .

التزيين الغوطي

تظهر الكاتدرائية الغوطية برشاقتها وكأنها عمل عقل تماماً . ففيها تعهد غاية التعبير عن علاقات الإنسان والعالم ، والله ومخلوقه ، إلى العدد المحض . ولكن هذه العقلانية ، والمثال السيسترسي مستثنى ، ليس فيها شيء من الشدة ولا من التقشف . ودراسة النحت يجب أن تقنعنا بذلك ، فهي التي أدخلت إلى الكاتدرائية صورة العالم مطبوعة بالإنسانية والجمال والحب الهادئ . إن دمار فن البناء الروماني قد ضرب الضربة القاضية للتزيين المنحوت على التيجان بخاصة ، الذي كان يؤلف جزءاً لا يتجزأ من بنية العمارة . ولكن المفهوم الجديد كان بعيداً عن الضرر بالنحت . فقد رفض أن يثقل نفسه بالزخارف الزائدة الفائضة ، وأعطاه استقلاله الذاتي الكامل . إن ثقل التماثيل لا يتقيد بفن عمارة تتجاوزه . فالتماثيل يشارك ، على وجه التأكيد ، بالانسجام العام . ولكن المبدع في الحركة التي يعطيها له لا يرى فيه إلا هي وحدها . وهو أيضاً ينجو من سيطرة المادة . ومن جهة أخرى ، يرى نحّات الحجر دوره متزايداً . حتى أن كثيراً منهم حرصوا على توريث اسمهم إلى ذريتهم ، واعين بأنهم أبدعوا أثراً أصيلاً بالتمام والكمال .

ومع ذلك فإن الفنان ، قبل أن يستسلم لخياله ، سواء نفذ التزيين الشفاف على الزجاج الملون ، أم تماثيل ، أم منحوتات ، عليه أن يحترم البرنامج الذي

وضعته الكنيسة . وقد قيل أن مسؤولية العمل ترجع بكاملها إلى الكنيسة . وهذا صحيح أيضاً بالنسبة للتزيين الذي تعهد إليه بدور ممتاز ، وهو تعليم شعب المؤمنين ، بصورة مباشرة أكثر مما يسمح به فن البناء . وقد علق سوجر آمالاً كبيرة على القيمة الإقناعية للبنية الأبدية وللنور . ولكن العالم المنحوت ، الذي يقدم شخصيات ويرتبطها في مشاهد ، هو أكثر جلاء . وبصورة مستقلة عن قيمته الجمالية الخاصة التي تشرك المشاهد الحساس بالعالم الفكري والأخلاقي للفنان ، نراه يساعد على تصوير موضوعات ومذاهب ، وإدراك العالم العزيزة على الكنيسة . ولذا فإن أب كنيسة القديس - دوني اعتقد أن من الخير أن يختار بنفسه موضوعات تزيين زجاج كنيسته ، ويفسرها بنقوش تجعلها أكثر قابلية للفهم أيضاً . ولم تحتفظ بتوجيهات غير توجيهاته ، ولكن لا يمكن أن نشك بأن منافسيه ، أو أنداده في لان ، باريس ، شارتر ، قد سلموا ، على سبيل المثال ، إلى الفنان (كتيبات) حقيقية . إن الدراسة الدقيقة التي قام بها إميل مال تبرهن في الواقع ، على أن المشاهد المنحوتة على كُنُات الكاتدرائيات ، هي في الغالب انعكاس لأعمال أدبية ، من آخر العصر القديم أو من بداية العصر الوسيط ، كان يمارسها الدكاترة ، ولكن نحاتي الحجر ما كان بإمكانهم أن يعرفوها .

وحسب التعبير المألوف ، إن الكنيسة فهمت الكاتدرائية كتاباً من حجر ، وترجمة تشكيلية لكتب اللاهوت وعلاقته بالفلسفة ومرايا ، وصور العالم التي تميز الحياة الفكرية في القرن الثالث عشر . والأقسام الأربعة لـ « المرأة الكبرى » لمؤلفها فنسان دو بوفيه ، أكبر فقيه في العصر الغوطي : امرأة الطبيعة ، امرأة العلم ، امرأة الأخلاق ، امرأة التاريخ قد صورت دورياً وصنعت من الكاتدرائية مختصر الكون . ففي (امرأة الطبيعة) تنعكس حقائق العالم في النظام الذي خلقها الله به ؛ فتارة تمثل فيه الطبيعة لنفسها ، وتارة ، بالعكس ، يمثل العالم المادي صورة العالم المعنوي (الأخلاقي) . وهكذا فإن الحيوانات الأربعة ، التي

تخطيط بالمسيح في المداليات ، تصور الإنجيليين الأربعة ، وأيضاً الأعمار الأربعة لحياة (المخلص) ، وأيضاً الفضائل الأربع التي تؤمن السلامة . ومرة العلم تقص كيف ينهض الإنسان من السقوط بالأعمال اليدوية وبالعامل الفكري ، فالفلاحون في الحقول ، ورموز الفنون السبعة الحرة ، كل واحد مع خاصته ، إنما هي تمثيل مصور لهم ولها . والمرأة الأخلاقية تصور لنا الفضائل المنتصرة والواقعة من نفسها ولا أكثر ، وليست ، كما في العصر الروماني ، مضطهدة بالردائل التي لا تنتصر عليها إلا بشق الأنفس . وأخيراً المرأة التاريخية ، وتدل على استمرار الأزمنة منذ العهد القديم الذي هو صورة مسبقة للعهد الجديد ، حسب المفهوم الرمزي الذي كان موضع شرف في القرن الثالث عشر حتى يوم الحساب (اليوم الآخر) مروراً بالأنجيل الحقيقية أو المزيفة ، وحياة القديسين . وفي الحقيقة إن بعض هذه الموضوعات قد أتت من أعلى العصر الوسيط ، ولكن القرن الثالث عشر جمعها في هذه المجموعة المتجانسة . ومن جهة أخرى ، أصر على بعض المشاهد : كالتبشير الرمزي بالإنجيل في مشاهد العهد القديم (مثل يونس الخارج من فم الحوت يصور لنا مسبقاً بعث المسيح) يفسر مفهوماً عقلانياً للتاريخ العام ؛ والدور الكبير المسند للعدراء يدل على تطور العاطفة الدينية التي تخصص للحساسية الحنون مكاناً أوسع مما للإرهاب . وبصورة عامة ، إن العالم مقبول كما هو ، وحاشا الهرب منه . لأن القصد منذ الآن هو فهمه أيضاً ، في تفاصيله كما في وحدته ، وإعطاء صورة سامية عنه . وفي شارتر يلاحظ هذا الطابع الإنسيكلوبيدي بشكل أفضل مما في غيرها ، لأن الكاتدرائيات الأخرى ، على ما يبدو ، متعلقة بصعيد تفضله على الصعد الأخرى . فأميان أوجدت مكاناً خاصاً للأنبياء ؛ وفي باريس أربعة أبواب على ستة مخصصة للعدراء ؛ ولأن تشرف بخاصة العلم ؛ ورنس تقص تاريخ ملوك فرنسا . ولكن هذا الدليل الإضافي للأصالة يجب ألا يخفي الوحدة العميقة في التعليم .

إن القيمة الموجبة للعبارة أو القدوة ، في فن الأيقونات ، يمكن أن تكون مع ذلك شيئاً قليلاً إذا كانت الحقائق الأخلاقية التي ينوي الدلالة عليها لا يشعر بها من الأعماق الفنانون الذين عبروا عنها بعبارات الجمال . وفي الحقيقة يحسن أن نأخذ لمحة عامة عن موضوعات النحت الغوطي كما لو لا يمكن الكلام عن أوبرا دون أن نختصر الدليل عليها . ولكن العمل الدرامي يوجد في الشكل نفسه ، وليس من الضروري المشاركة بأديولوجية العصر الوسيط لنهر بالجمال البشري بعمق في صور رُسُ .

وفي الواقع إن البشرية ، هي أول ميزة للنحت الغوطي ؛ فالتمثال فيه لا يلتحم بالكتلة البنائية ، لأن الفنان يستطيع بحرية أن يمنح الحياة لشخصياته أو يحني أوضاعهم حسب العاطفة التي يريد أن يعبر عنها . إن رأس العذراء في باب كاتدرائية رُسُ منحني بعذوبة ، بينما الملاك ، الذي يقف على يمين القديس نكيز ، يرفع رأسه بهيئة نصر . وإن سكوت الإله الجميل في أيمان ليس فيه شيء من الجحود . إنه يدل على الخشوع الذي يفرض على عتبة السر . وإن تحرير فن التمثال قد ساعد الحياة على الانزلاق حتى في اللباس الذي توحى طياته بالشكل الحي ، على حين أنها في الفن الروماني لم تكن إلا نمواً زائداً عن العمود . وإن الموضوعات التي فرضتها الكنيسة تساعد الفنان في التعبير عن اعترافه الخاص بكل الجمال المقدم للإنسان ، والأكثر ألفة منها ليست بالنسبة له أقل إعزازاً : كالفلاحين وهم في العمل في سهل البوس أو في كروم الشامبانيا ، والحيوانات الداجنة ، والنباتات التي يكتشفها في الربيع بإعجاب متجدد كل الأعوام . هذا الاكتشاف الجديد للقيم الإنسانية يتماشى مع مهارة متزايدة ليجد فيها التعبير المناسب ، والفنان لا يتردد في تبديل النسب الحقيقية للجسم البشري ليعطي بشكل أفضل وهم الطبيعي . وهذا وجد فنان العصر الغوطي من جديد درس الفن الإغريقي الذي حتى ذرة المعابد لتظهر مستقيمة ، فهو لا يقلد الطبيعة فحسب ، بل يجعل

منها مثلاً أعلى يجب أن ينتصر على الواقع نفسه . وهنا تكون الصفة الثانية للفن الغوطي ، فحسّه بالإنسان لا ينفصل عن حسه بالمثل الأعلى . فالناس ، والقديسون ، والمسيحيون وعذارى الكاتدرائيات قريبون منا ، ولكنها في الوقت نفسه تكشف عن عالم أعلى كل شيء فيه نظام وجمال . إنه النظام الذي أبدعه المسيح الذي هو معاً آدم جديد وابن (ثاني شخص في الثالوث الأقدس) متجسد في السيد المسيح . وهذا العالم الأخلاقي (المعنوي) للعصر الوسيط ، هو عقلائي ، أقل كلاً ولا شك ، وأقل قدرة من العصر الإغريقي ، ولكنه أقرب منه إلى المصادر الحية للحساسية . يقول مالرو : لقد أعطت المسيحية نظراً للتماثيل : فعبّر الفرح الشديد للقديس - ميشيل في بروج ، تخترق ابتسامة ملاك زُنسُ الغامضة عالماً مستسلماً تماماً تحت قانون حب الله الذي يفتن القديس تيودور شارتر ، ويغمر إله آميان الجليل بطيبة عظيمة .

وكما في البناء ، في جزيرة - فرنسا ، وفي الشامبانيا ، ونحو منتصف القرن الثالث عشر ، بلغ فن النحاتين كاله . ومن ثمّ ، ومع احترام أسلوب الأسلاف ، أغرى الفنانون نوعاً ما ، بدقة ورقة الشكل ، وإعطاء شخصياتهم حياة أكثر مع المخاطرة بانتزاع جلالتهم منهم . وإن تأثر الفنانون الصغرى ، وبخاصة فن العاجيات الباريسية ، لم يكن غريباً عن الرغبة المتزايدة في صنع (الجميل) . وفي الوقت نفسه إن نموفن صور الأشخاص على الأضرحة سيوجه فن النحت نحو بحوث نفسية كان يجهلها في العصر الكلاسيكي . وإن تأثر النحاتين الفرنسيين تجاوز عن سعة الدومين الملكي ، ولكنهم اصطدموا بمقاومات غلية أكثر من المهندسين المعاريين . إن حواريّ ريو ، في متحف تولوز ، الأقوياء والباروكيين قلما ينظر إليهم بالنسبة للعدوبة الشامبانية . وفي إسبانيا ، في آفلا وكومبوستيل انمحي الفكر الفرنسي أمام الشدة الدرامية : فحوارو كومبوستيل مازالوا رومانين ، ولكنهم من جهة أخرى وهاجون أي من طراز الأسلوب

الوهاج . وفي ألمانيا ، لم يكن فن النحت الفرنسي مجهولاً . إن فنان بامبرغ كان يعرف صور رنس ، ولكن آدمه وحوّاه متكتلان متصلبان بجلال ، بينما الإمبراطور الجرمانى هنري الثاني (٩٧٨ - نحو ١٠٣٩ م) وزوجته كوينغوند دولوكسمبورغ (القديسة) يضربان الحس خاصة بقوة التعبير وظاهر الحقيقة النفسية . وعدا فروق المشغل ألا يمكن أن يرى هنا فصل بين الأسطورة التوراتية والتاريخ القومي الذي كان مجهولاً في الفكر الفرنسي الذي كان أكثر عقلانية وأكثر عالمية ؟

وإيطاليا ، أخيراً ، نجت تماماً أو تقريباً من السيطرة الغوطية ، واتجهت بصورة طبيعية نحو العصر الروماني القديم والوجيه . وألهمت المنحوتات القسطنطينية النحات العظيم نيقولا بيزانو . وعليه فإن النحت الغوطي في آخر الأمر فرنسي بخاصة أكثر من فن العمارة . ولم تتم الوحدة إلا في القرن الرابع عشر . ولم يكن عندئذ النحاتون ، وإنما في الحقيقة فنانون العاجيات الذين ضبطوا الموضة .

ولا يمكن الوقوف اليوم على كل ثروة التزيين الغوطي : فالمذابح المغطاة بالذهب ، والكؤوس المقدسة ، والكنوز اختفت من الكاتدرائيات . وكذلك التلبس بالحجر والستائر المختلفة الألوان . ودهنت الجدران بالأبيض ، وفقدت التماثيل لونها . ومع ذلك بقي من الزجاج الملون شيء كثير . وقد رأينا أي مكان يحتل في فكر سوجر بما عهد إليه بادئ بدء برسالة التعليم . وشبكة الرصاص ، التي تحفظ الصور الملونة المنزلة في الزجاج ، ترسمها بقوة ، وتسهل قراءة وفهم المشاهد الممثلة فيها . ومن الموضة اليوم الكلام بتنازل عن هذا الشعب الساذج الذي ينهل من التماثيل الصغيرة الأساسي من غذائه الروحي . ومع ذلك ، وأكثر أيضاً من تماثيل الكنائس ، لقد سحرت الشبايك الزجاجية الملونة العقول .

وفي المقام الثاني ، تحلل ألوان الزجاج النور الذي يدخل الكاتدرائية عبر الفتحات الواسعة ويقتلع الحواس من ظلام الدنيا . وبعد أن علمها الزجاج كلف بتمجيد روح المؤمن ، ونقلها إلى مناطق مجهولة حيث تعتلي العذراء وابنها العرش .

وفي كل المناطق التي ظفر فيها الفن الغوطي على الطريقة الفرنسية ، حلّ الزجاج في الغالب جداً محلّ الفرسكة التي جعلتها الجدران المفرغة مستحيلة .

ومع ذلك بقي فن التصوير (الرسم) الأبدى تحت شكله الزخرفي ليثبت خطوط وأحجام فن العمارة ، وتحت شكله التزييني لتزيين السقوف كما في كنيسة بوتي - كوفيللي ، بالقرب من روان . وظهر فن التصوير بخاصة على صفحات المخطوطات ؛ لأن الفكر الغوطي نفذ أيضاً إلى فن (التزيين) أي التزيين بالألوان . ففي اختيار الألوان الحارة والمعروفة عن سعة في التركيب الذي يتبنى في الغالب ترتيب الشبابيك الزجاجية (كما في مجموعة المزامير لبلانش قشتالة) تأثر الكتاب بنفوذ الشباك الزجاجي وبفن البناء . وأجل الأعمال (مجموعة المزامير للقديس لويس ، والكتاب الذي يحوي أناجيل جميع قداست السنة للكنيسة المقدسة في باريس) تدل على التفوق المدوي لمدرسة باريس .

إن عرض الفن الغوطي يكون ناقصاً إذا لم تذكر الحركة الموسيقية الهامة الناجمة ، هي أيضاً ، من هذه البؤرة العجيبة التي كانت جزيرة - فرنسا في القرن الثالث عشر . فقد ثبت الترتيل الغريغوري منذ القرن التاسع ، واقتصرت مدارس مجالس الكهنة القانونيين على الحفاظ عليه بكل دقة وعناية . ولكن نشأت في باريس مدرسة ردت الترتيل الغريغوري إلى دور الدعم ، وانطلاقاً من الترتيل الليتورجي (الطقسي) نمت بحرية موسيقى متعددة الأصوات متطابقة . وكان أشهر الأساتذة ، في هذه المدرسة ، ليونين وبخاصة بيروتين الذي قاد في آخر

العصر كورس نوتردام . وتمجيداته الطبيعية للرب ، ومجموع أناشيد القديس : فيدرونت ، وسيدرونت تدعم بقوة المقارنة مع أجمل أعمال البناء . وكان تأثيرها عظيماً في أوربة كلها .

لقد ولد الفن الغوطي في وسط الدومين الملكي الفرنسي . وفيه تابع أقصى نمو له . ففي خلال خمسين سنة ، وتحت توجيه الكنيسة السامي والنشيط رفع المهندسون المعماريون والنحاتون والموسيقيون أبداً عظيمة تتجلى فيها شدة المحاكاة معدلة دوماً بإنسانية مشربة بالحب . وهذا الفن المتجذر بعمق في التراب الفرنسي ، لم يكن ليقتصد غير الشمول . وأجل أعماله كانت أنقى تعبير لداخليته . وهذا ما يوضح تأثيره وإشعاعه ، ولكن الخارقة لا يمكن أن تدوم إلا خلال مدة . فما من فن تماسك وظل أكثر من بضع عشرات السنين على القمم . ومع ذلك إذا لم يستطع أخلاف كبار الأساتذة التنافس معهم ، فلم ينسوا دروسهم طوال قرن بكامله ، وبخاصة إذا لم يبلغ الفن الغوطي المصدر إلى مختلف الممالك في أوربة الغربية ، في كل مكان ، الصرامة المنطقية نفسها ، الحدة نفسها لعدم اعتبار الجسد ، فقد كان في كل مكان كاشفاً لمختلف الأمزجة الوطنية لأنه أتى بأداة فكرية لا مثيل لها ، وسما إلى أعلى درجات التجريد ، وعاش عليه الأوروبيون حتى آخر القرن الخامس عشر .

بدايات فن التصوير (الرسم) الإيطالي

وبالرغم من ظفر الفن الغوطي ، فقد تهيأت في إيطاليا ثورة جمالية حقيقية . ففي هذه المنطقة المتمردة على فن العبارة الغوطي ، نهض فن التصوير الأبدي ، من فرسكات وفيسفساء ، بتحرره من التقليد البيزنطي . وكان من نتيجة أخذ القسطنطينية من قبل الصليبيين في ١٢٠٤ م ، تدفق جديد للمزخرفين والفيسفسائيين الإغريق على شبه الجزيرة الإيطالية . ففي روما عذراء

(مادونا) القديسة - ماريادو تراستيفيريه ، وفرسكات سن - سيلفستر للمتوجين الأربعة « تكشف دوماً القمع الرتيب للشكل الإغريقي »^(١) . ولكن في النصف الثاني من القرن تشكلت مدرسة فسيفسائيين وفرسكيين إيطاليين . ففي روما اشتهر لأكويو توريتي ، في آخر القرن الثالث عشر ، في تتويج العذراء في صدر كنيسة القديسة - مارية العظيمة . وبيترو كافاليني (١٢٥٠ - ١٣٣٠ م) في تاريخ عذراء القديسة - مارية دو تراستيفيريه ، فقد مثلاً تماماً الأسلوب البيزنطي بكل دقته . ولكن تأمل النماذج القديمة أدخل في فيها قوة وضخامة جديديتين . فلدى كافاليني ، في روما ، بدأ الفلورنسي تشيابو (١٢٤٠ - ١٣٠٢ م) بالعمل قبل أن يوجد ثمانية في مشغل (ورشة) أسيز . إن تأثير الفنانين في روما ، ووجود تشيابو الذي كان أستاذه ، وتجربة أسيز التي شارك فيها تجعل ظهور عبقرية جيوتو (١٢٦٦ - ١٣٣٧ م) أقل سراً . ومعه « استولى فن التصوير على الجدار بكامله ، ونظمه حسب هواه » . وكما في كنيسة سكروفيغني في عرين بادوا ، ينفتح المكان ، ولكنه ليس مكاناً منظوراً تحفره مسافة صغيرة وهمة تحت الصور ؛ إنه نوع من مشهد ضيق وممتد تتطور فيه الأشكال المكعبة والكثيفة . وعلى هذا النحو تكسب الشخصيات الحق في الحركة والإيماء ، لا لعرض صفاتها ، والكشف عن خاصيتها . وإنما فقط للدلالة على مشاركتها التامة في العمل « (شاستل) . وعلى ما يبدو أن معاصر جيوتو وهو دوكتشيو (١٢٦٠ - ١٣١٩ م) قد تثقف في المدارس نفسها التي تثقف فيها جيوتو . فلقد أعطى لفن التصوير السينوازي (من مدينة سيين) تعبيره الأول . ففي الرافدة وراء المذبح ، الرافدة الكبرى للعذراء ، نجد التركيب البسيط والنافذ نفسه الذي نجده عند جيوتو . ولكن الفنان السينوازي يبحث بخاصة عن التأثير الثمين ، بالتلاعب بدقة ونعومة بالألوان .. وهكذا تكشف الفن الإيطالي ، في بداياته ، غنياً بالإمكانات المختلفة .

(١) A. Chastel, L'Art italien, ed. Larousse

الفصل الثامن

الحملات الصليبية

المقدمة

الشرق والغرب

بين القرن العاشر ومنتصف القرن الثالث عشر ، وعلى طول شريط عريض من الأراضي يلف أوراسيا (أوربة وآسيا) من إسبانيا حتى الصين الشمالية مروراً بسورية وسهوب آسيا الوسطى ، في هذه المنطقة ، حيث تماس شعوب وحضارات عالم العصر الوسيط ، قلبت الحملات العسكرية وحركات الشعوب المواقع المكتسبة ووضعت على بساط البحث من جديد قضية توازن القوى .

إسلام الغرب وحرب الاسترداد

في الغرب كان العالم الإسلامي المنقسم إلى ثلاث خلافت يدع بنظام مبعثر الهجومات التي يوجهها إليه المسيحيون بعد أن استيقظت قواهم : تراجع إسلام الغرب ، في إسبانيا ، في المغرب ، وفي صقلية .

الأتراك والصليبيون

وأكثر إلى الشرق ، كما في القرون الأولى من العصر المسيحي ، أن الحوادث ، التي أحدثت الاضطراب في القارة الأوراسية انطلاقاً من القرن التاسع وبذلت العلاقات بين الغرب والشرق ، ترجع في أصلها إلى سهوب آسيا العليا الوسطى . وخلال أعلى العصر الوسيط كله (من القرن السادس إلى الثامن) ، كانت هذه

المناطق خاضعة للهيمنة التركية : فتحت إدارة الأتراك التوكيو تشكلت في السهوب إمبراطورية كبرى راحلة ، غير مستقرة . وعندما ضعفت هذه الإمبراطورية بانقساماتها الداخلية ، انهارت في منتصف القرن الثامن ، وعندئذ بدأ ، لآسيا الوسطى ، دور عدم استقرار كان في أصل تحولات عميقة .

بدأت الشعوب التركية بحركة انزلاق بطيئة نحو الغرب ، نحو المناطق التي استطاعت منذ ذلك الحين أن تحمل اسم (تركستان) أي بلاد الترك . وغمرت الشعوب الهندية - الأوربية القديمة في واحات التاريم وحضاراتها القديمة ؛ ثم ، دانت بالإسلام . وانطلقت ابتداءً من القرن العاشر لفتح السهل الهندي - الغانجي (الأتراك الغزنويون) ، وروسيا الجنوبية (الپتشيبيك) ، وإيران الإسلامية ، وآسيا الصغرى وسورية (الأتراك السلجوقيون) . وأوشكت الاستيلاء على القسطنطينية . وهذا التهديد التركي للمسيحية أدى إلى هجوم معاكس غربي من قبل الصليبيين . ونجح الصليبيون في أخذ موطن قدم لهم في سورية . وتأسس دول لاتينية فيها . وفي الواقع ، لقد أفادوا في الغالب من الظروف التي كانت متاحة جداً لهم . فمن ذلك أن طفرة الفتح التركي كسرت ، حتى قبل نزول أوائل الفرسان الغربيين ، بتفتيت الإمبراطورية السلجوقية التي انقسمت إلى عدة سلطنات ، كانت مملكة خوارزم في فارس وسلطنة إيكونيوم في الأناضول الوارثتين الأساسيتين لها . ومع ذلك لم يسد الوفاق بين المسيحيين من الفرسان الغربيين وإغريق الإمبراطورية البيزنطية : ففيما تتفتت الممتلكات المسيحية تحت الهجومات المعاكسة التركية ، أدى الفتح الموقت العابر للقسطنطينية في الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٤) إلى تعميق الخندق الذي يفصل بين بيزنطة واللاتينيين . ومنذ آخر القرن الثالث عشر طرح اللاتينيون في البحر واستعد الأتراك لهجوم جديد .

ظهور المغول

ومع ذلك ، وجد الأتراك أنفسهم قليلاً قليلاً قد حذفوا من أعلى آسيا الشرقية التي ستصبح بهذا الواقع بلد المغول ، مونغوليا . وقد تحقق حذف هؤلاء الأتراك من آسيا الشرقية ببطء . وبعد انطلاق قسم من التوكيو إلى المناطق الغربية ، صارت السيادة على عالم الرحل في الشرق أولاً إلى أترك آخرين ، وهم الإيغور . وتحت تأثير الصين ، التي كانوا حلفاءها المخلصين ، وإيران (وبخاصة بلاد ما وراء النهر) ، التي أخذوا عنها الديانة المانوية والكتابة ، كانوا الأوائل بين الشعوب التركية التي توصلت للحضارة . وتشهد على ذلك الفرسكات المرسومة في منطقة تورفان ، وترجمات النصوص الصينية والإيرانية إلى الإيغورية . ولكنهم ضعفوا في غضون تحضرهم : ففي سنة ٨٤٠ ، أخذت عاصمتهم كارا - بالغاس - سون (في موقع على مقربة قليلاً من كاراكوروم) وتهدمت إمبراطوريتهم على أيدي أترك آخرين ظلوا برابرة ، وهم القرغيز الذين انحدروا من مناطق أعلى نهر ينيسائي .. وذهب الإيغور ، سقط إمبراطورية مونغوليا ، واستقروا في واحات شمال نهر التاريم (تورفان ، كوتشا) ، حيث اعتنق كثير منهم الديانة البوذية . ومن هناك ، سيستمر نفوذ حضارتهم في الإشعاع على مجموع عالم السهوب : ولعبوا دور المربين للشعوب التركية - المغولية وجهزهم بكتاب نساخين وبكتاباتهم . ومع ذلك ، فإن القرغيز ، في مونغوليا غير أكفاء لتأسيس إمبراطورية مستقرة . وفي الوقت نفسه ، وإثر ضعف التانغ ، انطوت الصين على نفسها ، وانقطعت عن ممارسة نفوذ على آسيا العليا . وأحدث إهمال القرغيز والامتناع الصيني فراغاً سياسياً ساعد المغول على أن يكونوا سادة مونغوليا . وتم هذا التطور ببطء : ففي القرن العاشر ، استقر أوائل المغوليين ، الكيتان ، في السهوب ، ودخلوا في ٩٢٤ كارا - بالغاسوم وطردهوا القرغيز في سيبيريا . ثم والوا تقدمهم باتجاه الجنوب : وقاموا في ذلك الحين آل سونغ في الصين وانتزعوا منها أقاليمها الشمالية . وفي آسيا العليا

نفسها ، بقيت سيطرة كيتان رخوة جداً وسطحية جداً : حصل أباطرة كيتان على ولاء القبائل المغولية التي ظلت تنحدر من مناطق نهر أمور الأعلى نحو منغوليا متقدمة على طول وديان نهر الأونون ونهر الكيرون ؛ وأخضعوا أيضاً لسيادتهم بعض القبائل التركية مثل التتر . ولكن إلى الجنوب أكثر استقرت قبائل متحدرة من التبت الشرقية ، التنغوت سي - هيا ، وبخاصة في الشمال الشرقي اهتزت شعوب تونغية ، وهم الجورتشيت ، الذين استولوا في (١١٢٢) على إمبراطورية كيتان الصينية ، وأجبروا هؤلاء الأواخر على الخضوع أو الفرار نحو تركستان حيث ظهروا ثانية تحت اسم كراكيتاي . وتوطدت السيطرة المغولية في بداية القرن الثالث عشر على يد جنكيز خان الذي جمع مختلف شعوب تحت رايته ، وأطلقها لفتح الدول المستقرة في أوراسيا . فمن فارس إلى شواطئ المحيط الهادئ مدت الإمبراطورية المغولية جسراً بين الشرق الأقصى والغرب بعد أن ظلا يعيشان حياة منفصلة منذ عدة قرون .

وحوالي العام ألف لم يفتح الغرب الأوربي لنفسه غير نوافذ ضيقة على البحر المتوسط . وكان الإسلام وبيزنطة ، الدولتان العظيمةتان في البحر المتوسط ، تقسمان حوضه الشرقي . وبفضل مواقع أمامية ، أشباه جزر وجزر ، وتسيطران كلياً على نشاط حوضه الغربي . وبفضل قدرتهما السياسية ، وثروتهما الاقتصادية ، وحضاراتهما النقية كسفا دون تعب دول أوربة الغربية التي مازالت في ذلك الحين تحاول بعناء أن تنشل نفسها من الفوضى والفقر والبربرية .

وفي العام ألف اقتسمت ثلاث ديانات العالم الروماني القديم : المسيحية الكاثوليكية الرومانية والمسيحية الأرثوذكسية البيزنطية اللتان فصلتهما من بعد حيدة ١٠٥٤ للأبد ؛ والإسلام الذي امتد في توسعه إلى أوربة .

وفي بداية القرن الحادي عشر كانت القوة السياسية والثروة الاقتصادية والحضارة مسلمة وبيزنطية . فقد عرفت بيزنطة عصراً ذهبياً ثانياً تجلّى بنهضة

ثقافية وفنية صحتنا تجديد قوتها السياسية في آسيا ، وعلى الدانوب ، وفي إيطاليا حيث استأنفت الهجوم الجيوش الإغريقية ، وبلغ الإسلام في المتوسط الغربي أكبر اتساع أرضي له . وبالرغم من أنه لا يؤلف وحدة سياسية ، واضطر لفسح المجال في آسيا للإمبراطورية البيزنطية . فقد كان يشع بكل سنا حضارته المدنية وثقافته .

وإلى جانب الإسلام وبيزنطة كانت الدول المسيحية الغربية في حال تجزئة وفققر وبربرية . ومع ذلك نجحت في إيقاف موجة الفارات السلافية والاسكندنافية ، وبدأت بعملية مزج صابر في تبشير القادمين الجدد بالمسيحية . كما بدأ عمل تعمير سياسي واقتصادي ، وسيساعد بعد قليل مسيحيي الغرب على الانطلاق في اتجاه البلاد الإسلامية بهجوم معاكس وظافر ، ولو إلى حين ، وهو الحملة الصليبية الأولى عام ١٠٩٩ .

وفي غضون ذلك ، كانت المناطق ، التي تتجاور فيها المسيحية والإسلام ، وبخاصة إسبانيا ، وصقلية ، وجنوب إيطاليا ، موطناً لنزاعات عنيفة في الغالب ، ولكن أيضاً لاتصالات اقتصادية وفكرية مثمرة ولا سيما للغرب .

الحملة الصليبية في الغرب الأوربي

بعد انتشار الإسلام في البحر المتوسط بثلاثة قرون تقريباً ، انطلق الأوربيون بحملاتهم الصليبية لاسترداد البلاد التي احتلها المسلمون في أوربة . بدأت الحركة في إسبانيا ، وحررت حرب الاسترداد القسم الأعظم من شبه الجزيرة الإيبيرية من النفوذ الإسلامي . وفي أواخر القرن الحادي عشر توجه فرسان الغرب المسيحيون ، لأسباب عديدة : اقتصادية ، سياسية ، دينية ، استعمارية ، نحو شرقي البحر المتوسط ، يحاولون تخليص الأماكن والأرض المقدسة من أيدي أهلها وفتح بلاد المشرق العربي . وكان المثل الأعلى الذي كان عليه فرسان الغرب الأوربي ، هو المثل الأعلى الذي كان عليه جنود أباطرة

القسطنطينية البيزنطيين . غير أن كثيراً من العقبات وقفت بين هؤلاء وأولئك ، ولم يقيم بين الجانبين تعاون حقيقي . وأخيراً أهملت الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٢ - ١٢٠٤) الأراضي المقدسة وذهبت لتحتل القسطنطينية . وهكذا أخفقت حمية الإيمايان المسيحي في القرن الثاني عشر ، وإخفاق جميع الحملات الصليبية في المشرق العربي . وفي القرن الثالث عشر وجدت حملات وحروب صليبية ، ولكنها كانت على غير وفاق مع زمانها .

إن إزاحة المسلمين من المواقع القوية ، التي كانوا يحتلوها في أوربة ، كانت أول مهمة فرضت على الجيوش المسيحية في الغرب الأوربي . ومنذ أن فتح المسلمون إسبانيا لم ينقطع النضال ضدهم : من غارات منظمة انطلاقاً من الممالك المسيحية الصغيرة في جبال البيرينه ، ومن حملات أعدها الأباطرة والبابوية في إيطاليا الجنوبية حيث كان الأدواق البيزنطيون يقيمون حالة عداء دائم . ولكن انطلاقاً من بداية القرن الحادي عشر ، أي في الوقت الذي استيقظت فيه قوى الغرب المسيحية ، كان الإسلام في الغرب الأوربي موضع هجوم عام .

فتح النورمانديين لصقلية

لقد أخذت حرب الاسترداد أشكالاً مختلفة حسب المناطق . ففي إيطاليا كان إخراج المسلمين منها نتيجة جهود بذلها الأمراء النورمانديون لتأسيس إمارة واسعة ، وحملة صقلية لم تأخذ شكل حرب مقدسة . بدأت لاسترداد الجزيرة في ١٠٦١ م وانتهت في ١٠٩١ م . وانطلاقاً من هذه الإمبراطورية النورماندية ، وبعد نصف قرن ، فرض نورمانديو صقلية تحت قيادة روجيه الثاني سيطرتهم على شاطئ تونس (١١٣٤ - ١١٤٦ م) . ولكن صقلية ظلت مركز إشعاع حضاري . ففيها أثرت الحضارة الغربية بتأسيها مع الشرق البيزنطي ومع الشرق الإسلامي . ووجد في بلاط الملوك النورمانديين علماء مسلمون مثل الإدريسي

الذي جمع لحساب روجيه معلومات جغرافية عن العالم المعروف آنذاك . وكان خلف العواهل النورماندين ، فريديريك الثاني محباً للاطلاع ، متساعماً في الدين ، مشجعاً لانتشار المعارف المكتسبة عن طريق العلماء المسلمين في البلاد المسيحية . ويظهر في الفن النورماندي طابع الفن البيزنطي واضحاً في الفسيفساء كما يرى في كاتدرائية سيفالو ، وتأثير بذخ التزيين العربي في خورس كنيسة مونرياله .

أصول الاسترداد في إسبانيا

كانت بدايات حرب الاسترداد في إسبانيا تؤلف نوعاً من مقدمات للحروب الصليبية في المشرق العربي . أما عودة النزاع ضد المسلمين فيتضح ، في إسبانيا كما في إيطاليا ، بظرف سياسي جديد ؛ وهو أن زوال الخلافة والمنافسات بين ملوك الطوائف قدمت لمسيحي الشمال إمكان استغلال هذه الحالة لصالحهم .

كانت حالة إسبانيا الإسلامية مهياة لمشاريع الاسترداد التي كان يديرها العواهل المسيحيون . وفي الوقت نفسه ، كان تحول دول الشمال مقدمة لعودة الحروب . فبعد قرون من التجزئة ، عرفت إسبانيا المسيحية ، في القرن الحادي عشر ، بعض التجمع للقوى المسيحية . ففي شرق إسبانيا ، ضم كونتات بارسلونة إلى كاتالونيا سيطرتهم على اللانغدوك ، واعترف بهم كونتات بيزيه ، وناربونة ، وقرقصونة سادة عليهم . وإذا لم تعش هيمنة النافار الممتدة تقريباً على كل إسبانيا المسيحية ، تحت حكم سانش الأكبر (١٠٠٠ - ١٠٣٥ م) . بعد موت العاهل ، فإن الكونتيات الأرغونية اتحدت في مملكة أراغونة الجديدة على يد رامير الأول ، وكونتية قشتالة السابقة ، التي تحولت إلى مملكة على يد فرديناند الأول في ١٠٣٧ م ، امتصت الليون وغاليس . وهذه الدول الجديدة ، التي ثبتت فيها السلطة الملكية ، تأثرت بالنهوض الديموغرافي الذي حصل في الغرب . هذا بالإضافة إلى أن ضغط الضرورات الاقتصادية ، في بلد فقير ، صنع

من حرب الاسترداد مشروع استعمار ضروري . وكان على رأس هذه الحركة طبقة المحاربين ، من الطبقة النبيلة ، التي بدأت تتبنى الأعراف والتعاملات الإقطاعية . وتضاعف مشروع الاستعمار بحرب مقدسة . وهذه الصفة الخاصة التي أخذها النزاع ضد الممالك الإسلامية ، ظهرت بأشكال مختلفة ؛ من ذلك أن الدسائس الدبلوماسية والمكائد الحربية التي كانت ، حتى ذلك الحين ، تمزج المسلمين والمسيحيين في أحلاف مؤقتة ، قد قام ، بدلاً عنها ، عند المسيحيين ، فكرة جديدة ، وهي أن الاسترداد يجب أن يكون عملاً مشتركاً لجميع ممالك إسبانيا المسيحية ضد الإسلام ؛ ومن بعد فإن كل البلاد المسيحية في أوربة مدعوة لتساهم في النزاع . وهكذا اتجهت الممالك المسيحية في إسبانيا نحو أوربة ونحو الكنيسة بكاملها . وعقد العواهل القشتاليون والآراغونيون روابط سلالية مع أمراء فرنسيين . وتمّ هذا التقارب على يد الرهبان الكلونيين بخاصة . فقد دعاهم الفونس السادس ملك قشتالة (١٠٧٢ - ١١٠٩ م) إلى كاتالونيا ، وأسهموا بقوة في (تغريب إسبانيا) أي جعلها دولة غربية . ووجه رهبان من أصل فرنسي الأديرة الإسبانية ، كما احتلوا الكراسي الأسقفية وشدوا أواصرهم مع باقي البلاد المسيحية ؛ حتى أن الحج الذي نظموا إلى شنتياق (سان جاك دو كومبوستيل أو سنتياغو) وفد إسبانيا بحجاج مشاهير في الغالب من بارونات وفرسان يميلون إلى تمديد رحلة التقوى بالمشاركة في مشروع الاسترداد . وبصورة موازية ، كان رهبان كلوني يعملون على وضع الكنيسة الإسبانية من جديد تحت وصاية روما الوثيقة . وهجرت الليتورجيا (مجموع الطقوس) الفيزيغوطية في كل مكان ، وحلت محلها الليتورجيا الرومانية (من روما) . وأخيراً إن الدور ، الذي لعبته البابوية ، أعطى للاسترداد صفة الحرب الصليبية . وكان البابا ألكسندر الثاني أول من دعا في ١٠٦٤ و ١٠٧٣ م ، المؤسسة الفروسية لنجدة ملك أراغونة الذي قبل وصرح بنفسه أنه تابع للكرسي الأقدس . واستجاب لدعوة البابا وندائه

فرسان أكيثانيا ، الذين يقودهم الدوق غليوم السابع ، وفرسان إقليم الشامبانيا . كما حض كل من البابا غريغوار السابع في ١٠٧٥ م ، ثم البابا أورينيو الثاني في ١٠٨٨ م ، مسيحيي الغرب على حرب (الكافرين) . وأكثر من ذلك إن غريغوار السابع تجرأ وزعم السيادة على البلاد التي ستسترد من أيدي المسلمين مدعياً بهبة قسطنطين المزعومة ، ومؤكداً « أن مملكة إسبانيا كانت سابقاً تابعة للقديس بطرس ، وستستمر بالآ تتبع شخصاً آخر إلا الكرسي الرسولي » . وهذه المزاعم تخلى عنها خلفاء غريغوار السابع ؛ ولكنها تعتبر صورة مسبقة ، ولو جزئياً ، للسياسة الخيرية في الأرض المقدسة .

الحرب الاستردادية الأولى ، وهجوم المرابطين المعاكس

إن حرب الاسترداد التي قامت في إسبانيا في هذه الظروف ، أعادت في قرنين (من منتصف القرن الحادي عشر إلى منتصف القرن الثالث عشر) كامل إسبانيا تقريباً . أما الهجومات التي أطلقها الفرسان الإسبان والفرنسيون فقد تقطعت بعودة قوى الإسلام . وكانت أول وثبة للاسترداد تقع في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ؛ فبينما كان كونت برشلونة يحاول التقدم ، في اتجاه نهر الإيبر الأدنى ، ويفرض دفع ضريبة على عدة مليكات مسلمين ، كان الأرغونيون ، بمساعدة الفرسان الفرنسيين ، يناضلون بشجاعة ، ولكن على أرض صخرية وعرة المسالك جداً ، واستطاعوا أن يستولوا على حصن برشتر الهام ، وما لبثوا أن أضاعوه بعد قليل (شمال - شرقي سرقسطة) . وفي هذا القطاع راجع الهجوم المسيحي مكانه . وعلى العكس ، حصل الاسترداد القشتالي على نجاحات باهرة أكثر دواماً : فقد اكتمل فرديناند الأول (١٠٣٦ - ١٠٦٤ م) بفرض ضريبة على ملك إشبيلية وعلى ملك طليطلة ؛ حتى أن هذا الأخير قبل أن يرد له بقايا القديس إيزيدور . وبدءاً من ١٠٦٣ م ، انطلق فرديناند في الفتح العسكري مؤمناً لنفسه المناطق في جنوب نهر دورو حتى كوايمبر ، وفتح ابنه الفونس

السادس (١٠٧٢ - ١١٠٩ م) هضاب قشتالة الحديثة في ١٠٨٥ م واستولى على طليطلة العاصمة الفيزيغوطية السابقة والعاصمة الدينية في إسبانيا ، واستطاع عندئذ أن يفاخر بلقب (إمبراطور إسبانيا كلها) .

لقد أثارت هذه النجاحات القشتالية (نصف شبه الجزيرة في أيدي المسيحيين الآن) حمية المسلمين ؛ فمن ذلك أن ملوك الطوائف دعوا لنجدتهم المرابطين الذين كانوا يسيطرون ، من عاصمتهم مراكش ، على إمبراطورية واسعة . ففي ١٠٨٦ م أنزل يوسف بن تاشفين جيوشه في الجزيرة الخضراء ، والتقى بالجيش القشتالي في الزلاقة (بالقرب من باداجوز ، إيسترامادور) ، وهزمه بكامله في ٢٦ تشرين الأول ١٠٨٦ م . وفي الحقيقة ، أن الجيوش المرابطية لم تتجاوز نهر التاج نحو الشمال . ولذلك سلمت الفتوحات المسيحية الحديثة ، باستثناء فالانفس التي سقطت عند موت السيد (١٠٩٥ م) . ولكن التوسع المسيحي توقف صراحة ؛ لأن المرابطين كانوا يؤلفون ، بين ١٠٩٠ و ١١١٠ م ، بإخضاعهم ممالك الطوائف الواحدة بعد الأخرى ، دولة عسكرية واسعة . وكان تحت تصرفهم جيش قوي ، وموارد إمبراطورية واسعة تمتد في إفريقيا من السنغال إلى الجزائر . وجرت محاولة قام بها القشتاليون لاستئناف الهجوم في ١٢٠٨ م ، ولكنها منيت بإخفاق مريع ، وموت ابن الملك غير البكر في ساحة المعركة .

عودة الهجوم المسيحي ودفاع الموحدين

عاود المسيحيون الهجوم في النصف الأول من القرن الثاني عشر ، في ظروف جديدة ، بعد أن أفل نفوذ المرابطين ، وتراخى البربر القساة الجفاة في الأندلس بسرعة ، وفرض المرابطون دكتاتورية الفقهاء ، مما أثار المعارضات الدينية ضدهم . أما من جهة المسيحيين فقد عاودوا الكرة في الهجوم ، ولكن لم تكن

قشتالة على رأس هذا الهجوم لأنها كانت تجتاز أزمة وراثية خطيرة (١١٠٨ - ١١٢٦ م) لم تنته إلا مع اعتلاء الفونس السابع (١١٢٦ - ١١٥٧ م) العرش . وقد توج هذا إمبراطوراً في ١١٣٥ م في بورغوس (برغش) ، وحاول عبثاً أن يستعيد من جديد المزايم القشتالية للإمبراطورية والسيطرة على إسبانيا المسيحية بكاملها . وفي الواقع ، إن قوته ضعفت بانفصال الأقاليم الشرقية التي تشكلت في ١١٤٠ م في مملكة البرتغال . وكانت الأراغونة ومملكة البرتغال الجديدة في القرن الثاني عشر البطلين الأساسيين في حرب الاسترداد . وبمساعدة الفرسان الفرنسيين نجح پيير الأول دأراغون (١٠٩٤ - ١١٠٤ م) وابنه الفونس المشاكس (١١٠٤ - ١١٣٤ م) في بسط مملكتهم نحو الجنوب على حساب المسلمين : ففي ١١١٨ م ، فتحت سرقسطة وأصبحت العاصمة الأراغونية الجديدة . وتتابع التقدم في جنوب نهر الإيبر ، وانتزعت حصون قلعة أيوب ، دروقه ، ثم في ١١٤٧ م مدينة تورتوزا . ولم تعد أراغونة مملكة بيرينية صغيرة لأن اتحادها مع كونتية برشلونة المتحقق لصالح الفونس الثاني (١١٦٢ - ١١٩٦ م) الذي ورث من التاجين ، فتح لها آفاق السياسة المتوسطية ، فبفضل مساندة أسطول الصليبيين الفلامانديين والإنكليز الذين تحولوا برحلتهم عن الأرض المقدسة بتأثير عاصفة ، استولى الملك الفونس هنري على لشبونة (١١٤٧ م) . ومن بعد ، استمرت الجيوش البرتغالية في تقدمها في جنوب نهر التاج واستولت على باحة يابرة ، وعلى هذا تضاعفت مساحة مملكة البرتغال منذ ولادتها وأخذت منذ ذلك الحين وجه دولة عظمى في شبه الجزيرة الهسبانية .

وفي منتصف القرن الثاني عشر بهر الاسترداد ، وضاعت أنفاسه ، وانقسمت القوى المسيحية : فقد فصل تقسيم الإرث من جديد مقدرات قشتالة ومقدرات ليون . هذا فضلاً عن أن الدول المسيحية وقفت ضد بعضها في منازعات أخوية ، فقد حاولت نافار وليون أن تكبرا على حساب قشتالة ؛ ووقعت المنازعات

الأرضية بين ناغار والبرتغال وأخذت تقاوم إحداها الأخرى . وأخيراً تحولت مملكة أراغونة عن مهام الاسترداد لتكرس نفسها لسياسة عظيمة في جنوب فرنسا : في لانغدوك ، حيث ازدادت سلطة العواهل الأرغونيين بضم إقليم البروفانس بفضل زواج ريمون بيرانجيه الثالث بوارثة الكونتية ، والروسيون التي آلت إليهم بطريق الإرث . وهذه الإمبراطورية ، التي تمتد من نهر الإيبر إلى جبال الألب تطلبت كل اهتماماتهم ، حتى القرن الثالث عشر ، حيث وقع البيت الأرغوني ضحية مكافحة الهرطقة الإلبيجوازية ، وفقد القسم الأعظم من إقطاعاته اللانغدوكية ، وقفل راجعاً إلى سياسة شبه الجزيرة الإسبانية . وهذا الشعب وهذا الانقسام في القوى المسيحية تدخلا في الوقت الذي بدأ فيه الخطر الإسلامي يضغط من جديد إثر مجيء موجة جديدة أتت بالموحدين .

منذ النصف الأول من القرن الثاني عشر ومقاومة مذاهب المرابطين الدينية في تعاظم ولا سيما بين القبائل البربرية في الأطلس الأعلى . وذلك أن المصلح ابن تومرت الملقب بالمهدي والمتأثر بمؤلفات وأفكار الغزالي الشرقية ، وقف في تنال (١١٢٥ م) وهاجم الفقهاء المرابطين الذين شرحوا الصفات التي تجعل الله صورة عن الإنسان وانتهوا بـ (التشبيه) ، وبشر بالوحدانية الإلهية (التنزيه) ، وأدخل إلى الأرثوذكسية الدينية في الغرب عاطفة صوفية عميقة كانت عبادة القديسين تعبيراً لها . وسمي أنصاره باسم شعبي (الموحدين) أي الذين يبشرون بوحدانية الله . وبعد وفاته استولى أحد تلاميذه ، عبد المؤمن على مراكش وبسط نفوذه على إفريقية الشمالية كلها . وفي ذلك الحين قامت ثورات في إسبانيا ضد سيطرة المرابطين ، ودعا الثائرون الموحدين لنجدتهم . وأرسل عبد المؤمن جيشاً وأخضع لسلطته جميع الأراضي الإسلامية في شبه الجزيرة (١١٤٦ - ١١٦٣ م) . وفي الوقت نفسه هاجم الممالك المسيحية بقوة واستولى على المريّة في ١١٥٧ م . وحاول عواهل الشمال رد الفعل ، وأحدثت مليشيات ديرية ، أنظمت قلعة رباح

(كالاترافا) ، وشتتياقب (سنتياغو) والقنطرة للنضال ضد الكافرين (المسلمين) وفي ١١٧٧ م أخذت قوتقة من الموحدين ، كأطلقت عدة غارات مسيحية ضد الأندلس . ولكن الجيوش المسيحية سحقت في معركة الأرك (الأركوس) في ١١٩٥ م .

إسبانيا الموحدين

لقد امتدت إمبراطورية عبد المؤمن على شاطئ البحر المتوسط الغربي وأخذ في ١١٦٢ م لقب خليفة . واستعادت إسبانيا الإسلامية تحت نفوذ الموحدين كامل ازدهارها وسنا حضارتها . وأفادت من ذهب السودان الذي أنعش حياتها الاقتصادية . وضاعفت علاقاتها مع الموانئ الإيطالية . وتفتح الفكر الإسلامي بعد أن تحرر من صرامة المرابطين الحقوية . وأخذت الثقافة الهسبانية - الإسلامية نيابة الشرق على جميع الأصعدة بعد أن أخذته سنة من النوم فأغفى في الوقت الذي تهيأ فيه الغرب المسيحي للتعرف على كنوز الثقافة الإسلامية على أيدي الإسبانين . وفيما كان الشعر الأندلسي مستمراً في ازدهاره ، كان العلم الإسباني آخذاً بالنوم مثلاً بخاصة بالجغرافي والرحالة ابن جبير . فقد قام برحلة سياحية واسعة في الشرق زار فيها مصر وحق الدول اللاتينية في الأرض المقدسة . وعلى صعيد الفلسفة أتى الإسلام في إسبانيا بإسهام واسع مع ابن رشد . فقد ولد في قرطبة في ١١٢٦ م ودرس اللاهوت والفلسفة والطب والرياضيات ، وارتبط الخليفة به بصداقة عميقة ، وأخذه تحت حمايته ، وطلب منه شخصياً أن يعمل لصالحه تحليلاً لآثار أرسطو . ولكن هذه التفسيرات والشروح لفكر الفيلسوف الإغريقي العظيم استحق عليها النفي ، في آخر حياته ، إلى مراکش بناء على طلب الفقهاء . وترجم أثره إلى العبرية واللاتينية . وكان له أثره العميق في الفكر المسيحي في القرن الثالث عشر . وولد معاصر له في قرطبة وهو ابن ميمون أبو عمران موسى (١١٣٥ - ١٢٠٤ م) الذي استقر أخيراً في مصر حيث مارس الطب ، وأنجز في ١١٦٨ م شرحاً بالعربية لـ (المشنا) ، أي مجموعة الأعراف والمذاهب العبرية ،

وهو جزء من التلمود وفيه شروح لنصوص التوراة . وكتب مؤلفه الأساسي (دلالة الحائرين) وخصه للذين يحارون بين الوحي والعقل . وهو أكبر فيلسوف يهودي في العصر الوسيط . وبعده ظفرت الاتجاهات الصوفية (القبالة) أي التفسير الصوفي للتوراة .

وأخيراً على صعيد الفن يشهد جامع كتبية في مراكش ، وبرج الخيرالدا في إشبيلية على فخامة وجلال حضارة الموحدين .

الاسترداد في القرن الثالث عشر

إن الخطر ، الذي تمثل بقوة الموحدين ، انتهى ، في بداية القرن الثالث عشر ، بإثارة جهد قوي للمسيحيين في العودة إلى الاسترداد . فقد وحدث ممالك الشمال قواها ، وانضمت لها حملة حقيقية نظمت لدى دعوة البابا إينوسان الثالث . وفي ١٦ تموز ١٢١٢ م ، أحرزت الجيوش المسيحية نصراً حاسماً في لاس نافاس دو تولوزا (العقاب) ، واستطاعت كل مملكة أن تستأنف عندئذ توسعها نحو الجنوب : من ذلك أن وحد فرديناند الثالث بشكل نهائي الليون وقشتالة واستولى على عبيدة وقرطبة في ١٢٣٦ م ، وأخيراً عاصمة الإسلام في إسبانيا ، إشبيلية في ١٢٤٨ م . وفي أراغونة احتل جيم الأول ، الملقب بالمغامر ، جزر الباليئار (١٢٢٩ - ١٢٣٥ م) ثم فالانس (١٢٣٨ م) والساحل الشرقي الإسباني . وأخيراً وسع العواهل البرتغاليون نفوذهم حتى السواحل الجنوبية التي تسيطر على مدخل مضيق جبل طارق . ونحو ١٢٧٠ م لم يبق للمسلمين إلا منطقة غرناطة ، أي خمس إسبانيا . وانهارت خلافة الموحدين الواسعة ، وفي غرناطة استقر عواهل السلالة المرينية . والمغرب الذي توحد بعض الوقت تحت صولجانه ، عاد وانقسم من جديد . ومنذ النصف الأول من القرن الثالث عشر ، انفصلت تونس تحت سلالة الحفصيين الذين قاوموا بنجاح الحملة الصليبية التي نظمها القديس لويس . وفي ١٢٧٠ م تأسست إمارة ثانية ، وهي إمارة بني عبد الواد في تلمسان . وأخيراً.

في مراكش حلت السلالة المرينية محل الموحيدين ، وحاولت عبثاً استعادة مزاعم أسلافها في السيطرة على المغرب كله وتقديم المساعدة لحضور الإسلام في إسبانيا ، واغتنت عاصمتهم فاس بالأوابد ونافست بفخامتها غرناطة .

وفي الحقيقة ، لقد أعطى الاسترداد لإسبانيا وجهاً جديداً . وأدى تجمع القوى فيها إلى أول تبسيط سياسي . على أنه يجب أن توضع جانباً النافار ، الحبيسة في جبالها والتي قطعت في وقت مبكر اتصالها بالإسلام وربطتها الظروف السلافية بكونتية الشامبانيا الفرنسية أولاً ثم بالملكية الفرنسية . وهكذا نجد أن ثلاث ممالك مسيحية تقاسمت شبه الجزيرة : البرتغال ، قشتالة ، الاراغونة . وفي كل واحدة منها توطدت السلطة الملكية بفضل النضال ضد الإسلام ، وأيضاً بقوة الطبقة النبيلة والأنظمة الدينية الكبرى . وفي ذلك ما يدع مجالاً للتنبؤ بمحدث خلافات . وبشكل أصيل جداً ، لقد ساعدت حاجات الكفاح واستعادة الاستيطان على الحفاظ على الطوائف الريفية والمدنية حرة نسبياً لأنها مهزت بامتيازات . ومنذ القرن الثالث عشر استطاع ممثلو المدن الوصول إلى المجلس الكبير الذي يعقده العواهل والمسمى الكورتيس ، إلى جانب الطبقة النبيلة والأكليروس . وهذه الحرية نفسها تطبع أيضاً الحياة الدينية . ودون حساب المسيحيين المستعربين الذين تميزهم طقوسهم الدينية الخاصة والذين انصهروا بسرعة في الكنيسة الإسبانية ، كانت الأراضي التي استردها العواهل المسيحيون تحتوي عدداً كبيراً من المسلمين وأقليات يهودية كان من المستحيل تمثيلها وامتصاصها . فقد حصل (المدجنون) (المسلمون الذين خضعوا للنفوذ المسيحي) على حرية ممارسة عبادتهم ، واحترام أموالهم ، والمساواة المدنية مقابل دفع أتاوة . ولعب اليهود دور التجار وأصحاب المصارف . وقد شجعت هذه الروح المتسامحة في التعامل تفتح الثقافة في إسبانيا المسيحية ، فأصبحت أرض لقاء لحضارتين . ونقلت الممالك المسيحية جزءاً من الثقافة الإسلامية للغرب ،

وتلقت منه مآتي حضارية عديدة . وتحققت هذه المبادلات في الجزء الأعظم منها في نطاق جامعات شبه الجزيرة ، سالامنكا أول جامعة تأسست في ١٢١٥ م ، مرسية ، إشبيلية ، كوامبرا التي تأسست في البرتغال في ١٢٩٠ م . وكان الشعراء البروفانسيون والإسبانيون والعلماء المسلمون واليهود فيها جنباً إلى جنب متكاتفين . وعكس الأدب الإسباني الشعبي هذه التأثيرات المختلفة . إن الكانتبار ، أي الأساطير الملحمية ، نقلت بأسلوب يدل على العدوى من الملحمة الفرنسية ؛ والأسطورة الملحمية المسماة : (أسطورة ملحمة سيدي) أشهرها . فهي تشيد بمآثر رودريغ دياز دو بيثار ، سيد المعارك ، الذي أصبح البطل الأسطوري للاسترداد ، فقد نفاه الملك الفونس السادس ، ولكنه ظل يعمل تابعاً وفيماً في نضاله ضد المسلمين . والأدب الإسباني أسهم معاً في فن الشعراء الطوافين البروفانسيين وفي عبقرية الشعر العربي الشعبي . وحدثت اللقاءات نفسها في صعيد الفن . وإذا تغلغل الفن الغوطي في إسبانيا منذ آخر القرن الثاني عشر ، بتأثير السيسترسيين وأنتج فيها بكاتدرائيتي ليون وطليلة أعماله الفائقة ، فإن الفن الهسباني - العربي فيها مشرب بعمق بذكريات الفن الإسلامي ؛ فالأبراج المربعة للأجراس تذكر بالمآذن ، والطلاء الملون يمتزج بالعقود الغوطية .

وأخيراً شغل الإسبان بمشاكل الاسترداد ، وهذا ماحال دون مشاركتهم في الحملات الصليبية التي اجتذبت فرسان الغرب نحو الأرض المقدسة .

الفصل التاسع

الحملات الصليبية في المشرق العربي

المقدمة

تجربة قاسية تلك التي مرت بها بلاد المشرق العربي الإسلامي في فترة الحروب الصليبية بعد أن غزاها فرسان الغرب الأوربي الصليبيون بحجة الدفاع عن سلامة الحجاج المسيحيين وقبر السيد المسيح في بيت المقدس . وما كانت هذه الحجة إلا ستاراً يخفي وراءه الأطماع الحقيقية للاستعمار الغربي الذي بدأ في إسبانيا بحرب الاسترداد ، كما رأينا ، وأراد إشباع رغائبه على أرض العرب والإسلام واستيطانها وتقسيها إلى إقطاعات على ما كان يجري في أوربة . هذه حقيقة لم تعد لتخفى على أحد ، بعد أن أشبعها البحوث التاريخية دراسة وتعمقاً . غير أن هنالك حقيقة أخرى أصبحت واضحة أيضاً : وهي تلك السهولة النسبية التي استطاع بها الصليبيون غزو البلاد ، لما كانت عليه من فرقة بين الحكام وضعف في المقاومة التي واجهتهم في بلاد المشرق العربي الإسلامي في أواخر القرن الحادي عشر ، وفي العقود الأولى من القرن الثاني عشر .

كانت بلاد المشرق العربي الإسلامي تحكم من قبل حكام غرباء عن أهل البلاد الأصلاء ، أسلموا وحسن إسلامهم ، ودافعوا عن الإسلام ، ووثق بهم الخلفاء العباسيون ، فاستأثروا بالسلطة في ولاياتهم ، وأصبحوا أسياد دول مستقلة ، ورضي بهم السكان ، طوعاً أو كرهاً ، حكاماً ، باعتبارهم قادة مسلمين يحكمون سورياً باسم الخليفة العباسي ، وفعلاً باسمهم الخاص . ولم يكن ذلك إلا نتيجة مؤسفة من نتائج السياسة البائسة والعاجزة التي سلكها الخلفاء العباسيون في

قضائهم على الأمويين وانصرفهم إلى حياة الدعة والراحة وتسليم السلطة لأيدي غير عربية ؛ هذا فضلاً عن ضعف الإدارة المركزية ، مما أيقظ النعرات القومية والإقليمية والحركات الانفصالية التي أدت إلى دويلات انفصلت عن جسم الدولة وعاشت حياتها الخاصة ، على ما بينها وبين جاراتها من تحاسد وتنافس بل وحروب ، وهي لا تملك من أسباب القوة غير الدفاع عن نفسها تجاه أبناء البلاد الأصلاء .

وإذا أضفنا ، إلى هذه التجزئة السياسية ، النزاع الخفي حيناً والسافر حيناً آخر بين الخلافة العباسية في بغداد ، والخلافة الفاطمية في مصر التي كان إنشاؤها تحدياً لسلطة الخلافة العباسية ؛ والتنافس بين السلجوقيين والفاطميين على بلاد الشام والعراق ، وثورات القصر في مصر ، والتنازع على السلطة والحكم بين الوزراء الفاطميين أنفسهم ، ولعبة القبائل العربية وتعاملها مع العباسيين والفاطميين على أساس المنفعة والكسب المادي ؛ إذا قلنا ذلك ، وتذكرنا أيضاً أن سادة هذه الدويلات لم تكن لديهم فكرة واضحة عن مفهوم الدولة والحفاظ على بقائها واستمرار وجودها ؛ وأن كل واحد منهم يعتبر الدولة ملكاً من أملاكه الخاصة يقسمه بين الورثة في حياته ، أو يتقاسمه الورثة بعد مماته ، وتقوم الحروب بين الإخوة والأقارب من أبناء الأسرة الواحدة للفوز بأكبر سهم من الغنائم ، إلى أن يأتي زعيم قوي الشكبة فيجمع الأجزاء ، وما أن تتم الوحدة بعد العناء حتى يعود التقسيم من جديد ، وهكذا دواليك .

لهذه الأسباب استولى الغزو الصليبي في حملته الأولى على منطقة تتألف من مملكة أرمينية الصغرى في شبه جزيرة الأناضول ، ومن بلاد الشام إلى حدود الفرات شرقاً وعلى شريط ساحلي يختلف عمقه قليلاً أو كثيراً حسب العهود ، ويمتد من خليج إسكندرونة إلى غزة على الساحل المتوسطي ، وإلى خليج العقبة في الداخل ، وكل ماتبقى من بلاد الشام الداخلية كان جزءاً من آسيا العباسية

والسلجوقية ، ومن بعد الأتابكية . وكانت نتيجة هذا الغزو الصليبي الفرنجي وضع الغزاة من جهة ، وأبناء البلاد الأصلاء وحكامهم من جهة أخرى ، وجهاً لوجه . وما من تسامح أو تساهل . وهذا ما يجعلنا نميز بين وضع الصليبيين الغزاة ووضع أبناء البلاد .

وضع الصليبيين في الأراضي المحتلة

لقد توطد وضع الصليبيين في الأراضي التي احتلوها بسبب انقسام العالم الإسلامي وضعف مقاومته . وكانت هذه الأراضي تتألف من مملكة القدس ، وإمارات : الرها ، وأنطاكية ، وطرابلس . وبالرغم من جهودهم وهجبتهم المتكررة ، لم يستطيعوا الاستيلاء في عمق الداخل على حلب وحماة وحمص ودمشق ، وذلك لسببين :

الأول ؛ المقاومة الإسلامية التي لاقوها بالرغم مما كانت عليه من ضعف وعدم استعداد كافٍ .

الثاني ؛ همهم الوصول إلى القدس بأسرع وقت ممكن لتوطيد نفوذهم فيها ، وهي هدفهم الأول . وفي هذا أو ذاك ما يدع مجالاً للأمل والخلاص وطردهم وإلقائهم في البحر متى تصدق النية ويصح العزم عند المسلمين من ظهير البلاد ومن الأراضي المحتلة . وهذا ما حصل فعلاً وإن جاء متأخراً .

كان الغزاة المحتلون فرساناً ، جنوداً وزعماء ، يؤلفون أقلية عسكرية أرستقراطية ، طبقة حربية حقيقية تكونت فوق المجتمع الشرقي الإسلامي وأدخلت إلى البلاد الأعراف والأطر الإقطاعية المتعارف عليها في الغرب الأوربي مع الكثير من الانضباط والشدة للحصول على خدمة عسكرية ناجعة . ووزعت الأراضي على الفرسان الفرنجة . وحددت (شرعة القدس) ، مجموعة الأعراف الفرنجية الإقطاعية ، العلاقة بين التابع والسيد ، التي لا يمكن للتابع بموجبها من التصرف

بالإقطاع أو نقله إلى يد أخرى دون موافقة سيده ؛ هذا مع العلم أن الإقطاعة الممنوحة كانت صغيرة ولا تقدم موارد كافية ، لأن الأراضي التي احتلها الصليبيون كانت محدودة أيضاً . وقررت قاعدة البكورة في الإرث ، وعدم نقل الإقطاع إلى يد الوارث غير القادر على الخدمة العسكرية . ولذا كان السيد يعين فارساً يحل محل التابع القاصر ، ويتمتع بدخل الإقطاع ، حتى يبلغ الوريث الشرعي سنّ الفروسية . وألزمت أرملة التابع بالزواج لئلا يترك الإقطاع دون قيم عليه من الرجال . ومنع نقل الملكية من حيث المبدأ لصالح المؤسسات الدينية .

كانت الروابط التي تربط التابع بأمره شديدة وأقوى وأمتن مما في الغرب ، وذلك لحشد جميع القوى العسكرية ضد المسلمين . والأمير أو الملك هو السيد الاسمي لكل الأرض التابعة له ، وعلى التابعين القيام بكل الخدمات الإقطاعية التي يطلبها .

وهؤلاء السادة الجدد النجب ، من ملوك وأمراء ، وإن كانوا أسياداً لإقطاعات عسكرية ، فهم أبعد ما يكونون عن سادة مطلقي الصلاحية والسلطة تجاه كبار البارونات ، لأن كل واحد منهم يعتبر الأول بين كبار الأمراء . ولهم حق التدخل في اختيار الملك أو الأمير . وهذا التدخل له دلالة ، لأن السيد ينتخب بصورة عادية ، وما يسري في الإقطاعات الكبرى أو الإمارات يسري على السلطة الملكية . لأن الفرنجة ، وهم طبقة عسكرية ، لا يمكنهم أن يجازفوا بنقل الإقطاع إلى وارث غير كفء للزعامة الحربية . ولذا عندما ينتقل التاج الملكي بطريق الوراثة إلى بنت ، كان البارونات ينتخبون لها الزوج الفارس الذي يحكم باسمها ، وينتخبون الحكام المكلفين بممارسة السلطة عندما يكون الملك أسيراً أو حدث السن . وهم الذين يقررون الحرب والسلام ، والتشريع عند مقتضى الحال ، وذلك لإتمام الأعراف أو لتوضيحها . وكان الملوك محاطين بعدد من كبار

الموظفين ذوي الصفة العسكرية أيضاً : كالقائد الأعلى للجيش أو المارشال .

وصفوة القول ، كان هذا النظام الفرنجي في الأراضي المحتلة نظاماً عسكرياً صرفاً . ونظراً لهذه الصفة العسكرية وقلة أعداد الغزاة ، نُوع الدفاع عنه بطرق شتى أهمها :

١ - الانتفاع من سوق الجنود من جهات مختلفة ، وتشكيل جيش المرتزقة المحلية (التركوبل) .

٢ - الإفادة من مرتزقة الفرنجة الذين يفدون إلى الشرق على نفقة ملك غربي يسهم مالياً بالحملة الصليبية .

٣ - بناء الحصون لسد طرق الغارات عليهم من جهات مختلفة .

٤ - تأسيس الأنظمة الرهبانية العسكرية وأشهرها :

أ - نظام الاسبستارية ، أي نظام فرسان المستشفى . وكان مهم الحرب ، ويساقون عادة من بين أفراد الأسر العريقة في الغرب . وعليهم يقوم أمن الحجاج المسيحيين وحماية أموال النظام ضد الغارات وتلبية دعوة الملك في كل حملة عسكرية .

ب - نظام الداوية ، أي نظام فرسان الهيكل (الهيكليون) ، ووظيفته حماية الحجاج بين ميناء يافا والقدس . وقد منح ملك القدس رجاله غزة في ١١٤٩ م ، وكونت طرابلس قلعة طرسوس .

ج - نظام الفرسان التوتونيين ، وقد تشكل في السنوات الأخيرة من القرن الثاني عشر . وكان حصن فرسانه قلعة قرين (مونفور) بالقرب من مدينة صور .

ونظراً إلى صفة هذا النظام الاستعماري الاستيطاني والاستغلالي ، فقد اعتمد على نظام مالي مقتبس عن النظام المالي المعروف عند المسلمين والبيزنطيين ، وعهد به إلى دواوين مكلفة بفرض الضرائب على الأهالي من ملاكين وغيرهم ، وإثقال كاهل الفلاحين بالأتاوات والضرائب غير المباشرة التي تجبى على طرق القوافل في الداخل ، وفي الموانئ على الساحل حين دخول البضائع أو خروجها .

وإلى جانب المؤسسة العسكرية الإقطاعية المستغلة التي أصبحت سيدة البلاد التي احتلت ، سمح الصليبيون بإقامة فرنجية آخرين من طبقة رجال المال والأعمال ؛ وفي معظمهم كانوا من أصل إيطالي : جنوي ، بيزاوي ، وبنديقي ، شكلوا في الموانئ الشامية جاليات مستعمرة ومستثمرة قليلة العدد ، ولكنها نشيطة وغنية . كانوا وسطاء التجارة بين أوربة والبلاد المحتلة ، وتمتعوا باستقلال ذاتي إداري وقضائي ، وبامتيازات ضريبية وتجارية ، وأخذوا على عاتقهم نقل وتصدير المنتجات الآسيوية القادمة إلى الموانئ الشامية أو الإسكندرية في مصر ، إلى الموانئ الأوربية ؛ ونقل الحجاج والمسافرين من صليبيين وغيرهم . وأثروا ثراءً فاحشاً ، وأصبحوا قوة اقتصادية عظيمة .

وضع أبناء البلاد الأصلاء

كان السكان الأصلاء من أبناء البلاد ، في هذه الدول الصليبية الدخيلة الأربع ، يؤلفون الأكثرية الساحقة المنتجة ، والصليبيون الأقلية المستغلة . وقد ترك هؤلاء الصليبيون أبناء البلاد يمارسون نشاطاتهم الاقتصادية وأعمالهم في حياتهم اليومية من فلاحه الأرض وتربية السائمة والحرف اليدوية وغيرها . وبالمقابل ، كان عليهم أن يعملوا في سبيل أنفسهم وفي تأمين إعاشة المحتلين . كما فرضت عليهم الضرائب والرسم وغيرها من سخرات .

فرضت ضريبة الرأس على المسيحيين من أبناء البلاد ، وضريبة القمامة

الثقيلة والتحكيمية على المسلمين . وأضيفت لها الاتاوات على العقارات ؛ وضريبة العشر على إنتاج الأرض ، وكانت على الجميع ، وخصص ريعها للكنيسة اللاتينية . وفرض على الفلاحين دفع ضريبة الفلاحة والحقل ، والقيام بأعمال السخرة العديدة من نقل على العربات والدواب ، وأعمال البناء ، وصيانة القصور . وبتعبير آخر كان هم المحتلين ، أولاً وقبل كل شيء ، جباية الضرائب ، وفرض الاتاوات ، والغنى على حساب الأهالي دون اهتمام بتحويل النظام للصالح العام . وتركوا لكل فئة من السكان إدارتها الخاصة في المدن والقرى والبادية ، والقيام بأعمال الأمن والقضاء حسب الأعراف المحلية السائدة . وهذا معناه أنهم لم يقوموا بأي عمل منتج بل عاشوا طفيليين مستغلين على حساب البلاد وأهلها .

وعلى الصعيد الديني ، كان شغلهم الشاغل كفاح المسلمين وإثقالهم بالضرائب ومعاملة الفلاحين معاملتهم للأقنان . واعتبروا المسيحيين ، في بداية الاحتلال ، إخواناً في الدين ، وحلفاء يعتمد عليهم ، ولكن سياستهم اختلفت حسب المذاهب .

عاملوا الأرمن معاملة حسنة في البدء ، ثم انقلبوا عليهم ، بعد إذ تبين لهم أنهم غير مخلصين لهم دوماً . وتمتع الموازنة في ظلهم بحظوة خاصة ، لتعاونهم معاً عند الاقتضاء ، ولاعترافيهم بسلطة الكرسي الأقدس . واعتبروا النساطرة واليعاقبة والموحدين هرطقة منشقين . واختلف التعامل بين الدين والشدة والاضطهاد .

الدفاع الإسلامي

ما من شك في أن المسلمين ، بالرغم من تجزئتهم وضعف مقاومتهم في البدء ، لم يقفوا مكتوفي الأيدي تجاه هذا الغزو الغربي . فذ وطأت أقدام فرسان الصليبيين أرض بلاد المشرق العربي الإسلامي ، بدأ رد الفعل ، وأخذ شكلين :

الأول : الدفاع الغريزي أو العفوي ، وهو الدفاع الذي تمثل بالوقوف ، في

وجه العدو ، لأول وهلة ، وبكل الوسائل المتاحة . ولكنه لم ينل حظه من النجاح المؤمل للأسباب التي ذكرناها آنفاً . فقد أصاب المسلمين وأبناء البلاد عموماً ما أصابهم من بلاء بسبب التجزئة السياسية التي بعثت القوى ورائت على البلاد قبل احتلال الصليبيين . ولذلك لم يحسنوا الدفاع رغم ما بذلوا من جهود . ومن جهة أخرى ، بلغ السخط والغيط والحنق والتشاؤم الحد الأقصى ، إثر الأعمال والفظاعات الوحشية التي ارتكبتها الغزاة ولا يدانيها من بعيد أو من قريب إلا جرائم غزاة المغامرين الأوربيين حيال الهنود المحمر عند اكتشاف أمريكا ، وجرائم الصهيونيين البشعة التي لم تعد تخفى على أحد في العالم .

وهكذا تعالت أصوات الاستغاثة ، من كل جانب ، تهب بالخليفة العباسي ، المستظهر بالله (١٠٩٤ - ١١١٨ م) ، إلى القيام بعمل شيء رغم ما كان عليه من وهن وضعف وانحلال . وقام الخطباء في الجوامع والمصليات يذرفون الدموع حزينين مستغيثين لما حلّ بالأمة الإسلامية من محنة ، ويستنهضون الهمم والضامير لتوحيد الكلمة والاستعداد للمقاومة والكفاح في سبيل الذود عن الحمى والعرض والمال والجار . ولاقت هذه الصيحات المتعالية المدوية ، من كل جانب ، أذاناً صاغية عند من وخزهم الضمير على التقصير . وبدأ الجهاد ضد الصليبيين يظهر على مسارح الكفاح حيثما هاجم الصليبيون . ولكن هذه الحركات كانت تحالفات دفاعية مؤقتة ، ولم تأت بأكبر نتيجة . بيد أنها إن دلت على شيء ، فإنما تدل على عدم الرضا بالاحتلال والعدوان وبذل المزيد من الجهد في سبيل الدفاع . ونذكر ، على سبيل المثال ، دفاع مودود أمير الموصل ، وأيل غازي أمير ماردين ، ورنكان أمير خلاط ، وطغتكين أمير دمشق في حصار الرها عام ١١١٠ م لاستردادها من أيدي الصليبيين : وكذلك تحالف مودود مع طغتكين وسليمان بن منقذ ، أمير شيزر ، لمهاجمة كونتية طرابلس ؛ وتحالف طغتكين ومودود عندما

أغار بوذون الأول على دمشق ، أو عندما تعرضت حلب لهجوم روجر ، أمير أنطاكية ، عام ١١١٩ م وغيرها ...

الثاني : الدفاع الواعي المنظم والموحد ، وقد نما تدريجياً وعلى مراحل . ومن الممكن أن نقول إن هذا الدفاع بدأ منذ ١١١٨ م عندما تمثل بتهديد دول الفرنجة والسياسة الجريئة التي سلكها أمير ماردين ، أيل غازي . فقد أدرك قيمة الاتحاد لرد عدوان الصليبيين على المناطق المهددة في الداخل أكثر من غيرها : حلب ، حمص ، دمشق ، والإمارات التركية في العراق الأعلى . وهذا ماقادته إلى التحالف مع دولتي حلب ودمشق ، ومكنه من سحق فرسان الصليبيين في شرق نهر العاصي في الموقع المسمى (ساحة الدم) في ٢٠ حزيران ١١١٩ م . ومع ذلك ، كان الصليبيون قادرين من بعد على توطيد الوضع على يد بوذون الثاني ملك القدس .

وبعد عشر سنوات جاء زعيم آخر ، وهو أتابك الموصل ، عماد الدين زنكي ، وأتم سياسة أيل الغازي ، وجمع تحت إمرته الأراضي الواسعة بين الموصل وحران وحلب ، وهدد من جديد الدول الفرنجية ، واستولى ، في بضعة أسابيع ، على منطقة ماوراء العاصي ، في معركة جبل الحجاج ، في آذار ١١٣٧ م .

والمهم ، في نظرنا ، هو أنه تابع هجائته المتوالية على كونتية الرها حتى أفقرت وأصبحت بلقعة ، ووقعت أخيراً في يده ، فكانت أول دولة استردها المسلمون ، في ١١٤٤ م ، كما كانت أول منطقة استولى عليها الصليبيون عند غزوهم البلاد . ومنذ منتصف القرن الثاني عشر شعر الصليبيون بالخطر ، وأخذت جهودهم تتكاثر وتتكاثر خشية إبادة كلية . ولكنهم استطاعوا أن ينجوا لأن المسلمين مازالوا منقسمين وميزان القوى بين الجانبين متعادل الكفتين تقريباً .

غير أن هذا التوازن الضعيف انقطع على يد نور الدين بن عماد الدين زنكي أمير حلب الشهباء ، عندما توحدت المنطقة الشمالية من سورية وتحجرت وأخذت تهدد الصليبيين . وهذا ما جعلهم يتجهون بأنظارهم صوب مصر كتعويض . ومن دفاعهم اليأس في الشمال ، وهجومهم المتهور في الجنوب بدت بوادر الأجل المحتوم .

ودون أن ندخل في تعداد الحوادث وتفصيلها ، حسبنا أن نذكر أن الاتحاد الذي هياه نور الدين ، وانتهى تحت إدارة صلاح الدين الأيوبي ، أخذ يجني ثماره في حركة التوحيد والتحرير التي توالى على يد المدن الأربع : الموصل ، حلب ، دمشق ، القاهرة .

لم يكتف نور الدين بوحدة سورية الشمالية ، بل حقق اتحاد سورية الوسطى معها بعد أن استولى على دمشق . وفي الوقت نفسه اتجهت طموحاته صوب مصر الفاطمية التي أصبحت موضع تنافس الصليبيين والمسلمين . ومحاولاته هذه أدت أخيراً إلى الوحدة الإسلامية ، كما أدى تدخل الصليبيين في مصر إلى الوحدة السياسية ، بعد أن استهلكت فيها ثورات القصر المتتابعة ، وبدت غنية سهلة بالنسبة للفرنجية في مملكة القدس ، لإعادة التوازن مع قوة نور الدين الصاعدة . ولكن مصر ضاعت نهائياً من يد الفرنجة ، بعد أن استولى أسد الدين شيركوه على الحكم فيها باسم نور الدين . وعندما توفي في سنة ١١٦٩ م ، أصبح ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي فيها وزيراً .

وما أن مضت بضع سنوات على تولي صلاح الدين الوزارة ، حتى بدا هاجساً خيفاً للصليبيين . فبعد الخليفة الفاطمي أصبح السيد الفعلي في مصر ، وإن كان فيها نائباً عن نور الدين . ولكن سيده توفي ، وبعد هذه الوفاة ، امتد نفوذ صلاح الدين على بلاد المشرق الأدنى عندما ألف القلوب بين الأطراف المتنافسة في

سورية ، وأصبحت دمشق وحلب والعراق الأعلى والحجاز والنوبة واليمن تحت لوائه . وبهذا الاتحاد أصبحت الأرض المقدسة المحتلة مطوقة من ثلاث جهات . ومع ذلك لم يفقد الفرنجة شجاعتهم ودفاعهم الحربي . غير أن الغارات التي قاموا بها ، في ذلك الحين ، لم يكن منها إلا تأخير الوحدة الإسلامية إلى حين .

وانطلاقاً من ١١٨٣ م ضعفت مملكة القدس اللاتينية بسبب المنازعات الداخلية في قضية وراثة العرش ، وتنافس الزعامات الفرنجية . ووجدت فئتان :

الأولى : فئة البارونات المحليين والنظم الدينية .

الثانية : فئة بارونات الغرب والأكليروس الأعلى .

وبعد لأي ، تغلبت هذه الفئة الأخيرة ، وفرضت غي دولوزينيان ملكاً ، وهو غير أهل لهذا المنصب . كان مكروهاً ، وليس له سلطة ، ومغامراً ، ومقامراً بحياة الناس في بلده قبل أن يأتي إلى فلسطين .

أفاد صلاح الدين من هذا النزاع على السلطة والعرش ، وقرر أن يضرب الضربة القاصمة . وفي معركة حطين أنجز حرماً وعد ، في ٣ - ٤ تموز ١١٨٧ م . وكانت هذه المعركة كارثة كبرى للصليبيين . وبعد هذا النصر الساحق ، أخذ يسترد فلسطين منطقة منطقة ، والمدن الساحلية الواحدة بعد الأخرى ، حتى أصبحت القدس معزولة . وما وسعها إلا أن أذعنت للقوة ، وطلب الصليبيون فيها الأمان مقابل تسليم المدينة . وفتحت (بيت المقدس) أبوابها ، ودخلها السلطان صلاح الدين ، يوم الجمعة في ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ الموافق للثاني من تشرين الأول ١١٨٧ م ، أي بعد ثلاثة أشهر على نصر حطين المجيد .

وهنا تجدر المقارنة بين ما فعله الصليبيون عند احتلال القدس ، وما فعله صلاح الدين عند فتحها واستردادها ، حتى طبقت شهرته الطيبة ، وحسن تعامله

مع الناس والأحداث ، آفاق الشرق والغرب . كتب غودفروا دوبيون الذي سمى نفسه تواضعاً وتقياً (حامي القبر المقدس) إلى البابا عند فتح بيت المقدس يقول : « إذا رغبت أن تعرفوا ما صنع بالأعداء الذين وجدوا في القدس ، فاعلموا بأن رجالنا كانوا يخوضون في دماء المسلمين في بوابة سليمان وفي الهيكل » . وتصف روايات الشهود للمجازر : « نحو عشرة آلاف مسلم ، أيدوا في الهيكل » . « ومن وجد هناك كانت أقدامه ملطخة بدماء القتلى حتى الركب . ولم ينج أحد من الكفرة (المسلمين) ، ولم توفر النساء ولا الأطفال الصغار » .

وتلت مشاهد النهب والسلب مشاهد المجازر : « وبعد أن شبع رجالنا من المجازر ، شرعوا يدهمون البيوت ، ويأخذون كل ماتقع عليه أيديهم . وأول من يأتي ، فقيراً كان أم غنياً ، ويدخل مسكناً من المساكن ، يستولي عليه وعلى كل ما فيه ، ويصبح مالكا له كملكه الخاص ، حتى أصبح هذا التصرف قانوناً وتجب مراعاته بدقة .

وتحررت القدس المدينة المقدسة ، عند كل الطوائف المؤمنة ، وملأت الفرحة القلوب ، وعمت البهجة النفوس ، وفاض الأدب العربي مهلاً بالثناء والمديح على صلاح الدين والدنيا ، لعدله وتسامحه وحسن بلائه وعودة بيت المقدس إلى أهله . ولم يكن هذا إلا بفضل تأزر القوى الإسلامية ، بعد أن هزمتها الحملة الصليبية وأخذتها الحمية العربية - الإسلامية ، وتوافدت من كل حذب وصوب ، وتجمعت في جيش واحد ، وتحت راية واحدة ، راية صلاح الدين ، بعد أن فت في عضدها ضعف الإدارة المركزية والتجزئة السياسية ، وتفطيت قوى الإسلام .

هذا الفتح المجيد الذي حققه صلاح الدين ، لم يبق من الدول الفرنجية في فلسطين وسورية آنذاك إلا بعض بقايا متناثرة على طول الساحل . وفي مملكة القدس السابقة ، بقيت صور المدينة الوحيدة التي ظلت تقاوم . وفي كونتية

طرابلس تماسك البروفانسيون في طرابلس نفسها ، وفي طرطوس وفي قلعة الحصن . وفي الشمال أخيراً كانت أنطاكية آخر مركز للمقاومة .

وهذه الكارثة التي مني بها الصليبيون في الحملة الصليبية الثانية ، أثارت حملة صليبية ثالثة بقيادة الإمبراطور الألماني فريدريك بارباروسا ، وملك فرنسا فيليب أوغست ، وملك إنكلترا ريتشارد قلب الأسد . انطلق فريدريك بارباروسا برجاله الألمان . وفي آسيا الصغرى سحق الأتراك في قونية ، وعبر جبال طوروس وعسكر على ضفاف نهر قره صو (سيدنوس) ، وفيما كان يسبح في النهر أصيب باختناق رئوي أودى بحياته ، والتحق بقايا جيشه بالفرنسيين والإنكليز أمام عكا .

وانطلق فيليب أوغست من جنوة ، وريتشارد قلب الأسد من مارسيليا ، ووصلا صقلية في ١١٩٠ م ، ومنها إلى عكا . وفي الطريق فتح ريتشارد قلب الأسد جزيرة قبرص ، وعندما وصل الملكان إلى عكا ، كان الموقع محاصراً من البر والبحر منذ عام . وتحت أسوارها قامت معارك كبرى ، واضطرت الحامية الإسلامية فيها أخيراً للاستسلام في تموز ١١٩١ م . وبعدها عاد فيليب أوغست إلى فرنسا . أما ريتشارد قلب الأسد فقد بقي عامين في الأرض المقدسة ، ونشبت بينه وبين صلاح الدين معارك دامية . نذكر منها معركة (شعبان ٥٨٧ هـ / أيلول ١١٩١ م) انتصر فيها الصليبيون واعتبروها أخذاً بشأرحطين . ومع ذلك استمرت المعارك حتى بدا أن الطرفين أنهكها القتال ، وجنحا للسلم ، وتم بينهما توقيع الصلح المعروف بـ (صلح الرملة) في شهر شعبان ٥٨٨ هـ / ٢ أيلول ١١٩٢ م . وهو (صلح وسط) أو (تسوية) بالتراضي بين الطرفين المتقاتلين ، يحتفظ فيه كل طرف بما في يده لمدة ثلاث سنوات وثمانية أشهر . والذي يهمننا هو بقاء القدس بيد المسلمين . وعكا ، عاصمة مملكة (بيت المقدس) الجديدة ، ظلت قرناً آخر ، حتى ١٢٩١ م ، في يد المسيحيين .

هذه الحملة الصليبية الثالثة تبدي بعض الصفات الأصلية : أولاً ، إن الجيوش التي شاركت فيها لا تشبه الجحيم الغفير من الناس الذين رأيناهم في الحملة الصليبية الأولى . لقد أبعد عنها الحجاج بشدة وصرامة . ومن هنا فإن الحملة كان لها صفة عسكرية أكثر منها دينية . وليصل الفرنسيون والإنكليز إلى فلسطين اجتازوا البحر المتوسط ، وتجنبوا المرور عبر أوربة وآسيا الصغرى والخلافات العديدة مع الشعوب التي يلقونها في طريقهم . وطريق البحر كان أسرع وأقصر وأسهل للنقل . وقد أصبح الطريق البحري منذ الآن طريق الحملات الصليبية .

ومن جهة أخرى إن النزاع بين المسيحيين والمسلمين فقد شدته وحدته اللتين كانتا في البدء . فقد ضعفت الكراهية الدينية ، وكان الخصوم شجعاناً ويقدرهم بعضهم . كما توطدت فيما بينهم علاقات مهذبة خارج ساحات المعارك . فبعد معركة حطين أراد صلاح الدين من غي دولوزينيان ، أسيره ، أن يجلس إلى جانبه في خيمته وقدم له الماء ليشرب . وفي حصار عكا تبادل صلاح الدين الهدايا مع ريتشارد قلب الأسد . وارتبط هذا بعلاقة صداقة مع أخ صلاح الدين حتى أنه فكر بتزويجه أخته . وتقدمت المفاوضات في هذا السبيل ، إلا أن التهديد بالحرمان أوقف ريتشارد وحال دون هذا الزواج .

الحملة الصليبية الرابعة

كانت هذه الحملة تتمة للحملة الثالثة . لقد قررها البابا إينوسان الثالث (١١٩٨ م) بعد خمس سنوات من عودة ريتشارد قلب الأسد . وفي السنة التالية ، وفي مباراة قام بها كونت شامبانيا ، حمل الحضور الصليب ، وتبعهم عدد عظيم من فرسان الشمال للشرق ، في وقت كان فيه ملك إنكلترا وملك فرنسا في حرب أحدهما ضد الآخر ، ولذا امتنعا عن المشاركة في هذه الحملة التي كانت كالحملة الأولى حملة إقطاعية . وانتخب الأمراء كونت شامبانيا زعيماً عليهم ، وبعد موته فارساً من بيمونت وهو بونيفاس مونفراً .

لقد قرر البابا إينوسان الثالث أن يهاجم الصليبيون المسلمين في مصر ، لأنها كانت مركز قوتهم . فإذا غلبوا في مصر لا يستطيعون الاحتفاظ بفلسطين وسورية .

وكان الصليبيون بحاجة إلى سفن ، والبنادقة يملكون أهم أسطول في البحر المتوسط . فأرسل إليهم الصليبيون كثيراً منهم ، ومن بينهم فيلهاردون الذي كتب فيما بعد تاريخ هذه الحرب الصليبية ، لمفاوضتهم بإيجار سفنهم . وتعهد البنادقة بنقل الصليبيين ، وكانوا تقريباً نحو أربعة عشر ألف فارس وعشرين ألف مشاة ، بأجر قدره ٨٥٠٠٠ مارك فضي شريطة أن تدفع قبل الانطلاق . ومن جهة أخرى على البنادقة أن يضموا قواهم إلى قوى الصليبيين ، ومن بعد يتقاسم الحلفاء الفتوحات والغنائم .

احتشد الصليبيون في البندقية ، ولم يستطيعوا دفع كامل المبلغ المتفق عليه . ورأى البنادقة في ذلك مناسبة لعمل رابح . وربما ، لمصلحة تجارتهم ، كانوا يفضلون ألا تهاجم مصر ؛ فاقترحوا على الصليبيين إبرائهم من باقي الدين ، إذا أرادوا ، قبل الإبحار نحو مصر ، أن يساعدوهم في أخذ زارا على بحر الأورياتيك ، هذا الميناء المنافس للبندقية . قبل الزعماء الصليبيون . وأخذت زارا ونهبت .

وفي الحقيقة ، لقد تهيأت هذه الحملة الصليبية الرابعة في آخر القرن الثاني عشر لمساعدة الدول اللاتينية المنهكة في المشرق الإسلامي . ولكن هذه الحملة هل تستحق أن تسمى حملة صليبية ؟ لقد أعدت الحرب المقدسة لضرب القوة الإسلامية ، ولكنها تحولت إلى مشروع نهب وسلب وغزو ضد الإمبراطورية البيزنطية في الشرق . وبقيت القدس في أيدي المسلمين ، فيما كان الصليبيون يهاجمون القسطنطينية .

ضعف بيزنطة

هذا التحويل للحملة الصليبية الرابعة كان غير منتظر بادي ذي بدء . فهند الحملة الصليبية الأولى ما فتئت أحقاد الغربيين في ازدياد ضد المسيحيين المنشقين الذين لعبوا مراراً لعبة مضاعفة بين الصليبيين والمسلمين . وكلما مرّ الصليبيون عبر الإمبراطورية الإغريقية ، كانت تحصل حوادث ومناوشات بين الفرسان الفرنجة وجنود البازيلوس . وإلى هذا الحقد الدفين بين الطرفين تضاف جاذبية ومفاتيح بقايا وذخائر ثمينة محفوظة في القسطنطينية ، وبخاصة الطمع في الثروات المتهمة في المدن البيزنطية . ولذا فإن تدخلاً مسلحاً ضد بيزنطة يمكن أن تكون له فائدة مضاعفة في إنهاء الحيدة بين المسيحيين الغربيين الكاثوليك والمسيحيين المنشقين في الشرق وسهولة النضال ضد الإسلام بالوحدة المسيحية . وهذه الحالة الفكرية ليست جديدة في الغرب . فحتى آخر القرن الثاني عشر ، وتحت إدارة آل كومنين الحازمة (ألكسيس الأول ١٠٨١ - ١١١٨ م ، وجان الثاني ١١١٨ - ١١٤٣ م ، مانويل الأول ١١٤٣ - ١١٨٠ م) ، ظلت الإمبراطورية البيزنطية قوية صلبة بما يكفي لتقف عثرة أمام المحاولات الغربية لتجزئتها ، وبصورة أساسية محاولات النورمانديين . وفي آخر القرن الثاني عشر لم يكن الوضع على مثل هذه الحال . لأن بيزنطة ضعفت بشكل خطر ، وأصبحت غنية جذابة للعديد من الدول الغربية التي تألبت مصالحها ضد بيزنطة . وفي الحقيقة ، لقد وقعت الإمبراطورية في حالة فوضى . وذلك أن أندرونيك كومنين ، بعد أن ثلّ عرش ابن عمه ألكسيس الثاني (١١٨٠ - ١١٨٣ م) حاول أن يستأنف الحالة بيده بإقامة نظام إرهاب يقضي على الطبقة الأرستقراطية (١١٨٣ - ١١٨٥ م) . ولكن الطبقة النبيلة ظفرت أخيراً ورفعت إلى السلطة أحد رجالها وهو إسحاق الثاني أنج (١١٨٥ - ١١٩٥ م) . ثم قلب هذا بدوره على يد أخيه ألكسيس الثالث أنج (١١٩٥ - ١٢٠٣ م) . وهذه التمزقات الداخلية حضت أطماع أعداء بيزنطة :

ففي البلقان ، حقق الصرب اتحادهم تحت قيادة نياميا ؛ والبلغاريون ، نظموا أنفسهم من جديد ، منذ ١١٨٥ م ، تحت إدارة أسرة من كبار الأمراء ، وكان زعيمهم جان آزين يحلم بتأسيس مملكة بلقانية كبرى . وكانوا أكثر من أي وقت مضى ، جيراناً خطرين على الإمبراطورية الإغريقية . وأكثر من ذلك ، أن الصرب والبلغار تفاوضوا مع روما للخلاص من وصاية بطركية القسطنطينية ، وشكلوا مع هونغاريا ، التابعة للكرسي الأقدس ، فريقاً من الدول المعادية جداً لبيزنطة . وكان لهذه الدولة الأخيرة أعداء آخرون أيضاً أكثر استشرافاً لضياعها ؛ ففي إيطاليا ، كانت البندقية تحاول أن تؤمن السيطرة على المبادلات بين الشرق والغرب . يضاف إلى ذلك أن الحصر التجاري الذي نجحت الجمهورية البندقية في كسبه في الإمبراطورية في بداية القرن الثاني عشر ، كان مهدداً بعد أن حاولت السياسة البيزنطية أن تشجع في القرن الثاني عشر ، ضد قوة البندقية الكبرى ، الفاعلية المنافسة لمدينتين إيطاليتين أخريين وهما : جنوة وبيزا . ويرى الدوج داندولو أن الوقت قد حان لانتزاع فوائد حاسمة بالقوة . أما نورمانديو صقلية ، فلم يتخلوا عن برنامجهم في التوسع على حساب الإمبراطورية البيزنطية : ففي ١١٨٥ م ، أرسل الملك غليوم الثاني ضدها جيشاً عظيماً نزل في درازو واستولى على تسالونيك . وزحف النورمانديون على القسطنطينية ، حيث كان غليوم الثاني يحلم بلبس التاج الإمبراطوري ، عندما نجح جيش بيزنطي في قهرهم في ديميتزا ، في أيلول ١١٨٥ م ، وطرحهم في البحر . إلا أن مشروع النورمانديين لم يزل بانطفاء سلالته ، لأن الإمبراطور الجرمانى هنري السادس ، خلف فريديريك بارباروسا ، ولكن أيضاً العواهل النورمانديين في صقلية ، داعية الحلم الإمبراطوري نصب نفسه طواعية حامياً لألكسيس الشاب ابن العاهل المخلوع على يد ألكسيس الثالث أنج . وكذلك فيليب سؤاب ، أخو هنري السادس تزوج أخت الأمير ألكسيس ، وأعلن هو أيضاً عن مزاعمه بتاج القسطنطينية .

تحويل الحملة وأخذ القسطنطينية

إن كل هذه المصالح المتألمة شوهت مشروع البابا إينوسان الثالث وحولت الحملة الصليبية عن غاياتها الأولى . وبالرغم من الجهود التي بذلها البابا إينوسان الثالث ، الذي هدد الصليبيين بالحرمان وحرّم البنادقة ، فإن الصليبيين انطلقوا لفتح القسطنطينية ، وفي ١١ تموز ١٢٠٣ م ، حاصروها ، وبعد ثمانية أيام ، ثل فيها سكان المدينة عرش ألكسيس الثالث ، وفتحت المدينة أبوابها للإمبراطور المنفي ولابنه الذي أصبح إمبراطوراً مساعداً تحت اسم ألكسيس الرابع . ولكن ألكسيس لم يبادر بدفع المبالغ الموعودة للفتاحين . ومن جهة أخرى أثار استياء الإغريق الذين يكرهون الصليبيين ، اللاتين ، كما يسمونهم . ونشبت ثورة وقلبت ألكسيس ، وشكا الإغريق السلاح ضد الصليبيين . وكان هؤلاء معسكرين في خارج المدينة ، فقرروا الاستيلاء عليها . وفي ١٢ نيسان ١٢٠٤ م أصبحوا سادة وبدؤوا بنهبها بشكل مريع ، وسلكوا فيها مسلك الهمج ، شوهوا الرخام ، وحطموا الأعمال الفنية ليسحبوا منها الذهب والفضة والأحجار الكريمة التي تزينها . حتى أنهم صهروا التماثيل البرونزية وروائع النحاتين القدامى ليجعلوا منها قطع نقود . ويحتفظ اليوم في البندقية ، وفي كثير من مدن الغرب ، ببقايا وبآثار فنية بيزنطية أتت بها من القسطنطينية . وهكذا انتهت الحملة الصليبية الرابعة بنهب روما الجديدة ، هذه المدينة التي أراد قسطنطين أن يجعلها المدينة المسيحية بأعلى درجة .

تجزئة الإمبراطورية البيزنطية

لقد كان المجال رحباً أمام الصليبيين بعد هذه الأحداث لتحقيق أطماعهم . اقتطعت البندقية جزءاً خاصاً بها ، وتلكت عدة مواقع تمتد على طول الطريق التجاري من الأدرياتيك إلى القسطنطينية ، ديراشيوم ، راغوز ، مودون في أقصى البيلوبونيز ، أدرنة في تراكيا ، وموانئ الهلبسون ، وبحر مرمرة

(غاليليولي وهرقله) ؛ ومن جهة أخرى ، أقامت في الجزر الأيونية ، التي أعطيت إلى نبلائها ، في أويية وفي كريت التي تركها للبندقية بونيفاس دومونفرا ، وهذا ما أمن لها الإشراف على بحر إيجه . وفي العاصمة البيزنطية نفسها كان البنادقة سادة ثلاثة أخماس المدينة . وخصوا أنفسهم أخيراً بالإشراف الروحي على الإمبراطورية اللاتينية وكان بطريريك القسطنطينية توماس موروزيني بندقياً . وعلى أطلال الإمبراطورية الإغريقية التي أنهوا فتحها بسرعة ، شاد الصليبيون إمبراطورية لاتينية ، فقد بورك كونت الفلاندر ، بودون ، إمبراطوراً في كنيسة أياصوفيا (القديسة صوفيا) ، في ١٦ أيار ١٢٠٤ م . وخص نفسه بضم تراكي والأراضي المعدة للفتح في آسيا الصغرى . وتألقت إمارات وإقطاعات هامة قليلاً أو كثيراً لصالح أمراء الحملة الصليبية الأساسيين . حصل مونفرا على ماكيدونيا (مملكة تسالونيك) . وتشكلت دوقية حول أثينة وطيبة لصالح أمير فرنسي ، أوتون دولاروش . وفي البيلوبونيز أسس آل فيلهاردون إمارة أكايي ؛ وأدخلوا فيها النظام الإقطاعي ؛ فقد قسمت البلاد إلى اثني عشرة إقطاعية ، ولكن سلطة الأمير كانت محددة بعدة أعراف ستقن في القرن الرابع عشر (قواعد رومانيا) . وارتسم اتحاد بين الأرستقراطية الفرنجية والأمراء الإغريق .

الإمبراطورية اللاتينية المؤقتة

جاءت مقاومة توطين الفرنجة من البلغاريين والبيزنطيين . فقد سلك الأوائل سياسة عالملة متقلبة بين اللاتين والإغريق . ولكن مشاريعهم ، بإضعاف الإمبراطورية اللاتينية ، شجعت أخيراً عودة هجومية للإغريق . ولجأت المقاومة البيزنطية في ثلاثة مراكز منعزلة :

أ - إمبراطورية طبرزون التي أنشئت في جنوب البحر الأسود على يد أمير آل كومنين ، والتزمت سياسة انعزالية ، ولم تتخل عنها حتى فتحها على يد الأتراك .

٢ - استبدادية إبيروس . ٣ - امبراطورية نيقية ، وكانتا خصمين عنيدين للفرنجية . ولكنها لم تناضلا باتفاق تام ؛ لأن مستبدي إبيروس ، الذين ينتسبون إلى أسرة آنج ، كانوا يعملون لحسابهم الخاص . ولكن كان عليهم أن يواجهوا ، على حدودهم الشمالية ، التهديد البلغاري الذي يشل عملهم .

لذا ، فن إمباطورية نيقية سيخرج محرر بيزنطة . لقد أسس هذه الإمباطورية تيؤدور الأول لاسكاريس (١٢٠٤ - ١٢٢٢ م) ، الذي ثبتها بإحرازه نصراً مبيناً على سلطان إيكونيوم . وخلفه إمباطور قوي ، جان الثالث قاتاتزيس (الرحيم) (١٢٢٢ - ١٢٥٤ م) .

بعد عام تقريباً على أخذ القسطنطينية ، كادت الإمباطورية اللاتينية أن تسقط . فقد أدى غزو بلغاري عليها إلى ثورة الإغريق وهزيمة الفرنجة بفضاعة في أدربة (١٢٠٥ م) . وأخذ البلغار الإمباطور بودون أسيراً ، ومات بعد بضعة أشهر في سجنه . ومع ذلك فإن الإمباطورية اللاتينية ظلت تقاوم خمسين سنة أيضاً . فقد استطاع هنري دوهينوت (١٢٠٥ - ١٢١٦ م) ، الذي خلف أخاه في ظروف صعبة ، إرجاع الحالة إلى ما كانت عليه تماماً ، وجمع شتات الشعب الإغريقي الذي أرعبته فظاعة البلغاريين ، وتوصل إلى طرد هؤلاء وسحقهم في معركة فيليبوبولي (١٢٠٨ م) ، وتوصل بعناء إلى اعتراف بارونات الفرنجة بسيادته في اليونان وماكيدونيا ، وحاول أن يكسب حظوة عند الإغريق بحماية الأكليروس الأرثوذكسي . وأخيراً ، استأنف في آسيا سياسة هجومية ضد إمباطورية نيقية ، واضطر على إثرها تيؤدور لاسكاريس أن يتخلى عن سواحل بيتينيا ، وميزيا ، وترواد . بيد أن نجم الإمباطورية اللاتينية أفل بعد موت هنري هينوت وتفتتت بشكل لا يشفى . وكان خلفه بيير كورتنية (١٢١٦ - ١٢١٨ م) ، ومن بعده ابنه رويير الأول (١٢٢١ - ١٢٢٨ م) ، غير كفؤين لتأمين الدفاع عن الإمباطورية . فمن ذلك أن الهدب الساحلي الذي فتح في

آسيا الصغرى قد تخلى عنه ، واحتل مستبد إبيروس تسالونيكيا وماكيدونيا (١٢٢٢ م) ؛ وسحق البلغار يون الجيوش اليونانية في إبيروس (١٢٣٠ م) . وساءت الأحوال عندما تولى العرش طفل بعمر اثني عشر عاماً ، وهو أخ لروبير الأول ، واسمه بودون الثاني (١٢٢٨ - ١٢٦١ م) ، وعهد بالوصاية عليه إلى شيخ بعمر الثمانين عاماً وهو جان دوبرين ، الذي اشتهر في الأرض المقدسة . وأفاد إمبراطور نيقية جان الثالث فاتاتريس من هذا الوضع للنزول في أوربة ، واستعاد من البلغار فتوحاتهم في مأكيدونيا وتراكيا واستولى على تسالونيكيا . وبعد موته وموت ابنه تيؤدور الثاني (١٢٥٤ - ١٢٥٨ م) ، يرى أن ميشيل باليؤلوغ ، الذي لعب لدى الشباب جان الرابع لاسكاريس (١٢٥٨ - ١٢٦١ م) دور الوصي ، قد استأنف الهجوم ؛ وطرد البلغار من مأكيدونيا ، ثم أحرز نصراً على مستبد إبيروس وعلى حليفه ، أمير آكلي ، غليوم دوفيلهاردون ، وفي ٢٥ تموز ١٢٦١ م ، أخذ جنود ميشيل القسطنطينية بمفاجأة ، فيما كان الإمبراطور اللاتيني بودون الثاني والبطريك اللاتيني يهربان إلى الغرب .

وهكذا نهكت قوى الإمبراطورية اللاتينية من هذه المحنة . وميشيل باليؤلوغ الذي توج في آيا صوفيا تحت اسم ميشيل الثامن ، حكم على إمبراطورية خربتها الحرب وشوهتها ؛ ولم تمارس سلطة حكومة القسطنطينية إلا على أرض نيقية وتراكيا وجزء من مأكيدونيا . وظلت الدولتان الإغريقيتان ، إمبراطورية طربزون واستبدادية إبيروس ، مستقلتين ؛ وبقي الفرنجة في منطقتين ، ودوقية أثينة ظلت في أيدي الفرنسيين ، ولم تنج منهم إلا لتقع بين أيدي الكاتالانيين . وفي إمارة مورة حصل ميشيل باليؤلوغ في (١٢٦٢ م) على تنازل من أربعة مواقع حصينة في لاكونيا مقابل الحرية التي منحها لغليوم فيلهاردون . ولكن هذا اعترف به تابعاً للملك صقلية شارل دانجو (١٢٦٧ م) ، وأصبحت مورة ملحقة بالملكة الأنجوية . وأخيراً ، إذا فقد البنادقة امتيازاتهم الاقتصادية في

الإمبراطورية ، فقد حلّ محلهم الجنويون ، لأن هؤلاء ساعدوا الإغريق على طرد اللاتين . وهكذا فإن الحملة الصليبية الرابعة كان من نتيجتها لغم قوى الإمبراطورية الإغريقية وبالتالي إضعاف الحضور المسيحي في البحر المتوسط الغربي .

نهاية الحملات الصليبية

إن تحويل الحملة الصليبية الرابعة ونهب القسطنطينية يدلان على أن حالة الأفكار قد تحولت عما كانت عليه في زمن الحملة الصليبية الأولى ، وأن الحماسة الدينية قد فترت وضعفت بشكل فريد . ومع ذلك فقد وجدت عدة حملات في سياق القرن الثالث عشر . ولكنها باستثناء الحملة السادسة ، باءت بالفشل بشكل مريع .

لقد وجهت الحملة الخامسة (١٢١٧ - ١٢٢١ م) من قبل ملك هونغاريا ضد مصر ، وضمت بخاصة ألماناً وهونغاريين وانتهت بكارثة .

والحملة السادسة (١٢٢٨ - ١٢٢٩ م) لها صفة خاصة ، وهي أن زعيم هذه الحملة وهو الإمبراطور فريديريك الثاني كان محروماً ، وعوضاً عن أن يحارب المسلمين تفاوض معهم . فمُنذ توفي السلطان صلاح الدين الأيوبي ، أخذ أولاده وإخوته وأقاربه يتهافتون على سلطته ، ويتقاتلون بسببها وكأنها غنية سائغة . وبدأ بعد صلاح الدين دور تفسخ وانحلال دفع الصليبيين لاسترداد ما فقدوه في صلح الرملة ، وهو تسليم بيت المقدس صلحاً إلى الإمبراطور فريديريك الثاني الجرمانى على يد الملك الكامل باتفاق يافا (في شباط ١٢٢٩ م) ، شريطة أن يبقى سور بيت المقدس مخرباً ولا يعاد تجديده وبناءؤه ؛ وأن يحتفظ المسلمون بالمسجد الأقصى وقبة الصخرة (جامع عمر) ، ويكون للملك الصليبيين القرى الممتدة على طول الطريق بين بيت المقدس وعكا ، عاصمة الصليبيين الجديدة .

وهذا الصلح ، وإن جعل بيت المقدس مدينة مشتركة بين المسلمين والصليبيين ، إلا أنه لم يرض الفريقين ، وقام الاحتجاج عليه من جانب وآخر .

وما أن توفي الملك الكامل ، حتى عاد الانقسام في البيت الأيوبي إلى سابق عهده ، ولكن الملك الصالح نجم الدين ابن أخي الملك الكامل ، ملك مصر ، استعان بالقبائل الخوارزمية ، وبعد واقعة بينه وبين عمه الصالح إسماعيل وحلفائه الصليبيين ، انتصر فيها الملك الصالح نجم الدين (سنة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م) ، واسترد القدس بعد أن ظلت خمسة عشر عاماً بيد الصليبيين .

والحملة السابعة والثامنة قام بها ملك فرنسا التقي ، القديس لويس . كان هدف الحملة السابعة (١٢٤٨ - ١٢٥٤ م) مصر . بدأت بأخذ دمياط ، ولكن الصليبيين فوجئوا بفيضان النيل ، وأصابهم وباء مميت ، وحاصرهم المسلمون واضطروهم للاستسلام . ولم يحصل القديس لويس على حرية فرسانه إلا بدفع فدية عظيمة ، وعلى حريته إلا بإرجاع دمياط .

أما الحملة الثامنة (١٢٧٠ م) ، فقد وجهها القديس لويس بناءً على نصيحة أخيه ملك نابولي ، شارل دانجو ، إلى تونس . ولكنه مات إثر الطاعون الذي أصابه تحت أسوار المدينة في ١٢٧٠ م ، ولم يستطع شارل دانجو ، بعد أن طالب بتاج القدس ، أن يتدخل ، بعد أن نشبت الثورة ضده في صقلية .

وهذا النزاع المتكرر في سبيل نصر حاسم لأي من الفريقين المتنازعين ، مع اللجوء إلى المهادنة والمصالحة بعد المعركة ، يدل ولا شك على ضعف الأيوبيين بسبب تنازعهم ، بالرغم من أنهم ما يزالون سادة الموقف ، وبالتالي ضعف الوحدة التي حققها صلاح الدين بالعناء والصبر ، بغية النصر والتحرير من العدوان الصليبي الغربي . كما يدل أيضاً على ضعف الحماسة الدينية والأطباع الاستعمارية التي كانت عند الصليبيين الأوائل ؛ لاسيما وأن الإمدادات بدأ معيها ينقطع أو

لا يوجد إلا بالقليل ، وإن الواقع المحسوس أخذ يتغلب على الآمال الطامحة والنفوس التقية . وبذلك انتهت أخريات الحميات الدينية والورع الجماعي والطيش والطموح الذي أثار فرسان القرن الثاني عشر .

وقد صور الشاعر الفرنسي روتبوف ، بين ١٢٦٨ - ١٢٧٠ م ، هذا الوضع في (جدل بين صليبي متحمس) و (صليبي قانع ومؤمن) ، في الوقت الذي تجهز فيه الحملة الصليبية الثامنة . قال اللاصليبي : « أتريد أن أتخلى عن مالي وأترك أولادي يحرسون الكلاب . أنا لأعتقد أن الله يوحى إلى الإنسان بأن يبذر ماله على هذا النحو ... ولم الذهاب للبحث عن الله بعيداً ؟ وإذا كان موجوداً في كل مكان فهو موجود في فرنسا ولا شك » .

وذكر جواتشيل المؤرخ الفرنسي ، الذي صحب القديس لويس في حملته على مصر في ١٢٤٨ م في (مذكراته) ، أنه سمع فارساً يخاطب فارساً آخر بقوله : « إذا تصلب الملك ، أي إذا أصبح صليبياً ، فسيكون يوماً من أشد الأيام في أي وقت مضى في فرنسا ؛ لأننا إذا لم نتصلب يغضب الملك ؛ وإذا تصلبنا غضب الله ، لأننا لا نتصلب من أجله ، وإنما خوفاً من الملك » (ذكر في سيرة القديس لويس) ؛ حتى أن جوانفيل نفسه ، بالرغم من ضغوط الملك ، رفض التصليب مرة ثانية .

وظل النضال بين المسلمين والصليبيين ، ومع هؤلاء وحلفائهم من المغول غير المسلمين ، في مصر وبلاد الشام ، في سبيل قضية أخذت تبدو خاسرة بالنسبة للصليبيين ، بعد أن استلم المماليك دور الأيوبيين وسيطروا على عكا عاصمة الصليبيين في ١٢٩١ م ، وسجلوا بذلك بداية النهاية للحروب الصليبية ، لأن ما بقي للصليبيين على الساحل الشامي لا يتعدى بضعة موانئ ، أخذت تسقط تباعاً الواحدة تلو الأخرى .

نتائج الحملات الصليبية

لم تؤد الحملات الصليبية التي جردها البابوات وفرسان الغرب إلى النتائج التي توخوها ظاهراً ، وهي : تحرير الأرض المقدسة . لأن الدولتين اللتين أسسهما الصليبيون في الشرق ، مملكة القدس والإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية لم يكتب لهما البقاء . أما في الغرب ، وبخاصة في البلاد التي انطلقت منها الحملات ، فرنسا ، ألمانيا ، إيطاليا ، فقد كان للحملات نتائج هامة ، بعضها اقتصادي ، وبعضها سياسي واجتماعي .

النتائج الاقتصادية ، كان منها أن الحملات الصليبية أفادت من التجارة المتوسطية ، وضاعفت الصلات البحرية بين مدن الغرب والشرق . وأثرى نقل الصليبيين والحجاج بحارة مارسيليا ، وجنوة ، وبيزا ، وبخاصة البندقية . فمن هذه الموانئ كانت الأساطيل تنطلق بصورة منتظمة نحو الأرض المقدسة . وفي الوقت الذي كان فيه المسيحيون الغربيون سادة البلاد ، كان تجار فرنسا وإيطاليا يأتون إلى الموانئ الشرقية ، ويشتررون منتجات الصناعات الفاخرة التي اشتهرت بها بلاد المشرق ، مما أغنى في الغرب حياة البذخ والحضارة . فقد كانت بلاد المشرق العربية والإغريقية (البيزنطية) ذات حضارة متقدمة كثيراً على حضارة الغرب . هذا فضلاً عن أن رؤية البذخ الشرقي أيقظت عند الصليبيين تذوق البذخ : من اقتناء السجاد ، والمرايا ، والأثاث الجميل ، والأسلحة المرصعة ، والأقمشة الثمينة الحريرية والدامسكو (أي نسيج الحرير الدمشقي) ، والمخمل ، والحرير الموسليني ، كلها دخلت إلى الغرب في قسم عظيم منها عن طريق الحملات الصليبية . وقد يكون في القول مبالغة إذا وضع لحساب الحملات الصليبية كل ما اقتبسته الغرب عن الشرق في مضمار العلوم والفن والزراعة والصناعة . لأن الحضارة العربية كانت تشع في إسبانيا وفي صقلية كما في مصر وسورية . ولكن هذا لا ينفي أن هذه الحضارة العربية في الغرب الأوربي مشرقية الأصل .

فاختراع الورق والبوصلة ، على سبيل المثال ، عرف في أوربية قبل الحملات الصليبية ، وقد أخذ العرب عن الصين .

وللحملات الصليبية نتائج اجتماعية ، أهمها أنها أسهمت في كسر شوكة الأمراء الإقطاعيين ، وقضت على حياة الألوفا منهم ، وأفقرت الأحياء . فقد كان الصليبيون يرحلون على نفقتهم ، ويجهزون أنفسهم ، ويتكفلون بطعامهم وإطعام من معهم من رجالهم وحيواناتهم . ولذا كان يلزمهم الكثير من المال . وللحصول عليه كانوا يضطرون لبيع قسم من أملاكهم ، أو للاستقراض ، وبالتالي إعطاء رهن على هذه الملكيات ، وكان الجميع ينطلقون على أمل الثراء والغنى . ومن كان يعود منهم ، يعود معدماً ويضطر للبيع أو الاستدانة من جديد . وهذا الضعف والفقر أفادا الملوك وتابعي الأمراء وبخاصة سكان المدن الذين وجدوا سادتهم على استعداد لمنحهم حرياتهم ، مما زاد في حركة تحرير المدن التي بدأت منذ ما قبل الحروب الصليبية .

وأخيراً ، إن الفرنسيين مدينون للحملات الصليبية بنفوذهم السياسي والتجاري المتفوق في المشرق خلال قرون طويلة ، وبجاههم الذي مازال تأثيره ظاهراً في انتشار اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية ، عن طريق المدارس التي تأسست في بلاد المشرق ، وترجع في أصولها إلى الحملات الصليبية . هذا إلى أن بعض الصليبيين طاب لهم العيش في الشرق فأثروا الحياة في بلاده وأصبحوا شرقيين ، وانحدرت منهم سلالات وأجيال .

الفصل العاشر

آسيا الوسطى والشرقية

المقدمة

إن تاريخ البلاد الآسيوية ، بين القرن السادس والعاشر ، لا يمكن أن يوضع إلا بصعوبة متوازياً مع تاريخ الغرب أو الشرق الأدنى . وذلك لأن تمازج الشعوب ، وتقلب الخارطة السياسية ، وتغير الحضارات ، في هذه المناطق الأخيرة ، أعطت لونا خاصاً لهذه القرون . وما الكلام عن العصر الوسيط في الصين أو الهند إلا واسطة للمؤرخ لوضع تزامن الحوادث التي دارت في الشرق وفي الغرب في سياق هذه القرون الخمسة . والواقع ، في آسيا الشرقية ، أن التاريخ القديم امتد وطال ، وأن التطور استمر دون انقطاع . وأن الغارات البربرية لم تحول مجرى التاريخ . فما أن دحر الفرسان الرحل في السهول ، أو هضمتهم الشعوب المستقرة إلا وتشكلت ، من جديد ، دول منظمة ، كما في الماضي ، في المناطق الهندية والصينية ، بينما انقسمت إمبراطورية السهوب من جديد بين القبائل المتنافسة ، ولم تعد تهدد العالم المتمدن لعدة قرون . وما أن رفع الدمار إلا وشهدت الهند والصين تفتح حضاراتها القديمة التي بلغت أوجها آنذاك ، حتى أن إشعاع هذين المركزين للفن والثقافة استأنف تأثيره في مناطق نفوذهما التقليدية : التركستان ، التونكف ، الأناام الشمالية ، بالنسبة للصين ؛ وجنوب - غربي شبه الجزيرة الهندية الصينية وأندونيسيا بالنسبة للهند ، وكان الجندي والإداري الصيني ، والتاجر الهندي الذي ينطلق في بحار الجنوب ليجت عن التوابل والذهب رسل الحضارة ، وأكثر منهم أيضاً حجاج البوذية . نشأت هذه

الديانة في الهند وظلت تنمو ، وانتشرت في البلاد الهند صينية والأندونيسية ، وفي شمال وجنوب السيريند La Serinde (تركستان القديمة) وفي الصين ؛ وفي القرن السادس ، تغلغت في اليابان التي دخلت أخيراً بالبوذية أيضاً ، وأصبحت هذه الديانة عندئذٍ سائدة وعامة في الشرق الأقصى كله ؛ وطبعت بنفوذها كل أشكال الثقافة والفن حتى النظم الاجتماعية ، ونسجت بين جميع البلاد الآسيوية روابط وحدة روحية واسعة ، لدرجة ، أنه ، خلال هذا العصر ، الذي لم ينته إلا في القرن العاشر ، يمكن أن نشبه دورها بدور المسيحية في الغرب . ولكنها ، في البلاد التي غرست فيها تحولت وتكيفت مع العبقرية الخاصة بكل شعب . وبالرغم من تيارات النفوذ التي تلاقت فيها ، بقيت عدة أصعدة ثقافية في المجال الآسيوي .

أما إمبراطورية السهوب فقد كان تاريخها ، في البدء ، تاريخ الهمل « هورد » التركي - المغولي الذي كانت جموعه تتدافع على أفضل المراعي ، وتجوب المفازل الواسعة عبر أواسط آسيا بحثاً عن الكلأ لقطعانها خلال قرون .

وآسيا - العليا تبدو بؤرة أمم .. مهياة ، في صخب تجوال أممها ، لإعطاء سلاطين وأبناء سماء للإمبراطوريات المتدنة القديمة . وانحدر همل هذه السهوب أصبح أحد القوانين الجغرافية في التاريخ . ولكن يوجد قانون آخر معاكس . وهو القانون الذي يعمل على امتصاص الغزاة الرحل ببطء من قبل البلاد المتحضرة القديمة . وهذا الحادث المزدوج هو ديموغرافي أولاً : لأن البرابرة المقيمين على حالة أرستقراطية منعزلة متفرقة ، غرقوا واختفوا في لجج تلك البشريات الكثيفة ، في تلك المناهل العريقة في القدم ؛ وحادث ثقافي بالتالي : فالحضارة الصينية أو الفارسية المغلوبة ، فتحت غالبها لفظ الشرس ، أثملته ، نومته ، وأزالته عن الوجود ... وكان البربري المتصين أو المتفرس أول من دافع عن الحضارة ضد هجوم البربرية بأمواجها الجديدة .

إن التوازن الضعيف بين القبائل الرحل والشعوب المقيمة المستقرة ، الذي تم في آسيا الوسطى والشرقية ، انقطع من جديد انطلاقاً من القرن الحادي عشر ، وذلك لأن شعوب السهوب انتقلت على الدول المتحضرة . فقد بدأ الأتراك بفتح الهند . ومن بعد ، بسط مغول جنكيز خان نفوذهم عبر القارة كلها ، من شواطئ البحر الأسود إلى شواطئ المحيط الهادي . وهددت الحضارات القديمة من جديد ، ولكن تراثها حفظ سليماً ولم يمس في المناطق الجنوبية (الدكن ، شبه جزيرة الهند الصينية والصين الجنوبية) ، أو في مناطق الجزر (اليابان) ، التي تجنبها الغزو ، وولد هذا التراث فيها ثقافات قوية . أما في المناطق الأخرى ، فإن استقرار البرابرة صحبته تخريبات لاشفاء لها . ومع ذلك ، فإن النفوذ السياسي الواسع ، الذي بسطه عواهل السهوب ، وبخاصة الأباطرة المغول ، الذين تبنا جزئياً أخلاق وعادات ونظم الصينيين المغلوبين ، ساعد على توطيد مبادلات اقتصادية وتقنية ودينية بين الغرب وآسيا الشرقية .

آسيا

الحضارات المتهندة وتغلغل الإسلام

إن الخلافات السلالية والمنازعات ، بين الإمارات المتجاورة في الهند ، ألفت بعد العام (١٠٠٠ م) حوادث معقدة لا تتغير ظاهراً في التاريخ الهندي . ومن مجموع هذه الحوادث المضطربة ، ينفصل واقع عظيم ؛ وهو فتح الإسلام التركي - الأفغاني البطيء للبلاد . فقد أدى ، في القرن الثالث عشر إلى أول تقسيم بعد أن توحد الشمال - الشرقي تحت نفوذ سلطنة إسلامية حاولت السلاطات الهندية في الدكن أن تقاومها .

الهند الشمالية الإسلامية

لم يكن المسلمون الذين اجتاحتوا الهند ، انطلاقاً من القرن الحادي عشر ، من العرب والإيرانيين الذين أخذوا لأنفسهم موطئ قدم في السند منذ القرن الثامن ، وخلافة بغداد التي ظلت تدعمهم حتى ذلك الحين ، انهارت ولم تستطع أن تقدم لهم السند الضروري لتوسعهم . لقد اجتاحت الهند قبائل تركية كانت مستقرة في القرن العاشر في أفغانستان ، وأسست فيها إمارة غزنة . وهذه القبائل الرحل والحربية والحديثة العهد بالإسلام وجهت أطباعها نحو الشعوب المجاورة المستقرة في حوض نهر الأندوس الغني . وبررت الحرب المقدسة ضد البراهمانية عمليات النهب والسلب المستمرة . وكان هذا المشروع سهلاً عليها ، لأن الخصم كان منقسماً

سياً ، وغير قادر على الاتحاد في حالة الخطر . والهند أناس مسلمون ، خصوصاً الحياة العسكرية واستعمال السلاح بطبقة متفاوت قيمتها حسب المناطق . وجيش المشاة وجيوش الفيلة بدت غير ناجعة في القتال والنضال ضد وحدات الفرسان السريعة المتحدرة من السهوب . لذلك كانت المقاومة ضعيفة ، غير أن غياب خطة منظمة للفتح عند الأتراك يوضح بطء استقرارهم في الهند . وكان أول هجوم في بداية القرن الحادي عشر على يد محمود الغزنوي (٩٩٨ - ١٠٣٠ م) ، فاتح إيران ، ولكنه لم يؤد إلى توطيد دائم للأتراك . وخضع الشمال الغربي للهند دورياً للغزو ، وكان الزعيم التركي يدمر ما في طريقه ثم يعود إلى جباله بالغنائم والأسرى المهينين للرق . ولم يفكر مطلقاً بتنظيم البلاد في إقليم محتل ومدار بشكل منظم . وعند موته انقسم الأتراك ، وكفوا عن غاراتهم ، وأخذت الهند فترة راحة دامت قرناً ونصف على يد أمير أفغاني استطاع أن يفرض نفسه على الأتراك . ثم عاد أتراك الشمال إلى توسعهم في آخر القرن الثاني عشر ، فقد فتح محمد الغوري (١١٦٣ - ١٢٠٦ م) ، السهل الهندي الفانجي واحتله عسكرياً كله حتى البنغال ، ونهب المدن المقدسة : كانوج وبيناريس وأحرقت المكتبات والجامعات ، وقتل الرهبان البوذيين ، وتفتتت إمبراطورية محمد عند وفاته . ثم وفد على الهند زعماء مسلمون واستقروا في شمال الهند ، وكان أحدهم تركياً من قبيلة الباري ، واسمه إيلتوتيش ، جمع كل البلاد التي فتحها في الهند محمد الغوري ، وأخضع لسلطته الأمراء الهنود والمسلمين ، وأسس أول دولة مسلمة في الهند امتدت على كل السهل الهندي - الفانجي ، من السند غرباً حتى البنغال شرقاً ، ثم حصل على اعتراف خليفة بغداد بسلطته على البلاد المفتوحة . وبهذه المباركة الدينية أصبح نائباً للخليفة وتعززت سلطته . ويعتبر كتب مينار أول أبدة لفن العمارة الهندية - الإسلامية رفعت في دلهي عاصمة السلطنة الجديدة ، وبقيت كشاهد على عظمة إيلتوتيش . وقد نجح خلفاؤه ، سلاطين دلهي الأتراك ، في الحفاظ

على أثره وعمله طوال القرن الثالث عشر ، والإبقاء على سيطرة قبضة الفاتحين على الشعب الهندي ، ولكن التقدم الإسلامي نحو الجنوب توقف ، لأن الأتراك شغلوا كلياً بتشكيل جبهة في الشمال تجاه التهديد المغولي الذي أثقل على البنجاب .

وأكثر من هذا التقسيم السياسي العابر للتراب الهندي ، كانت النتيجة الحقيقية للغزو التركي فصح الوحدة الهندية التي كونتها الديانة الهندوسية طوال القرون ، وأعطت إلى الفكر الهندي مفاهيمه وإلى المجتمع بنيته . وهناك حركات دينية أخرى ، مثل البوذية ، استطاعت أن تنمو دون أن تؤثر في هذه الحالة . بيد أن أتباع بوذا أصبحوا قليلي العدد كثيراً في الآونة الأخيرة من الاستقلال الهندي . وبعد الفتح التركي ، زالت البوذية تماماً من الهند الشمالية . وحذف أواخر العواهل البوذيين من آل بالا وآل سينا البنغاليين ، في بداية القرن الثالث عشر . وقتل الرهبان أو هربوا نحو نيبال . وأتى المجتاحون الجدد معهم بدينهم الخاص بهم ، وهكذا وقفت الهند الإسلامية أمام الهند الهندوسية . وعظم المجتمعان جنباً إلى جنب ، وعظم عدد الهنود المسلمين بعد أن لمسوا الفوائد الاجتماعية التي يقدمها لهم اعتناق الإسلام . فقد استثنوا من دفع الضريبة وأصبح بإمكانهم الوصول إلى كل الوظائف ، وأفادوا من توزيع الأراضي على المؤمنين . وفي الشمال الغربي من الهند أصبح الإسلام دين الأكثرية ، وشيد مجتمع دون طبقات . ولم يعد التفاوت الاجتماعي مبنياً إلا على فوارق الثروة . ولكن عدد الأرقاء نما بشكل عظيم . ومع ذلك بقي المجتمع الهندي بتعزيز كوارده التقليدية في الحياة الهندية من حيث العائلة ونظام الطبقات ، والاقتباس عن فاتحيهم أعرافاً ساعدتهم على صيانة نقاوة عرقهم . ولزمت النساء الهنديات البقاء في دورهن ولا يخرجن إلا محجبات . وانطوت الحضارة الهندية على نفسها واتجهت نحو الماضي ، ولم تتطور .

وبالرغم من التباعد المتبادل بين فئتي السكان ، فقد قامت مع الزمن بعض اتصالات بين المجتمعين ، وارتسم بدء نوع من تعاون اقتصادي . فالأرياف الهندية ، التي اجتاحتها الفتح عادت شيئاً فشيئاً تنتج الأفيون ، والنيلة ، والجنزيبيل . وفي إطار الطبقات ، حافظت صناعة الحلي والورق والمنسوجات على أسرار صناعة النوعية الجيدة . وكان التجار المسلمون يأخذون هذه المنتجات الهندية ويوزعونها في العالم الواسع بطريق تجارتهم الخارجية ، وبذلك أسهموا في ثراء البلاد . وقربت هذه المساكنة والعلاقات الاقتصادية الطبقات الاجتماعية من بعضها . أما بالنسبة للأفكار الساذجة فقد ظل الدين يفرق بين المجتمعين . ولكن المؤمنين الجدد أدخلوا في الإسلام ممارسات ديانتهم القديمة . وكان (الپير) ، القديسون الحقيقيون ، محترمين من قبل الهنود والمسلمين على السواء . وعلى صعيد النخب المثقفة بدأت الصوفية الهندية تتغلغل في الإسلام . وهذه التأثيرات ترى هنا وهناك في فن العمارة الدينية . فقد هدمت العماير الهندية بانتظام ، وحلت محلها الجوامع والأضرحة ذات الشكل الشديد : عمائر مربعة الزوايا طويلة تعلوها قبة مثل ضريح إيلتوتيش في دلهي . أما في غوجرات ، في البنغال ، فقد أعطى النحاتون الأصلاء للجوامع أسلوباً هندياً . وعلى صعيد الثقافة ، من الصعب الكلام عن مبادلة . ومع ذلك فإن الأتراك تخلوا عن التعامل بلغتهم الخاصة ، وشيئاً فشيئاً تشكلت لغة شعبية خليطة من الهندي ، لغة المغلوبين ، ومن الفارسية والعربية ، سهلت العلاقات بين أبناء البلاد الأصلاء والدخلاء وهي (الأوردو) المخترعة في القرن الثالث عشر ، ودعيت إلى مستقبل سياسي وأدبي عظيم . وانتظاراً لذلك ، كانت الفارسية اللغة الدولية التي يستعملها جميع التجار في المحيط الهندي ، كما كانت لغة الثقافة والإدارة . وأسهم المسلمون في وضع البلاد على اتصال بالعالم الخارجي ، وبخاصة بالبلاد الإسلامية ، بفضل المبادلات التجارية وبممارسة عامة للغة الفارسية . ومنذ القرن الحادي عشر ، درس العالم والرحالة العربي ، البيروني أبو الريحان (٩٧٣ ؟ - ١٠٤٨ م) العلم الهندي ، وأخذ

الرياضيون العرب عنه اقتباسات عديدة ، وكذلك توطدت اتصالات مع العالم المسيحي ، فن ذلك أن ماركو پولو ، الرحالة البندقي (١٢٥٤ - ١٣٢٤ م) استخدم اللغة الفارسية .

شبه الجزيرة ملاذ الحضارة الهندية

لقد عاشت الحضارة الهندية في شمال البلاد تحت النفوذ الإسلامي ، ولكنها ، في الجنوب المستقل ، عرفت تفتحها الحقيقي في الدكن وفي البلاد المتهندة في جنوب شرقي آسيا . وفي جنوب شبه الجزيرة الهندية ، ارتسم في القرن العاشر تجمع سياسي تحت إدارة دولة تامولية وهي دولة (شولا) ورثت دولة (البالاقا) وحلت محلهم في القرن التاسع ، وأظهرت قوتها منذ بداية القرن الحادي عشر . إن جيوش راجاراجا (٩٨٥ - ١٠١٤ م) وابنه راجندرا الأول (١٠١٤ - ١٠٤٤ م) فتحت دول الدكن واحدة واحدة ومملكتي بانديا ، وكيرالا ، والهضبة الداخلية ؛ ولم يقف التوسع ، نحو الشمال ، إلا بمقاومة مملكة آل شالوكيا . وفي الوقت نفسه ، شيدت القوة البحرية للإمبراطورية الجديدة ، وأصبح شمال سيلان إقليماً تامولياً . وبعد فتحها ، التجأت المقاومة السيلانية في جبال الجنوب وغاباته . ثم ، إن مملكة سريفيجايا التي جمعت شبه الجزيرة الماليزية ، وسومطرا ، وجاوا ، وسيطرت على الطرق البحرية بين الهند والصين ، أصبحت تابعة لإمبراطورية شولا . ولكنها إمبراطورية ضعيفة . فمنذ آخر القرن الحادي عشر ، تداعت القوة البحرية التامولية ، وعلى القارة نفسها لم تتجاوز هيمنة شولا آخر القرن الثاني عشر ، ففي القرن الثالث عشر تجزأت الدكن من جديد إلى عدة ممالك : هويسالا في الوسط ، وپانديا في الجنوب .

ولكن ، خلال قرنين ، فيما كانت الهند الشمالية منهكة بالغارات ، كانت بلاد التامول ، بفضل آل شولا تنعم بالسلام والاستقرار . فن عاصمتهم

غانجاياكانداشولابورام ، أخضع الأباطرة البلاد لإدارة مركزية ولضريبة صارمة شديدة ، وأشركوا بالسلطة العناصر المستنيرة من السكان في نطاق المجالس القديمة في القرية . واهتموا بازدهار رعاياهم ، وذلك بالعمل على حفر أقنية جديدة للري تغذي مزارع الرز في حوض نهر الكافيري ، كما أفادت من سياستهم التوسعية بلاد الجنوب - الغربي المنتجة والمصدرة للتوابل . وأخيراً ، تبنى المجتمع التامول نظام تسلسل الطبقات ؛ فهو يجهل الخلافات الدينية ، والاضطهادات ، وكانت البوذية فيه في تراجع واضح إلا في جزيرة سيلان . والإسلام الذي جاء به التجار العرب آمن به بعض الناس ، ولكن مسلمي الجنوب تهندوا بشدة ، وظفرت الهندوسية دون تقسيم تقريباً ، وتخلت عن المذاهب الفلسفية العالمة ، وأكثر فأكثر تغلغلت فيها التيارات الصوفية . وهذه الظروف الاستثنائية جعلت من الجنوب مركزاً من أنشط مراكز الحضارة الهندية . وفي اللغة التامول ، إحدى اللغات الدرافيدية^(١) ، في الجنوب ، أصبح الشعر فناً عالمياً جداً ، وأنتج في القرن الثاني عشر القصيدة الملحمية (رامايانا كامبار) وهي أعظم روائعه . والأدب باللغة السنسكريتية ، اللغة العالمة القديمة التي ألقت فيها النصوص المقدسة القديمة للهندوسية ، كان في عز نهضته ، ووسعت عدة مؤلفات على الصعيد الفلسفي الاتجاهات الجديدة للحياة الدينية ؛ وبالنسبة لرامانوجا (القرن الحادي عشر) كما بالنسبة لـ ماديفا ؛ ليس البراهما الحقيقة الوحيدة في الكون ، فقد جحد هذان الفيلسوفان المونية (الوجدانية) الدقيقة لأسلافها وألحا على الصفة الشخصية للإله الذي تستطيع الأرواح أن تتحد به بالعبادة والحب . وفي المدارس الحقوقية أعدت تفسيرات (قوانين مانو) التي هي حتى أيامنا أيضاً أسس الحق الهندي . وأخيراً ، وجد فن العمارة التامول ، من جديد ، في القرن الحادي عشر ، كل سناه وضيائه

(١) الدرافيديون Dravidiens : شعوب آسيوية من الهند إلى برمانيا (بورما) ، تبدي أثراً من الدم الأسود .

وبلغ نضجه في أثرين نفيسين وهما معبد تانجور ومعبد غانجاياكانداشولابورام ؛ وهذان المعبدان الواسعان يضمان في الداخل ساحات متعاقبة لعائر عديدة جداً . وقبالات (كنائس صغيرة) ثانوية ، وأروقة ومساح مقدسة تتدافع حول معبد أساسي . وهذا المعبد يأخذ مخططات متنوعة للغاية ، ولكنه على العموم مغطى بسطح هرمي ، رمز الجبل الكوفي . وأبواب فخمة ممتدة على طول جدران الساحة تميز فن العمارة في الهند الجنوبية . وكل السطوح مغطاة بنحت كثير وفائض : جدران ، أعمدة ، وأغنية تنتعش بحياة عالم كامل من الحيوانات والآلهة منحوتة بالتفصيل في الحجر . وكذلك مشاهد غزلية عديدة مثله . وكما أن الصوفيين يستعملون عبارات مقتبسة عن الهوى المحب ، كذلك يسر النحاتون بتمثيل الأزواج المحبين الذين يرمز اتحادهم لاندفاع الخليقة الكونية .

ومع ذلك فإن الأعمال العظيمة أكثر من غيرها لفن الإلهام الهندي لم ترتفع أو لم تشيد في ذلك العصر على الأرض الهندية نفسها ، وإنما في شبه الجزيرة الهندية - الصينية ، في كامبودج (كامبوديا) .

عالم الخمير ، بلد الحضارة الهندية

منذ أن حرر الملك جايا - فارمان الثاني الكامبودج ، في سنة ٨٠٢ م ، من سيادة جاوا ، مافتئت قوة الخمير في تعاظم وازدياد . وانطلاقاً من العاصمة الجديدة المؤسسة في ٨٨٩ م ، أنغكور ، (المدينة الكبرى) عمل خلفاؤه ، الذين ينتسبون إلى عدة سلالات ، على بسط سلطتهم على القسم الأعظم من شبه الجزيرة الهندية الصينية ؛ وبنتيجة حروب طويلة وقاسية قاوم فيها الكامبوديون جيرانهم وبخاصة مملكة شامبا ، سيطرت الملكية الانغكورية في عصر أكبر توسع لها ، في عهد الملك جايا فارمان الثاني (المنتصر) (١١٨١ - ١٢٠١ م) على الأنام ، والتوكن ، والأراضي الحالية للأوس والتايلاند ، شبه الجزيرة

الماليزية حتى برزخ كرا وجنوب برمانيا . وكان المحاربون محيين بدرع وخوذة
تزينها في أعلى تأخذ أحياناً شكل حيوان ، ومسلحين بأقواس ذات أوتار ومجانيق
تشبه آلات الحرب الصينية ، ويؤلفون أدوات الفتح . ولكن الوحدة السياسية
للدولة تكن تماماً في السلطة الملكية التي هي من كنه إلهي . وسواء أكان عواهل
الخمير أتباع البوذية أو البراهمانية الشيفايتية أم مهتدين بمذهب توحيد الآراء
الديني ، فقد أنموا جميعاً عبادة الله - الملك التي أسسها محرر المملكة في بداية القرن
التاسع . وشاد كل ملك في حياته معبداً - جبلاً ، هرمأ مدرجاً أقيم في رأسه هيكل
للإله شيفا ؛ والعبادة التي تقام إلى لينغا ، الرمز الذكري للإله ، يجمع اسم الملك
إلى اسم الإله . والله على الأرض ، العاهل هو مركز طقس عبادة لكل واحدة من
تجلياته للجمهور ؛ وقدمه لآتمس الأرض العراء أبداً ؛ يبسط تحت خطواته قطع
قماش ، وعندما يخرج من القصر ينتقل على ظهر فيل أو في محمل . وبعد أن يموت
الملك يتوحد مع الله الذي هو في ذروة الجبل ؛ عبادة مآتمية توجه إلى تمثال ،
(جسد مجيد) يمثل الأمير الراحل بلامح إله أو إلهة .

حول الملك - الله ، المملكة مع إدارتها ، وأقاليمها ، وتنظيمها الاجتماعي هي
عالم صغير يوجد فيه ترتيب عالم إلهي . والمجتمع بني على نظام التسلسل بشدة ؛
بعد الملك يأتي البراهمانيون ، ثم المحاربون وأعضاء الأسرة الملكية والبلاط ، وأخيراً
عامة الناس ، بئسون ومحتقرون ، فلاحون وتجار . وتملك المعابد والأديرة أراضي
وقرى تتمتع بمحسانات عديدة جداً حقوقية وضريبية . وفي عدا ذلك ، في كل
مكان ، تعتمد الإدارة الملكية المنظمة بصلابة على شبكة طرق معبدة مبلطة
مرتفعة كسدود ، تجانبها مآوي مراحل محطات يسير فيها الباعة الجوالون ،
والفيلة المثقلة بالبضائع ، والعربات تسحبها الثيران ، وممثلو الملك محمولون على
محفة أو في محمل . ومخطط العاصمة وأوابدها تضع على الصعيد العمراني المفهوم
السياسي - الديني الذي يرأس جميع ظاهرات الحياة وهي محاطة بأسوار وخنادق ،

كالعالم محاط بالجبال والمحيطات ، وتنتظم حول المعبد - الجبل . وفي الواقع إن عدة أنغكورات تتتابع على مواقع تختلف قليلاً . وفي كل عصر ساعد أسلوب حدده علماء الآثار جيداً على وضع توقيت زمني للفن الخمير .

وجايا فارمان السابع الأكبر ، الذي ربما كان مصاباً بالجذام ، رفع إمبراطورية الخمير لقمة قوتها . لقد كان يريد أن يشجع البوذية بتكريس الهيكل المركزي في بايون إلى بوذا - الملك ؛ وبعد موته ، تمزقت البلاد بالمنازعات الدينية ؛ لأن العواهل ، الذين كانوا يرغبون بتوطيد الأرثوذكسية الشيفائية ، اضطهدوا البوذيين . ومن جهة أخرى ، اتضحت تهديدات خارجية . إن الأناميين ، وأصلهم من تونكن ، تحرروا من النفوذ الصيني ، واستولوا على شمال الشامپا ؛ والطائيون ، الذين جاؤوا من يوتان ، وكانوا ينزلون ببطء وادي مينام ، انتزعوا السيام من محتليها السابقين وهددوا إمبراطورية الخمير بغاراتهم . وأخيراً ، احتل مغول الصين ، بقيادة كوييلاي ، برمانيا وجزءاً من الأنام . وفي ١٢٨٢ م ، نجح ملك الخمير في إزاحتهم من كامبودج ، بعد أن أذعن ودفع ضريبة لهم . وأندونيسيا وحدها في جنوب شرقي آسيا نجت من هذه الغزوات ، فقد انهارت مملكة سريفيجايا في القرن الحادي عشر ، وانتقلت الهيمنة على الأرخبيل عندئذ إلى أمراء جاوا الشرقية . وجرى هذا التطور على حساب النفوذ الهندي الذي طبع بعمق حتى ذلك الحين الحضارة الأندونيسية كلها .

الشرق الأقصى

الصين واليابان قبل الغزو المغولي

صين آل سونغ المسالمة والناعمة

بين بداية القرن العاشر والغزو المغولي لم تنجح الصين ، بالرغم من جهود أباطرة آل سونغ الأوائل ، في إيجاد قوتها السياسية والعسكرية . وتحول فيها المفكرون والفنانون عن سراب الإمبريالية ، ونهلوا إلهامهم من قيمهم التقليدية والقومية ، وبلغت الحضارة الصينية مرحلة النضج .

بعد سقوط آل تانغ ، وقعت الصين في النصف الأول من القرن العاشر ، في حالة اضطراب . والسلالات الخمس التي أعطت اسمها لهذا العصر (٩٠٧ - ٩٦٠ م) توالى بوتيرة متسارعة ، ولكنها لم تسيطر طوراً وطوراً إلا على شمال البلاد . وتجزأ الجنوب أيضاً بين عدة بيوت إقليمية . وأفادت هذه الفوضى الداخلية الشعوب المجاورة للصين . ففي ٩٣٩ م أعلن الداى - ثيت استقلاله في تونكن وفي أنام ؛ وفي الشمال عزز شعب الكيتان المغولي قوته واستولى على شمال هو - بي وشان - سي ؛ وفي ٩٣٦ م خضعت بكين لهجومه .

وعندما استولى الجنرال تاي - تسو على السلطة في كاي - فونغ ، في ٩٦٠ م ، بدأ أنه يتم سلسلة الانقلابات العسكرية الطويلة والاعتصابات التي سامت الصين للتجزئة والفوضى . ولكن البلاد ملّت حكم الحكام العسكريين وتطلعت للسلام . وتأثر بحركة الرأي هذه تاي - تسو مؤسس سلالة آل سونغ (٩٦٠ - ٩٧٦ م) ثم أخوه تاي - تسونغ (٩٧٧ - ٩٩٧ م) ونجحا ، بفضل سياستها الرشيدة في حذف

الممالك الإقليمية وتوطيد الوحدة الصينية . ولكنها لم يستطيعا القضاء على الكيتان . فقد كان الجيش الصيني خالياً من فرق الفرسان ، ولذلك أخفق مرتين في محاولاته لاستعادة بكين . ومن جهة أخرى ، ظهر تهديد آخر على الحدود الشمالية لمملكة سونغ وأجبرها على الدفاع . وفي آخر القرن العاشر ، أسس التانغوت ، وهم شعب من عرق تيبتي ، في الأوردوس والآلاشان ، ولوكان - سو ملكة السيجيا التي تبنت الثقافة الصينية . ولما أذن الأباطرة السونغ لفقد هذه الأقاليم الشمالية ، حكموا بهدوء خلال القرن الحادي عشر من عاصمتهم كاي - فونغ (هونان) على كل باقي الصين . وحاولوا أن يصلحوا فيها الإدارة ويرجعوا لها الازدهار . وأخذت حكومة سونغ صفة مدنية تماماً ، واقتصرت العسكريون على الدفاع على الحدود ، ويراقبهم موظفون مدنيون . وكان هؤلاء الموظفون أناساً مثقفين ويساقون إلى وظائفهم بعد امتحانات أدبية . وكان هذا العصر الذهبي عصر المثقفين . وإذا أخذ هؤلاء المثقفون بقرض الشعر أو التعامل بالريشة ، فقد كانوا أيضاً إداريين ممتازين . ولكنهم اصطدموا بكثير من الصعوبات ، لأن البلاد دمرتها الحرب ، والأزمة الزراعية كامنة ومستوطنة في الأرياف الصينية ، وبلغت نقطة خطيرة . وبطريق النتيجة ، كان جهاز الدولة كله مهدداً بالشلل ، والنفقات في ازدياد . والواجب يقضي ، في الواقع ، بتعهد رواتب البلاط والموظفين وأعطيات الجنود القائمين على الحدود ، ودفع ضريبة لبرابرة الشمال . وهذه الأعباء الثقيلة كانت تقع في الجزء الأكبر منها على الفلاحين المسحوقين بالرسوم والسخرات . وكان دخل الضريبة العقارية سيئاً . ولكن التجارة عرفت نهوضاً عظيماً بفضل تحسين السفن واستعمال البوصلة ، وكان عليها أن تجهز الدولة بالموارد الهامة . وبسطت الدولة سيطرتها على النقل والتجارة الخارجية ، واستغلت تحت حصرها إنتاج الملح وبيعه ، والشاي ، والكحول . ولسوء الحظ ، كانت هذه الحصور تغذي أيضاً جيوب الإداريين أكثر مما تغذي الخزانة العامة .

لقد كان الفساد وصمة عار في جبين حكومة المثقفين ، لأن الموظفين ، الذين لا يستطيعون إشباع أذواقهم العامة برواتبهم القليلة ، كانوا يسمحون لأنفسهم بالتفاهم مع كبار التجار على المبالغ التي يقبضونها منهم على حساب أموال الشعب ، وخزانة الدولة .

ولعلاج هذه الأزمة الآخذة بالتفاقم ، قام بعض المثقفين من أنصار مذهب تدخل الدولة الراديكالي في الصعيد الاقتصادي ، وأدخلوا الحكومة في سياق النصف الثاني من القرن الحادي عشر في طريق الإصلاحات ، وقام الزعيم وانغ نغان - شي أولاً بتخفيض النفقات ، ثم حاول أن يحسن مصير الفلاحين . فقد حذفت السخرات واستعيض عنها برسم سنوي ، ثم أعيد بناء مصلحة التحديد والتحرير (الكاداستر) فساعد على توزيع الضرائب بشكل أكثر عدلاً . وأخيراً شجعت الحكومة الإنتاج ، وقدمت للمزارعين قروضاً على محصولهم ، وللتجار سلفات على رهن عقاراتهم . على أن وانغ نغان - شي لم يكن ثورياً ، وكل ما فعله هو أنه أجرى الإصلاح لغاية ضريبية ، ولتأمين أفضل دخل للضريبة . ولم يس أي ضرر المملكتيات الكبرى . وفي الحقيقة ، جرى تقويم مع تحسين للحالة ، ولكنه كان قصير الأمد . وإمكان دفع القروض للحكومة ، كان على المزارعين أن يستدينوا من المرايين . ومن جهة أخرى أُلقت المسؤولية على وانغ نغان - شي معارضة المثقفين المحافظين ، أنصار ترك الأمور على عواهنها ، وكان يوجههم المؤرخ الكبير سو - ماكوانغ . وانهى النزاع بين الأحزاب بإبعاد المصلحين عن السلطة ، وضعف المقاومة القومية في وقت اتضح فيه تهديد خارجي جديد . فتحت حكم الإمبراطور هوي تسونغ (١١٠٠ - ١١٢٥ م) الرسام والعالم بالآثار ، ظهر شعب من الفاتحين في الشمال : أصلهم من منشوريا ، وهم الجورتشت ، من عرق تونغوز ، استولوا على مملكة الكيتانيين الذين لجأوا في تركستان (كراكييتاي) . وأخذ زعيم الجورتشت اللقب الإمبراطوري ، واختار للسلالة الاسم كن ، وهو بالصينية

(الذهب) . ثم اجتاحت الصين الشمالية بدورها : ففي ١١٣٥ م ، وقع الإمبراطور كاي فونغ في أيدي الكن وأخذ أسيراً إلى منشوريا . واستطاع أحد أولاده أن يفر واستقر في نانكن ثم في هانغ - تشيئو ، فيما أنهى الكن فتح شمال البلاد .

ومنذ ذلك الحين ، وفي أكثر من قرن بقليل ، استطاع المثقفون والفنانون في مملكة الجنوب حيث أذن آل سونغ لتقسيم الصين ، أن يذوقوا طعم السلام الذي وجدوه من جديد ، وحلاوة الحياة . وحى الأباطرة ، الرسامون والشعراء في حينهم ، تفتتح هذه الحضارة الناعمة الزاهية . وغطيت العاصمة بالمعابد والقصور ، والبساتين والأكشاك . وفتحت أكاديمية للرسم . والمجتمع الخلمي الذي انصرف لتزجية أوقات فراغ جديدة ، واللعب بالورق ، والدومينو ، شكل فيها جمهور نخبة . وساعد تقدم الطباعة في الواقع على انتشار الثقافة بشكل واسع . وظل الناس يكتبون باليد على قرطاس من حرير مؤلفات فخمة . ولكن اللفات الأسطوانية أو (برقانات) الورق المخطوطة استبدلت بمستلآت أوراق مطبوعة . وظهرت المطبعة منذ القرن التاسع ، ويبدو أنها نشأت من تقنية ختم في حال الاستعمال منذ بداية العصر الميلادي . ومنذ هذا العصر تأرخ أقدم كتاب مطبوع للتاريخ البشري في ٨٦٨ م وهو : (كتاب الماس) ويضم مجموعة الحكم وقواعد الطقوس والأخلاق في الحياة اليومية . وفي القرن الحادي عشر ، أتي استعمال الحروف المتحركة بتحسين جديد . والمثقفون المفتوحون قبلوا بأن يطبع الأدب كله ، وتدخل فيه النصوص المقدسة ، وتأسست مكتبات عديدة في القصر الإمبراطوري وفي الأديرة ، ونظمت حسب نظام التصنيف المنظم . ونشط الأدب بواسطة الانتشار الجديدة هذه . فقد نشرت كتب موسعة تعالج فن العمارة والرياضيات والعلوم الطبيعية ، وإنسيكلوبيديات (معلمات) تبسط المعارف والطرق التقنية ؛ وعرفت الرواية الشعبية أيضاً نجاحاً كبيراً . ولكن ما يميز عصر آل سونغ إنما هو نهضة الفلسفة الكونفوشيوسية .

لقد أعطى الفيلسوف تشوهي (١١٣٠ - ١٢٠٠ م) طبعة نقدية مصحوبة بشروح للمؤلفات الكونفوشيوسية الكبرى ؛ وتحت هذه النصوص وجدت وساعدت على نهوض الكونفوشيوسية - الجديدة ، التي ألهمت فكر المثقفين الصينيين حتى آخر الإمبراطورية . وفي الواقع ، إن مذهب تشو - هي يتمتع من مصادر مختلفة جداً ، ويمكن أن تكشف فيه تأثيرات الطاوية ومؤثرات البوذية ، والقصد من ذلك مذهب توحيد الآراء الذي يؤدي إلى تحضير وتهيئة نوع من الوحدة المتطورة ؛ فن عدم الوجود يخرج الوجود الذي يخضع لعمل المبدأ ، (لي) بالصينية (أي قانون الطبيعة) ، الذي يحوي العالم ثم يمتته . و « الإنسان واحد مع السماء والأرض ، مع كل كائنات الأزمنة كلها ، لأن قانون العالم وحيد ... » (شاؤ يونغ) . وهذا الإيضاح الدقيق يمنع توسيع البحث الفلسفي ؛ ويبقى في مذهب محافظ شديد . ويرتبط الفن سونغ بشكل وثيق في هذه الفلسفة . وقد بلغ الكمال المصفي الناعم على صعيد الرسم والخزف . وأنتجت ثقافة الرسم بلون واحد أي الرسم الملون على الحرير المنفذ بالخبر الصيني مدرسة مدعاة للإعجاب ، وهي مدرسة رسامي المناظر . ففي أعمالهم تنحى الطبيعة بالضباب ، وتقتصر على الأساسي ، خط أفق يحيط بالجمال النقي . وهذه الأعمال إنما هي قصائد صغيرة تعبر عن الحالة الروحية للرسام بواسطة رمزية كاملة يوسعها الأدب : الأوزات البرية تذكر بفرار الفصول ، الغياب ؛ وزوج عظيم من البط ، الحب الوفي ... وترك العصر سونغ أيضاً خزفاً عجباً وحيد اللون غالباً أو في سُلَّم لون على لون . وهذا الاعتدال أو التحفظ في استعمال اللون يصحب باعتدال عظيم في الشكل . ومع ذلك يسود تنوع عظيم من مشغل آخر : أواني خزفية تنغ (هوي) بلون أبيض قشدي (ضائر) ، أواني فخارية يو (تشوكنغ) بلون رمادي أخضر ، أواني فخارية كين (فوكين) ذات بريق معدني يشبه لون فرو الأرنب الأسمر أو ريشة الحجل الزرقاء ، أواني بلون أخضر باهت من لونغ

تسيوان ، وكلها تصدر ، في كل آسيا ، إلى اليابان ، إلى ماندشوريا ، وإلى الأنام الشمالية وإلى كامبودج . هذه هي صين آل سونغ المحرومة من المجد العسكري ولكنها بلا شك ، أسعد منها في أي عصر آخر ، وهي التي أثارت عجب ماركو بولو الرحالة البندقي .

اليابان الإقطاعية والعسكرية

لقد أيقظ المبشرون الإرساليون البوذيون والمثقفون والفنانون الصينيون أو الكوريون اليابان على الحضارة ؛ وساعدوها على أن تأخذ صفها بين الدول الآسيوية الكبرى . وانطلاقاً من القرن العاشر ، تحررت الإمبراطورية اليابانية من أوصيائها ، وبدأ تطور أصيل أمن للبلاد الازدهار والعظمة .

تنبئ ببشائر هذه التحولات منذ العصر الأول هيان (٧٩٤ - ٩٦٧ م) ، ففي ٧٩٤ م كان الإمبراطور كوامو قد نقل عاصمته إلى هيان (كيوتو) ؛ وأقام فيها بلاطه وجميع الدوائر المركزية التي أنشئت في العهد السابق على النمط الصيني . وفي هذه العاصمة الجديدة ، التي يقع مخططها بشكل رقعة الشطرنج ، كان شبيهاً بمخطط نارا عاصمة اليابان (٧١٠ - ٧٩٤ م) في العصر الذهبي الياباني المشهور بكثرة المعابد ، نضجت حضارة ناعمة مشربة تماماً بمؤثرات صينية ؛ ففي الأجنحة الرشيقة للمدينة الإمبراطورية بسطوحها من الآجرية الزرقاء والدعائم الملونة بألّك الأحمر ، وتحت أشجار البساتين المزهرة ، عالم مترف من رجال الحاشية بالبستهم المزركشة ، وسيدات جميلات ببدايتن البراقة منهمكين باللذات الممتازة للموسيقى والمساجلات الشعرية والنزهات على ضوء القمر . وفي الأديرة البوذية الواقعة خارج المدينة تشارك الطبقة النبيلة في هيان بالاحتفالات الفاخرة التي يلاطف فيها البخور والمديح والمصانعة والموسيقى والرسم جميع الخواص . وبالرغم من الإعجاب بكل ماهو على الموضة من الصين ، فإن أوساط

العاصمة شعرت بأن عبقرية يابانية أصيلة قد استيقظت ؛ وأن الثقافة القديمة بدأت تتحرر من تقليد عبودي للنماذج الأجنبية . وشجعت الظروف هذا الوعي ؛ ففي ٨٩٤ م قطعت العلاقات الدبلوماسية مع الصين ؛ والمواصلات البحرية المطمئنة قليلاً لا تشجع على المبادلات . ومن جهة أخرى ، مهتت اللغة اليابانية في بداية القرن العاشر بنظام للكتابة أكثر سهولة . وحلت ، محل الكتابة الصوتية الآتية من الصين ، رموز ، الكانا ، وساعدت على تمثيل المقاطع . وبدأ الكتاب ، ولا سيما النساء ، لأنهن ملكات هذا المجتمع الخملي ، بتأليف قصائد عذبة وروايات ؛ وهجروا الأغراض (النماذج) التقليدية ، وسجلوا بدقة ونعومة الهياجانات العابرة والكآبة المحببة التي تسكن قلب معاصريهم . إن سي شوناغون في (مذكرات الوسادة) شاهد نبهه لعصره . ولكن ثقافة هيان ليست إلا ثقافة بلاط . والياباني الحقيقي هو في مكان آخر ، في المناطق المنعزلة بالجبال ، أو بالبحر ، هناك حيث بقي الناس أجلاًفاً ، ولكنهم يملكون أيضاً قوة سليمة ؛ وهو هذا الجمهور من الفلاحين المجهريين على تسليم قسم عظيم من إنتاجه من الرز بصفة ضريبة في سبيل بقاء بذخ رجال البلاط ، والملمزين بتأدية خدمة عسكرية ثقيلة . وهو أيضاً هذه الأرستقراطية الإقليمية القاسية والطموحة التي ماقتت قدرتها تتعاضد ؛ وشكل النبلاء شيئاً فشيئاً دومينات واسعة معفاة من الضرائب ، الشون . وبعضهم أفاد من الوظائف الرسمية التي يمارسونها ، وفي الواقع ، لقد اقتبس الأباطرة عن الصين إدارتها المركزية . ولكنهم لم يستطيعوا أن يؤسسوا في الأرض اليابانية نظام السوق بالامتحانات ؛ وكانت الوظائف الهامة محتكرة بشكل وراثي قليلاً أو كثيراً من قبل العائلات الكبرى . وهذه العائلات عملت على منحها دومينات واسعة حرة من الضرائب ، مقابل تقديم خدمات . وفي الغالب احتكر هؤلاء الملاكون الأقوياء ، بصورة غير شرعية جداً ، الأرض العامة ، هذه الأرض التي يعاد توزيعها كل ستة أعوام على الفلاحين وعليها أن تدفع الضريبة ؛ وبمحجة

حمايتهم ضد عمال الضريبة ، اجتذبوا صغار الفلاحين في زبائنهم وأخذوا على عاتقهم رفع الرسوم ولا يخلو الأمر من إساءة الاستعمال . وأصبحت الضرائب وحدات اقتصادية ، تهرب تماماً من رقابة الدولة . وفي الوقت نفسه ثبتت صفتهم العسكرية ، فقد اعتاد كبار الملاكين على إقامة رجال مسلحين ، السامورائي ، أوفياء لهم ، ومقابل ذلك يمدونهم بأرض .

تشكلت إقطاعية شبيهة بإقطاعية الغرب . واستردت الأحزاب القديمة سلطتها . والأقوى بينها ، حزب الفوجيوارا ، استولى ، في النصف الثاني من القرن التاسع ، على السلطة الحقيقية ، ورد الأباطرة إلى دور تمثيلي محض . ولهذا العمل استخدم الفوجيوارات طريقة حاذقة ؛ وهي أن يزوج زعيم الحزب في كل جيل بنتاً أو عدة بنات من بناته إلى الإمبراطور ؛ وبصفته حمياً أو جَدّاً لوارث ما يزال قاصراً ، يارس على الدوام وصاية حقيقية ؛ وأكثر من ذلك ، يعنى بوضع أقربائه في كل المراكز القيادية للحكومة ومنح حمايته وعطفه للطبقة النبيلة الإقليمية .

ومع ذلك ، منذ القرن العاشر ، بدأت قوة الفوجيوارات تضعف . فقد لان أعضاء الحزب بحياة البلاط وانقسموا ، وتنازعوا فيما بينهم للحصول على وظائف ومراكز وألقاب لا معنى لها . وفي الواقع ، تضاعفت الثورات الإقطاعية ، وفي أكثر من مرة ، في سياق القرن الحادي عشر ، كانت جيوش الرهبان - الجنود المؤسسة على دومينات الأديرة الكبرى تأتي وتحاصر العاصمة . ولا يستطيع البلاط إعادة توطيد النظام إلا بالطلب أو الالتماس من عائلة كبرى مثل عائلة آل تايرا أو عائلة آل ميناموتو ، وكلاهما متحدرتان من فروع ثانية من العائلة الإمبراطورية . وفي النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، وقعت اليابان في حروب أهلية شرسة ؛ وتجاهت ثلاثة أحزاب متنافسة : فوجيوارا ، ميناموتو ، وتايرا . وحذفت عائلة فوجيوارا نهائياً في (١١٦٠ م) وانتصر كيوموري من

عائلة تايرا ، خلال بضع سنوات . ولكن ، في ١١٨٥ م ، وبعد أربعة أعوام من نزاع ملحمي احتل مكانة الشرف في الروايات والمسرح الياباني ، أخذ يوريتومو ميناموتو محل آل تايرا . وأصبح سيد الوضع ولم يحاول خلع الإمبراطور . وبقي هذا الأخير عاهلاً أسمى من أصل إلهي ، وحوله ، حافظ بلاط هيان على نظامه . أما يوريتومو فقد استقر في كاماكورا ؛ ولم يدع إلا بـ (حكم الخيمة) ، الباكوفو ، وهو مكتب عسكري صرفاً ويتم نظرياً الحكومة المدنية ؛ وسعى لأن يعطيه الإمبراطور لقب (شوغون) أي قائد أعلى للجيش (جنراليسيم) . وفي الواقع ، أصبحت كاماكورا مقراً لحكومة واحدة واقعية ، دكتاتورية عسكرية تستند على جيش قوي . وفي كل إقليم ، بقي الأمراء أحراراً في إدارة ملكيتهم ، ولكن كان عليهم أن يدفعوا رسماً عسكرياً لممثل الباكوفو .

وما لبث توطيد النظام ، الذي عمل به النظام الشوغوني ، أن أتى بنتائجه ، وبخاصة في الصعيد الاقتصادي . ففي السلام الذي وجد ثانية ، أصبح بالإمكان استئناف أعمال الأرض ؛ وظهرت زراعة جديدة في آخر القرن الثاني عشر وهي زراعة الشاي الواعدة بنوهام . ومع ذلك لم يتغير مصير الفلاحين . وتأكد وتثبت أفول الرق ، ولكن الضرائب كانت تثقل دوماً كاهل الشعب الريفي . وبالمقابل ، كان عصر كاماكورا عصر تجديد في التجارة : فقد استؤنفت العلاقات مع الصين . وظهرت طبقة تجار محترفين . والمعابد التي تلعب دور بنوك الوديعة والقرض تمول الحملات البعيدة ؛ وانتظم التجار في رابطات (أصناف ، طوائف ، نقابات) ؛ وحصلوا ، مقابل دفع رسم متفق عليه ، على الاستثناء من رسوم العبور التي لا تعد على طول الطرق والأنهار ؛ وأخيراً كان لهم حصر التجارة . وتحولت العقلية أيضاً : ففي ذلك العصر مجدت الفضائل العسكرية ؛ وحاول الفرسان أن يطبقوا قانون الشرف ، البوشيدو ، المثل الأعلى للولاء والشجاعة التي تلهم أبطال الروايات الملحمية . إن الحوادث المساوية التي سبقت الوصول إلى

الشوغونة أثارت تجديداً في الورع الديني . وظلت الشنتو دين الطبقة الأرستقراطية ، ولكن طقسها لا يوافق الجنود القساة ورجال الشعب الذين هم بحاجة لإيمان بسيط ومباشر ؛ وتحولت البوذية ؛ واستجابت فرق جديدة لحاجات الأرواح . وأسس المصلح نيشين فرقة (نيلوفر الإيمان الصالح) المتعصبة والقومية ؛ وبشر راهبان ، هونن وشينران الشعب القلق من وعوظ قديمة منذ آلاف السنين ، بالتخلي لبوذا الرحيم ؛ وبشر رهبان آخرون بمذهب زين التأمل ، وهو شكل ياباني للصوفية تشان الآتية من الصين ، أعطى للبوشيدو لون رواقية وبدأ يمارس نفوذاً حاسماً على علم الجمال الياباني . ورفع الكثير من المعابد المهتمة أثناء الحرب الأهلية : ففي كاماكورا شيد عدد عظيم من الأديرة على المخطط المتناظر الذي كانت له حظوته عند الفرقة . ومن هذه المجموعة العمرانية بقي جناح البقايا وحده . والتأثيل العديدة التي يطلبها المؤمنون تدل على واقعية نامية نجدها في الرسم المعاصر . وهذه اليابان المتجددة كانت مستعدة لأن تصدّ منتصرةً هجوم مغول الصين .

الفصل الحادي عشر

آسيا الوسطى والمغول

في القرن الثالث عشر ، دخل التاريخ شعب من الفرسان الرحل ، شعب المغول ، تحت إدارة جنكيز خان ، ووطدوا سلطتهم على آسيا الوسطى العليا ، ثم انطلقوا لفتح الدول المجاورة المستقرة . وامتدت الإمبراطورية الواسعة التي شاهدها هذا الزعيم المغولي الشهير وأخلافه من بعده ، من شواطئ البحر الأسود إلى شواطئ المحيط الهادئ . وهذا التوسع المغولي جرى بواسطة تحريبات ومذابح فظيعة . ولكنه فتح للتجار والمبشرين الغربيين طرق الشرق الأقصى .

بين ١١٥٥ و ١١٦٧ م ، وبين همل غامض يرحل وينتقل عبر السهوب المغولي ، نشأ غلام باسم تيموجين . وفي بضع عشر سنوات من حياة صاخبة سيصبح جنكيز خان (أو تشينجيو خان : ملك العالم) ، عاهل إمبراطورية واسعة ، وهذا المصير المذهل يتضح بالوضع الذي كان يسود في منغوليا في منتصف القرن الثاني عشر وبعقورية الزعيم المغولي الشاب .

المغول قبل جنكيز خان

منذ تداعي إمبراطورية الكيتان المغولية الأولى (١١٢٢ م) عادت آسيا الشرقية إلى فوضى تامة شجعت كل المشاريع . وما من شعب من الشعوب قريبة العهد التي كانت تحاول تباعاً أن تقيم هيمنتها على السهوب المغولية ، استطاعت الحفاظ عليها بشكل دائم . فقد وجد أن جميع الفاتحين طرخوا على محيط العالم

المغولي ، الأتراك الأويغور الذين خرجوا منها منذ القرن التاسع ، ووجدوا ملجأ في الجنوب الغربي في واحات شمال نهر تاريم ، غير بعيد عن المناطق التي توطدت فيها شعوب تيبيرية ، وهم التانغوت سي - هيا ؛ والأتراك كراكيتاي الذين هم أيضاً أسسوا في منغوليا الإمبراطورية كيتان وانطوا في الغرب . في التركستان . وأخيراً الجورتشيت الذين وطدوا سيادتهم على قبائل منغوليا الشرقية ، ولكنهم كانوا منهمكين شيئاً فشيئاً بنشاطاتهم ضد صين آل سونغ وفتحوا الجزء الشمالي من بلادهم . ولذا لم تمارس أي سيطرة حقيقية ومباشرة على منغوليا الأصلية من ألتاي إلى خنغان الكبير . أما القبائل العديدة التي كانت تنتقل في هذه المناطق فلم يكن بينها أي رابط ، حتى أنها تتشكل من شعوب ومن أعراق مختلفة : الأتراك ، المتحدرون من سادة البلاد القدامى . كانوا عديدين بشكل كاف بعد (نايمان ، كيريت ، أونغوت ، وتتر) . ولكنهم تحملوا نفوذ رحل وصلوا حديثاً ، وهم المغول وقبائلهم (مركيت ، أويرات ، تومات) تمتد بين شمال ماندشوريا وبحيرة بايكال . ومن الصعب غالباً التمييز بين المغول الأصلاء والأتراك المتغولين لدرجة أن الرحالة الغربيين يدلون في الغالب بالاسم التركي قتر على مجموع الشعوب المغولية .

كانت كل قبيلة من هذه القبائل تنقسم إلى عدد من البطون التي تضم العائلات المتحدرة من جد واحد ، وتؤلف أمة صغيرة مستقلة بأرضها . وهذا المجتمع القبلي منظم على الطريقة الأبوية ، والأسرة فيها عديدة جداً ، لأن تعدد الزوجات عندها هو القاعدة ، وتجمع كل الأولاد في المنزل الأبوي حتى زواجهم .

والمجتمع القبلي متسلسل أيضاً : الطبقة الأرستقراطية فيه تتألف من زعماء البطن وتنتخب للحرب أو للصيد زعيم قبيلة ، ويحاط هذا بحاربين ، رجال أحرار يشكلون نوعاً من حرس متنقل ويتميزون عن عامة الناس . وفي أسفل السلم الاجتماعي يوجد جمهور الأرقاء الذي يحصل من الغزو أو الحرب . ولا تخلو

المنافسات بين القبائل والبطون : والقاعدة تقضي بأن يتزوج الرجل دوماً امرأة من خارج بطنه الخاص ، والمحاربون يفضلون في الغالب اللجوء إلى الخطف من أن يدفعوا صداقاً إلى أهل الفتاة ، وكان هذا مصدراً لخلافات يضاف لها قطع الطرق ، والمنازعات في موضوع أراضي العبور أو الصيد ، والمزاج الحربي بصورة طبيعية لهذه الشعوب البربرية .

ومهما يكن العرق الحقيقي والبطون التي تنتسب إليها الشعوب المغولية فهي ، بنوع حياتها وحريتها التي تمارسها دون انقطاع ووحشيتها وحشية محاربين بالفطرة ، « أفضل من غيرها لفتح الأراضي والممالك » كما كتب الرحالة ماركو پولو . ونظراً إلى أن المغول يخضعون لظروف الحياة الشديدة في السهب ، حيث الصيف القائم والجاف ، يتلوه الشتاء المجدي ، لذلك كانوا رجالاً أشداء . قامتهم صغيرة ، وجسمهم ضخم وقصير ، ورأسهم مستدير ، وخدودهم ناتئة ، وأنفهم أفطس متباعد الفوهتين ، وعيونهم عند النظر تفتح شقاً ضيقاً تحت حواجب كثيفة وتعطي لوجههم مظهراً فظيماً وهمجياً وملحوظاً أيضاً عند الرجال بموضة الرأس الخليق عدا ذؤابة في قمة الجمجمة . والوجه يزينه شارب ضخم وعشرون كثيف الشعر . ولباسهم يتكيف مع اختلاف الأقاليم ويتألف من بدلة فضفاضة ، وبنطال عريض مشدودين عند الرسغين والكعبين بسير من الجلد ، يتمهما في الشتاء معطف ولباس رأس من جلد الحيوان . و « الشعب المغولي رائحته كريهة ولباسه أسود » ، كما يذكر بنخب مؤرخ صيني في (تاريخ يوان السري) . ولا يشتركون كلهم في نوع حياة واحد . إن بعض القبائل التي تسكن على حدود السهوب والتايغا السيبيرية تعيش من القنص والصيد . وفي الشتاء يرى أن الناس الذين يسكنون هذه المناطق يلاحقون الطريدة على الثلج أو الجليد باستعمال خشبة التزلج أو نعل من الخشب . ويستعملون عادة الخشب كإداة أساسية ؛ فهم يعرفون صنع البراميل وبناء الأكواخ من الأغصان ويغطونها بقشر الخيزران . ولكن القبائل

الكثيرة العدد تعيش بصورة أساسية من تربية الخيول والبقر والأغنام وحتى الإبل ،
وتنتجع عبر السهب الممتد على حافة صحراء غوبي .

هؤلاء الرحل عندما يحيطون رحالهم الموسمية الطويلة يجمعون خيامهم
وعرباتهم بشكل دائرة ليحموا أنفسهم من هجوم ممكن دوماً . وهذه التجمعات
المؤقتة هي رسم أولي لمدين المستقبل . ونشاطاتها تقتصر تقريباً على تربية
الحيوانات وهي خاصة بالنساء اللاتي يعرفن صنع الجلد المستعمل في السروج
وأجهزة الخيول والسيور ، وصناعة اللباد لأجل الخيام ، وبعض صناعات الأواني
الفخارية . ومن أجل الأشياء الأخرى يمارسون المفايضة مع الشعوب المجاورة .

والمغول فرسان قساة جفاة ، أشداء في الحرب ومترسون عليها . سلاحهم
القوس والسهم والسيوف والدبوس . رماة مهرة بل أمهر وأفضل رماة في العالم .
سريعو الحركة ، يجيدون الكرّ والفرّ . وهذه الحركة تحولهم الحضور في كل مكان .
ومهارتهم في استعمال القوس والسهم تؤمن لهم تفوقاً على جميع جيوش معاصريهم .
واكتسبوا شهرتهم الهمجية بسرعة بسبب المذابح الفظيعة التي تبعث الرعب في
قلوب أعدائهم . وهم برابرة لم يتأثروا كبعض قبائل الترك بالحضارة . وجرّ جيئهم
إلى منغوليا تخلفاً حقيقياً . واللغة المنغولية أقل تطوراً من اللغات التركية .
وزمنهم لا يؤرخ أي نقش كما في عصر سيطرة الإيغور . أما ديانتهم فبدائية . وإذا
تسربت النسطورية أو المانوية إلى منغوليا وانتشرت بين بعض القبائل ، فقد
تراجعت حتى مستوى الشامانية الفظة التي تؤلف العقيدة العادية للمغول الذين
يعبدون السماء (تانغري) والأرض وعدداً لا يحصى من الآلهة أو الجن التي تسكن
المياه والنار وتحبي جميع الحوادث الطبيعية . كما أنهم يعبدون الأسلاف الأموات
والعفريت حامي القبيلة ، ويمثل على العموم بصار تعلوه طاقة مجدولة من شعر
الحصان . والطقس العادي يقتضي بضع شفات من حليب الفرس أو تقدمات
لبعض الأطعمة التي تستهلكها العائلة .

ومن الممكن أيضاً تضحية خيول ، بل وحتى كائنات بشرية في مناسبات رسمية خاصة وعلنية ، كما يجري ذلك مؤخراً عند موت عاهل . والسحرة أو الشامان ، الذين يلعبون أحياناً دوراً سياسياً هاماً ، يمارسون السحر والكهانة بواسطة عظام أكتاف الخراف .

ملحمة جنكيز خان

لقد كان همّ كل زعيم مغولي طموح إخضاع القبائل والتلاعب بمنافساتها وتوجيه عدوانيتها المتنقلة ضد الممالك المستقرة . فنذ آخر القرن الحادي عشر ، جرت محاولة لمثل هذا المشروع : وذلك أن قائداً (فايدو) اشتهر بظفره على قبيلة منافسة ، وضم إلى رجاله عدداً من القبائل الأخرى وأسس منها أول مملكة مغولية . ومن الصعب هنا أن نميز نصيب كل من الأسطورة والتاريخ . غير أن ما يبدو أكيداً هو أن الملك المغولي وخلفاءه جاهاوا عداء التتر وأيضاً عداء عواهل الجورتشت ، الملوك كين سادة الصين الشمالية . وناضل المغول بكثير أو قليل حظ حتى اليوم الذي أدى تألب أعدائهم إلى سحق الملك المغولي أوتولا (١١٦١ م) ، وعندئذ زالت الملكية في منغوليا . وعادت القبائل والبطون إلى تجزئتها الفوضوية .

في هذا العصر ولد تيموجين . وجعلت الرواية من أبيه زعيم بطن قوي ، ومن ابن أخ هذا الأخير ملكاً مغولياً . ومهما يكن فإن طفولة جنكيزخان المستقبل كانت بائسة للغاية ، فقد توفي أبوه وله من العمر تسع سنوات . وتفتتت القبيلة ، وأصبح تيموجين مشرداً ، دون موارد ، وطلب حماية ملك الكيريت الذي ساعده على إيجاد زوجته التي خطفتها قبيلة منافسة . وعندئذ بدأ الحظ يدور لصالح جنكيزخان ؛ ومن حظه أنه استطاع بدوره أن يقدم مساعدته لملك الكيريت ، عندما طردته ، خلال فترة ، من دولته ، مؤامرة

دبرت ضده في ١١٩٦ م . ومنذ ذلك الحين أصبح تابعاً وصديقاً للعاهل وأحرز أولى انتصاراته . انتصر على النيمان والتتر ، وهذا ما أمّن له السيطرة على كل منغوليا الشرقية . وما لبث ملك الكيريت أن قلق من نجاحاته وقطع علاقته معه : وفي نهاية النزاع ضم جنكيزخان بلاد الكيريت كلها ، وأصبح سيد منغوليا الوسطى . وأخيراً قام بإخضاع القبائل الغربية ، الأونغوت والميركيت .

وفي ربيع ١٢٠٦ م ، امتد نفوذه على منغوليا كلها ؛ وفي مجلس كبير عقد عند منابع نهر أونون ، قدم زعماء جميع البطون الخاضعة احترامهم واعترفوا بنصبه خاناً سامياً . وعندما ذهب ابنه البكر لإخضاع قبائل غابات سيبيريا الجنوبية ، كان جنكيزخان يتقبل احترام ملك الأويغور ، ثم أخذ يهتم بتنظيم دولته .

ولكن منغوليا لا تكفيه . ومنذ أن تأمنت سلطته فيها بشكل كاف ، انطلق لمهاجمة الممالك المستقرة المجاورة ؛ أولاً الصين التي اجتذبت ، أو بالأحرى المملكتان اللتان تأسستا في القسم الشمالي من البلاد . ثم قام بعدة حملات في الكان - سو أدت إلى إخضاع عاهل مملكة التانغوت ، سي هيا (١٢٠٩ م) . وبعد عامين قام بالحرب ضد الجورتشت الذين حكموا تحت اسم كين على باقي الصين الشمالية . وفي ١٢١٥ م ، دخلت الجيوش المغولية بكين . وخلال شهر كامل ، سلمت العاصمة للنهب ، والنار ورعب وفظاعة الرحل القاتلة . ومع ذلك راح المغول أمام المواقع الحصينة التي أنشأها المهندسون الصينيون . ثم ترك جنكيزخان لنائب عنه أمر متابعة الفتح بجنود قليلة ، وحول معظم جيوشه نحو الغرب . فقد أقلقته الأخبار التي تلقاها من منغوليا : وذلك أن أحد أعدائه الشخصيين أصبح سيداً ، في تركستان الشرقية ، من إمبراطورية راكيتاي وحاول أن يحرض على الثورات في السهب المغولي ؛ وقد تحقق فتح هذه البلاد في سياق سنة ١٢١٨ م . ووجدت الآن إمبراطورية جنكيزخان الجار المباشر لسلطنة خوارزم : وهكذا أصبح النفوذ المغولي على تماس مع العالم الإيراني والإسلام التركي . حاول جنكيزخان

أولاً أن يقيم علاقات سياسية وتجارية طيبة مع الإمبراطورية الخوارزمية ؛ ولكن قافلة مغولية أوقفته على الحدود وقتل أعضاؤها (١٢١٨ م) . وأصبحت الحرب لا مناص منها ؛ ففي هذه البلاد التي هي بلاد ما وراء النهر وأفغانستان وفارس ، عبر الفتح الجنكيزخاني عن نفسه بشراسة فظيعة وتخريبات لا شفاء لها . فلأخذ مدينة كان المغول يصادرون شعب الأرياف المجاورة . ثم يدفعون هذه الكثرة الكثيرة المنزوعة السلاح والسيف في ظهرها لمهاجمة الأسوار حتى تملاً الجثث الخنادق . وأحرق الفرسان الرحل المدن ذات العائز والأوايد الوجيعة : بخارى ، سمرقند ، مرو ، هرات ؛ وحولوا الحقول المروية بعناية إلى أراضي بور رعوا فيها خيولهم ؛ وقتلوا « جميع الكائنات الحية حتى الكلاب والقطط » . وعندما استسلمت مرو ، قطعت رؤوس جميع سكانها بشكل منظم باستثناء أربع مئة عامل يدوي محترف . وشيدت أهرام من الرؤوس البشرية أمام أسوار المدينة والدخان يتصاعد منها . على أن جنكيزخان ، الذي حول المنطقة كلها إلى حصن ضخم للحماية ، لا يبدو أنه يرغب بمتابعة زحفه نحو الغرب . واكتفى بإرسال نائبين عنه : جيبة وسوبوتاي للاستطلاع ، ونفذ هذان النائبان ، مع ٢٠٠٠٠ فارس ، غارة استطلاع واسعة حول بحر الخزر (١١٢١ - ١١٢٢ م) . وبعد نهب الري وطهران قاموا بغارة في مملكة جيورجيا المسيحية . وحاول الجيش الجيورجي المقاومة ولكنه مزق شرمزق . ثم نزل المغول السهب الروسي . وهنا سحقوا الجيش الروسي . وأخيراً ، بعد أن نهبوا وكالات جنوة في القرم ، عادوا إلى آسيا بطريق نهر الفولغا الأدنى ، وبعد قليل من عودتهم ، قرر جنكيزخان أن يرجع على مراحل صغيرة نحو منغوليا (١٢٢٤ م) . غير أن ثورة في المملكة التابعة له ، مملكة التانغوت ، سي هيا ، أجبرته على الانطلاق ثانية في حملة (١٢٢٦ م) . وفي سياق هذه الحملة قضى زعيم المغول حتفه (١٢٢٧ م) . ودفن جثثانه بالقرب من منابع نهر الأونون . وحسب العرف قدمت الأطعمة خلال

ثلاثة أيام على أرواح أمواته . وأمر ابنه بانتخاب أربعين من أجل فتيات عائلات الزعماء والجنرالات ، وزينّ باللبسة غنية وجواهر ثمينة ... وأرسلن لخدمة جنكيز خان في العالم الآخر » (ذكره غروسيه في إمبراطورية السهوب) .

« ويا لها من جنازة بربرية جديدة بمن هو أكثر من أتيل ، استحق ، بسعة تخريباته ومذابحه التي أمر بها ، اسم (بلاء البشرية) . لقد كان بدوياً وحشياً وشرساً ، وغير أهل لأن يفهم عالم المستقرين ، وكان فرحه الفائق أن يقطع أعداءه مزقاً ، ويطردهم أمامه ، ويتملك أموالهم ، ويرى دموع المخلوقات الأعزاء عليهم ، ويحتضن بذراعيه نساءهم وبناتهم » . (رشيد الدين . ذكره غروسيه) . ومع ذلك لم يكن كل شيء تدميراً في عمله . فقد كان هذا المغولي يشعر بخوف وسواس من السماء ومن كل إله ، على ما هو عليه من أخلاقية شديدة . ومجموعة القوانين التي فرضها على شعبه كانت صارمة للغاية .

ومع ذلك فقد كان بالغريزة لدى هذا الفاتح الممجي الإحساس بالواقع وبمعنى الحكم العادل والإدارة الحسنة . ولمساعدته في هذا العمل استعان برجال مثقفين وجدوا بين الشعوب المقهورة ، من مثقفين صينيين وفي الغالب أويفغور ، وأصبحت اللغة والكتابة الأويفغورية لغة وكتابة الإدارة المغولية . « نسيت المجازر ، وظل العمل الإداري المدين لمؤازرة النظام الجنكيزخاني والمكاتب الأويفغورية » . وهذا العمل ، بعد الكثير من التخريبات الأولية ، وجد أخيراً أنه يفيد الحضارة ... إن جنكيز خان ، بتوحيده جميع الأمم التركية - المغولية في إمبراطورية واحدة . وبفرضه حكم نظام حديدي من بكين إلى بحر الخزر ، حذف الحروب المستمرة من قبيلة لقبيلة وأعطى القوافل أمناً لاتعرفه ... لقد كان صورة من ألكسندر البربري الذي ، هو أيضاً ، فتح للحضارة طرقاً جديدة » (غروسيه) .

أوائل خلفاء جنكيز خان وإنجاز الإمبراطورية المغولية

لم يوقف موت جنكيز خان التوسع المغولي ، بل تتابع في عهد أخلافه . فقد كان لجنكيز خان أربعة أولاد . أخذ كل واحد منهم ، في حياة أبيه ، وفقاً خاصاً به :

الابن البكر : جوتشي ، توفي في سن مبكرة قبل الأوان . وأخذ ابنه باتو السهوب في شمال بحيرة آرال .

الابن الثاني : جاغاتاي ، أخذ منطقة نهر إيلي .

الثالث : أوغوداي ، أخذ الجنوب الغربي من منغوليا .

الرابع : تولي ، وهو الأخير ، أخذ قلب البلاد المغولية .

أما أوغوداي (١٢٢٩ - ١٢٤١ م) فقد عينه أبوه ، في حياته ، خلفاً له ، واعترف به ، دون صعوبة ، المجلس العام للأمراء المغول .

اتخذ الخان الجديد عاصمة ثابتة له وهي كراكوروم على نهر أونون الأعلى ، حيث وسع الهيئات الإدارية التي أنشأها أبوه . وتتابع الفتح المغولي طوال حكمه في ثلاثة اتجاهات :

١ - في الصين ، بادئ بدء ، أنهى مملكة كين التي أخذت عاصمتها كاي - فونغ في ١٢٣٣ م . وأطلقت غارات ضد إمبراطورية آل سونغ القومية ، وفي مملكة كوريا .

٢ - نحو الغرب ، بقي استرداد إيران . وبفضل وفاة جنكيز خان استرجعت الإمبراطورية الخوارزمية جزئياً . إلا أن الحملة التي جردت في السنتين ١٢٣٠ و ١٢٣١ م سحقت نهائياً وأخضعت فارس كلها للغل المغولي .

٣ - وفي العهد نفسه ، قام جيش مغولي ثالث ، بقيادة باتو ، ابن أخ الخان الكبير ، بعملياته الحربية في أوربة : في السهب الروسي ، أعلن الأتراك القفجاق

خضوعهم ؛ ثم هوجمت الإمارات الروسية ، ريزان ، فلاديمير ، موسكو ، سوزدال ، كييف ، أخذها المغول وأحرقوها . وظلت روسيا خاضعة للنير المغولي أكثر من قرنين . ودخلت سهوب روسيا الجنوبية في وقف باتو (خانة القفجاق) . وفرض على الإمارات الروسية في الشمال دفع ضريبة . وأخيراً اندفعت الموجة المغولية في القتال حتى حدود أوربة الغربية : اجتاحت بولونيا وسيليزيا ، وفي هونغاريا سحق الجيش المجري في موهين (١٢٤١ م) ، ووصلت طلائع المغول حتى ضواحي فينا . ومع ذلك لم يحاول مغول أوغوداي البقاء في هذه المناطق ، وحدد موت هذا العاهل توقف الفتح المغولي في أوربة .

لم تبق السلطة الإمبراطورية في بيت أوغوداي . وبعد سنتين من الصعوبات ، انتقلت إلى بيت تولي . فقد حكم ابنه البكر مونغكا من ١٢٥١ إلى ١٢٥٩ م ، وتابع شخصياً النضال ضد إمبراطورية السونغ في الصين الجنوبية التي شجعت التضاريس فيها المقاومة الصينية . وفي هذه الأثناء كان أخوه الذي يليه في الولادة ، هولاكو ، حاكم فارس ، يوسع وقفه بخضوع خليفة بغداد والعراق . فقد بدأ بمهاجمة الإسماعيليين في مكائهم الجبلية وأهلكهم . ثم حمل الحرب ضد الخليفة العباسي في بغداد ، على ما هو عليه من ضعف وعناء ، وأخذ بغداد في ١٠ شباط ١٢٥٨ م . وأمر السكان بالخروج من المدينة وأعمل فيهم السيف ، ودام ينهب المدينة سبعة عشر يوماً . أما الخليفة ، فبعد أن أجبر على تسليم كنوزه الخبأة ، وضع في كيس وداسته سنابك الخيل . وأحرق الجزء الأكبر من المدينة . ثم تابع هولاكو الخطة التي رسمها له مونغكا ، وقام بإخضاع بلاد الشام واستولى على حلب وحماة وحمص ودمشق دون كبير صعوبة . وفي غضون ذلك وصله خبر وفاة الخان الأعظم مونغكا فأسرع بالعودة إلى الصين . وخلف وراءه جيش الاحتلال . أفاد السلطان المملوكي من هذا الظرف لاسترداد سورية ، ووقعت

الواقعة بينه وبين المغول ومن حالفهم من الصليبيين في معركة عين جالوت (١٢٦٠ م) التي أدت إلى سحقهم وهزيمة من تبقى منهم . وهكذا سجل التوسع المغولي نقطة توقف في آسيا الغربية .

وبالمقابل ، تتابع الفتح المغولي في الشرق الأقصى ، تحت حكم أخ لمونغكا ، وهو كوبيلاي آخر كبار الأباطرة المغول (١٢٥٩ - ١٢٩٤ م) . وأنهى هذا العاهل فتح مملكة سونغ ، هانغ - تشيؤ ، وسقطت العاصمة في ١٢٧٦ م ؛ ولجأ أواخر (الوطنيين) الصينيين مع آخر ممثل للعائلة سونغ إلى أسطول في عرض بحر كانتون ، فأغرقهم أسطول مغولي في أعماقه في ١٢٧٩ م . وأصبحت الصين كلها في يدي كوبيلاي ؛ وهذا ما لم يحصل لأي فاتح تركي - مغولي قبله . وبادر الخان الأعظم وطلب ولاء الدول الأخرى ، في الشرق الأقصى ، التي كان أباطرة الصين يزعمون بممارسة الوصاية عليها . وفي كوريا سحقت المقاومة ضد احتلال المغول ، وأصبحت مملكة تابعة . ولكن كوبيلاي كان أقل حظاً في محاولاته لإخضاع اليابان والهند الصينية وجاوا . وجردت حملتا إنزال ضد اليابان وردتا (في ١٢٧٤ و ١٢٨١ م) . وفي سياق العملية الثانية دمرت عاصفة الأسطول المغولي وتخلّى كوبيلاي عن بسط سيادته على الأرخبيل الياباني . ووجهت عمليات خلال عدة مرات ضد الهند الصينية ، ولتجنب التهديد بالغزو قبل عواهل شامپا ، والأنام ، وبرمانيا ، وممالك الطاي الصغيرة ، الاعتراف بتبعيةهم لكوبيلاي ؛ وفي الواقع ، إن السيطرة المغولية لم تتأصل وترسخ بحق في شبه الجزيرة ، ولا أكثر في جاوا حيث اضطر جيش حملة مغولي على الإبحار ثانية بعد بضعة أشهر من النزاع (١٢٩٣ م) .

كوبيلاي والسلالة المغولية في الصين

لقد بلغ التوسع المغولي حدوده القصوى . إلا أن هذه الإمبراطورية ليست

إمبراطورية وحدوية ، لأن الأراضي الواسعة التي احتلها المغول تميل إلى التفكك في عدة خانات تطابق الأوقاف الأميرية التي كان قد أسسها جنكيزخان . وعندما استلم كوبيلاي السلطة ، انفجرت منازعات في داخل العائلة الجنكيزخانية وانقلبت إلى ثورات مكشوفة ضد الخان الجديد . وكان على هذا الخان خلال حكمه كله أن يناضل لفرض سيادته على أبناء عمه ، خانات فروع أو غوداي وجاغاتاي الذين كانوا يحكمون في الجنوب الغربي لمنغوليا وفي التركستان . وأقل منهم اختلاطاً مباشراً في هذه الخلافات ، كان خانات فارس وروسيا الجنوبية يتمتعون بواقع بعدهم باستقلال ذاتي واقعي حقيقي .

ولم تكن سياسة كوبيلاي غريبة على هذه الثورات وعلى هذا التقلب في الإمبراطورية المغولية . وفي الحقيقة ، أن كوبيلاي مافتئ يعلن عن نفسه بأنه خلف جنكيزخان ويطالب باسم وحدة الإمبراطورية طاعة الخانات المغول ، وقضى قسماً كبيراً من حكمه في المناوشة في منغوليا للاعتراف في سلطته . ولكن قاهر الصين انفتح على الحضارة الصينية . ومنذ ١٢٦٠ م ، هجر كاراكوروم ، واستقر في بكين . وفي الشمال الشرقي من المدينة الصينية القديمة ، أمر بإنشاء عاصمة جديدة ، مدينة الخان ، خانبايك ، وجعل الرحالة الغربيون منها كامبالوك . وأراد كوبيلاي ، الخان الأعظم لرعاياه المغول ، أن يصبح في الصين ، ابناً حقيقياً للسماء ، إمبراطوراً صينياً : وبعد زوال آخر أمير سونغ ، اعتبر نفسه مؤسساً لسلالة جديدة ، سلالة يوان (١٢٨٠ - ١٣٦٨ م) ، التي خلفت اثنين وعشرين سلالة حكمت الصين حتى ذلك الحين . وعلى هذا فالإمبراطورية المغولية جنحت لتصبح إمبراطورية صينية . وشتان ما بين الخيم العسكري حيث كان جنكيزخان يشارك حياة الرعاة القاسية في السهب ، والبلاط المترف الذي تبنى فيه كوبيلاي الأعراف والبذخ اللذين كان عليها العواهل الصينيون .

وفي بكين أمر كوييلاي ببناء قصر فخم ، وكانت حياة الخان العظيم فيها منتظمة باحتفالات ومراسم دقيقة . والمغول ، الذين يحضرون الصيد والأعياد الفاخرة التي يقيمها كوييلاي ، لا يشبهون الرجل الذين يلبسون جلود الحيوان التي تتصاعد منها الرائحة الكريهة التي كانت تصدم في بداية القرن أنوف الصينيين .

لقد أصبح زعيم القبائل المغولية عاهلاً وراثياً لا يقاسم حياة رفاقه . وكان هؤلاء في نظر الصينيين أمراء إمبرياليين ، وتابعين يمنحهم العاهل يوان إقطاعات واسعة ، ويخصصهم للحياة العسكرية والحرب . وتحول الجيش المغولي ، فقد هجر جزئياً تكتيك مناوشة الفرسان ، وقبل المغول الآن المعركة المنظمة على شكل صف يقابل صفاً آخر ، وتبنوا آلات الحرب الصينية ، وتكيفوا مع حرب الحصار ، بل وحتى غامروا في البحار .

وحافظ كوييلاي على النظم والمؤسسات الصينية ، وقبل الجهاز الإداري ، ولكنه لم يكتف بتقليد الأبهة والبذخ الخارجي لعواهل البلاد الإداري ، وصرف جلّ اهتمامه لحكم البلاد وإرجاع الازدهار الصيني بفضل سياسته الاقتصادية .

وللنضال ضد المجاعة ، وضع موضع التنفيذ تشريعاً قديماً : وهو أن يخزن الفائض من المحصول ، الذي تشتريه الدولة في أهرأ عامة ، ويوزع مجاناً على المحتاجين ، وفي وقت الجذب ، على الشعب كله . وأصلح أيضاً القناة الكبرى التي تصل بكين بالصين الوسطى ، وشبكة الطرق الإمبريالية ، وزرع على طولها الأشجار . ونظم البريد على هذه الطرق ، مما كان مدعاة لإعجاب الرحالة الغربيين .

وعلى هذه الطرق المعنى بها جيداً ، لا يسير الرسل الذين يحملون أوامر العاهل فحسب لجهات الصين الأربع ، وإنما عديد من التجار أيضاً . وشجعت

سياسة كوبيلاي المالية نحو الفاعلية التجارية أيضاً . وبفضل تعميم الورق النقدي ، كانت التجارة الصينية تتصرف بوسائل تبادل وافرة كانت مدعاة لإعجاب ماركو پولو .

إلا أنه ، انطلاقاً من ١٢٨٠ م ، وإثر إصدارات هامة جداً جداً ، انخفضت قيمة الورق النقدي ، وبدأ تضخم جامح تسبب في ضرر جزء من النتائج الطيبة لإدارة كوبيلاي الرشيدة . وبالإجمال ، كان حكم كوبيلاي دور ازدهار عظيم جداً ، بالنسبة للصين .

وأخيراً ، إن المغول ، في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، مع بقائهم أوفياء لديانة الأسلاف الشامانية ، أظهروا شيئاً فشيئاً تعاطفاً مع الديانات المتطورة للشعوب التي أخضعوها . وكان التسامح ، الذي أبداه جنكيز خان ، من قبل ، مزيجاً من حب الاطلاع ومن الخوف الوسواس . أما خلفاؤه فكانوا أكثر نشاطاً ، وجعلوا من أنفسهم حماة لعبادات عديدة ، ولا يستهينون ، في الاحتفالات التي تقيمها ، بالمشاركة بها . وصدرت مراسيم إمبراطورية تعفي من الرسوم جميع ممثلي الديانات ، من كهان نسطوريين ، ورهبان بوذيين أو طاويين ، وفقهاء مسلمين . ومع ذلك ، فقد أبدى مونغا وكوبيلاي ، في سياق حكمها ، تفضيلاً واسعاً للبوذية التي شجعا انتشارها على حساب الطاوية . حتى أن كوبيلاي تقبل بأبهة عظيمة بقايا بوذا التي أرسلها له أمير من سيلان . وهذا لم يمنع هذين العاهلين من إبداء التعاطف مع الديانات الأخرى ، المانوية ولا سيما النسطورية التي كان لها العديد من المريدين عند الكريييت والأونغوت . وفي الأعياد الكبرى كان الإمبراطور يطلب بأن يقدم له الكهان النسطوريون الأناجيل : ثم يبجلها ويقبلها . وقد سبق أن طردت النسطورية من الصين منذ سقوط آل تانغ ، وعادت إليها بفضل النفوذ المغولي . وفي ١٢٧٥ م كان أشياعها عديدين بما يكفي ؛ حتى أن البطريك النسطوري في بغداد قرر

أن يؤسس بطريركية في بكين . وعلى مسافة من العاصمة أقيمت صومعة نسطورية ؛ وقرراثنان من رهبانها ، ربّان صوما وماركوس ، من أصل أونغوت ، أن يذهبا إلى القدس للحج : اجتازا آسيا كلها ، وزارا في طريقيهما الطوائف النسطورية العديدة جداً في فارس ؛ ولكنها ، إثر الحرب الجائشة بين المغول والماليك ، لم يستطيعا الوصول إلى القدس . ومع ذلك فإن الموقف المرحب للعواهل المغول نادراً ماذهب حتى الاهتداء بالنسطورية .

عودة العلاقات بين الشرق والغرب

لقد أخضع جنكيزخان وخلفاؤه آسيا ، من كوريا إلى البحر الأسود ، إلى سيطرة وحيدة . وانتهت المنازعات بين القبائل في كل هذه المسافة الواسعة . وعمل المغول على سيادة السلام بالإرهاب وحده بادئ بدء ، ثم شيئاً فشيئاً بفضل إدارة رشيدة .: وأخيراً تمدن الناس الهمج . وساعدت هذه الظروف كلها الناس والبضائع والسلع والأفكار على الانتقال من جديد بحرية من الغرب إلى الشرق الأقصى ، والإسلام والمسيحية لعقد روابط مع الحضارات الآسيوية . وشعر المسيحيون بادئ بدء بإرهاب شديد من محتاحيهم المغول . ومع ذلك ، بعد قليل ، ولدت السيطرة المغولية آمالاً كبرى في الغرب على الصعيد الديني والتجاري .

وفي العصر الذي كان من الممكن فيه أن يحكم على الحملات الصليبية بالإخفاق ، وتقاوم بعناء آخر الدول الفرنجية في سورية ، كانت المسيحية الرومانية تغذي لبعض الوقت وهماً : وهو أنه من الممكن أن يصنع من المغول حلفاء ، وأن يعتنقوا المسيحية ، وأن يضربوا الإسلام بمساعدتهم . ففي ١٢٤٥ م ، أرسل البابا إينوسان الرابع لدى الخان الأعظم الفرنسيكاني جان دو پلان كاربن ، الذي أتى من رحلته بـ (تاريخ التتر) الثمين . وبعد بضع سنوات ،

- ٢٨٩ -

تاريخ العصر الوسيط جـ ٢ (١٩)

أرسل القديس لويس بدوره سفيرين : أندره دو لونجومو (١٢٤٩ م) ، ثم غليوم دو روبروك (١٢٥٣ م) . وقبل العواهل المغول الإصفاء للمرسلين المسيحيين حتى أنهم نظموا نقاشات متضاربة في قضايا لاهوتية بين هؤلاء ومثلي الديانات الأخرى . ولكنهم ، جواباً لطلب التحالف العسكري ، طالبوا ، قبل كل شيء ، بأن يعترف ملوك الغرب والحبر الأعظم بأنهم تابعون للمغول . على أن أخذ بغداد من قبل المغول في (١٢٥٨ م) ، الذي جاء بعد هذه التعاملات الدبلوماسية غير المثمرة ، أعطى ثانية أملاً جديداً للمسيحيين . وكان خان فارس هولاكو ، الذي وجه الحملة المغولية ، متعاطفاً كثيراً مع المسيحية ، وأعطى الأمر بأن تصان في كل المدن المفتوحة أرواح جميع العناصر المسيحية في السكان . وعندما حمل هولاكو الحرب ضد سورية ، ارتسم تعاون حقيقي بين المسيحيين والمغول : وعلى هذا شارك ملك أرمينية الصغرى وصهره أمير أنطاكية ، بوهيموند السادس ، في أخذ دمشق . ولكن هذا التفاهم تدمر بحرق بارونات عكا الذين كانوا يفضلون المسلمين على المغول البرابرة ؛ وهاجوا دورية مغولية . فرد هولاكو بإعطاء الأمر بأخذ صيدا ونهبها . وسمح الفرنجة لجنود السلطان المملوكي بالمصاقبة على طول الساحل الفلسطيني ، وقدموا لهم التموين ، وبذلك ساعدوهم على سحق المغول وطردوهم من سورية (١٢٦٠ م) .

وحاول المغول أن يعقدوا من جديد التحالف مع الغرب . وكانوا يرغبون باستئناف النزاع ضد المماليك ، وأرسل أرغون (١٢٨٤ - ١٢٩١ م) ، أحد خلفاء هولاكو في خانة فارس ، إلى البابا هونوريوس الرابع رسالة في (١٢٨٥ م) يقترح فيها عليه هجوماً مشتركاً على سورية وتقسيم البلاد بين المغول والفرنجة . ولدعم هذه المقترحات ، أرسل ، في ١٢٨٧ م ، ربان صوما في سفارة . ووقف الراهب النسطوري أولاً في القسطنطينية ، حيث استقبله الإمبراطور أندرونيك الثاني بكثير من الاعتبار والإكرام ؛ ثم ذهب إلى عدة مدن كبرى في الغرب : روما ،

جنوه ، باريس ، وبوردو حيث يقيم ملك إنكلترا إدوارد الأول . وفي كل مكان ، استقبال بحفاوة ، حتى أن البابا نيقولا الرابع قبله في الاحتفال بسر القربان المقدس في كنيسة القديس بطرس . ولكنه لم يستطع الحصول على أي اتفاق عسكري واضح . وأرسل سفراء آخرون في السنوات التالية لدى البابا ، والملك فيليب الجميل ، وعادوا أدراجهم مكتفين بمجاملات تشريفية . وفاتت آخر فرصة على الغرب لسحق الأتراك المسلمين .

وعند المسيحيين ، ترك المثل الأعلى للحملة الصليبية أكثر فأكثر للبعثات التبشيرية . وانطلاقاً من آخر القرن يرى أن الفرنسيين الذين يذهبون إلى الشرق الأقصى كانوا مهتمين بالتبشير بالمسيحية . فقد انطلق ، في ١٢٨٨ م ، جان دو مونتوكورفينو واستقر في بكين ، حيث شاد كنيسة وبارشترجمة سفر المزامير . وفي ١٣٠٧ م ، أصبح رئيس أساقفة كامبالوك . وفي ١٣١٤ م ، وصل فرنسيسكاني آخر ، اسمه أودوريك دو بوردونون إلى بكين وأقام فيها ثلاثة أعوام بعد طواف عظيم في جنوب - شرقي آسيا . وبالرغم من أن بعض السكان اعتنق المسيحية ديناً ، فلم تتأصل المسيحية بصلابة في الشرق الأقصى ، حتى أن رد الفعل العنيف القومي ، الذي تبع سقوط مملكة يوان المغولية ، أفسد بعض النتائج التي حصل عليها التبشير الفرنسيكاني بالإنجيل .

وساعد تأسيس الإمبراطورية المغولية أيضاً على توطيد الدورات الكبرى في المبادلات ، مع الشرق الأقصى ، بعد أن انقطعت جزئياً منذ آخر العصر القديم . وعقد السوق الصيني من جديد علاقات وثيقة مع الأسواق الهندية والماليزية ، وانطلقت السفن الصينية تبحث في جاوا وسيلان عن التوابل ، وفي الهند عن الحرير الموسيلني والأنسجة القطنية ، وتأتي إلى موالي جنوب شرقي آسيا بحرائر الصين . وبالطريق البرية ، عقدت المبادلات بين فارس المغولية التي تباع سجادها ، وأملاحها ، وبين الصين التي تجهز بالحراير والبورسولين . وكان التجار

المسيحيون يختلفون أكثر فأكثر بأعداد عظيمة إلى المواقع التجارية في الصين ، وشكلوا ، لكسب الشرق الأقصى ، قوافل تنطلق من سواحل البحر الأسود ، وتسلك طريق الحرير القديم عبر آسيا الوسطى . يبد أنهم كانوا في الغالب يختارون الطريق البحري . فبعد اجتياز إيران ، يبحرون للصين من ميناء هرمز . وفي العودة يأخذون من جديد الطريق نفسه . وبعد نقل بضائعهم عبر إيران يصلون إلى الموانئ المسيحية مثل طريزون . وهؤلاء التجار المسيحيون إيطاليون في معظمهم . والجنويون منهم أقاموا وكالات في القرم ، في تانا وفي كيفا ، ومستعمرات تجارية في الهند ، وتركستان ، والصين . وكان البنادقة أيضاً حاضرين على طرق الشرق الأقصى . وأشهرهم الأخوان پولو ، نيقولو وماثيو پولو ، وعندما غادرا القسطنطينية في ١٢٦٠ م لأجل جولة آسيوية ، كانا ينويان الذهاب إلى روسيا الجنوبية وتركستان فقط . وعندما كانا في طريق العودة ، قررا أن يتبعوا السفارة التي أرسلها خان فارس هولوكو إلى الخان الأعظم كوبيلاي ، فاستقبلها هذا الأخير بحفاوة وكلفها بأن يذهبها ويطلبها من البابا مئة دكتور عالم في الفنون السبعة . وأخفق التاجران البندقيان في مهمتهما هذه ، ولكنها قررا العودة إلى الصين . وفي هذه المرة جاء معهم ابن نيقولو الشاب ، ماركو (١٢٧١ م) ، وزاروا القسم الأعظم من آسيا الوسطى ؛ وفي الصين نفسها كلف الإمبراطور كوبيلاي ماركو بولو بعدة مهمات إدارية قادته عبر أقاليم المملكة . وعندما أبحر البنادقة الثلاثة لأوربة في ١٢٩١ م ، كان ماركو پولو قد حصل على معلومات عديدة عن آسيا الوسطى والشرقية كلها ، وجمعها في كتاب أعطاه النساخ القدامى عنوانين مختلفين (حديث العالم) أو (كتاب العجائب) .

وهذه الرحلات الكبرى التي قام بها تجار ومبشرون حضت حباً اطلاع الأفكار في الغرب . واستيقظ تذوق للغريب ، أي تذوق مآتي الأجانب : وذلك أن البلاد البعيدة بعالم نباتها وعالم حيوانها الغريبين المخالفين للمعتاد ، وبالغيلان

التي تكثر منها قصص الخرافات التي جمعها المكتشفون حسب أذواقهم ، استحوذت على خيال الفنانين . فعلى لوحة جبهة كنيسة فيزليه مثلوا كائنات بشرية غريبة ذات آذان ضخمة . وعن التنينات والحيوانات الخرافية في الشرق ، اقتبس الخيال الغربي طواعية ، رؤاه المؤذية الضارة . فالشيطان بأجنحة الخفاش هو من أصل صيني . ولكن حبّ الاطلاع هو أيضاً من نوع علمي ؛ فبفضل الدلالات ، التي جمعها الرحالة ، بدئ برسم خرائط أكثر دقة عن البحر المتوسط والبحر الأسود وجواربها ؛ حتى أن الأفكار الجريئة خطر ببالها إيجاد الطريق الذي يوصل مباشرة إلى كنوز آسيا الأسطورية . ولم يكن عصر الاكتشافات عنها ببعيد جداً .

القسم الثاني

تاريخ العصر الوسيط في أوربة
القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر

الفصل الأول

العوامل الشرقية

في القرنين الرابع عشر والخامس عشر

المقدمة :

لقد حول إنشاء الإمبراطورية المغولية في القرن الثالث عشر بشكل جذري علاقة القوى بين الشرق والغرب . ففي دور قصير نسبياً ، ثلاثة أرباع القرن ، مدّ الصرح السياسي ، الذي شاده جنكيز خان وخلفاؤه المباشرون ، جسراً بين أوربة وآسيا يساعد ، بين هذين الجزأين من العالم ، على عودة العلاقات المباشرة ، وما رحلة ماركو پولو وسفارات المبشرين الفرنسيين إلا شاهداً على ذلك ومن أعجب الشواهد وأكثرها تأثيراً . ومن جهة أخرى ، إن المغول ، الذين امتدت هيمنتهم على بلاد مختلفة الإيمان جداً ، وكانوا قريبين إلى ديانات متنوعة ، ما كانوا ليهتموا بانتصار دين على الأديان الأخرى . وكان لموقفهم من الإسلام والمسيحية دلالة في هذا الاعتبار . وبالرغم من أنهم كانوا سادة جزء عظيم من البلاد الإسلامية ، فلم يشجعوا بصورة منظمة تقدم الإسلام إلا ربما في روسيا الجنوبية . كما إن توحيد آسيا تحت سيطرتهم لم يخدم بخاصة توسعاً جديداً للإسلام ، وما حصل هو استقرار بل وحتى تراجع لحدود العالم الإسلامي في القرن الثالث عشر . وبالمقابل إن المسيحيين ، الذين علقوا آمالهم على حلف مع الدولة المغولية لتطويق المسلمين (الكافرين) وسحقهم ، قد خاب رجاءهم بسرعة . وفي الحقيقة ، لقد تأسست عدة أسقفيات إرسالية من البحر الأسود إلى الصين ، ولكن

المغول ، عبر غاراتهم في آسيا الوسطى ، كانوا يقتلون العديد من المسيحيين ولا يألون جهداً في النهب والسلب والخراب والتدمير .

وهكذا فإن الدولة ؛ الفوقية (الفوق قومية) أو للقول (الفوق - دينية) ، الإمبراطورية المغولية ، تفتتت في آخر القرن الثالث عشر ؛ وإن تجزئتها وضعف الخانات الذي نجم عنها يسجلان منعطفاً جديداً في العلاقات بين الشرق وأوربة المسيحية . فقد انقطعت الطرق العابرة للقارات ، وأغلقت آسيا من جديد في وجه الغربيين ، وانطوى الشرق الأقصى على نفسه . وهذا الانطواء لبلاد الشرق الأقصى بخاصة ، الذي امتد حتى منتصف القرن التاسع عشر ، حادث من الحوادث العظمى في التاريخ العالمي . وأهم من ذلك أيضاً ، بالنسبة للغربيين ، يقظة التوسع الإسلامي انطلاقاً من القرن الرابع عشر . وبسعة وضخامة هذه الفتوحات ، وما نجم عنها من صبا ، كان تقدم الإسلام ، في آخر العصر الوسيط ، شبيهاً بالتقدم الذي عرفه في سياق القرنين الأول والثاني من العصر الإسلامي . ففي آسيا الوسطى أسلم المغول ، وإن كان إسلامهم هذا يحتوي على نقاط ضعف كثيرة . وفي اتجاه الشرق والجنوب ، كان الإسلام على يد الفاتحين أو التجار ، في الهند الجنوبية وفي أندونيسيا ، وفي إفريقيا السوداء . وأخيراً أدخل الأتراك العثمانيون الإسلام إلى أوربة الشرقية التي وقعت في أيديهم ، إلا بلداً واحداً في شمال - شرقي أوربة ، وهو روسيا الموسكوفية التي ورثت عن بيزنطة الحضارة الإغريقية والديانة المسيحية الأرثوذكسية .

١ - الشرق الأقصى

الصين

لم تكن بلاد الشرق الأقصى بالنسبة لعواهل المغول ، في القرن الثالث عشر ، غير إقليم من أقاليم إمبراطوريتهم الواسعة . وكانت الصين نواتها ، ومنها انطلقت حملات كثيرة لفتح اليابان وشبه الجزيرة الهندية - الصينية وأندونيسيا .

إمبراطورية اليوان الصينية - المغولية

عند وفاة الخان الأعظم كوبيلاي (١٢٩٤ م) تجزأت إمبراطورية المغول إلى خانات مستقلة . وأصبحت خانة الصين آنذاك من جديد إمبراطورية صينية مستقرة . وعندما ترك كوبيلاي العاصمة القديمة كاراكوروم وأصبحت بكين العاصمة الحديثة ثبت عاهلاً لإمبراطورية صينية . أما خلفاؤه الذين لم يستطيعوا السيطرة على كل الممتلكات المغولية فقد تصينوا أي أصبحوا صينيين بسرعة . وأخذت سلالتهم الاسم الصيني يُوان .

وهذه الإمبراطورية الصينية - المغولية تماسكت أيضاً خلال ثلاثة أرباع القرن بمجد وعظمة ، وامتد الإشعاع السياسي للعاصمة الجديدة إلى كل آسيا . وكانت تتدافع على العاصمة بكين رعايا الإمبراطور من مغول وصينيين منضمين إلى النظام ، وأتراك رحل تصينوا كثيراً أو قليلاً باستقرارهم في شمال البلاد . وأقبل عليها تجار وعلماء مسلمون أتوا إليها من الشرق الأوسط ، وrehبان بوذيون من الهند أو من التبت ، ورحالة أو إرساليون مبشرون جاؤوا من الغرب البعيد . ووزع الإمبراطور الإقطاعات والأوقاف الخاصة والوظائف الإدارية على كل من

تعهد بالولاء والوفاء مهما يكن جنسه أو دينه . وأصبحت المدن الصينية الكبرى أكثر من أي وقت مضى مراكز توزيع للتجارة العالمية الكبرى التي أفادت من إعادة إصلاح الطرق والقنوات الذي قام في عهد كوييلاي . وفي مانزي (الصين الجنوبية) سيطرت هانغ - تشيئو ، وتسيوان - تشيئو على تجارة بحار الجنوب . وفي الخطاي (إقليم الخطا) أي الصين الشمالية كانت الطرق القارية تتجه صوب بكين . وأخيراً تتابع النشاط الفني والفكري تحت النفوذ المغولي . وبني الكثير من العماير ، وأنجز تزيين بكين . إلا أن السلالة المغولية بقيت قليلاً من الزمن ، ولم يطل عهدها جداً لتولد أسلوباً جديداً . فقد سيطر تقليد سلالة آل سونغ على الإنتاج الفني . فن ذلك أن الرسام مونغ - فو (١٢٥٤ - ١٣٢٢ م) ، الذي وإلى النظام ، كان يحيط رسومه بالضغط على ظل الفرسان والخيول المغولية ليعطيه لوناً أشد عمقاً . وبتذوقه لقيم حسن الخط هيأ على صعيد الرسم بالحبر أكبر حركة تجديد في المنظر . وفي فن الخزف مدد عصر اليوان طرق تسونغ ، ولكنه أدخل استعمال اللون الأزرق (الإسلامي) والأحمر النحاسي . وبصورة عامة شجع ازدهار التجارة الإنتاج وتصدير الخزف (البورسولين) الصيني ، وكذلك السجاد والحرائر . وعلى صعيد الأدب ، وجد فنٌ ظل حتى ذلك الحين محترقاً ، ولكنه اكتسب صفة النبل والتقدير ، ألا وهو (فن المسرح) . ولما ألغي نظام الامتحان لسوق الموظفين ، اتجه كثير من المثقفين عندئذ بسبب البطالة نحو تأليف القطع المسرحية .

وعرفت الرواية ، هي أيضاً ، نجاحاً عظيماً . ووجدت منذ زمن طويل رواية القصص التاريخية التي تتناقل شفهيّاً . وفي القرن الرابع عشر حررت هذه القصص ونظمت في مجموعتين تؤلّفان الروايتين الصينيتين الأوليين اللتين مازالتا شعبيتين حتى أيامنا هذه أكثر من غيرها ، وهما : (رواية الممالك الثلاث) ، و (رواية حافات الماء) .

وإلى هذه اللوحة المشرقة من حياة الصين في فاتحة القرن الرابع عشر التي وصفها لنا الرحالة الغربيون المعجبون بها ، يجب أن نضيف بعض الظلال التي تسمح بفهم الانهيار المبكر للسيطرة المغولية . إن أورديريك دو بوردينون مثل ماركو پولو نفسه تطورا غالباً في الأوساط المحظية في البلاط أو البورجوازية التجارية . وبهرا ببذخ هذه وغنى تلك دون أن يدركا أن الجمهور الصيني كان يتقاسم مصيراً آخر مختلفاً . لقد كان الفلاحون دوماً فقراء وتسحقهم الضرائب . وإذا هاجمهم الجوع فكيف لا يتجه غضبهم عندئذ ضدّ ساداتهم الأجانب ؟ لقد سحب النهوض العجيب للتجارة تضخم نقدي أصبح مع الزمن خطيراً . وكانت السلالة المغولية غير مستقرة بصلابة في البلاد ، وأبقى العواهل على دعم الإدارة الصينية . ولكن الجهاز المغولي قليل كثيراً جداً وغير مؤهل بشكل جيد للوظائف الإدارية . ولذلك ترك اليوان الإداريين الصينيين في مكانهم ، وأطروهم بموظفين صينيين مختارين من بين أجانب عن البلاد : أتراك ، إيرانيين ، عرب . وماركو پولو نفسه شغل وظائف إدارية . وكثير من هذه الكوادر تصينت ولكن وفاءها لا يطمأن له . وبالمقابل ، كان الجيش مؤلفاً على سبيل الحصر من المغول واقتصر حمل السلاح عليهم ، أما القوات العسكرية القليلة العدد كثيراً جداً فكانت موزعة في حاميات منفصل بعضها عن بعض بمسافات كبيرة . وفقد الجيش نظامه متخلياً عن حياة الترحال القاسية التي كانت بالنسبة له تدريباً دائماً . وأخيراً ، إن خلفاء كوبيلاي في معظمهم كانوا غير أكفاء لمواصلة عمله . فقد استسلموا لحياة اللذائذ ، وانقسموا على أنفسهم بالمنازعات الأسرية . وبين وفاة كوبيلاي في (١٢٩٤ م) ووصول آخر عاهل مغولي طوغان تيمور (١٣٢٣ - ١٣٦٨ م) إلى العرش توالى لا أقل من ثمانية أباطرة يوان .

صين آل منغ القومية

انفجرت ، انطلاقاً من ١٣٥٢ م حركة عصيان في الصين الجنوبية ، في إقليم

هو - نان . فقد ثار الفلاحون الذين هددتهم المجاعة . ونصحهم المثقفون الذين حرضوهم على طرد المغولي المحتل ، ودعوتهم في حركتهم أموال الأغنياء الانتهازيين . فمن ذلك أن ابن فلاح ، تشو يوان تشانغ ترأس الحركة ، وحذف جميع منافسيه ، واستولى دون صعوبة على نانكن ، ثم تقدم نحو الشمال ؛ وما كان من الحاميات المغولية المنقطعة عن بعضها إلا أن استسلمت ، أو لاذت بالفرار . وفي ١٣٦٨ م ، سقطت بكين في أيدي التائرين ، ووصل العاهل اليواني فجأة إلى منغوليا .. وعندئذ نودي بتشو يوان - تشانغ إمبراطوراً تحت اسم هوونغ وو (١٣٦٨ - ١٣٩٨ م) ، وأقر نانكن عاصمة له ، وأسس سلالة صينية ، سلالة آل منغ التي حكمت حتى عام ١٦٤٤ م .

وتحت حكم أخلافه في القرن الخامس عشر توطدت في تاريخ الصين اتجاهات جديدة . ففي السياسة الخارجية كان على هوونغ وو ، قبل كل شيء ، أن يناضل ، خلال الجزء الأعظم من حكمه ، لطرد المغول نهائياً . والإمبراطور يونغ - لو (١٤٠٣ - ١٤٢٤ م) كان أيضاً زعيماً عسكرياً عظيماً . وللحيلولة دون عودة هجوم المغول ، قاد شخصياً خمس حملات في منغوليا . ورمم سور الصين العظيم بعنانيته . وفي هذا المشهد الذي أعطاه إياه الترميم متوجاً بشرفات ، يظهر في أيامنا . ثم عادت بكين القريبة من الحدود الشمالية عاصمة للبلاد .

واسترجعت الصين الشمالية ، التي هجرت منذ عصر تانغ ، دورها منطقة موجهة للإمبراطورية ، وجذبت موجة سكان كانت قد انطوت نحو الجنوب في عهد النفوذ الأجنبي . ولم يهمل يونغ - لو ، مع ذلك ، التوسع الصيني نحو الجنوب : فبين ١٤٠٥ و ١٤٣٣ م انطلقت سبع حملات بحرية طوراً وطوراً ضد الهند الجنوبية ، وسيلان ، وأرخبيل الصوند . وتغلغل الأسطول الصيني في مياه الخليج العربي ، وصاقب شاطئ إفريقيا الشرقي . وقامت حملات مشاريع نهب بغية حصول البلاط على التوابل والعقاقير والتحف النادرة . وأقامت هذه الحملات

علاقات تجارية على طول طريق الجنوب ، وشجعت الهجرة الصينية في الأرخبيل الماليزي ، ولكن هذه السياسة الكبرى انتهت فجأة بوفاة يونغ - لو (١٤٢٤ م) ، واختار أخلافه السلام ، واكتفوا بحماية حدود الشمال ضد الهمل المغولي . ومنذ ذلك الحين انطوت الصين على نفسها . وتخلت بإرادتها عن كل حظ لتصبح دولة بحرية كبرى . وترك أسطولها ، المقيم في المياه الساحلية ، المحيط الهندي للعرب ، والمحيط الهادئ للقراصنة اليابانيين .

في السياسة الداخلية ، كان القرن الأول لإمبراطورية آل منغ مطبوعاً أيضاً بنقطة تحول هامة : فقد كان الأباطرة المنغ حريصين جداً على سلطتهم ، وأخذوا يديرون البلاد بمساعدة الخصيان . وكان هؤلاء من العوام ، وفي الغالب أولاد لقطاع ، وللسلطة آلات طيبة ، واهتم العواهل بإعطائهم تعليماً كافياً . وعلى هذا النحو فقد الموظفون المثقفون حصر التعليم ؛ حتى أنهم حذفوا من الإدارة . ولم يكن هذا دون مقاومة . وكانت البورجوازية التاجرة عديدة أكثر فأكثر ، ومنظمة في رابطة تعاون متبادل ، أي نظام الطائفة المهنية . ويبدو أنها دعمت حكم الخصيان لتلعب دورها السيئ على طبقة المثقفين .

وعلى صعيد الفكر والفنون ، يعبر عن وصول أسرة آل منغ إلى العرش أيضاً بانطواء الصين على نفسها ، وبظفر الاتجاهات المحافظة ، ومنع الفرق التي أدخلها الأجانب الواحدة بعد الأخرى وفرض الكونفوشيوسية من جديد مذهباً رسمياً . ثم قام جهد يرتبط به اسم الإمبراطور يونغ - لو لجمع كل مؤلفات الأدب الصيني القديم في مكتبة واسعة . وفي الإنتاج المعاصر ، عرفت الرواية والمسرح عصرهما الذهبي ، بفضل ذوق البورجوازية الصاعدة . فمن ذلك أن مؤلفين انتهوا من وضعهم كتابة (مسرد القصصين القدامى) . وبلغ تنوع الموضوعات المعالجة حده الأقصى : قصص الرحلات ، والمغامرات ، والقصص العاطفية أو الواقعية . وقد وضعت بفن يجلب الانتباه وينشط حب اطلاع القارئ . وفي المسرح تغلب

كتاب الجنوب : فالقطع المكتوبة ، في القرن الخامس عشر ، كان بناؤها أقل صرامة من قطع عصر يوان . فقد أخرجت بطول عشرة فصول ، وبأسلوب متكلف متصنع جداً ، تسلسلات معقدة خصبة بطفرات غير منتظرة . ونما الجزء الغنائي ، وذلك بأن يعهد إلى عدة ممثلين لا إلى ممثل واحد بمقطوعات غنائية : ثنائية ، ثلاثية ، وكوارس تختلط بالحوار الكلامي .

وظهرت في الفن أيضاً عودة إلى تقاليد الأسلاف القدامى . فقد أمر يونغ - لو بتعمير بكين حسب مخطط هندسي يرجع إلى أقدم تقاليد الهندسة المعمارية الصينية : من ذلك بناء عدة أسوار مشتركة المركز تفصل المدينة الأرجوانية ، مقام الإمبراطور ، في الوسط ، عن المدينة الإمبراطورية ، الحي الإداري ، المنزل نفسه عن أحياء السكن المحيطية . والأوابد المرممة أو التي أعيد بناؤها في القرن السابع عشر وفي القرن الثامن عشر ، حافظت حتى أيامنا على مشهد عاصمة آل منغ بسقوف الآجر المسطح والأعمدة المصبوغة باللك الأحمر ، وتزيينها الثقيل قليلاً ، منقوش في الحجر أو الخشب . وأنتج فن آل منغ باحتكاكه بالفن الأكاديمي ، أثاراً عظيمة في القرن الخامس عشر ، في الرسم وفي الخزف . ففي الرسم ازدهرت في سو - تشيئو مدرسة وو . وفنانوها ، ولا سيما ألمهم شن - تشيئو ، كانوا منظري الفن الصيني القديم . وإذا بحثوا عند كبار أسلافهم عن موضوعات وطرق ، فلم يكتفوا بتطبيق وصفات فنية مستوردة ، ولكنهم عرفوا كيف يتفننون بمتغيرات شخصية فنية عالمية خاصة بهم . وتأسس معمل إمبراطوري لفن الخزف في آخر القرن الرابع عشر في كنج - تو - تشن في الكيانغ - سي . وخرجت منه قطع فنية أكثر كثافة من خزف سونغ أو تانغ الأنيق . وظلت الألوان جميلة جداً أيضاً . وظفر في ذلك الحين : (الأزرق والأبيض) ؛ والتزيين على أساس فلذ الكوبلت كان يرسم على مينا شفافة . ولا شيء ينبئ بفقر التقنيات والموضوعات التي سيشكو منها فن آل منغ انطلاقاً من آخر القرن السادس عشر .

جيران الصين

بالرغم من أن العواهل المغول في بكين مازالوا يؤكدون حقوقهم على بلاد الشرق الأقصى التي تعتبرها السياسة الصينية تابعة لها تقليدياً ، فإن سفاراتهم وحملاهم العسكرية قد منيت فيها بالخيبة نهائياً .

اليابان

وكانت هذه بخاصة حال اليابان . فقد عرف الوصي هوجو خلال مرتين ، في ١٢٧٤ م وفي ١٢٨١ م ، كيف يقاوم جيوش المغول التي أرسلها كوبيلاي . وهذه الهجومات المغولية كان من نتيجتها زعزعة شجونة كاماكورا نهائياً . واستطاع هوجو بهذا النصر أن يكون شعبياً أي متمتعاً بحبة الشعب . ولكنه لم يقدر على مكافأة المحاربين الذين ساعدوه ؛ ولأول مرة في التاريخ العسكري الياباني كان المغلوبون أجانب أتوا من ما وراء البحار ؛ ولم توضع على بساط البحث قضية مصادرة أراضيهم لتوزيعها على الغالبين . وهكذا نما استياء أطمع عند الأمراء اليابانيين ، الذين تشجعوا بعدم الكفاءة السياسية التي كان عليها خلفاء هوجو . ولذا ، عندما اعتلى العرش في ١٣١٩ م الإمبراطور القوي غو - دايفو (١٣١٩ - ١٣٣٨ م) وقرر إرجاع السلطة للإمبراطورية ، قام عدد من الأمراء ، مثل زعيم حزب الآشيكاغا القوي ، وتحزبوا للسلطة الشرعية ضد دكتاتورية الشوغون العسكرية . وإثر حرب مدنية طويلة ، سقط كاماكورا في ١٣٣٣ م في أيدي أنصار الإمبراطور . وكان هذا النصر عابراً بالنسبة للسلطة المدنية : لأن اليابانيين اعتادوا جداً على دكتاتورية الجيش ، ولأن كبار الإقطاعيين نمواً جداً قدرتهم ، ولم يكونوا على استعداد لقبول الخضوع للسلطة الإمبراطورية . وبعد ثلاثة أعوام على نصر غو - دايفو ، قامت الحرب المدنية من جديد بين الأمراء الجشعين لكسب أكبر نصيب ممكن من الغنيمة . وأخذ هذا الخلاف الجديد صورة مقاومة بين الشمال الخاضع للمتمردين ، والجنوب حيث التجأ العاهل الشرعي .

تاريخ العصر الوسيط جـ ٢ (٢٠) - ٣٠٥ -

وتنازل هذا أخيراً عن العرش . ورفع البيت الإقطاعي في حزب الأشيكاغا ، في شخص زعيمه تاكوجي ، على العرش إمبراطوراً لم يكن غير اسم مستعار ، ومارس البيت الإقطاعي السلطة الحقيقية وتصرف بلقب الشوغون الوريثي . وامتد الانحياز الإمبراطوري عندئذ حتى ١٨٦٨ م ، وظلت السلطة الشوغونية في أيدي الأشيكاغا حتى ١٥٧٣ م .

لم يستطع الشوغون الجدد منع اليابان من الألم الذي أصابهم من تجزئة إقطاعية لصالح الداييو . إلا أنهم نجحوا في الحفاظ على سلام نسبي في القرن الخامس عشر . واستؤنفت العلاقات التجارية مع صين آل منغ ومع كوريا . وبفضل هذه الاتصالات امتزجت البوذية زين بالكونفوشيوسية - الجديدة . وكان الشوغون ولعين بتذوق الحياة الناعمة والبذخ منهم بالفضائل البوذية . ولذلك حموا الفنون والآداب ، فيما ظل رسامو مدرسة توزا يمثلون مشاهد تقليدية من الأسطورة أو التاريخ القومي . فقد أنتج رسامو المناظر مثل سسشو وسيستون وسوامي ، على مثال الأساتذة الصينيين ، روائع حقيقية . وانطلاقاً من القرن الخامس عشر ، تألفت أيضاً درامة نو الغنائية : فالرقصات القديمة المقدسة ، التي كانت تمثل بالإيماء الأساطير اليابانية ، تضاعفت فيها بحوار . وهكذا أخذت الثقافة اليابانية الحديثة تتحضر وتتهيا ببطء .

شبه جزيرة الهند الصينية

إن شبه جزيرة الهند الصينية التي لم تستطع حملات المغول أن تخضعها ، كانت في سياق الرابع عشر والخامس عشر مسرحاً لتقلبات عميقة . فقد أخذت البلاد قليلاً قليلاً شكلها العرقي والسياسي الحديث . والحادث الأساسي كان انهيار القوة المخيرية وأفول الحضارة الأنغكوروية . وفي الأصل فرضت سياسة عواهل بداية القرن الرابع عشر : عبّاد شيفا الذين اضطهدوا البوذيين رغم أنهم أكثر عدداً في البلاد ؛ الأمر الذي أدى إلى انفجار ثورة سياسية ودينية في ١٣٣٩ م وإقامة

سلالة جديدة . والملك الجديد ، شاي ، الذي ظل حتى ذلك الحين رئيس البساتين الملكية ، لم يستطع أن يزعم بأن له أصلاً إلهياً : ولم يكن للعواهل صفة مقدسة وسلطتهم ليست إلهية (مشيئة) . ولذا ألغيت عبادة الملك - الرب نهائياً وحلت الهندوسية محل البوذية (الناقلة الصغيرة) التي أصبحت الديانة الرسمية . وبصورة موازية لم تستعمل السنسكريتية وانقطعت لصالح البالي التي أصبحت منذ الآن اللغة المقدسة .

لقد تجاوزت النتائج نتائج تغير أسرة بسيط : لأن الملوك ، الذين ليسوا غير أموات بسطاء ، فقدوا جزءاً عظيماً من نفوذهم ؛ ومكايد القصر أخذت تصنع منذ الآن الأمراء وتخلعهم . وزالت المركزية الإدارية التي فرضها الملوك - الأرباب ؛ ومعها أيضاً التنظيم العجيب للحياة الاقتصادية ، وبخاصة الري الذي يساعد بفضل منظومة الصهاريج والأقنية والسدود على توزيع الماء بصورة عقلانية والحصول على ثلاثة أو أربعة محاصيل من الرز في العام . وسقط الإنتاج إلى محصول واحد في العام . وجرّ هذا إلى سقوط ديموغرافي سريع . وفي البلاد المنهكة ماتت الحضارة الأنغكورية .

وهذا الأقول الداخلي لكامبودج (كامبوديا) شجع تقدم الطائي المجتاحين الغزاة . ففي القرن الثالث عشر نزل الطائيون من أطراف يونان في تقدم بطيء نحو الجنوب ، واستقروا في لاؤس وفي وادي مينان وأطلقوا اسمهم عليه التايلاند (سيام) . ونحو الغرب ، بسطوا نفوذهم أيضاً على برمانيا (بورما) . وفي ١٣٥٠ أقاموا عاصمتهم في أيوثيا ، غير بعيد من حدود كامبودج . وبدأ نزاع طويل الأمد عندئذ بين الطائيين وجيرانهم . وفي ١٣٥١ م ، نجح الملك السيامي راماد هيپاتي في الاستيلاء على أنغكور ونفى معظم السكان كأرقاء . واستقر فيها الطائيون نهائياً في ١٣٩٤ م . ولزم في هذه المرة نصف قرن من المنازعات ليستطيع أنصار الخير الخلاص من الاحتلال الأجنبي (١٤٣٢ م) . ولكن العواهل الخير رأوا من

العقل أن يهجروا أنغكور المعرضة جداً للخطر وأقاموا عاصمتهم في فنوم - بينه (١٤٣٤ م) . وفي النصف الثاني من القرن الخامس عشر . قام في الغالب مطالبون بالعرش طردوا أثر منازعات سلالية ودعوا السياميين لنجدتهم وأمسكوا بكامبودج في حالة نوع من محمية سيامية .

وفي الجزء الشرقي من شبه الجزيرة ، جاء شعب آخر أيضاً من الشمال ووطد نفوذه في سياق هذا الدور : وهو شعب أنامي تونكن الذين كانوا منذ القرن العاشر يناوئون الوصاية الصينية وشكلوا أول إمبراطورية فيتنامية مستقلة . وفي القرن الثاني عشر انطلق العواهل الأناميون في سياسة توسع وكانت مملكة شامبا أول ضحية . وقرب التهديد المغولي الشعبين خلال بضع سنوات . وفي ١٢٨٥ م هزمت جيوش كويلاي وعبرت الحدود من جديد . وهذا النصر ساعد الفيتناميين على استئناف سياسة الفتح باتجاه الجنوب . وفي آخر القرن الرابع عشر امتدت الفيت - نام حتى توران ومارسوا حماية على بقايا مملكة شامبا ، وفي القرن الخامس عشر دفع العواهل الأناميون حدودهم حتى جنوب رأس قاريللا .

لقد توطدت السيام والفيت - نام إذن ، في آخر العصر الوسيط ، دولتين مسيطرتين في شبه جزيرة الهند الصينية .

٢ - الإسلام في آسيا وإفريقية

لقد عاود الإسلام توسعه ، انطلاقة من القرن الثالث عشر ، في جنوب آسيا وفي غربها . وأصبح هذان الجزآن منقطعين منذ الآن عن الشرق الأقصى وعن إفريقيا .

ظهرت استعادة القوة بخاصة في البلاد الإسلامية التي أصبحت تحت حكم المغول . فقد اعتنق الفاتحون الإسلام تبعاً بعضهم إثر بعض ، وعملوا على نشره ؛ ومن هذه المناطق ، وعلى وجه الدقة البلاد الواقعة بين نهري سيحون وجيحون ، أي بلاد ما وراء النهر ، انطلق في آخر القرن الرابع عشر تيمورلنك وحاول أن يشكل من جديد إمبراطورية إسلامية كبرى .

أ - تفتيت الإمبراطورية المغولية إلى خانات مستقلة

إن نجاح الإسلام وانتصارات تيمورلنك تتضح أولاً بتجزئة إمبراطورية جنكيز خان . فقد شعر هذا قبل وفاته بضرورة تقسيم إدارة فتوحاته الواسعة بين أولاده . ولكنه احتفظ بسلطة الخانة العليا لصالح ابنه الثالث أوغوداي ، وظل إخوته تابعين له . وفي سياق النصف الأول من القرن الثالث عشر ، تراخت الروابط التي كانت تضم وتوحد أعضاء الأسرة الجنكيزخانية . وسبق أن أخذ كويلاي وجه إمبراطور صيني أكثر منه خائناً أعظم ، ولم يؤمن له هذا اللقب الأخير إلا سلطة اسمية على الخانات الآخرين . وكان أقربهم إليه خان تركستان وخان مونغوليا ، حيث يمكنه التدخل بالسلاح . وقد ثارا مراراً على وصايته .

أما خانا فارس وروسيا الجنوبية فكانا بعيدين ونجوا من سيطرته . وكانت الأطماع الأرضية والمقاومات السياسية أو الدينية ، بين الخانات الملحقين ، تثير في الغالب خلافات مسلحة . ولما كان الموجهون المغول منفصلين عن بعضهم بألوف الكيلومترات ، وباختلاف المصالح ، فقد شغلته شؤون الأوساط المحيطة بهم ، ولم يؤلفوا في الواقع إلا أقلية محتلين أمام كتلة أبناء البلاد الأصلاء . وعندما تتشكل هذه الكتلة في شعب له حضارته القديمة ودين أكثريته الإسلام ، كان مصير البرابرة المغول يؤول إلى الذوبان في الأوساط التي يوجدون فيها . ومن جهة أخرى ، كان في وسط الجيوش المغولية نفسها ، عدد كبير من الأتراك المنتهين إلى قبائل متخلفة بخاصة ، كالتركان ، في شرق بحر الخزر ، الذين أسلموا وكانوا يشاركون المغول في حياتهم ويمارسون عليهم نفوذاً كبيراً أيضاً .

١ - خانة مونغوليا

بين مختلف الخانات الناجمة عن تفتيت الإمبراطورية المغولية ، لم تكن خانة مونغوليا لتارس إلا حياة عابرة مؤقتة . فقد حاول كويلاي خلال حكمه إبقاءها تحت سيادته ، إلا أن رد الفعل القومي ، الذي رفع آل منغ إلى السلطة في الصين ، أرجع لمونغوليا استقلالها الذاتي لبضع سنوات . ولكن الأباطرة الصينيين جاؤوا يشعلون الحرب في البلاد ، وفقد سليلو كويلاي اللاجئون في كراكوروم حظوتهم نهائياً مع الهزيمة . وعادت مونغوليا في آخر القرن الرابع عشر إلى الفوضى القبلية التي انتزعها منها جنكيزخان . وستحمل الخانات الثلاث الأخرى ، القائمة في الغرب ، مصيراً مماثلاً .

٢ - خانة فارس

في ١٢٥١ م ، عهد مونغكا الأكبر لابنه الثاني هولاكو بنيابة الملكية في إيران . وأخذ هذا اسم إيلخان أي (الخان التابع أو النائب) الذي انطبق على

خلفائه . وقد تابع الإيلخانيان أباغا وأرغون ، في القرن الثالث عشر ، سياسة هولاكو الدينية . وكانا معادين للإسلام ويحميان المسيحيين النساطرة في دولهما ويحاولان مع الغريبيين عقد حلف ضد المماليك المسلمين . وفي آخر القرن الثالث عشر ، حدثت ثورة في السياسة الإيلخانية : وذلك أن ابن أرغون ، قازان ، الذي اعتلى العرش في ١٢٩٥ م ، دان بالإسلام وتحت إدارته أسلمت رسمياً دولة فارس المغولية . وتبنى المغول وضع العمامة على الرأس . وأخذت الحياة الدينية بسرعة عند هؤلاء المسلمين الجدد ، طابعاً صوفياً ، وأحاطت التقوى الشعبية بعض الشخصيات بهالة القداسة . وحاول الدراويش الدوارون والدراويش الصارخون ممارسات غريبة للاتصال بالذات الإلهية . وانفجر رد فعل إسلامي عنيف ، بالرغم من العاهل ، على ما يبدو ، ودمرت الكنائس المسيحية والكُسن اليهودية والمعابد البوذية . ومزقت صور القديسين واضطهد الكهنة المسيحيون والكهنة البوذيون .

وعندما كان المغول يدينون بدين المغوليين ، كانوا في الوقت نفسه يتبنون نوع حياتهم . وكان دور قازان في هذا الاعتبار حاسماً أيضاً . فقد حاول هذا العاهل القوي أن يصلح اقتصاد البلاد ، ولقي في هذا المضمار مساعدة المؤرخ الفارسي الكبير رشيد الدين (١٢٤٧ - ١٣١٨ م) . ألف هذا المؤرخ « تاريخ المغول » ولعب دور وزير لدى العاهل . وظل الكثير من المناطق في حالة براح بسبب اجتياح الحرب وتدميرها . وسحقت سيطرة القبائل الرحل المزارعين الفرس .

حمى قازان الفلاحين والمزارعين ، وقام بأعمال عظيمة في البناء والعمران . ووسع المدن وبخاصة العاصمة توريس (تبريز) ، وغطاها بالعمائر العظيمة . وهكذا فإن المغول ، الذين لم يكن منهم إلا التدمير ، شرعوا في البناء والتعمير . وباختصار لقد استقر المغول في فارس ، وما لبثت نتائج هذا التطور أن ظهرت . وعند وفاة الخان أبي سعيد (١٣٣٥ م) كانت قوة المغول قد ضعفت وانهارت . وانقسمت الخانة إلى عدة إمارات مؤقتة في أيدي الأسر المغولية

الكبرى ، وبخاصة الإيرانية . أضف إلى ذلك أن بعض المناطق ، التي يسيطر فيها التركان ، كانت ترجع إلى الفوضى القبليّة . وبين هذه القبائل المتجمعة في الاتحادات كونفدرالية ، كانت قبيلة الخروف الأسود شيعية ، وقبيلة الخروف الأبيض سنية ، في حرب عوان لا هوادة فيها . وأخيراً تركت الأناضول التركية لمصيرها الخاص . ومنذ ١٣٠٢ م ، انططفت السلالة السلجوقية ، ولم يمارس فيها نواب الملوك المغول سلطتهم فيها إلا بصعوبة على الأمراء الأتراك ، مثل الكرمانلي في الجنوب الشرقي ، والعثماني في الشمال الغربي . وهذا الأخير بدأ نجمه السياسي في صعود بطيء ، ولكنه صعود ثابت وواعد .

٣ - خانة روسيا الجنوبية

إن الفوضى ، التي تخبطت فيها فارس المغولية ، أثارت أطماعاً جديدة في الخانات المجاورة ، وبخاصة في خانة القفجاق (كيبشاق) . فقد شكل أحد أولاد جنكيز خان هذه الخانة الواسعة التي تغطي سهوب روسيا الجنوبية وتمتد نحو الشرق حتى تالاس . ووطد أيضاً سيادته على الإمارات الروسية في الشمال . وهذه الخانة التي أخذت اسمها من شعب قديم أقام في هذه المناطق ، القفجاق ، تسمى غالباً قبيلة الذهب . وهذا التعبير الأخير من فائدته أنه يشير إلى نقص التنظيم السياسي لهذه القبائل . وفي هذه المفازات الواسعة ، في الواقع ، كانت ترحل القبائل المغولية أو بالأحرى الجنود التركية التي تقودها عناصر مغولية . وتحت تأثير هؤلاء التركان كان الخانات القفجاق ، المقيمون في ساراي ، على نهر الفولغا الأدنى ، أوائل الزعماء المغول الذين اعتنقوا الإسلام . وهذا الخيار يتضح جزئياً بضرورات سياسية : وهي أن الديانة الإسلامية ، التي فتحت هذه البلاد السهبية وأسلم العديد من أهلها قبل وصول المغول ، كان بإمكانها أن تؤلف نوعاً من مقوّلوحدة الخانة الجديدة . وقد جذب الخان الجديد بركة (١٢٥٧ - ١٢٦٦ م) لبلاطه فقهاء مسلمين عجلوا بإسلام البلاد ونشره في ربوعها ، وكان حليفاً لحاملي

لواء المقاومة الإسلامية ، مماليك مصر ، حتى أنه حارب العواهل المغول في فارس عندما كان هؤلاء يضطهدون الإسلام . وفي بداية القرن الرابع عشر ، عرفت قوة خانات القفجاق كسوفاً ملحوظاً . وأفاد الأمراء الروس من هذا الضعف للخلاص من المغول . غير أن توكتاميش القوي عندما وصل إلى السلطة في ١٢٧٨ م قلب الحالة ؛ ووضع الروس من جديد لأكثر من قرن تحت سيطرة قبيلة الذهب . ويبدو أن توكتاميش فرض نفسه زعيماً للجنكيزخانيين ، وقادراً على إعادة بناء إمبراطورية أجداده في عصر وقعت فيه خانات إيران ومونغوليا في الفوضى . ولكن وقفت ، أمام أطماع الزعيم المغولي ، قوة فاتح تركي جديد خرج من خانة جاغاتاي القديمة وهو تيمورلنك .

٤ - خانة تركستان

هذه الخانة الأخيرة كان جنكيزخان عهد بها إلى ثاني ولد له وهو جاغاتاي البطل الذي أعطى اسمه للخانة التي تنطبق على المنطقة التي أطلق السكان الأتراك اسمهم عليها وهي التركستان . ولكن المغول لم يكن عندهم تقليد سياسي يقدم إطاراً لسيطرتهم ، ولذلك لم يؤسسوا دولة حقيقية في هذه المنطقة . وكانوا يفهمون قليلاً فائدة الاقتصاد المدني . حتى أن الخان بَرَق لم يتردد ، للحصول على موارد ، في نهب المدن التي كانت تابعة له ، مثل بخارى وسمرقند ! ومع ذلك فحتى منتصف القرن الثالث عشر ، كان الموجهون المغول ، تحت وصاية الخانات العظام ، يطبقون سياسة متساهمة ، ونجحوا في صيانة سلطتهم . وتغير كل شيء عندما قرر بَرَق ، في ١٢٧٠ م ، اعتناق الإسلام ، وقلده في ذلك رجاله . وعندئذ ذاب الفاتحون المغول في كتلة أبناء البلاد الأصلاء المسلمين ، وأفلت سلطة الخان لصالح سلطة الإقطاعيين الأتراك ، ووجد في عدادهم أمير من بلاد ماوراء النهر (ترانزوكسيان) ، حاجي بارلاس وابن أخيه تيمور . غير أن حزباً مغولياً من منطقة الإيسيق كول حاول أن يناضل ضد هذا التطور ورفع إلى السلطة خاناً

جديداً ينتهي إلى الأسرة الجنكيزخانية أيضاً ونجح هذا الزعيم توغلوك (١٣٤٧ - ١٣٦٣ م) في وضع جاغاتاي كلها من جديد تحت نفوذه . وخضع له الأمراء الأتراك . وبين هؤلاء ، عرف تيمور كيف يجذب انتباه السيد المغولي ويكسب ثقته ، حتى أنه وضعه بصفة مشاور لدى نائب - ملك بلاد ماوراء النهر ، ابنه الخاص . وهكذا بدأ الصعود السياسي لتيمور المعروف باسم تيمورلنك (تيمور الأعرج) الذي ذاع ذكره على مدى الأجيال تحت هذا الاسم .

مشروع تيمورلنك الدموي

أ - مزيج من الفظاظة والنعومة

ولد تيمورلنك في تركستان في كيش ، في الجنوب من سمرقند ، في ١٣٣٦ م . كان تركياً من أسرة نبيلة . ولأسباب سياسية حاول مؤرخو حياته تقديمه سلباً للجنكيزخان . وكشف أول عمل عام له ، بخضوعه للخان توغلوك ، وهو في سن الخامسة والعشرين عاماً ، أن الانتهازية الخالية من كل وسوسة ضمير لا تنقصه . فقد ساعدته على حذف عمه ، وأصبح أمير كيش مكانه ، ومن ثم احتل مكاناً مرموقاً في الإدارة الجاغاتية . ولكن طموح تيمورلنك كان واسعاً لا يقف عند حد : وما لبث أن قطع علاقته مع الخان وقام بمساعدة أمير بلخ وكابول ، ميرحسين ، عديله ، بتشكيل جيش له . وترافقا معاً وجابا فارس ، وأفاداً من منازعات العواهل المحليين ، المدعين بالسلطة لسوق جيش من المرتزقة لخدمة هؤلاء وأولئك . ثم ضخما عدد جنودهما عن طريق تطوع جنود جدد من أفغانستان ، حوذة حسين . وفي معركتين أصبح تيمورلنك وحسين سيدي بلاد ماوراء النهر التي انتزعاها من السيطرة المغولية في ١٣٠٣ م . وأعطى الزعيمان الفاتحان لنفوذهما ظاهراً من الشرعية ، ورفعاً إلى السلطة أميراً من جاغاتاي ، أفادها ستاراً حكماً من ورائه . وما عم الشقاق أن ظهر بين الشريكين : كانت ممتلكات حسين أهم من ممتلكات تيمور ، ولذلك قدر أن السلطة تعود إليه بحق .

فثار تيمورلنك ، ولكنه اضطر إلى الفرار ، وانتظر من جديد فرصة مناسبة .
وانتهى بعقد ميثاق مع الخان المغولي ، ابن توغلوك ، الذي كان قد بحث عن
ملجأ له في منطقة إيلي ، وعرض عليه أن يضع نفسه على رأس جيشه لاستعادة
بلاد ما وراء النهر . فخاف حسين بدوره ، واقترح مصالحة مع تيمورلنك . فقبل
هذا برياء كوميدي . ولما حان الوقت المناسب ، حاصر منافسه في بلخ ، واستسلم
حسين . ولكن تيمورلنك ، تكرم عليه وأنقذ حياته ، كما يقص التاريخ الرسمي
(السفرنامة) . ولكن حاشيته (على غير علم منه) ذبحت الفار . وفي ١٠ نيسان
١٣٧٠ م ، نوذي بتيمورلنك ملكاً على بلخ ، وأصبح سيد الموقف .

هذه البدايات تذكر بشباب جنكيزخان . وقد أعلن تيمورلنك أنه متهم
ووارث له . وفي الواقع ، إن الرجلين يختلفان تماماً بطبعهما وبفهومهما للسلطة .
كان الزعيم المغولي موهوباً بحس فطري للفن العسكري ، ومحارباً شرساً فظاً ،
وماكراً محالاً . وفضاعته فظاعة بربري بردود فعل بدائية تخرب وتدمر كل
ما تجده في طريقها دون رحمة ، ودون ضمير . أما تيمورلنك فكان أكثر تعقيداً ،
وحصيلة تآرج بين الهمجية التركية ونعومة الحضارة الإيرانية ، وجندياً مفعماً
بالحماسة ، ولا يتردد في الكفاح والوقوف في الصف الأول لجيشه ، وزعيماً مجرباً
وعاقلاً يعرف كيف يتراجع وحتى يهرب عند اللزوم ، عندما يشعر بأنه مغلوب .
ولكنه في الوقت نفسه كان رجلاً مثقفاً وهاوياً للأدب الفارسي يسره أن يحيط
نفسه بالفنانين والكتاب . ومع ذلك لا يشفي غليله إلا عندما يحرق المدن ويقتل
سكانها ويكس رؤوسهم في أبراج ضخمة عظيمة . وهو مسلم تقي يحب النقاش مع
فقهائ الشريعة ويعتبر نفسه محامياً عن الإسلام ، ولكنه لا يوفر العالم الإسلامي
من التدمير . وهذه الإرادة ، في التخريب المنظم ودون مقابل ، تجعله يختلف
أيضاً عن الجنكيزخانين . وفي الحقيقة ، لقد ارتكب هؤلاء الكثير من الشراسات
وأعمال التخريب ، ولكن ذلك لم يكن منهم عن تعصب ديني أو عن تذوق مذابح

مجانبة . لأن جنكيزخان وخلفاءه من بعده كانوا يستعيضون عن كل ما هدموه وخربوه بإنشاء إمبراطورية واسعة . وهذه لم تكن حال تيمورلنك .

ب - الفتح الفوضوي

إن الصفة السلبية والمدمرة لعمل تيمورلنك تظهر بوضوح من عدم تلاحم المشاريع العسكرية ومن عدم إنجاز الفتح ، كغياب البناء السياسي . وعندما يتخلص من منافسيه ويستولي على المنصب الأعلى ويمكنه أن يعلن نفسه خاناً أعظم ، كان يكتفي بأن يبقى زعيم عصابة . ونراه انطلاقاً من ١٣٨٨ م يعطي لنفسه شهرة دينية بتسميته سلطاناً . ولكنه لم يجرؤ ولن يجرؤ على التخلص من الخانات الشرعيين ، من هؤلاء الجاغاتاي ، اللعب ، الذين يخدمونه كستار : إن كل الأوامر الصادرة عن الحكومة التيمورية كانت موقعة بأسماء أعقاب هذه السلالة الشهيرة . أما حملات الفتح التي خولت هذا الزعيم التركي شهرته المشؤومة ، فتعطي انطباعات لفاعلية مضطربة ينقصها الوضوح في الأفكار : فقد انتقل تيمورلنك دون خطة موضوعة من شواطئ نهر الفولغا إلى سورية ، ومن أزمير إلى وادي نهر الغانج ، مدخلاً حملة غزو في روسيا بين حملتين فارسيتين ، وحملة في آسيا الوسطى بين غارتين في القوقاز . وعلى هذا النحو لا ينجز أبداً فتح بلدٍ بالتام والكمال ، وإخضاعه نهائياً ، بل يقوم فيه بمذابح إجرامية ، ومنه إلى بلد آخر . ولذا كان يبدأ من جديد ودون انقطاع بفتح المنطقة نفسها : مرتين في روسيا ، ثلاث مرات في فارس ، سبع مرات في بلاد نهر إيلي ، أي بلاد آسيا الوسطى .

ولوضوح الرؤية ، على المؤرخ أن يحاول تصنيفاً جغرافياً للعمليات انطلاقاً من المناطق المجاورة لبلاد ما وراء النهر لينتهي بالحملات البعيدة . وكان تيمورلنك يدخل في حسابه في الشمال الغربي مملكة خوارزم (بلاد كيفا) ، المجرى الأدنى

لنهر سيحون (أموداريا) . وهذه المملكة التي احتواها جنكيزخان في إمبراطوريته ، استردت استقلالها نحو ١٣٦٠ م . ولزم تيمورلنك ثلاث حملات لإخضاعها نهائياً في ١٣٧٩ م . وما أن أصبح سيد بلاد ماوراء النهر حتى تدخل أيضاً في الشرق ، في تركستان الشرقية التي وقعت في أيدي الإقطاعيين الأتراك المشاغبين الكثيري الحركات . وكان عليه أن يضع مملكته في منجى من غارات هؤلاء الرحل . ولزم ست أو سبع حملات للقضاء عليهم . وبعد أن وطد سلطته بصلابة في هذه المنطقة (١٣٩٠ م) أقام عليها خاناً مسلماً حازماً من أسرة جاغاتي وجعل منه تابعاً له وحميه . وكان تيمورلنك مستعداً لإقامة علاقات طيبة مع سليل آخر لجنكيزخان ، وهو جاره القوي في الشمال ، خان القبيلة الذهبية توكتاميش . وقد أثار هذا الأخير العداء ، بمهاجمة بلاد ماوراء النهر (١٣٨٧ م) ، فيما كان تيمورلنك يقوم بحملة في فارس . ولم يكتف الزعيم التركي بدحر خصمه ، بل قرر عندئذ أن يحاربه في عقر دياره . وفي شتاء (١٣٩١ م) ، توغل في مفازل سيبيريا المنعزلة دون أن يجد عدواً يترك فراغاً أمامه . وأخيراً نجح في إجباره على القتال عندما كان يعود نحو نهر الفولغا ، وسحق جيش توكتاميش . واكتفى تيمورلنك بهذا النصر ولم يفعل شيئاً لتنظيم سيطرته . واستعاد توكتاميش عرشه بسرعة ، واستأنف سياسته العدوانية . وقام تيمورلنك في ١٣٩٥ م بحملة ثانية عبر القوقاز وأحرز نصراً جديداً على خان القفجاق ، وتابع طريقه حتى حدود روسيا السلافية . ولكنه عاد أدراجه دون أن يهاجم موسكوفيا . وفي العودة من هذه الحملة دخل تانا (آزوف) على مصب نهر الدون ، وفتح له العديد من التجار الجنوبيين والبنادقة في هذا المركز موانئ المدينة ، ووثقوا بوعوده . واسترق تيمورلنك جميع المسيحيين ولم يوفر المسلمين . ولم تستطع النهوض من هذه الضربة التجارة بين المستعمرات الجنوبية في القرم وآسيا الوسطى . وانقطع الطريق الكبير العابر للقارة نهائياً .

ولم يهاجم تيمورلنك الإمبراطوريات الرحل المجاورة لبلاد ماوراء النهر فحسب ، وإنما قادته حملاته إلى أبعد بكثير ، إلى فتح البلاد القديمة في الحضارة ، كل المناطق التي أسلمت بعمق ، إيران ، الهند الشمالية ، وممتلكات الماليك السورية وآسيا الصغرى العثمانية . وفي ١٣٨١ م ، وجه تيمورلنك أفكاره نحو إيران الشرقية . ولقد انقسمت هذه المنطقة ، منذ سقوط الخان الهولاكي بين أربع أو خمس سلطات مختلفة ، في الشرق ، خراسان ، سجستان ، وأفغانستان فتحت بسرعة . ولكن ما أن ذهب الفاتح ، حتى انفجرت ثورة وبادر تيمورلنك لإخمادها بشكل مضرب للمثل ، في سبزكسار ، عاصمة خراسان الشرقية .

وفي ١٣٨٦ م ، قام تيمورلنك بفتح فارس الغربية . والحجة التي استند عليها في هذه المناسبة لتبرير الحرب ضد هذا البلد المسلم كانت لقصاص جبليين من أرمنية الكبرى . فقد جاء هؤلاء فعلاً وهاجموا قافلة حجاج متجهة صوب مكة المكرمة . ثم قام بغارة أخرى في جيورجيا أعطت للحملة هيئة حرب مقدسة ، على اعتبار أن الجيورجيين مسيحيون . ومع ذلك ، ففي فارس ، ذبحت جنود تيمورلنك في أصفهان وفي شيراز مدنيين مسلمين وديعين وأنقياء . وهذا يعني أنه لا يوفر أحداً من شره . ولكنه أشفق على الأدباء والفنانين . فقد ذهب هؤلاء إلى سمرقند للعمل على تجميلها وتزيينها . وأخيراً ، في ١٣٩٣ م ، دخل تيمورلنك بغداد التي فتحت له أبوابها . بيد أن جنوده انتقضت على العراق كجيش النمل والجراد المنتشر ، وغطت الأرياف ، وأقبلت من جميع الجهات تنهب وتسلب وتفتك وتدمر .

أما المدينة فقد عوملت باعتدال . ولكن عندما عاد إليها تيمورلنك في ١٤٠١ م ، كان الثأر بالرأس ، لأن المدينة وضعت خلال فترة غيابه ، تحت سيطرة السلطان السابق . ونظمت فيها المذابح ؛ وتوجب على كل جندي أن يأتي برأس ساكن من سكانها . ودمرت فيها العائز باستثناء الجوامع .

على أن المغربي للنهب أكثر من إيران ، كانت الهند الشمالية ، لما فيها من ثروات خرافية ، موضع جذب لتيورلنك . وأهلها مسلمون ولكن تيمورلنك اتخذ حجة تسامح سلاطين دلهي حيال الرعايا الهندية ليبرر حملته وتحويلها أيضاً إلى حرب مقدسة . وفي الحقيقة وقعت سلطنة دلهي في حالة انحطاط ، وتجزأت إلى ممالك مستقلة ذاتياً . ولذلك كانت غنية سائغة لطمع الفاتح التركي . ففي أيلول ١٣٩٨ م ، اجتاز تيمورلنك نهر الآندس . وبعد شهرين ، في ١٧ كانون الأول ، أحرز نصراً حاسماً على السلطان بالقرب من حدود جننا . ولم تستطع الفيلة على مقاومة الفرسان الأتراك العنيفة ، ودخل تيمورلنك دلهي ظافراً . وبالرغم من وعوده لم يوفر المدينة ، واستشرى فيها الذبح والنهب في هذه المرة أيضاً . وفي كانون الثاني ١٣٩٩ م غادر الفاتح الهند بعد أن ضرب الإسلام فيها ضربة فظيعة ، وترك البلاد وراءه في عز الفوضى .

وفي الحقيقة لقد أضعفت الانقسامات الداخلية فارس والهند الشمالية ، فلم تستطيعا مقاومة الفتح . أما إمبراطورية الممالك والملكة العثمانية فيبدو أنها كانتا خصمين لدودين ، ومن الصعب كثيراً غلبهما . فقد أوقف الممالك ، سادة مصر وسورية الغزو المغولي في القرن الثالث عشر ، ودحروا جيوش هولاكو إلى شرقي نهر الفرات . وفي آخر القرن الرابع عشر بدأت قوتهم العسكرية تشكو من المنازعات المتكررة التي لا تنقطع بين قادة الجيوش على الإقطاعات أو العرش . وفي سنة ١٤٠٠ م ، دخل تيمورلنك سورية على رأس جيش ضخم ضمّ فيلة أتى بهم من الهند واستولى على حلب ، وأخذ حماة وحمص وبلبك عنوة . أما دمشق التي هرب منها السلطان المملوكي بسرعة فقد فضلت أن تفتح أبوابها ، وتحت حجة قصاص الدمشقيين بسبب تجاوزهم وعدم احترامهم لعلي بن أبي طالب في ٦٥٩ ، ترك تيمورلنك جنوده ينهبون المدينة . وغادرها في آذار ١٤٠١ م خائب يتصاعد منها الدخان ، وسورية مدمرة دون أن يحاول إبقاء سلطته عليها . ثم عاد الممالك

واحلتوها مباشرة . إلا أن هنالك دولة في آسيا استطاعت تحدي تيمورلنك وهي الدولة العثمانية .

لقد نمت قوة الدولة العثمانية بشكل عظيم في بداية القرن الرابع عشر . وعندما انطفأت السلالة السلجوقية ، لم يكن العثمانيون بعد غير بيت من البيوت التركية التي تتقاسم الأناضول . وفي آخر القرن الرابع عشر ، وتحت حكم بايزيد ، امتدت الإمبراطورية العثمانية على جميع الأناضول ، وصربيا ، وبلغاريا وماكيدونيا وعلى جزء من تراكييا . وبقي عليها أن تستولي على القسطنطينية التي بدا من قبل أنها لا تقدر على الفرار من قدرها المحتوم . هاجمها تيمورلنك في ١٤٠٠ م واكتفى بمحاصرة وأخذ سيواس حيث دفن ٤٠٠٠ جندي أرمني ، رجال الحامية ، وهم أحياء . غير أن ثورة قامت في بغداد دعتة للتوجه نحو الجنوب . ثم ، في حزيران ١٤٠٢ م ، عاد بقوة والتقى جيش بايزيد بالقرب من أنقرة (٢٠ تموز) . ولكن قسماً من جنود هذا الأخير خانه ، وغلبه تيمورلنك وأخذه أسيراً وجره وراءه في قفص . ومات بايزيد بعد بضعة أشهر من اليأس . أما فتح بقية الأناضول فكان مطبوعاً بأخذ بروسة ونيقية دون صعوبة . واستولى تيمورلنك أيضاً على أزمير التي كانت تابعة لفرسان رودس (كانون الأول ١٤٠٢ م) .

وأرجع تيمورلنك ، لصالح البيزنطيين ، مختلف الإمارات التركية لإبقاء الأناضول مقسمة وغادر البلاد . وكانت هذه الحملة آخر نصر له . وتهيأ لمهاجمة الصين في عهد آل منغ ، ولكنه سقط مريضاً ومات في أوتري في ١٩ كانون الثاني ١٤٠٥ م ، عن عمر يناهز الواحد والسبعين عاماً .

ج - تداعي النفوذ التيموري

هذه الإمبراطورية ، التي بدأ بتشكيلها تيمورلنك ، لم تعيش بعده زمناً طويلاً . وفي حياته خصص لكل من أولاده جزءاً منها . وبعد موته لم يحصل

التقسيم دون نزاع ودون ضربات قوة بين الإخوة . وأخيراً انقسمت الإمبراطورية التيمورية إلى قسمين :

١ - فارس الغربية ، أذربيجان والعراق كانت حصة ميران شاه ، الابن الثالث لتيورلنك . غير أن الاضطرابات العقلية التي كان يشكو منها هذا الأمير ، والكراهية التي كانت بين أولاده ، شجعت عودة أحد سابقي سادة البلاد ، زعيم الهمل التركاني من قبيلة الخروف الأسود . وبعد ثلاثة أعوام على وفاة تيورلنك ، طرد ورثته من هذه المناطق ، وفرض قره يوسف سيطرته من أذربيجان إلى البصرة . ثم نازعته قبائل تركمانية أخرى ، جماعة الخروف الأبيض ، على مملكته وانتصرت عليه ، واستقرت في فارس حتى وصول سلالة الصفويين القومية إلى الحكم في (١٥٠٢ م) .

٢ - أما إيران الشرقية ، وبلاد ماوراء النهر ، فقد بقيت زمناً أطول في أيدي الأسرة التيمورية . وكانت هذه البلاد حصة الابن الرابع لتيورلنك وهو شاه روخ (١٤٠٧ - ١٤٤٧ م) . وكان هذا الأخير أعظم العواهل التيموريين . ورث الصفات العسكرية التي كانت لوالده ، ولكن دون فظاعة . وكان حامياً للمثقفين ورجال الآداب والفنانين ، ولعب دوراً حاسماً فيما سمي (النهضة التيمورية) ، العصر الذهبي للآداب والفنون الفارسية . وكانت هرات عاصمته وسمرقند عاصمة ابنه أولوغ بك نائب ملك بلاد ماوراء النهر ، المركزين الرئيسيين لهذه النهضة . ففي سمرقند شيدت عدة عمائر ، ومن بينها غور - أمير ضريح تيورلنك كان من أوائلها . وفي هرات نمت مدرسة المنمنمين ، وكان معلمها الكبير بهزاد (١٤٧٩ - ١٥٢٥ م) . ولكن الاضطرابات بدأت حين موت شاه روخ . ثم أعاد آخر عاهل من الأسرة السلطة التيمورية لبضع سنوات . ولكنه سقط في معركة مع قبائل الخروف الأبيض (١٤٦٩ م) . ومن بعده ، استطاع بعض صغار المدعين بالعرش من التيموريين التماسك أيضاً والبقاء محلياً في سمرقند

- ٣٢١ - تاريخ العصر الوسيط جـ ٢ (٢١)

وفي هرات اللتين ظلتا مركزين لامعين للحياة الفكرية . وقد اشتهرت النهضة الإيرانية بالشاعر جامي ، وتضاعفت بظهور أدب تركي شاب ، وأخيراً وقعت بخارى وسمرقند ، في عام ١٥٠٠ م ، في أيدي قبيلة مغولية وهي قبيلة الأوزبيك . وعرفت هرات المصير نفسه في ١٥٠٧ م ، ثم حدثت عودة غير منتظرة للأمور : وهي أن عرق جنكيز خان غلب نهائياً عرق تيمورلنك . وكان آخر التيموريين بابور ، استطاع فتح الهند وأسس فيها إمبراطورية وأخذت هذه الإمبراطورية اسماً كان إجلالاً لمجد جنكيز خان وهو : (إمبراطورية عظماء المغول) ، فيما كانت ذكرى تيمورلنك لعينة إلى الأبد .

وهكذا انتهت الملحمة التيمورية الدموية بموازنة سلبية ، بالإفلاس ، لأن تيمورلنك لم يعرف كيف يؤسس إمبراطورية ، وترك في طريقه مدناً مهدمة بكاملها ، وأريافاً مهجورة ، لعدم أعمال الري ، وصحارى خالية إلا من تنقل القبائل الرحل . وأكثر من ذلك ، أن الفاتح ، الذي يزعم أنه يقاتل في سبيل الإسلام ، كسر طفرة البلاد الإسلامية التي استأنفت توسعها منذ بداية القرن الرابع عشر : لقد كان من ضحايا الحرب المقدسة ، المدن المقدسة في الإسلام : بغداد ، دلهي ، دمشق . أوقفت مؤقتاً سلطنة دلهي ، والقبيلة الذهبية ولا سيما الإمبراطورية العثمانية في هجومها ضد الهندوسيين أو ضد المسيحيين . وساعدت انتصارات تيمورلنك موسكوفيا المسيحية على كسر غل القبيلة الذهبية ، ومنحت بيزنطة مهلة نصف قرن لم تكن لتأمل فيها .

الإسلام في الهند

لقد عرفت سلطنة دلهي نهضة لامعة في النصف الأول من القرن الرابع عشر بدفع عاهلين عظميين : الأول علاء الدين (١٢٩٦ - ١٣١٦ م) وكان من أصل أفغاني . وهو وإن كان مسلماً متشديداً إلا أنه كان يخرق المبادئ الإسلامية . فقد أمر بقتل جميع أعضاء أسرته وكل من حاول مقاومة ظلمه . ومن جهة أخرى ،

كان يقتطع الضرائب من البلاد لإرضاء حاجاته إلى المال . ولكنه كان فاتحاً عظيماً : ففي الشمال حما بلده بإيقافه غزو المغول في ١٢٩٧ م . ووسع السلطنة على حساب الممالك الهندية المجاورة : ففي أربعة أعوام (١٣٠٠ - ١٣٠٣ م) استولى على غوجرات التي دافع محاربو الراجبوت عنها بفضاعة . وفي شيتور أهم حصن في البلاد . وقد أحرق هؤلاء الراجبوت قبل خسارتهم الحرب جميع النساء ليصونوهن من الأسر ومن كل دنس . وفي ١٣٠٥ م سقط حصن مالوا بدوره . وهكذا أصبحت الهند الشمالية تحت النفوذ الإسلامي . ثم انطلق علاء الدين بدءاً من ١٣٠٧ م بسلسلة حملات ضد الدول الهندية في الدكن . ووقعت الواحدة تلو الأخرى في تبعيته . وتوصل حتى أقصى جنوب شبه الجزيرة الهندية . ولكنه في العودة إلى دلهي لم يستطع الحفاظ على سيطرته على مناطق بعيدة ، لعدم وجود وسائل مواصلات كافية .

وتبع موته دور اضطرابات . وأخيراً حمل الجيش إلى السلطة زعيماً له قيمته ، وهو غازي مالك توغلوك (١٣٢٠ م) . استأنف هذا التركي المثقف سياسة علاء الدين ، فتحت حكمه وحكم أعقابه ، بلغت سلطنة دلهي أكبر أبعادها : فمن هيمالايا حتى حوض الكافيري خضعت الهند بكاملها تقريباً لسيطرة وحيدة . وسعة الفتح توضح بأنها أخفقت نهائياً ، فلنجاح الفتح ثم إدارة هذه الإمبراطورية ، اضطرت سلالة آل توغلوك أن تضغط على رعاياها ، فأثارت استياء شديداً . وهناك محاولة شبيهة بتلك التي جرت قبل قرن في الصين لإدخال عملة (نقد) صورية أدت هنا إلى التضخم النقدي أيضاً ، وأفقرت الدولة . ولذلك أعوزها الجنود والموظفون للإشراف على شبه الجزيرة كلها . وتصور محمد بن توغلوك (١٣٢٥ - ١٣٥١ م) عندئذ أن ينقل عاصمته إلى ١٠٠٠ ك.م في الجنوب ، إلى دولت أباد ، واضطر سكان دلهي إلى الهجرة . وبعد إخفاق المشروع ، اضطروا للعودة إلى العاصمة القديمة . وهكذا شجبت سياسة محمد بن

توغلوك الطموحة جداً . وأدى حكمه في النهاية إلى تجزئة سلطنة دلهي ، وإلى تقدم المقاومة الهندية في الجنوب . وقبل موته ، انفجرت ثورة تمرد في البنغال ، في مالاوا ، في غوجرات ، وتشكلت إمارات مستقلة . وفي الشمال الغربي من الدكن ظهرت مملكة بهافي التي ظلت حتى آخر القرن الخامس عشر أقوى الدول الناشئة عن تجزئة إمبراطورية التوغلوكيين . أما سلطنة دلهي الخاصة ، التي اقتصرت على جزء من البلاد الفانجية ، فقد ضعفت بغزو تيمورلنك . وهكذا ، كان الإسلام ، في القرن الخامس عشر ، في حالة أفول في البلاد الهندية . ولم تتفتح الحضارة الإسلامية إلا في مناطق محيطية ، وخاصة في كشمير ، حيث اعتنق السكان الإسلام في القرن الرابع عشر تحت تأثير سلالة مسلمة . وبقيت هذه السلالة وفيه لسياسة التسامح . وهذا ما ساعد البلاد على أن تصبح في القرن الخامس عشر ألمع مركز للحضارة في شبه الجزيرة كلها . وحى السلطان زين العابدين (١٤٢٠ - ١٤٧٠ م) المثقفين الهنود ، وشجع الترجمات ، والمبادلات الثقافية بين الطائفتين ، وأمن الازدهار الاقتصادي لمملكته بتوسيع أعمال الري وتنمية الحرف اليدوية وبخاصة صناعة الشالات الشهيرة .

وعلى العموم ، لقد أفل نجم الإسلام في الهند انطلاقاً من آخر القرن الرابع عشر على يد قوة هندية جديدة ، وهي إمبراطورية فيجاياناغار . ففي ١٣٢٩ م ، انفجرت حركة تحرير في الجنوب تحت إدارة زعماء تيلوغو . وفي ١٣٣٦ م ، أسست فيجاياناغار ، (مدينة النصر) ، واستعادت بلاد جنوب التونغابادرا استقلالها . وتحت إدارة سلالة حربية ، سلالة السانغاما (١٣٣٦ - ١٤٨٥ م) قامت الإمبراطورية الجديدة بنزاع دام قرابة قرنين ضد المملكة البهانية الإسلامية المجاورة . أما الفيجاياناغار ، التي كانت في حالة حرب دائمة ، فقد عرفت كيف تمهر نفسها بقوة عسكرية عظيمة : جيش مؤلف من أكثر من مليون محارب أمن لها التفوق العددي ، وجيش فرسان مؤلف بفضل استيراد

خيول عربية ، ومضاعف بوحدة فيلة ساعدت الهنود على النضال بسلاح متكافئ مع المسلمين . ولكن الحرب امتصت كل قوى الدولة الجديدة ، فاضطرت إلى التخلي بسرعة عن السيطرة على البحار . وظلت التجارة البحرية نشيطة ، ولكنها تركت للملاحين والقراصنة . ولذا كانت مملكة فيجاياناغار دولة قارية أساساً . والموقع الذي اختير لتأسيس العاصمة برهن على ذلك ، فقد وجدت (مدينة النصر) على الحدود الشمالية للمملكة ، على الشاطئ الجنوبي لنهر التونغاهادارا ، تجاه تهديد العدو . وكانت عاصمة دولة حربية أنشئت في مكان برّي قفر انتخب لفوائده الدفاعية .

هذا وتحمل الحضارة الهندية طابع هذه الإرادة الممتدة بالمقاومة ، فقد انطوت على نفسها ، وأحيا رد فعل التقوى الفكرة القديمة وهي أن الرحلات خارج الأرض الهندية لا يمكن إلا أن تدنس هندياً . ومع ذلك فإن مملكة فيجاياناغار ساعدت الفن والآداب الهندية على العيش والبقاء في الجنوب ، وحتى على معرفة نهضة حقيقية . إن الدراسات السنسكريتية التي أحيها رجال الآداب الذين فروا من شمال الهند اشتهروا بعمل سايانا (في القرن الرابع عشر) ، وبدأ عصر عظيم للآداب بلغات شعبية : تيلوغو ، وكانارا ؛ وازدهر شعريين في البلاط . وأنتج الفن الدرافيدي معابد عظيمة وفيّة لأسلوب الماضي . ووجدت الشواهد الثينة لهذه النهضة الفنية في فيجاياناغار . ومن هذه المدينة الواسعة المحصنة ، التي كان سكانها في القرن الخامس عشر ، أكثر من نصف مليون نسمة ، بقيت المجموعة العظيمة من القصور الملكية ، وكذلك معابد بامباباتي وراماسوامي .

وهكذا ، تحقق في آخر القرن الخامس عشر ، توازن بين الهند الهندية والهند الإسلامية . ولكنه انقطع في القرن التالي بإنشاء إمبراطورية مغولية في الشمال ، أسسها تركي متحدر من تيمورلنك وبوصول البرتغاليين .

مصر المماليك

في العصر الذي اجتاح فيه الغزو التيموري الشرق الأوسط ، وجابهت فيه سلطنة دلهي المجزأة المقاومة الهندية ، ولم تتوطد بعد الإمبراطورية العثمانية ، كانت مصر تؤلف أكبر دولة سياسية للإسلام ، وملجأ للحضارتين العربية والإسلامية . ف منذ ١٢٥٠ م ، أي منذ أن قتل آخر سلطان أيوبي في المنصورة على يد ضباط المليشيا التركية ، المماليك ، انتخب من بين هؤلاء سادة البلاد . وسيرأس هؤلاء المماليك مقدرات مصر حتى ١٥١٧ م ، وهؤلاء الجنود المرتزقة الذين كانوا في الغالب من قدامى الأرقاء ظهرُوا في معظمهم ملوكاً عظاماً . أقاموا في مصر وسورية نظاماً عسكرياً دقيقاً أعطى لدولتهم قوة تلاحم عظيمة . وكانت البلاد كلها والسكان جميعاً حقلاً مستغلاً من قبل الجيش ولأجل الجيش : فالأرض مع فلاحها ملك للدولة . قسمت إلى قطع ، وخصص دخلها للوظائف العسكرية الأساسية . غير أن هذا التنظيم لا يبدي مخاطر النظام الإقطاعي المعروف في أوربة ، لأن الضباط لم يكونوا مطلقاً أمراء ولا يسكنون في دواوينهم ، كانوا يكتفون بجباية المداخل التي يتعهدون بها إعاشة الجنود . إلا إن هنالك خطراً يهدد هذا النظام : وهو أن زعماء المليشيا كانوا يتطلعون جميعاً إلى العرش ، والسلطان في مكانه ، وفي كل حين تحت خطر أن يكون ضحية انقلاب يطيح به . وكل خلف له يمكن أن يفتح أزمة خطيرة . ومع ذلك فإن عظماء السلاطين المماليك استطاعوا أن يبقوا في السلطة بتحويل أمزجة ضباطهم الحربية نحو الأعداء في الخارج . لأن هذه الدولة العسكرية كانت متوترة في نزاع ضد تهديد الغزو الغربي والتهديد المغولي اللذين يمكن لانضمامهما في النصف الأول من القرن الثالث عشر أن يكون محتوماً ومدمراً . وقد خشيت مصر أن تقع بين فكي كاشة لو تحققت مشاريع التحالف بين الصليبيين والخانات المغول في فارس ، وجندت كل قواها ضد هولاكو ، وأحرز السلطان المملوكي قطز في معركة عين جالوت

نصراً مبيناً على المغول واضطروهم إلى ترك سورية .

وخلفه بيبرس العظيم الذي وصل إلى السلطة بمؤامرة . وبدأ النزاع لحذف الفرنجية من سورية . وتم ذلك في آخر القرن الثالث عشر . ثم جاء دور الأرمن في كيليكيا في القرن الرابع عشر . وظلت قبرص وحدها في أيدي الفرنجية . وفي القرن الرابع عشر كانت مصر الدولة المسلمة الوحيدة التي نجت من المد التيموري الفظيع . وفي الحقيقة أن السلاطين المماليك اضطروا أن يتخلوا خلال بعض الوقت عن سورية لجيوش الفاتح . وكان النزاع قاسياً ، ولم تنهض سورية تماماً من التدميرات والتخريبات التي تحملتها . ولكن القوة المملوكية ظلت سليمة لم تمس .

وأمام الغزاة من الغرب والشرق ، وفي عالم إسلامي منهك وممزق ، ظهرت مصر في آخر العصر الوسيط ملاذاً للإسلام . تقبلت إرث العرب وإيران ، وأصبحت للفرينيين دليلاً وموجهاً . واعترفت السلالة التي تحدت من بيبرس بسليبي الخليفة العباسي واستقبلتهم في ديارها .

والخلافة العباسية ، التي ألغيت في بغداد على يد المغول ، أرجعت في القاهرة ، وأمنت لمصر جاهاً دينياً جديداً دون أن يضايق سياسة السلاطين البحرية الذين تحدروا من بيبرس (١٢٥٧ - ١٣٨٢ م) ومن أخلافهم من السلالة البرجية (١٣٨٢ - ١٥١٧ م) الذين عرفوا كيف يحددون بدقة سلطات الخليفة . وهذه السلطة السياسية والدينية تعتمد على نهضة الفاعلية الاقتصادية . وفي الحقيقة ، إن أفول الدول الفرنجية في المشرق ، وأفول الإمبراطورية المغولية أعادا إلى مصر دورها كوسيط في التجارة الكبرى الدولية ، بعد أن انطوت الهند والصين على نفسيهما . وكان التجار المصريون يتمتعون في البحر الأحمر وفي المحيط الهندي بحصر حقيقي واقعي لتجارة المنتجات الثمينة ، وبخاصة التوابل التي كانوا يبحثون

عنها حتى الشرق الأقصى ، لإعادة توزيعها في بلاد البحر المتوسط . وفي أسواق القاهرة كانت تتكدس البضائع المستوردة وإنتاجات الحرف المحلية : النحاس المرصع ، الزجاج المذهب ، والجلود المدبوغة . وبالرغم من أن سادة مصر الجدد كانوا في حرب ضد مسيحي الغرب فلم يحتقروا التعامل معهم : ففي الإسكندرية نجد التجار الإيطاليين ، الجنوبيين بخاصة ، وأيضاً البيزانين والبنادقة وكذلك التجار المرسيليين والكتالانين . وكان تجار الغرب ووسطاؤه يأتون إلى الموانئ الشرقية ويتمنون بالمنتجات الشرقية لتوزيعها وبيعها في موانئ بلادهم .

إلا أن صعوبة وحيدة كانت تعيق نوعاً ما هذه التجارة ، وهي نفاد الاحتياطات المصرية من الذهب . وهذا العوز أوجد للبلد ضائقة نقدية . ومع ذلك ، ظل النشاط التجاري لمصر مزدهراً حتى آخر القرن الخامس عشر ، أي إلى اليوم الذي ذهب فيه البرتغاليون إلى البلاد المنتجة للتوابل وذلك بالطواف حول القارة الإفريقية من الجنوب .

وفي حال الانتظار ، ظلت مصر قوية وغنية بنشاطها الأدبي والفني ، ومركزاً مضيئاً لامعاً بل ألمع مركز للحضارة الإسلامية . وحثّ حب اطلاع العديد من القراء المثقفين على نشر الكتب اللغوية ، والمعلمات (الإنسيكلوبيديات) ، والمؤلفات التاريخية . وكان للإنتاج الأدبي في هذا العصر صفة تعليمية بخاصة . وفي مصر المماليك نجد أن قصصاً نشأت في فارس قبل الإسلام ، وأعدت فيما بعد في أقاليم مختلفة من العالم الإسلامي ، ثم جمعت وشكلت مجموعة (قصص ألف ليلة وليلة) . ومن جهة أخرى ، كان السلاطين يستقبلون الفنانين الذين يفرون من السيطرة المغولية أو التيمورية ، ويعهدون إليهم بالأعمال . وهكذا تغطت القاهرة بالجوامع ذات القباب المدورة أو البصلية مثل جامع السلطان حسن (١٣٥٦ - ١٣٦٢ م) . كما شاد الزعماء المماليك لأنفسهم أضرحة عظيمة سميت (أضرحة الخلفاء) . واستعمل التزيين في خارج العمارات

مختلف الأحجار الحمرء والبيضاء . وفي داخل الجوامع والقصور طبق الحزف الملون ، والرخام المستعمل في التلبس ، والنحاس المرصع ، والتزيينات الخشبية على الجدران والسقوف المنقوشة بدقة ونعومة ، وشباك الحديد المصنوع ذات المشبكات (التزيينات المتداخلة) التي تدل على المهارة والذوق ؛ والسجاد المطرز بتزيينه المترف ببذخ .

وهكذا يتضح الإشعاع الروحي للإسلام في مصر حتى في المناطق النائية : في إفريقية ، على طول الشاطئ الشرقي ، حيث تقدم الإسلام وقطع أشواطاً سريعة وبعيدة ، وترك الأثيوبيون (الأحباش) له شاطئ البحر الأحمر ، ولجأوا في جبال الداخل تحت إدارة سلالة تقول عن نفسها أنها متحدرة من الملك سليمان وبلقيس ملكة سبأ ؛ وحافظوا مع ذلك على الطقس القبطي القديم . وإلى الجنوب أكثر ، أسلمت أيضاً الشعوب الإفريقية المجاورة للمحيط الهندي . وأخيراً أسهم التجار المصريون في نشر الإسلام في الأرخبيل الأندونيسي البعيد .

أندونيسيا

في هذه المنطقة من جنوب - شرقي آسيا ، في أندونيسيا ، يرى أن فتوحات الإسلام جرت بشكل سلمي تماماً ، وكانت في القرن الرابع عشر والخامس عشر أعظم مما في الهند . وتهيأ نجاح انتشار الإسلام ، في هذه الأصقاع ، بتشكيل إمبراطورية بحرية كبرى في آخر القرن الثالث عشر : ومملكة المودجوباهايت هذه التي عرفها ماركو پولو أثناء إقامته في سومطرا (١٢٩١ م) كان مركزها في شرق جاوا . والعواهل الذين يقيمون في مودجوكرتو ، بالقرب من سورابايا فرضوا سيادتهم على سلسلة من الدول الشاطئية الصغيرة في سومطرا ، وفي كاليانتان وفي بالي . وقد عقدت الدولة المودجوباهايت البحرية اتصالات عديدة شجعت على أول تغلغل للنفوذ الأجنبي . كذلك يؤرخ في هذا العصر استقرار عدد عظيم من الصينيين في الأرخبيل ، بعضهم تركوا في مكانهم أثناء الحملة البائية التي قام بها

الخان العظيم كويلاي ، والآخرون جاؤوا مهاجرين . وفي آخر القرن الثالث عشر أيضاً ، عقد كثير من تجار مصر وفارس والجزيرة العربية والهند الغربية ، وكلهم مسلمون ، علاقات نشيطة مع الموانئ الأندونيسية . إلا أن الإمبراطورية الأندونيسية كانت ذات بنية سياسية رخوة جداً لتدوم طويلاً . ولذلك استطاع الإسلام ، بعد أن بدأت تتفتت في النصف الأول من القرن الرابع عشر ، أن ينتشر عن سعة . وكذلك الملاحون المسلمون الذين كانوا ينصرفون حسب الظروف للتجارة أو القرصنة استقروا على الشواطئ الأندونيسية للسيطرة على المضائق وشكلوا فيها دولاً صغيرة . ونشر هؤلاء المغامرون الإسلام بسهولة بين سكان الأرخبيل . والأسر الأميرية من أبناء البلاد ، التي اتحدت فيما بينها عن طريق الزواج بعائلات التجار المسلمين ، كانت أول من اعتنق الإسلام . وأخذت الجماهير بفكرة المساواة التي أعلن عنها الدين الجديد الذي يزيل نظام الطبقات . وأخيراً ، إن الإسلام ، الذي أخذ موطن قدم على شاطئ الأرخبيل ، تمثله السكان بسهولة ، وحثط طويلاً في الغوجيرات (الشاطئ الشمالي - الغربي للهند) و (تهند) فيها لحد ما بتبني عدد من طقوس الديانة الهندية . ومن مالاكا التي يحكمها أمير مسلم ، منذ ١٤١٤ م ، انتشر الإسلام في الجزر المجاورة ، جاوا ، سومطرا ، وكالانتان . وفي آخر القرن الخامس عشر بلغ جزر الفيليبين والملوك . أما الديانة الهندوسية فقد دحرت في الشرق والتجأت في بالي التي ظلت حتى أيامنا (معهد العبادات الهندية التي أبعدت من أندونيسيا الغربية) .

وأدى غو الإسلام إلى نهضة جديدة للتجارة ؛ فبواسطة التجار الهنود أو العرب وصلت التوابل الأندونيسية حتى أوربة . أما الأوريون فقد أغرهم السيطرة المباشرة على هذه التجارة ، ومن هذا المنطلق سيعطون سياقاً جديداً لتاريخ الأرخبيل الأندونيسي .

٢ - الإسلام في أفريقية وآسيا

الإسلام في المغرب العربي

لم يقاسم الإسلام في الغرب البلاد الإسلامية الأخرى أهوال الفتح التيموري . فقد عاش في القرن الرابع عشر والخامس عشر منطوياً على نفسه دون علاقات كبيرة مع بلاد البحر المتوسط الشرقية . واستطاع الموحدون ، في القرن الثاني عشر ، توحيد إفريقية الشمالية كلها تحت إدارتهم ، ولكن المغرب تجزأ في النصف الثاني من القرن الثالث عشر . فقد انفصلت تونس والجزائر الشرقية (قسنطينة) في عهد السلالة الحفصية التي استقرت في تونس وقاومت بشكل مجيد ، في ١٢٧٠ م ، القديس لويس في حربه الصليبية . وفي تلمسان ، على الهضاب العليا ، توطدت السلالة التي أسسها بنو عبد الواد ، بين القبائل الرحل . وأخيراً ، في مراكش ، تأسست مملكة بربرية على يد المرينين الذين حلوا محل الموحدين . وظلت هذه الممالك المغربية الثلاث تقيم فيما بينها ، ومع مابقي من إسبانيا الإسلامية ، مملكة غرناطة ، علاقات وثيقة . فإلى المبادلات الاقتصادية الهامة دوماً تضاف الاتصالات البشرية . وتجهز بلاد إفريقية الشمالية ملوك غرناطة بالجنود لتساعدهم على مقاومة الهجوم المسيحي . وبعد أن انتصر الملوك الكاثوليك نهائياً في آخر القرن الخامس عشر ، طرد المسلمون واليهود من قشتالة ، وجاء معظمهم إلى إفريقية الشمالية يبحثون عن ملجأ . وذلك لأن المذهب المالكي يسود على جانبي مضيق جبل طارق ، ولأن الطرق الصوفية لها فيها النجاح نفسه . ولأن الحضارة نفسها ، وهي الحضارة الإسلامية ، ازدهرت في الغرب ، في إسبانيا كما في المغرب . وتاريخ ابن خلدون الكاتب الكبير (١٣٣٢ - ١٤٠٦ م) يشهد على هذه الوحدة : لقد ولد في تونس من أبوين عربيين قرّا من إسبانيا . وأثره أثر مؤرخ نبيه (تاريخ العبر) ، وفيلسوف ، والتاريخ بالنسبة له مادة

للتفكير . وفي مقدمته درس المجتمع المغربي كعالم اجتماع حقيقي وواع بأنه اخترع علماً جديداً (علم الاجتماع) ، وأن كل مسار الإبداع والانحطاط للدول العربية يتضح بعلاقة القوى بين المقيمين والرحل . وحدة هذه الرؤية التاريخية في ذلك العصر تعتبر وحيدة في كل أدب الإسلام كما في أدب الغرب . وللقرون الرابع عشر أيضاً دور نشاط فني كثيف . ففي ذلك العصر شيّد قصر الحمراء ، مقرّ أمير غرناطة ، وهو من أفخم وأشهر أوابد إسبانيا الإسلامية ، ومن الأبنية المدنية النادرة التي حفوظ عليها . وفي فاس ، عاصمة المرينيين ، وجد مهندسون معاريون استلهموا من فن إسبانيا وعملوا على تزيين المدينة ، ورفعوا مسجد المدينة الجديد ومدرسة العطارين .

كان وضع الإسلام ضعيفاً في الغرب ، بالرغم من إنجازاته الرائعة ، وذلك يرجع لأسباب عديدة لا مجال لذكرها الآن ، وهذا ما سبب في دحر العرب المسلمين قليلاً قليلاً من إسبانيا ، ومهاجتهم حتى على شواطئ إفريقية الشمالية . ولكن الإسلام في المغرب ، في الوقت نفسه ، عرف في اتجاه إفريقية السوداء ، توسعاً كبيراً : وهيأت سياسة الفتح التي سلكها المرابطون والموحدون الطريق لذلك . ولكن الدور الرئيسي يعود للتجار . فقد تقدم الإسلام على طول الطريق التي يبادل فيها ذهب السودان لقاء ملح إفريقية الشمالية . تبناه الزعماء الزنوج المحليون وفهموا منه أنه يشجع على تجمع القوى السياسية وتأسيس دولة كبرى . وهكذا تشكلت مملكة مالي . وبعد أن كانت مشمولة في إمبراطورية غانا ، استعادت استقلالها في ١٠٧٦ م أثناء انهيار هذه الأخيرة . ومنذ ذلك العصر بدا أن العواهل الماليين ، الذين مازالوا أقوياء ، قد اعتنقوا الإسلام . وانطلاقاً ، من ١٢٣٠ م قامت مالي ، تحت إدارة الملك سوندياتا (١٢٣٠ - ١٢٥٥ م) الذي أصبح بطلاً تحت اسم ماري جاتا ، بإخضاع جيرانها . أخذت مدينة غانا وقوضتها في ١٢٤٠ م . ثم امتدت من الغاية العذراء إلى الصحراء ، وأمنت لنفسها

السيطرة على مناجم ذهب السودان وطرق الشمال التجارية . وفي عهد خلف ماري جاتا ، خضع التوكولور والصنهاجة في غاو بدورهم وبلغت مالي في بداية القرن الرابع عشر الأوج في قوتها تحت حكم أعظم عاهل لها ، مانساموسى (١٣٠٧ - ١٣٣٢ م) . فقد أقام علاقات مع البلاد الإسلامية الأخرى ، وتاجر بخاصة مع مراکش ومصر . وفي ١٣٢٤ م ذهب بصحبة ٦٠٠٠٠ شخص إلى الحج في مكة المكرمة . وبهر كرمه المعاصرين ، وبفضل هذه الاتصالات مع بلاد توصلت إلى أعلى مستوى من النمو ، انفتحت مالي للحضارة . وفي بلاط مانسا موسى ، وفي المدن الكبرى للمملكة أقام الفقهاء المسلمون . ونظم هؤلاء الدراسات في تومبوكتو ، وأسسوا جامعة في سانكور . واستقبل العاهل في قصره شاعر غرناطة ومهندسها المعماري ، الساحلي ، وكلفه ببناء جوامع في المدن التي افتتحت حديثاً : غاو وتومبوكتو . ولكن ، بعد موت مانسا موسى ، بدأ لمالي أفول بطيء . لأن دولة أخرى ، منافسة خطيرة ، قامت في المشرق : ففي ١٣٣٥ م نادى أمير صنهاجي بنفسه ملك غاو وحرر بلده من السيطرة المالية . ومنذ ذلك الحين ، ما انفكت هذه الدولة الجديدة تكبر حتى بلغت أوجها تحت حكم أسكيا (الشيخ) محمد الأول (١٤٩٣ - ١٥٢٨ م) . وأسكيا الأعظم ، كسابقيه ، كان يميل ، على ما يبدو ، في سرّ قلبه إلى وثنية الأجداد القدامى . ولكن عواهل غاو فهموا بدورهم أهمية الإسلام ، لأنه يساعد في الحصول على مساندات إخوانهم المسلمين ، ويعطي للفتوح شكل حرب مقدسة ويسهل بفضل تطبيق الشريعة الإسلامية حكم البلاد . ولذا أخذ الشيخ اللقب المعاصر (سلطان) في ١٤٩٨ م .

ومصر وممالك المغرب مع نشرها إيمانها وحضارتها ، حافظت حتى آخر العصر الوسيط على استقلالها السياسي . ولكن هذا الاستقلال كان مهدداً بتأسيس إمبراطورية إسلامية كبرى ، الإمبراطورية العثمانية التي كانت تزعم وتريد أن تجمع تحت لوائها كل قوى الإسلام .

٣ - الأتراك ومسيحيو أوربة الشرقية

نهضة بيزنطة وموتها

صعوبة إرجاع الإمبراطورية البيزنطية

في آسيا الصغرى والبحر الأسود لعبت إمبراطورية القسطنطينية الإغريقية ، منذ قرون ، وبنجاحات مختلفة ، دور الحصن الأوربي أمام الأتراك . بيد أن الضربات ، التي وجهها إليها مسيحيو الغرب في الحملة الصليبية الرابعة ، زعزعتها بعمق . وفي الحقيقة ، إن جيوش الشاب جان الرابع (١٢٥٨ - ١٢٦١ م) ، وارث بازيلوسات نيقية ، وميشيل باليولوغ الذي كان ، منذ ١٢٥٩ م ، مساعداً للإمبراطور ، قد دخلت في ١٢٦١ م ، القسطنطينية ظافرة ، وطردت الإمبراطور والبطريرك اللاتينيين . ولكن ميشيل الثامن مؤسس سلالة آل باليولوغ ، بقي وحده سيد السلطة في ١٢٦١ م ، وحكم إمبراطورية لم تكن غير ظل إمبراطورية آل كومنين . وفي آسيا ، لم ترتبط بالإمبراطور إلا إمبراطورية نيقية القديمة ؛ وفي أوربة ، إلا جزء من ماكيدونيا وتراكيا مع القسطنطينية ، التي كانت رأساً ضخماً لجسد نحيل بشكل فريد . أما الأقاليم الأخرى ، التي كانت تابعة سابقاً للقسطنطينية ، فقد ظلت مقسمة بين سيطرات مختلفة . ولما نظمت المقاومة والنضال ضد الفرنجة حسب الخطة المحلية ، تشكلت دول إغريقية مستقلة ذاتياً ، ولم يستطع آل باليولوغ أن يضعوها من جديد في تبعيتهم : إمبراطورية طربزون على البحر الأسود حيث بقيت

وتماسكت سلالة آل كومنين ، وإمارة تسالونيك واستبدادية إبيروس على الشاطئ الغربي للبلقان . واللاتين في بعض مناطق إغريقية ، في دوقية أثينة وإمارة مورة . وبقي شمال شبه جزيرة البلقان في أيدي الصرب والبلغار الذين استقروا فيه بفضل الاضطرابات السياسية التي كانت القسطنطينية مسرحاً لها . وأخيراً ، هناك أمكنة ساحلية مثل دورازو وتقريباً كل الجزر : زانتا ، وأوييه ، وكريت ، ولينوس ورودوس كانت في سلطة الإيطاليين ، البنادقة بخاصة . وعلى هذا فإن إمبراطورية آل باليولوغ البيزنطية لم تتناقص أرضياً فحسب ، وإنما طوقت أيضاً بعدة دول ترى بأن تفيد من ضعفها لتكبر على حسابها : الأتراك في آسيا ، السلاف على الحدود الشمالية ، واللاتين في الغرب .

ميشيل الثامن والنهوض السياسي

وبالرغم من كل هذه المصاعب ، فإن ميشيل الثامن (١٢٥٩ - ١٢٨٢ م) ، آخر عاهل عظيم لبيزنطة ، حاول جهده لإرجاع الإمبراطورية ونجح جزئياً . فقد قام أولاً بالقضاء على بقايا السلطة اللاتينية في إغريقية : هاجم ، في المقام الأول ، إمارة أكايا الفرنجية . وانتصاره في بيلاغونيا ساعده على الاطمئنان من شخص الأمير غليوم الثاني فيلهارذون (١٢٥٩ م) . وبعد أن تحرر هذا الأخير مقابل فدية كبيرة ، اعترف به بموجب معاهدة القسطنطينية (١٢٦٢ م) تابعاً للبازيلوس ، وأعاد إليه ثلاثة مواقع : ميسترا ، مونيفازيا وماينا ، ولكنه ما أن عاد إلى أكايا ، إلا وتنصل على يد البابا من عيّن التبعية : الأمر الذي اضطر ميشيل الثامن أن يشكو السلاح ضده . فتح أركاديا ولاكونيا : وهذه الأراضي توسعت على يد خلفائه وألفت استبدادية مورة (أو استبدادية ميسترا) ، وقفاً للابن الثاني للإمبراطور . وهذا النجاح الذي لاقاه لم يجنب التهديد بعودة اللاتين إلى القوة . ففي الغرب ، كان أعداء البازيلوس كثراً ، وكانت البابوية تجبذ إرجاع إمبراطورية لاتينية تؤمن الحفاظ على اتحاد الكنائس ؛ والبندقية التي

ترغب بتعويض خسارة مراكزها في سورية كانت مستعدة تماماً للانضمام إلى هذا المشروع الذي يفيد مصالحها الاقتصادية في البحر المتوسط الشرقي . وأخيراً إن عاهل الصقليتين الجديد ، شارل دانجو ، أخو القديس لويس ، تابع حلم الهيمنة المتوسطية التي تؤلف بالنسبة لبيزنطة أخطر تهديد ؛ وفي معاهدة فيتربر (١٢٦٧ م) تنازل له غليوم الثاني عن أكاي ، والأمير بودون الثاني ، الإمبراطور اللاتيني الساقط والمنفي ، عن حق السيادة على الدومينات التي كانت في السابق في حوزتها . وملك تسالونيك ، الذي لم يكن له ولد ، أسماه وارثاً له . وعلى هذا فإن شارل دانجو قد كسب الألقاب الضرورية للمطالبة ، تجاه آل باليولوغ ، الذين يعتبرهم مفتصبين بالسيطرة على الإمبراطورية الإغريقية . واكتفى في البدء بإرسال بعض الجيوش إلى إبيروس وإلى شمال موره فهزمها ميشيل الثامن . ولكن شارل دانجو لم تفر همتة ، فقد عقد ضد بيزنطة تألباً عظيماً ضمّ البندقية وقواها البحرية ، والدول السلافية في البلقان وكل الإمارات الإغريقية واللاتينية في الشرق التي قلقت قليلاً من أن تعود وترجع تحت سيادة القسطنطينية . وفي الحملة العظيمة التي أعدها حاول أن يعطي صورة حرب صليبية ضد المنشقين ممثلاً نفسه بطلاً للكنيسة الكاثوليكية . ولم تكن البابوية لتجهل العوامل الحقيقية لسياسة شارل دانجو ، فأعدت نفسها لهذه اللعبة ؛ استخدمت تهديد صقلية لتضغط على الإمبراطور البيزنطي ولتحصل على خضوعه الكنسي . ورأى ميشيل الثامن أنه مهدد بالسحق من قبل أعدائه نظراً لعددهم وقوتهم ، فاستعمل الدبلوماسية ليخفف من شدة التألب الذي يهدده . وأخطره البابا غريغوار العاشر ليضع نهاية لدور طويل من الوعود والتأجيلات بقرار واضح وسريع ، فامتثل في ١٢٧٣ م بالرغم من معارضة قسم كبير من الأكليروس الإغريقي للاتحاد مع روما . وفي مجمع ليون ، في ٦ تموز ١٢٧٤ م ، اعترف لوجوتيت الكبير رسمياً باسم الإمبراطور بالتفوق الحبري والإيمان الروماني . وضد البندقية ، لعب ميشيل الثامن بالتنافس الاقتصادي الذي تقف فيه كل من الجمهوريتين التاجرتين

الإيطاليتين وتحالف مع جنوة : ففي ١٢٦١ م ، خولت معاهدة نيفوم الجنوبيين امتيازات تجارية واسعة جداً في الإمبراطورية كلها ، والتمتع بحج من ضاحية القسطنطينية ، غالاطة على القرن الذهبي . ومقابل تنازلاته ، حصل على مساندة الأسطول الجنوبي . إن جنوة ، التي أقامت مراكزها من قبل على شواطئ آسيا الصغرى ، في أزمير وفي جزيرتي كيو ولسبوس ، وحصلت في ١٢٦٧ م من الخانات المغول على السماح بتأسيس مؤسسة في كآفا في القرم ، كانت في وضع مناسب لتصبح أول دولة تجارية إيطالية في البحر المتوسط الشرقي . وكان البنادقة قلقين من تنافس جنوة ، فوقعوا بدورهم معاهدة مع بيزنطة . وانطلاقاً من ١٢٧٦ م أرجعت عدة انتصارات بحرية للبيزنطيين تملك عدد عظيم من الجزر ، ومنها أوييه ، وأمنت لهم السيطرة على بحر إيجه . واستخدم ميشيل الثامن أيضاً الأسلحة الدبلوماسية ضد الإمارات البلقانية .

ومع ذلك بقي شارل دانجو مهدداً جداً وخطط الإمبراطور الدبلوماسية ضعيفة جداً . لأن سياسة اتحاد الكنائس أثارت في الإمبراطورية مقاومة عنيفة ، ومع الدول الأرثوذكسية تعقيدات خطيرة . وأخيراً إن الانتخاب الحبري في ١٢٨١ م وضع على عرش القديس بطرس بابا مخلصاً كاملاً لسياسة ملك صقلية ، مارتن الرابع . وقد بادر هذا الأخير وشجب الإمبراطور ، وأدانه ، بأنه هرطقي وحكم بخلعه ، وأنكر سياسة الاتحاد التي أرادها أسلافه . وفي الحال انعقد التآلب من جديد مع البندقية والعواهل الصربيين والبلغاريين ، وفيما كان الملك الصربي ميلوتين يحتاج ماكدونيا ويستولي على سكوييا ، كان شارل دانجو يحضر حملة بحرية كبرى . وفي آخر لحظة ، أنقذت الإمبراطورية البيزنطية بالمجزرة الصقلية : إن العصيان ضد النفوذ الفرنسي الذي انفجر في بالرم في ١٢٨٢ م ، احتكر كل قوات شارل دانجو . ولم يكن ميشيل الثامن غريباً بالكامل عن هذا الأمر : فقد عرف كيف يحرض استياء الصقليين ويقدم لهم المساعدات . ووضع

أيضاً تحت تصرف منافس شارل دانجو ، بيير أراغونه ، أموالاً ساعدت هذا الأخير على تشكيل أسطول هام للنضال ضد الدولة الأنجنية . واضطر شارل دانجو أن يتخلى عن مشاريعه الطموحة . وأسرت البندقية في توقيع معاهدة جديدة مع بيزنطة . وعندما توفي ميشيل الثامن في آخر ١٢٨٢ م ، كان الخطر الغربي قد جنب نهائياً .

النهضة البيزنطية الثانية

وبفضل هذا النهوض السياسي بدأ ما يمكن أن يسمى (النهضة البيزنطية الثانية) التي أمنت لحضارة الإمبراطورية الإغريقية أيضاً ما يقرب من قرنين من الإشراق والضياء . ولكنها لم تكن نهضة قسطنطينية : لأن الحياة الفكرية والفنية مالت إلى هجر العاصمة المهددة كثيراً جداً . وفي الحقيقة ، إن القصر والكثير من أحياء القسطنطينية قد تهدمت أثناء الحملة الصليبية الرابعة ، وحاول عواهل آل باليولوغ رفع الأنقاض ؛ واشتغل الفيسفائيون في كنيسة كورا (كاهري كامي) ، ورمت الجامعة . ولكن مراكز أخرى جذبت الكتاب والفنانين . وكانت أديرة جبل آتوس ملجأ للمثقفين في هذا العصر المضطرب . ومعظم البطارقة كانوا منهم وكذلك اللاهوتيون الأساسيون . وفي طربزون على البحر الأسود ، أسست سلالة آل كومنين أكاديميا ، وشجعت دراسة العلوم وشادت قصوراً فخمة . وأكثر أيضاً ، أن ميسترا في البيلوبونيز ، أخذت وجه عاصمة روحية في العالم البيزنطي . فالراية التي ترتفع عليها المدينة الجديدة ، غير بعيدة عن أسبارطة القديمة ، تغطت بالكنائس والأديرة والقصور . وبلاط المستبدن الذي كان أكثر ضياءً من بلاط الأباطرة ، كان ملتقى العلماء والفلاسفة . إذن فعلى تراب إغريقية القديمة وجدت الحضارة البيزنطية من جديد إشراقاً جديداً . وكذلك أيضاً كانت تبحث عن نماذج في الماضي الهليني . فقد درست النصوص الكلاسيكية للعصر القديم بطرق نقد صارم شديد . وفي القرن

الخامس عشر نمت إنسانية (أدب إنساني) بيزنطية موازية للإنسانية الإيطالية . وكان جورج جيمستوس المسمى افليطون أعظم ممثل لهذه الحركة . كان معجباً متحمساً لأفلاطون والأفلاطونيين الحديثين ، فقد نهل من مذهبهم مشاريع إصلاح مخصصة لبعث وتجديد الهيلاد (الأقاليم الوسطى من إغريقية) وكان أحد تلاميذه بساريون ، نصيراً للاتحاد مع روما ، وقرر أن يستقر في إيطاليا ، حيث أصبح كاردينالاً (١٤٣٩ م) ، وكان محركاً وباعثاً لنهضة الدراسات الإغريقية . وفي الأصدعة الأخرى ، بقيت بيزنطة أيضاً وفيية لتقاليدها : فعلم الفصاحة والتاريخ ازدهرا من جديد . إن نقفور غريغوراس في تاريخه (التاريخ الروماني) الذي يغطي الدور من ١٢٠٤ إلى ١٣٣٩ م يهتم خاصة بالمنازعات اللاهوتية ، والبازيلوس جان كانتاكوزين ، المغتصب والمنعزل في دير ، ألف مذكرات فاتنة تروي الحوادث التي كان شاهداً لها . والعلوم الحقوقية ، والشعر العالم كانا أيضاً موضع اهتمام جداً . والأدب الشعبي وحده لم ينهل من مصادر الماضي الهليني : فقد قبس موضوعاته وبحوثه من الروايات المهدبة ومن القصص والحكايات الشعرية الفرنسية (من القرن الثاني عشر والثالث عشر) .

إن العود إلى التقاليد القديمة كان أيضاً محسوساً لدى الفنانين . ففي ميسترا بنيت كنيسة القديس - تيؤدور (آخر القرن الثالث عشر) على مخطط صليب يوناني وغطيت بقبة تعتمد على عقد زاوية ؛ والپانتاناسا زينت في واجهتها برواق خارجي ذي طوق (رواق مقنطر) . وظهرت الاتجاهات نفسها في كنائس أرتا ، عاصمة مستبدي إيبيروس وفي قصور طربزون . ويبدو أن موضوعات الفنون التشكيلية قد اقتبست غالباً ، هي أيضاً ، من الماضي الإغريقي . فالذوق للموضوعات الواقعية ، وتمثيل مشاهد الحياة اليومية تذكر كثيراً بالفن الإسكندري . وفقر الإمبراطورية يوضح بأن الفسيفساء ، وهي تقنية مكلفة جداً ، لم تعد مستعملة كثيراً . والفسيفساء العظيمة في كنيسة تورا

(كاهرية كامي) إنما هي رائعة منعزلة . وبالنسبة للجزء التزييني المحض ، قلد الفنانون تزيينات أوائل المسيحيين في رافينا . فالبحث عن الفن الفاتن في الصور الجميلة يسيطر على المشاهد المثلثة . وعدا ذلك نجد في كل مكان تفوق الفرسكة (الرسم الجداري) على غيرها : فبين المدارس الإقليمية ، نجد أن مدرسة ميسترا تنتج أنقى الروائع الفنية : فانعكاس الألوان وتقلبها ، والرسم الملتوي المنعطف في تمثيل اللباس ليسا رسماً أبدياً ولكنها يعطيان إلى هذه الرسوم الجدارية (الفرسكات) سحراً وعذوبة لا تنسى . وتوجد هذه الصفات في الإنتاجات المحفوظة بعدد كبير جداً ، للفنون الصغرى ، والمنمنمات ، والأقمشة ، ومنتجات المجوهرات . وقد وسع الفن البيزنطي منذ زمن طويل صعيده إلى ما وراء حدود الإمبراطورية التي لا تؤلف فيه أكثر من إقليم من أقاليمه . وبفضل النفوذ الفني نجت من الأفول الذي جرَّ الإمبراطورية الإغريقية حتماً إلى ضياعها .

نضوب القوى البيزنطية

إن النجاحات التي أحرزت بفضل سياسة ميشيل الثامن الحكيمة لم يكن منها إلا أن أخرت زوال إمبراطورية في حالة نزاع من نضوب داخلي كما من ضربات وجهها إليها أعداؤها . لقد تأكد وثبت أفول بيزنطة أولاً على الصعيد الاقتصادي . فالتجارة الخارجية كلها انتقلت إلى أيدي الأجانب : بنادقة أو جنويين . فرجال الأعمال من أبناء البلاد قد دمروا ومُنوا بالخراب والخرسان . وأصبح الفنانون تابعين للطلبات الأجنبية . وكانت الدولة أكبر ضحية لهذا التطور . ولكثرة مامنحت أو خولت فوائد اقتصادية لهؤلاء وآخرين ، لم تفد شيئاً من جماركها . والموارد الأخرى ، التي يحصل عليها من إمبراطورية حرمت من أغنى أقاليمها ، غير كافية . والأباطرة أنفسهم كانوا متضايقين ؛ فالإمبراطور جان الخامس ، في رحلة له إلى الغرب أوقف في البندقية كمدين غير مليء ؛ وابنه مانويل جمع بمشقة المبلغ المطلوب لتحريره . ونظراً لعدم وجود موارد كافية ، لم

يستطيع الأباطرة إقامة موظفين إلا بالتنازل لهم عن أراضي وجباية موارد على هذه الأراضي . وبعد أن نشطت إقطاعية المجتمع البيزنطي في فترة الحكم اللاتيني ، تقدمت بسرعة : فمن ذلك أن أرستقراطية عقارية قوية جداً أزلت من الأرياف ، الفلاحين الأحرار ؛ وهكذا استقرت العبودية (الرق) في الشرق في العصر الذي تحررت فيه الطبقات الريفية في الغرب . فالإقطاعيون الذين يقيمون في المدن احتكروا أيضاً حكم المدينة وأبعدوا عنها الطبقة الكادحة المدنية البائسة . ومقابل هذا الانحدار المتدرج نحو الانحطاط في الحالة الاقتصادية والسياسية ، كان خلفاء ميشيل الثامن عاجزين عن النضال . وكانت السلطة الإمبراطورية تشكو من زوال عطف عام : فالطبقات المستعبدة ما كانت لتهم مطلقاً ببقاء سلطة سياسية لم تعرف كيف تصون حريتها . وفي الحد الذي توجد فيه وطنية ، فهي إغريقية وليست بيزنطية . لقد أخذت شكل تعلق بالكنيسة الأرثوذكسية أكثر من تعلق بسلالة أخذت صورة سلالة أجنبية بالنظر لسياساتها الخارجية . إن مشاريع اتحاد الكنائس بخاصة أثارت ضد الأباطرة مقاومة عنيفة جداً . إن ميشيل الثامن الذي يساعده البطريرك جان بكوس فرض بالقوة الاتحاد مع روما . وعندئذ انفجرت حيدة (انشقاق) في الكنيسة الإغريقية ، وتتمثل بالمعارضة التي يوجهها الرهبان المدافعون المتحمسون للأرثوذكسية ، والزيلوطيون ضد الإمبراطور (الناطق باللاتينية) .

وأخيراً ، لم يكن بالإمكان تطبيق اتفاق ليون . وكانت هذه حال كل المحاولات اللاحقة : ففي ١٣٦٩ م ، ذهب جان الخامس باليولوغ إلى روما على أمل أن يرى فيها نجيدات وقبل المجاهرة بالإيمان الكاثوليكي . وما لبث أن خلع . وفي ١٤٣٠ م ، قبل جان الثامن بدوره ، في مجمع فلورنسا ، الاعتراف بالتفوق الروماني . وبعثاً حاول الإمبراطور المساعدة العسكرية التي يؤملها من الغرب ، فأثار بذلك غضب الأكليروس والشعب الإغريقي اللذين رفضا قبول قراره .

ولم يتخل عن الدولة البيزنطية الشعب والرهبان فحسب ، وإنما أيضاً ما كانوا يظنون أنهم حماها . إن المعمرين (المستعمرين) العسكريين ، الذين ضربوا بضرائب ثقيلة ، أخلوا الحدود . والأمراء التابعون للإمبراطور وكبار الإقطاعيين ما كانوا ليفكروا إلا بالاستفادة من ضعف الإمبراطورية . وفي هذه الظروف ، لم يستطع الأباطرة الاعتماد أبداً إلا على المرتزقة أو على التعزيزات المخولة من الغرب بتقدير مفرط لمجاهة الأخطار الخارجية . وهؤلاء المرتزقة الذين يساء دفع أعطيائهم ، كانوا خالين من وسوسة الضمير ، ولذلك كانوا على استعداد دوماً للقيام بالثورة . وتاريخ الحملة الكتالانية يقدم أفضل مثال على ذلك . فقد دخل هؤلاء الكتالانيون في خدمة الملك فريديريك أراغونة عندما كان يناضل ضد الأنجليين في صقلية . وعندما اضطرت السلالة الأنجلية في صلح كالتابلوتا للتخلي عن صقلية ، وجد المرتزقة الكتالانيون دون عمل . فاستنجد الإمبراطور أندرونيك الثاني بهم ، وفي ١٣٠٣ م ، وصل روجه دو فلور ، رئيس الحملة المحيد ، إلى القسطنطينية مع ٦٥٠٠ رجل ، سمي الدوق الأكبر ، ثم القيصر ، وأبحر إلى كيزيك وسحق الترك الذين كانوا يحاصرون فيلادلفيا . ولكن المرتزقة الكتالانيين ، بعد النصر ، أخذوا ينهبون البلد ويهاجمون على سبيل المثال مدينة مانيزي البيزنطية . واستطاع الإمبراطور أن يقيهم في شتاء ١٣٠٤ - ١٣٠٥ م في شبه جزيرة غاليليولي . بيد أن الاستياء أخذ يزداد أكثر فأكثر في القسطنطينية ضد هؤلاء الجنود الأجانب المستعدين . وهؤلاء ، من جهتهم ، كانوا يشكون من عدم دفع أجورهم . وفي نيسان ١٣٠٥ م ، قتل الإمبراطور المشارك ميشيل التاسع في قصره على يد روجه دو فلور . وقامت الحرب منذ الآن بين الإمبراطورية والحملة الكتالانية . وخلال عامين ، وبالرغم من جهود الإمبراطور لإزاحتهم عنها ، فتك الكتالانيون بأرياف تراكيا . وفي ١٣٠٨ م انتقلوا إلى تساليا ونهبوها ووضعوا أنفسهم في خدمة غوتيه آثينة ضد البيزنطيين . بيد أنهم اختلفوا مع

سيدهم الجديد وسحقوا الفرنجة في سيفيزوس بيوتيا (آذار ١٣١١ م) . وفي أثينة وطيبة حلت أمارة كاتالانية محل النفوذ الفرنجي .

وهذه المغامرة الخارقة للعادة من قبضة جنود تكشف كم كانت حالة التفيتت في الشرق اللاتيني والإغريقي متقدمة في وقت اتضح فيه خطران خارجيان : في الشمال الدفع السلافي ، وفي الشرق خاصة التهديد التركي .

تشكيل الأمم البلقانية

إن مصاعب الإمبراطورية البيزنطية في آخر القرن الثاني عشر ، ومن ثم الفتح الفرنجي ، قد ساعدت شعوب البلقان على التحرر من وصاية القسطنطينية . وفي القرن الثالث عشر ، كانت المملكة البلغارية التي يسميها المؤرخون (المملكة البلغارية الثانية) مقابل المملكة التي أوجدها قديماً بوريث سيميون ، تمتد بشكل عريض في البلقان تحت إدارة سلالة آل آزن ، وقد حكم جان آزن الثاني (١٢١٨ - ١٢٤١ م) أحد عظماء عواهل هذه الذرية ، على بلاد تضم ألبانيا وماكدونيا ، وتساليا ، وتراكييا وجزءاً من صربيا . حالف مملكتي صربيا وهونغاريا وحصل على الاعتراف بالاستقلال الذاتي الديني لبلغاريا . ولكنه أخفق فيما بعد في محاولة لنزع مدينة القسطنطينية من يد اللاتين . وكانت عاصمته ترنوفو آنذاك من ألمع عواصم البلقان . ومع ذلك ، فنذ آخر القرن الثالث عشر ، دخلت الدولة البلغارية في حالة انحطاط ، فقد استعاد منها ميشيل باليولوغ ماكيدونيا وألغى الاستقلال الذاتي الديني في المملكة البلغارية . وفي القرن التالي ، وقعت (مملكة بلغاريا الثانية) في الفوضى وأكثر فأكثر خضعت للضغوط الخارجية . ولم تمكنها (الحماية) البيزنطية من الخلاص من الإمبريالية الصربية . وفي ١٣٣٠ م ، أباد الصرب الجيش البلغاري في فيلبوزد (كوستانديل) . ومنذ الآن فصاعداً أصبح تطور البلقان يصنع تحت شارة الهيمنة الصربية . وتثبتت هذه الهيمنة تحت حكم دوشان (١٣٣١ - ١٣٥٥) وبفضل

الخلاف الذي وضع مطالبين متنازعين في الإمبراطورية البيزنطية : جان الخامس وجان كانتاكوزين ، استولى دوشان على كل ماكيدونيا ، وألبانيا وإبيروس وتساليا . وانتزع على هذا النحو من عاهل القسطنطينية نصف إمبراطوريته . وشعر بنفسه أنه أصبح قوياً وأعلن نفسه إمبراطور الصرب والرومان (أي الإغريق) . وتوج في ١٣٤٥ م في سكوبيا ولكنه مات في (١٣٥٥ م) قبل أن يحقق حلمه وهو الاستيلاء على القسطنطينية . وبعد موته ، بدأت الإمبراطورية الصربية بدورها تميل إلى الأفول . وكانت غير قادرة على مقاومة هجوم الأتراك الذين أحرزوا في ١٣٨٩ م على نصر حاسم في كوسوفو . ووقع الصرب والبُلغار تحت السيطرة التركية . وهكذا فإن الدول التي أسستها الشعوب المنتسبة إلى جماعة شعوب (سلاف الجنوب) لم يكن لها في العصر الوسيط إلا وجود سياسي عابر ومتقطع . وإن القرب من جيران أقوىاء جداً كثيراً يوضح جزئياً إخفاقها ، ولكن أيضاً عدم كفاءة هذه الشعوب لمهر نفسها بنظام سياسي مستقر . وفي الحقيقة أن البُلغار والصرب اقتبسوا عن بيزنطة نظمها ، من ذلك : أن العاهل الذي يسمى (القيصر) يقلد البازيلوس في بلاطه ، وفي حكومته وإدارته . ولكن قوة الدولة محدودة ببنية المجتمع السلافي الإقطاعية تماماً . والاقتصاد مؤسس على الحياة الزراعية ، والأرض تابعة لطبقة نبيلة قوية تمسك بالفلاحين في نوع من الرق وتعارض السلطة الملكية بثورات عديدة .

وبالمقابل ، إذا كانت الدول عابرة ، فإن الأمم تشكلت واستيقظت تحت التأثير الإغريقي ، ولكنها عرفت كيف تبدع تراثها الثقافي الخاص . كانت الكنائس إغريقية وأرثوذكسية ، ولكن تنظيمها كان ذاتياً وحيد الرأس . واللغة المختصة بالطقوس الدينية هي السلافونية . وفي الأديرة ترجمت عن الإغريقية مؤلفات دينية وتاريخية . وتألّف الأدب الشعبي من أغاني وقصص حماسية تمجد الأبطال القوميين . وقد كان في آخر العصر الوسيط شفهيّاً . وقليلًا قليلًا دَوّن

ونسخ في القرون التالية . والفن الصربي والبلغاري مدين كثيراً لبيزنطة . ولكنه غير خال من كل أصالة . ففي بلغاريا نجح القليل من أوابد العاصمة القديمة ترنوفو في الحرب العالمية الأولى . ولكن في فرسكات كنيسة بوايانا بالقرب من صوفيا (في القرن الثالث عشر) وفي رسوم الكنيسة الصخرية في إيشانوفو (مقاطعة روسيه) يرى أن الوجوه ، التي أعطاهها الفنان للشخصيات المقدسة ، تضرب بواقعيته . وفي غرب بلغاريا ، تقدم كنيسة دير زيمين ، وكنائس نسير رسومات جدارية تدل شدتها التعبيرية على وجود فن شعبي . ويلاحظ في صربيا تطور مماثل : ففيما نرى أن رسومات كنائس أوهريد ونيريزي (في القرن الحادي عشر والثاني عشر) مدينة لريشات الفريسيكين (رسامو الفرسكات) الإغريق ، نجد أن جدران دير ميليزيكا مزينة في القرن الثالث عشر من قبل فنانيين صرب ؛ « لقد كانوا حساسين بقيمة وزن الكائنات والأشياء ... فأبدعوا صوراً كثيفة ضخمة ، ثقيلة ثابتة دوماً تقريباً » (غرابار) . وفي كنيسة سوپوكاني ، حيث يتجلى على الجدار الغربي لصحن الكنيسة موت العذراء ، يرى أن الصفة الأبدية العظيمة والتشكيلية للمشهد تعود إلى مزج سعيد من الإلهام القديم والواقعية الصربية .

وإلى جانب شعوب الصرب والبلغار التي اشتهرت في تاريخ العصر الوسيط ، بدأت أمم أكثر غموضاً تثبت وجودها : الألبانيون ، في جبال الليريا ؛ والرومانيون الذي بقي أصلهم موضع نقاش . وكل هذه الشعوب ستغرق مثل بيزنطة بالموجة التركية ، ولكن تقايلدها في آخر العصر الوسيط قد توطدت وثبتت وتأكدت لتساعد على اجتياز خمسة قرون من الاحتلال العثماني دون أن تفقد وعيها القومي .

٤ - نمو السلطة العثمانية

ونشأة روسيا الموسكوفية

لقد نمت السلطة العثمانية ببطء في سياق القرن الرابع عشر ، ولكنها توصلت ، في آخر القرن الخامس عشر ، للسيطرة على البحر المتوسط الشرقي كله .

الزخم الأول للفتح العثماني

في شبه جزيرة آسيا الصغرى التي احتل الأتراك القسم الأعظم منها ، منذ آخر القرن الحادي عشر ، أدى زوال السلطان السلجوقي ، في بداية القرن الرابع عشر ، إلى تقسيم شعبها إلى عدة بيوت تركية محلية . واستيقظت الحمية الحربية عند القبائل التي لم تحتوها سلطة مركزية ، على حساب الممتلكات البيزنطية الأخيرة في آسيا : فقد أفلت ساحل بحر إيجه من أيدي الإغريق بالرغم من تدخل الشركة الكاتالانية ؛ وعلى الشواطئ الآسيوية للبحر الأسود ، استطاعت إمبراطورية طبريزون الإغريقية وحدها أن تتماكب وتبقى . وبين الإمارات التركية في آسيا الصغرى ، كانت إمارة عثمان أبعد من أن تكون أهم من غيرها . ولكنها كانت حسنة الموقع الجغرافي في شمال غربي شبه الجزيرة ، بالقرب من الإمبراطورية البيزنطية . وهذا ما شجع توسعها . فتحت حكم عثمان الأول (١٢٨١ - ١٣٢٦ م) وحكم ابنه أورخان (١٣٢٦ - ١٣٦٠ م) توسعت الرقعة العثمانية في آسيا الصغرى ، ومنذ ١٣٢٦ م أصبحت بروسا عاصمة الإمارة وبلغت شواطئ مرمرة . وفي سياق السنوات التالية ، فتحت نيقية (١٣٢٩ م) ثم

نيكوميديا (١٣٣٧ م) . وأفاد أورخان من المنازعات الداخلية في بيزنطة حيث وقف جان الخامس وجان كانتاكوزين في وجه بعضهما ، وخول مساندته لهذا الأخير للاستيلاء على العرش وحصل مقابل ذلك على حصن على الشاطئ الأوربي للمضائق . واستقر الأتراك وعززوا قواهم في شبه جزيرة غاليبولي . وتأكدت السلطة العثمانية في عهد السلطان مراد الأول (١٣٦٠ - ١٣٨٩ م) : فقد فرض نفوذه على السلالات التركية الأخرى في الأناضول . وانطلق في فتح أوربة ؛ واحتل تبعاً تراكيا والروميلي وماكيدونيا . وفتحت أدرنة وأصبحت في ١٣٦٣ م عاصمة العثمانيين الجديدة . وتابع بايزيد بن مراد ، سياسة التوسع في أوربة . وكانت إمارات البلقان السلافية منقسمة جداً ولا تستطيع أن تؤلف جبهة أمام العدو المشترك : ففي كوسوفو (١٣٨٩ م) سحق الصرب نهائياً . وأصبحت صربيا وبلغاريا دولتين تابعتين للسلطان العثماني . وهذا الفتح جعل من الأتراك جيراناً لهونغاريا . وطلب الملك سيجيسموند النجدة من دول أوربة الغربية ؛ وبالرغم من وصول جنود من الصليبيين البورغونيين ، وهم قلة ، سحق الجيش الهونغاري في نيكوبوليس في ١٣٩٦ م . غير أن جيشاً صغيراً مؤلفاً من ١٢٠٠ رجل أرسلهم ملك فرنسا شارل السابع ، بناء على طلب الإمبراطور ، مانويل الثاني ، كان أسعد حظاً . وكان رئيسه الماريشال دو بوسيكو . وأحرز نصراً على الأتراك بالقرب من القسطنطينية . ولكن جنوده كانوا قلة قليلة لتأمين دفاع عن القسطنطينية محكوم عليه بالإخفاق أمام عودة هجوم تركي . وفي الحين الذي ذهب فيه مانويل الثاني يشحذ من أوربة المساعدات والجنود ، حدث حادث طارئ غنيف أوقف التوسع العثماني : ففي ١٤٠٢ م غلب السلطان بايزيد وأخذه تيمورلنك أسيراً .

فتح البلقان وأخذ القسطنطينية

خولت هذه الضربة المسرحية الإمبراطورية البيزنطية مهلة قصيرة جداً . ولم

يتوقف التقدم العثماني إلا عشرين سنة . وفي الواقع ، أن تيمورلنك ، حسب عاداته ما كان ليهتم باحتلال ولا بتنظيم البلد المغلوب . وتجزأت الإمبراطورية العثمانية إلى إمارات مستقلة ذاتياً : فالسلالات التركانية في آسيا الصغرى أمسكت بالسلطة من جديد . وانفصلت بلاد أوربة عن بلاد آسيا وقسمت بين أبناء بايزيد ، ولم تحاول الشعوب المسيحية أن تثور ضد السلطة التركية . وهكذا كفت عشر سنوات أحد أولاد بايزيد ، محمد الأول ، لطرده إخوته وتوطيد النفوذ العثماني في آسيا الصغرى . واستطاع خلفه مراد الثاني (١٤٢١ - ١٤٥١ م) أن يعاود الهجوم في أوربة . وفي ١٤٢٢ م جاء يحاصر القسطنطينية ولكن دون نجاح . وللنجاح ، كان عليه قبل كل شيء أن يحذف عدة خصوم وقفوا في طريقه . وإذا استطاع أن يستولي دون مشقة على تسالونيكا (١٤٣٠ م) والبوسنة والأفلاق ، فقد اصطدم في الواقع بمقاومة هونغارية فظيعة . وتوصل البطل الهونغاري جان هونيادي إلى تحرير صربيا بفرض هزيمة مزدوجة على مراد . والبابا الذي التمسته بيزنطة ، وتشجع بهذا النجاح . جهز جيشاً صغيراً مؤلفاً بخاصة من بولونيين ورومانيين ووضعه تحت قيادة ملك هونغاريا . ولكن في ١٤٤٤ م سحق الهونغاريون وحلفاؤهم في ثارنا من قبل الجيوش التركية . ومنذ الآن ترك الغرب البلقانيين لمصيرهم . وفي هذه الشبه الجزيرة التي أصبحت تحت السلطة التركية قاومت ألبانيا بزعامة رئيس محلي ، جورج كاستريوتا الملقب بـ سكاندريغ ، ومدينة القسطنطينية وحدها .

وأعد محمد الثاني منذ توليه العرش (١٤٥١ م) حصار المدينة . وكانت القسطنطينية منعزلة عن البحر الأسود ببناء حصن على الضفة الأوربية لمضيق البوسفور . وأرسل حملة تركية إلى مورة حالت دون وصول كل تعزيز . وفي نيسان ١٤٥٣ م ، حوصرت العاصمة بكاملها . ودافع عنها الإمبراطور قسطنطين الحادي عشر ببسالة . ولكن الأتراك وهم أكثر عدداً كان تحت تصرفهم مدفعية

قوية وفتحوا ثغرات واسعة في سور تيؤدوس ، بينما استطاع أسطولهم أن يمر من بحر مرمرة إلى قرن الذهب .

كان الهجوم النهائي في ٢٩ أيار . وفي العشية احتفل بأخر قداس رسمي في كنيسة آيا صوفيا . وقتل الإمبراطور في الكفاح الأخير . وانتصر محمد الثاني ودخل ممتطياً صهوة الجواد إلى آيا صوفيا : وتعرضت المدينة خلال ثلاثة أيام للنهب والقتل قبل أن تصبح عاصمة جديدة للإمبراطورية العثمانية . والمقاومات الأخيرة سقطت في السنوات التالية وهي : في ١٤٦٠ م استولى محمد الثاني على ميسترا ؛ وفي السنة التالية استسلمت طربزون بدورها ولم يبق شيء من الدولة البيزنطية ولا من الممالك السلافية في جنوب نهر الدانوب . ومن الممتلكات اللاتينية في البحر المتوسط الشرقي لم يبق غير رودوس حيث استقر فيها فرسان المستشفى حتى بداية القرن السادس عشر . أما كريت البندقية وقبرص فقد وعدتا ببقاء أطول قليلاً .

ويبقى أن نشرح هذا الحظ العجيب لما لم يكن في البدء غير قبيلة تركية غامضة . إن هذا الفوز يرجع أولاً إلى ضعف الخصوم الذين قابلهم الأتراك : الدولة البيزنطية كانت ملغومة بمنازعات داخلية ، ومحرومة من دعم غربي جاد . ولذا كانت غنية سهلة . وسكان البلقان من إغريق أو سلافيين ، فضلوا في الغالب قبول الاحتلال التركي دون كفاح ليجتنبوا النهب والاحتياح للذين قد تجرهما المقاومة عليهم . ويبدو في نظرهم أن النفوذ العثماني كان أقل خطراً من وصاية اللاتينيين . وكالعرب سابقاً في آسيا وفي إفريقية المسيحيين ، جاء الأتراك بالنظام والسلام ، واحترموا الدين الإغريقي وأوجدوا لأبناء البلاد الأصليين مكاناً في الإدارة المحلية .

ولكن أهمية وسرعة التوسع تعودان إلى قيمة الأتراك أنفسهم في الفتح وإلى تنظيم المناطق المفتوحة أيضاً . لقد عرف السلاطين العثمانيون كيف يؤلفون

لأنفسهم قوة عسكرية عظيمة . وأفادوا من تقاليد الغزاة القديمة ، من جنود الحرب المقيمة منذ قرون على الحدود البيزنطية وألحقوا بهؤلاء المحاربين الأتراك (جيوشاً جديدة) ، بالتركية يني تشري ، المعروفة باللغة العربية (الإنكشاريين) . كان هؤلاء الجنود ينزعون منذ طفولتهم من عائلاتهم المسيحية في البلقان ، ويربون تربية إسلامية ويرتبطون بالعاهل كأرقاء ، وهؤلاء الإنكشاريون يؤلفون جيش المشاة الدائم ، القوة الأساسية للجيش العثمانية . ويستمدون قوتهم القتالية الأسطورية من حماسهم الدينية ، وكانوا نظاماً دينياً قتالياً حقيقياً ، ومعادلاً إسلامياً لفرسان المعبد أو المستشفى . وكان الفقهاء في الشريعة وال دراويش (رجال دين) يوجهونهم .

ولم يكن تنظيم هذه الإمبراطورية الواسعة ، وليدة الفتح ، أقل وجاهة : لقد تأمن النفوذ التركي بمركية قوية . والإمبراطورية كلها ملك للسلطان . والحكام وكبار الضباط الموظفين الذين يمثلونه في الأقاليم المختلفة يرتبطون به بصورة وثيقة ، ويأخذون مقابل خدماتهم موارد معينة على أراضي دومينات ، ولما كانت هذه الدومينات لا تخصهم ، فلا تتشكل إقطاعية خطيرة دوماً على السلطة المركزية . ومع ذلك فإن السلاطين أبعادوا عن الحكم والإدارة الأرستقراطية المسلمة في آسيا الصغرى التي يعتبرونها مشاغبة كثيراً . ولذلك فضلوا للحكم أن يحيطوا أنفسهم بأرقاء أصلهم كأصل الإنكشاريين : ومنذ فتوتهم كانوا يسكنون في القصر ويشكلون مجموعة خدم شخصية طيبة جداً لأوامر العاهل . لقد كان النظام العثماني سلطوياً ومركزياً ومع ذلك بقي مرناً بكفاية ومتساحماً للتكيف مع تنوع الشعوب التي يسودها . والحياة اليومية لأبناء البلاد لم تضطرب . فقد أبقى العثمانيون على الأنظمة الضريبية السابقة القديمة . وقبلوا في الإدارات المحلية مسيحيين مهتدين صابئين . وبالرغم من أن السلاطين يحكون كأمرأ مسلمين ، ويشيدون في كل مكان مساجد ومدارس ، فإنهم لم يقوموا بأي ضغط للحصول على

صبأ جماهير الشعوب البلقانية . وهذا التسامح نجده في الحياة الاقتصادية والفكرية . فقد قبل السلاطين وجود تجار غير مسلمين في الإمبراطورية واكتفوا بإخضاعهم للضريبة . وكان الفلورانسيون والبنادقة يَخْتَلِفون إلى القسطنطينية . وترك العواهل أيضاً حرية تفتح حضارة البلاد المفتوحة : فيألى جانب الأدب التركي الذي يبحث أيضاً عن طريقه ويكتفي بترجمة مؤلفات مكتوبة بالفارسية والعربية ، وجد إنتاج لغة إغريقية ؛ وتابعت فلسفة افليطون ميدان عملها في القسطنطينية . ووجد إغريقي آخر وهو كريستوبولوس مؤلف حياة (ترجمة) محمد الثاني . وعلى الصعيد الفني ، كان النصيب التركي أكثر أهمية . فالسلاطين لم يكتفوا بتحويل الكنائس المسيحية ، مثل آيا صوفيا ، إلى مساجد ؛ ففي القسطنطينية بدأ محمد الثاني بتشييد المسجد المسمى مسجد (الفاتح) . ودعا إلى بلاطه رسامين إيطاليين : مثل البندقي جانتيل بيليني وكلفه برسم صورة شخصية له .

ومنذ آخر القرن الخامس عشر ، ظهرت الإمبراطورية العثمانية دولة من أقوى دول البحر المتوسط الكبرى . ارتقى بها فتح سورية ومصر والعراق ، وهونغاريا في أوربة ، في النصف الأول من القرن السادس عشر ، إلى الأوج .

نشأة روسيا الموسكوفية

لم يبق في الشرق الأرثوذكسي في آخر القرن الخامس عشر إلا روسيا الموسكوفية .

محاولة نوفغورود

نشأت إمارة موسكو من عمل غامض لجمع الأراضي بدأ في العصر المغولي . فقد تدخل الغزو المغولي (١٢٢٣ - ١٢٤٠ م) في عصر كانت فيه روسيا كيهف في حالة انحطاط وانقسمت إلى إمارات عديدة ، ولعب دوراً قطعياً في مقدرات البلاد . ولم

يكن هذا البلد مع ذلك محتلاً من قبل المحتاحين ؛ لأن المغول ، بعد أن اجتاحوا البلد ودمروا كييف (١٢٤٠ م) ، اكتفوا بوضع الإمارات الروسية في سيادة الخان ؛ وكان على الأمراء أن يقدموا احترامهم وولاءهم له لتسلم تقليد دولتهم . وفرضت ضريبة من الفرو ثم ضريبة مالية يجب أن تدفع كل عام ، وجهزت جنود مرتزقة للحملات البعيدة . وفي الحد الذي يؤدون هذه الالتزامات يستطيع الروس أن يحافظوا على أمرائهم وقوانينهم وإدارتهم . ولم تضطهد الكنيسة الروسية . ولكن الواقع المغولي حول تاريخ البلاد الروسية عن مجراها القديم : وبتدمير كييف يرى أن المناطق الجنوبية والغربية في روسيا القديمة ، روسيا كييف ، لم تعد تلعب دور المركز الموحد ؛ واتجهت نحو الغرب الكاثوليكي . وانفصلت غاليسيا عن الإمارات الروسية وآلت ، في القرن الرابع عشر ، إلى السقوط في أيدي البولونيين ، وشملت أقاليم القولهينيا ، والبودوليا ، ومنطقة كييف في (دوقية ليتوانيا الكبرى) . والقبائل الليتوانية التي لا تنتسب للجماعة السلافية توحدت في الواقع نحو منتصف القرن الثالث عشر . وجذب الأمراء الليتوانيون إليهم الروس الغربيين على هذا النحو وانتهوا بتشكيل إمارة واسعة روسية - ليتوانية امتدت في القرن الرابع عشر من البaltيك إلى البحر الأسود ، ومن البوغ ، في الغرب ، حتى ضفاف نهر الأوكا رافد نهر الفولغا ، في الشرق . وهكذا فإن كل الجنوب - الغربي لروسيا القديمة نجا نهائياً من الوصاية المغولية ، ولكن لينتقل تحت النفوذ الليتواني أو البولوني . وبطريق النتيجة ، انتقل مركز ثقل البلاد الروسية نحو الشمال - الشرقي . وكانت هذه المناطق مقسمة إلى إمارات نشأت من تداعي روسيا كييف وانتقلت تحت سيادة الخانات . وكان منها اثنتان : إمارة نوفغورود وإمارة سوزدال ، وكنتا مدعوتين لأن تلعبا تبعاً دوراً قطعياً . وكانت نوفغورود في القرن الثالث عشر أهم من سوزدال ، فقد نجت من التدمير المغولي بفضل الموقع الجغرافي وهي مدينة على بحيرة إيلمن وامتدت

سيطرتها ونفوذها إلى مدن مجاورة : بسكوف ، لادوغا ، وإلى أراضي يسكنها الفنويون على سواحل البحر الأبيض وعند قدم جبال الأورال . وشجع موقعها نهضة تجارية : فقد أقامت نوفغورود علاقات مع بلاد البaltيك وبحر الشمال ؛ وأسس فيها تجار الهانس مركزاً . وكانت أيضاً محطة على الطرق التي تأتي من بحر الشمال والأورال . وهذا النشاط التجاري أعطى للمدينة بنية اجتماعية خاصة ، فمن ذلك أن نبلاء من كبار الملاكين العقاريين ومتعهدي التجارة معاً ، قد سيطروا على شعب مؤلف من الحرفيين وصغار التجار ، واحتكروا حكم المدينة . وفي الأصل ، كان مجلس الشعب (فيتشه) يتناز بانتخاب الحاكم الذي لم يكن آنذاك غير ممثل لأمر كييف الكبير . ثم أصبحت نوفغورود جمهورية مستقلة ذات نظام أوليغارشي (حكم أقلية) . وكان الأمير ينتخب من قبل النبلاء خارجاً عن كل قاعدة وراثية ، وعليه أن يقسم اليمين (إلى عاهل نوفغورود الأكبر) . وقد عرض موقع نوفغورود المتطرف الملائم للتجارة المدنية إلى تهديدات خارجية . فالأمة الجرمانية في توسعها نحو الشرق اقتربت بصورة خطيرة من المدينة : فمن ذلك أن نظام حملة - السيوف ، بعد أن نصر الشعوب البaltية وأسس ريغا (١٢٠٠ م) انصهر مع الفرسان التوتونيين وهدد مباشرة نوفغورود . وفي الشمال - الشرقي ، كادت السويد سيدة الأراضي الفنلندية أن تضع إمارة نوفغورود بين فكي كاشة النفوذ الأجنبي . ولكن سكانها صمموا الدفاع عن أنفسهم : ففي ١٢٤٠ م ، أحرز أمير نوفغورود ، ألكسندر ، على السويديين ، غير بعيد عن ضفاف نهر النيفا ، نصراً مبيناً حاسماً خوله لقب نيقيسكي . وفي ١٢٤٢ م ، هزم على جليد بحيرة پيبوس الفرسان الجرمانيين . وأصبح ألكسندر بطلاً قومياً ومنح اللقب « أمير فلاديمير الأكبر » الذي خوله سلطة أمير على الإمارات المجاورة في سوزداليا (١٢٥٢ م) . ووجدت كل روسيا الشمال الشرقي إذن موحدة تحت إدارته التي تحترم السيادة المغولية . ولكن موته في (١٢٦٣ م) أتبع بتفتيت

جديد للقوى السياسية ، وبفضل هذا التفتيت استولت السوزداليا على الدور الرئيسي .

السوزداليا وموسكو تفرضان نفسيهما

في هذه المنطقة الواقعة بين القولغا والأوكا غمر الروس قليلاً قليلاً الشعب الفينوي القديم . ونمت إمارة في سياق القرن الثاني عشر ، وذلك أن جماعات من المعمرين قد أحيوا الأرض ، ورسموا طرقاً ، وبنوا أدياراً ومدناً ؛ فيالي المدينتين القديمتين في سوزدال ، رستوف وريازان ، أضيفت مدن فلاديمير : تشير ، كوستروما ، تولا ، وموسكو (١١٤٧ م) ؛ وحلت فلاديمير أخيراً محل سوزدال كعاصمة . وتحت السيادة المغولية ، عرفت السوزداليا هي أيضاً التجزئة السياسية . وذلك أن التقسيمات الوراثية ضاعفت الإمارات . ولقب أمير فلاديمير ليس إلا نعتاً شرفياً أعطي حسب رغبة الخانات المغول الطيبة إلى أمير أو آخر من صغار أمراء سوزداليا . وأعطاه ألكسندر نيفسكي ، خلال فترة ، بعض الوجاهة . ولكن الأراضي التي جمعها انفصلت عند وفاته . وأخذ الابن الثاني له ، دانييل ، في التقسيم ، إمارة موسكو . وحول هذا المركز ، الذي كان آنذاك صغيراً وتحت إدارة آل دانييلوفيتش ، ستعود الوحدة الروسية من جديد . ولم تستطع كييف ونوفغورود ، وسوزدال ، وفلاديمير إلا تشكيل إمارات عابرة . وهيأت الدولة الموسكوفية روسيا الحديثة .

كان نمو السلطة الموسكوفية بطيئاً . وعمل آل دانييلوفيتش بصبر على توسيع منطقة نفوذهم على حساب الإمارات المجاورة . وكان لأوائل خلفاء دانييل ، ابنه جورج (١٣٠٣ - ١٣٢٥ م) وإيثنان الأول (١٣٢٥ - ١٣٥٩ م) من المهارة ماساعدهما على الاعتماد على المغول . إن إيثنان الأول الملقب بـ كاليتا^(١) أي

(١) الكاليتا : كيس يعلق بالحزام في العصر الوسيط .

الكيس لكفاءته المالية ، كان مكلفاً بفرض ضريبة للخزان على كل الأرض الروسية ، وأخذ لقب الأمير الأكبر . وفي منتصف القرن الرابع عشر كبرت إمارة موسكويا إثر الحروب أو المعاملات التجارية وشملت مدن كولومنا وتفير ، وريازان ، وسوزدال . وفي هذا العصر أصبحت موسكو عاصمة روسيا الدينية : ففي ١٣٢٦ م ، استقر رئيس أساقفة فلاديمير في موسكو . ولكن عند وفاة إيشان افتتح بالنسبة لموسكويا قرن مشاكل خطيرة : فقد خضعت مراراً لهجومات تألب جمع الأمراء الليتوانيين والمغول وقبيلة الذهب والمدن الروسية المنافسة ، وتجزأت الإمارة الموسكوفية تحت حكم سيميون المتغطرس ، وإيشان الثاني . فقام عندئذ بطل قومي ديميتري دونسكوي (١٣٦٢ - ١٣٨٩ م) الذي تجده ملحمة الزادونشتشينا ووطد الحالة . جمع معظم الأمراء الروس وقام ضد المغول وسحقهم في كوليكوفو (١٣٨٠ م) ولم تكن هذه غير هدنة في النزاع الذي قامت به موسكويا في سبيل بقائها . وفي فترة تراخ ، بنتيجة تدخل تيمورلنك ، أثقل النير المغولي من جديد في بداية القرن الخامس عشر . وفي الوقت نفسه كانت القوة أو السلطة الليتوانية أخطر منها في أي وقت مضى ؛ فقد أحرز الأمير الليتواني فيتولد نصراً حاسماً على الفرسان التوتونيين في تاننبرغ في ١٤١٠ م ، واستأنف دسائسه ضد موسكو . وبالرغم من جهود فاسيلي الأول ، احتل مناطق الأوكا الأعلى . ولحسن الحظ فإن موت فيتولد (١٤٣٠ م) أغرق ليتوانيا في الحرب الأهلية في الوقت الذي ضعفت فيه بسبب المنازعات الداخلية ، وكان على فاسيلي الثاني (١٤٢٥ - ١٤٦٢ م) أن يجابه مزاعم أعضاء أسرته . وسقط في أيدي أحد منافسيه الذي أعماه ، ولكن فاسيلي الأعْمى انتصر أخيراً في (١٤٥٣ م) ، واستطاع أن يعاود ، في السنوات الأخيرة لحكمه ، سياسة التوسع . فقد فرض سيادته على جمهوريات نوفغورود ، وبسكوفي وريازان . وفي عهده وضعت حوادث حاسمة لمستقبل موسكو : ففي ١٤٣٩ م ، في مجمع فلورانس ، كان

بطريرك القسطنطينية قد قبل اتحاد الكنائس ، ورئيس أساقفة (متروبوليت) موسكو ، إيزيدور الإغريقي ، تبعه في هذا السبيل . ولكن قاسيلي الأعشى لم يعترف به وأمر بخلعه . ومنذ الآن فإن رؤساء أساقفة موسكو لا يعينهم بطريرك القسطنطينية . وهم روس ، وليسوا إغريقاً . وأصبحت الكنيسة الروسية كنيسة قومية . وعندما زالت أوسقطت بيزنطة في ١٤٥٣ م تحت ضربات الترك ، استطاعت موسكو ، آخر حصن للأرثوذكسية ، أن تطالب شرعاً بوراثة .

حكم إيثان الثالث الحاسم

جنى إيثان الثالث (الكبير) (١٤٦٢ - ١٥٠٥ م) ، ثمار جهود طويلة غامضة ، وكان أول عاهل كبير لموسكو . وأفاد من التفتت الداخلي لخانة القوم الذهبي . فقد اعتمد على خان القرم المنشق منغلي جيروي . ورفض أن يدفع الضريبة لأحمد الخان الكبير . وزحف هذا على موسكو وأخذ موقعه أمام جيش إيثان على الأوغرا ، وخلال عدة أيام راقبت الجيوش بعضها . وأخيراً لم يجرؤ أحمد على القيام بالقتال وفضل الانسحاب . وهذه الحملة دون قتال حررت إذن نهائياً روسيا من السيطرة المغولية (١٤٨٠ م) . وكانت هذه السيطرة في عز أفولها ، فقد عاشت قبيلة الذهب حتى اليوم الذي سحق فيها آخر خان لها في ١٥٠٢ م من قبل خان القرم . ولم يبق من الحضور المغولي في هذا التاريخ في روسيا الجنوبية إلا ثلاث خانات صغيرة انفصلت عن القبيلة وهي خانات : القرم ، وقازان ، واستراخان . وانطلاقاً من ١٤٩٢ م وجه إيثان الثالث جهوده ضد ليتوانيا التي اضطرت إلى التخلي عن ماضته من مناطق تحققت على حساب الأراضي الروسية . وحرمت نوفغورود من هذا الدعم الأجنبي بعد أن حاولت أن تجد ثانية استقلالها الذاتي ، وضمتها موسكو إليها : إن ٨٠٠٠ من أغني سكانها نفوا إلى موسكويا ، وطرد تجار الهانس من المدينة التي تدمرت تجارتها . وفي آخر القرن الخامس عشر شملت موسكويا : ياروسلافي ، روستوف ، برم ، نوفغورود ،

بسكوف ، تشير ، وريازان . وأرسلت حملات إلى سيبيريا . واستطاع إيشان الثالث الذي تزوج أميرة بيزنطية ، صوفيا باليولوغ ، أن يتطلع ليكون (عاهل روسيا كلها) وخلف قياصرة القسطنطينية أي قيصراً . وأصبحت موسكو روما الثالثة وتعامل إيشان مع كل الدول الغربية العظمى .

إن العواهل الموسكوفيين في جهودهم لتوسيع إمارتهم ، شادوا ملكية تسلطية مستبدة ، ولم يتوقف نمو السلطة المركزية بأي عائق عظيم . ولم تكن لمدن سوزداليا ، والمدن الجديدة مثل فلاديمير وموسكو ، تقاليد سياسية ونشاط تجاري هام ، وما كانت لتملك مثل نوفغورود مجلساً يمكن أن يعارض إرادات الأمير . وكانت سلطة الأمراء ، البويار ، عظيمة : ففي مناطق إحياء الأراضي الحديث ، كانوا المنظمين لعمل المعمرين . وسلطتهم على الفلاحين تعززت بدورهم في جمع الضريبة العائدة للمغوليين . وهكذا تشكلت دوميئات كبرى شبيهة بدوميئات الغرب الكارولنجي ، وكان الفلاحون الأحرار يطلبون مساعدة كبار الملاكين ، ولذلك وقعوا وأصبحوا تابعين لهم . واستطاعت الملكية الموسكوفية ، الغنية والقوية بفضل مكاسبها الأرضية أن تبعد البويار عن الأعمال الإدارية . وأسست جماعة من الموظفين يأخذون ، بصفة امتياز مؤقت وغير وراثي ، حق التمتع بدومين يبقئ ملكاً للأمير ، البوميسيتيه . وهذه الأرستقراطية من الموظفين تؤمن للعواهل النصر على نبل البويار . أما الفلاحون الخاضعون للأمراء المالكين أو واضعي اليد على البوميسيتيه ، فقد انزلقوا قليلاً قليلاً في حالة تجاور العبودية . وفي آخر القرن الخامس عشر ، لم يكونوا بعد متعلقين بالأرض . ولكن كان من الصعب عليهم أن يغيروا الدومين ، ونزعت السلطة المركزية إلى شراء وفاء الأمراء ، وذلك بأن تركت لهؤلاء السيطرة والنفوذ على الفلاحين .

روما الثالثة

لقد طالب قياصرة موسكو السلطويين المستبدين ، ورثة أباطرة القسطنطينية ، بتراث بيزنطة الروحي . وانطلاقاً من القرن الرابع عشر عرفت الكنيسة الروسية تجديداً قوياً . وفي أصلها ترتفع صورة القديس سرج . فقد ولد ، في روستوف حوالي ١٣١٣ م ، الشاب بارتلمي ، ووقف نفسه منذ فتوته للدين . وبعد وفاة أبويه انعزل مع أخيه في غابة رادونيچ ، وبالقرب من كنيسة الثالوث الأقدس الصغيرة التي بناها بيديه ، قضى حياة ناسك منعزل وأخذ اسم سرج . ولقبه في القداسة جذب إليه بسرعة رفقاء وبنيت خلايا حول الكنيسة . وقبل بأن يصبح كاهناً وأباً للطائفة ، ثم ، بناء على أمر بطريرك القسطنطينية ، أن ينظم الحياة المشتركة بتبني القاعدة المتبعة في دير القديس - تيؤدور في كييف . وقد أفادت الخوارق العديدة ، التي نسبت إلى سرج ، في نحو الدير (الأبوية) . والتبس أمراء إرسال رهبان ليؤسسوا في دوميئاتهم أديرة . وهكذا أنشئ دير المنقذ (المخلص) في موسكو وأديرة كولومنا وسيربوخوف . وبعد موت سرج (١٣٩٢ م) تابع تلاميذه عمله . وأصبح نيكون أباً لكنيسة الثالوث ، وعمر كامل الدير الذي دمره الخان توكتاميش ، واستدعى لتزيينه الرسام أندريي روبليوف . وتأسس أكثر من ثلاثين ديراً جديداً في سياق القرن الخامس عشر . وأصبح الرهبان رسلاً : فرهبان القديس - إيتين في برم بشروا شعوب الشمال الذين مازالوا وثنيين . وهكذا أعطى القديس سرج ثانية للحياة الديرانية ولكل الحياة الروحية في روسيا انطلاقة جديدة . وهذه الانطلاقة أفادت النشاط الفكري والفني . وكانت الأديرة أيضاً وفي الواقع مراكز (بؤراً) تشع منها الحضارة . وفي المشاغل ، حيث تنسخ المخطوطات ، استيقظ التفكير السياسي والديني . وقد كتب رفيق إيتين دو برم ، إيفاني الفيلسوف ، سيرة إيتين وسيرة القديس سرج . وحررت حوليات تشمل على الحوادث التي طرأت

على روسيا . ودفعت حركة شرح وتفسير لمتن الكتاب المقدس ، شبهة بالأدب الإنساني البيزنطي أو الإيطالي ، الرهبان المثقفين إلى مراجعة الترجمات القديمة السلاقونية للنصوص المقدسة . ونجم عن هذه الحركة (الهرطقة المتهودة) التي تتابع عادات اليهود واحتفالاتهم ، وبدأت تظهر في نوفغورود في آخر القرن الخامس عشر . وهؤلاء الهرطقة الذين ينكرون الثالوث الأقدس ويرفضون كل قيمة للأسرار ، شجبوا وأدينوا في ١٤٩٠ م ولكنهم على الأقل ظلوا يباشرون نشاطهم .

وأثار تأسيس الأديرة والكنائس تجديداً للحياة الفنية . وتأكد الفن الروسي وارثاً للتقاليد البيزنطية . ولكن مؤثرات أخرى دخلته وتغلغلت : مؤثر الهندسة المعمارية الشعبية من الخشب ، وخاصة في منطقة نوفغورود ؛ وأيضاً مؤثر الغرب الذي أتى به المهندسون المعماريون الإيطاليون . والمخطط الكنسي الذي يميز الكنائس الروسية عن الكنائس البيزنطية ذات الصليب الإغريقي ، والقبة البصلية لكاتدرائية رئيس الملائكة القديس ميخائيل ، وكنيسة موت العذراء ، وكنيسة البشارة في داخل قصر الكرملن في موسكو تميز فن العمارة القومية لروسيا الجديدة . والتزيين بالصور قريب من النماذج البيزنطية . فقد جاء العديد من الفنانين من الإمبراطورية البيزنطية واشتغلوا في موسكويا . من ذلك أن ماكسيم الإغريقي رسم فرسكات كنيسة تجلي الرب في نوفغورود ورسم إيقونات عديدة . وتيؤفان الإغريقي اشتغل في موسكو وخاصة في نوفغورود . وإن غو الحاجز الإيقوني ، هذا الحاجز الملبس بالإيقونات الذي يعزل المعبد (الهيكل) ، واستعمال الألوان الحية أعطى مع ذلك لهذه المدرسة (مدرسة نوفغورود) بعض الأصالة . وأبرزت مدرسة موسكو أسلوباً روسياً خاصاً . وكان ممثله الأكبر في بداية القرن الخامس عشر أندريي روبليوف ، فوجهه المفعمة بالرشاقة الرخصة الناعمة تسبح في ظلام منير سري .

إن روسيا الموسكوفية الدولة الوحيدة المستقلة ، في الشرق الإغريقي
والأرثوذكسي ، كانت مهياة في آخر القرن الخامس عشر لتخلف بيزنطة ،
وتتابع عملها في جميع المجالات .

الفصل الثاني

مصاعب أوربة

المقدمة

لقد كان من نتائج الحملات الصليبية تشكل ممالك مسيحية في إسبانيا وإمارات فرنجية في سورية وفلسطين ، وخضوع الكنيسة الإغريقية لروما خلال فترة من الزمن ، وإمبراطورية لاتينية محل الإمبراطورية البيزنطية ؛ وتجار بنادقة وجنويون في وكالات ومؤسسات تجارية في البحر الأسود ، وعلى طرق آسيا الوسطى ، وشاطئ الصين . هذه هي نتيجة قرنين من الزمن عرفت فيها المسيحية الرومانية والدول الغربية المنتصرة توسعاً خارجاً عن صعيدها الخاص ، حتى الشرق . ومع ذلك ، فقد ظهرت منذ آخر القرن الثالث عشر المؤشرات الأولى للجزر بعد المد : فقد أعيد بناء الإمبراطورية الإغريقية ، وبدأ هجوم الاسترداد يلهث في إسبانيا . وتقلصت الإمارات الفرنجية بشكل خطر في سورية . وانطلاقاً من العقود الأولى للقرن الرابع عشر ، أصبح الانطواء عاماً ؛ لأن الأتراك العثمانيين الذين غلبوا بيزنطة اجتاحت أوربة الشرقية ؛ ومن ثم ضعفت بلاد البلقان ، وهددت المناطق الدانوبية ، وأصبحت هونغاريا وبولونيا حصناً أمامياً للمسيحية الرومانية تجاه الأتراك المسلمين . ومن جهة أخرى ، انقطعت العلاقات المباشرة مع الشرق الأقصى . وفي حوض البحر المتوسط الشرقي قام القراصنة الأتراك بصيد السفن الإيطالية . وهكذا تقلصت آفاق أوربة السياسية والاقتصادية والدينية .

ومقابل هذا الانطلاق الجديد للإسلام على أيدي العثمانيين ، أظهر التراجع الأوربي الصعوبات الداخلية الخاصة بالعالم الغربي بين ١٣٢٠ و ١٤٥٠ م تقريباً . فمنذ بداية القرن الرابع عشر ، في الواقع ، ولأكثر من قرن ، تغير الجو الذي كانت تدور فيه الحياة الأوربية . فمن النصوص المعاصرة ، تواريخ ، مذكرات ، ومواثيق ، ترتفع شكوى الآلام : ففي كل مكان جاشت الحرب ممزقة المسيحية ؛ والمصائب المتكررة ، والأوبئة ، والجذب تحصد السكان ، وتحدث الاضطراب في الحياة الاقتصادية ، واستولى الاضطراب والقلق على العقول .

١ - الصعوبات المادية

١ - عصر النوائب

الطاعون والمجاعات

« نجنا ، يا إلهي ، من المجاعة ، ومن الطاعون ، ومن الحرب ! » . هذه الضراعة القديمة ، التي تتوجه بها البشرية إلى الله في زمن الشدة ، كانت سائدة في القرن الرابع عشر على أفواه الناس . وفي الحقيقة من الصعب التفريق بين الطاعون والمجاعة ماداما مختلطين في الواقع : لقد ضعف الناس تحت وطأة سوء التغذية وأعيتهم الأوبئة بسهولة . وهذه الأوبئة بدورها أوقفت كل عمل في الحقول وفي المشاغل وتسببت في جذب جديد . لقد كانت المجاعة أول نائبة في أوربة الغربية منذ بداية القرن الرابع عشر . وتهديدها لم يزل بكامله أبداً . ففي كل سنة ، في الربيع ، في وقت اللحمة الموسمية ، وعلى أماد طويلة ، كانت السنوات العجاف توقظ القلق والخوف من العوز إلى القوت والغذاء . ومع ذلك فإن التواريخ لا تذكر كوارث كبرى منذ منتصف القرن الحادي عشر . وبالعكس ، انطلاقاً من بداية القرن الرابع عشر ، انفتح دور مجاعة بمنتهى الشدة الخطيرة . وفي الأصل ، بدأ يظهر بعدة سنوات رديئة المحصول جداً ، ورطوبة كثيراً . حتى أن بعض المؤرخين المحدثين خاطروا بفرضية (ثورة مناخية) ، بدليل قرائن ، مثل تراجع الغابات في الكتل المخرجة في ألمانيا الوسطى (السوديت) ، والتخلي عن زراعة الحبوب في أيسلاندا ، وتراجع الكرمة في إنكلترا ، يبدو أنها تدعم هذه النظرية . ومهما يكن ، فإن صعوبات التموين ظهرت في ألمانيا ، منذ ١٣٠٩ م ، ثم تعممت في أوربة الشمالية كلها ، وبلغت أقصى شدتها في السنوات ١٣١٥ - ١٣١٧ م .

في بير ، على سبيل المثال ، بين الأول من أيار و ٣٠ تشرين الأول ١٣١٦ م ، قضت المجاعة على ١٠٪ من السكان . وفي أقل من عشرين عاماً فيما بعد ، شكت بلاد البحر المتوسط بدورها من الجذب والقحط : فأكتانيا ، واللانغذوك . والبروفانص ، وإسبانيا عرفت مصاعب خطيرة . ومنذ الآن ، أخذت محفوظات البلديات تشير دورياً إلى عودة المجاعات . وفقراء الناس ، من عمال المدن الفلاماندية ، ومن يعملون بسواعدهم من أبناء الأرياف الإنكليزية كانوا ضحاياها الأساسيين : لقد بلغت الخنطة مثل هذه الأسعار : (في تولوز ، بين تشرين الثاني ١٣٧٤ م ، ونيسان ١٣٧٥ م ، كانت الزيادة ٣٠٠٪) ، ومات الناس من الجوع . ومن جهة أخرى ، كانت الموانئ أقل بلاءً من مناطق الداخل : لأن الحبوب ظلت تسير عبر الطرق الدولية الكبرى ، على البحر ، أو على طول الأنهار ، لأن العوز إلى الخنطة لم يحصل ، في آن واحد إلا استثناءً ، في كل أروبة . وعلى هذا النحو ، كان بإمكان بوردو أن تتون من إنكلترا . أما في داخل منطقة واحدة ، فإن أسباب العيش ، من طعام وغذاء ، كانت تنتقل قليلاً . وكان بوجوازيو تولوز ينتجون قمحهم في الحقول المجاورة للمدينة ؛ وهكذا يتضح أن سكان بير التابعة لسطح البلاد المجاورة ، ماتوا من الجوع في ١٣١٦ م ، على حين أن بروج الواقعة على بعد (٥٠) ك . م ، كانت أقل ألماً لأنها كانت تأخذ تموينها من موانئ المصب . وكانت الأرياف في الغالب مهددة بالمجاعة أكثر من بعض المدن .

في ١٣٤٧ م ، صاقت سفن جنوبية آتية من البحر الأسود شاطئ صقلية : وأتت معها بمرض فظيع عاث في حينه في القرم وجعل جسم ضحاياه أسود تماماً ، ومن هنا أتى اسمه الطاعون الأسود . فقد اختلطت بالطاعون الغددي ، الذي وصفه جان دوفينيت ، وينتقل عن طريق الفئران ولا ينتشر إلا في الصيف ، أشكال رئوية للطاعون أكثر خطورة لأنها تنتشر أيضاً في الشتاء . لقد انتشر

الوباء بسرعة مذهلة . ففي ١٣٤٨ م أصيبت بلاد البحر المتوسط وفرنسا ؛ وفي ١٣٤٧ م ، أوربة الوسطى ، البلاد المنخفضة ، إنكلترا ؛ وفي ١٣٥٠ م ، إيكوسيا والبلاد الإسكندنافية . وساعدت على انتشار الطاعون حالة سوء التغذية التي أضعفت الأجسام وجعلتها عرضة للمرض . يضاف إلى ذلك حفظ الصحة الرديء . لقد كانت المنازل بحالة يعوزها النور والهواء . وفي المدن ، حجم عدد النوافذ لأنها تسمح بدخول البرد ، وسدت في الغالب بورق مطلي بالزيت . وفي الريف ، لا ترى المساكن النور إلا من الباب . وفي هذا الجو العفن الراكد وغير المتجدد ، في تجاور المدن واختلاطها ، تركد القمامات ، النفايات من كل نوع ، أمام المنازل ، وتجذب الخنازير التي تتشرد حتى في شوارع باريس ، وأخطر من ذلك ، الفئران ، ناشرة الطاعون الغددي .

وحاول سكان المدن عبثاً بشكل دائم ارتياد الحمامات العامة ، والريفيون التمتع بنسمات الطبيعة ، فكيف ، في غياب الماء الجاري ، ومصلحة رفع القمامات ، يمكن تأمين حفظ صحة جيدة ؟ إن النصوص المعاصرة أقوى معبر عن هذه الحالة ، ولا سيما ، الإرادات الملكية في باريس ، التي تتكرر دون كلل أو ملل في سياق القرن ، وعبثاً تلقي المسؤولية على قذارة الشوارع .

أما الطب فقد تجاوزته تماماً سعة الوباء . لقد حقق التشريح بعض التقدم في الكليات ، في إيطاليا وفي إسبانيا ، التي دخل إليها العلم العربي واليهودي . ولكن الأطباء ، في معظمهم ، وحتى مشاهيرهم ، عندما يدعون لزيارة المرضى من الأمراء ، يكتفون بمعرفة علمية مما في الكتب ، مستقاة عن المؤلفين القدامى ، ومشوهة بالمدرسية ، وإذا تباحثوا بأسلوب العلماء عن أصل الضرر عزوه أحياناً إلى لقاء الكواكب ، في جزء من السماء ، وأحياناً إلى تأثير المريخ الخبيث إله الحرب ، ولا يعرفون إلا تفضيل الأدوية المسكنة كالتطهير بالبخار . لقد كانوا مفعمين بنظرية فساد الهواء ، وينكرون أخطار العدوى . وتكشف عن عجز فن

الجراحين ومهارة الحلاقين الذين يحتقر نشاطهم ويقتصر على الضمادات والفصا
والمسهلات . إن فتك الأوبئة مرعب . ولم يكن جان دوفينيت الوحيد الذي
صور لنا لوحة عن هذه المدن التي كانت تتراكم فيها الجثث ولا يقدر حفارو القبور
دفنها بسرعة ، وفي بضعة أسابيع تأخذ المدن منظراً أو مشهداً حزيناً مخرباً .

وبعد فهل من الممكن حساب الخسائر البشرية ؟ إن المعلومات الدقيقة ،
التي يمكن أن تعطيها بعض السجلات النادرة لكنائس القرى أو المستشفيات
الباقية ، هي متناثرة جداً . فقد علم ، على سبيل المثال في قرية جيفري ، في
بورغونيا ، أن ٦٤٩ وفاة حدثت في ١٣٤٨ م ، مع العلم بأن سكانها كانوا يتراوحون
بين ١٢٠٠ و ١٥٠٠ نسمة . وأن مزرعة ، في سري ، في إنكلترا ، سجلت أكثر من
خمس عشرة مرة للوفيات في هذه السنة بالنسبة للحالة العادية . ومن الصعب
الحصول على نتائج : لأن بعض المناطق نجت من الأوبئة : كما في ألمانيا الجنوبية ،
والفلاندر الغالكانية ، وبيارن . وأكثر من ذلك ، على مسافة بضعة كيلومترات ،
أن سكان قرية بكاملها قد أودوا ، على حين أن القرية المجاورة قد نجت من الوباء
تقريباً . ومن جهة أخرى ، يبدو أن المدن في الغالب قد تأملت أكثر من
الأرياف . ففي مونيبله ، كان عدد الإخوة المبشرين ١٤٠ قبل الوباء ، وأصبحوا
سبعة بعد بضعة أشهر . وأظهرت دراسات حديثة على وادي ريان في البروفانص
أن قرية سان - بول - دو - دورانس ، على سبيل المثال ، نزلت بيوتها من ٩٢
إلى ٤٠ بيتاً . ويبدو من الممكن الاتفاق على أن ثلث السكان ذهب ضحية الوباء
في ١٣٤٨ م .

وهذا الوباء الفظيع لم يزل تماماً . وطوال القرن الرابع عشر والخامس عشر ،
يُحمد ثم يظهر هنا أو هناك على مسافات متقاربة كما لاحظ ذلك
جان دوفينيت .

إن سجل جيثري يؤكد هذا الشاهد : فقبل الطاعون ، كان عدد حالات الزواج يتراوح في كل سنة بين ١٠ و ٢٠ ؛ وفي ١٣٤٩ م بعد مرور المرض يذكر ٨٦ زواجا ، وفي ١٣٥٠ ، ٣٣ زواجا ، ومع ذلك فإن الدفعات الدورية للوباء تحول دون سد الفراغ الحاصل بسرعة .

وهذا العجز الديموغرافي ، بتطاوله ، ولد بدوره ، اضطرابات جديدة ، ولا سيما على الصعيد الاقتصادي . فقد قلّ عدد الشغيلة ، وغلت الأجور ، كما يتضح ذلك من ديباجة الميثاق الإنكليزي لعام ١٣٥٠ م .

ولكن عدد المستهلكين ، من جانبه ، قد هبط بشكل رصين ، فأحدث الاضطراب في الأسواق . واختلت الأسعار . وساءت عودة الحياة الاقتصادية ، لاسيما أن الاضطرابات الناجمة عن الحرب جاءت تضيف إلى فتك الأوبئة والمجاعات .

حرب المئة عام

خلال القرن الرابع عشر كله وفي النصف الأول من القرن الخامس عشر ، تمزق الغرب الأوربي بالخلافات المسلحة . وفي الحقيقة ، إن أوربة الإقطاعية ، في القرون السابقة ، قد تأملت من حالة عداء مزمن تقريبا . وهذا العداء ، في الغالب ، كان منازعات بين أميرين متجاورين . ولكن سرعان ما تنطفئ بعد اشتعالها ، هذا فضلا عن أنها كانت تجند أعدادا قليلة ولم تكن قاتلة جداً ولا مدمرة جداً ، حتى أن الحرب الطويلة التي نشبت بين الكاسيين والبلانتاجونية كانت استثنائية . أما في القرن الرابع عشر وفي القرن الخامس عشر ، فقد كانت الخلافات على قدر المتحاربين - إمارات أو ملكيات في عز نهضتها - وبسعة مخيفة عظيمة . لقد دخلت أوربة بكاملها في عصر عدم الأمن المعمم والدائم : إن فرنسا ، مسرح الخلاف الفرنسي - الإنكليزي ، الذي أطلق عليه المؤرخون اسم (حرب

المئة عام) قد آلتها الحرب أكثر من غيرها ؛ أما في الإمبراطورية ، فبسبب خور السلطة الملكية ، كان الأمراء يتنازعون ، والأسلحة في أيديهم ، على السلطات الملكية ، بينما أصبح الفرسان أشقياء وقطاع طرق ، وأفادوا منها ليفرضوا على البلاد اقتطاعات دورية مفرطة . ففي إيطاليا ، قامت مدن الشمال بعضها ضد بعضها الآخر : ميلانو ضد البندقية ؛ پيزا ضد فلورنسا ، على حين أن جنوب شبه الجزيرة كان متنازعا منذ زمن طويل بين بيت آل أنجو وبيت آل أراغونه . وكانت الشقاكات والاختلافات التي لاعد لها ، والمنازعات السلالية تمزق الدول الإسكندنافية ، كدول شبه الجزيرة الإيبيرية . وأخيراً ، تضاغت الخلافات من جديد على هوامش الدول المسيحية ، فقد كان الإنكليز يناضلون دوماً ضد الجبليين الإيكوسيين ، وفرسان النظام التوتوني ضد السلافيين ، والإسبان ضد العرب ، والهونغاريون ضد الأتراك .

وكانت العمليات تجري بوسائل عظيمة في الغالب تحت تصرف التشكيلات السياسية المتعاطمة وتستعمل قوى تدمير أعظم بكثير مما في القرون السابقة ؛ لقد كان الجنود أكثر عدداً وأفضل تسليحاً . ولم يكن الجنود الإقطاعيون الشبان المدعوون للخدمة العسكرية الإقطاعية ليكفوا الأمراء والملوك . وإذا ظل هؤلاء يجندونهم ، فقد كانوا يستنجدون أيضاً بالجنود المرتزقة ، ومنذ القرن الثالث عشر ، ظهر أن تجنيد الإقطاعي لتابعيه بخدمته المحدودة بأربعين يوماً ونظامها القاسي ، غير كافٍ . ولذلك فإن الملوك الإنكليز أولاً ، ثم الملوك الكابسيين ، بدؤوا بإعطاء الأعطيات للجنود الذين يبقون في الخدمة العسكرية إلى ما بعد الوقت الإقطاعي المخصص للخدمة العسكرية ، وسوق جنود مرتزقة بغية تجهيز الجيوش للحملات البعيدة وللحروب الطويلة الأمد . أما أبناء الأسر النبيلة من غير الأبطال ، الذين أخذت مواردهم تتناقص ، فقد قدموا أنفسهم طواعية للخدمة العسكرية . وحتى في هذا العصر أيضاً ، كان أعداد منهم يبحثون عن موارد

لهم في الذهاب إلى ما وراء البحار ، إلى الأرض المقدسة ، مثلاً . ومنذ آخر القرن الثالث عشر ، أخذ هذا الميل يزول . وفي الحقيقة ، أن السرية الكاتالانية الشهيرة وضعت نفسها في خدمة الأباطرة البيزنطيين ، وانتهت باقتطاع إمارة لها في اليونان . ولكن مثل هذه المغامرات أصبحت استثنائية ؛ الأمر الذي اضطر الفرسان دون موارد أن يبحثوا لهم عن عمل في أوربة الغربية نفسها . وبصورة دقيقة ، إن الملكيات التي زادت مواردها ، منذ القرن الثالث عشر ، كان بإمكانها أن تجند جنوداً مرتزقة بأعداد كبيرة . وهكذا ، في سياق حرب المئة عام ، جندت سرايا من أوساط النبلاء الفقراء أو من ولادة غير شرعية ، ومن عالم المغامرين الساقطين ، ودخلت في خدمة ملك فرنسا أو دوق بورغونيا .

وأكثر من فرنسا ، كانت إيطاليا أرض انتقاء للجنود الملكيين : إن السرية التي يتعهدوا رئيسها بعناية ، تضع نفسها في خدمة الحزب أو المدينة التي تقدم شروطاً أفضل من غيرها : وإن إحياء الخلافات المستمرة لا يتركها زمناً طويلاً دون استخدام ، وإن زعماءها ، مثل جيوفاني ديل أوبالديني ، ومالاتيستا أو كولليونه ، اكتسبوا شهرة عسكرية تتجاوز حدود إيطاليا . ومثل هذا التنظيم كان لأسطول الحرب : فقد كان ملوك القرن الرابع عشر يتصرفون أولاً بأسطول أنشوؤه بخاصة لهذه الغاية . ولكنهم في زمن الحرب يلجؤون أيضاً لخدمات السفن المرتزقة . وكان أمراء الأزمنة الإقطاعية يعيشون للحرب ، ولكن الدومين الأساسي لهم يؤمن طعامهم وغذاءهم ، أما المرتزقة والقراصنة فيعيشون في القرن الرابع عشر من الحرب التي هي عملهم وشغلهم . ألم يجب الكوندوتيري (الطاغية) جون هوكوود إلى رهبان تمنوا له السلام : « أتريدون من الله أن يمتني جوعاً ، إنني أعيش من الحرب كما تعيشون من الصدقات » . وإن وجود فئة أخذة بالتوسع من ممتني الحرب ، همهم أن تدوم ، إنما هو نتيجة الخلافات الأوربية كما هو أحد أسبابها أيضاً .

كانت الجيوش العديدة والمتخصصة ، في القرون الأخيرة من العصر الوسيط ،
 مجهزة بعتاد أكثر نفاذاً يني قوة تدميرها . فالأسلحة النارية بدأ ظهورها في
 المعارك : وخليطة ملح البارود ، والفحم والكبريت التي كان يستعملها الصينيون
 منذ القرون الأولى للعصر المسيحي لأجل الألعاب النارية ، ثم ابتداءً من القرن
 الثالث عشر ، لغايات حربية ، إنما هي مركب يعلم البيزنطيون أولاً سره ، فنذ
 القرن السابع طبقوه على صنع « النار الإغريقية » أي التي سميت بوجه عام
 « السهم الناري الملتهب فوق الماء » . وانطلاقاً من بداية القرن الرابع عشر ،
 استعمل الغربيون بدورهم البارود لإطلاق القذائف . فالقطع الخفيفة ، المدافع
 الصغيرة ذات الفوهة الدقيقة والطويلة أو الثقيلة ، المدفع القصير ، تعطي صوتاً
 مدوياً في المعارك . وكانت صعبة الاستعمال اليدوي ، وقليلة العدد أيضاً ، ومع
 ذلك فإن المدافع الأولى تخيف العدو أكثر مما تسبب له الضرر . أما جيش المشاة
 الجديد فقد بدأ أكثر نفاذاً : ففي الحرب لعب المشاة منذ الآن دورهم الحاسم بفضل
 تحسين السلاح وكاله . وكان الإنكليز أول من تعلم بالحروب الإيكوسية المديدة ،
 واستعملوا القوس الكبيرة الغالوية من خشب السرو أو الشربين (طقسوس)
 بطول مترين ، (قوس طويلة) . وهذه القوس تسمح بإطلاق اثني عشر سهماً في
 الدقيقة ، بينما كانت القوس القديمة النموذجية ، القوس الثقيلة الجنوية لا تطلق
 إلا أربعة ، والقوس الفولاذي ذوالمقبض يشد بنابض يطلق حجرين . وهي قدرة
 إطلاق مضروبة بثلاثة ، هذا ما يوضح التفوق الإنكليزي على جيش الأتباع الذي
 مازال إقطاعياً عند ملوك فرنسا في بداية حرب المئة عام . وأحياناً أيضاً ، يرى
 أن قسماً من المشاة المسلحين بنوع من حربة طويلة ؛ وفي القرن الخامس عشر ،
 كان الرمح الطويل سلاحاً مخيفاً لدى الكتائب السويسرية . وكان التكتيك
 يتكيف مع الشروط الجديدة ، النبالة الموجودون في الوسط يمتطرون العدو بوابل
 السهام الذي يحمل عليهم . وفرقة الفرسان الخفاف ، التي تحيط بهم ويمكنها أن
 تنزل على الأرض ، تقوم عندئذٍ بحركة دائرية ، بينما فرقة الفرسان الثقيلة

الموجودة على الخطوط في الورا يمكن أن تدعم الصدمة . وتآلف هذه القوى المختلفة ، كان الرؤساء الإنكليز والطغاة الإيطاليون يجددون دخول الاستراتيجية المناورة في المعارك . وكان لهذه المعارك صفة حاسمة أكثر بكثير من الصدمة الجبهوية للجيش الإقطاعية ، كما أنها أكثر إماتة بكثير .

وأخيراً ، الحرب الجديدة ، وبهذا تثقل بشدة على مقدرات الغرب ، هي حرب شاملة . وفي الحقيقة ، إن الخلافات تبقى منقطعة يهدنات مؤقتة كثيرة والقوى المتحاربة ، بالمقارنة إلى أعداد الجنود الحديثة ، تظل ضعيفة ، ولا يمكنها أن تمد الحرب إلا في نقاط محدودة من (الجبهة) . ولكن وراء المحاربين ، توجد كل قوى الأمة المحاربة التي تخضع للمجهود الحربي . فها من ثروة اقتصادية ، ولا طبقة اجتماعية موفورة أو مراعاة . إن المنطقة التي تكون مسرحاً للحرب ، تفرض عليها دورياً اقتطاعات مفرطة من قبل الجنود ، والربح الأساسي من النصر يكون غمماً يؤخذ من أرض العدو ويقسم حسب قوانين الحرب . ويضاف إليه الأسرى من الصف العالي الذين يكونون مصدر موارد لمن يأسرهم ويقبض عليهم ؛ والعرف يحدد مقياس الفديات . ومن جهة أخرى ، إن (التلف) أو التخريب المنظم للمحاصيل ، والقطعان ، والقرى إنما هو تكتيك عدوان أو استعراض .

أما ضحايا الخصوم ، وهم غير المحاربين ، هم أيضاً جنود حزيم الخاص ، المرتزقة ، الذين يسيء الأمراء مكافأهم ، فكانوا يعيشون على حساب البلد .

والهدنة المؤقتة ، وإن كانت دور سلام ، لاتأتي بأي راحة للسكان ، بل بالعكس . وفي الواقع ، إن العواهل يكفون حالاً عن دفع أجور المرتزقة ، لأن إعاشتهم تثقل بشدة موازنتهم . عندئذ تصبح السرايا المسرحية السرايا الكبرى ، والجنود يصبحون قطاع طرق أو رجال عصابات مسلحة ؛ ويطلبون من قطع الطرق واللصوصية ، الموارد التي يرفضها السلام لهم . وكذا الحال ، على البحر ،

تصنع عمائر القرصان من نفسها قرصاناً وقد وصف أحد هؤلاء المغامرين ، واسمه أميرغو مارشيز إلى المؤرخ فرواسار إنه يأسف كثيراً لحياة المغامرات هذه ، بعبارات لا تترك مجالاً للشك في المصير المحزن لهؤلاء البائسين الذين يطلب منهم بالقوة ما لا يجب عليهم .

وانتهى الفلاحون بتنظيم أنفسهم للنضال ضد رجال السلاح من أي حزب كانوا ، أو للهرب منهم في الوقت اللازم عندما يقتربون منهم . وحتى لو كان السكان غير موجودين في القطاع الذي تقع فيه المعارك وتتقاتل فيه الجنود وتقيم ، فإن الحرب لا تراعيهم ولا ترحمهم ، لأنها تأخذ في الواقع أشكالاً جديدة . فالعدو يستعمل أسلحة اقتصادية : حصار السواحل ، إغلاق الأسواق ، هجوم النقد الذي يحاول بواسطته أن يجتذب إليه قطع النقد الجيدة . كما أن تدمير اقتصاد بلد من البلدان يمكن أيضاً أن يكون حاسماً كالتغلب على الجيوش في معركة منظمة يتقاتل فيها جيشان وجهاً لوجه . والحرب ، بالنسبة للسكان أكثر من أي شيء آخر ، مرادف البؤس . وذلك لأن ما يوفره العدو أو الشقي من قطاع الطرق ، يأخذه عمال الملك أو الأمير : إن الضريبة المتفاقمة بواقع الحرب تؤول إلى سحق الشعب . ففي خطاب مؤثر ألقاه أمام الملك شارل السادس (١٤٠٤ م) مدير جامعة باريس ، جيرسون ، ذكر كل هذه الآلام والشرور والأضرار الناجمة عن حالة الحرب ، والتي من شأنها أن تضرب بصورة خاصة فقراء الناس .

الآجاجون والجلادون

إن الأفكار « التي ضربتها الأوبئة المتتابة » استسلمت للاضطراب العميق وعدم سير الأمور بانتظام . فمن ذلك أن بعضهم ، مثل الملك شارل السادس ، تاهوا بسبب الجنون الذي أصبح مرضاً كثيراً الوقوع . وبالنسبة للبعض ، كان

فورة لذة يبحثون فيها عما يشغلهم دون طائل ، ونسياناً للموت الذي يصل
ويجول ويراقب : ففي البلاطات الملكية والأميرية ، كان لهُو الحفلات الراقصة
المقنعة واللوحات الحية شائعاً ، بالحادث الشهير للحفلة الراقصة التي قام بها
الأجاجون . فالحفلة التي قدمت من قبل الملكة إيزابل بمناسبة زواج إحدى
مرافقاتها ، انتهت بشكل مفجع . فقد كان دوق أورلئان وأمراء آخرون متزيين
بزي (الهمج ، المتوحشين) ، وظهروا يهزون مشاعل ملتهبة ، وكانت سراويلهم
من نسيج القنب الخشن المطلي بالزفت والمغطى بالريش ، وما لبثت أن أحرقتها
النار وأهلكت عدة شخصيات متخفية ، ونشرت الذعر في الحضور . وذوو
البدلات العادية لم يكونوا أقل منهم طيشاً في الألبسة التنكرية : فقد كان
الرجال والنساء يلبسون ألبسة فضفاضة ، بألوان فاتحة وشفافة ، ومزدانة بالفراء .
وألبسة الرأس عالية بشكل مبالغ فيه إن بلباس رأس السيدات العالي والمخروطي ،
أو الخوذ ذات الريش التي يلبسها الفرسان ؛ والأحذية (الحادة الرأس) للغاية .

وإلى لذائذ الحفلة الراقصة والزينة ، تضاف لذائذ المائدة : فقد كتب الكثير
من كتب المطبخ ، والمآدب ، في عصر كان الناس يموتون فيه من الجوع ، ويرون
تتابع سلسلة صحن لا عد لها . كانت الأبهة في حب الظهور فيها تغلب على كل
شيء ، كما في بلاط دوق بورغونيا الذي يذكر في مذكرات العصر .

وهذا البذخ الذي يتجلى في حياة البلاط ظهر أيضاً في زواج الدوق .

وبين هذه اللذائذ ، لم تنس التقاليد الفروسية ، ولكنها أخذت وجهاً جديداً
للفخر : وهو الصيد الذي ترك عنه الكونت دوفوا ، غاستون فوبوس ، كتاباً
مطولاً موثقاً جداً ، بالمبارزات خاصة ، التي لم تعد تدريباً على الكفاح بل
أصبحت تسلية . وإن المنمنمات الموجودة في كتاب « المبارزات » ، الذي ينسب
إلى الملك رونييه دانجو ، تظهر الأمراء متجاهين ولايسين ملابس طائشة تتناسب
مع السروج الفاخرة التي توضع على الخيول في بعض الحفلات .

على أن هنالك ، بالعكس ، آخرين ، عن طريق التقشف وإماتة الجسد والتوبات الشديدة المفرطة ، يحاولون تخفيف الغضب الإلهي الذي يجرّ على البشرية المذنبة كل هذه الآلام والشور . وكان المبشرون الشعبيون يحضون الجماهير على التوبة . وكانت الظاهرات التي نظمها الجلادون الشكل المسرحي لهذه الحالة الفكرية وذلك بجلد الراغبين بالتوبة للتكفير عن ذنوبهم .

وفي التوبة ، كما في وسط اللذائذ ، كان الناس يبحثون عن ملجأ ضد الموت . وكان الفنانون ، هم ، أيضاً ، تخامرهم رؤى الموت ، فخلف الشخصيات التي يمثلونها من مختلف الطبقات تظهر هياكل عظمية مقلقة . وكان الموت يوجه الحفلة الراقصة ، ويتأس المأدبة ، ويقود الجيوش ؛ وانتصاره ، موضوع تراكيب عديدة ، كان عاماً .

هل هذا يعني أفولاً لمجتمع منهك مضى يمزق نفسه ويشعر بتلذذ مشاكس لفكرة نهايته الخاصة ؟ في الواقع ، إن أعراض الاضطرابات العنيفة تطلب أن تحلل وتوضح . أما أن يكون القرن الرابع عشر عصر أزمة ، فهذا مما لا شك فيه . ولكن في وسط الخلافات والمصاعب والقلق ، ألا يوجد عالم جديد آخذ بالشوء ، وفي حال ولادة ؟

في الصعيد المادي ، كانت الأزمة أعمق وأقل خطراً معاً مما يمكن أن تظهر . كانت أعمق ، لأنها لم تكن نتيجة بسيطة لسلسلة كوارث طارئة غير متوقعة ، ولكنها حركة أعماق ، وأصلها يمكن في التطور الاقتصادي للقرون السابقة . وأقل خطورة ، لأنها لم تكن غير أزمة غو وتكيف في حياة أوربة الغربية ، ولكن كوارث لم يتنبأ بها جعلتها مؤلة جداً للمعاصرين .

الخلل الاقتصادي وانقلاب الظروف

بدأت أوائل الصعوبات منذ الربع الأخير للقرن الثالث عشر : فقد كان

التوازن ضعيفاً ، سريع العطب بين السكان وأسباب عيشهم ، ولذلك قطع . وفيما كان النهوض الديموغرافي (السكاني) مستمراً ، بلغ إحياء الأرض ، في أوربة ، توسعاً لم تُصن بعده المدخرات الاحتياطية من الغابات وأراضي البور الضرورية للاقتصاد الريفي . وأكثر من ذلك أيضاً أن أراضي فقيرة كثيراً قد زرعت ، ونضبت من بعد بعض المحاصيل ، ولذلك أهملت وتركت . وكان الفلاحون الفقراء ضحايا هذا التزايد السكاني في الأرياف . إن صغار المستأجرين الذين كانت تحت تصرفهم أرض آخذة بالصغر بسبب التقسيمات العديدة ، وكذلك العمال اليديون (رجال السخرة) المفتقرون إلى الأرض ، عرفوا أيضاً مصيراً مفعجاً . فبعضهم حاول أن يفر محاولاً أن يجد عملاً في المدينة . ولكن معظمهم وجدوا مستوى حياتهم قد ضغط بعامل القوى الاقتصادية القاسي : إن سعر الحبوب التي كان إنتاجها أدنى من الطلب ، ما يزال في ازدياد ؛ وبالمقابل ، كانت اليد العاملة الريفية فائضة ، ولذلك تدنت الأجور . ومنذ ذلك الحين ، بدأ انقلاب في المنحنى الديموغرافي ، وأصبحت الوفيات مرتفعة جداً بين الطبقة الكادحة الدنيا ، حتى أنها في سنة ١٣٠٠ م ، تفوقت في عدة مناطق على الولادات . وفي الوقت نفسه ضاق اقتصاد المبادلة ، الاقتصاد المدني ، بمجاعة نقدية حقيقية . فقد نضبت مناجم الغرب ، في وقت أصبح فيه وصول ذهب السودان وآسيا عسيراً إلى الغرب ، بعد أن اعترض سبيله المغول والأتراك والدول المغربية .

ففي ذلك الحين كان الاقتصاد الغربي في عز ضائقته لما حل به من كوارث طبيعية وتدميرات بشرية ، محاصيل رديئة ، منذ بداية القرن الرابع عشر ، بداية حروب ، ثم الطاعون الأسود في ١٣٤٨ م ، التي بمزجها الآثار المدمرة فاقمت الأزمة وأمدت في عمرها . ففي هؤلاء السكان الذين ضعفوا بسبب سوء التغذية والولادة غير الكافية ، تحولت الخسائر الناجمة عن الحرب والمجاعة والوباء إلى نكبة . ومن

الممكن أن يفكر على الأقل وبصورة مباشرة وجذرية بأن السوق قد نظف من اليد العاملة . وفي الواقع كان النزيف قوياً جداً جداً . وأخذ الاقتصاد منذ الآن يشكو من نقص السكان بسببين : عجز في اليد العاملة يضيق التعمير الاقتصادي ويؤدي إلى ارتفاع عام للأجور . وظروف السوق المضطربة تماماً . فكيف يمكن للإنتاج المتناقص بالتدميرات ونقص العمال أن يتكيف دفعة واحدة مع استهلاك قد تحول نفسه ؟ لقد كان المستهلكون أقل عدداً ، وغيروا في الغالب أمكتهم باحثين على سبيل المثال ، عن عمل في المدينة أفضل ربحاً أو عن الأمن ؛ وأحياناً ، لم يعد بالإمكان التوصل إليهما عندما تؤدي الخلافات السياسية إلى إقامة الملوك الحواجز الاقتصادية على حدود مملكتهم .

ومن جهة أخرى ، إن العجز النقدي ، الذي ظهر منذ آخر القرن الثالث عشر ، قد تزايد بسبب الحروب والتطور السياسي . فقد ازدادت حاجات الدول التي كان عليها أن تحتفظ بالعديد من المرتزقة . والضرائب الثقيلة أفقرت البلاد دون أن تملأ بصورة كاملة الخزانات العامة . يضاف إلى ذلك أعمال النهب والفديات . وقد حذا الملوك حذو المثل الذي ضربه فيليب الجميل في آخر القرن الثالث عشر ، ولكن بكثير من السعة والضخامة ، فلبجؤوا إلى وسائل سميت آنذاك (التغييرات) . وذلك بإنقاص كمية المعدن الثمين التي تدخل في الخليطة التي تعمل منها قطع النقود .

هذا الانخفاض في القيمة يساعد على زيادة كمية النقد المتداول ، وقد يعطي ، على الأقل من حيث المبدأ ، دفعة للحياة الاقتصادية . وفي الواقع لاشيء من هذا . لأن الحياة التجارية عاكسها عدم الاستقرار المالي الذي أضر بمصالح المنتجين . وظهر أن ارتفاع الأسعار قد بدأ ، وأن الجماعات الاجتماعية ، التي تتصرف بإيرادات ثابتة ، شعرت بالضرر لنقص قدرتها الشرائية . وبالرغم من ارتفاعات الأسعار المدوخة والمرنحة ، ولكنها لم تدم طويلاً ، التي كانت نتيجة

أزمات مناخية جوية ، فإن الميل الأساسي كان ، حسب القطاعات ، إلى الركود أو إلى انخفاض الأسعار ، لأن جمهور المستهلكين كان أقل عدداً وأكثر فقراً . واصطدم المنتجون بالمتطلبات المتزايدة من قبل الأجراء والدولة ، ورأوا أن هوامش أرباحهم قد قلت وتضاءلت . غير أن مصالح طبقات معاكسة بعنف تسببت بخلافات اجتماعية لا يمكن تجنبها . وخلال هذا التطور بدا أن حياة الأرياف قد تضررت أكثر من حياة المدن التجارية .

٢ - بؤس الأرياف

الأرياف محتاجة وبلاقع

في هذه الحالة الصعبة ، منذ آخر القرن الثالث عشر ، تأملت الأرياف أكثر من المدن من النوائب التي حلت بالغرب في سياق القرن الرابع عشر . وبالرغم مما يمكن أن يفكر به ، لم تسلم لا من الأوبئة ولا من المجاعات . وبالمقابل اجتاحتها الجنود وقطاع الطرق ، أكثر من المدن التي تكون أحياناً محمية بالأسوار .

كان الفلاحون يموتون أو يفرون . وهجرت الحقول ، واستردت الغابة أحياناً كل امتداد الأرض التي رجحتها الزراعات في سياق القرون السابقة . وكان الوضع على مثل هذه الحال في ألمانيا الوسطى ، وكذلك في منطقة تولوز وكرسي في فرنسا ، حيث أخذت الذئب والخنازير تظهر ، واضطر بعض الأحياء إلى طلب السماح بصيدها . وفي الغالب حلت الأرض البور محل الأراضي المزروعة ؛ والأحياء التي في محيط منطقة إدارة الأمير أو المدينة تركت بوراً أيضاً . ونزعت الزراعة إلى التركز على الأراضي الملائمة أكثر من غيرها . ولكن ، في بعض المناطق ، زالت قرى بكاملها مع كل أرضها الصالحة للزراعة والخصبة . ففي إنكلترا ، ساعد استعمال التصوير الفوتوغرافي عن طريق الطيران على رصد هذه القرى الضائعة ، وتقدير النسبة التي تمثلها وهي $\frac{1}{10}$ التجمعات الريفية التي كانت

توجد قبل الأزمة . وفي ألمانيا الشرقية والجنوبية بلغت نسبة الأراضي المهجورة ٣٠ ٪ . وفرنسا التي اجتاحتها حرب المئة عام قد تضررت كثيراً أيضاً ، ففي منطقة بور دو المنازع عليها بشدة بين الفرنسيين والإنكليز ، القائمة لا تنتهي للأماكن (الشاغرة) ، (الخالية) ، (المخربة) ، في قلب منطقة الكروم . ويرى المنظر نفسه في البروفانص وفي الحوض الباريسي . لأن كثيراً من الفلاحين كانوا يهجرون قراهم هرباً من الموت ويذهبون إلى التجمعات المدنية ويستقرون فيها طلباً لأمن نسبي ، وحياة أفضل ، وأجور مرتفعة .

وحتى عندما عاد السلام والصحة الملائمة ، تتابع الرحيل الريفي . لقد وجد الأجلاف قليلي العدد كثيراً في كل قرية ، ومحرومين من الحيوانات والأدوات للقيام بالتعمير الزراعي ؛ ودفعهم فتور الهمة والشجاعة إلى تجريب حظهم في المدينة المجاورة . وللحيلولة دون هذا الهرب وضع أمراء ألمانيا الشرقية والعواهل الإسكاندينافيون نظاماً شديداً جداً يمنع الفلاح ، ولو كان حراً ، من مغادرة الأرض دون ترخيص . وفي فرنسا سمح الملك لبعض القرى بتسلم رسوم ريفية لئلا يجرسكانها اليائسون إلى مغادرتها بسرعة .

النهضة الزراعية البطيئة

في هذه الظروف الضعيفة المتفاقمة بعودة دورية للأوبئة والاجتياحات ، كانت العودة إلى الأعمال الزراعية بطيئة وعسيرة . ورافقها بعض التغيير والتبديل في الإنتاج الناجم بصورة أساسية عن الانقلاب الديموغرافي : فلقد كان المستهلكون أقل عدداً وموزعين بصورة مختلفة عن الأخرى . وشعب المدن الذي تناقص أقل بكثير من شعب الأرياف ، ووجد في الغالب متضخماً بالرحيل الريفي ، لعب دوراً متزايداً ونامياً في أسواق المنتجات الخاصة بالغذاء ، وقد تبنى سكان المدن في القرن الرابع عشر (سجلات حسابات كليات أو مستشفيات ، عقود عمل أثبتت

جدارتهم بهم) نظاماً غذائياً أكثر تنوعاً تكون فيه حصة الأغذية المرفقة على حساب نصيب الخبز .

وهذا يوضح بأن الحبوب نسبياً لا تجد في الأراضي المخصصة للزراعة ، مكاناً واسعاً ، كما كان في القرون السابقة . وفي الحقيقة أن هذا التحجيم في الأراضي المزروعة حبوباً قد عوض جزئياً بتحسين مردود المحاصيل : إن تركيز العمل على الأراضي الغنية أكثر من غيرها ، وانتشار المحراث ، وغو تربية الأبقار الذي أسهم في تخصيص الحقول توضح هذا التقدم . ولكن مؤشراً آخر يدل بصورة أوضح على أن الطلب على سوق الحبوب قد انخفض كما يظهر من منحنى الأسعار . والنصوص المعاصرة توضح في الغالب ارتفاعات الأسعار الخرافية للحبوب . وفي الواقع ، في دور المحصول الرديء أو في دور اللحمة ، يرى أن سرعة ازدياد الأسعار بالمفرق تحدث بعنف فريد لم يسمع مثله . فالأسعار تصل أحياناً إلى العشرة أضعاف ، وتغني بعض المستغلين الماهرين . ولكن هذه التقلبات القصيرة الأمد لا تغير في الصفة العامة للمنحنى الملاحظ على دور طويل ، فقد ظلت أسعار الحبوب مجمدة دون ارتفاع أو انخفاض أو انخفضت بين ١٣٠٠ م والربع الثاني من القرن الخامس عشر . ولم يتشجع المزارعون على تنمية زراعة الحنطة . وهذا يوضح الجذب المفاجئ في حال الطقس الرديء . إلا أن هناك منطقة وحيدة نجت من هذا التطور ، وهي : شرق أوربة ، أي السهول الممتدة ماوراء الألب التي حافظت على صلاحيتها لزراعة الحبوب . وزراعة الحنطة فيها كانت تشجعها التجارة الهانسية ، تجارة رابطة مدن الهانس .

وإلى جانب الحبوب التي ظلت موجودة في كل مكان ، نمت محاصيل أخرى حافظت على أسعارها ، بل إنها ارتفعت : فزراعات الفاكهة والخضراوات بالقرب من جميع المدن الكبرى ، وبخاصة في إيطاليا ؛ فحول المدن التوسكانية ، في بساتينها (كونتادو) كانت تنمو مختلطة ، حسب نظام (الزراعة المختلطة) :

الحس ، الملفوف ، البطيخ الأصفر ، الأراضي شوكي (أنكنار) ، الهليون ، مع الكروم والأشجار المثمرة . وفي الحانات والمطاعم الراقية أو على الموائد العائلية ، كان سكان المدن يطلبون الخمر أكثر فأكثر : وكسبت الكرمة أراضي جديدة في أودية الراين والألب . فكروم بورغونيا ، وسانتونج ، ومنطقة بوردو التي تمون بلاد الشمال تعمرت من جديد . وأفادت من ذلك جميع الزراعات الصناعية من نهوض واسع منذ توطد النظام على ما يبدو ؛ فزراعة حشيشة الدينار لصنع الجعة (البيرا) تقدمت في ألمانيا . وأصبحت منطقة تولوز منطقة كبرى لإنتاج العظم ، الوسمة ، لاستجابة طلب صناعة النسيج ، ولنفس الأسباب ، زراعة الكتان والقنب امتدت في بيكارديا وفي البلاد المنخفضة .

ولكن تربية الحيوانات ظلت بحق النشاط الأكثر ربحاً . وتقدمها سبب جزئياً تراجعاً في الأراضي الصالحة لزراعة الحبوب . لأن تسمين البقر والأغنام يأتي بربح أوفر من إنتاج الحبوب ، حتى أن كثيراً من الحقول انقلبت لتربية هذه الحيوانات إلى مراعي . فاخلو من السكان ، وفقدان الأيدي العاملة شجعاً في الغالب هذا الاتجاه . وهذا الاتجاه كان ملحوظاً حول المدن بخاصة : فقد ازداد الطلب على اللحم حتى انطلق اللحامون في المضاربة غالباً ، يسلفون الأموال للمربين ، أو يقومون بأنفسهم مباشرة بتربية القطعان . وبدأت بعض المناطق الريفية ، هي نفسها ، بالتطور نحو تخصص نسبي في إنبات الأعشاب ، وهذه كانت بخاصة حال الجبال مثل الكانتال التي أصبحت آنذاك أكبر منتج للجبنة واللحم ، أو الهضاب الداخلية في إسبانيا التي انصرفت ، كما هي الحال في جزء من الأرياف الإنكليزية ، إلى تربية الأغنام في سبيل الحصول على الصوف .

ضعف النظام الدوميني

لقد كان للانقلاب الاقتصادي الواسع انعكاساته على بنية الأرياف الاجتماعية . وخرج منها النظام الدوميني مزعزعاً كثيراً . فمن ذلك أن القيم

المعنوية والاجتماعية وضعت من جديد موضع تشكيك كما في كل دور عنف واضطراب . فمن ذلك أن طعن في نفوذ الطبقة النبيلة . وبرهنت الحرب في أشكالها الجديدة بوضوح تفوق جيش المشاة والمرتزة على الفروسية القديمة . والأمير الذي لا يسوق رجاله للحرب يفقد جزءاً من سلطته .

وأسهم بعض النبلاء أيضاً ، بسلوكهم ، في فقدان اعتبار كبارهم من أتباع التاج : فمن ذلك أن بعضهم أصبحوا أشقياء على طريق كبير . وكان ذلك عصر آل روبريتر (فرسان قطاع طرق) ، الذين يبذرون الإرهاب في ألمانيا ، والعصر الذي ارتفعت فيه ، في كل مكان في إيطاليا ، كما في فرنسا ، حصون تراقب الوديان والطرق . وقد فرض مالكوها على المارة والمسافرين رسوماً باهظة على المعابر والطرق ، عندما لا ينهاهونهم بكل بساطة بلا شرط ولا استثناء . حتى أن حياة الأبهة والبذخ والفسق التي كان عليها بعض الأمراء الموسرين وسط البؤس العام كانت تثير الاشمئزاز والغضب .

وفي الغالب يزداد الازدراء والكره للذنان كان يشعر بها الأجلاف تجاه الأمراء إلى درجة ينظرون فيها إليهم نظراً إلى أجاناب . وكثيراً ما كان النبلاء ، سواء ممن يرتبطون ببلاط ملك أو أمير ، أم ممن يتذوقون لذائذ الحياة المدنية ، يكفون عن الإقامة في دوميئاتهم . ومن جهة أخرى ، في المناطق المتنازعة بين نفوذيين سياسيين ، كانت الأراضي تغير مالكيها حسب الانتصارات والهزائم : وهذه بحالة منطقة بوردو . وأخيراً ، وحتى خارج حوادث الحرب ، ملائمة كانت أو غير ملائمة ، يضطر كثير من الأمراء الذين تضرروا أن يتخلوا عن دوميئاتهم في الغالب إلى بورجوازيين ، من محامين أو نواب في البرلمان ، أو تجار أثرياء .

وكانت طبقة الأمراء تشكو أيضاً من الأفلول الاقتصادي العام ، بينما ظلوا ينفقون أموالهم في سبيل الحرب ، لدعم مجرى حياتهم ومضاعفة المساعدات لصالح الكنيسة التي تقيم (القداسات لراحة أرواحهم) مع عدم التبصر الذي يعتبر مؤشراً

لدمائة أو لطف حقيقي ، ويجبون موارد قليلة جداً . ويرجع سبب دمار الطبقة النبيلة أيضاً إلى الحرب أولاً ، لأن الأراضي بعد مرور الجنود والأشقياء تصبح خالية من الرجال ، وليس لها أي ارتباط مع أحد مباشرة .

وكان تعمير الدومين يجري بظروف ضارة للأمراء ، فإبقاء الفلاحين أو جذبهم ، كان عليهم أن يقبلوا بتضحيات هامة : فالأقنان الذين قلّ عددهم في القرن الثالث عشر ، أفادوا من ندرة اليد العاملة للحصول على تحديد أعبائهم أو إنقاذها أو طلب تحريرهم . وكذلك المستأجرون ، فعندما لا يحولون أرضهم إلى ملكية تامة ، في الظروف الملائمة ، كانوا يحصلون على تخفيف أتاواتهم . وإذا قاموا مباشرة بإحياء الأراضي البور في الدومين أو فقط في أراضي الاحتياطي ، فإن الأمير يصاب بخيبة أمل أخطر أيضاً . وإذا أراد أن يؤمن لنفسه خدمات العمال المياومين ، وهم نادرون كثيراً جداً ، فعليه أن يقبل بأن يدفع لهم أجوراً عالية . وهذه التضحيات كان يشعر بها بقساوة في موازنة الأمراء في الوقت الذي كانت الموارد التي تتأتى عن بيع الحبوب في حالة انخفاض .

وهذه الظروف العسيرة توضح أن كثيراً من الأمراء ، ولا سيما بعد ١٣٥٠ م ، عدلوا عن إحياء الأرض مباشرة ، وفضلوا نهائياً بأن يكتفوا بدخول متواضعة ، ولكنها أكيدة ، من أن يتحملوا المشقة واليأس والغم من الإدارة الشخصية . وإن إلقاء العبء على الآخرين بهذا العمل كان يوافق بخاصة الأمراء الذين يقيمون قليلاً في دومينهم . وهذا اللجوء كان من كثير من الملاكين النبلاء أو الأكيركيين ، كما يبرهن على ذلك أكثر من ميثاق في مقدمته .

وإذا تم التنازل عن العديد من قطع الأرض مقابل ضريبة سنوية ، فن الملاحظ أيضاً ، في القرن الرابع عشر ، تقدم المزارعة في المناطق الجنوبية والتأجير في الشمال . وباختصار ، لقد نزع الأمراء إلى أن يصبحوا أكثر فأكثر ،

حسب تعبير الأستاذ بلوك (أصحاب دخل من الأرض) . وإذا احتفظوا ، من أجل تموين أفراد عائلتهم ، ببعض الأرض كـ (احتياطي) ، وإذا استمروا أيضاً بـجباية عن حق ارتفاق ، فإن الأساسي من هذه الموارد كان يجهز منذ الآن فصاعداً من دخل عقاري . وهذه الموارد المحددة منذ الانطلاق بسعر ضعيف القيمة والأهمية ، كانت تصغر دون انقطاع بانخفاضات العملة ، بالرغم من تجديد الضرب الدوري للنقود بوزنها الشرعي . لقد كان الأمراء يسيطرون دوماً على المجتمع الأوربي ، ولكن هذه السيطرة « على اقتصاد الأرياف قد تراخت بشكل محسوس » (الأستاذ دوبي) .

بؤس الفلاحين وغضبهم

وبعد فهل تحسن مصير جمهور الفلاحين ؟ للنظرة الأولى ، بدا أن وضع الأجلاف أقل عناء ، فالأرض لا تخلو بل وتوجد ، والأجور ازدادت ، والدخل الأميري انخفض ، وأخيراً تراجعت القنانة (الفدادية) . وفي الواقع ، إن هذه الظروف الحسنة قد أفاد منها الفلاحون الذين كانوا يتصرفون بموارد شخصية كافية يستطيعون بها استئجار أرض بدلاً من أن يخضعوا إلى عقد مزارعة أو ضريبة سنوية . وظلت ثروات الفلاحين تختلف في سياق القرن الرابع عشر . إلا أن فريقاً صغيراً وحيداً من المستغلين قد أثرى . ومن حيث الجمهور الكبير ، فإن تخفيف الدخل الإقطاعي قد عوض بالثقل المتزايد للضرائب الملكية أو الأميرية . ففي الكثير من المناطق وجد أن تزايد الأجور قد كبج بسياسة السادة الإقطاعيين والأمراء الذين كانوا يحاولون وضع حد أعلى للأجور . وفي الوقت نفسه ، منع الفلاحين من مغادرة الأرض ، والأعمال الخاصة (مهور ، وصيات) وسيطرة المربين على الأرياف تبدو بأنها تشهد على الفقر العظيم جداً الذي كان الفلاحون يعانونه . ومثل هذه الحالة تشاهد حتى في ١٤٦٥ م أي في عصر تم فيه الإعمار .

وللخلاص من الشقاء والبؤس ، ولقطع دابر الاستغلال ، قام بعض الفلاحين وجعلوا من أنفسهم مستغلين . فإلى جانب قطاع الطرق والراوبريتز قامت عصابات المتسولين المعوزين المسلحين - عمّامات (قبعات) بيضاء في نورمانديا ، شحادون في بورغونيا ، أو جلود تاسيخ في جزيرة فرنسا - ينشرون الإرهاب في الأرياف حيث يمرون . أما الجمهور الأعظم من الفلاحين ، فلا يوجد من حل آخر لهم غير التحمل بإذعان واستسلام لهجمات الجوع ونهب الأشقياء والضرائب الملكية . وحتى اليوم الذي لا يعلم فيه دوماً لماذا انفجرت هنا أو هناك ثورة ؟ . وفي هذا الرد الفظ اختلط الخوف والغضب ، لقد كان القرويون يعيشون في خوف دائم من الوباء أو من مجيء الجنود ، وفي اضطراب من الأخبار المغلوطة ، ويبحثون عن مسؤولين قابلين للتضحية بغية دفع الخطر . وكان اليهود في الأرياف كما في المدن ، أوائل الضحايا التكفيرية المعينة لهذا الغرض . وتلّون الهياج الشعبي الموجه ضد الأغنياء بكره اجتماعي : فقد نهبت الحوانيت وأحرقت ، وقتل السادة الإقطاعيون . وبين حركات الثورة هذه ، كان أشهرها حركة يعقوبيين التي كان إيطارها في ١٣٥٨ م منطقة بوفييه . ولذلك سميت ، الثورة يعقوبية وهي مأخوذة من جاك (يعقوب) وهو الاسم الشعبي الذي أطلق على الفلاحين .

ولم تكن هذه الثورات إلا سوررات غضب قصيرة الأمد دون تنظيم حقيقي ، ودون برنامج . وعلى نقيضها وجد عدد من الحركات التي انفجرت في مناطق مختلفة من أوربة ، في الفلاندر البحرية (١٣٢٣ - ١٣٢٨ م) ، وفي إنكلترا (١٣٨١ م) ، وفي البلاد الإسكاندينافية وفي مملكة أراغونة (في النصف الأول من القرن الخامس عشر) ؛ لقد ثار الفلاحون بمحرضين وقادة ينتمون في الغالب إلى أوساط أكثر حظاً من غيرها ، ويريدون الحصول على حذف الضرائب الملكية ، وسحب المراسيم التي تحدد الأجور ، وتمنع الفلاحين من مغادرة الأرض .

واختلطت بهذه المطالب الاقتصادية النظريات الصوفية من نوع الشيوعية الإنجيلية . والحركة المعروفة أفضل من غيرها هي الحركة التي أهاجت جنوب شرقي إنكلترا في منتصف القرن الرابع عشر . ففي أصل الثورة ، كانت جهود الأمراء الإقطاعيين لدفع أزمة النظام الدوميني : لقد طلبوا من مستأجري أراضيهم سخرات خففت في الغالب إلى أتوات في عهد الرخاء والازدهار ، وعندما أهلك الطاعون الأسود أعداداً كثيرة من اليد العاملة ، حصلوا من الملك على تشريع عمل كله لصالحهم . وقد نشر نظام العمال هذا في ١٣٥٠ م في براءة ملكية واضحة .

إن ضريبة الرأس الثقيلة بخاصة التي قررها الملك في ١٣٨١ م ، رفعت استياء الفلاحين إلى القمة وفجرت الثورة ؛ فقد أعطى قرويون من كونتية الإسيكس المؤثر لطرده الجباة الملكيين بضرب الحجارة . ثم تشكلت عصابات مسلحة في الكونتية كلها وفي كونتية كنت المجاورة ، وهاجت القصور . وكان على رأسها زعيان فرضا نفسيهما : الأول جندي مسرح اسمه وات تايلر ، استلم إدارة العمليات العسكرية ؛ والآخر كاهن تائه ، جون بول ، كان داعية الحركة ، يبشر بإصلاح اجتماعي وزارعي ينشده أكثر الثائرين فقراً ، وهم العمال المياومون المعدمون ممن لا أرض لهم . وأخذ عدد الفلاحين يزداد أكثر فأكثر ورفضوا الخضوع للقه الدوميني ، ووجدوا من يدعمهم لدى الحرفيين (الصناع) وعمال المدن .

وأصبح الثائرون بالفعل سادة لندن وتوصلوا حتى الملك ريتشارد الثاني الذي استسلم للقوة ، ووافق على إلغاء القنانة وتحويل جميع الفلاحين إلى أحرار مستأجرين . وبعد بضعة أيام ، أخذ على عاتقه قيادة الجنود وألقى القبض على بول وتايلر ونفذ فيها حكم الإعدام ، وألغيت جميع الامتيازات .

وهكذا سحقت الثورات في كل مكان بسرعة ، ووطد النظام الاجتماعي .

٣ - التكيف البطيء للاقتصاد المدني

مصاعب الاقتصاد المدني

هل أصابت الأزمة المدن كالأرياف ؟ مامن شك في أن التجار والحرفيين (الصناع) قد لاقوا في ممارسة نشاطاتهم مصاعب رصينة جداً في سياق القرن الرابع عشر ، فقد كان للحوادث السياسية والعسكرية انعكاساتها الأليمة على حياة المدن . فأكثر من مدينة كان من سوء حظها وبؤسها أنها أخذت ونهبت من قبل الجنود أو قطاع الطرق . فمن ذلك أن مدينة كن أخذت في ١٤١٧ م ودمرت جزئياً ، وقتل سكانها أو نفوا . ومثل هذه الحالة من التخريب والدمار كان في فيكامب .

وكان بإمكان المدن ، وهي في مآمن من أسوارها ، أن تأمل على الأقل في الغالب ، بأن تنجو من مصير فيكامب المحزن . ولكن التجار الذين غامروا على الطرق ، كانوا أكثر تعرضاً للنهب أو الفدية . حتى أن بعض الطرق هجرت ولم يسلكها أحد . فمن ذلك أن الأسواق الموسمية في إقليم الشامبانيا في فرنسا كانت واقعة في منطقة عديمة الأمن كثيراً ، فخلت وتدمرت . وعندئذ سلك التجار وادي الراين ، وما كانوا يسلكونه فيه دوماً بسلام .

ولم يكن الطريق البحري آمناً أكثر أيضاً ، حتى أن دوق بروتانيا تظلم لدى بلدية لوبيك ضد تاجر ألماني .

وكان بعض النقالين يحصلون من قطاع الطرق على إجازة مرور يدفعون ثمنها غالباً جداً .

وفي بعض الأحيان كانت العلاقات التجارية تنقطع . وبصورة عامة كان ذلك لزمناً قليل . لأن المشروع مدمر كثيراً جداً لكل من المنتجين والتجار الذين

يحرمون فجأة من المنافذ التي يصرفون فيها المنتجات ، وكذلك المستهلكين الذين يحرمون من الأغذية والمواد الأولية .

إن الحرب الفرنسية - الإنكليزية قدمت الكثير من الأمثلة على استعمال الأسلحة الاقتصادية التي كان العالم المدني وعالم الحرفيين والتجار ضحيتها . وهكذا في ١٣٣٦ م ، فرض الملك الإنكليزي إدوارد الثالث ، لقصاص الفلاندر ، التي بقيت وفية للمعسكر الفرنسي ، وإجبارها على التحالف مع إنكلترا ، الحظر على صادرات الصوف بالتخصيص إلى المدن الفلامندية . وقد تضايقت كثيراً هذه المدن من نقص المادة الأولية والبطالة التي نجمت عنها حتى أنها ثارت ضد الكونت في ١٣٣٨ م وكان زعيم التمرد من مدينة غانت واسمه جاك فان آرتفيلد الذي قبل بالانتقال إلى المعسكر الإنكليزي . وكسب إدوارد الثالث على الصعيد السياسي ، ولكنه دمر ، في إنكلترا نفسها ، أكثر من منتج ومن مصدر للصوف .

وإلى أضرار الحرب تضاف أضرار المالية التي ترتبط بها بصورة وثيقة . إن الثقل المالي لإرجاع الحصون إلى حالتها الأولى ، والغرامات التي يجب دفعها لقطاع الطرق ، أرهقت سكان المدن . وطوال القرن الرابع عشر والخامس عشر كانت الأموال المدنية محملة بالديون الثقيلة . كما كان رجال المصارف والتجار مضايقين بتعديلات مستمرة للعملة وعليهم أيضاً أن يسهموا طوعاً أو كرهاً بالمجهود الحربي لأمرهم بتقديم الإعانات . وأحياناً تأخذ العملية شكل (قرض) إجباري قليلاً أو كثيراً ، ولا يتأمن دفع هذا القرض إلا في حالة النصر . وإثر إخفاق العمليات العسكرية الإنكليزية الأولى على القارة ، وجد أن الكثير من الشركات الإيطالية ، وبخاصة شركات بيروزي وباردي ، التي كانت قد قبلت ، باعتمادات كبيرة إلى إدوارد الثالث ، قد منيت بإفلاس مدي (١٣٤٣ - ١٣٤٦ م) .

وكانت الاقطاعات الملكية تجري أيضاً بالطريقة المباشرة للضريبة التي أصبحت أحياناً ثقيلة جداً وانتهت بدمار تام للتجار . وأشهر مثال لهذه الممارسات

الدمرة هو (عرف الأصواف) الذي أسسه العواهل الإنكليز . ويراد بذلك رسم على الأصواف الإنكليزية المصدرة : أسس منذ ١٢٧٥ م ، ثم طرأت عليه زيادة شديدة في النصف الأول من القرن الرابع عشر حتى أنه مثل اقتطاعاً نحو ٣٥ ٪ ولذلك استحق اسم مالتوت (أي الطلب السيئ المستحق أو غير المستحق) . وكانت الرسوم تدفع في ميناء على القارة يراقبه الإنكليز . وابتداء من ١٣٥٣ م ، ثبتت محطة الصوف في كاليه . وأدت هذه الممارسات إلى انخراط بطيء لتجارة التصدير هذه : وقبل منتجو الصوف بصعوبة تخفيض أسعارهم في البيع الذي كان المصدرون يرجونه للحفاظ على هامش مريح كاف . وعلى القارة جاءت أصواف بديلة من ألمانيا وإسبانيا فغزت السوق . وبالمقابل ، في الحقيقة ، إن قسماً من البورجوازيين قد أفاد من نمو الضريبة ؛ وذلك أن عدداً من البورجوازيين قد أثروا كراقيين أو ملتزمي ضريبة المساعدات ، أو أمناء صندوق الخزينة . ومن جهة أخرى ، إن النفقات الحاصلة من نتاج هذه الضرائب ويراد بها نفقات البذخ والأبهة ، كانت تنشط فاعلية بعض المشاغل .

ومع ذلك فإن الفاعلية التجارية في مجموعها تشكو ، هي أيضاً ، من انقلاب الظرف الاقتصادي والديموغرافي (السكاني) . وفي عصر التقلص الاقتصادي ، الذي بدأ في فاتحة القرن الرابع عشر ، قلَّ في الغالب مجموع زبائن الحرفيين والمصدرين بعد أن أهلكته النوائب وافتقر . وفي الحين الذي يحقق فيه المتعهدون أرباحاً قليلة ، كانوا مضطرين لإعطاء العمال ، القليلي العدد أيضاً ، أجوراً مرتفعة .

نمو الخلافات الاجتماعية

إن الأزمة الاقتصادية التي ضربت المدن كانت مولدة للخلافات الاجتماعية . وفي الحقيقة ، إن البنية المدنية معقدة ؛ فقد تصادمت فيها مصالح متباعدة ومختلفة زادها الركود تفاقماً . لقد كان النزاع أولاً بين رجال الأعمال والصناعات . ورجال الأعمال هؤلاء كانوا يشاركون في التجارة الدولية الكبرى . ويؤمنون

تموين المدن بالمنتجات الغذائية والمواد الأولية . وهم أيضاً يصدرون إلى الخارج الإنتاج الفائض عن المدينة : فهم يحكمون إذن على عالم العمل كله . وبعضهم كان يعمل أيضاً بتجارة المال . فقد كانوا صرافين ، وأصحاب بنوك ، وهم الذين يلتزمون الضرائب ويقرضون المال للعواهل ، ويأخذون على عاتقهم تموين الجيوش . وفي القرون السابقة ، أمنوا لأنفسهم الرقابة على الإدارة البلدية ، وهذا يساعدهم على تعيين السياسة الاقتصادية في المدينة . وعلى هذا فإن مصالحهم تتجاوز في الغالب الأعم نطاق المدينة الضيق . وكانوا يرتبطون في عملياتهم التجارية بالأمرء ، ويحققون ربحاً من الحرب وتقدم السلطة الملكية ؛ وأعمالهم ذات الطابع الدولي أدت بهم إلى الرجاء بحرية التجارة . وأخيراً إن هؤلاء الرأسماليين يحاولون أن ينووا الصناعة الريفية التي يمكنهم بسهولة أكثر أن يملوا عليها شروطهم . وهذا البرنامج كله لا يمكن إلا أن يقلق الصناعات ، (الفنون) . ولدفاع هذه الصناعات عن مصالحها الخاصة حاولت الحصول على الأقل على المشاركة بحكومة المدينة . ومثل هذا الشيء قد تمّ في إيطاليا منذ آخر القرن الثالث عشر . وفي الفلاندر ، وألمانيا ، وسويسرا ، حصلت الصناعات في الكثير من المدن في القرن الرابع عشر على تمثيلها في المجالس بشكل أكثر أو أقل عرضاً حسب الحالات .

وتحت نفوذها اتخذت تدابير أقرت حماية مدنية شديدة . فالأجانب الذين يرغبون في الإقامة في المدينة لم يحصلوا على حق البورجوازية إلا بشروط دراكونية ؛ ودخول المنتجات الأجنبية التي يمكن أن تنافس إنتاج المدينة ممنوع بشدة . وفي الغالب تحرم المدن على المناطق المجاورة كل نشاط حربي منافس ؛ وهكذا فإن صناعة الأقمشة منعت في ١٣١٤ م حول مدينة غاند وحول بير . وكان بورجوازيو المدينتين المسلحون يجوبون الأرياف ويدمرون كل الصناعات التي يمكن أن يجدها في طريقهم . وهكذا دمرت صناعة الأقمشة الريفية في ترموند

وبوبرينغ . وفي داخل المدن وضع تنظيم أشد أكثر فأكثر : ويراد به إعطاء جميع الحرفيين الحظوظ نفسها في الأسواق ، وذلك بمنع تركيز الإنتاج لصالح عدد صغير ، وتحديد إنتاج كل صناعة لتجنب دمار الجميع والبطالة . وتوضح الأنظمة عدد الصناعات التي يمكن أن يملكها مشغل من المشاغل ، وعدد الخدم والصناع الذين يمكن استخدامهم ... وتحدد أيضاً وبدقة جداً النشاطات التي يكون لكل فن الحق في حصرها : ففي غاند ، في القرن الرابع عشر ، لا شيء إلا للجلد . يميز محضرو الجلود ، ودباغو الجلد الأسود ، ودباغو الجلد الأبيض ، والفراؤون الذين يعالجون جلود البلاد ، والفراؤون الذين يعالجون الجلود المستوردة .

إن سياسة المساواة هذه التي تسلكها الصناعات سيدة حكومة المدينة يجب ألا تضللنا أو توهمنا ، فليس فيها شيء من الديمقراطية . إن من يقول (تمثيل) الصناعات يقول تمثيل (المعلمين) (السادة) . ففي داخل الفنون (الصناعات) لا يقبل بأن يلعب العمال دوراً نشيطاً في الواقع : فالتنظيم الذي تمليه البلديات أو بناء على طلب هذه بأمر من الأمراء ، يجب أيضاً أن يسمح لبعض معلمي الصناعات (الحرف) بالحفاظ على امتيازاتهم والإبقاء على نفوذهم على جمهور العمال ، ويقصد بذلك أولاً قضية الأجور التي يضعها بوضوح جداً أب سان - مارتن دو تورنيه : « إن وفيات ١٣٤٩ م أهلكت ... الكثير من العمال من جميع الحرف حتى أنه وجد فيهم نقص كبير ... إن جميع العمال وعائلاتهم كانوا يطلبون أجوراً مفرطة » .

لقد حاول المعلمون إذن وضع تعرفه قصوى للأجور بإجبار العمال على العمل . ونظام العمال الذي أعلن في إنكلترا في ١٣٥١ م يتعلق أيضاً بعمال المدن .

وفي السنة نفسها اتخذت تدابير مشابهة في باريس وفي قشتالة ، ولما كان الكثير من العمال الذين ثبتت عزائمهم وفضلوا الانصراف للتسول أو أعمال الشقاوة

والعصابات ، (والمدن أيضاً كان لها متسولوها) فقد حددت براءات ملكية مدة يوم العمل .

وفي المدن الإيطالية وجد المعلمون ، أرباب العمل ، وسيلة لتنظيم عبودية حقيقية لكثير من العمال : فقد قبل المستخدم بسلفة مالية للعامل شريطة أن يتخلى هذا الأخير عن حقه في ترك العمل حتى التحرر الكامل من دينه . وفي ١٣٧١ م ، أعلن قانون فلورنسي أن العامل المدين حيال رب عمله لا يمكنه منذ الآن فصاعداً أن يوفي دينه بالمال وإنما بالعمل فقط .

أما الخدم الموضوعون في حالة تبعية فلا يستطيعون الخروج منها . ومن يرغبون منهم بأن يكونوا (معلمين) ، قامت أمامهم عوائق يصعب التغلب عليها أكثر فأكثر . ومنذ آخر القرن الرابع عشر ، كان على من يتطلع إلى (المعلمية) أن يقدم (رائعة من الروائع) أي (عملاً نفيساً) . بيد أن إنجاز مثل هذا العمل يتطلب كثيراً من الوقت وفي الغالب مواد أولية مكلفة جداً . ويضاف إلى هذا الشرط الأول الصعب القيام به أو إنجاز ، تضاف ضرورة دفع أتاوة ، إقامة مأدبة على شرف المعلمين الآخرين أو تقديم هدية إلى أخوية (رابطة) الشع من أجل مشعل الكنيسة الذي يستعمل لخدمة الرب ، وأحياناً ، أخيراً ، في بعض الحرف ، دفع مبلغ لضمان التنفيذ : فكم من الخدم كانوا في حالة تمكنهم من جمع كل هذه الشروط ؟ وبالمقابل ، إن أبناء المعلمين الذين كانوا في بعض الحالات معفين من (العمل النفيس) وكانوا على كل حال يستفيدون من دعم مالي من قبل آبائهم ومن تعاطف لجنة مؤلفة من المعلمين الآخرين ، كانوا متأكدين من الوصول إلى المعلمية .

وفي الخلافات بين رجال الأعمال الكبار ورجال الحرفة ، تضاف إذن في القرن الرابع عشر ، المعارضة العنيفة بين المعلمين والخدم . وقد بدأ هؤلاء الأواخر بـ (التآلب) والتفاهم بغية نضال مشترك . وللحصول على الاعتراف بتجمعاتهم

نظموا في الغالب هذه التجمعات تحت شكل (أخويات) (طوائف) منفصلة مخصصة للمقيام بعبادة قديس شفيع رب للعمل ، أو جمعيات معونات متبادلة .

وهذه الأخويات التي تملك صندوق ماليتها وحق انتخاب رؤسائها ، كانت تؤخر العمال بصلابة . وهؤلاء ، من جهة أخرى ، كانوا يرون عالمهم يتسع ، وفي الواقع ، في القرن الرابع عشر ، بدأ عدد من الخدم يرحلون من مدينة لأخرى لتحسين ثقافتهم التقنية .

وهكذا توطدت اتصالات بين الخدم من صناعة واحدة ، ومن مدينة لمدينة ، كما من جهة أخرى بين المعلمين الذين يرغبون في التفاهم فيما بينهم ليدافعوا عن أنفسهم بشكل أفضل . وفي الغالب تنفجر إضرابات ، وكان رؤساء الصنف المهني أو السلطات المدنية تحكم في الخلافات التي تنشأ بمناسبة الأجور . وفي الغالب يطرد المضربون ، ويبعدون عن المدينة ، لأن هذه التآلبات في نظر الحقوقيين المعاصرين (جريمة حصر رئيسية) . وأحياناً ، يأخذ الخلاف شكل ثورة دامية كما كانت الحال في آخر القرن الرابع عشر ، عندما اختلطت الاضطرابات المدنية في عدة مناطق بالثورات اليعقوبية (الجاكية) . وكان أحد الأحداث الشهيرة حركة ثورة الشحاذين التي جرت في فلورنسا في ١٣٧٨ م : فقد ضمت الثورة الفنون الصغرى (اللحامين ، الحذائين ، الحدادين ، عمال البناء ، والنجارين ، وتجار رخصة الألبسة) الذين يريدون توسيع إسهامهم في الحكومة المدنية ، والعمال ، وبخاصة عمال الصوف الذين يؤلفون فئة الشحاذين البائسة . وكان يوجه هؤلاء الأواخر أحد موجهي العمال ، ميشيل دو لاندو ، وشكلوا جنود الصدام في هذه الثورة الشعبية . فقد انطلق الجمهور يهاجم قصر الإمارة ، وطرد رؤساء الأديرة ، وأقام حكومة شعبية . وانتخب ميشيل دو لاندو حامل راية العدالة (٢١ تموز ١٣٧٨ م) وأحدثت ثلاثة فنون جديدة بعناصر شعبية (فن الشعب الصغير ، ويتألف بكامله من العمال غير المهرة) وأسهمت في الحكومة الجديدة . إلا إن

انتصار الثوار كان قصير الأمد : فقد عجزت الحكومة بسرعة . ولما لم يعد كبار أصحاب المصانع الفارين ولم يعطوا عملاً ، فإن العمال دون عمل ودون مال لم يغادروا الساحات والشوارع ، وحثهم المحرضون الشعبيون على زيادة مطالبهم . وقتل رؤساء الفنون الصغرى ، وذوو الميول المعتدلة ، وألّفوا جبهة مع رؤساء الفنون الكبرى ضد الثورة . وفي الأول من أيلول ١٣٧٨ م تفرق المتسولون في حرب الشوارع . وأعدم زعماء الثورة . أما ميشيل دو لاندو فقد كان موقفه غامضاً واستطاع الفرار . وعندئذ أمكن حذف الفنون الثلاثة الجديدة وأبعد ممثلو العمال عن الحكومة . وأخيراً ، وفي حرارة رد الفعل ، قضي أيضاً على الفوائد التي حصل عليها الصغار . وهكذا أخفقت المحاولة الديمقراطية نهائياً في فلورنسا . وبعدئذ أصبح آل الميديتشي سادة المدينة .

وفي العصر نفسه قامت مظاهرات مشابهة في الفلاندر : في غاند ، في ١٣٧٩ م ، حيث ثار الملاحون والحيّاك ضد الكونت . وهنا تدخل الجيش الملكي الفرنسي بناء على دعوة كونت فلاندر ، وأخذت الثورة : ففي ويست - روزبك سحق الحرفيون الفلامانديون (في ٢٧ تشرين الثاني ١٣٨٢ م) .

وفي فلورنسا ، كما في غاند ، وسين (١٣٥٥ - ١٣٧١ م) كما في ميتر (١٣٤٦ م) ، وفي إشبيلية كما في ستراسبورغ (١٣٣٢ م) ، أخذت الحركات الشعبية بسرعة . ويتضح إخفاقها بنقص التلاحم بين (البوبولاني) : لأن الشعب كان مؤلفاً من عناصر مختلفة من صغار المعلمين الحرفيين حتى العمال اليدويين البائسين . ولم يستطيعوا التفاهم زمناً طويلاً على برنامج مشترك . ومن جهة أخرى ، كانت المعارضات الاجتماعية تستعمل في الغالب لغايات خاصة . وهكذا ، في فلورنسا ، أعطيت الإشارة لثورة الشحاذين بموقف سيلفستر دو ميديتشي الذي حاول استخدام نجدة الحرفيين الشعبيين ليحذف من الحكومة الحزب الغلفي . وفي فرنسا أيضاً يلاحظ أن النزاع بين الأرمانياكيين

والبورغونيين قد أخذ ، في بعض المدن طابعاً اجتماعياً ؛ وعلى العموم ، انضمت الأحزاب الشعبية إلى البورغونيين ، لأن هؤلاء ، في المعارضة ، اتخذوا موقفاً سهلاً لمقاومة الضريبة ، بينما كبار البورجوازيين كانوا يعتبرون كالأرمانياكيين . ومنذ ١٣٨٢ م ، قبل أن تنفجر الحرب الأهلية ، حدثت ثورات ضد السلطة الملكية في المدن حيث كانت (العامة) تشكو من الأزمة الاقتصادية وتحمل الضريبة بصعوبة . وهذا ما كان في أصل ثورة المايوتين^(١) (المطرقيين) في ١٣٨٢ م في باريس .

كان القمع شرساً ، وتبنى الشعب الباريسي المقتاظ إثر ذلك القضية البورغونية .

تكيف الاقتصاد المدني

وبالرغم من كل هذه الصعوبات التي استطاعت أن تضايق الفاعليات المدنية ، فإن هذه الفاعليات لم تشك من انخفاض طويل وعام كالزراعة . وإذا شدت الحزام بعض أسواق الإنتاج والاستهلاك ، فقد ظهرت أسواق أخرى . وإذا خلت بعض الطرق التجارية ، فإن طرقاً أخرى انتظمت لأن القصد ، بالنسبة للحرفيين كما للتجارة ، توزيع جديد - صعب غالباً - للنشاطات أكثر بكثير من أزمة دائمة . ومن جهة أخرى ، إن صعوبات المنافسة ونقص اليد العاملة نشطاً نهائياً التقدم التقني والطرق الصناعية .

أ - التنظيم الجديد للإنتاج

وبالنسبة للحرفية كان المثال المقتنع عن هذا التكيف صناعة النسيج . ففي القرن الرابع عشر ، كانت أقمشة الصوف الإنكليزية تنسج في الفلاندر وتباع في

(١) المايوتيون : اسم أطلق على الباريسيين الثائرين في عهد شارل السادس ، لأنهم كانوا مسلحين بالمايه les Maillets (م ١٣٨٢) أي المطارق ذات الرأسين المصنوعة من الخشب القاسي جداً .

أسواق الشامانيا ، وفي الغالب تصبغ في المدن الإيطالية ، إلا أنها فقدت تفوقها القديم ؛ لأن هذا التنظيم انقلب كله : لقد منعت الحرب الفلاندر من أن تستورد بصورة منتظمة مادتها الأولية من إنكلترا . وأفل نجم أسواق الشامانيا الموسمية مع عدم الأمن ؛ وأخيراً كانت الزبائن تطلب صفات أخرى للنسوجات ، وكان الجمهور الفقير يفضل أقمشة أخف وأقل كلفة ، نسيج من صوف غليظ أو معطف قصير من الصوف . أما الممتازون بالثروة فكانوا يبدون استياءهم هم أيضاً ، من الأقمشة الثقيلة ويفضلون أقمشة أكثر فخاراً ومكلفة مثل الحرير أو القماش الرقيق المبطن بالفرو . وتطور الموضة يعبر عن هذه التحويلات في الطلب . وانطلاقاً من منتصف القرن الرابع عشر رجعت موضة الذكور إلى البدلات المنطبقة على الجسم . إلا أن المعاطف القصيرة المشدودة على القامة وتغطي الجسم من العنق حتى النطاق (الحزام) والسراويل اللاصقة بالجسم وتغطيه من الحزام إما إلى الركبتين وإما إلى القدمين ، لا يمكن قصها من القماش الغليظ .

وتكيفت المشاغل : فقد انتظم الإنتاج على الصعيد العام . وفي الفلاندر نفسها ، لم يكن الدمار عاماً . وفي الحقيقة ، إن مراكز صناعة الأقمشة الكبرى : غاند ، بير ، بروج ، كانت في ضائقة . ولكن الصناعة الريفية ، المعتادة على إنتاج أقمشة أكثر خفة من غيرها انتهت بأن تغلبت على غيرها ، كما هي الحال في هوندشوت . ومن جهة أخرى ، فتحت إلى جانب المدن القديمة المختصة بصناعة الأقمشة في الفلاندر نفسها ، مراكز إنتاج جديدة في المناطق المجاورة : هينوت ، وبرابان ، هولاندا . وفي خارج هذه المناطق القديمة التي استيقظت على النشاطات النسيجية ، نمت صناعة الصوف في عدة مناطق أخرى من أوربة : في إنكلترا ، أولاً ، كان الصوف الإنكليزي ، الذي تضرر على القارة بضربة تزيد سعره بـ ٣٠ إلى ٤٠ ٪ ، يغذي ، انطلاقاً من منتصف القرن الرابع عشر ، مشاغل محلية : صناعة الأقمشة الخفيفة ولكن من النوع الممتاز (كوستولدز ،

وورستودز ، كوفنتري بلو) غزت منذ النصف الثاني للقرن الرابع عشر ، أسواقاً عديدة ألمانية وفرنسية . وهذان البلدان لهما صناعتهما الأهلية الأصلية : ففي الإمبراطورية ، فريبورغ ، وفي فرنسا ، الشامبانيا ، والنورمانديا ، والبري واللانغدوك ؛ وفي إسبانيا ، الأراغونة والكاتالونيا تعملان الصوف . وفي إيطاليا ، عرفت صناعة الصوف بعض المصاعب في فلورنسا ؛ ولكن صفتها العالية احتفظت لها دوماً بأسواق حتى الشرق ، بينما ميلانو ، مانتو ، كريمون تخصصت بفضل المادة الأولية التي تأتي من إسبانيا ، في إنتاج الأقمشة الناعمة .

وهذا الانتشار لصناعة الصوف لم يمنع معامل أخرى من استعمال القطن ، والكتان ، والقنب والحرير من النماء . إن أقمشة الكتان من اللورين والشامبانيا تنافسها الآن أقمشة البلاد المنخفضة وألمانيا الجنوبية . وأقمشة القنب أو الكانوثا ازدهرت بها البريس وبلاد الغرب ، نورمانديا وبروتانيا ، اللتين تصدرانهما إلى إنكلترا وكذلك إلى شبه جزيرة إيبيريا . والقطن المستورد من المشرق عن طريق البندقية يمون صناعة الأنسجة القطنية الكتانية الجديدة في إيطاليا الشمالية (كريمون) وفي ألمانيا الجنوبية . والحرير أخيراً ، ظل اختصاصاً إيطالياً ، ونسيجاً على الموضة ، وأمن ثروة حرفيين من لوكا والبندقية .

ولمواجهة منافسة متعددة ، حاولت المشاغل تحسين تقنيات الإنتاج . وهكذا ، في صناعة النسيج ، استعمل دولاب المغزل الذي ظهر في آخر القرن الثالث عشر ونما ، بينما تحسنت الآلة : لأن دواصة الآلة تسمح بأن تطبع على المغزل حركة دوارة ، بينما تحتفظ العاملة بيديها الحرتين لسحب أو قتل الخيط ؛ وفي القرن الخامس عشر حصل تقدم جديد بمغزل ، مجهز بأجنحة صغيرة ، يمكنه أن يفتل الخيط على كركر بصورة آلية . ولعمل الحرير بخاصة وجدت اختراعات أفادت من بعد المنسوجات الأخرى : النول الميكانيكي لانحراف الحرير ، وهو نول محسن للنسيج يسمح بتنفيذ رسوم معقدة . وتقدمت قطاعات صناعية أخرى . إن أسرار

الصناعة التي طبقتها مورانو على الزجاج انتشرت في اللانغدوك ، وفي بوهيميا . واستعمل الزجاج أكثر فأكثر لتغطية الشبائيك في المدن ، ولصنع أواني ، ومرايا (زجاج مبطن بالرخاص ثم بالقصدير) . وفي الصناعة المعدنية التي تطلبها حاجات الحرب (الدروع المصفحة ؛ المدافع) ، كان التقدم أيضاً محسوساً كثيراً . فقد أمكن عزل المعدن وإنتاجه بكمية أكبر : إن الطرق الجديدة المطبقة على الفولاذات الثينة (الفضة) سمحت بمعالجة كميات هامة من فلذات الحديد : إن الفرن الكاتالاني في جبال البيرنيه ، وفرن القطع في أوربة الوسطى يجهز من ١٥ إلى ٥٠ طن من الحديد في العام . ومن جهة أخرى ، ظهر الفرن العالي . وفي هذا الفرن الذي يبلغ ارتفاعه من ٤ إلى ٥ أمتار توضع بصورة متوالية طبقات من الفلذ والحجر الكلسي وطبقات من فحم الحطب متوالية ، ثم يرفع الكل إلى درجة حرارة عالية ، ليعطي الصلب بالانصهار . وهذه المادة الجديدة تستعمل مباشرة لصنع المدافع ، والقنابل والصفائح أو تحول إلى حديد في فرن . وهذه الطريقة المخترعة أولاً في ألمانيا انتشرت في القرن الخامس عشر في اللورين ، وفي الشامانيا ونورمانديا .

ولكن نمو هذه الصناعة الجديدة مالم يثبت أن كبح بالاستعمال العظيم للأفران العالية ، التي سماها المعاصرون (هَوَات الغابات) .

ب - التحولات الجغرافية التجارية

إن الظروف الاقتصادية الصعبة حثت التجار على التنظيم من جديد ودون انقطاع لطرقهم التي يسلكونها وتحسين طرق البيع . وظل البحر المتوسط والبحار الشمالية الملتقين الكبيرين للتجارة البحرية ؛ ولكن المبادلات ليست من الطبيعة التي كانت في القرن الثالث عشر . لقد بقي البحر المتوسط نشيطاً جداً وأثرت الموانئ الإيطالية بفضل التجارة مع الشرق . وحتى آخر القرن

الرابع عشر ، كانت المحطة الأساسية لهذه التجارة تتألف بالبحر الأسود . وتجهت جنوة والبندقية في كافا في القرم ، في طرابزون ، وتانا في أعماق بحر آزوف : وتجارها يأتون إلى هذه الموانئ يبحثون عن منتجات المناطق المجاورة ، حنطة السهول الأوكرانية ، فراء وخشب روسيا ، الملح والأسماك المملحة والكافيار من الساحل . وفيها ينتظرون أيضاً وصول منتجات الشرق الأقصى الآتية من الهند أو من الصين : حرير ، توابل . غير أن انهيار الإمبراطورية المغولية وغارات تيمورلنك المدمرة ضربت الضربة القاضية هذه التجارة في آخر القرن الرابع عشر . واضطرت المدن الإيطالية ، من أجل المنتجات البعيدة ، أن توسط المسلمين وتتمون في بيروت أو في الإسكندرية . وهذا هو الاتجاه الذي اختارته تجارة البندقية المتخصصة في استيراد المنتجات المكلفة ، الفلفل ، الزنجبيل ، القرفة ، جوزة الطيب (جوز بوا) . وانتهى الأمر بالبندقية فحصلت على نوع من حصر الفلفل (البهار) . وكان الأساسي في سفن الشحن الجنوبية ، بالعكس ، يتألف من منتجات آتية من العالم التركي في آسيا الصغرى : حجر الشب من تركيا (فوسيه . كارايسشار) الذي يعاد تصديره إلى بروج ، والمملونات ، والقطن التركي . وفي جزيرة كيو أسس الجنويون مستودعاً ضخماً حيث يأتون ويتمنون . وبدأت أيضاً البندقية وجنوة تتجهان نحو المتوسط الغربي حيث توطدت علاقات مع جزر وشاطئ إفريقيا الشمالية وحيث ، من جهة أخرى ، نابولي وبالرمو في إيطاليا ، بارشلونة وقلانس ومايوركا في شبه الجزيرة الأيبيرية ، استيقظت على تجارة قصيرة المسافة تتناول بخاصة المنتجات الغذائية . وفي الطرف الآخر من العالم الغربي ، كان بحر الشمال والبالطيك إطاراً لتجارة كثيفة تسيطر عليها الهانسان الألمانية . إن الهانسانات أو الأصناف الحرفية كانت ، في الأصل ، رابطات بسيطة لتجار من مدينة واحدة ، أخويات دينية وجمعيات نجدة متبادلة معاً . ومنذ القرن الثالث عشر ، في لندن كما في الأسواق الفلاماندية ، أسس تجار من عدة مدن رابطات أوسع لحصر جزء من التجارة . وفي ألمانيا عرفت هذه المنظمات

نجاحاً أكثر من غيرها وأخذت طابعاً جديداً . ودون أن تصبح اتحاداً (كوندريالياً) سياسياً ، كان بإمكان الهانس الألمانية المؤلفة من أغنى تجار ألمانيا الشمالية وريانيا وأعظمهم نفوذاً ، التصرف بالنفوذ الدبلوماسي وبال حقوق العسكرية لهذه المدن لتفرض نفسها . وكانت الهانس التوتونية قوية بسبعين مدينة تسيطر عليها لوبيك وهامبورغ ، وانتصرت في القرن الرابع عشر : وبال قوة وضعت نهاية في إسكاندينايا للمنافسة الدانماركية ؛ ومعاهدة شترالسوند ، التي أبرمت ، أنهت حرباً طويلة أمنت لها حصر التجارة عبر المضائق التي تصل البالطيك وبحر الشمال ؛ وبصورة سلمية نجح التجار الهانسيون في موانئ إنكلترا والبلاد المنخفضة . ويتناول نشاطهم المبادلات شرق - غرب من المنتجات المصنوعة أو الثينة مقابل منتجات خامية . وفي موانئ بحر الشمال يحملون الأصواف والأقمشة الإنكليزية في لندن ، هل ، بوستون ؛ وفي بروج ، الأقمشة الفلاماندية يضاف لها التوابل المجلوبة على يد التجار الإيطاليين . وعلى سواحل البالطيك ، يأتون للبحث عن الحديد ، والحريز ، والفراء ، وأسماك إسكاندينايا ؛ والحبوب والأخشاب ، والزفت و (القطران) والعنبر من ألمانيا الشرقية وبولونيا . ويمونون البلاد الشرقية بالمنتجات المصنوعة وأيضاً بالملح الذي يصدرونه من ممالح لونيبورغ . وفي جميع المراكز الاقتصادية الكبرى ، في نوفغورود ، ولندن ، وبروج ، وبرغن أو أوصلو ، كان للهانسيين مؤسساتهم التجارية : والتجار الألمان الذين استقروا فيها كانوا متجمعين في شارع أو في حي ويلتحق بهم الحرفيون الآتون من ألمانيا . وانطلاقاً من بداية القرن الخامس عشر بدأ الهانسيون يصطدمون بمنافسين جدد ، التجار الإنكليز ، الذين دفعوا بنهوض صناعة الصوف . وظل التجار الألمان يختلفون إلى لندن ، ولكنهم كانوا فيها ضحايا ، في الغالب أكثر فأكثر كالإيطاليين أو الفرنسيين ، الحركات المعادية للأجانب التي ضاعفت ضدهم المزعجات والمنكدرات . وانتقل الأساسي من تجارة الإنكليز لأيدي التجار المغامرين : وكان هؤلاء يصدرون إلى جميع الأسواق

الأقمشة الإنكليزية ؛ ويذهبون حتى آيسلاند للبحث عن السمك المملح الذي يبادلونه مقابل الحبوب وقماش بروتانيا ونورمانديا . وتغامر سفنهم أيضاً في البالطيك وتأتي إليه بالملح ، والقصدير والأقمشة وتشتري فيه الأخشاب . والخلاف المحتم مع الهانس كان ملحوظاً بحرب القرصنة والاستيلاء على السفن ، والأخذ بالثأر . وفي ١٤٤٧ م حذف امتياز الهانسيين في لندن . وسيتوطد في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، عندما اضطرت الهانس المغلوبة إلى التخلي عن وضعها الممتاز في بحار الشمال ، وبدأت دولة اقتصادية ثالثة آنذاك تثبت فيه أقدامها : وهي دولة هولاندا . وكانت صناعة الأقمشة فيها أيضاً في أصل النمو التجاري . فقد كانت سفن أمستردام وروتردام تختلف إلى أنفرس وبروج بل وحتى موانئ البالطيك .

إن كل هذه التحولات لم تغير مع ذلك تفوق ميناء بروج في شمالي أوربة . وحتى منتصف القرن الخامس عشر ، بالرغم من مصاعب الصناعة الفلاماندية وتراكم الرمال في مصب زوين فقد ظلت المدينة المضاعفة بالميناء الأمامي للسد ، أكبر ملتقى تجاري للشمال . وهذه الثروة الدائمة مرتبطة بتجارة المرور الناشئة في النقطة التي تلتقي فيها تجارة البحر المتوسط والتجارة الشمالية . فعلى أرصفة الميناء تصاقب السفن الإيطالية ، حاملة البضائع الشرقية التي يعاد توزيعها أيضاً في إنكلترا وعلى القارة . وفي بروج أيضاً تحافظ الهانس على أهم مركز لها . والتجارة الأطلسية التي تعيش منها بروج أفادت من أفول أسواق الشامبانيا . ولكن الظروف السياسية لا توضح وحدها نهضة بروج : ففي ١٢٧٨ م ، منذ أن نظمت الرحلات الأولى المنظمة بمضيق جبل طارق ، دخلت التجارة البحر المتوسط وتحولت الفلاندر . فالأقمشة والتوابل الخفيفة كان بإمكانها أن تسلك طريق الشامبانيا بسهولة . وفي القرن الرابع عشر كانت المنتجات المتبادلة بين البلاد الفلاماندية وإيطاليا ، منتجات ثقيلة يناسبها النقل بطريق الماء وحده .

وأقمشة وأصواف إنكلترا والفلاندر ، والتوابل ، والحرائر ، والقطن الآتية من الشرق تحتل في الواقع مكاناً ضيقاً في سفن الشحن . وكان حجر الشب يحمل بشكل ثقيل على السفن الجنوبية . وكذلك المنتجات الزراعية من جنوب فرنسا .

لأي حد أسهمت البلاد الواقعة على السواحل في نهضة الطريق الأطلسية ؟ لقد ظلت أنقرس زمناً طويلاً ضحية تنافس بروج ، بيد أنها رأت انطلاقاً من فاتحة القرن الخامس عشر تدويل تجارتها . وعرفت الواجهة البحرية الفرنسية نشاطاً حياً ولكنها لم تدمج في التجارة الإيطالية : لقد كانت تجارة انتقال بين الموانئ تربط الموانئ الفرنسية بالموانئ الإنكليزية أو الفلامندية . وتصدر بوردو وبايون عظم لوراغيه ، ولاروشل حنطة پواتو والشارانت ؛ وبوردو ولاروشل ، الخمر الأكيثانية . وفي جون بورنيوف تأتي سفن الشمال للبحث عن الملح . وبالمقابل ، البرتغال ولاسيا القشتالة أفادت عن سعة من غو التجارة الأطلسية . كانت السفن الإيطالية تحط في إشبيلية وفي قادس ، وتحمل فيها المنتجات الزراعية لشبه الجزيرة : حنطة ، خمر ، زيت ، وسمك الطون والفلذات المعدنية مثل الزئبق . وفيها استقر العديد من التجار الإيطاليين للإسهام في تجارة الأندلس مع إفريقية . وكانت إشبيلية السوق الأساسي للذهب السوداني . والملاحون القشتاليون والباسك بدورهم انضموا إليهم : فقد وضعوا سفنهم في خدمة المدن الإيطالية الكبرى ، فلورنسا وجنوة ، لنقل الحبوب والصوف المخصصة لإيطاليا . وعلى هذا النحو تهيأت الثروة الأيبيرية .

وأمنت طرق برية أيضاً محطة أسواق الشامبانيا ، ثم انتقلت نحو الشرق متبعة حدود مملكة فرنسا أو سالكة بين لومبارديا والفلاندر جبال الألب ووادي الراين . وبوادي الرون تنتقل « الأقمشة الخام » ولاسيا الزعفران ، التابل الغربي الذي ينعش مطبخ الفقير . وفي أسواق ليون وجنيف ، يبيع التجار الإيطاليون الحرير ، وخيوط الذهب والفضة ، والخمّل والبروكار . ولكن ألمانيا الجنوبية

- ٤٠١ - تاريخ العصر الوسيط ج ٢ (٢٦)

بصلتها مع بلاد الهانس ومع لومبارديا ، عرفت تجارة نشيطة أكثر من غيرها : إن نورامبرغ الواقعة على مقربة من مناجم بوهيميا ، تسيطر على تجارة المعادن : النحاس . القصدير ، الفضة خاصة ، والمنتجات الصناعية المعدنية (البرونز ، المدافع ، الأسلحة ، الدروع المصفحة) . إن تجار مدينة الفضة هذه هم أيضاً ماليون ؛ رافنسبورغ توجه عمل نسيج القطن والكتان والقنب في المنطقة كلها من بحيرة كونستانس وسواب العليا ، وتبسط شبكتها التجارية على الغرب كله . وفي ثلثها ، أوغسبورغ ، وفرانكفورت ولاييزيغ نمت بوتيرة سريعة . والتجار الألمان حاضرون في إيطاليا ، في البندقية ، حيث ، يتقايضون في مؤسسة تيديشي القطن الشرقي مقابل الفضة ؛ وفي جنوة حيث يسيطرون على تجارة صوف إسبانيا . وفي بروج وفي لوبيك يبيعون المنسوجات والمعادن .

جـ - تحسين التقنيات المالية

وللتكيف بشكل أفضل مع الظروف الجديدة للتجارة الدولية ، كان على التجار أن يحسنوا تقنياتهم . ولقد بدا بعض التقدم في صعيد النقل البحري . ففي الموانئ الكبرى ، كان الذين منهم على رأس النقل إلى مسافات كبرى قد أنشؤوا سفناً قوية أكثر فأكثر . ففي بحر الشمال ، يمكن للسفينة (لاهولك) في القرن الخامس عشر أن تنقل شحنات أضخم من السفينة (الكوج) . وفي البندقية صنعت السفن التجارية ، وهي ذات سعة أعلى من سعة السفن (الغاليرات) البسيطة ومجهزة بمجاديف تنوب مناب الشراع في المناورات الدقيقة . ولتجارة الأطلسي ، تبنت جنوة السفينة (النيف) أو (كارك) وهي أيضاً أهم : فجوانبها المستديرة ، وغشاؤها المرتفع تساعد على تحميلها حجر الشب عالياً . وكل هذه السفن تجابه شدة الشتاء ، ولكنها تظل تتابع السواحل التي تجهزها الخارطيات البحرية برسمها (في آخر العصر الوسيط وعصر النهضة وتدل على موانئ السواحل) . وكان إنشاء هذه العمار الضخمة ، خاصة بالورشات البحرية

في بعض الموانئ الفخمة ، الغنية بخاصة . وفي الواقع ، يجب أن يؤق من الشمال أو من الجبال بكيات ضخمة من الخشب ؛ وإلى نفقات البناء تضاف نفقات التسليح وأخطار القراصنة . وهذا أيضاً من شأن الرأسمالية : رؤوس أموال الدولة كما في البندقية ، رؤوس أموال خاصة كما في جنوة . وكما في العصر السابق ، تقسم السفينة في الغالب إلى حصص قابلة للتفاوض . واستغلال السفينة كان موضع مضاربة بالنسبة للمساهمين الذين يعهدون بسفينتهم إلى قبطان . وبالمقابل ، تركت الساحلة للأساطيل الصغيرة في الموانئ الصغيرة : فقد كانت المراكب الصغيرة البروتانية والباسكية والكاتالانية تنقل المنتجات الأصلية للبلاد أو تؤجر خدمتها في الموانئ الكبرى .

وتقدمت (التقنيات الفكرية) في التجارة بسرعة جداً ، وتثقف تجار المستقبل في الغالب بثقافة متخصصة ، ولا سيما في إيطاليا ؛ فبعد المدرسة الابتدائية ، كانوا يختلفون إلى دروس الحساب (مدارس تعليم الحسابات بالخطوط البيانية) التي تفتحها البلديات أو الأصناف المهنية : وتدرس فيها النقود ، وقضايا القطع (الصرف) ومسك دفاتر الحسابات . وحررت كتب يدوية مثل (الكتاب العملي في التجارة) الذي كتبه ممتن من عائلة باردي ، بالدوتشيو بيغولوتي (١٣٥٠ م) حيث وصف كل النشاط التجاري لعصره . ومنذ القرن الرابع عشر ، يرى ، في المشاريع الكبرى التجارية ، ظهور اهتمامين جديدين : الاهتمام بالاستعلام السريع والاستعلام بوضوح الحسابات . وكان على مديري الفروع والمستخدمين في المحال التجارية ، في الواقع ، أن يوجهوا بصورة منتظمة إلى أرباب عملهم رسائل تعلمهم في أصغر التفاصيل عن الظروف الاقتصادية والسياسية مع قوائم أسعار مطبقة ، وبضائع مصدرة أو مستوردة .

وكان متعهدو التجارة يهتمون دوماً بمجرى جميع الحوادث الخارجية ، وبالمعرفة التامة ، وفي كل لحظة ، لوضعهم المالي الخاص . وبذلت جهود لتحسين

الكتابة الحسابية . وعلم مسك الدفاتر التجارية المزدوج جزئياً ، ويطبقه تجار فلورنسا منذ آخر القرن الرابع عشر ، ووصل في القرن الخامس عشر مدناً إيطالية أخرى ، يستجيب لهذه المتطلبات . ففي القرن الثالث عشر يكتفى بأن يسجل ، على دفتر يمك حساب نظام زمني ما يخرج من الصندوق وما يدخل إليه ؛ ولكن مع نمو الاعتماد وتأسيس الفروع ، أصبح من الصعب جداً رقابة هذه العمليات بسرعة . ولذا فإن شركات الأعمال الكبرى بدأت تمسك سجلاً ، حيث ، باسم كل زبون أو شريك ، يسجل على صفحتين متقابلتين ماعليه ، وماله . وهذا القسم المزدوج يسمح بعمل موازنة حساب في كل حين .

وأخيراً تقدمت التقنيات المالية أيضاً في اتجاه التبسيط الخاص لمعالجة نقص العملة . وكان نمو البنوك في أصل هذه التحسينات . إن الصرافين اليدويين الذين تلقوا ودائع من زبائنهم ويستطيعون إعطاء قروض ، أو رجال الأعمال الأغنياء ، هؤلاء هم أصحاب المصارف الخاصة . وفي إيطاليا وجدت مصارف عامة منذ القرن الرابع عشر . وقد تألفت بمشاركة دائنين من المنطقة قبلوا بتقديم قروض إجبارية كثيراً أو قليلاً . ثم قويت هذه البنوك ، وكان أهمها (بنك القديس جورج) في جنوة . وهذه البنوك ، خاصة أو عامة ، تقبل الودائع ، وتخول القروض ، وتسهل المعاملات التجارية الهامة . وبنظام التحويل ، ينتقل مبلغ من المال ، دون تعاطي النقد باليد ، من حساب زبون إلى حساب زبون آخر . ولهذه العمليات تكون وحدة النقد مرتبطة بقيمة القطعة الذهبية وثابتة . ويشارك بالنشاط المصرفي أيضاً استعمال الشيك ، وهو أمر بدفع محرر ، أي مكتوب لصالح شخص آخر ، بسند حوالة (سفتجة) ، كما يدل اسمه ، يضيف عملية تحويل العملة لأمره بالدفع . مثال ذلك : تاجر مسافر يرغب في ألا يحمل معه مبالغ ضخمة ، يجهز نفسه بشيك مسحوب على المكان الذي يذهب إليه وبعملة هذا البلد . وإلى عمليات الاعتماد هذه ، يضاف أخيراً ظهور التأمينات البحرية في جنوة .

وهذا التطور جرى لصالح بعض شركات الأعمال الكبرى التي كانت كلها أيضاً إيطالية تقريباً . وعقود الشركة أو المشاركة تختلف حسب المدن . وتجري دوماً عقود غير مقبولة إلا لعملية تجارية واحدة ورحلة واحدة . ولكن في جنوة وفي البندقية ، وفلورنسا بخاصة ، تأسست شركات تجارة تبدي مواصفات جديدة : مثل البيوتات الفلورنسية الكبرى : باردی ، بيروزي ، ثم بعد اضطرابات آخر القرن الرابع عشر ، الميديشي وستروزي ، وهي هيئات ذات طابع عائلي وثابت . والاسم الاجتماعي هو اسم عائلة موجهة ويتجدد العقد كل ستة أو سبعة أعوام . والأرباح توزع حسب رؤوس الأموال . وأخيراً ، تهتم هذه الشركات بكل أنواع الأعمال ، وتقيم لها فروعاً في الخارج :

وبالإجمال ، وعبر الصعوبات والأزمات ، يرى ظهور أشكال جديدة للإنتاج والمبادلات ، وتوزيع مختلف للنشاط الاقتصادي تنبئ وتهيئ قلب أوضاع المجتمع في آخر العصر الوسيط .

الفصل الثالث

عصر الاضطراب والقلق

الأجيال التي عاشت في القرن الرابع عشر وفي النصف الأول من القرن الخامس عشر ، وعرفت دون انقطاع النكبات العسكرية ، ونهب قطاع الطرق ، وفتك وباء الطاعون ، وأهوال الجوع ، كانت تساورها اضطرابات عميقة . ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يبدو فيها الغرب في حالة ضياع : ففي القرن العاشر ، كادت الحضارة أن تبعد تحت ضربات الهونغاريين والنورمانديين والمسلمين . ولكن أمواج الخوف التي كانت تهز الضمائر آنذاك كانت ردود فعل فظة وبدائية على الأخطار الخارجية التي فسرت أحياناً كمؤشرات لنهاية العالم . وما أن أبعدت هذه التهديدات ، إلا وقام الناس ، مفعمين بالحياة والأمل ، برفع الدمار . أما الأفكار الأكثر تطوراً في القرن الرابع عشر ، فإن القلق كان بالنسبة لها أكثر ختلاً وأكثر خطورة : لأن المجتمع الغربي يبدو أنه كان يشكو ألماً داخلياً ؛ ففي هياج الحروب ، كان المسيحيون يقاتل بعضهم بعضاً ؛ وفجأة ، ودون سبب ظاهر ، وفي عز الوفرة ، انفجرت أزمة اقتصادية .

وهذه الأوبئة التي تحل دورياً على البشرية ألا تنضب نسغ الحياة ؟ ويشير المؤرخون بشكل يلفت النظر إلى أن الجنس البشري بدأ ينحدر طبيعياً ومعنوياً .

كان لدى معاصري حرب المئة عام انطباع في أنهم يعيشون في عالم هرم بدأ الزمان فيه ينخر البناء الذي شاده رجال القرون السالفة . لقد خمدت الهممة ، وعمّ

التشاؤم ، وسيطر لونها على أدب العصر : كان بترارك ينهل كآبته من عاطفة تقول بأن جميع الأشياء قريبة من نهايتها . وذوق الفنانين المرضى ، الذي يرسم فترة الموت على وجوه الأحياء ، كان ذوق عالم يعتقد بأنه يشهد نزاعه الخاص .

وتأثر المؤرخون المحدثون بهذه الشواهد العديدة وطاب لهم الإصرار على أقول العصر الوسيط المنتهي ، والإشارة إلى شلل الحياة الفكرية ، واضطراب العاطفة الدينية ، وعجز الأسلوب الغوطي الذي يكرر الصيغ نفسها بتعقيدها . وليس ذا إلا وجهاً من وجوه ذلك العصر المعقد . وكان القلق فيه أيضاً مصدر تجديد عميق . ففي الأسئلة التي تعرضها بعض الأفكار على نفسها ، تبحث عن الأجوبة في اتجاهات جديدة ، و (الحساسية) - هذه الكلمة ظهرت بدلالاتها في اللغة الفرنسية في القرن الرابع عشر - أثرت بألوان جديدة . ووضحت آمال نهضة ..

وحول مصير الكنيسة ، التي كانت حياتها مهددة بصورة خاصة ، تعتقد هذه الهموم وهذه الآمال .

تجسدت حياة الكنيسة بين ١٣٠٠ و ١٤٥٠ م انعكاس مختلف الأزمت التي عانت منها حياة القرن . فأمام التقدم العثماني ضاق المدى الجغرافي على العالم المسيحي ، وأخذ ينطوي على نفسه بعد ضياع الدول اللاتينية في فلسطين ، وبعد إغلاق طرق البعثات التبشيرية في آسيا الوسطى . لقد انفصمت الوحدة المسيحية بالحروب التي أقامت الأمراء المسيحيين ورعاياهم بعضهم على بعض . فهل يمكن للقيم الروحية ، التي تحاول الكنيسة تشييدها أن تظل سارية بعد في عصر يكون الأساسي فيه بالنسبة للمؤمنين كما للأكليروس العيش على المجاعة ، والأوبئة وشراسة الجنود وقطاع الطرق ؟

وأكثر من ذلك أن بنية الكنيسة ، المعتبرة كصرح زمني ، ومحتوى العقيدة طرحا على بساط البحث . أولاً ، إن الأحبار العظام ، بإقامتهم في مدينة

آفنيون ، هجروا روما العاصمة التي خصصها التقليد الرسولي للمسيحية : فهل الكنيسة بعد أن عدلت عن كونها رومانية يمكن أن تبقى عامة ؟ فضلاً عن ذلك وضعت بحدة ، لأن كل تطور القرون السابقة جعل من أسقف روما زعيم العالم المسيحي بعد أن أصبحت الكنيسة ملكية في القرن الثالث عشر . ولكن عقب النفي في آفنيون ، والانتخاب الحبري في ١٣٧٨ م ، الذي كان في أصل (حيدة الغرب الكبرى) ، اتجهت هيئة الكرادلة ، والجامعات ، وأخيراً المجمع الديني شطر تحويل حكم الكنيسة إلى نظام أقلية (أوليغارشية) . وبصورة موازية ، إن نشأة الدول الوطنية وضعت بشكل جديد قضية علاقات الروحاني والزمني ؛ حتى أن الجهود التي بذلها الإمبراطور لتوكيد تفوق سلطته على سلطة البابا أصبحت منذ الآن للماضي . فلا هذا ولا ذاك استطاعا تحقيق وحدة العالم المسيحي .

وظهرت كنائس وطنية ، مثل الكنيسة الغاليكانية ، والكنيسة التشيكية ، طالبت بالاستقلال الذاتي . لذا اقتضت الضرورة القيام بإصلاح عام . فهل البابوية التي نوزعت سلطتها على صعيد نظام الكنيسة ، بل وعلى صعيد العقيدة ، قادرة على أن تأخذ بيدها زمام المبادرة لهذا الإصلاح ؟

١ - الفاترون والنشيطون

دمار الكنيسة

لقد اجتازت الكنيسة أزمة معقدة جداً في سياق القرن الرابع عشر وفي النصف الأول من القرن الخامس عشر . فمن جهة ، شجعت الفتن والاضطرابات ، شأنها دائماً ، تراخي الأخلاق وتدني النشاط الفكري عند قسم من الأكليروس والمؤمنين ؛ ولكن المحن ، في الوقت نفسه ، التي كانت تثير الحساسيات ، أسهمت في الإبقاء على توتر روحي عظيم : فقد شعر العديد من المسيحيين بنقص الممارسة الدينية وأعربوا عن تمنياتهم بإصلاح جديد للكنيسة .

نقص الإطار الأكليري

إن حالة الحرب المزمنة ، والأزمة الاقتصادية والسكانية أضرت بالكنيسة : على الصعيد المادي بادئ بدء . فقد أفقرت كالقسم الأعظم من الأمراء العلمانيين ، بخفض الموارد الدومينية ، وأعمال التخريب وخلو السكان . ومن المؤكد أنه من غير الممكن التعميم : لأن بعض المناطق قد توفرت وسلمت وكذلك بعض عناصر الأكليروس . فقد أفادت أنظمة المتسولين ، والكنائس المدنية من هبات عريضة ومن تراث تقي أوحى به الخوف من الجحيم إلى الأثرياء ساعة الوفاة ، وتوصلت في الغالب أيضاً إلى زيادة رأسها العقاري . ولكن كم من الأديرة كانت تطالب بتجيم عدد رهبانها لأنها لا تستطيع إطعامهم . وكم من المؤسسات الدينية ، وبخاصة بين الأنظمة القديمة ، كانت تتوسل لإعفائها من الرسوم ؛ ولمقاومة الضائقة المتعاطمة ، حصلت في الأغلب كنيسة ريفيتان متجاورتان على ترخيص بالاتحاد وعدم إقامة أكثر من خادم واحد . ولا محالة من أن نظام الأكليروس وأخلاقه قد شكت من حالة الأمور هذه . ولما كانت الموارد التي يحصل عليها بانتفاع واحد لا تساعد على تأمين حياة صاحب الحق في أكثر الحالات ، فقد أصبح تراكمه ممارسة جارية . وقد احتج ويكيليف في إنكلترا ، في آخر القرن الرابع عشر ، على هذه المساوئ واضطر ليعيش أن يمتلك لنفسه كثيراً من الموارد والدخول . والفضيحة تكون أعظم عندما يكون القصد أحباراً سماناً يجمعون ، دون أن يكون لهم نفس العذر ، عدة انتفاعات هامة . وباعتبارهم من الطبقة النبيلة التي يشاطرونها ذوق البذخ ، كانوا يحاولون احتكار أغنى الموارد ، بالرغم من تعدد ثروتهم الموروثة . وهكذا كان رينيول دو شارتر ، الرئيس الأعلى للعدلية لدى شارل السابع ، رئيس أساقفة رنس وأسقف ماندهم . وفي الوقت نفسه ، اعتاد عديد من الأساقفة على تمديد زيارتهم ، (على عتبة) القصر الحبري حيث انتهى بعضهم بممارسة وظائف دبلوماسية وإدارية بصفة دائمة ، وبما أن

آخرين منهم كانوا أعضاء في المجلس الملكي أو البرلمان ، فإن الغياب كان مفسدة من أعظم مفسد العصر . وأفضل أسقف لا يمكن أن ينقسم بين أبرشيتين أو بين وظيفتين . ولذا يصل به الأمر إلى التخلي عن واجبات وظيفته التعليمية لدى قطيع المؤمنين ، ويتخلى عن أكليروس الأبرشية دون إشراف ودون موجه ؛ إن مشاكل الإدارة تكفي لاستيعاب القليل من الوقت الذي يستطيع تخصيصه لكنيستته . وماذا يقال عندئذ عن الأخبار السيئين ، والأكليركيين الذين ، حسب نيقولا دو كلامانج ، مؤلف كتاب ربما يكون متشائماً بمبالغة من (دمار الكنيسة) ، لا يخضعون بشيء للقانون الإلهي ، ولا إلى فقه الروح الذي يجب أن يتعلم به الشعب في سبيل خلاصه الأبدي ؛ إن الدراسة بالنسبة لهؤلاء الناس سخرية واستهزاء .

وفي الحقيقة عندما لا يستطيع الأسقف القيام بوظيفته بنفسه ، يندب نائباً عنه حسب نظام التكليف . ولكن هذا النائب ، الذي لا يقبض إلا جزءاً من الموارد ، كان في الغالب يقوم بعمله بغيرة معتدلة جداً . ولا عجب إذا اقترحت بعض الأفكار ، حذف منصب الأسقف بكل بساطة .

إن اللوحة التي يمكن رسمها عن إكليروس الخورية ليست أكثر لمعاناً وإشراقاً . ومع ذلك فن الضروري التمييز بين الخوريات المدنية والخوريات الريفية . فالأولى منها أكثر تفضيلاً : لأن المدن بأسوارها ، التي تقدم الحماية للنشاط الاقتصادي والفكري ، تجذب وتحتفظ بأفضل عناصر الأكليروس ؛ والزمنيون منهم الحاصلون على درجات جامعية قلما تغويهم الوظيفة الريفية ؛ فهم يفضلون على المؤمنين ، غير المثقفين من الأرياف ، الوسط البورجوازي المثقف . وفي المدن أيضاً استقرت في القرن السابق ، أنظمة المتسولين ، ففيها ، يسجل مؤرخ معاصر ، جيل الأعمى ، « توجد كل كيرجية (أي كل علم) ، دكاترة خبراء وحكماء في اللاهوت » . وإذن فالقطيع المدني أفضل رعاية . إن

ظهور كراسي ثابتة خشبية أو حجرية في آخر القرن الرابع عشر في الكنائس الخورية يوحى بأن الخوارنة أو الوعاظ ، الذين يدعون يهتدون بعناية كبرى في تعليم المؤمنين بوعظهم . أما الحالة في الأرياف فأضعف من ذلك بكثير : لأن الأكليروس كان فيها في الغالب مبعثراً بسبب الحرب ؛ أو أن الخورية ، التي تكون مواردها مخصصة لإعاشة طالب في اللاهوت ، يقوم عليها نائب قليل الكفاءة . وفي الواقع ، إن الأكليركيين القليلي الموهبة ، الذين لم يستطيعوا في المدرسة الأسقفية أن يتعلموا إلا بعض مبادئ اللغة اللاتينية وبعض الصيغ الليتورجية ، هم الذين يمارسون وظيفتهم بين الأجلاف . وللعيش ، كانوا في الغالب مضطرين إلى ممارسة حرفة مثل حرفة كاتب العدل أو مساق (مستأجر) على دومين أميري . لقد كان هؤلاء يعيشون في ظروف مادية ضعيفة ، معزولين وسط مؤمنين أكثر جهلاً منهم أيضاً ، ولذا كانوا ينسون بسرعة المتاع الفكري الهزيل الذي استطاعوا كسبه .

تقدم السحر

وبعد أن حرم القسم الأعظم من المؤمنين من أدلاء روحانيين في الوقت الذي فقدت السلطة الزمنية للسادة والأمراء حظوتها بالهزيمة والدمار ، تركوا وحبسهم على غارهم ، فاستسلموا لأقبح غرائزهم . لقد أدامت الحرب مناخ العنف وأنعشت روح الانتقام التي نجحت أنظمة السلام في تهدئتها . وما نزاع الأرمنياكيين والبورغونيين إلا أفضل صورة لذلك . لقد حضت الضائقة والمجاعة على الطمع والجشع عند المعدمين ، والرغبة بالتمتع عند الأغنياء المالكين .

ونظراً لعدم وجود ثقافة فكرية ودينية كافية ، انصرف العلمانيون بعدد كبير إلى الأباطيل والخرافات بل وإلى السحر . فقد كانت طقوس الكنيسة في الغالب غير مفهومة ، فحملت صفة شبه سحرية . وهكذا كان المؤمنون يجهلون في الغالب قيمة التعميد الفادي ؛ ولكنهم يحافظون بصورة ثينة على الضمادات التي

كانت تفيد في مسح الزيت المقدس عن جبين المعمد . والمقلق أكثر من ذلك ، منذ آخر القرن الرابع عشر ، هو تكاثر حالات السحر . إن ممارسات الرقي وعبادات الشيطان ليست جديدة ، ولكن أفكار من يقوم عليها وأشياهم ، عكرتها مصائب العصر ، وأصبحوا كثيراً . وتأثرت الكنيسة باتساع هذا الشر وكافحته وشبهت السحر بالهرطقة الفودوازية . وكان المفتشون ، المكلفون بالتحقيق في الدعاوى ، يضعون لوحة عن كل هذه الاعترافات المنتزعة بالتعذيب . وكان السحر مؤسساً على الاعتقاد بسلطة الشياطين . فالساحر ، وفي الغالب الأعم ، الساحرة ، كان ينكر الله ، ويقدم الاحترام للشيطان ، وهو نفسه الذي ضحى أحياناً بأحد أولاده . وكان السحرة يعقدون اجتماعاتهم في مجالس ، في منتصف ليل السبت ، تحت رئاسة الشيطان ؛ وفيها يعبدون الشيطان ، ويصنعون مساحيق وعقاقير سحرية معطرة ويستسلمون للإفراط في الطعام والشراب والفجور .

وفي حال اقتناعهم وإيمانهم بهذه الأضاليل ، يسلمون للنار كاهراطقة . هكذا كانت الحال في جبال الألب بين ١٤٢٠ و ١٤٣٠ م حيث كان القمع شديداً لا يعرف الرحمة . ولكنه لم ينجح دوماً في استئصال شأفة الشر . وهذه العقائد المضللة نجحت لدى أناس فقراء وغير مثقفين . وأحياناً كان الأكليريكيون ، ممن أسست ثقافتهم ، يتعاطون السحر . حتى أن هذا الأخير بلغ الطبقات العالية في المجتمع .

ويجب أن نترك أيضاً مجالاً للإعلام عن المبالغة التي تحمل دوماً على شبهة عنيفة في (تصيد الساحرات) . إن بعض الحالات تبرهن ، مع ذلك ، على أن السحر لم يكن وقفاً على الأجلاف والأفكار الساذجة . وأشهرها حالة جيل دو ريه أمير إقليم فاندويه ، رفيق جان دارك . نودي به ماريشال فرنسا عند تقديسها . وفي النصف الثاني من حياته أصبح الشخصية التي أوحى إلى

الكاتب الأديب بيرو بقصة (اللحية الزرقاء) ، وأخذ يحيا حياة السكر والفجور ، وأكب على ممارسات سحرية ، أرفقها بقتل مئة وخمسين طفلاً ، وقد أوقف أخيراً هذا الغول ، الذي يجسد أقم مظهر لهذا العصر المضطرب ، وحوكم ، وأعدم في ١٤٤٠ م .

نضوب الحياة الفكرية والفنية

لقد انعكس انحراف الانطلاقة الدينية على الحياة الفكرية والفنية التي ظل الإيمان بها ، حتى ذلك الحين ، المحرك الأساسي . وترجم هذا الانحراف باضطراب مفسد في الغالب و ببعض جفاف في الفكر وعلم الجمال .

أفول الحياة الجامعية

إن النشاط الجامعي المرتبط بصورة وثيقة بالوضع الأكاديمي كان أول مامسه هذا الأفول . ومع ذلك فإن القرن الرابع عشر وبدايات القرن الخامس عشر شهدت في كل مكان في أوربة ، ازدهار جامعات جديدة . ولكن هذه اللامركزية تبدو أنها تستجيب بصورة أقل إلى ضرورات فكرية وتربوية منها إلى مشاغل سياسية ، كانت الكبرياء الوطنية أو الوطنية البلدية تحضان الأمراء والبلديات على مطالبة البابا بهذه الإبداعات الجديدة . والنية الثابتة هي أن تحقق ، على الصعيد الفكري أيضاً ، الاستقلال الذاتي للدولة ، وذلك بإبقاء طلاب البلاد في مكانهم ؛ وأن يؤمن لهذه الدولة عنصراً جديداً من الحياة يجذب الأساتذة والطلاب الأجانب . فعقب استرداد وتثبيت الممالك الإيبيرية ، افتتحت مراكز دراسات في لشبونة ، وپرينيان ، وبارشلونة ، وسرقسطة . وما أن حصل شارل الرابع على تأسيس جامعة براغ لمملكته ، مملكة بوهيميا (١٣٤٧ م) ، إلا ونسج على منواله كازيمير الأكبر في كراكوفيا (١٣٦٢ م) وأرشيذوق النمسا في فيينا (١٣٦٥ م) . وفي القرن الخامس عشر ، مهر الملوك الإسكاندينافيون

بدورهم مملكتهم (ستوديات) أنشئت في كوبنهاغن وفي أوسال . ولم يكن القصد تنافساً سلمياً فحسب : لأن إنشاء جامعة أصبح سلاحاً في الخلافات السياسية . فقد أضافت بيزا وفلورنسا إلى تنافسهما القديم تنافس جامعاتيهما . وفي فرنسا التي قسمتها الهزيمة ، أجاب المحتل الإنكليزي على مؤسسة بواتيه (١٤٣١ م) التي أقامها ولي العهد ، بإنشاء جامعة بوردو (١٤٤١ م) ؛ وكذلك كان تجهيز مدينة كن (١٤٣٧ م) مخصصاً لمنع النورماندين ، رعايا ملك إنكلترا ، من الاختلاف إلى باريس التي استردها شارل السابع . وكانت المنازعات الدينية أيضاً في أصل أكثر من مؤسسة جامعية جديدة : مؤسسة آفنيون ارتبطت بإقامة الأحرار المنفيين على ضفاف نهر الرون . والحيدة الكبرى ، بتقسيمها المسيحية إلى عدة طوائف ، أدت إلى ظهور مراكز دراسات لاهوتية جديدة كانت البابوية ، حتى ذلك الحين ، مترددة في إكثارها ؛ ورفض الطلاب والأساتذة الألمان حبر آفنيون فغادروا باريس وأقاموا في تريف ، وماينس وتوبنغن . وبنفس الشكل ، أنشأ الأيكوسيون ، الذين طردوا من أوكسفورد ، جامعات سانت - أندروز ، وغلاسكو وأبردين .

وكما تقدمنا في سياق القرن الخامس عشر ، كلما ظهرت النعرة المؤدية أحياناً إلى الإقلية : فليحرر دوق بورغونيا فيليب الطيب ، رعاياه من وصاية باريس ، أسس جامعات دول Dole في ١٤٣٢ م ولوثن في ١٤٢٥ م . وتبنى السياسة نفسها لويس الثاني دوق بروثانص في أيكس (١٤٠٩ م) ودوق بروتانيا ، في نانت في (١٤٦١ م) . وأريد من معظم هذه المراكز أيضاً أن تكون دولية ؛ وظل الطلاب من (أمم) مختلفة متقاربين فيها . وفي براغ اندفع التطور حتى نهايته : فالجامعة عند تأسيسها فتحت للأمة الألمانية كما هي للأمة التشيكية ؛ ولكن مالبث الأساتذة والتلاميذ الألمان أن فاقوا بعددهم . ورد الفعل القومي ، الذي أثار الرعايا التشيكية ضد العنصر الجرمانى ، دفع الملك

فانيسلاس الرابع ، لأن يقرر في ١٤٠٩ م بأنه يتوجب على جميع أعضاء الجامعة أن يقسموا يمين الولاء لتاج بوهيميا . وعندئذ هاجر الألمان إلى ليزنغ ؛ وأصبحت جامعة براغ أحد حصون القومية التشيكية في الصعيد السياسي والديني .

وبتبعثر العالم الجامعي وانقسامه فقد جزءاً من حيويته . حتى أن بعض المؤسسات تناقصت أهميتها وعاشت ضعيفة لعدم وجود طلاب عديدين فيها بشكل كاف . وهكذا فإن الاتصالات المثمرة بين الأساتذة من أصل مختلف ، التي جعلت من الجامعات الكبرى ، في القرن الثالث عشر ، جمهوريات فكر حقيقية ، انقطعت وتناثرت الجهود الفكرية دون فائدة . ووجد ماهو أخطر : فالجامعات ، القديمة كالحيثة ، فقدت كل استقلال حيال السلطة السياسية . فكيف أن الأمراء الذين شادوا مؤسسات وأسهموا بفضلهم في الحفاظ على وجودها ، وكيف أن العواهل الذين اعتبروا الجامعات كنوع من خدمة كبرى للدولة ، لا يغرون بتسمية الأساتذة ومراقبة مذهبهم ؟ وعلى هذا النحو أجبر شارل الخامس ، في ١٣٧٩ م ، الجامعيين الباريسيين ، رغم أنهم كانوا مترددين جداً ، أن يقرروا لصالح أحد البابوين ، كلينت السابع . وقليلًا قليلًا جرّ الأساتذة في العرين السياسي وقبلوا أخيراً الدخول في كفاحاته وكانوا يرجون أن يلعبوا فيه دوراً من الصعيد الأول . فقد تخلوا عن الصفاء الذي يتفق والنشاط النظري ، وآل بهم الأمر إلى اعتناق مواقع حزبية . والمثال الباريسي في هذه النقطة ما يزال أكثرها برهاناً . إن قسماً عظيماً من الأساتذة انتقل إلى المعسكر البورغوني وقبل الخضوع لإرادات المحتل الإنكليزي : فالجامعة هي التي وجهت الدعوى وصاغت الحكم ضد جان دارك . وكثرت الاتهامات التي كانت نتيجتها أن أفقدت العالم الجامعي حظوته وشككت به .

فقدت الجامعة اعتبارها بالأعيب السياسة وأصبحت أيضاً بالأزمة الاقتصادية . ولرد الفعل أخذت تنغلق على نفسها . وأمام ارتفاع الأسعار المستمر

بدا أن الموارد ، التي كان الأساتذة يجنونها من الانتفاعات الكنسية التي خولت لهم ، غير كافية بالرغم من ممارسة الجمع بين الوظائف . وأكثر فأكثر أخذ الأساتذة يطالبون تلامذتهم بدفع أجور دروسهم . وكانت الهدايا التي تفرض على الطلاب في زمن الامتحانات ، لها تعريفات مطابقة للشكل المفروض .

والمستثنون وحدهم من رفع الرسوم : أبناء وإخوة وأبناء إخوة الدكاترة . وهكذا شكل وسط الجامعة طبقة وراثية . ولتثبت هذه الأرستقراطية الجديدة نفسها تبنت نسق حياة نبيلة . فالرداء الطويل ذو الحاشية من فرو السمور ، والقلنسوة م والخاتم الذهبي ، والقفايز أصبحت منذ الآن تميز الدكاترة . ووجد كتاب من القرن الخامس عشر يكشف بوضوح عن الفكرة التي كونوها عن طبقتهم في المجتمع .

« لقد أقرت إرادة الله شيئين ، كدعامتين لبسط نظام القوانين الإلهية والبشرية . هاتان الدعامتان هما الفروسية والعلم اللذان يتفقان معاً كثيراً » .

ووضع المؤرخ فرواسار مقارناً بشكل أوضح أيضاً فرسان الأسلحة و (فرسان القانون) . ولم يكن للعالم الجامعي ما يكسبه في هذا الانطواء .

وفي الواقع ، إن أزمة الكنيسة لم تكن مادية فحسب : إن العماير الفكرية الكبرى للفلسفة المدرسية (السكولاستيكية) في القرن الثالث عشر ، والمؤسسة على تحالف الإيمان والعقل والمعتمدة على سلطة أرسطو ، هوجمت منذ بداية القرن الرابع عشر ، وبخاصة في أوكسفورد على يد دونز سكوت وأوكام . فقد انطلقا في نقد العقل وإمكانياته . وكانا في أصل تيار الشك الذي كان يبير دايي أحد ممثليه في باريس .

أما حديث القديس أنسلم في (الإيمان في البحث عن العقل) فقد هجر لصالح فلسفة الإيمان التي تمدح الجهل . على أن طرح هذه المذاهب المقررة على

بساط البحث له في ذاته قيمة لا تنكر وبالتالي تتكشف خصبة ، ولكنها نفذت في الغالب كثيراً إلى القرن الرابع عشر على الفلسفة المعادية للعقل التي تعقم التفكير . ومن هذا الفصل بين الإيمان والعقل ينتج بالمقابل تيار فكري آخر : وهو أن نوررتون أو كسفورد وارث غروسوتست وروجه سيكون ، وفي باريس جان بوريدان ، ونيقولا أوريسم وألبرت دو ساكس ينزلون ممارسة العقل إلى صعيد التجربة . ويحاول هؤلاء العلماء أن يؤسسوا علماً للحوادث الطبيعية . ولكن دراساتهم على التثاقل وعلى الحركة التي تبدو تبشر بدراسات العصر الحديث لم تهوؤهم بحق . فالحدوس العبقريّة أحياناً لم تستطع ، لعدم وجود المفاهيم والصيغ العلمية الواضحة بكفاية وأيضاً لعدم وجود التقنيات القادرة على وضعها موضع التطبيق ، وعلى تقدم العلم بحق . ومع ذلك ، وبالرغم من الهجومات التي كانت الفلسفة السكولاستيكية هدفاً لها فقد تابعت مهنتها في الجامعات . وانغلقت في دراسة المنطق الصوري ، واقتصرت على اللعب العقيم بالتعاريف والتصنيفات والدعابات الباطلة كهذه : لماذا الرهبان أضخم من غيرهم من الرجال ؟ وهكذا شل التعليم الجامعي تماماً .

جفاف الأدب والفن

في فرنسا كما في إنكلترا عاش الأدب المهذب الناعم الذي ظهر في القرنين الحادي عشر والثاني عشر في البلاطات الأميرية في جنوب فرنسا ومجد الحب والمغامرات الفروسية ، وظل طيلة القرن الرابع عشر . فمن ذلك أن شعراء البلاط المأجورين كانوا يجهزون الجمهور النهم إلى هذه الأنواع من اللطف بنصيب وافر من الصور الرمزية والمناقشات المتهذبة ويكررون دون انقطاع وملل (رواية الوردية) لمؤلفها غليوم دو لوريس ، وهي قصة رمزية لمغامرة حب .

وقدم فن الشعر أيضاً أمثلة عديدة لجفاف مشابه ، فقد كان الفصحاء (هكذا يسمى شعراء هذا العصر) ينصرفون إلى أعمال شجاعة لفظية وإلى تاريخ العصر الوسيط ج ٢ (٢٧) - ٤١٧ -

التلاعب بالقافية في قصائدهم الصغيرة ذات الأدوار وفي قصائدهم الغنائية ذات الثلاثة أدوار المتساوية مع دور أقصر منها ولازمة في آخر كل دور ، وفي القصائد الوصفية أو الغنائية ذات الأبيات القصيرة ، وينون صوراً رمزية متحلقة لا يرى فيها شيء من الانطلاقة الشعرية الحقيقية . وكان اسم غليوم دو ماشو (١٣٠٠ - ١٣٧٧ م) ، زعيم المدرسة يشارك أيضاً في بحوث العصر الموسيقية المعروفة تحت اسم (أرس نوفا) . وقد ترك ماشو بعض أعمال مدعاة للإعجاب مثل (قداس نوتردام) ، (قداس السيدة) ؛ ولكن موسيقي العصر ، بمحاولتهم التحرر من القسر التقني ، كانوا منقطعين في الغالب جداً إلى مهارة خالصة تحل محل حركات الأورغ الغنائية . والنتيجة هي « نوع من الانحلال العام لنغمة الميلوديا ... ، والبحث عن موضوعات تنيب ، عن تعبير العواطف المرتفعة ... نوعاً من هزل مفرط ، يعارض باستمرار المدد الأكثر اختلافاً والأكثر تعارضاً ، ويجري ، على سبيل المثال ، في الميلوديا ، ألحان غناء مخالفة بعد مدّات طويلة غير قابلة للإيضاح ، تقطع النص الذي يراد غناؤه بفترات صمت غير مفهومة تقطع كلمة إلى كلمتين ، وتوقف الميلوديا بطريقة نغمية لاسمها الفني دلالة : الشهقة » . وفي الحقيقة ، إن هذه البحوث تدع مجالاً لإمكانيات تقنية جديدة ، ولكن ينقصها الهدف المباشر على الصعيد الجمالي . وهكذا فإن ماشو في قطعه الصغيرة باسم واعد : (نهايتي هي بدايتي) يمكن أن تقرأ الميلوديا دون تمييز بشكل ملائم أو بالعكس . ولكن هذه الشعوذة الموسيقية المجانية لا شيء فيها يستشف للسمع .

وفن العمارة الغوطية يعطي في القرن الرابع عشر الانطباع نفسه لتقنية عديمة الروح . فبعد قرن من الإبداع المتجدد دون انقطاع ، بلغ نقطة إنجازه الكامل ، سقط بعد ١٣٠٠ م في نوع من الرتابة . وفي الحقيقة ، لقد شيدت بعض الكنائس الجميلة ، مثل كاتدرائية ميتز والقديس أورينيو في تروا ، ولكن

المهندسين المعماريين في غيرها في كل مكان ، كانوا يكتفون بتكرارها وتعميدها بأشكال وصيغ سابقة دلت على كفاءتها وعلمها . فصحون الكنائس المحمولة على نضد ترتبط فيها حزم وحيدة الشكل من العميدات ، التي تزين تيجانها بأوراق رقيقة ، تتناول بشكل متفاوت في الارتفاع ، والتخفيف المبالغ في البناء لصالح فتحات يسهم في إعطاء الارتفاع مظهراً على الغالب دقيقاً ونحيلاً ، لا توجد فيها حمية القرن الثالث عشر الصوفية .

الحساسية والفكر الجديدان

العاطفة والتعبير عنها : وهذه اللوحة التشاؤمية لا تقدم من الحياة الدينية والروحانية ، في القرن الرابع عشر ، إلا وجهاً واحداً ، وجه الظلال . ولكن نور الإيمان لم ينطفئ ، بل ظل يلتهب في النفوس ، وازداد ضياؤه كثافة . لأن دين الناس ، في ذلك العصر ، كان مشبعاً بالعاطفة . فإلى الممارسات الخارجية ومشايعة روح حقائق الوحي ، تضاف عاطفة ولدت في أعماق الحياة الباطنية ؛ إنها وثبة قلب يستطيع في شدته القصوى أن يذهب بها حتى الصوفية . وهذه الروح الجديدة تتضح بمجاذب العصر الدرامية . وإذا بادر بعضهم إلى التمتع بأسباب الحياة لينسى التهديد المستمر الذي يخيم فيه الموت على البشرية فريسة الجوع والحرب والطاعون ، فإن آخرين كانوا يفكرون فيه دون مهادنة ، بغية تهيئة أرواحهم ، بحياة التقشف إلى المثول أمام الحكمة الإلهية في كل لحظة . لقد كان الاهتمام بالحياة الآخرة يسيطر دوماً على الحياة الدينية . ولكن الملفت لأنظار المسيحيين ، في هذه الغايات الأخيرة ، هو مصير الروح الماثلة أمام محكمة الله ، هل صفح عنها أو حكم عليها . ومنذ الآن فصاعداً ، كان الوقع على الموت الجسدي الذي هو مقدمة للغايات الأخيرة . وكان الأدب المقدس وبخاصة الفن يعكسان جيداً هذه الفكرة الملازمة التي استحوذت على النفوس . فبواقعية فجة خاصة بإحداث صدمة على الحساسية ، يذكران دونما كلل أو ملل بأن الغشاء اللحمي

مصيره الفساد ، وأن الأحياء أموات مع وقف التنفيذ . فعلى أضرحة الكنائس لم يكن النحاتون يمثلون راقدين نائمين يهدوء في سلام الرب ، وإنما جثثاً عارية وجافة ، مثل جثة الكردينال دو لا غرانج في آفنيون (المتوفى في ١٤٠٢ م) . وتعرض أعمال التقوى في منمناتهم على تأمل القارئ صورة الموت وجنازة المسيحي ؛ وكتاب الصلوات لأسرة روهان (نحو ١٤١٤ م) من أشهر هذه الأعمال . وإلى موضوع يوم الدينونة (يوم الحساب الأخير) المعالج بكثرة ، دوماً ، يضاف موضوع أكثر حداثة وهو (رقص الأموات) الذي ألهم عدداً من الرسامين : ففي ١٤٣٤ م رسم رقص الأموات لمقبرة الأبرياء في باريس ؛ ورجال ونساء من كل أصل تجرهم في رقصة جماعية جثث تصور ماسيكونون بعد الموت .

لقد قلق معاصرو حرب المئة عام بفكرة الموت فبحثوا أولاً في الدين عن عزاء وسلوى . ولم يروا في المسيح القاضي الفظيع الذي ينتصب على البوابات الرومانية ، ولا (الرب الجميل) الجالس بمجده على العرش (رغم أن علم الأيقونات المجيد لم يزل تماماً) ، وإنما رأوا الإنسان الذي عاش على الأرض وتألم في لحمه (جسده) وفي قلبه وخشي مثلهم التداني من الموت . إنه الرفيق المؤلم والأخوي الذي فتح للإنسان دخول العالم السماوي . وينبه علم الأيقونات كالليتورجيا (نظام الطقوس والصلوات) إلى هذا التعلق بإنسانية يسوع . ويكتشف من جديد ، في القرن الرابع عشر ، الطفل يسوع ، يسوع (الصغير) : معبراً عن نوع من حنان للطفل - الرب الضعيف والمهدد - وصور ، وتماثيل ، أو منحوتات تمثل مولد يسوع المسيح ، وعبادة الملوك الفرس الذين أتوا ودليلهم نجم لعبادة يسوع في بيت لحم ، وبخاصة العذراء والطفل . وبصورة موازية جرت العادة ، في آخر القرن الرابع عشر ، على بناء مذود (مهد) بمناسبة عيد الميلاد ؛ ورعاة وملائكة ، يقوم بدورهم أطفال ، يفسرون المشهد بنوع من حوار شبيه بأسرار وقت عيد الفصح . ولكن الموضوعات ، التي يعالجها الفنانون

في الغالب ، تتعلق بآلام وموت المسيح : هوذا الإنسان ، وتل الجلجلة (المسمى تل الجمجمة ، بالقرب من القدس) ، والذي غرز فيه صليب المسيح ، تمثيلاً للصليب ، ودفن المسيح . وكذلك الصليب الموضوع على المذبح لم يكن ، انطلاقاً من القرن الرابع عشر ، رمزاً مجرداً لفداء البشر على يد الخالص ، بل يمثل المصلوب ، بينما رسمت مختلف مراحل آلام المسيح على جدران الكنيسة بـ (طريق الصليب) الذي اعتاد المؤمنون سلوكه مصلين . إن كل هذه الصور لا تظهر المسيح منتصباً على الموت في جسده المجيد ، بل جثة فظيعة في واقعيتها : فقد أفاد الرسامون والنحاتون من أفضل الملاحظات الطبية والتشريحية وعرفوا كيف يردون الشحوب الخالي من الدم في الجسد والجروح الدامية للأعضاء ، والأسارير النحيفة من الألم ، والوجه الذي يسقط جامداً على الصدر . والجدير بالذكر هو أنه في ذلك العصر ألّفت حياة يسوع الأولى على يد سيمون فيداقي دا كوستشيا ولودولف لو شارتر والذين استلها من العهد الجديد .

وتوجد الاتجاهات نفسها في إيقونات العذراء والقديسين . إن مريم التي نمت عبادتها في القرن الثالث عشر ، تمثل في الغالب عذراء حنوناً تصغي إلى بشرى الملاك في حديقة مغلقة ومزهرة . ولكنها أيضاً الأم الرحمة التي تتوسط للمذنبين . ففي طيات رداءها تلجئ جميع الفئات الاجتماعية . وهي أيضاً الأم المؤلمة : إن (الستابات ماطر) يذكر آلامها على يسوع المصلوب ويمثل الفن (عذراء الآلام) تعطف على جسد ابنها الجامد . ونشأ موضوع (الشفقة) أو (الرحمة) . ووجدت عبادة مارية تتويجها عندما حكم جمع بال (بازيل) ، في جلسة كانت حائدة ، لتعريف عقيدة (الحبل بلا دنس) . وعبادة القديسين أصبحت إنسانية أيضاً . فالقديس كائن قريب منا ، قوي وأليف معاً . ومن الممكن الحصول على شفقته أو معرفته بتخصيص شيء له يخلد ذكرى الفضل الذي منحه . فاحترام القديس أنطوان في بادوا وكذلك القديس إيڤ الذين يسعفان

الضعفاء ، وبخاصة احترام القديس كريستوف الذي تبعد صورته (الموت المفاجئ) تشهد على هذا التعامل المألوف مع القديسين .

وهذا الإيمان الحنون والقلق نفخا روح الحياة في الفن والأدب اللذين ، على ما يبدو ، قد جفّا في بحوث صورية صرفاً . وللتعبير عن واقعية الوجوه ، مما يؤثر في النفس وما فيها من تعابير مؤثرة ، وجد فن التمثال ، في القرن الرابع عشر ، قوة جديدة اتضحت بصورة خاصة في جمع (العذارى المجنونات) في مدينة إرفورت ، في التمثال النصفي الأعلى لجسم شارل الخامس في متحف اللوفر ، أو في أضرحة مدينة القديس - دوني وآفنيون . وهذا الاحترام الجديد أثار التماثيل فتكاثرت واجتاحت داخل العائز المقدسة . والعذارى المعلقة على دعائم صحن الكنيسة ، والمحتمية في كوات على طول الجدران الجانبية تبدو مستندة على ساق واحدة بعذوبة ، وصور القديسين التي لا عدّها ، والتماثيل الراقدة على الأضرحة كانت أعمالاً معالجة من أجل ذاتها ؛ ولم يعد فن النحت في خدمة العمارة ، أو يخضع لضغوطه وقيدوه . فالوجوه المنحوتة في الحجر تريد أن تكون صوراً فردية وواقعية للأشخاص . وكذلك الفنون الخطية عرفت أيضاً تجديداً كبيراً : فعلى الزجاج ترسم شخصيات عظيمة تشبه شخصيات فن التمثال ، مثل أنبياء كنيسة القديس أوربينو في مدينة تروا ، تنفرد على أرضية بلون أشهب أو رمادي . ورشاقة الجسم ، وسطوع الألوان الشفاف على اتفاق مع خفة العمارة تسهمان في جعل خورس كاتدرائية إيفرو أكمل إنجاز معبر للرسم على زجاج القرن الرابع عشر . وتدخل براعة الرسم أيضاً في تزيين النسيج ، ففي نسيج مذبح نابون الذي نفذ لأجل شارل الخامس ، يظهر عنف درامة آلام يسوع في تناول الوجوه . وفي عهد حكم شارل الخامس تأرخت أيضاً أقدم الأنسجة المطرزة الغوطية التي نجت من تلف العصر بالرغم من أن تقاطع خيوط السدة غير الملونة بخيوط اللحم الملونة قد طبق في الغرب منذ زمن طويل . إن قطع رؤيا يوحنا

المعمدان السبع في أنجييه (١٣٧٥ - ١٣٨٠ م) التي أنجزها النساج الباريسي نيقولا باتاي ، عن كرتونات جان دو بروج ، إنما هي روائع لا تعادل بقوة الرسم وشدة الحياة الباطنية . وبعد أن أبعد فن الرسم الآبدي من كنائس فرنسا الزجاجية ، اتجه في إيطاليا ، حيث أدخل العبارة الغوطية قليلاً قليلاً ، نحو طرق جديدة تتمثل بالفلورنسي جيوتو والسيني سيمون مارتيني . ففي فرسكات كنيسة آسيز العليا ، التي ينسب جزء منها له ، كما في عرين بادوا وعلى جدران قابلة آل باردي الخاصة في سانتا كروس فلورنسا ، أعطى جيوتو للحب الفرانيسكاني للطبيعة وللصوفية الخنون ، في بوفيريللو ، وللعاطفية الدينية لعصره ، أكمل تعبير تشكيلي . ولكن جيوتو ، هو أيضاً ، وبخاصة (رجل الأسلوب) الذي يبشر ببحوث عصر النهضة . « الرسام يستحوذ على الجدار بكامله ، وينظمه حسب هواه ... المكان ينفتح ، ولكنه ليس مكاناً لمنظور يحفر مجالاً ضيقاً وهماً تحت الصور ، وإنما هو نوع من مشهد ضيق ومتمد تتطور فيه الأشكال المكعبة والكثيفة »^(١) . وهذا الأسلوب يعطي المشاهد الدينية تبجيلاً وأهمية عظيمة . وأعطى سيمون مارتيني ، معاصر جيوتو للفن الغوطي السيني (السينوازي) أعلى تعبير له . وفي (البشارة) في (متحف الأوفيس في فلورنسا) ، حقق بشدة الدقة الفائقة ولذائد الألوان ، أثراً خاصاً يهيج القلب والحساسية العصبية . إن الطاعون العظيم الذي ظهر في توسكانا في ١٣٤٠ م وقضى في ١٣٤٨ م ، على ثلثي سكان سيين ، والنصف في فلورنسا . كان من نتيجته بعض الفطور والتراخي في الفن الإيطالي في النصف الثاني من القرن الرابع عشر . ومع ذلك فإن درس الأستاذين العظيمين لم يضع ، فقد أوحى بتجديد القرن الخامس عشر ، ولم يبق إشعاعه قاصراً على إيطاليا . فقد أقام سيمون مارتيني في آفنيون ، ورسم فيها عذراء الدوم . وكانت المدينة الحبرية تؤلف أول مرحلة بين فرنسا وإيطاليا ؛ والبلاط

(١) A. Chastel, L'Art italien, Larousse

الآنجلي ، في نابولي ، حيث اشتغل سيمون مارتيني أيضاً ، يفتح طريقاً آخر إلى هذه المبادلات التي تغلغل بواسطتها التأثير الإيطالي في الغرب كله .

ووجدت الحساسية الجديدة تعبيرها أيضاً في الأدب ، في إطار جنسين : المسرح الديني والشعر الغنائي . ففي القرن الرابع عشر ، خرجت الدراما الليتورجية من الكنيسة لتستقر على الفناء الذي أمامها أو في المقبرة . وتشكلت أخويات (فرق) علمانية من بورجوازيين أخذوا على عاتقهم أن يلعبوها ، أي يمثلوها ، فمنذ ١٣٠٠ م ، يمثل بورجوازيو باريس كل عام دراما (سر الألم) (آلام يسوع) . وفي آخر القرن ، بلغت الدراما الليتورجية شكلها النهائي ، الدوري ، من الذنب الأصلي إلى البعث . وكذلك الحوارات المؤثرة بين مريم ويسوع ونزاع المسيح في بستان الزيتون ، أشركت جمهور المشاهدين (النظارة) الذي اهتز لهذه الدراما المقدسة ، بينما تأتي فترات استراحة هزلية أو واقعية وتقطع التوتر عندما يصبح قوياً جداً . إن العاطفة التي أوقظت في الكنائس أو على أفنائها (ساحاتها الخارجية) رافقت أناس القرن الرابع عشر في حياتهم الباطنية ، وسط مشاغلهم اليومية ، حتى في منازلهم . وهم لا يهتزون فقط عندما يثارون باندفاعات الجمهور الجماعية ، فحياتهم الباطنية أغنى وأكثف . كانوا يتذوقون بعض الشعراء البارعين في القافية والنغم ، الذين يعلمون أيضاً ، على طريقتهم الباطنية الخاصة كيف يجعلون من أنفسهم معبرين عن اضطراب العصر وحزنه .

إن أوستاش ديشان (١٣٤٦ - ١٤٠٦ م) الشامباني (من منطقة شامبانيا في فرنسا) الذي عاش في بلاط شارل السادس ، وجد لهجات واسعة وجيليلة ليرثي حال مصائب فرنسا (مثل الأغنية المأتمية) على شرف دو غيكلن ، ونبرة كآبة رومانسية (إبداعية) ليشكو آلام حبه :

« أيها القلوب الحزينة ، المتألّمة

العاشقة الفاترة

ضعي نفسك تحت رايتي

ولنذهب لقطاف عوسج

لأن شهر أيار غير مفرح لي »

وشارل أورلئان (١٣٩٤ - ١٤٦٥ م) الأمير الشاعر الكبير ، خفف عن أسره في لندن بتأليف أشعار عبّر فيها عن الأسف على السلام والحنين للوطن .

وهذه العاطفة الدينية أخذت أيضاً لون تقوى شخصية . فقد استجاب فن النحت على العاج لحاجات هذه التقوى الفردية ، وعرف ، في القرن الرابع عشر ، نهضة عظيمة : وأخذت التماثيل الصغيرة ، واللوحات المتعددة الصفاق (الدرفات أو المصاريع) ، وخزائن القربان المقدس مكانها إلى جانب صناديق المعادن الثينة لحفظ بقايا أجساد القديسين وأشياهم في الكنائس الصغيرة (المصليات) الخاصة . ووضع الرسم على خشب رافدات المذابح أو على هامش مخطوطة ، فأنتج بذلك روائع فنية صغيرة من منمنات جان بوسيل . وأخيراً غذى اختراع جديد ، انطلاقاً من القرن الرابع عشر ، التقوى الفردية . وإذا كانت التماثيل ، والرافدات ، والتزويقات الثينة بالألوان الثينة قد خصصت لمنازل الأغنياء ، فإن الصور التقية كانت وسيلة عاطفة تقوى شبه شعبية ، أقل ثقلًا وإزعاجاً وأقل كلفة . فقد طبعت أولاً على النسيج ، ثم على الورق بواسطة قالب خشبي منوّض (مصبوغ) بالحبر ، وانتشرت انطلاقاً من إقليم بورغونيا حيث اخترعت ، على ما يبدو ، بتأثير من دير (بيعة) كلوني . ورافقت المسيحي في كل مكان ، مرصوفة بين صفحات كتاب أو محفورة في صندوق أو في مداليا . واستعملت لحماية من يحملها أو للاستفادة من (الغفران) .

الأفكار الجديدة : الإنسانية الأولى والأدب

كانت الحياة الفكرية أبعد من أن تجمد في مكانها تماماً . وعرفت ، هي أيضاً ، تجديدات . ففي المدن بخاصة ، الجمهور المثقف أو على الأقل المتعلم اتسع أفقه بعض الشيء . ومع ذلك فإن الأكليركيين ما يزالون يؤلفون فيها القسم الأعظم . لقد برهنوا على أعظم المتطلبات الفكرية . ومن بينهم كان يساق في إيطاليا وفي فرنسا أوائل الأدباء الإنسانيين المهتمين بالعودة إلى النصوص . وفي الواقع ، بينا كان السكولاستيكيون (الفلاسفة المدرسيون) في ظل الجامعات لا مبالين بتطلعات عصرهم ، ويتابعون منازعاتهم العابثة ، بحث بعض الرجال ، في تماسهم المباشر مع القدامى ، دروس التفكير والحياة . ففي إيطاليا ، حيث حفظ تقليد الآداب القديمة خير حفظ ، وحيث أراد كل أمير أن يكون حامياً (ميسين) لرجال الفكر ، ارتسمت الحركة أولاً . وكان بترارك فرانيسكو دي بتراكولو (١٣٠٢ - ١٣٧٤ م) أول ممثل لهذا الروح الحديث . كان ابن كاتب عدل فلورنسي ، ويتمتع بفوائد انتفاعات كنسية ، تجعله في غنى عن الحاجة ، جاب أوربة من إقليم البروفانص إلى روما ، ماراً بباريس وأفنيون . وقد تحطم قلبه بحبه الذي لم تشاطره فيه لورا الجميلة التي التقى بها ، في ٦ نيسان ١٣٢٧ م ، في كنيسة القديسة - كلير في أفنيون . واضطرب بالطاعون الأكبر الذي عرفه في فلورنسا ، فكان معبراً عن اضطراب العصر بإعطائه أكمل تعبير في مجموعة قصائده الغنائية . وكان الأدب عزاءه الوحيد .

وجد في تراث القدامى ، دون أرسطو الذي كان يكرهه ، من أمثال شيشرون وسينيكا ، عوناً وارتياحاً . وانطلاقاً من ١٣٥٠ م ، تاريخ التقائه بهما ، شاطر إعجابه بالآداب اللاتينية صديقه الجديد جيوفاني بوكاشيو (١٣١٣ - ١٣٧٥ م) . وكان هذا ابن عميل لشركة آل باردي المالية القوية ، وعرف في شبابه في نابولي ، حيث ذهب ليتعلم ، تجارب حياة بلاط كلف باللذات وسهل نجد صداها في

قصص ديكامرون . غير أن إفلاس آل باردي أوقعه في الفقر والعوز واضطره إلى الانعزال في بيت عائلة سرتالدو الذي أصبح أحد مراكز الأدب الإنساني الناشئ . وعقد مع بترارك مراسلة لاتنقطع : تبادل كتب ، أخبار أدبية ؛ وتعلم الإغريقية على يد صديقه ليونزيو بيلاتو . وفي مدرسة بوكاشيو تثقف العديد من الإنسانيين الذين نشروا ، عبر إيطاليا وأوربة ، اكتشافات أدبية جديدة ، فارّون ، مارسيل ، تاسيت ، أبوليه . وانتشرت هذه الإنسانية الأولى في فرنسا بصورة أساسية : وذلك لأن وجود أمراء من أصل فرنسي على عرش نابولي ، والإقامة على أبواب المملكة ، في أفينيون ، للبلاط الحبري ، المأهول بالإيطاليين يوضحان الاتصالات العديدة التي كانت تعقد آنذاك بين فرنسا وإيطاليا : فمن ذلك أن پيير برسويت ، الذي ترجم تيت - ليف ، وفيليب دوفيتري ، تعرفا ببتارك أثناء إقامتهما الباريزية . ومن جيل أفقي من أولئك نرى أن (جان دومونتروي) رئيس مجلس كهنة مدينة ليل وغونتيه كول ، وهو أكليركي أصبح أمين سر شارل الخامس ، ونيقولا دو كلامانج رئيس جامعة باريس خلال فترة من الزمن ، ظلوا مطبوعين بالبتاركية بعمق . غير أن عود حرب المئة عام على بدء حوّل ، منذ بداية القرن الخامس عشر ، الأدباء الفرنسيين نحو اهتمامات خارجة عن الأدب الإنساني . ومع ذلك فإن هذا الأدب الإنساني الأول أعطى وثبة جديدة للحياة الفكرية .

إن ترجمة مطبوعات القدامى كانت مدرسة مرونة ودقة لأجل اللغات الشعبية التي أصبحت قادرة على التعبير عن كل أفكارها وكل عواطفها . وهناك أثران يصوران بخاصة هذا التقدم . في الفرنسية ، بادئ بدء ، أثر جان فرواسار : التواريخ (التقاويم) . كان شاعر مهذباً في حينه ، ولكنه مؤرخ طوعية أكثر . ولد ولاشك في ١٣٣٣ م في فالانسيين . وتبعاً للأمراء الذين يحمونه تبعاً ، رحل في أوربة كلها . ارتبط أولاً بملكة إنكلترا ، ثم انتقل إلى خدمة فانيسلاس

دولوكسبرغ ، ثم غي دولوا وأقام معه في بلاط آل قالوا (١٣٨٤ - ١٣٨٦ م) ؛ وزار أخيراً جنوب فرنسا قبل أن يعبر بحر المانش ثانية إلى إنكلترا . واختار بشكل طبيعي تماماً تجديد مغامرات حماته ، وهذا ماقادته إلى عمل أثر تاريخي . وقد استلهم أثره في القسم الأعظم منه من أثر مؤرخ آخر وهو جان الجميل . ولكنه اعتمد أيضاً على ذكريات شخصية وشواهد عديدة . لقد كان مخبراً بارعاً ، وتنوع سادته الذين خدمهم كان عدا ذلك ضماناً لبعض الحياد . و (التواريخ) تقتصر في الغالب على قصة الأحداث السامية لبعض الفرسان . وصفات الكاتب تفدي ضعف المؤرخ . وطوراً وطوراً يكون نثر فرواسار زاهداً عفيفاً ، وقوياً شديداً عندما يصف مشاهد معركة ، وملوناً وساطعاً عندما تذكر حياة البذخ في البلاطات الأميرية . وهكذا كان نثره أداة كاملة . وقضى معاصره الإنكليزي تشوسر (١٣٤٠ - ١٤٠٠ م) حياة شبيهة بحياته . فقد تحدر من أسرة تجار ، وارتبط ، وهو حدث السن ، مرافقاً لفراس بالبلاط . وساح ، هو أيضاً ، في القارة ، وشارك في حملة إدوارد الثالث في فرنسا ، وعرف الأسر . ومن ثم كلف مراراً بمهمات دبلوماسية في فرنسا وفي إيطاليا . وهذا الأديب الناعم الذي ترجم بلغته (رواية الورد) وأثرى بالاتصال بالأدب الإنساني الإيطالي ، أثرى اللغة الإنكليزية بوحدة من روائعه وهي (قصص كنتبري) .

التقوى الحديثة

لقد أسهم تجديد الحساسية وتوسع الحياة الفكرية في إعطاء أشكال جديدة للتقوى الدينية . وأكثرها شدة كان حب المسيحيين للمسيح الفادي ، وأكثرها حرارة رغبتهم في اتباع الطريق الذي دلّ عليه في ممارسة الفضائل المنقذة ، الفقر والطهارة الإنجيليين « إن دخول الغني في ملكوت الله أصعب من انزلاق جمل في سمّ الحياط » . وأكثر من ذلك أن الفقر في القرن الثالث عشر ظهر ضماناً للسعادة الأبدية ، عقيدة تعزي الضعفاء وتقلق البورجوازيين والأمرء . وكان هؤلاء

يحاولون اقتداء أنفسهم عندما يكونون على شفا الموت ، في اللحظة الأخيرة من الحياة : والوصايا في القرن الرابع عشر تحتوي حبوساً عديدة تقية مخصصة لطرق المتسولين ولأعمال الإحسان ، أو الاحتفال بالقداسات لروح المتوفى . وكان مبلغها مرتفعاً جداً أحياناً حتى أنه يجبر الورثة على بيع الملك . ويسهم بذلك بشكل محسوس في الأزمة النبيلة . وبعضهم يهتدون على الأكثر بالتخلي عن نعم هذا العالم بغية الكسب أو الحصول على ثواب في العالم الآخر : ويشهد على ذلك نجاح حركات الفقر الشعبي ؛ وتحت ظل (الإخوة الصغار) ، أبدى بعض العلمانيين بعض التمنيات وألفوا النظام الثالث الفرنسيكاني . وتشكلت رابطات تقوى لتساعد على الصلاة والتأمل معاً : وجمعت أخويات (جمعيات تقوى) أعضاء حي واحد أو حرفة واحدة لعبادة قديس شفيح ولأجل الأعمال الخيرية ؛ ففي وادي الراين والبلاد المنخفضة بحث أناس أتقياء وتقيات عن سلام الروح في حياة تقوى ونسك منظمة بقاعدة . وفي ١٣٧٤ م ، هجر أستاذ الفنون في دفنتر ، هو ، جيرارد دوغروت ، حياة البذخ ووقف نفسه للتبشير . وفي ١٣٨١ م ، أسس رابطة إخوة الحياة العامة (المشتركة) التي تبنت ، في الدير الذي أسس في فيندسهام قاعدة القديس أغسطينوس .

وفي الأوساط الشعبية ، حيث قلة الغذاء المنظمة لحوادث العصر الدرامية تغذي هياجاً شبه مرضي ، كانت نار الحماس الصوفية غالبية كثيراً . فما أن يعلن أشراقي نهاية العالم القريبة إلى هذه الأفكار السريعة التصديق إلا ويفلت زمام التجاوزات المرضية عند المطاوعة المتعصبين (الذين يضربون بالعصى والسياط) إن كلام مبشر شعبي يكفي لإثارة هياج عنيف في الجمهور . ولسد عوز أكليروس الخورية ، تمت في الواقع ممارسة الوعظ والتبشير الاستثنائية ، وغرضها الأساسي التوبة ، وينظمها عموماً الرهبان الدومينيكان والفرانسيسكان الذين يعرفون جيداً تكييف أنفسهم مع من يسمعون من أفراد الشعب . وفي الغالب لا يترددون في

اللجوء إلى إخراج درامي ليهيجوا الجمهور المستمع بشكل أفضل : ففي باريس أراد راهب فرنسيسكاني ، وهو الأخ ريشار ، أن يؤثر في الجمهور بشكل أفضل ، فبشر في (مقبرة الأبرياء) . وتابع أربعة أو خمسة آلاف شخص دروسه التي كانت تدوم عدة ساعات غالباً . وآخرون يعلنون صوراً مؤثرة ، وللتأثير على الأفكار بشكل أفضل يدعون الحضور إلى التخلي عن جواهرهم وشعورهم أو كتبهم الثينة . إن الفصاحة الفجة والساذجة لهؤلاء الرهبان الذين يتناولون الذنب والجحيم ، تأخذ أحياناً طوراً مرئياً (ديماغوجياً) ، يثير المؤمنين ضد أكليروس الخورية المتهم بالجهل وعدم الأخلاق ، وضد الأمراء ، وأثاروا بذلك ، على سبيل المثال ، في بداية القرن ، الثورة الفلاماندية ضد فيليب الجميل أو ضد سيدات الطبقة العليا .

وبعضهم كانوا دجالين يسيئون تصديق الجمهور لبيعوا بقايا مقلدة للقديسين أو صوراً للحماية . وقد نوه دانتى في (فردوسه) بهذا الغش والختالة .

وعلى العكس كان وجه فانسان فرّيه ، وجه مبشر متحمس ، قديس أصلي . ولد في فالنس في ١٣٤٠ م وتلمذ في جامعة تولوز . وهذا الدومينيكي كان لاهوتياً وفي الوقت ذاته أخلاقياً حكيماً . جاب إسبانيا وإيطاليا الشمالية وسويسرا وقسماً من فرنسا : ومن ١٣٩٩ إلى ١٤٠٥ م دحر الهرطقة في بلاد الألب . ومن ثم نجده في بورغونيا ، وفي الوسط ، وأخيراً في بروتانيا حيث جاء وتوفي في فان في ١٤١٩ م . فحيث مرّ كانت فصاحته التي تكونت في المدارس ، ولكنها مصطبغة بكلمات واقعية شعبية ، تثير حماسة ألوف السامعين الذين كادوا يخنقونه يوماً في إسبانيا من كثرة تهافتهم على تقبيل يديه .

لقد أخذت العاطفة الدينية ، مع متطلباتها الجديدة في بعض الأوساط الممتازة ، طوراً فكرياً . فالكتاب ، وقراءته والتأمل فيه لعبت فيها دوراً هاماً . وبالفعل ، إن تجديد الحياة الفكرية في القرن الرابع عشر لم يقتصر على حلقة صغيرة من الأدباء الإنسانيين والكتاب . فقد امتد على كافة العلمانيين الأثرياء

وأعطى لعقليتهم الدينية صفات غير مجهولة حتى ذلك الحين . إن كثيراً من النبلاء والبورجوازيين يعلمون القراءة الآن بفضل تقدم التعليم الابتدائي في المدن . وقد بدأت الفكرة بالظهور في أن تربية الأطفال الدينية يجب أن تستند على تكوين فكري حقيقي . وقد دلّ لويس التاسع بـ (تعليمات إلى ابنه) ، على الطريق ، ونسخت في الغالب مؤلفاته في القرن الرابع عشر . وظهرت بعض المؤلفات الجديدة أيضاً ، فمن ذلك أن جنرال الإخوة الصغار كتب في القرن الرابع عشر ، أول درس للتعليم الديني الذي مازال قاصراً والحق يقال على الأمير وهو أندره هونغاريا . واهتم الأمير الأنجفي الصغير ، الفارس دو لاتور لاندرى أيضاً بتربية أطفاله .

ويجب أن نشير إلى أن البنات أفدن أيضاً من هذا التعليم الذي انتشر بصورة واسعة .

وفي الحقيقة ، كان القصد هنا حالات منعزلة ، لأن الاهتمام بالتعليم الديني لم يظهر بحق إلا في القرن السادس عشر .

على أن تذوق القراءة وإن كان محدوداً منذ الطفولة فهو دائم وأصبحت الكتب وسائل عائلية للإلهيات الدنيوية كما هي للحياة الدينية . وكانت كريستين دوبيزان ابنة مستشار شارل الخامس مثلاً شهيراً على ذلك . ففي القراءة ومن بعد بتحرير المؤلفات حاولت أن تنسى فقد زوجها العزيز ، المبكر قبل أوانه ، وذكرياتها الحزينة .

وكان كل هؤلاء العلمانيين المثقفين مهتمين بأن يجدوا في الكتب أفضل معرفة لحقائق الدين وواجبات المسيحي . فمن أجلهم ألف عدد عظيم من الأعمال بلغة عامية : كتب تدعو إلى الفضيلة والتقوى مثل (طريق جهنم والجنة) ، وهو أثر لشاعر طواف من ليل ، واسمه جان دولاموت ، بناء على طلب بورجوازي من

باريس ؛ ومجموعة سير قديسين من بينها (الأسطورة الذهبية) التي كتبها في آخر القرن الثالث عشر دومينيكي ، جاك دو فوراجين ، ولاقت نجاحاً دائماً . وأخيراً مطولات عقائدية تضع في متناول العلمانيين مفاهيم (أفكاراً) عن اللاهوت والأخلاق الخاصة حتى ذلك الحين بالأكليركيين . والايلوسيداريوم المنسوب إلى هونوريوس دوتن (القرن الثاني عشر) هو أيضاً تكييف بالفرنسية تحت اسم (لوسيدير) أو « نور الحق » ، ثم ترجم بلغات عديدة ، الفلاماندية ، الإنكليزية ، الإيطالية ، وهو يعطي مبادئ حقيقة الناموس ، والله ، والخلق ، والافتداء ، والفضل (العون الإلهي) ، القداسات ... عرض مبسط ولكنه وضع بعناية . والاهتمام بالتبسيط يعبر عنه بوضوح .

وهذا الدور المتعظم للكتاب يعطي لتقوى العلمانيين مجرى (مساقاً) آخر . وهو أن إيمان المؤمنين لا يدعم فقط بكلام المبشر الواعظ والممارسات التي تعمل معاً في الكنيسة : إنه يعتمد على القراءات الشخصية الخاصة ليساعد على التأمل والتفكير الداخلي . إن قراءة النصوص المقدسة أولاً ، كان الأكليريوس في مجموعته معادياً لها . وقد عبر جرسون عن حذره من الناس غير المتعلمين الذين يناقشون بعد الطعام بالكتاب المقدس . وقد جهز القرن الرابع عشر أكبر عدد من مخطوطات الكتاب المقدس باللغة الفرنسية .

على أن الوصول إلى نص الكتاب المقدس ظل صعباً على الكثير من العلمانيين المثقفين . ولذا فإن السيدات وكبار الأمراء اعتادوا بأن يطلبوا تأليف كتب الصلوات الكنسية التي تزوق أحياناً بشكل يدعوا إلى الإعجاب بالصور والألوان والنقوش . وتتألف هذه (الكتب) من نصوص مختارة ، ومجموعة حسب هوى القارئ وعلى نيته تنسخ لينهل منها ارتياحاً معنوياً وروحانياً خاصاً . ويوجد فيها ، كيفما اتفق ، مقتطفات من الإنجيل ، وبخاصة قصة آلام السيد المسيح ، بضعة مزامير ، مجموعة صلوات واحتفالات ليتورجية (طقسية) ، وبصورة خاصة

قداس العذراء ، وصلوات ألف بعضها مالك الكتاب بل وحتى أغاني دنيوية . وأخيراً يرجح مؤمنون آخرون عديدون جداً أن يسلموا أنفسهم إلى دليل روحي له لقب أو صفة . ويقصد أحياناً كاهن معرف يصغي إلى اعتراف المؤمن . وتعممت العادة بأن يكون للإنسان موجه لضميره . ولكن كثيراً من الأرواح كانت تبحث عن نجدة في الحوار مع كتاب ، محاولة (تقليد) التجربة الروحية التي خطها المؤلف في ما كتبه . وانطلاقاً من النصف الثاني للقرن الرابع عشر ، انتشرت وكثرت دونما ملل أنواع من اليوميات الخاصة المنسوخة ، وفيها يصف رجال ونساء نوازعهم المعنوية . وحالاتهم الصوفية . وكانت هذه الآثار المؤلفة تأتي من كل البلاد المسيحية ، من إنكلترا ، من إيطاليا ، حيث كتبت كاترين دوسين محاوراتها (١٣٤٧ - ١٣٨٠ م) وكانت معتبرة في حياتها كقديسة من قبل عدد من معاصريها ، ولكن بخاصة المناطق الريفية والفلامندية التي كانت آنذاك مركزاً كثيفاً ، للحياة الروحية . إن أوعاظ الأستاذ إيكاردت (١٢٦٠ - ١٣٢٧ م) ، وأوعاظ جان تاولر (١٢٩٠ - ١٣٦١ م) ، وكتاب الحكمة الأزلية لمؤلفه هنري سوزو (١٢٩٥ - ١٣٦٥ م) ، ورسول الحب الإلهي الذي ترجم إلى كل اللهجات الألمانية ، تحتفل باتحاد الروح بالله .

وإشعاع جان دورويسبروك (١٢٩٣ - ١٣٨١ م) أوسع أيضاً ، ولا سيما في فرنسا . ففي آثاره (مرآة الخلاص الأزلي) أو (تزيين الأعراس الروحية) يجد تقوى الاستسلام لإرادة الله ، والإحسان ، والخضوع الباسم . ولكن ، من كل هذه التأليف الصوفية ، نرى أن المؤلف الذي بلغ أعظم شهرة وأعظم دوام لها هو (تقليد يسوع المسيح) . وهذا الأثر الذي ألف في النهاية القصوى للقرن الرابع عشر أو في بداية القرن الخامس عشر ، ينسب إلى توماس دو كبن الذي ينتمي إلى جمعية فيندسهام . ويتألف « التقليد » من أربعة أجزاء تشكل المراحل الأربع للطريق الروحي : الأولى : تقترح أن ينفصل الإنسان عن ذاته وعن

العالم ؛ الثانية : العون على النزول في قلبه الخاص ؛ الثالثة : تدريبه على أسرار الحب الإلهي ؛ الرابعة : أخيراً ، توحده مع الله في قداس (سر القربان المقدس) . وكان مع الكتاب المقدس الكتاب الأكثر ترجمة والأكثر نسخاً في آخر العصر الوسيط .

والتصوف الريناني والفلاماندي ، كما كان التصوف الفرنسيكاني في القرن السابق ، يمثل اتجاهاً معادياً للفلسفة العقلية ومعادياً للتفكير اللاهوتي ، ويشدد على القيمة الأساسية للخضوع : على العقل البشري أن ينحني أمام السر الإلهي . هذه هي النصيحة التي يعطيها جان تاولر .

وهنا يلتحق التصوف الأكثر سموً بالدين الغريزي للشعب . التقوى يجب أن تكون سفك قلب ، عاطفة ؛ وهي ماتسمى (التقوى الحديثة) . إلا أن بعض الأفكار تحاول أن تجد ثانية التوفيق بين العقل والعاطفة . جان جرسون (١٣٥٣ - ١٤٢٩ م) أشهر ممثل لذلك . وبرغم أنه أستاذ في اللاهوت ورئيس جامعة باريس ؛ فقد تأثر بنفوذ التقوى الحديثة : ففي مطولاته ، (جبل التأمل) يدعو إلى تجارب الحياة الداخلية والحكمة المنطقية معاً . وبالنسبة لجميع المسيحيين الأتقياء تم الاتفاق على نقطة وهي : من الضروري أن تصلح الكنيسة نفسها . والجميع ينتظرون من البابا هذا الإصلاح . ولكن هل كان لبابوية القرن الرابع عشر إمكانية توجيه مثل هذا المشروع ؟!

الفصل الرابع

آفنيون أو روما

من ١٣٠٩ إلى ١٣٧٦ م ، ولأول مرة في تاريخ المسيحية ، هجر البابوات بشكل دائم روما ، مدينة القديس بطرس . وظل كرسي حكومة الكنيسة في آفنيون نحو ٦٧ سنة . ويتفق هذا التغيير في الإقامة مع مرحلة جديدة في تاريخ الكنيسة . أولاً ، إن أخذ مدينة عكا (١٢٩١ م) سجل إخفاق الحروب الصليبية ، الفكرة الكبرى للبابوية في القرون السابقة ؛ ودلّ انتخاب العاصمة الجديدة ، آفنيون ، على انتقال مركز ثقل المسيحية نحو الغرب . ومن جهة أخرى ، إن توقيع البابا بونيفاس الثامن في أنابيني ، في منطقة لاتيوم ، بأمر الملك فيليب الجميل ، على يد رسوله نوغاريه وسيارًا كولونّا ، وموت بونيفاس الثامن (٢٠ تشرين الأول ١٣٠٣ م) ، ورفق خلفه بنوا الحادي عشر (١٣٠٣ - ١٣٠٤ م) الذي سامح فيليب الجميل ، أظهرت كلها كيف نمت سلطة الملوك أمام سلطة زعيم المسيحية . وفي رأي إينوسان الثالث ، في مغادرة إيطاليا التي (لها التفوق على كل بلاد العالم) أن الأحبار العظام قد تخلوا عن نظريات التيقراطية (الحكم الإلهي) . وسيرى أن البابوات الذين هم من أصل فرنسي ، يعيشون على مقربة من مملكة فرنسا ، وسيجابهون هذه الظروف الجديدة التي كان على الكنيسة أن تتكيف معها . وعلمهم هذا يدل على أن له صفة خاصة .

الإقامة في آفنيون

الاستقرار التدريجي

لقد بدا اختيار آفنيون مقاماً حبرياً في بداياته كقرار أملتته الظروف ، وله صفة مؤقتة تماماً . فعند وفاة بنو الحادي عشر ، كان الكرادلة منقسمين منذ حادث آتانيي ولم ينجحوا في الاتفاق إلا باختيارهم حبراً أجنبياً في مجمع الكرادلة وقدرتهم على لعب دور الموفق بينهم ، رئيس أساقفة بوردو الذي توج في ليون تحت اسم كليمان الخامس (١٣٠٥ - ١٣١٤ م) . وساعد كل شيء على التسك بالبابا الجديد ، الغاسكوني الأصل وإبقائه في جهة جبال الألب . كان من رعايا ملك فرنسا وتابعاً لملك إنكلترا ، دوق أكيانيا . ويشعر بأنه مقلد بمهمة خاصة ، ويقصد بذلك تسوية الخلاف الفرنسي - الإنكليزي في أكيانيا بغية إطلاق العاهلين المتصالحين في حرب صليبية جديدة ؛ ومن جهة أخرى ، إن الشؤون الفرنسية ، وبخاصة دعوى فرسان المعبد (نظام عسكري وديني أسس في ١١١٩ م ، وتميز أعضاؤه بخاصة في فلسطين) الذين احتلوا فيما بعد المقام الأول من اهتماماته . وبالمقابل ، إن الأخبار التي يتلقاها من إيطاليا قلما تجذب الحبر الأعظم لشبه الجزيرة : ففي روما ، كان البونيفاسيون وأعداء البونيفاسيين متجمعين حول أسرتين ، أسرة غيتاني وأسرة كولونا ، وما فتؤوا يتصادمون في منازعات دامية تجعل الإقامة في المدينة الخالدة غير مؤمنة إلا قليلاً . وانطلاقاً من ١٣١٢ م ، كانت إيطاليا كلها في حالة هياج واضطراب بحملة الإمبراطور الجديد هنري السابع . أما البابا ، فبعد أن جاب أولاً أكيانيا زمناً طويلاً ، وتفاوض مع فيليب الجميل ومع ملك إنكلترا ، قرر في ١٣٠٩ م أن يبقى بعض الوقت بالقرب من مدينة فيين : وهنا انعقد المجمع المكلف بتسوية قضية فرسان المعبد . ووقع اختياره على آفنيون . وكانت هذه المدينة منذ ١٢٩٠ م لتابعه ملك صقلية ، كونت بروفانص ، الذي يستطيع أن يمنحه حمايته . وكانت قريبة من المملكة

الكابسية ، وواقعة على حدود الأراضي التي تنازل عنها ريمون السابع كونت تولوز إلى البابوية في ١٢٢٩ م ، وتؤلف منطقة الكونتا فينيسان . وفي أفنيون استقر الحبر الأعظم بشكل مؤقت تماماً طالباً الضيافة من دير للدومينيكيين . وفي نيسان ١٢١٤ م ، تهيأ للذهاب إلى أكيثانيا مسقط رأسه ، لولا أن وافته المنية .

وبالنسبة لكليان الخامس ، لم تكن أفنيون إلا مقاماً أو موقفاً ممدداً قليلاً . وبعد وفاته ، جرت عدة حوادث غير متوقعة ساعدت على تمديد دور أفنيون كمقام حبري . وفي الواقع ، كان الحبر الجديد ، جان الثاني والعشرون (١٣١٦ - ١٣٢٤ م) في السابق أسقف أفنيون . وانتخب بصورة طبيعية منزله في القصر الأسقفي للمدينة ، حيث يشعر أنه في منزله ، وليؤمن نفسه بالألا يصطدم بحجر مستاء ، احتفظ لنفسه بالأسقفية . ومع ذلك ، فإن هذا الشيخ الهرم القوي ، بالرغم من أصوله الكرسيوزية (من منطقة كرسي) في حوض أكيثانيا والارتباطات العديدة التي حافظ عليها في كونتية بروفانض حيث قضى الجزء الأكبر من حياته الكنسية ، كان عازماً على عودة البابوية إلى روما . لقد كانت أفنيون بالنسبة له مقاماً مستحسناً وسهلاً ، لأنه ، باعتباره منهمكاً كسلفه في قضية الحرب الصليبية ، حاول عبثاً ، أن يهدئ الخلاف الناشئ بين فرنسا وإنكلترا . ولكن القصر الأسقفي في روشيه ديه دوم ليس إلا مقاماً مؤقتاً في نظره . واقتصر على إصلاحه وتزيينه بعض الشيء دون التفكير ببناء مسكن أكثر سعة منه ، وبخاصة ، منذ ١٣١٩ م قرر جان الثاني والعشرون أن يفتح لنفسه بالقوة طريق روما ، وإذا كان يعتمد على الحلفاء التقليديين للبابوية ، ملك صقلية وكومون فلورنسا ، فقد كان عليه ، بالمقابل ، أن يجابه القوى الجبيلية في شمال شبه الجزيرة ، آل فيسكونتي في ميلانو ، وآل سكاليجر في فيرونة وكومون لوك وبيزا ، وإعادة النظام إلى روما وفي إيطاليا الحبرية . وعلى رأس الحملة ، وضع البابا الكاردينال برتران دو بوجيه الذي حاصر ميلانو . ولكن ، بدأت

المشاكل بعد ذلك : فقد جاء ملك جرمانيا الجديد ، لويس بافاريا لنجدة ماثيو فيسكونتي وأجبر الجيش الحبري على رفع الحصار (١٣٢٣ م) . ثم جاء لويس بافاريا إلى روما وتوج إمبراطوراً على أيدي سنديكات الكومون (أعضاء المجلس البلدي) (كانون الثاني ١٣٢٨ م) وأقام عدواً للبابا . وفي الحقيقة ، كان مضطراً أخيراً للرجوع إلى ألمانيا (١٣٣٠ م) . ولكن جان الثاني والعشرين لم يعرف كيف يفيد من الحالة التي كانت تتطور لصالحه : لأن مشروعه في تشكيل مملكة تابعة للكرسي الأقدس في إيطاليا الشمالية ، أقام ضده جميع المدن وكل الإمارات ، والغلفين والجيبيلين ؛ وفي ١٣٣٤ م ، طرد برتران دو بوجيه من بولونيا . وكان ذلك إخفاقاً لسياسة جان الثاني والعشرين الذي توفي بعد قليل (في ٤ كانون الأول ١٣٣٤ م) . وأصبحت آفنيون مقاماً طبيعياً للبابوية .

في حبرية جان الثاني والعشرين الطويلة أفادت آفنيون ، هذه المدينة الصغيرة الرومانية (القائمة على ضفاف نهر الرون) من مقر حكومة الكنيسة فيها . فقد وضعها موقعها في مركز الغرب الوسيط الذي لا يتطابق في القرن الرابع عشر مع الغرب الروماني . وهذه الفائدة تعززت لوجود آفنيون في ملتقى طرق المواصلات الكبرى البرية والنهرية والبحرية في أوربة الغربية : فعلى المحور الكبير الذي يربط المركزين الاقتصاديين الكبيرين المعاصرين لإيطاليا الشمالية وبلاد الفلاندر ، احتفظت آفنيون ، منذ تدمير جسر مدينة آرل الروماني بآخر جسر قبل مصب نهر الرون الذي يساعد على وصل الطرق الألبية والأكيثانية . وفوق ذلك أفادت المدينة من قربها من موانئ الرون - الأدنى التي تقيم علاقات بحرية مع حوض البحر المتوسط كله ومع المحيط الأطلسي . ومن جهة أخرى ، إن موقع المدينة يبعث الأمن والمسة : ففي النقطة التي يتقلص فيها الوادي تؤلف صخرة الدوم حصناً طبعياً ؛ وفي التلال المجاورة ، يجد البابا النسيم العذب في إقامته الصيفية . والمدينة نفسها تبدي الكثير من السهولات . وباعتبارها أهم من

المدن المجاورة بإمكانها أن تتكيف مع دور عاصمة . وبعد أن كانت مدينة أسقفية بسيطة في الأصل ، تمتعت منذ القرن الثاني عشر بنهضة اقتصادية ترجع إلى تأسيس طواحين الطحين وآلات كبس اللباد ، على نهر السورغ رافد الرون . ومنذ ١٣١٧ م جذبت فوائد هذا الملتقى التجاري ووجود البابا الشركات الفلورانسية وأقامت فيها مراكز لها ؛ وحلت بالحال أفنيون محل مارسيليا التي دمرتها سياسة الأنجويين الحربية ، وأصبحت عاصمة تجارية ومصرفية لإقليم بروفانس . وأخيراً أصبحت المدينة يأنشاء جامعة فيها (١٣٠٣ م) ، مركزاً فكرياً . ومع ذلك فإن هذا النهوض كان حديث العهد ، وسكان أفنيون لم يكن وراءهم أي تقليد ، ولذا اكتفوا بهذا الازدهار غير المؤمل وتطلعوا إلى لعب دور سياسي ، وأمكن البابا أن يجد هنا في هذه المدينة السلام والأمن المفقودين في روما .

وهذه الفوائد جميعاً تضافرت لصالح استقرار دائم للبابوية في أفنيون في الوقت الذي دلّ فيه إخفاق الحملة التي أطلقها جان الثاني والعشرون على أن عودة خلفاء القديس بطرس يجب لها جهد عسكري عظيم . ولم يكن البابا بنوا الثاني عشر (١٣٣٤ - ١٣٤٢ م) بالرجل الذي يستطيع متابعة سياسة سلفه . كان راهباً سسترسياً أي ينتسب إلى دير سيتو ، وأصله من كونتية فوا . امتهن اللاهوت ، وكان معادياً للعمليات العسكرية المكلفة للكنيسة ، وساءته دبلوماسية الأمراء الإيطاليين المراوغة ، ورأى أن يكرس نفسه لتعريف العقيدة وتقويم أخلاق النظم الدينية . وقرر البقاء في أفنيون . ورغب البقاء حيث هو دون أن يعكر الإدارة الكنسية في المدينة . ووطد أسقف أفنيون ، وأسكنه قصرأ آخر . وقرر في ١٣٣٦ م أن يشيد في مكان القصر الأسقفي القديم مسكناً جديداً متكيفاً مع حاجات البابا وحكومة الكرسي الأقدس ، يحتوي على أجنحة وكنيسة صغيرة (قابلة) ورواق للحبر ولأعضاء حاشيته (بطانته) ، ومكاتب لجميع المصالح الإدارية وبخاصة للمحفوظات التي أقي بها بنوا من أسيز في ١٣٣٩ م ،

وأحيط هذا المركب من العوائر بحصن صلب قادر على مقاومة أي هجوم محتمل .

وكان خلف بنوا الثاني والعشرين أبعد من أن يفكر بمغادرة آفنيون ، وأنجز مقام البابوية . كان كليمان السادس (١٣٤٢ - ١٣٥٢ م) من إقليم ليوزن وينتسب أيضاً إلى الأسرة البندكتية . ولكنه كان يجمع إلى علم اللاهوت معرفة عميقة بالقضايا السياسية والحقوقية . وقد اكتسب هذه المعرفة عندما كان قياً على أختام ملك فرنسا (١٣٣٠ - ١٣٣٨ م) . لقد اهتم أولاً بتأمين الاستقلال السياسي للبابوية في آفنيون : ففي ١٣٤٨ م اشترى المدينة من ملكة نابولي وحصل من ملك الرومانيين على تخليه عن حقوقه في السيادة . وأصبح البابا منذ الآن عاهل آفنيون كما هو عاهل الكونتات فينيسن . ومن جهة أخرى ، عرف هذا الخبر أبهة وبذخ بلاط الملك فيليب السادس ، وأراد أن يكون البلاط الحبري ، بلاط أول عاهل في العالم ، ألمع البلاطات جميعاً . ولإلجاء جمهور موظفيه ، وإعطاء إطار للحفلات الدينية كالأعياد الدنيوية ، لم يكفه قصر بنوا الثاني عشر المتقشف ، ولذلك قام ببناء قصر ثان إلى جانب الأول . ويعطى خارج القصر دوماً مظهراً شديداً وقاسياً لحصن . ولكنه في الداخل ، كان يضم فرسكات ومنحوتات عديدة تزين صالات الاستقبال الواسعة . وفيها أقيمت الأعياد الفخمة والمآدب العظيمة .

آفنيون عاصمة جديدة للمسيحية

أصبحت آفنيون آنذاك عاصمة حقيقية ، وأهلاً بقصرها وبلاطها للجلالة الرسولية ، وقادرة على تأمين حكم الكنيسة بنفاذ .

وفي الحقيقة ، إن حضور الحبر الأعظم أدى إلى تحويل سريع في المدينة . فقد شهدت هذه القرية الهادئة على ضفاف الرون عدد سكانها في بداية القرن يتضخم بصورة عظيمة بإقامة البلاط الحبري الذي ضم نحو ثلاثة آلاف شخص وبمجيء الحرفيين والتجار المرتبطين بهؤلاء الزبائن الأثرياء . ودون عد الكتلة

العائمة للأحبار والأمراء والسفراء في زيارة رسمية ، كان الزوار مشدودين إليها بسنا الأعياد الدينية . وبعدد سكانها ٣٠٠٠٠ نسمة في النصف الثاني من القرن الرابع عشر ، كانت تعادل مدينة بروج أولندن . وفي فرنسا ، كانت باريس وحدها تتجاوزها بسكانها الذين بلغ عددهم ١٠٠٠٠٠ نسمة . ورافق هذا النمو في السكان نمو النشاط المدني . ولتدارك حاجات البلاط الحبري وحاجات ضيوفه ، كان تجار المدينة ، ولا سيما اليهود ، أقوياء بالحماية الحبرية ، ويمدون سوقها بالحبوب والخنور والخضار وفواكه وادي الرون ، ولحوم وأخشاب جبال الألب ، بل وحتى السمك من الشاطئ الأطلسي . وجاء الحرفيون كثراً من المناطق الألبية واشتغلوا دون بطالة ولا سيما في حرف البناء والنسيج . ولكن أفنيون كانت أكثر من سوق إقليمي هام ، فلإرضاء أذواق الأحبار الرقيقة الناعمة توجب أن يؤتى على المائدة بخمور بورغونيا الصافية ، وحلويات الشرق ، وتجهز ألبسة الأبهة والزينات الكهنوتية بالحرائر الشرقية ، والأقمشة الناعمة من الفلاندر وتوسكانا ، وبالفرو من الباطيك . وكانت المراكز التابعة للشركات الفلورانسية الكبرى تسيطر على هذه التجارة كما تشرف في أفنيون على جميع الفاعليات المصرفية : فقد تكفلت بجميع حركات الأموال الواردة أو الصادرة لجميع بلاد المسيحية ، وبالتالي أمنت عمليات الودائع والقطع والقرض .

وكما كانت أفنيون عاصمة دولية ، كانت أيضاً عاصمة على صعيد الفنون والآداب . ولعب أحبار أفنيون في معظمهم عن ضرورة أو عن ذوق ، دور الحماية ، وقلدهم في ذلك الكرادلة . لقد جمعوا على ضفاف الرون الفنانين والكتاب من جميع مناطق الغرب . وأصبحت أفنيون أحد المراكز الأوربية التي تلقت فيها وتنتشر أهم الاتجاهات الفكرية والجمالية في القرن . كانت المدينة مشغلاً سمردياً معروفاً على المهندسين المعماريين والبنائين : فإلى القصرين الحبريين أضيفت دور للكرادلة ، وأديرة وكنائس وقابلاتٍ بعدد عظيم أسسها أغنياء ومشاهير الزوار

الذين يرغبون بأن يؤمنوا لأنفسهم أفضلًا بعد وفاتهم . إن المهندسين المعماريين ، من أمثال مهندسى القصور ، بيير پواسّون وجان دو لوبيير ، كانوا من جنوب فرنسا . ولكن لتزيين جدران المحاريب (الخوارس) والأجنحة ، دعي في وقت مبكر الفرسكاتيون الإيطاليون ، ومن بعد الفنانون الكاتالانيون . فقد جاء الرسام السييني العظيم سيمون مارتيني إلى أفنيون في ١٣٣٩ م وظلّ فيها حتى وفاته (في ١٣٤٤ م) . وعلى لوحة جبهة بوابة كنيسة نوتردام دي دوم ، رسم إحدى روائعه (السيدة ترضع الطفل) ، التي أسهمت بشكل قطعي في نفوذ المؤثرات السينية في الفن الفرنسي . ثم جاء أحد تلاميذه من إيطاليا أيضاً وهو ماتيو جيوفانيلي من فيترب واشتغل في أجنحة كليمان السادس . ومع جمع من الفنانين الباريزيين ، والبورغونيين والبروفانسيين يعملون تحت توجيهه ، ربما أسهم في رسم مشاهد للكنس والصيد على جدران غرفة الأيل . وكان في الغالب مؤلفاً لفرسكات قابلة القديس - يوحنا وقابلات الشارتروز دو قال دو بندكسيون ، في فيلنوف ليزافينيون . وإلى فخامة الأشكال والألوان ، يضاف في الاحتفالات الدينية وفي حياة البلاط ، الجمال الرصين للموسيقى المتعددة الأصوات : فقد كان مغنو وموسيقيو القابلة الحبرية يساقون من بين أشهر فناني أوربة .

ولم يكن النشاط الفكري أقل أهمية . لقد جذبت أفنيون وفي الغالب ، أمسكت بأشهر أكليركي المسيحية في العالم ، وبالأخبار ، والفقهاء في الحقوق الكنسية ، والجامعيين وأمناء دائرة الختم الرسولي (الإدارة الرسولية) .

ولمعت جامعة أفنيون بخاصة في صعيد الحقوق ، وضمت مشاهير الأساتذة ، مثل الحقوقي الإيطالي الكبير بييرو بالدي ديغلي أوبالدي ، الذين بادر إليهم جمهور من التلاميذ . وكان تحت تصرف الأساتذة والطلاب مكاتب غنية جداً أسسها الأخبار والكرادلة . فإلى جانب المؤلفات اللاهوتية ، والحقوقية والليتورجية (الطقسية) ، وجدت مجموعة مخطوطات انطلافاً من حبرية كليمان

السادس ، تضم أهم أعمال القديم اللاتيني ، وترجمات لمطولات عربية ، ومؤلفات بالعبرية . وتكشف فهارس كاتالوغات هذه المكتبات عن اهتمامات غير دينية : لقد أصبحت أفنيون ، على نمط المدن الإيطالية الكبرى ، أحد مراكز الآداب الإنسانية الناشئة . وكانت لغة هذا العالم العالم ، بالبداية ، اللاتينية التي ساعدت الأدباء العالميين ، مثل أكليركي مختلف الأمم ، على التفاهم فيما بينهم ومنافسة القدامى على أرضيتهم الخاصة . وإذا كان بترارك (١٣٠٤ - ١٣٧٤ م) ابن كاتب العدل الحبري قد استقر في أفنيون ، واشتهر باللغة اللاتينية كمؤلف لكتب مطولة عالية ، ففي اللغة الإيطالية خلدت أشعار حبه للورا . ومن أفنيون ، شِعْ أثره في فرنسا الشمالية كلها .

العودة إلى روما

لقد أصبحت أفنيون الآن عاصمة دولية ومركزاً توجه منه البابوية كل حياة الكنيسة . ولكن روما ظلت المدينة المقدسة الممتازة والمركز الروحي للمسيحية . ومن أجل يوبيل ١٣٥٠ م ، لم يتزاحم الحجاج على شواطئ نهر الرون ، وإنما على شواطئ نهر التير التي يوجد بقرها ضريحاً القديس بطرس والقديس بولس . فكيف لا يقلق المسيحيون لهذا الانفصال ؟ يبدو أن خلف القديس بطرس الذي تراث في أفنيون ، لا يتصور مطلقاً العودة لدى زوجته الصوفية ، كنيسة روما . وقد اختلط لوم بترارك الحاد في مدينة أفنيون بتوسلات القديسة بريجيت السويد (برايت) التي استقرت في المدينة الخالدة في ١٣٥٠ م . وفي الواقع ، إن كليمان السادس لم يكن له خيار أكثر من سابقه بين أفنيون وروما ، واضطر إلى الخضوع وقام به بكثير من الواقعية ، تحت ضغط الأحداث . وكانت الحالة في إيطاليا ، في حبريته ، أكثر من أي وقت مضى ، تمنع عودة البابوية إلى روما . إن قوى الغلفيين ، في فلورنسا ومملكة نابولي ، التي تعتمد عليها تقليدياً السياسة الحبرية ، أضعفتها المشاكل الداخلية . فقد مزقت المنازعات السلالية جنوب

إيطاليا ، حتى أن الملكة جانّ الأولى اضطرت إلى اللجوء في بروفانص وهزت عدة إفلاسات تجارية ومصرفية الاقتصاد الفلورنسي . وفي الدول الحبرية ذاتها ، كانت سلطة العاهل موضع سخرية . وحاول كليمان السادس تنظيم حملة عسكرية ، ولكن هذه توقفت فجأة دون نتيجة ، لعدم وجود المال الضروري لدفع أعطيات المرتزقة . وأخيراً ، بلغ سيل الاضطراب الزبى : حاول الحزب الشعبي أن يفرض نفسه تحت إدارة كولا دي رينزو . وكان هذا يطالب صارخاً بعودة الحبر الروماني لدى « مدينته ، زوجته ... في ثلم روماني روما المعطر » ؛ ولكنه كان أول من استولى على سلطة الأب الأقدس على دوله . وقد شجبه كليمان السادس ، وطرد أخيراً ، ولكن الشيع النبيلة التي يوجهها آل أورسيني وآل كولونا ثارت من جديد في المدينة . وفي ١٣٥٠ م فرّ منها القاصد الرسولي قبل الاعتداء عليه بقليل .

وبموت كليمان السادس المفاجئ ، في كانون الأول ١٣٥٢ م ، بدأ في تاريخ النفي الآفنيوني ، دور ثالث ، وهو دور العودة التدريجية إلى ما هو طبيعي . هيأت البابوية دخولها إلى روما . ومع ذلك فإن إينوسان السادس (١٣٥٢ - ١٣٦٢ م) الفرنسي ، من لانغدوك ، هو أيضاً ، ظل في آفنيون طوال حبريته كلها ؛ ولكنه كلف قاصداً رسولياً أن يضع من جديد دول الكنيسة في إيطاليا تحت سلطته . وعهد بالمهمة إلى الكاردينال البورنوز ، وهو حبر إسباني اشتهر أثناء حرب الاسترداد القشتالية . وقد استعمل البورنوز طوراً وطوراً القوة والإقناع ، ونجح في أقل من عشرة أعوام (١٣٥٣ - ١٣٦٢ م) في إدخال جميع الأقاليم في طاعة الكرسي الأقدس . وأكثر من ذلك مهرها بتشريع واحد يشجع فيها الإدارة ، وتحت اسم الدستور الرعوي أخذ يسير حياة الدولة الحبرية حتى بداية القرن التاسع عشر . واستطاع أب سان فيكتور في مارسيلى ، الذي اعتلى العرش الحبري في ١٣٦٢ م ، تحت اسم أوربينو الخامس ، أن يتصور الأمل بالعودة

إلى المدينة الخالدة . ودعته الظروف إليها . وفيما عاد الهدوء إلى روما ، لم تعد آفنيون منذ عدة سنوات مقاماً أميناً : هدهدا قطاع الطرق ؛ أي المرتزقة الذين تركتهم الهدنات الفرنسية - الإنكليزية دون عمل ودون موارد . ففي ١٢٥٧ م ، حاول أرنود دو سرفول أن يستولي على المدينة حيث كانت الصناديق الممتلئة للحكومة الحبرية وأصحاب المصارف الفلورنسية تعد بغنية غنية ؛ وفي ١٣٦٠ م ، من جديد ، استقرت عصابة أخرى في بون - سن - إسبري (جسر الروح القدس) وعزلت آفنيون . ولم تغادر أخيراً إلا بعد دفع فدية كبيرة . وشيد سور لحماية مدينة آفنيون . ولكن هل سيكون كافياً لمقاومة هجوم جديد ؟ ومن جهة أخرى ، وعقب معاهدة كاليه (١٣٦٠ م) بدا أن مشكلة العلاقات الفرنسية - الإنكليزية قد حلت جزئياً . وبالمقابل ، إن تقدم الأتراك في البحر المتوسط الشرقي ، وضرورة نجدة ملك قبرص ، وضعت على جدول الأعمال الاتحاد مع الكنيسة الإغريقية . وفي هذا الطرف الجديد استعاد الوضع الجغرافي لروما قيمته كلها .. وأوربينو الخامس الذي كانت حياته كلها ديرانية ، ولم يخدم أبداً ملك فرنسا ، قرر بسرعة أن يوطد في روما الإقامة الحبرية . انطلق في ٣٠ نيسان ١٣٦٧ م ودخل روما في ١٦ تشرين الأول وذهب ليستقر في الفاتيكان ورافقه بضعة أعضاء من حكومته . وليجنب بقاء الكنيسة دون إدارة أثناء مدة الرحلة وعمليات الانتقال ، ترك أوربينو الخامس ، في آفنيون ، قسماً من البلاط الحبري ، وأخذ قسماً منه ؛ وما أن انقضت سنتان على عودته إلى روما إلا ووصلته أخبار مقلقة تخبره باستئناف الحرب بين الفرنسيين والإنكليز . وقرر أوربينو الخامس أن من واجبه العودة إلى آفنيون ليكرس نفسه لرجعة السلام . ودون أن يعلم الرومانيون بنواياه ، غادر روما ، واستقر من جديد مع حكومته كلها على ضفاف الرون . وصل في آخر أيلول ١٣٧٠ م ومات فيها بعد ثلاثة أشهر .

وبدا الدليل على أن آفنيون يجب أن تفضل على روما لحكم الكنيسة ،

وحسب عادة مقررة سابقاً ، انتخب مجمع الكرادلة من جديد بابا فرنسياً ، ابن أخ كليمان السادس ، وأخذ اسم غريغوار الحادي عشر . وفي الواقع ، كان البابا الجديد في الكنيسة يعرف بشكل أفضل من غيره إيطاليا ومشاكلها ، وكان مقتنعاً بضرورة استقرار البابوية ثانية في روما . اعتمر وهو في يافع قلنسوة الكاردينال ، أي كان كاردينالاً ، وأقام طويلاً في شبه الجزيرة الإيطالية . ففي بيروت حيث حصل ثقافة الحقوقي ، وكون لنفسه عدة أصدقاء بين الأدباء الإنسانيين ؛ ومن بعد ، في روما ، كلف مراراً عديدة بمهمات دبلوماسية . وكان غريغوار الحادي عشر مقتنعاً بضرورة توطيد البابوية بشكل نهائي في روما ، لصالح المسيحية جمعاء التي يجب عليها إيقاف تقدم (الكافرين) وحماية الدولة الحبرية المهددة ، في غياب الأب الأقدس ، بطمع جيرانها وبرارة الرومانيين .

ولكن المشاكل لا تخلو مع ذلك . فمن ذلك أن الخزينة الحبرية انضبت بالأعمال التي قام بها أسلافه ، ومن الصعب مجابهة نفقات رحيل جديد . ومورست ضغوط في محيط الحبر لصالح الإقامة في أفنيون : ضغط ملك فرنسا الذي كان بحاجة لمساعي البابا الحميدة في مفاوضاته مع إنكلترا ، وضغط كثير من أعضاء الحكومة الحبرية من أصل فرنسي ، الذين يعتبرون روما مكان نفي . وأخيراً في إيطاليا نفسها ، كانت فلورنسا تطمع بالتوسع ، بعد أن كسرت الحلف الغلفي وبدأت تناضل الدولة الحبرية . وحقق الموظفون الفلورنسيون الثانية (القديسون الثانية) الذين يوجهون العمليات ، نجاحات كبيرة دفعة واحدة ودون جهد ؛ وذلك بقيام المدن الرئيسية في الأقاليم الحبرية .

ولكن غريغوار الحادي عشر كان رجلاً مصمماً : جَنَدَ المرتزقة البروتانيين والغاسكونيين ، وتحت إدارة نائب عن البابا استردوا الدولة الحبرية . وإذا كان قراره ضرورياً ، فإن رجاء كاترين دوسيين الحار التي جاءت إلى أفنيون ، عزز هذا القرار . وفي أيلول ١٣٧٦ م أبحر البابا ورجال حكومته إلى مارسيليا ، وفي ١٧

كانون الثاني ١٣٧٧ م ، دخلوا روما . وبعد ذلك ببضعة أشهر توفي غريغوار الحادي عشر (في ٢٧ آذار ١٣٧٨ م) ، بعد أن استنزفته جهوده . ولكن البابوية في روما مرةً أخرى .

تحول البابوية بالنفي في أفنيون

لقد عادت البابوية متحولة من أفنيون إلى روما . إن نفي سبعين عاماً على ضفاف الرون ، والأصل الفرنسي ، وبشكل أدق اللانغدوسي للباباوات السبعة الذين تعاقبوا خلال هذا الدور على عرش القديس بطرس ، قد طبعاً على إدارة الكنيسة أسلوباً وصفات خاصة .

ملكية مركزية على رأس الكنيسة

وبفضل الإقامة في أفنيون وجد أن مركزية الكنيسة تحت إدارة البابا ، التي بدأ بها الأحرار الرومانيون في القرن الثالث عشر ، قد تسارعت . ففي أفنيون حققت حكومة الكنيسة استقراراً جديداً . وفي السابق ، كان الأحرار يهربون بانتظام كل صيف من المناخ غير الصحي لوادي نهر التيبر إلى مقاماتهم البعيدة في جبال أليان أو ساين ، آخذين معهم ، كيفما اتفق ، قسماً من المكاتب والمحفوظات . وفي الغالب كانت اضطرابات شارع روما أو الأشواط الإمبراطورية على ظهور الخيول تضطربهم إلى البحث عن ملجأ لدور طويل في مدينة أخرى من دولهم الإيطالية . فالأمن الذي يسود في أفنيون ونقاوة الهواء الذي يستنشقه فيها ، والقرب الكبير جداً من مقامات الصيف وضعت حداً لهذا الترحال للبلاط الحبري . ومنذ الآن أصبح من الممكن ، في قصر شيد لهذا الغرض ، توسيع المصالح ، ومضاعفة عدد الموظفين : الغرفة الرسولية تسير الشؤون المالية للبابوية ، والديوان حيث يوجد أكثر من مئة ناسخ وكاتب عدل يدرسون الملتزمات (العرائض) الآتية من كل بلاد المسيحية ، ويرسلون الرسائل الحبرية ،

وأخيراً المحاكم التي تخفف عن البابا قضايا لا عدّها لها من نفعية أو روحية لا يستطيع أن يبتّ بها وحده . وكما هي الحال في الملكيات العلمانية ، مهتت البابوية نفسها بهيئات إدارة حديثة ، تساعدتها على ممارسة سلطتها بشكل ناجع على مجموع الكنيسة ، فضلاً عن أن وضع آفنيون الأقل بعداً عن المركز من وضع روما ، يشجع علاقات مباشرة أكثر من جميع مناطق المسيحية مع عاصمتها .

وعززت البابوية بخاصة سلطتها على مجموع الأكليروس . وبتطبيق الإصلاح الغريغوري كانت قد حررت في السابق هذا الأكليروس من نفوذ العلمانيين ، وحصلت على انتخاب الأساقفة من قبل الكهنة القانونيين ، والآباء من قبل الرهبان . وانطلاقاً من منتصف القرن الثالث عشر ثبتت السياسة الحبرية ، في قضية الانتفاعات الكنسية ، هدفاً جديداً عبر عنه بوضوح في مرسوم ١٢٦٥ م : وهو أن البابا ، خليفة القديس بطرس ، له ملء التصرف بجميع المناصب الكنسية . فهو الذي يعين الأساقفة والآباء . وفي الواقع ، اكتفى أحبار آخر القرن الثالث عشر بتطبيق هذا المبدأ في بعض الحالات فقط : في الانتخابات المتنازعة ، أو المناصب الكنسية مع فوائدها التي تحتفظ البابوية بمنحها حصراً وصراحة . وإلى باباوات آفنيون الأوائل ، ولا سيما جان الثاني والعشرين يعود الفضل في توسيع استعمال (الاعتراض) قليلاً قليلاً ومضاعفة التدخلات المباشرة . وفي ١٣٦٣ م استطاع أوربينو الخامس أن يوسع (الاعتراض) على مجموع المناصب الكبرى وعلى بعض المناصب الصغرى .

أما وإن الأكليركيين يسميهم البابا ويرتبطون به من أجل منحهم منصباً آخر أكثر غنى ، لذلك خضعوا له بشكل وثيق ودعموا سياسته . وقبل الأساقفة بصفة خاصة الالتزام بحلف يمين الولاء للبابا وزيارته .

وبصورة موازية أنمى باباوات آفنيون الضريبة الحبرية التي يجب أن تؤمن

لهم وسائل سياسة كبرى . وحتى القرن الثالث عشر كانت البابوية تكتفي بموارد دومين الكنيسة تضاف لها ضرائب تجبى من الأمراء التابعين للكرسي الأقدس ، وحصائل القضاء الروحي الذي يمارسه الحبر ، وأخيراً الهبات ، والحبوس والأوقاف . وكان إينوسان الثالث أول من وضع مبدأ الضريبة الحبرية ، وحصل على أن يسهم المستفيدون الكنسيون في الحرب الصليبية بتقديم $\frac{1}{10}$ مواردهم . ولكن هذا العشر يبقى ضريبة استثنائية . وانطلاقاً من الوقت الذي احتكر البابوات فيه منح المناصب ، حصلوا ، أولاً بشكل هدية ، ثم بشكل رسم إجباري ، على أن يدفع المستفيدون ، إلى الكرسي الأقدس ، بعد تسميتهم ، مبلغاً ثابتاً يتناسب مع موارد المنصب المستفيد . وللسبب نفسه أمسك البابوات بإرث الحبر المتوفى وقبضوا موارد المنصب مادام هذا المنصب شاغراً . وأخيراً ، جرى تعامل يقضي بأنه يتوجب على الأساقفة والآباء الذين يأتون لزيارة خليفة القديس بطرس ، أن يدفعوا له مبلغاً صغيراً ، وهذا المبلغ حددت تعرفته أيضاً حسب الأصول بالشكل المطلوب .

وهكذا أصبحت المبالغ المتأتية من مختلف الضرائب على المناصب الكنسية ، تؤلف منذ الآن المورد الأساسي للبابوية : وهي التي تساعد على تمويل الحملات إلى إيطاليا وإلى الشرق ، وأعمال الإنشاء في آفينيون وفي روما ، وأخيراً أعمال الإحسان .

وعاود أحبار آفينيون عمل أسلافهم ووسعوه وتوصلوا إلى أن جعلوا من البابا ملكاً حقيقياً ، فهو مصدر الحق الكنسي ، وحامي الجامعات . وهو الوحيد الذي تكون له سلطة إنشائها ، والقاضي الأعلى في الصعيد الروحي ، ويتخذ قرارات لها قوة القانون بالنسبة للمسيحية جمعاء ، وهو على قمة التسلسل الكنسي ، ويتصرف بموارد هامة ، ويقرر ، باعتباره سيداً ، سياسة الكنيسة .

ونمت نظرية حقيقية للملكية الحبرية في سياق القرن ، واتخذت نقطة انطلاقها المناذاة ب بونيفاس الثامن بابا ، بخاصة في المرسوم « أونام سانكتام » .

وانتهى لاهوتيون بتوحيد الكنيسة مع البابا الذي هو رئيسها القدير . وقد عبر عن هذه الفكرة ، بشكل أخاذ ، فقيه فرنسي في الحقوق الكنسية ، في جدله مع أكليريكيين إيطاليين بقوله : « حيث يكون البابا تكون حكومة الكنيسة الرومانية أيضاً » ومن غير الممكن القول بشكل أفضل من أن البابا يمثل بشخصه كل حكومة الكنيسة .

وأمام هذه المركزية الحبرية أخفقت كل المحاولات التي أجريت في القرن الرابع عشر لتفرض على الكنيسة إدارة جماعية . فقد حاول مجمع الكرادلة ، في ١٣٥٢ م ، عند وفاة كليمان السادس ، أن يقطع لنفسه دوراً أكثر أهمية . فمن ذلك أن الكرادلة ، قبل القيام بالانتخاب الحبري ، وقعوا تسوية (اتفاقاً وسطاً) يتعهد بموجبه كل منهم ، بأنه في الحالة التي يصبح فيها بابا ، أن يحصل على موافقة مجمع الكرادلة في كل قرار هام . ولكن إينوسان السادس ، عندما انتخب ألغى هذه التسوية . أما المجمع الديني فلم يقدم له باباوات أفينيون إمكانية معاكسة سياستهم ، لأنهم ، بعد مجمع قيين الذي عقده كليمان الخامس (١٣١٠ م) ، لتسوية مشكلة فرسان المعبد ، لم يدعوا إليه أحداً لغاية في نفوسهم .

على إثر ذلك ، اضطرت المعارضة لمفهوم البابوية الملكي ، أن تلجأ إلى النقد في رسائل . وكانت من عمل الروحانيين الذين تطوروا أكثر فأكثر نحو الحيدة (الانفصال) والمهرطقة . وقد أطلق عليهم أولاً اسم « فراتيسيل » أو اسم صوفيين أو مهووسين . وشجبهم جان الثاني والعشرون وبنوا الثاني عشر ، فتحالفوا مع الحزب الإمبراطوري في الوقت ، الذي نوزعت فيه حقوق لويس باقاريا في الإمبراطورية من قبل البابوية ، وأنكروا على نظام التسلسل الكنسي ، الذي

هجر الفقر الإنجيلي ، كل حق في ممارسة السلطة . واتهموا جان الثاني والعشرين بالهرطقة ودعوا إلى جمع مسكوني . وقريب من موقف الروحانيين ، كان موقف غليوم أوكام . وهو أخ صغير تثقف في أوكسفورد قبل أن يأتي ليدرس ويعلم في باريس . كان يتصور ويفهم كنيسة روحانية فقط رئيسها المسيح لا البابا . وهذا التفكير يحجم بصورة فريدة السلطة الحبرية ، عدا عن أنه لا يعترف بعصمة إلا بفضل الكنيسة المجتمعة في جمع . ولم يذهب غليوم أوكام حتى الطرح بالرئاسة الحبرية كما فعل مؤلف عمل أساسي « محامي السلام » (١٣٢٤ م) : مارسيل بادوا الذي كان خلال بضع سنوات رئيساً لجامعة باريس ، وصديقه جان دو جانندن أستاذ طلبة الفنون في كلية ناغار ، اللذان اصطفا في الخلاف الذي وضعها ضد البابوية إلى جانب الإمبراطور والروحانيين . فهما يريان أن (الكنيسة ليست إلا الجسد العام للمؤمنين) .

وإذا كانوا يقبلون بالأصل الإلهي للكهنة ، فذلك بفضل الكهان السواسية بدقة . لقد طرحوا نظام التسلسل الكنسي كمؤسسة بشرية بصورة محضة ويأتي في البدء التفوق الحبري باسم جماعة الحواريين . وهم يؤكدون أيضاً أن السلطة الوحيدة ، في قضية الإيمان ، هي الجمع العام . ومن البديهي أن كل هذه النظريات طرحت آنذاك وشجبت . ومع ذلك تركت في فكر العديد من الجامعيين بذوراً وستنمو هذه البذور في عصر الحيدة الكبرى .

ولكن ، كلما عززت بابوية آفنيون سلطتها الزمنية في داخل الكنيسة ، فقدت قليلاً من إشعاعها السياسي والروحي على مجموع المسيحية .

أقول الإشعاع السياسي والروحي للبابوية

في السابق ، كانت البابوية تستعمل جاهها المعنوي الذي أعاده إليها الإصلاح الغريغوري ، واستطاعت بذلك أن تأخذ على عاتقها توجيه العالم

المسيحي في النضال ضد الكافرين . أما في القرن الثالث عشر ، من إينوسان الثالث إلى بونيفاس الثامن ، فما فتى الأبحار ينادون بحقهم في سيادة العالم وتفوق سلطتهم ، في الصعيد الروحي والزمني ، على سلطة الإمبراطور والملوك : ففي مجتمع قائم على نظام التسلسل ، وضع البابا نفسه في القمة ، فوق العواهل العلمانيين . وفي الحقيقة ، في عهد آفنيون ، لم تهجر نظرية التيقراطية تماماً : فباسمها حاول البابوات تهدئة الشقاق بين الأمراء المسيحيين . ولكنها أفرغت قليلاً قليلاً من كل محتواها الواقعي . لقد اصطدمت سلطة البابوية ، في الواقع بالسلطة النامية للدول الزمنية التي تدفع كل تدخل في شؤونها ؛ وتشهد علاقات بابوات آفنيون مع ملك فرنسا ومع الإمبراطور بوضوح على هذا التطور . فنذ حادث الاعتداء في أنايني تمسك العاهل الفرنسي ، بنجاح ، بمزاعمه في الاستقلال الزمني ؛ وحصل بكل بساطة على إلغاء مرسوم أونام سانكتوم وعلى حذف نظام المعبد . وتجاه الإمبراطور ، استسلم بابوات آفنيون بسرعة أقل . وتمسكوا بالمبدأ القديم : وهو أن منتخب الأمراء لا يكون إلا المرشح للإمبراطورية ؛ ولا يصبح ملك الرومانيين إلا بعد أن يقبله البابا .

أما منافسة المدعين بالعرش الإمبراطوري : لويس باقاريا وفريديريك النمسا ، فقد ساعدت الامتياز الحبري على صيانة المظاهر على الأقل ، لأنه رفض تتويج كل منهما . وأما النزاع الذي افتتح بعد ذلك مع لويس باقاريا وشدت بإحكام الخلع والحرمان ، فيبدو أنه عاد إلى أجمل عصر النزاع بين الكهنوت والإمبراطورية .

وفي إطار هذا الخلاف ، بدا الدفاع عن السلام ، المذكور آنفاً كرسالة لصالح السلطة المدنية ؛ وفي رأي مارسيل بادوا وجان دو جانندن ، الكنيسة مصلحة عامة يجب أن تعمل في تبعية الدولة . وهذه الأخيرة هي في الواقع ذات سيادة في جميع الأصعدة بما فيها الصعيد الروحي ؛ وإذن لها كل السلطة لإدارة الكنيسة .

وأما الانتخاب بناء على طلب الكرسي الأقدس لمرشح جديد للإمبراطورية يعترف به كليمان السادس ويتوجه (١٣٥٥ م) تحت اسم شارل الرابع ، فيمكن أن يظهر كنصر للمذهب التيوقراطي . وفي الواقع ، إن الخلاف ، كرهانه ، كان في غير زمانه ، وليس لظفر البابا أهمية . فعندما قنّن شارل الرابع كيفية انتخاب ملك الرومانيين في المرسوم الذهبي (١٣٥٦ م) ، لم يقدّم بأي تلميح للمصادقة عليه من البابا . وكان البابا إينوسان السادس بحاجة إلى الإمبراطور ليظفر على أعدائه الإيطاليين ، ولذا لم يحتج ، وهكذا تم انفصال الكنيسة والإمبراطورية في التطبيق . وبنفس الشكل ، تراخت رويداً رويداً الروابط التابعة التي تضم عدداً من الممالك المسيحية إلى الكرسي الأقدس وانتهت بالقطيعة : فمن ١٣٢٠ إلى ١٣٢٧ م ، ثم انطلاقة من ١٣٣٣ م ، كفت إنكلترا على سبيل المثال ، عن دفع الضريبة السنوية التي كانت رمزاً لتابعيتها . وعندما طالب أورينون الخامس ، في ١٣٦٦ م ، بدفع المتأخرات ، أحلّ البرلمان الإنكليزي العاهل من جميع الالتزامات التي اتخذها جان دون أرض (لا أرض له) حيال البابوية ، من رابطة التبعية هذه التي اعتبرها دوماً غير شرعية أي غير قانونية .

إن تحرير الأمراء من الوصاية الحبرية كان حركة قوية دوناً رجعة إلى الوراء ، لأنها تعتمد على إرادة الأمم التي كانت في عز تشكيلها . ولم تستطع بابوية أفنيون كما لم تعرف أن تحسب حساب العواطف الجديدة التي حولت الشعوب المسيحية في مجموعة قومية . إن بابوات أفنيون الذين ولدوا جميعاً في مملكة فرنسا قبل اعتقالهم عرش القديس بطرس لا يمكنهم ولو أرادوا أو رغبوا أن يأخذوا وجه حكام محايدين في خلافت القرن الرابع عشر . هذا فضلاً عن أن معظم الكرادلة الذين يسدعونهم (أي يكونونهم) كانوا هم أيضاً فرنسيين . فكيف لا يشبههم بأنهم يريدون نجاح فرنسا في نزاعها مع إنكلترا ؟ ألم يدعوا علانية العواهل الأنجليكان في نابولي ، الذين هم أقرباء الفالويين ، في سياستهم الإيطالية ؟ لقد

كان البابا أبعد من أن يكون زعيماً غير منازع للمسيحية ، وأخذ بالعكس وجه زعيم حزب . ومنذ ذلك الحين الذي أصبحت فيه الضرائب لا تخدم مطلقاً خير المسيحية العام ، لم تبد هذه الضرائب ، التي يجيها الكرسي الأقدس من أكليروس كل أمة ، ثقيلة فحسب ، وإنما غير محتملة . وكذا حال امتياز الأحرار في منح الرتب الكنسية . وكل هذه المظالم تتضح بجلاء في الاعتبار التي وسعها البرلمان الإنكليزي عند قطع علاقات التبعية بين إنكلترا والكرسي الأقدس .

وهذا الريب المتعظم لقسم من المسيحية حيال أخبار آفنيون يوضح في الجزء الأعظم منه بطلان ، عبث ، جهودهم لإعداد حرب صليبية جديدة .

وإذا كان زعيم الكنيسة القدير لا يستطيع أن يدعي بحكم ممالك هذا العالم ، فهذا لا يمنعه مطلقاً من القيام بالمهمة التي عهد بها إلى بطرس . وأخطر من ذلك ، بالمقابل ، أن بابوات القرن الرابع عشر كفوا قليلاً قليلاً عن أن يلعبوا دور المرشدين الروحيين للمسيحية . ومن المؤكد أن الإجلال الشديد دوماً من قبل العديد من المؤمنين ، والطاعة المعززة من قبل الأكليروس يرتبطان أيضاً بشخص الأب الأقدس (البابا) ولكن كان ينقص البابوات ، الذين تعاقبوا في آفنيون هذه الحمية الرسولية ، إشعاع القداسة التي ساعدت غريغوار السابع على انتزاع الكنيسة من الضغوط الزمنية ، وأوربينو الثاني على قيادة الجماهير إلى الحرب الصليبية . وقد أثارت الحروب والمجاعات والأوبئة آنذاك في النفوس المسيحية مع القلق بنهاية العالم ، تياراً عظيماً من الصوفية جعلها تتطلع إلى إصلاح أخلاقي وروحي . وبابوات آفنيون الذين كانوا كلهم تقريباً حقوقيين ، همهم بناء نظام إداري ناجع ، وفرض ضرائب ، وإعداد جيوش ، كانوا غير قادرين على تقنية هذه العواطف التي تجاهلوها على وجه التأكيد . وفيما كان التبشير (الوعظ) الفرنسيكاني يجد صدًى عظيماً في الجماهير الشعبية ؛ والفقر ، والطهارة يبدوان للكثير من المسيحيين الطريقتين الوحيدتين للسعادة الأبدية ، جدد جان الثاني

والعشرون الشجب ضد (الروحانيين) تلاميذ القديس فرانسوا الحارين المتحمسين ؛ وأحاط نفسه في قصر الدوم ببذخ لا يصلح لنائب يسوع - المسيح . وطبق أخيراً التفضيل العائلي أي منح الأفضال الخاصة لأفراد أسرته ، وسمح بجمع عدة وظائف تؤمن للكرادلة والأخبار موارد هامة ، ولكنه حرم المؤمنين من حضور راع . وبدأت الانتقادات الحادة تنتشر هنا وهناك . ولم تكن انتقادات بترارك أقلها عنفاً . وكان ينتظر من البابوية الإصلاح العظيم الذي يدفع المسيحية إلى الأمام في طريق السعادة الأبدية . ولم يأت بابوات آفنيون إلا بتنظيم إداري جديد للكنيسة المريئة .

وبالتجاهل الكثير جداً للعاطفة القومية ، جازفت البابوية برؤية المؤمنين والأكليروس يتشكلون في كل بلد في كنائس وطنية . والتجاهل الكثير جداً للرغبة في الإصلاح جازفت بخطر آخر : وهو أن المجمع الديني يمكن أن يظهر لعدد من المسيحيين كمحكمة عليا ، أي المحكمة التي تستطيع ، عندما يكون البابا عاجزاً أو متغيباً ، أن ترد الكنيسة إلى طريقها الحقيقي . ألم يدل فيليب الجميل على الطريق التي يجب اتباعها ، عندما اتهم بونيفاس الثامن بالهرطقة ، وطلب إلى أعضاء المجمع الديني الانعقاد ؟ وهذه التهديدات قد أغفلت أيضاً . فهل ستعرف البابوية في العودة إلى روما كيف تواجهها ؟

الفصل الخامس

حيدة الغرب الكبرى

كنيسة أو كنائس

لم تضع عودة البابوية إلى روما حداً لشدائد الكنيسة . فما كاد نفي آفنيون ينتهي إلا وانفجرت الحيدة الكبرى التي نشرت الاضطراب والشقاق في المسيحية بكاملها وزعزعت السلطة الخيرية .

الانتخاب الثنائي في ١٣٧٨ م

عقب وفاة البابا غريغوار الحادي عشر المفاجئة بعد بضعة أشهر على دخوله المدينة الخالدة ، انعقد مجمع الكرادلة في الفاتيكان ، في ٧ نيسان ١٣٧٨ م ، ودارت المناقشات في جو مضطرب : ولأول مرة منذ بداية القرن (١٣٠٣ م) ، قرر مصير الكنيسة من جديد في روما . أما الرومانيون ، الذين انتعشت كبرياؤهم حديثاً بـ (كولادي رينزو وبتارك) ، فقد عزموا على أن يحتفظوا لمدينتهم بدورها عاصمة مسيحية . وكانوا في هذا الموضوع قلقين : لأن وجود أكثرية من الكرادلة الفرنسيين في داخل مجمع الكرادلة (١١ على ١٦ حاضراً) جعلهم يخشون مرة ثانية من أن ينتخب حبر من ماوراء الجبال ، أي من فرنسا ، وأن يقرر هذا ، مثل أوربينو الخامس ، العودة إلى آفينيون ، ولحماية وجاهة مدينتهم ، وازدهارها المادي ، قرروا الحصول على (بابا روماني أو على الأقل إيطالي) . وهذه هي الصيحة التي صاحوا بها في سياق مظاهرة ضوائية تحت نوافذ القصر

الحبري . وخاف الكرادلة ، ولكنهم انتهوا بالاتفاق على اسم حبر إيطالي ، خارج عن مجمع الكرادلة ، أسقف باري ، بارتولوميو برينيانو . وكان يشتهر بتقواه الكبرى . ولكن يجب انتظار قبول المنتخب للإعلان الرسمي عنه . أما الجمهور المحرض بإفراط بصخب متناقض فكان يزمجر ويهدد باقتحام حرس الفاتيكان . ولتهديته تصور الكرادلة المضطربون خدعة أو حيلة استثنائية فوق العادة : تظاهروا بانتخاب كردينال روماني عجوز شعبي جداً وقدموه للشعب مرتدياً الزينات الحبرية . وهذا لم يمنع ، حسب بعض الشواهد ، من مهاجمة عدة كرادلة عند خروجهم من الفاتيكان واضطرارهم إلى الالتجاء في قصر سانتانج . وأخيراً ، وبعد بضعة أيام هدأت الجلبة . فقد قبل برينيانو المهمة الحبرية باحتفال واعتلى العرش تحت اسم أوربينو السادس (١٨ نيسان) . وبالرغم من الحوادث المؤسفة التي حدثت ، لأحد يفكر في منازعة صحة انتخابه : إن الكرادلة الستة الذين لم يشاركوا في مجمع الكرادلة ، لأنهم كانوا في ذلك الحين في أفنيون ، قدموا تهنيتهم لأوربينو السادس . واعترف الأمراء أيضاً به . حتى أن ملك فرنسا ، شارل الخامس ، الذي أعرب عن رغبته بتلقي (تأكيد آخر) للانتخاب ، ترك الرأي الفرنسي يعتبر أوربينو راعياً صاحب سيادة على الكنيسة .

غير أن الموقف الأخرق للحبر الجديد طرح كل شيء على بساط البحث . كان متسلطاً وعنيفاً ، ودخل بسرعة في خلاف مع أكثرية مجمع الكرادلة وأخذ على الكرادلة نوع حياتهم التي لا تطابق المثل الأعلى الإنجيلي . فمن ذلك أن الكردينال دولاغرانج ، مثلاً ، أحد مستشاري شارل الخامس الذين يصغي إليهم ، عنفه البابا علناً . واستاء الكرادلة الفرنسيون وغادروا روما وأخذوا في متاعهم التاج البابوي والزينات الحبرية . وفي أنابني ، حيث التقى الكرادلة الفرنسيون والإيطاليون (آخر تموز - آخر آب) ، تملكتهم الشكوك والوساوس التي لم تستيقظ قبل شقاقهم مع البابا : إن الانتخاب الذي يجري تحت التهديد الروماني

ألا يكون ملطخاً بالخروج على النظام ؟ وأخيراً أعلنوا بطلان القرار المتخذ في روما وأخبروا بالحال الأمراء المسيحيين .

لم يشعر الكرادلة بالأمن في الدول الحبرية ، فلجؤوا إلى الأراضي النابولية ، في فوندي . اجتمعوا كلهم ، وقرروا أن يعقدوا من جديد مجمعهم وانتخبوا الكردينال روبرت دوجونيف (٢٠ أيلول ١٣٧٨ م) وأخذ اسم كليمان السابع ، ولما كان المنتخب الأول ، أورينسو السادس مستقراً في روما من قبل ، ولم يكن بالإمكان إزاحته مباشرة عنها ، فقد أخذ كليمان السابع بشكل طبيعي طريقه إلى أفنيون (أيار ١٣٧٩ م) . وهكذا وجد حبران ، في عاصمتين يطالبان منذ الآن بتوجيه المسيحية .

المسيحية منقسمة

إن تطور الانقسام ، الذي فتحه نكوص الكرادلة ، يتعلق الآن بموقف الأمراء . وقد لعب موقف ملك فرنسا دوراً حاسماً : فعندما بلغ نبأ انتخاب فوندي شارل الخامس ، لم يخف رضاه حتى وإن لم يكن صحيحاً بشدة ، لأن الكلمة التي نسبت إليه - « الآن أنا بابا » - لها دلالتها مع ذلك ومعبرة . كان كليمان السابع ، ابن كونت جونيث وكونتس بولون ، في الواقع حليف البيت الفرنسي ، وقام بالقسم الأعظم من حياته الكنسية في فرنسا ، رئيساً لكهنة باريس ، ثم أسقفاً في تيرووان ، بالقرب من كامبريه . واستأنف من جديد تعاقب البابوات الفرنسيين ؛ واستقراره في أفنيون وضع الكرسي الأقدس يدور ثانية في الفلك الفرنسي . حتى أن الاسم الذي اختاره لنفسه يظهر بوضوح نيته في إتمام سياسة كليمان السادس الذي يشبهه بتذوقه الأبهة والعمل . وفي فكر شارل الخامس ، أن كل هذه الاعتبارات لا يمكن أن تعدل كفة الميزان لصالح

منتخب فوندي . وأخيراً ، ضغط لويس دأنجو بشدة على أخيه الملك للاعتراف بـ (كليمان السابع) . وكان يأمل على هذا النحو أن يحقق طموحاته الإيطالية . ولما خلع أوربينو السادس الملكة جانّ دونابولي التي انحازت لكليمان السابع ، وقدمت مملكتها لابن عمها المبعد ، شارل دودورا ، ردت العاهلة يجعلها لويس دأنجو وارثاً لها ، بموجب صكوك صادق عليها كليمان السابع .

وأيضاً ، منذ شهر تشرين الثاني ١٣٧٨ م عقد شارل الخامس مجلساً مؤلفاً من مستشاريه العاديين ، ومن بضعة لاهوتيين وأحبار ، وصدر قرار الاعتراف بكليمان السابع اتخذ بصورة شبه رسمية وصدق عليه رسمياً مجلس فانسين ، في ٧ أيار ١٣٧٩ م . ووجهت براءة ملكية في هذا المعنى إلى أساقفة المملكة لتقرأ في جميع الكنائس . وجامعة باريس ، التي بقيت مترددة ، اضطرها الملك إلى الاعتراف بدورها بكليمان السابع في (٢٦ أيار ١٣٧٩ م) .

إن قرار ملك فرنسا ، منذ أن عرف ، يعين الموقف الذي اتخذته العواهل الآخرون . إن جاه الملك ، الذي كان أقوى ملك في الغرب وأخذت مباركته صفة شبه دينية ، منح موقفه قيمة مثل يحتذى ، ولكن اختيار الأمراء العديدين استلهم من اعتبارات سياسية لها علاقة بالخلاف الكبير الذي تتجابه به فرنسا وإنكلترا ويقسم أوربة بكاملها . ففي المعسكر الكليمانتي اصطف ، إلى جانب شارل الخامس وجانّ نابولي ، جميع حلفاء فرنسا : القشتالة ، النافار ، الأراغون ، البرتغال ، إيكوسيا ، كونتية سافوا ، ومملكة قبرص . وبالمقابل ، إيطاليا الشمالية والوسطى أخذتا جانب البابا الروماني . أما الإمبراطور ، فنظراً لعدائه للمركزية الحبرية التي عززها بلاط أفنيون ، فقد صرح أيضاً لصالح أوربينو السادس ، وتبعه ملكا بولونيا وهونغاريا ؛ وأخيراً إنكلترا التي تفضل قليلاً ، من حيث المبدأ ، حبراً من أفنيون ، ارتمت بصورة شبه ضرورية في المعسكر الأورباني بقرار فرنسا . وهكذا تحقق الانقسام الديني .

وخلال مرات عديدة ، في سياق القرون الماضية ، كان انتخاب عدو للبابا يقسم المسيحية بشكل عابر . ولذا فإن معاصري الانتخاب المزدوج لعام ١٣٧٨ م ، وبخاصة الأمراء ، على ما يبدو ، لم يكونوا قلقين لدرجة تتجاوز الحد من هذا الشقاق الجديد الذي استاء له المؤرخ فرواسار كثيراً .

وحقيقة القول ، إن العواهل من كل طاعة ظلوا يعتبرون القضية تحت زاوية سياسية ، ويفكرون بأن قراراً على ساحة المعركة يؤمن بسرعة ظفر البابا الذي تشيعوا له . وهكذا كان الهدف ، بالنسبة للكليانتيين ، إزاحة أوربينو السادس من روما ؛ وبالنسبة لكليان السابع ، لاستطيع أفنيون ، في الواقع ، أن تكون إلا مقام (انطواء) ؛ وإذا أعاد تنظيم حكومة الكنيسة على ضفاف نهر الرون وأعطى لبلاطه سناً لامعاً يحاطة نفسه بالكتاب والفنانين فهو يعلم جيداً بأن حيازة المدينة الخالدة تستطيع أن تؤمن فوزه النهائي . ولم يبدأ المشروع مستحيلاً : لقد كان من حظ كليمان السابع أن كان في طاعته فرنسا ، البلد الذي ظل في الغرب أكثر سكاناً وأكثر ازدهاراً في القرن الرابع عشر ؛ وإذن يمكنه أن ينتظر سناً مالياً وعسكرياً لحملاته الإيطالية . وفي الواقع ، وعلى التوالي ، تبعاً ، ذهب لويس دأنجو (١٣٨٢ - ١٣٨٤ م) وابنه لويس الثاني (١٣٩٠ م) يحاربان في ما وراء الجبال ضد شارل دودورا الذي تقلد من أوربينو السادس حكم مملكة نابولي وحمى الخبر الروماني . وحتى في ١٣٩٠ م ، كان من الممكن لكليمان السابع أن يأمل ، على ما يبدو ، أن يتأس ملك فرنسا شارل السادس شخصياً حملة مكلفة بإعادته إلى روما . أما الأوربينيون ، من جهتهم ، فلم يبقوا متوانين : فقد وضع مشروع ضد البروفانص ، يهدف إلى أفنيون مباشرة ، وتخلي عنه ، ولكنهم تصوروا أن ينتزعوا من بابا أفنيون البلاد التي يعتمد عليها . وترأس دوق لانكاستر ، في ١٣٨٦ م ، حملة ضد قشتالة بغية إظهار حقوقه في هذا البلد وارثاً والدفاع عن قضية أوربينو .

اضطراب الحياة الدينية

بعد مضي عشر سنوات على بداية الانقسام ، اعترف العواهل بأنه مامن مشروع من مشاريعهم العسكرية أدى إلى قرار . ومن الممكن أيضاً الأمل بحكمة الكرادلة المسؤولين الآخرين عن انقسام المسيحية . ولو أرادوا لأمكن حل الأزمة من نفسها عند وفاة أحد البابوين . ولكنهم ، عندما زال أورينيو السادس في ١٣٨٩ م ، عوضاً عن أن ينتخبوا كليمان السابع ، انتخبوا واحداً منهم وأخذ اسم بونيفاس التاسع . وبعد بضع سنوات ، في ١٣٩٤ م ، فعل مجمع الكرادلة في أفنيون الشيء نفسه بإعطائهم خلفاً لكليمان السابع المتوفى ، وهو الكاردينال الآراغوني بدرو دولونا ، الذي أصبح بنوا الثالث عشر . وإذن استقر الانشقاق وبامتداده أحدث اضطراباً خطيراً في الحياة الدينية في المسيحية كلها . وبالنسبة للمؤمنين والأكليروس ، في كل بلد ، الذين لم يشايعوا بالضرورة القرار السياسي تماماً لعواهلهم . وضعت قضية وجدانية : من هو البابا الحقيقي ؟ إن كل واحد منها يبدو أن له نفس الضامين في النظام الروحي : فمن ذلك أن أحد الكرادلة الأوائل الذين ساهم كليمان السابع مات في ١٣٨٧ م في حالة قداسة وضيحه في أفنيون أصبح مكان خوارق وحج . ولكن بالمقابل ، صرحت القديسة كاترين دوسين أنها لصالح البابا الروماني . وفرنسا ، مثلاً ، لم تكن مجمعة وراء حبر أفنيون : ولسبب ما استطاع أورينيو السادس أن يعلن بأنه يستند على كل نساء وكل أطفال فرنسا . وبقية جامعة باريس مترددة سراً ومنقسمة : فكثير من الأساتذة من أصل أجنبي فضلوا مغادرة ضفاف نهر السين على أن يشايعوا قرار شارل الخامس . وجامعات تولوز وأورليان ، ومناطق بكاملها مثل النورمانديا والبروفانص مالت إلى الأوربانيين . وفي بعض المناطق المتنازعة بين الطاعتين ، أخذ الاضطراب نسباً مقلقة : فأحياناً يوجد اثنان من أصحاب الرتب والمقامات ، أحدهما مسمى من روما ، والآخر من أفنيون ، في حالة تنافس على نفس الوظيفة : فقد حافظت

داكس على أسقفين حتى ١٤٢٠ م ؛ وفي الفلاندر ، كان أسقف بروج كلياتياً بينما أكثرية الدوائر الكنسية التابعة لأبرشيته أوروبية : وفي تورنيه ، رفض جميع السكان الاعتراف بالأسقف الكلياني وحدث أن النزاع بين حبرين متنافسين وصل إلى اليد المسلحة ، بينما أحكام الحرمان أو (المنع الكنسي) تمطر بوابلها القطيع البائس المحروم من الوظائف الدينية والأسرار . وهكذا فإن الكنيسة التي أئختها الخلافات والحروب ، أخذت تشكو مصيرها وسوء حالها .

الجامعة في نجدة الكنيسة

لم يبق العواهل صماً لهذه الشكوى . فقد أملت عليهم مصلحة مملكتهم ، حتى ذلك الحين ، سياسة منحازة . ولكنهم وعوا منذ الآن أن القوة لا يمكن أن تغلب ، وأن مصير الكنيسة نفسها أصبح موضع رهان ، وجنحوا إلى وضع القضية من جديد على أرضيتها الحقيقية ، الأرضية الدينية . وترك أمر البحث عن حل إلى اللاهوتيين . وجاءت المبادرة من فرنسا أيضاً . فقد أسمع صوت جامعة باريس فيها بسلطة ، ومنذ بداية الحيدة كان الأساتذة الباريزيون منصرفين إلى تأملات وإلى مناقشات كانت نتيجتها المموسة كتلة عظيمة من المؤلفات والرسائل .

ولكن هذا التخمر الفكري ظل دون نتيجة أمام تشدد شارل الخامس . بيد أن عكس ذلك جرى في ١٣٩٤ م : فقد شجع المجلس ، الذي يحكم باسم شارل السادس المريض ، الجامعة على تقديم تقرير له عن قضية الحيدة . وبعد مشاورة الرأي والمناقشة الطويلة ، اقترح الجامعيون على الحكومة ثلاثة حلول ممكنة : والحلان الأعلان ، حسب نظام التفضيل ، يترك للحرين المتنافسين الأمر ليضعاً بنفسها نهاية للحيدة : فيما أن يستقيلاً معاً في آن واحد (طريق التخلي) ؛ وإما أن يتوصلاً إلى تفاهم (اتفاق) . وفي آخر الأمر ، أوحى الجامعة ، ولكن بتردد ، عقد مجمع يفصل بشكل فائق .

كانت الحكومة الفرنسية في البدء الوحيدة التي شايعت هذا البرنامج وقررت أن تحاول (طريق التخلي) . وكانت الفرصة مواتية للحصول على تنازل البابا الآفينيوني : بدرو دولونا ، قبل انتخابه ، فقد تعهد ، كسائر الكرادلة ، بأن يعمل بكل قواه ، إذا أصبح بابا ، على إنهاء الحيدة ، حتى بالتخلي عند الحاجة عن المنصب الرسولي . ولكن كل هذا الرجاء الملح من الجامعة والملك اصطدم برفض عنيد من بنو الثالث عشر : فقد رفض البابا الجديد أن يستقيل من وظيفة يشعر بأن الله قلده إياها . لذا وجب استعمال القسر . وعقد مجمع قومي ، في باريس في ١٣٩٨ م ، أوحى بوسيلة ضغط جديدة لاسابق لها وهي : طرح الطاعة ؛ ففي تموز ١٣٩٨ م ، أعلنت براءة ملكية بأن كنيسة فرنسا لا تعترف إلا بالروحي لسلطة بنو الثالث عشر ولا تطيعه مطلقاً من وجهة النظر الإدارية . وبالتالي يتصرف الملك منذ الآن فصاعداً بالوظائف وبالرسوم الكنسية التي لا تدفع إلى آفنيون . أما الدعاوى المعروضة أمام المحاكم الكنسية فيستأنف بها أمام البرلمان . وهذا الموقف الفرنسي قلدته صقلية وقشتالة والنافار . وهكذا حجمت سلطة بنو الثالث عشر : لقد تخلى عنه عدة كرادلة ، حتى أن سكان آفنيون ثاروا عليه . واضطر بنو الثالث عشر أن يتخندق ، يحتمي في القصر الحبري مع بعض الخدم الأوفياء وقبضة من الجنود الكاتالانيين . كان البابا سجيناً ، أسيراً إطلاقاً ، وظل يقاوم أكثر من أربعة أعوام بشجاعة تثير الإعجاب ، حتى أنه نجح في دفع هجومات زعيم عصاة ، جوفروا دوبوسيكو ، الذي لم يتردد ملك فرنسا في رشوته ، والذي حاصر خلال ستة أشهر قلعة صخرة الدوم (تشرين الأول ١٣٩٨ - آذار ١٣٩٩ م) وفي آذار ١٤٠٣ م ، أخيراً ، توصل إلى الهرب ولجأ في أراضي كونت بروفانص . وملت الحكومة الفرنسية من سياسة غير مثمرة فقررت عندئذٍ ، مقابل بعض الوعود الغامضة ، أن تعيد الطاعة لبنو الثالث عشر . وتمّ التوصل إلى التعامل الدبلوماسي : ولكن لا بنو الثالث عشر الذي لم يعد إلى آفنيون ، ويقضي حياة تائهة بين بروفانص وروسيون ، ولا الحبران اللذان تعاقبا

في روما ، إينوسان السابع (١٤٠٤ - ١٤٠٦ م) ، غريغوار الثاني عشر (١٤٠٦ - ١٤١٥ م) ، قبلا التخلي بحرية عن منصبهما . واستأنفت الجامعة الفرنسية الكفاح ، يدعمها في ذلك الحزب البورغوني والبرلمان : وقررت (١٤٠٧ - ١٤٠٨ م) من جديد طرح الطاعة .

مجمع بيزا

ظل الخبران في عنادهما . ويبدو أن الوسيلة الوحيدة الممكنة كانت دعوة مجمع مسكوني تكون له سلطة خلعهما . وبشكل أوضح لم تكن الحكومة الفرنسية الوحيدة التي اهتمت بتديد الحيدة وتبني موقف الحياد بين روما وأفنيون . ففي كل مكان تقريباً ، في إنكلترا ، في ألمانيا ، في إيطاليا نفسها ، ارتسم تيار رأي معاد أيضاً للبابويين ومفضل لفكرة المجمع . وفي حزيران ١٤٠٩ م ، أخذ بهذا المشروع خمسة كرادلة من أفنيون وثمانية كرادلة من روما ، التقوا وقرروا عقد مجمع مسكوني . واجتمع الآباء المجمعيون في بيزا في ١٤٠٩ م ، واتخذوا تدابير جذرية : لقد اتهموا البابوين بالهرطقة والسحر وفرضوا عليهما المثول أمامهم . ولما رفضا الخضوع لهذا الحكم ، خلع الاثنان بعظمة وأبهة . ثم انتخب المجمع مكانها رئيس أساقفة ميلانو وأخذ اسم ألكسندر الخامس . ولم تأت قرارات مجمع بيزا بحل الحيدة . ولم تعمل غير تفاقم حالة الكنيسة . وبالرغم من أن البابوين قد تخلى عنهما قسم من كرادلتهم واضطرا إلى اللجوء ، أحدهما في الأرض النابولية والآخر في دول تاج أراغونه ، فقد رفض غريغوار الثاني عشر وبنوا الثالث عشر خلع التاج البابوي . وأصبح للكنيسة ثلاثة بابوات عوضاً عن اثنين ، وانقسمت المسيحية أكثر من أي وقت مضى ، لأن كل واحد منهم احتفظ بأنصاره : كان مع بنوا الثالث عشر : إسبانيا والبرتغال ، إيكوسيا ، وفي فرنسا دعم كونت أرمانيك ؛ وحافظ غريغوار الثاني عشر في طاعته على جنوب إيطاليا وعلى قسم من ألمانيا ؛ أما باقي المسيحية كله فقد اعترف ببابا بيزا . ولكن ألكسندر الخامس

لم يحكم إلا بضعة أشهر . وكان لخلفه ، جان الثالث والعشرين ، شهرة يشك بها (ألم يتهم بأنه عجل بنهاية سلفه) ، ولا تشجع على التفاف المسيحية كلها حوله . ويوجد ما هو أخطر : لأن المنصب الحبري نفسه تعرض للخطر والارتباك بشكل جاد . وفي الحقيقة ، بقي مجمع پيزا معتدلاً جداً ، لأن الآباء فضلوا ، خلّع البابوات ، اللجوء إلى الاتهام بالهرطقة أكثر من المناداة بتفوق المجمع على البابا . ولكن إخفاق القرارات المتخذة في پيزا لا يمكن إلا أن يؤدي إلى نجاح هذه النظرية الأخيرة .

مجمع كونستانس

لم يكن جان الثالث والعشرون وحده قادراً على أن ينهي الحيدة الثلاثية الرأس ، وشعر أنه في حالة حرجة . فقام نفسه بلعب لعبة خصوم الملكية الحبرية ، وتصور دعوة مجمع جديد ، ولما لم يكن له من الجاه الشخصي للوصول إلى ذلك ، فتوسل مساندة ملك الرومانيين سيجيسموند دولوكسمبورغ . وكان الملك مرشحاً للتاج الإمبراطوري ، وسعيه بدأ باغتنام فرصة تعيد للوظيفة الإمبراطورية دوراً عالمياً يفر منه أكثر فأكثر . وبلغ العواهل دعوة الآباء إلى هذا المجمع في مدينة واقعة ، حسب رغبته ، في أرض الإمبراطورية ، في مدينة كونستانس . وافتتح المؤتمر في تشرين الثاني ١٤١٤ م ، وظل يوالي جلساته حتى نيسان ١٤١٨ م ، وضم عدداً كثيراً من الأعضاء ، وممثلين عن كل البلاد المسيحية . ولأول مرة في تاريخ الكنيسة ، قبل في النقاش وفي التصويت ، دكاترة في اللاهوت ، وجامعيون ليس لهم رتبة في التسلسل الكنسي . وكانوا يؤلفون ما يقارب نصف المشاركين في المجمع . وهناك تجديد رئيسي : أخذ الآباء مكانهم في المجمع حسب الأمة . وجمع المجمع كما في الجامعات رجالاً يقرهم أصلهم ولغتهم . وكانت كل أمة من (الأمم) الإيطالية ، الفرنسية ، الإنكليزية ، الألمانية تناقش منفصلة تحت إدارة رئيسها ، وتتصرف بصوت وحيد في الجلسات

- ٤٦٥ - تاريخ العصر الوسيط ج٢ (٣٠)

العامّة . وهذا التنظيم القومي للآباء ، بانضمامه إلى حضور العواهل أو ممثليهم العلمانيين ، كانت نتيجته إدخال المنافسات السياسية إلى المجمع . فيرى فيه ، مثلاً ، الفرنسيون والإنكليز يقف بعضهم ضد بعض بينما الإمبراطور يحاول فرض سلطته على المجمع .

اقترح هذا المجلس العديد والمنقسم على نفسه عملاً مزدوجاً : كان قصده أولاً إنهاء الحيدة ؛ ولكنه زعم أيضاً أن يحقق هذا الإصلاح للكنيسة الذي يرجوه الكثير من المسيحيين ولم تستطع البابوية أن تنجحه : ومع ذلك كان هم آباء كونستانس أن يصلحوا حكومة الكنيسة أكثر من النظام أو الأخلاق . لقد جاء المؤتمر بعد دور دمغ بفساد المركزية في آفنيون وباضطرابات الحيدة ، وانساق بصورة طبيعية وصنع لنفسه قضية تناقش كثيراً في الأوساط الجامعية واللاهوتية منذ قرن وهي : هل على الكنيسة أن تبقى ملكية عاھلها البابا ؟ ألا يجب على حكومته ، بالعكس ، أن تتطور في اتجاه إدارة جماعية ؟ لم يكن أنصار بقاء السلطة الخبرية غائبين عن المجمع . وهذا الاتجاه المحافظ لم يكن مدعوماً إلا من أمتين ، الأمة الإيطالية ، والأمة الإسبانية التي تشكلت أخيراً (بشرين الأول ١٤١٦ م) ، وكان يدعمه بخاصة الكرادلة . ولكن هؤلاء الأخيرين لا يمكنهم أن يلعبوا إلا دوراً من الصعيد الثاني في القرارات الجمعية . وجمع الكرادلة ، وهو تجمع كرادلة عينوا من قبل ثلاثة أحبار مختلفين ، تعوزه السلطة الضرورية ليأخذ على عاتقه حكم الكنيسة وتوجيه أعمال المجمع . وبشكل دال ، إن نظام العمل والتصويت الذي تبناه الآباء يمنع الكرادلة من كل عمل شخصي ، لأن أصواتهم لا تتميز عن أصوات الأمة التي ينتمون إليها . وأكثر من ذلك ، أن أكثرية أعضاء المجمع تعتبرهم عناصر رجعية ، وذهب بعض المشاركين حتى اقترح حذف جمع الكرادلة بكل بساطة . ومن جهة أخرى ، إن خلع الباباوات الثلاثة من قبل المجمع ليس عملاً من طبيعته أن يرفع جاه السلطة الخبرية : وقد قبل غريغوار

الثاني عشر بكل كرامة أن ينسحب (تموز ١٤١٥ م) ؛ ورفض بنوا الثالث عشر أن يخضع لشجب ثانٍ (تموز ١٤١٧ م) ، وتحدى المجمع من صخرة (قلعة) بينيسكولا (كاتالونيا) حيث اعتزل وظل ينادي بنفسه خليفة الحوارى حتى وفاته (١٤٢٣ م) ، غير أن كبرياءه ، على الأقل ، لا تخلو من بعض العظمة . وبالمقابل ، أذل جان الثالث والعشرون (١٤١٠ - ١٤١٥ م) بشخصه المنصب الحربى . ولما كثرت الهجومات على حياته الخاصة ، طلب المجمع إليه أن يتنازل عن العرش البابوي . فاختر عندئذ الفرار : ولكنه أوقف ، وقبل بأن يعترف به مجرمًا ، وأن يخلع التاج ، ويبكى ، ويتوسل ليحصل من المجمع على حكم رحيم (أيار ١٤١٥ م) . وأخيراً حكم عليه بالسجن .

وفي التطبيق كان الكرسي الحربى شاغراً (تموز ١٤١٥ - تشرين الأول ١٤١٧ م) . إن أنصار النظام المجمعى كان طريقهم حراً . وأكثرهم حماسة كان الجامعيون المنتسبون إلى الأمة الألمانية وإلى الأمة الإنكليزية ، واحتفظوا بذكرى سيئة جداً عن مركزية آفينيون . وامتد انقسام الفرنسيين إلى المجمع كما في بلدهم : كان الأرمنياكيون مجمعيين إلى الحد الأقصى ؛ وكان موقف البورغونيين ملائماً للبابوية . وبالإجمال ، كان الجامعيون الفرنسيون منقسمين بين النظريات الجمعية وعدائهم السياسى لإنكلترا ولالإمبراطورية ، وتبنوا موقفاً مصالحاً اتضح في خطاب جان دالي ؛ فقد تناول المقارنة التقليدية الفلكية التي تكون فيها الشمس والقمر يمثلان الإمبراطور والبابا ، وشبه آباء المجمع بالنجوم : وقال : « إن دورها ليس فقط مرافقة الكوكبين الآخرين ؛ إن لها معها عملاً للممارسة » .

وأخيراً ، انتهت أعمال المجمع بظفر النظرية الجمعية . ونادى المجمع بنفسه مجلساً ذات سيادة وقرر أن لاجتماعاته صفة إلزامية ودورية .

وهكذا دخل نوع من مبدأ تمثيلي في بناء الكنيسة تأخذ الحكومة منه ، بهذا الواقع ، صفة جماعية بوضوح . ومن جهة أخرى ، نسب المجمع لنفسه سلطة

تشريعية لاتتعارض مع تقاليد الكنيسة ، وإنما تعززه بصورة فريدة ، وذلك بإعلانه عن نفسه ، بشكل ثوري ، بأنه معصوم . وكان جان الثالث والعشرون أول من قبل الاعتراف بأن مجمع كونستانس (مقدس ولا يمكن أن يخطئ) .

والنتيجة هي أن للمجمع سلطة الإشراف على ممارسة السلطة الحبرية : على البابا أن يطيعه في كل ما يهم الإيمان ويراعي القوانين الجمعية . وكان المجمع يريد أن يجبر البابا على تحديد عدد كرادلته وسوقهم لا من إيطاليا بصورة أساسية وإنما من بلاد المسيحية بكاملها .

هذا ويستطيع المجمع أن يخلع الحبر - ومجمع كونستانس توسع في استعمال هذا الحق - وله حق الإشراف على انتخاب البابا الجديد ؛ وتشكلت هيئة انتخابية تضم ، عدا الكرادلة ، ثلاثين حبراً بمعدل ستة عن كل أمة . وتبعاً لهذا النظام ، انتخب في ١١ تشرين الثاني ١٤١٧ م ، أوتو. كولونا وأخذ اسم مارتن الخامس .

انتصرت النظرية الجمعية . ودعها عواهل أوربة ورأوا فيها فرصة لتعزيز سلطتهم على كنيسة مملكتهم . وقد أعطاهما عالم كبير ، وأديب إنساني ، نيقولا دو كوس صياغة قوية بتعريفه الكنيسة : (مجموعة مؤمنين يمثلهم المجمع) ، ولكن هذا الظفر سيكون قصير الأمد . وتأكد أيضاً في حبرية مارتن الخامس (١٤١٧ - ١٤٣١ م) . وكان هذا الأخير منتخب مجمع كونستانس والكرادلة سواء بسواء . ولم يكن مطلق اليمين ، وعليه ، من جهة أخرى ، مواجهة آثار الحيدة الكبرى : إن بنوا الثالث عشر الذي لم يمت إلا في ١٤٢٣ م في بينيسكولا ، والخلف الذي أعطاه الكرادلة اسم ، كليمان الثامن ، الذي تنازل عن العرش البابوي في ١٤٢٩ م ، حافظا في طاعتها على أراغونة وعلى قسم من جنوب فرنسا ، وبخاصة كونتية أرمانيك . وعلى البابا إذن أن يقبل الامتثال لقرارات مجمع كونستانس ، وهذا الشرط قبل البابا أخيراً أن ينفصل عنه (نيسان ١٤١٨ م) . واضطر بعد خمسة أعوام ، أن يدعو ، طبقاً للقرارات المتخذة في

كونستانس ، أول مجمع في باثيا (١٤٢٣ م) ، ولم ينعقد ، بسبب وباء ، إلا قليلاً من الزمن ، وبعد سبعة أعوام ، مجعاً آخر في بال أي بازيل (١٤٣١ م) ، وحاول أن يلعب بالمنافسات بين (الأمم) ، ولكنه لم يستطع معارضة إرادات (الآباء) الذين حاولوا تحديد موارد البابوية المالية وتحجيم سلطتها على الأساقفة.. وتوفي في بداية الجمع ، ولم يملك الوقت للذهاب إلى بال .

مجمع بال وإخفاق النظرية المجمعية

كان لخلفه أوجين الرابع (١٤٣١ - ١٤٤٧ م) بالمقابل ، موقف أكثر صلابة . ولم يأخذ على عاتقه شخصياً أي تعهد . وتمتع بجاه تعزز بإبرام اتحاد الكنائس (١٤٣٩ م) . ومنذ بداية حبريته ، حاول - عبثاً - الحصول على حل مجمع بال الذي افتتح قبل انتخابه بقليل ولا يضم إلا عدداً ضئيلاً من المشاركين ، في غالبيتهم جامعيين وبخاصة كهان بسطاء . وكذلك كان مجبراً على قبول قرارات المجمع ؛ ولكنه كان دوماً يبيدي تحفظاته باستعمال صيغ ماهرة . وانطلاقاً من ١٤٣٤ م ، دخل علناً في خلاف مع آباء بال : فقد تطلب هؤلاء من القاصدين الحبريين الاعتراف بيمين بتفوق المجمع على البابا . ونادى أوجين الرابع أن الكرسي الأقدس لا يمكن أن يلزم القاصدين بيمين ، واستنجد بالعواهل ضد المجمع (١٤٣٦ م) . وفي السنة التالية ، قرر نقل القسم (الأكثر قداسة) من المجمع إلى فرارة . وعندئذٍ خلع متشددو بال أوجين الرابع واختاروا الدوق آميديه الثامن ، دوق ساقوا ليجعلوا منه (عدو البابا) ، فيلكس الخامس (١٤٣٩ م) . ولكن هذا الأخير ، الذي لم يكن له غير طاعة قليلة جداً ولا سيما بعد انفصال مجمع بال (١٤٤٣ م) ، انتهى بالخضوع (١٤٤٩ م) . ومنذ (١٤٤٧ م) ، التاريخ الذي زال فيه أوجين الرابع ، خسر أنصار النظرية المجمعية للعبة . وكانت السنة ١٤٥٠ م مطبوعة بيوبيل جذب إلى روما العديد من الحجاج ، وبشر كتاب . جان دو توركومادا الذي يجد الامتيازات الحبرية ، كانت سنة الظفر القطعي

للبابوية . وخلال أكثر من نصف قرن حتى آخر العصر الوسيط لم تكن قضية عقد مجمع مسكوني موضوع بحث .

نشأة كنائس قومية

يقظة القومية الدينية

لم تصبح الكنيسة ، كما كان يرجو آباء كونستانس وبال ، ملكية برلمانية . ومع ذلك فإن السلطة الخبرية لم تخرج من الأزمة سليمة معافاة : لقد جنحت الهيئة الكنسية إلى تنظيم نفسها على شكل فدراسيون كنائس قومية وسلطة الخبر عليها محدودة بشكل وثيق . وفي الواقع ، إن التطلعات القومية ، التي ظهرت انطلاقة من القرن الرابع عشر في كل أوربة ، نمت بفضل تقلبات الأحوال في الكنيسة العامة على صعيد الحياة الدينية . وهذه القومية الدينية هي في البدء قومية الكنسيين أنفسهم . لقد ألهمت أعضاء الأكليروس في كل بلد من طرف إلى آخر في التسلسل الكنسي . وأملت ، منذ عصر آفنيون ، على الأكليركيين الألمان ، وبخاصة الإنكليز ، الاحتجاج على مركزية إدارية ومالية تفيد بابا وأصحاب مقامات كنسية متهمين بأنهم فرنسيون ، وأنهم يسلكون سياسة ملائمة لفرنسا ؛ وأرشدت أيضاً سلوك كرادلة يتجاهلون في داخل مجمع الكرادلة ، في فريق فرنسي ، وفريق إيطالي ، كان الخلاف بينها ، في الجزء الأعظم منه ، مسؤولاً عن الحيدة ، واتضحت أيضاً في التجمع في (أمم) الآباء الذين حضروا المجمع . وقاد نمو الاتجاهات القومية المتعادية في الكنيسة الأوساط الجامعية إلى التفكير بأن كنائس كل بلد لها (حريات) الخاصة التي يجدر الحفاظ عليها حسب الأحوال ضد تجاوزات بابا (فرنسي) أو (إيطالي) . إن الاضطرابات التي أدت إليها الحيدة في الحياة الدينية ، توحى من جهة أخرى بنتيجة مماثلة وهي : لتجنيب متنافسين ، أحدهما سمته آفنيون ، والآخر روما ، من النزاع فيما بينهما على وظيفة واحدة ، ألا يكون الحل الأفضل سحب منح الوظائف من البابوية

وتنظيم إدارة مستقلة ذاتياً لكل كنيسة ؟ وهكذا حدث بنتيجة الضرورات العملية ، كما باسم مبدأ (الحريات) انفصال في الكنائس حيال البابوية : وهذه النزعة (الاستقلالية ذاتياً) أخذت في فرنسا الاسم الخاص وهو : (الغاليكانية) . ولكن هذا التعبير ، لعدم وجود تعابير موازية ، يمكن أن يطبق على البلاد الأخرى .

شجعت السلطات السياسية هذه النزعة بقوة : إن العواهل الذين كانوا يحاولون دوماً مراقبة إدارة الأكليروس ، رأوا فيها فرصة لتوطيد إشرافهم في اختيار الوظائف الكنسية وفرض الضرائب المتزايدة على أكليروس مملكتهم . ودعمت الأوساط البرلمانية ، التي جعلت نفسها منظرة للغاليكانية ، هذه السياسة الملكية . فإذا نسب للملك التصرف بالوظائف ، فإن البرلمانات بخاصة تكون مهمة بتوسيع صلاحياتها القضائية على كل القضايا الكنسية . وانضمام هاتين القوتين ، من جهة الغاليكانية الكنسية ، والغاليكانية الملكية من جهة أخرى ، لا يمكن اجتنابه ، والأكليروس القومي لا يستطيع أن يجد أفضل مدافع عن هذه الحريات غير الملك . وتم ذلك بفضل الجامعيين ، فقد كانوا مهئين لتقبل هذه الأفكار بشكل ملائم بقراءة مارسيل بادوا أو غليوم أوكام . وهذان الأخيران ينتسبان ، في الواقع ، إلى نفس الأوساط البرلمانية ، واختلفا إلى نفس المدارس . وكثير من الأكليركيين يأخذون مقاعدهم في البرلمان . وظهرت هذه العملية بوضوح في إنكلترا بادئ بدء . لأن البرلمان الذي أحل ، منذ ١٣٦٦ م ، إدوارد الثالث من التزام دفع الضريبة السنوية للكرسي الأقدس ، وقطع بهذا العمل التابعة الإنكليزية حيال روما . وجاء من بعد جامعي آخر ، جون ويكلييف المستشار الكنسي للتاج ، ودافع عن الحقوق الملكية على الأموال الكنسية والقضاء الملكي على الأكليركيين . ويمكن أن يشاهد التطور نفسه في فرنسا : ففي سياق القرن الرابع عشر ، حصلت خلافات عديدة في قضية السلطة بين البرلمان والكرسي الأقدس تنازع

فيها (المشرعون) ومثلوا البابوية . وبطلب من شارل الخامس ، ألف أحد مستشاريه ، وهو أكليريكي على ما يبدو ، كتاب (حلم البستان) (١٣٧٦ م) دعم فيه ، باسم (حقوق وحرريات) كنيسة فرنسا ، أن الملك (نائب عن الله في الزمني) وله حق الإشراف على الحياة الكنسية . وأخيراً ، إن طرح الطاعة الذي أوحى به الجامعة هو أول وضع في حيز التطبيق لهذه النظريات الغاليكانية من أجل الكنيسة الفرنسية : فقد انتظمت كنيسة قومية تحت مسؤولية الدولة وبدا التحالف بين البرلمانيين والجامعيين بوضوح في هذه المناسبة : اتجهت جامعة باريس شطر البرلمان وجرت أمامه جامعة تولوز المعادية لطرح الطاعة .

كونكوردات وغاليكانية

في الكنائس القومية التي تشكلت على هذا النحو ، تعرض النظرية الجمعية إمكان تحجيم سلطة البابا على الأساقفة ولجم المركزية الحبرية . وإذا أخفق المجمع نفسه في نزاعه ضد البابوية ، فإن جزءاً من المبادئ التي ثبتها عاشت في الغاليكانية الظافرة . إن (الأمم) الممثلة في مجمع كونستانس أجبرت مارتن الخامس ، كما لو كان ممثلاً لحكومة أجنبية ، على أن يوقع مع العواهل اتفاقات تنظم دور الدولة في الإدارة الكنسية أي (كونكوردات) . إن آباء كونستانس ميزوا في الواقع إصلاح الكنيسة العام ، الذي هو من صلاحية المجمع ، عن تنظيم التعاملات الخاصة في كل بلد ، الذي يجب أن ينتج عن اتفاقات خاصة بين الكرسي الأقدس والأمم . إن الكونكوردات التي وقعها البابا مع الإمبراطورية ، وفرنسا ، وإسبانيا ، وإنكلترا ومع الأبرشيات الإيطالية ، كان من نتائجها تعيين الحقوق العائدة للبابوية والملوك في إدارة الكنائس : فلمنح الرتب الكنسية حددوا حق تحفظ البابا ووطدوا مبدأ الانتخابات الكنسية ؛ وثبتوا بالغ (مبلغ) الرسوم التي يمكن للكرسي الأقدس أن يطلبها من المستفيدين من المناصب ؛ وعينوا أخيراً حالات وكيفيات استئناف الأحكام في محكمة روما .

لم تكثف فرنسا زمناً طويلاً بنظام الكونكورداتو ، بل ذهبت إلى أبعد من البلاد الأخرى في اتجاه الاستقلال الذاتي لكنيستها بالنسبة للبابوية . إن كونكورداتو ١٤١٨ م كانت قد وقعت في عصر كانت فيه فرنسا منقسمة بالإخفاق وبنزاع الأرمنياكيين والبورغونيين ، وطبقت بخاصة في البلاد الواقعة تحت سيطرة الأنغلو بورغونيين الذين كانت سياستهم إزاء البابوية مطبوعة بالاعتدال . وإن ظفر شارل السابع كان ، بالتالي ، ظفر الغاليكانية الحارة المتحمسة . ففي ١٤٣٨ م ، دعا الملك إلى بورج مجلس ألكيركيين ليفحص فيه قرارات مجمع بال . وهذا المجمع القومي ، مع قيامه بإصلاحات تتعلق بالطقوس والأخلاق ، اهتم بخاصة بتحجيم حقوق البابوية بكل دقة . ومنذ الآن فصاعداً لا يستطيع البابا مطلقاً أن يحتفظ لنفسه بمنح الوظائف الكنسية ولا مباركة المنتخب إلا في الحالة التي يوجد فيها هذا المنتخب في روما .

والاستئناف في روما لا يمكن أن يمارس إلا بعد المرور بالمحاكم المتوسطة . وحذفت الأتاوات السنوية .

رفض الكرسي الأقدس الاعتراف بقرارات بورج المجموعة تحت اسم (المؤيد الذرائعي) . ومع ذلك لا توجد قطيعة بين فرنسا وروما ، لأن الأخبار ما يزالون بعد في حالة غير مستقرة كثيراً . ومن جهة أخرى يعرف الملك كيف يستعمل حقوقه بكثير من الاعتدال . والمؤيد الذرائعي ، كالكونكوردات ، أعيد فيه النظر في النصف الثاني من القرن ، في اتجاه أكثر ملاءمة للبابوية ، ولو بقليل . فبكونكوردات أمبواز (١٤٧٢ م) اتفق لويس الحادي عشر وبيوس الثاني على تقاسم تسمية الوظائف الكنسية . وفي آخر الأمر ، اضطرت البابوية إلى القيام بتنازلات هامة للتطلعات القومية وإلى التخلي عن مفهوم وحدوي للمسيحية التي يوجهها البابا بصورة كاملة ومطلقة .

المهرطقات القومية

وبعد ، هل الكنيسة صانت على الأقل سلطتها المعنوية والروحية ؟ لقد تصاغت هذه السلطة أولاً بإخفاق اتحاد الكنائس . إن العمل (الصك) الذي وقعه أوجين الرابع في ١٤٣٩ م مع الإمبراطور البيزنطي جان الثامن ظل حرفاً ميتاً . وأخيراً ، تركت المسيحية الغربية الأتراك يستولون على القسطنطينية في ١٤٥٣ م دون أن تقوم بأقل رد فعل . وسياسة التسامح التي سلكها الفاتحون ساعدت المسيحيين الأرثوذكس الإغريق على متابعة السير في طريقهم الخاصة والبقاء مستقلين عن روما . وكان ذلك انهيئاً قطعياً للآمال التي أثرت في سياق القرون الماضية بالحروب الصليبية وبالتعاقدات مع القسطنطينية . وأخطر من ذلك على البابوية في الغرب نفسه ، في إنكلترا وفي بوهيميا ، نحوهرطقات (بدع) جديدة . وكما في القرن الثالث عشر ، كان المهراطقة ينتقدون ثروة الكنيسة ويجدون صدى في الجماهير الشعبية المستعدة دوماً لاعتناق مذاهبهم . ولكن هذه المذاهب كانت مجالاتها أكثر خطراً على الكنيسة الكاثوليكية من مذاهب الكاتاريين أو الفودوازيين . فقد تهيأت وتمخضت في أوساط جامعية مشبعة بضرورة إصلاح الكنيسة ، وألفت نقداً حسب الأصول للعقائد الأساسية للمسيحية الرومانية ؛ واستندت ، من جهة أخرى ، على العواطف القومية ونزعت إلى تأسيس كنائس قومية منفصلة .

أ - إنكلترا : ويكيليف واللولايرديون

استيقظت المهرطقة أولاً في إنكلترا بدفع من جون ويكيليف . كان هذا الجامعي متأثراً منذ شبابه بأفكار الفرنسييسكان الروحية . دعي لخدمة الملك ليسوي بصفة خبير منازعات العاهل مع الكرسي الأقدس . وتوصل إلى دعم الحقوق الملكية على الأموال الكنسية ، والسلطة الملكية على الأكليريكيين . وهذه

الأفكار التي نودي بها علناً أثارت قلق غريغوار الحادي عشر الذي فاتح به أسقف كانتبري .

ولكن الدعوى التي أقيمت عليه أمام محكمة كنسية انتهت بتحذير بسيط أسقفى (١٣٧٧ م) بفضل الحماية السياسية التي يتمتع بها . وعندما انفجرت الحيدة الكبرى (١٣٧٨ م) توصل بها ويكلييف إلى إدراك إمكانية الاستغناء عن البابا من أجل الكنيسة .

وأكثر من هذه القومية الكنسية ، أن (الإنجيلية) غلبت ، على فكر ويكلييف منذ زمن طويل : فقد نصب نفسه مصلحاً روحياً . وفي الكنيسة الإنجيلية التي يسميها حسب رغبته ، الكهان سواسية ويضربون المثل في الفقر (الكهنة الفقراء أو اللولارديون) وعليهم أن يقتصروا على التبشير والوعظ . وفي الواقع ، إن الحياة الدينية كلها يجب أن تؤسس على قراءة وعلى تفسير الكتاب المقدس الذي بدأ بطلب ترجمته إلى الإنكليزية . وعبادة العذراء والقديسين ، كاللحج ، هي أشكال تقوى زائدة وقابلة للشجب والذم .. وفي موضوع الأفخارستية ، علّم ويكلييف مذهباً قريباً من المذهب الذي سيعلمه مارتن لوتر : وهو أن حضور يسوع المسيح في الأفخارستية يتعايش مع جوهر الخبز والخمر ؛ أو بتعبير آخر إن الجوهر الإلهي يتعايش مع جوهر الخبز والخمر .

وعند ثورة الفلاحين ، الذين قادم وات تيلر (١٣٨١ م) ، دافع ويكلييف عن المتمردين . وهذا الموقف حجب عنه أفضال التاج . وحكم من جديد على مذهبه بالبطلان ، وفي هذه المرة بشدة قوية جداً من قبل مجمع إنكليزي (١٣٨٢ م) . ولكنه توفي في ١٣٨٤ م دون أن يقلق . وجدد مجمع كونستانس الشجب ، وأمر بأن تنبش رفاته وتلقى خارج الأرض المسيحية ١٤٢٨ م .

استؤصلت الهرطقة بسرعة من الأوساط الجامعية ، ولكنها انتشرت تحت

شكل مبسط في جماعات صغيرة من الفلاحين أو من الحرفيين وأخذوا اسم الفقراء (اللولارديين) .

ولاحق البرلمان والمملك هؤلاء اللولارديين الذين يحملون بإنجيلية وبكنيسة إنكليزية منشقة . وأوقف كبار زعمائهم وأحرقوا قبل ١٤٢٧ م . ولكن فكرة كنيسة إنكليزية لم تمت معهم .

ب - بوهيميا : جان هوس

وفي بوهيميا كان زعيم الحركة الهرطقية جامعياً أيضاً ، جان هوس ، من براغ . وأفكاره قريية تقريباً من أفكار ويكليف ، وتأثر بها بواسطة صديقه جيروم دو براغ . ومع ذلك كانت أقل هرطقة بصراحة . كان هوس ينتقد بخاصة مفسد الكنيسة ، ويرجو العودة إلى الطهارة الإنجيلية ، وقراءة الكتاب المقدس الذي طلب ترجمته إلى التشيكية يجب أن تكون وسيلتها . أما المناولة بعرضها الخبز والخمر (الأتراكية) فهي الرمز الذي سيطلب به تلاميذه بخاصة .

وشجب أحد البابوات الثلاثة القائمين على الوظيفة آنذاك ، وهو جان الثالث والعشرون ، الأستاذ البراغي ، فما كان منه إلا أن استغاث بالزعيم الحقيقي الوحيد للكنيسة ، يسوع . وقبل أن يأتي ويدافع عن أفكاره أمام مجمع كونستانس ، ودون مراعاة تصريح المرور ، الذي منحه إياه الإمبراطور سيغيسموند ، أدين وأحرق في كونستانس في الوقت الذي أحرق فيه جيروم دو براغ (١٤١٥ م) .

أثار موته قيام غالبية الشعب التشيكي . واتضح عنف النزاع بالصفة القومية والاجتماعية التي أخذها في الحال . قام التشيكيون ضد الألمان المقيمين في بوهيميا حيث أصبحوا سادة قسم من الأراضي والتجارة . وطرد الهوسيون الأساتذة الألمان من جامعة براغ ، وأعطوا لمذهبهم صفة قومية . وثار الحرفيون والفلاحون أيضاً

ضد الملاكين وكبار التجار تحت قيادة زعماء مثل جان زيسكا وپروكوب الكبير
وكانا ثوريين حقيقيين .

و ضد الثائرين التشيكيين ، وبخاصة الطابوريين^(١) الذين انتظموا في
جمهورية مساواة وطهرانية ، أطلقوا هجومات حتى ألمانيا الوسطى ، وكان على
البابوات والأباطرة أن يقوموا بكفاح طويل وصعب . وأخيراً غلب الهوسيون على
امرهم ، ولكن مجمع بال أخذ طلباتهم بعين الاعتبار .

سمح آباء بال بممارسة الأتراكية في الكنيسة التشيكية .

ويبدو أن وحدة الكنيسة الكاثوليكية قد رجعت تحت إدارة روما
الروحية . ولكن الإصلاح لم يحققه البابوية . ولا يمكن أن يتحقق نهائياً إلا
خارجاً عنها وضدها ، في إطار الكنائس القومية المنشقة .

(١) بالنسبة إلى حصن طابور في بوهيميا .

الفصل السادس

الحرب تمزق أوربة

أمام قوة الفتح التي كان عليها الأتراك العثمانيون الذين انتزعوا قسماً من البلقان ، كانت أوربة ، بين بداية القرن الرابع عشر ومنتصف القرن الخامس عشر ، فريسة تشنجات سياسية فظيعة تنذر بأفولها . وبالرغم من التهديد الذي أثقل به إسلام آسيا على الغربيين ، كانوا غير قادرين على الاتحاد فيما بينهم . فلم تكن لديهم عاطفة الانتماء لأسرة أو مجموعة . وأي فكرة ، وأي سلطة يمكن أيضاً أن تجمعهم ؟ الإمبراطورية منفصلة منذ سقوط فريديريك الثاني ، ولم تكن أكثر من حلم حنين عند بعض الطوبائيين . والبابوية ، في مسيحية مزقتها الانقسام ، لا يمكنها أن تلعب دور الحكم الأعلى . وكانت قوى الانقسام متفوقة ، والحروب تشن بين البلاد الأوربية . وفي داخل كل منها كانت الحروب تتضاعف بالمنازعات الأهلية : من ثورات كبار الإقطاعيين ، والفتن البورجوازية ، وقيام الفلاحين يبدو أنها كانت تفسد دوماً شفاء الجهود التي قام بها العواهل في الي القرون السالفة لتوطيد السلطة الملكية ، وبدت الفوضى ظافرة .

في هذا التاريخ المنكوب ، بتشابك حوادثه المبهمة ، والمتناقضة في الغالب ، تقرأ ، مع ذلك ، الخطوط الكبرى لتطور أوربي . لأن الاضطرابات التي هزت أوربة ، في القرن الرابع عشر ، لم تكن آخر تشنجات النزاع قبل الموت ، ولكن آلام استحالة أصبحت بموجبها الأمم والملكيات الإقطاعية دوماً حديثة . لقد شعر

الغرب ، في الصعيد السياسي ، بأزمة تكيف شبيهة بالأزمة التي أحدثت الاضطراب في حالته الاقتصادية .

وفي عمل التجمع السياسي الذي قام به ، منذ القرن الثاني عشر ، الأمراء والملوك كانت نبتة فكرة جماعة قومية واقعة في منتصف الطريق بين الآفاق المحدودة في الحياة اليومية ، وأرض سلطة القصر أو أسوار المدينة ، والآفاق الواسعة جداً ، للمسيحية بكاملها . إن المحن التي حلت بأوربة ، منذ بداية القرن الرابع عشر ، وأظهرت تضامناً ومعارضة لم تعين أسباباً جديدة للخلاف فحسب ، وإنما ساعدت أيضاً العاطفة القومية على التبلور ، وأعطتها محتوى محسوساً مشخّصاً . ففي أوربة التي يعيش فيها الركود ، وحدثت المصلحة سكان البلد الواحد لحماية الإنتاج القومي أمام التجار الأجانب الذين ظهروا على مسرح الحياة منافسين . وهكذا رافق النهوض الاقتصادي ، في إنكلترا ، حركة تكره البشر : ففي لندن نهبت حوانيت الإيطاليين والألمان ؛ وطالبت رسائل الحكومة برصد وثيق للفاعليات التجارية ، بل وتدمير الأسطول البروتوني والنورماندي « ليمكن التجار الإنكليز من السيطرة على البحار » .

وفي داخل المسيحية المنقسمة ، كان على الأكليركيين والمؤمنين ، هنا وهناك ، أن يختاروا بين بابا وآخر . وفي هذا الخيار أيضاً ، كان البلد يتجمع في الغالب . وهكذا نشأت نعرات دينية ، وأصبحت الكنيسة الأجنبية تقاوم الكنيسة القومية ككنيسة حائدة . وأخيراً أنجزت اللغات القومية تشكيلها . وانتهت فرنسية باريس بفرض نفسها على كل الأرض الفرنسية ، في الوقت الذي بدأت تهجر من قبل الطبقات الموجهة في إنكلترا . وفي الحقيقة إن التكلم بلغة ، كأن تكون ألمانية ، تشيكية أو إيطالية ، إنما يعني مشاركة كل الذين يستعملونها وسيلة واحدة للتعبير في أشكال واحدة في الحس وفي التفكير .

وفي كره واحتقار الأجانب في الحروب التي تغذيها هذه العواطف ، وفي وسط النوائب والآلام ، ترى إيجابية العواطف القومية .

ومن يقظة التضامات القومية إلى تشكيل الأمم ، تبقى خطوة يجب اجتيازها . ولكن الحركة لم تبدأ إلا في بعض بلاد أوربة ، واصطدمت فيها بقوى معاكسة ، ولم تظهر عليها إلا بمشقة : لأن الحرب الأهلية ليس لها أصل آخر غير البلد الذي تنشأ وتحدث فيه . ولتوجد الأمة ، عليها أن تثبت وجودها في إطارها الجغرافي وفي ظرفها السياسي . وفي بداية القرن الرابع عشر ، ظهرت الكلمة (حدود) لأول مرة ، مستعملة في معناها الحالي . ولم يتضح ترسيها بعد . ومع ذلك وجد من المستحسن الإشارة إليها بصلبان وبأحجار كيلومترية . وزالت الثغور ، هذه المناطق غير المستقرة التي كانت تفصل قديماً البلاد المتجاورة . حق أن الفكرة نشأت من تحديد دومينات بحرية ؛ وكان الفلامانديون أول من فرضوا الاعتراف بمياهم الأرضية بنطاق عرضه عشرون كيلومتراً على طول السواحل .

وهكذا أمكن نصب حواجز حول كل بلد ، وأصبحت حواجز جمركية بسيطة في زمن السلام ، وخطوط دفاع في زمن الحرب .

وهذه الحدود التي تطبع حدود النفوذ السياسي للدول ، لا تنطبق دوماً ، مع مانسميه أمماً ، بل بالعكس ، في كل أوربة الوسطى والجنوبية ، توجد نغرات سياسية مندفعة جداً تقاوم التجمع القومي . إن ألمانيا وإيطاليا المنقسمتين إلى عدة إمارات صغيرة ، لا تعرفان في الواقع من القومية إلا ميلاً عاطفياً يعبر عنه أحياناً في الأدب وبعض ردود فعل الكراهية حيال السلافيين والفرنسيين . وأقوى من ذلك بكثير في الأفكار وفي القلوب ، تكون الأطماع والمنافسات التي تقيم المدن بعضها ضد بعض في إيطاليا الشمالية . وتثير في ألمانيا الأمراء بعضهم على بعض . وكذلك لا توجد قومية واحدة وإنما قوميات إبيرية تطرح بعضها ضد بعضها الآخر من كاتالانيين ، أراغونيين ، قشتاليين ، نافاريين .

وفي أوربة الغربية ، بالمقابل ، يبدو أن التطور أكثر تقدماً : ففي فرنسا كما في إنكلترا ، تمت الوحدة القومية حول سلالة . واختلط الولاء حيال العاهل مع الوطنية (حب الوطن) ، كما يبرهن على ذلك هذا الصراخ من الألم الذي انتزع من قناصلة مدن إقليم كيرسي عندما علم هؤلاء التخلي عن إقليمهم إلى ملك إنكلترا (١٣٦٠) .

إن الخلاف السلالي الذي تقابلت به فرنسا وإنكلترا كان خلافاً قومياً . ومع ذلك ، وحتى في هذين البلدين ، يرى أن الوحدة التي يجسدها العاهل لم تظهر دون صعوبات . وفيما الحرب تنعش ، في قلوب العديد من الرعايا ، الولاء حيال ملوكها ، نراها تجبر الأمراء على اتخاذ تدابير غير شعبية عندما تكون الموارد التقليدية التي يتصرفون بها غير كافية : مثل الخدمة العسكرية الواجبة على الأتباع إزاء أميرهم للدفاع عن البلد (الجيش) ، أي الخدمة العسكرية الإقطاعية ، وموارد الدومين ، لا تسمح لهم بتحقيق انتصارات حاسمة ، والعمليات تتباطأ طويلاً ، ولذلك كانوا يلجؤون عندئذ إلى تدابير استثنائية وجديدة ، كالضريبة ، والقرض الإجباري ، الواسطة الوحيدة لتجديد المرتزقة المتطوعين . ولكن البنيات الاجتماعية التي تتحول ببطء لا تتكيف مع هذا النمو المفاجئ للسلطة الملكية . ولم تزل الإقطاعية : ولذا يرى نبلاء جزعون من هذه السلطة يستنجدون بعاهل أجنبي وبقدر من السهولة حتى أن الملك ليس في نظرهم رئيس الدولة بل سيداً ومن حقهم تحديه . وأكثر خطراً أيضاً على الوحدة القومية المغامرة الشخصية لبعض الأمراء ، فقد كانت شوكتهم (سلطتهم) قديمة وعظيمة بشكل كاف لمقاومة الأزمة الاقتصادية ، التي دمرت الطبقة النبيلة الصغيرة ، أو أنها تشكلت بكاملها على يد ملوك أوجدوا عن طيش إقطاعيات وقفية . وحاول هؤلاء الأمراء خلق دول منفصلة في داخل الأمة : ففي فرنسا قام أدواق بورغونيا بإعطاء دومينهم قوة وتلاحماً ونجحوا في ذلك حتى أن اللفظ (بورغونيون) توصل إلى مقاومة (فرنسيون) . وكان على السلطة الملكية أن تحسب حسابها

أيضاً تجاه قوة أخرى ، وهي البورجوازية . فالملوك الذين كانوا بحاجة إلى الدعم المالي وخبرة البورجوازيين ، لم يترددوا منذ القرن الثالث عشر في أن يؤمنوا لأنفسهم مساعدة هؤلاء البورجوازيين لإدارة البلد ، ولكن بفضل المصاعب المالية والخسائر العسكرية ، كان البورجوازيون ، الممثلون في مجلس المملكة العام في فرنسا ، وفي البرلمان في إنكلترا ، يريدون السيطرة على الملكية وإصلاحها : فإلى الثورات الإقطاعية المتجهة نحو الماضي تجيب الثورات المدنية التي كانت خطيرة أيضاً على سلامة الوحدة القومية .

وعبر أزمات وحروب هذا القرن ونصف القرن ، تحولت أوربة . وكانت نتائج هذا التطور بخاصة محسوسة في فرنسا وإنكلترا : ففي حرب المئة عام ، حلّ البلدان بمشقة الروابط الإقطاعية التي تربطها وتشكلا في ملكيتين قوميتين . وفي باقي أوربة تتابع عمل بطيء وتحتي من التنظيم السياسي ظهرت نتائجه في الآجل البعيد .

١ - فرنسا وإنكلترا : حرب المئة عام

لقد اعتبر المؤرخون المحدثون أن الخلاف الذي افتتح في ١٣٣٧ م بين ملك فرنسا وملك إنكلترا لم يجد حله إلا في معركة كاستيون ، في ١٤٥٣ م ، ولذلك نحتوا التعبير (حرب المئة عام) .

وحقيقة القول إن الأسباب لاتعوز لنقد هذه التسمية : مئة عام ، هذا قليل كثيراً ، إذا رأينا أن الحروب التي دارت في القرن الرابع عشر وفي الخامس عشر ليست إلا خاتمة خلاف إقطاعي قاوم فيه ، منذ القرن الثاني عشر ، العواهل الإنكليز سيدهم ، ملك فرنسا . وبالمقابل إذا تصورنا العمليات من وجهة نظر عسكرية دقيقة ، وجب الاعتراف بأنها لم تمتد على قرن ، ولكنها لولا الهدنات ومعاهدات السلام ماكانت لتمتد ، أكثر من خمسين سنة .

ومع ذلك ، فإن التعبير (حرب المئة عام) له الفضل في الإشارة خلال قرن إلى أن تطور فرنسا وإنكلترا كان يسيطر عليه خلاف لم يعبر عنه باستمرار بأعمال أسلحة ، ولكنه انعكس ، بشكل مستمر ، على الحياة الداخلية في البلدين : بالنسبة لفرنسا كانت المشكلة حياتية . فهل ستكون تحت نفوذ سلاله إنكليزية ولا تؤلف إلا دولة واحدة مع بريطانيا العظمى ؟ وارتهن مصير إنكلترا أيضاً أكثر مما يبدو : لأن المملكة الجزيرية الصغيرة اضطربت بعمق بجهود الحرب في بنيتها الاجتماعية والسياسية .

وكان هذا الخلاف خصباً بالخسائر والنكبات المسرحية ، وبالإصلاح غير المنتظر ، وبالنهوض غير المتوقع . وغير الفوز المعسكر أكثر من مرة ، كما أن الأزمات الداخلية تأتي في الغالب فتفسد النصر المؤزر على ساحة المعركة .

ومن الممكن أن نعتبر أن الدراما مثلت بثلاثة فصول :

المرحلة الأولى : بدأت الحرب بالنسبة لفرنسا تحت مؤشر هزيمة عسكرية ، ويخيل أنها انتهت في آخر حكم شارل الخامس ، المتوفى عام ١٣٨٠ م ، بنصر فرنسي ، شامل تقريباً .

المرحلة الثانية : امتدت من ١٣٨٠ إلى ١٤٢٢ م ، وفيها مزقت الحروب الأهلية كلاً من البلدين ، وسيطرت بادئ بدء ؛ ولكن إنكلترا بعد أن تجاوزت أزماتها الداخلية ، سحقت فرنسا التي زالت ، كوحدة قوية من الخارطة السياسية .

المرحلة الثالثة : وفيها انتظمت المقاومة الفرنسية للسيطرة الإنكليزية بفضل جانّ دارك وظفرت مع شارل السابع بينما وقعت إنكلترا في حرب الوردتين الأهلية الفظيعة .

فرنسا وإنكلترا في مطلع القرن الرابع عشر

أ - أسباب الخلاف

في أي الظروف اشتعلت الحرب من جديد بين فرنسا وإنكلترا بعد أن تقاثلتا مراراً في القرون السابقة ؟ هل السبب الأساسي للخلاف هو السبب نفسه الذي تحارب من أجله الفرنسيون والإنكليز مرات عديدة ، منذ أن اعتلى هنري بلانتاجونه المالك للجزء الأكبر من غرب فرنسا ، عرش إنكلترا في ١١٥٤ م ؟

بين التابع والسيد اللذين أصبحا منذ الآن متساويين في السلطة وفي المنصب ، من الصعب أن تبقى علاقات الارتباط التبعية كما كانت من قبل : لقد كان ملك إنكلترا يحاول أن يزحزح رابطة التبعية التي كانت تثقل على دوميناته القارية ؛ وكان ملك فرنسا مهتماً بانتزاع الممتلكات الفرنسية من العواهل الإنكليز . ومع ذلك ، وبعد قرن ونصف من النشاط العسكري والدبلوماسي (الحرب الأولى للمئة عام) ، على عتبة القرن الرابع عشر ، لم تتغير أحوال المشكلة بالرغم من أن المعطيات قد تبدلت نوعاً ما بعض الشيء . وفي الحقيقة ، إن انتصارات فيليب أوغست انتزعت من السيطرة الإنكليزية إقليم أنجو ، والتورين ، والمين ، والنورمانديا ، ولكن ملك إنكلترا يملك دوماً على القارة منطقة الغوين التي أضيف لها إقليم بونتيو التي كسبها الملك إدوارد الأول بزواجه .

وفي الواقع لا القديس لويس ، ولا فيليب الجميل وصلا بسياسة أوائل الملوك الكابسيين حتى نهايتها : لقد كانا غالبين أيضاً على ساحة المعركة ، ولكنها اختارا موقف المصالحة . وفي معاهدة باريس (١٢٥٩ م) حاول لويس التاسع أن ينهي الخلاف ، ولكن على أساس العلاقات التابعة نفسها : فقد أرجع إلى هنري الثالث الغوين شريطة أن يعترف هذا الأخير بأنه تابعه ؛ وقلده فيليب الجميل ، في

١٣٠٣ م ، وحاول أن يعزز الروابط التابعة بروابط زواج ، فقد زوج ابنته إيزابل الملك إدوارد الثالث في المستقبل . وهذا الحل يتطابق وعقلية العصر ، ولكنه لا يمكن أن يأتي إلا بمهلة مؤقتة . فنذ حكم شارل الرابع الجميل (١٣٢٢ - ١٣٢٨ م) استؤنفت الحرب إثر حادث حدود في الغوين ، وفي ١٣٢٧ م ، اضطر الإنكليز إلى التنازل عن منطقة البازاديه والآجنيه .

وابتداء من ١٣٢٨ م ، أضيفت ، إلى الخلاف الإقطاعي ، عناصر خلاف سلالي . فمن هونغ كابت (٩٨٧ م) إلى الماحك المشاجر (١٣١٤ م) ، كان من حظ الملوك الكابسيين أن يكون لهم ولد يخلفهم على العرش ، ويبدو أن ذريتهم بدأت تنضب منذ ١٣١٦ م . وفي هذا التاريخ توفي لويس العاشر الماحك ولم يترك غير بنتين . غير أن أخاه البكر أبعدها واعتلى العرش تحت اسم فيليب الخامس (الطويل) . واعترف مجلس من البارونات والوجهاء ، مجلس المملكة ، وبارك الأمر الواقع . وهكذا وجدت سابقة تجنب النساء عن عرش فرنسا . ومن بعد في الآجل أتى على ذكر قانون قديم للفرنجية السالين ، القانون السالي ، لتبرير ما لم يكن ، في الواقع ، إلا قراراً ذرائعياً . وعلى كل حال خلف شارل الرابع (الجميل) ثالث أولاد فيليب الجميل أخاه في ١٣٢٢ م . ولكن عندما توفي في ١٣٢٨ م ، إذا استثنينا الرجاء الخائب بسرعة لولادة وارث بعد وفاة أبيه ، لا يوجد ولد ولا أخ ليكون خلفاً . وكان من الممكن لثلاثة وارثين بعيدين أن يدعوا بالعرش . وكان أقربهم حفيداً لفيليب الجميل من أمه ، وهو ملك إنكلترا الشاب إدوارد الثالث . وكان لأخ فيليب الجميل ، ولدان : فيليب دو قالوا وفيليب إيفرو ، الأول أكبر سناً وموقعه في الخط الوراثي أفضل ، وهو الوحيد الذي يمكن أن يكون بحق منافساً لإدوارد الثالث . هذه هي القضية التي يجب أن يفصل بها البارونات والوجهاء المجتمعون في ١٣٢٨ م .

وهكذا احتفل بفيليب دو قالوا ملكاً ، وانتقل تاج فرنسا من الكابسيين

المباشرين إلى الثالويين . إن تقويم جان دو فونيت يرينا بوضوح ما الذي قرر اختيار البارونات : لقد وضعت الحجة الحقوقية في الأمام ؛ ولكن العاطفة العميقة التي أملت القرار القطعي ظهرت ، لقد سمي الفالوي (لأنه ولد من المملكة) .

استاء ملك إنكلترا لسببين . فقد كان من المنتظر أن يرفض الاعتراف بفيليب السادس وسيدته والملك الشرعي لمملكة فرنسا . ومع ذلك لم يحدث شيء مباشرة : لأن إدوارد الثالث الذي كان آنذاك شاباً واصطدم بمشاكل خطيرة في حكومة إنكلترا ، قدم احترامه لفيليب السادس عن الغوين ، في ٦ حزيران ١٣٢٩ م ، في كاتدرائية آمين . حتى أنه اعترف في رسالة ١٣٣١ م بأن الاحترام الذي يربطه هو احترام طاعة وثيقة ولاء وليس ولاءً بسيطاً . وهل كان ذلك منه سياسة تخل وتنازل أو تدبيراً مؤقتاً خاصاً لكسب الوقت ؟ من الصعب معرفة ذلك . وفي الواقع ، إن المبادرات الفرنسية هي التي دفعته إلى الدخول في الحرب : لقد استأنف فيليب دوفالوا التدخلات في الغوين ، مثل أواخر الكابسين ؛ ومن جهة أخرى ، كان يكيد مع أعداء إدوارد الثالث ، وهم الإيكوسيون . وعندما قرر فيليب القبض على الإقطاعية الأكتانية (أيار ١٣٣٧ م) ، أرسل إليه ملك إنكلترا تحدياً ، وهذا يعني في اللغة الإقطاعية ، إعلان القطيعة وحرب التابع للسيد . ولكن في الوقت ذاته ، كان عنده من المهارة ما جعله يطرح على بساط البحث قضية الإرث في ١٣٢٨ م ، مطالباً بعرش فرنسا لنفسه (تشرين الأول ١٣٣٧ م) . فهل كان يزعم بحق أن يلبس التاج الفرنسي ؟ لقد كان يأمل أن يطالب بالتنازل عن العرش مقابل سيادته التامة على الغوين .

ب - القوى العتيدة

أ (الممالك

إذا تردد ملك إنكلترا طويلاً قبل أن يعلن الحرب ، وإذا انتظر أيضاً عدة أشهر قبل القيام بالعمليات العسكرية ، وإذا ، بالعكس ، بدا ملك فرنسا قليل الاهتمام بمداواة تابعه ، فذلك لأن فرنسا ، في بداية القرن الرابع عشر ، ظهرت أقوى من إنكلترا . كان فيليب السادس سيد مملكة عدد سكانها من ١٢ إلى ١٥ مليون نسمة ، ويمكن أن تجهز ما يقارب ١٥٠٠٠ رجل لجيشه ، والاقتصاد الفرنسي مزدهر أيضاً . فإلى إنتاج الأرياف التي زالت الغابات منها جيداً ، يضاف نشاط المدن الجوخية (المنتجة للأجواخ) في الفلاندر والآرتوا ، وتجارة الموانئ الأطلسية التي تجهز ، مثل بورغنوف ، بالملح بلاد أوربة الشمالية وموانئ البحر المتوسط ، التي تستورد إنتاجات شرقية ، دون أن تنافس موانئ إيطاليا .

وشع تأثير الأدب الفرنسي والفن الغوطي ، وجامعة باريس في كل أوربة المسيحية التي كانت فيها باريس ، بنحو ١٠٠٠٠٠ نسمة تمثل أكبر مدينة . وإلى جانب فرنسا القوية والغنية ، كانت إنكلترا وجهاً صغيراً جداً : كانت مملكة إدوارد الثالث تقتصر على القسم الجنوبي وحده من بريطانيا العظمى . وبلاد الغال ، الخاضعة منذ آخر القرن الثالث عشر فقط ، بقيت ملحقة خارجياً يحافظ على نظامه في أسر وقبائل ، وعلى أعرافه في إطار وقف خاص تشكل منذ ١٣٠٠ م لصالح ابن بكر للملك ، أمير بلاد الغال (ويلز) . وعادت إيرلنده مستقلة عملياً إذا استثنيت منطقة دبلن . وبخاصة إيكوسيا الثائرة تحت إدارة روبرت بروس الذي توج ملكاً في ١٣٠٦ م ودحر ، منذ ذلك الحين ، جميع الحملات الإنكليزية . ولذا امتدت سلطة إدوارد الثالث على صعيد جغرافي أقل

من مساحة فرنسا بمرتين ، وسكانه من مليونين ونصف إلى ثلاثة ملايين ونصف نسمة ، وهذا يعني أقل بثلاث أو أربع مرات من سكان فرنسا . ومن جهة أخرى ، هي بلد شبه زراعي حصراً . وتجارة الصوف ، ثروتها الكبرى ، في الجزء الأعظم ، في أيدي الأجانب ، إيطاليين وهانسيين . ولندن هي المدينة الكبرى الوحيدة ولم يكن سكانها أكثر من ٤٠٠٠٠ نسمة .

ب (العواهل

والفرق في السلطة بين عاهلي البلدين كبير أيضاً كما تشهد على ذلك بداية الحكم .

توصل إدوارد الثالث إلى السلطة في ظروف حرجية (١٣٢٧ م) ، ففي ١٣٢٦ م ، أجبر البارونات الثائرون أباه الملك إدوارد الثاني ، على التنازل عن العرش ، ووجدت على رأسهم أسرة اللانكاستر ، وأيضاً زوجة الملك الخاصة ، إيزابل فرنسا وعشيقها مورتيير . وبعد هذه الحوادث ، توج إدوارد الثالث ولكن واقعية السلطة خارجة عنه . ولحسن حظه ارتكب خصومه أخطاءً . منذ أمر مورتيير بقتل إدوارد الثاني العجوز في سجنه وجعل منه شهيداً وضم أنصاراً مخلصين متفانين لقضية ابنه . وسُم آل لانكاستر من جشع المحظي فتقربوا من إدوارد الثالث . وفي تشرين الثاني ١٣٣٠ م ، أوقف مورتيير ، وحوكم وأعدم . ونفيت إيزابل . وأصبح بإمكان إدوارد الثالث أخيراً أن يأخذ الحكم بيده .

وفي هذه الظروف يفهم أن العاهل الإنكليزي لم يقدم ترشيحه لتاج فرنسا في ١٣٢٨ م ، لأن سلطته في ذلك التاريخ في إنكلترا نفسها لم تتأمن بعد . ولما أصبح سيداً غير منازع لمملكته لم ينته من المشاكل الداخلية . لأن الإيكوسيين ، الذين أبرمت معهم هدنة في ١٣٢٣ م ، أفادوا من الاضطرابات لمعاودة الحرب . وإن سياسة مورتيير التي يرثي لها اضطرت الملك الشاب إلى التخلي ، في ١٣٢٨ م ، عن

كل حق سيادة على إيكوسيا ، وإلى الاعتراف بـ (روبرت بروس) ملكاً لهذا البلد . وفي ١٣٣٠ م ، قرر إدوارد الثالث أن يأخذ من جديد الوضع على عاتقه . كان عمر هذا الشاب ١٨ عاماً ولا يتكلم الإنكليزية ، ويشبه كثيراً ابن خاله الفالوي : وهو مثله مأخوذ بالمثل الأعلى الفروسي ولم يكن أيضاً عاهلاً واقعياً ، كما وصف غالباً ، إلا في آخر حكمه . كان يسر بتنظيم مباريات في بلاطه ، ويحلم غالباً بالحروب والمغامرات البعيدة . وسنحت له الفرصة بحوادث إيكوسيا . فعند وفاة روبرت بروس الذي ترك ابناً عمره خمس سنوات ، ثار أنصار إنكلترا وتوجوا إدوارد بوليول (أيلول ١٣٣٢ م) الذي قدم ولاءه لإدوارد الثالث . ولكن بوليول (ملك شتاء واحد) طرد بعد بضعة أشهر . وابتداء من ١٣٣٣ م ، استشرى إدوارد الثالث ، في عدة حروب ، لاسترداد إيكوسيا . وفي آخر ١٣٣٦ م استطاع أن يؤمن لنفسه السيطرة على الأراضي الدنيا والساحل الشرقي ، أي على المناطق الحيوية . ومع ذلك تخلى عن البلاد ، واحتلها المنشقون ثانية ، وكان هذا التخلي منه لانشغاله في شؤون القارة : لأن التدخل الفرنسي في الشؤون الإيكوسية جعله يخشى حلفاً خطيراً بين المتمردين الإيكوسيين وفرنسا . وللدفاع عن فتوحاته الإيكوسية ، كان عليه أولاً أن يجنب الخصم الفرنسي . وجراً بلده في نزاع لم يتصور أبداً مدى سعيه .

أما فيليب السادس فقد كانت بداياته ألمع بكثير . كان فارساً مندفعاً . وقد قال عنه المؤرخ فرواسار : إنه يعتقد أن النصيحة جنون . وبدأ أنه سعيد في أعماله السياسية الأولى . ودشن حكمه بجولة منتصرة في الفلاندر ؛ فمنذ حكم فيليب الجميل ، كانت هذه الإمارة التابعة بؤرة اضطراب : فمن ذلك أن المدن الفلاماندية زبونة الصوف الإنكليزي من أجل مشاغلها اضطرت أن توحد مصالحها مع إنكلترا كما في ١٣٠٣ م . ومن جهة أخرى ، إن سياسة ملك فرنسا ، حليف الطبقة النبيلة والبورجوازية العليا ، أثارت أيضاً غضب الشعب الفلاماندي الذي كان قد دلّ في

كورتيره على ما يستطيع عمله ضد الفروسية الفرنسية . ومنذ ذلك الحين ، وطّد ملك فرنسا الوضع في الفلاندر ، ولكن الشعب سحقته الغرامات الثقيلة التي يجب عليه دفعها . وفي ١٣٢٨ م ، ثارت أيضاً ضد الكونت لويس الذي دعا لنجدته سيده ملك فرنسا . وضد من يسميه الفلامانديون (ملك موجود) ، دافع الفلامانديون بشجاعة . وسحق الثائرون في ٢٣ آب ١٣٢٨ م في كاسل وقتلوا دوغنا رحمة . وحقق الملك بذلك جاهاً عسكرياً أكيداً ، ولكنه أثار إلى الأبد نفور المدن الفلاماندية . وكما ظهر فيليب السادس فارساً منتصراً فقد ظهر أيضاً في مجد الملك قاضياً عادلاً بمناسبة دعوى روبر آررتوا . فقد طرد هذا الأمير بموجب عرف إرث آررتوا ، وبدسائس في البلاط نال ثقة الملك ، وظهر بأنه يستطيع توطيد وضعه : ووثائق منتحلة من كل نوع ، ومساندة شهود زور أقام دعوى على عمته ، الكونتس ماهو . غير أن هذه ، عندما لاحظت التدجيل ، دست له السم سراً . ومع ذلك لم يكف هذا لتجنب الفضيحة . فقد استطاع روبر أن يهرب ولكن ملك فرنسا استشرى على أسرته البائسة بشدة عاطفية أكثر منها عاقلة . وهنا أيضاً ، كان النصر ، الذي أحرزه العاهل ، نصراً مسرحياً للعدالة على الجريمة ، ومليئاً بالمرارة ؛ لأن الطبقة النبيلة التي رفعت إلى السلطة انقسمت بقضية آررتوا .

عندئذ ضغط روبر آررتوا على إدوارد الثالث لتثبيت حقوقه على تاج فرنسا .

ولكن حقد الفلامانديين ، حقد جماعة روبر آررتوا ، كان في حساب فيليب السادس شيئاً قليلاً . فبين ١٣٣٠ و ١٣٣٦ م ، أخذ وجه حكم في أوربة . وفي ١٣٣٢ م جمعت أعياد كومبين فرساناً أتوا من كل أوربة .

وفي الوقت ذاته ، فكر فيليب السادس أن يترأس حرباً صليبية دولية في الشرق . ولذا يمكنه أن يذل ابن عمه الإنكليزي وإجباره على أن يعترف بأنه تابع

له تبعية ولاء وتفان ، وأن يطلب في ١٣٣٣ م من إدوارد الثالث أن يمنح للسلم مع الإيكوسيين ، وأمام رفضه ، أن يعد هجوماً على إنكلترا بنقل الأسطول المعبأ للحرب الصليبية من مارسيليا إلى نورمانديا .

ج (الجيوش

كيف يشك ، في هذه الظروف ، بأن قدرة فرنسا العسكرية المتفوقة اقتصادياً وسياسياً على منافستها لا تستطيع الغلاب والنصر في هذا النزاع ؟ ولكن إذا كان ملك فرنسا يستطيع أن يضع في خط القتال عشرة أو خمسة عشر ألف رجل ، فإن جيشه يكون دوماً جيش فرسان ، بأجهزة ثقيلة ، يقاتلون بطرق تقليدية ويحتقرون جيش المشاة . وبسرعة نسيت كورتره بعد نصر كاسل السهل . وبالعكس ، إن المشاكل التي لاقاها أدت بملك إنكلترا إلى إعادة النظر في طريقته التعبوية (تكتيك) : فقد أخذ عن خصومه الغاليين والإيكوسيين طرقهم في الكفاح . وبنبالتة وفرسانه المسوقين من بين الجبلين الغاليين ومرترقة البلاد المنخفضة الذين أضيفوا إلى فرقة المجندين الإقطاعية ، شكل الجيش الإنكليزي جيشاً حديثاً .

د (الأحلاف

وبفضل إهمال فيليب (الذي أمن لنفسه فقط تحالف قشتالة والمساندة الحبرية) استطاع ملك إنكلترا أيضاً أن يتم إعداد الدبلوماسية : حاول إدوارد الثالث أولاً الحصول على مساعدة الإمبراطور لويس بافاريا . وفي ١٣٣٧ م ، وقع لويس ، الذي حرمه بابا أفينيون الفرنسي ، والذي يرى الآن فرصة ليلعب عليه لعبة خبيثة ، وقع معاهدة مع إنكلترا اعترف فيها بحقوق إدوارد بالتاج الفرنسي . وقوي إدوارد بهذا الحلف ، ونزل في تموز ١٣٣٨ م في أنفوس ، وأخذ في كوبلانس لقب نائب الإمبراطورية ، وتقبل ولاء تابعيه الجدد . ولكن حملة الاجتياح التي

أطلقها في تيراش ، في ١٣٣٩ م منيت بإخفاق تام ؛ فالإمبراطور وأمراء الإمبراطورية ، الذين لم يكن في نيتهم العزوف عن حيادهم ، لم يأتوا بأي عون عسكري للملك الإنكليزي .

عندئذ اتجه إدوارد نحو الفلاندر : فنذ ١٣٣٧ م ، كان يمارس ضغطاً أصم على البلاد بمنع تصدير الصوف الإنكليزي إلى السوق الفلاماندي . والكونت روبرت دأرتوا ، اللاجئ في البلاط الإنكليزي يبين له أهمية الحصول على الاعتراف به ملكاً لفرنسا من إقطاعة فرنسية . وكللت كل هذه الجهود بالفوز ، عندما تصالحت المدن الفلاماندية تحت إدارة تاجر أجواخ غني من غاند ، رئيس عام لهذه المدينة ، جاك فان آرتوفيلد ، وطردت الكونت لويس ، التابع الوفي الأمين للملك فرنسا ، ووقعت حلفاً عسكرياً مع إنكلترا (كانون الأول ١٣٣٩ م) . وفي السنة التالية ، جاء إدوارد الثالث إلى المدينة للاعتراف به سيداً . و (الملك الموجود) أنكره الفلامنديون ، ونودي بإدوارد ملك فرنسا . وفي الحقيقة كان هذا النصر الدبلوماسي مكلفاً : فقد تعهد إدوارد الثالث بدفع عون مالي من ١٤٠٠٠٠ جنيهه إلى حليفه الجديد .

وأخيراً بعد بضعة أشهر ، ذهب إدوارد الثالث ليتصرف ، مع الغوين والفلاندر بثالث رأس جسر في داخل مملكة فرنسا ، وهو بروتانيا . ففي ٣٠ نيسان ١٣٤١ م ، توفي جان الثالث كونت بروتانيا التابع الأمين للملك فرنسا دون أن يترك ولداً . وتنازع على إرثه ابنة أخيه جانّ دو پانتيفر ، زوجة شارل دو بلوا وأخيها النصفى جان دو مونفور . استولى هذا الأخير على الإقطاعة دون طلب التقليد من ملك فرنسا الذي يدعم شارل دو بلوا ؛ لأن نجدة جيش فرنسي ساعدت شارل دو بلوا على دخول نانت منتصراً بينما أخذ مونفور أسيراً . ومع ذلك قدم جان ولاءه للملك إنكلترا . وأصبحت فرصة التدخل مرة جديدة في أرض

تابعة للتاج الفرنسي لا أمل بها . ولم يتركها إدوارد الثالث تفر منه ، ومنذ ١٣٤٢ م نزل جيش إنكليزي في بروتانيا .

وهكذا ، منذ البدء ، اشتعلت الحرب في عدة نقاط من الأرض الفرنسية حيث أقام ملك إنكلترا عليها رؤوس جسر : وهكذا أضيف إلى الغوين ، الرهان التقليدي للنزاع الفرنسي - الإنكليزي ، الفلاندر وبروتانيا .

خسارة فرنسا معركتين وكسبها الجولة الأولى

هزائم فرنسا في عهد فيليب السادس

أ - العمليات الأولى

كانت لقاءات السلاح الأولى ، في حرب المئة عام ، عمليات مختصرة تقطعها هدنات لم تأت بقرار لأي من الخصمين : فبعد غارة تيراش (أيلول ١٣٣٩ م) التي أوقفت بطلب البابا بنوا الثاني عشر دون أن يدخل الجيشان العدوان في تماس ، دارت الحرب الحقيقية الأولى على البحر : فاجأ الإنكليز الأسطول الفرنسي ودمروه ووحدات حليفة للأسطول القشتالي في ميناء إيكوز (٢٤ حزيران ١٣٤٠ م) . وللهولة الأولى ، حققت إنكلترا السيطرة على بحر المانش ؛ وحيثما البرلمان إدوارد بلقب (ملك البحر) واستطاع الإنكليز ما طاب لهم الإنزال على شاطئ قريب . ومع ذلك ، ففي خلال ستة أعوام كانوا غير قادرين على الاستفادة من هذا التفوق . وأخفقت حملاتهم القارية بشكل يريث له الواحدة بعد الأخرى . وفي ١٣٤٠ م ، لم يستطع جيش إنكليزي - فلاندي بقيادة روبر دارتوا الاستيلاء على تورنه أو سان - أومير ووقعت هدنة في إسبيلين (أيلول ١٣٤٠ م) وعلقت القتال في الشمال ؛ وبعد عامين ، في بروتانيا ، أصبحت جيوش الإنزال الإنكليزية سادة هانبون ؛ وهدنة مالمستروا (كانون الثاني

١٣٤٣ م) أوقفت تقدمها . وامتدت هذه الحرب طويلاً وكلفت غالباً : في فرنسا اضطر فيليب السادس أن يطلب من رعاياه مجهوداً مالياً متزايداً وأن يلجأ إلى تبديل العملة . ولكن حالة إدوارد الثالث كانت أخرج أيضاً ؛ لأن الحظر على الصوف ، الذي صادره الملك وأمل بيعه بربح كبير على القارة ، لم يعط النتائج المرجوة ؛ واضطر إدوارد إلى إكثار الضرائب النقدية ، والقرض من أصحاب البنوك الإيطاليين . وفي ١٣٤١ م ظهرت في البرلمان معارضة البارونات الشديدة لسيادة العاهل المالية . وأخيراً ، فيما كان ملك إنكلترا يخسر بشكل قطعي حلف برابان ، وهينوت والإمبراطورية ، حصلت الدبلوماسية الفرنسية على نجاحات طيبة : فبينما احتلت مونبلييه في (١٣٤١ م) ثم اشترت من ملك جزيرة ماجوركا ، هياً اتفاق كسب الدوفينه : وكانت هذه الإمارة تشكل جزءاً من مملكة آرل القديمة ، وتنزل عنها لوارث عرش فرنسا الذي أخذ يحمل منذ الآن لقب دوفن أي ولي العهد .

ب - كريسي وهزيمة الفروسية الفرنسية

وفي ١٣٤٦ م ، وخلافاً لما كان منتظراً ، افتتح لفرنسا عصر كوارث عسكرية ومنازعات مدنية . ففي هذه السنة ١٣٤٦ م ، نصح أمير نورماندي ، جوفروا دأركور ، كان فيليب السادس قد حكم عليه بالنفي بشكل أخرق (في ١٣٤٤ م) ، ملك إنكلترا بمهاجمة نورمانديا السيئة الدفاع ، ولكنها تقدم منظورات غنية للنهب والسلب . نزل الإنكليز في شبه جزيرة كوتنتن في سان - فاست - لا - هوغ . أخذت كنُ وسلبت ونهبت . وصعد الجيش الإنكليزي وادي نهر السين باحثاً عن خداع يقظة الفرنسيين المرابطين على الضفة اليمنى وعن اجتياز النهر لتحقيق الاتصال مع الفلاماندين أكثر من بحثه عن إثقال العاصمة بالتهديد . ومع ذلك ففي سياق هذه الحركة ، تقرب من باريس .

استطاع إدوارد الثالث أخيراً اجتياز السين ورفض الكفاح دوماً ، وانطوى نحو الشمال في كونتية بونتيو . وهنا اختار انتظار الخصم في موقع محصن بالقرب من قرية كريسى الصغيرة . وبعد أن تبين له أن الصدام أصبح الآن حتمياً ، اختار الوقوف على الدفاع ، لأن عدد جنوده كان أقل من جنود الفرنسيين وأعياءها التعب . كما علم من جهة أخرى بأنه لا يستطيع الاعتماد على مساندة الفلامانديين الذين رفعوا الحصار عن بيتون وانطوا على أنفسهم . وفي هذه الظروف نشبت المعركة في ٢٦ آب ١٣٤٦ م . وكانت نكبة للفرنسيين . فقد هرب فرسان فرنسا بسراب مثل أعلى فروسي زالت موضته أكثر من بهر الشمس . إن السرعة التي أشعلوا بها الحرب تدل على حمية كريئة ، ولكنها متهورة أمام عدو هياً قواه بكل عناية . إن الاحتقار الفظيع الذي نال جيش المشاة « اقتلوا كل هذه الفلول ، اقتلوا ، اقتلوا المشاة الذين يسدون الطريق دونما سبب » .. هكذا كان فيليب السادس يصرخ إذا أخذنا بقول فرواسار . وهذا الاحتقار ينسب أيضاً إلى مفهوم للحرب تجاوزه الزمن . وأخيراً إن عدم انصياع جيش الفرسان للنظام حوّل هذه الحرب التي أسىء الدخول فيها إلى كارثة : وبين هؤلاء المحاربين الفرنسيين الذين يلقون بأنفسهم بغير نظام على مواقع العدو ، ربما كان أقلهم عى جان دو لوكسمبورغ الذي ، حرم النظر ، وغطي بالمآثر قبل أن يجد الموت على ساحة القتال .

ج - كاليه وهدنة ١٣٤٧ م

وفي هذه الحال البائسة ، استطاع فيليب السادس أن يفر من ميدان القتال ، بينا خصمه ، بعد هذا النجاح غير المتوقع ، عاود الزحف نحو الشمال باحثاً عن ميناء للإقلاع . وقع اختيار إدوارد الثالث على كاليه ووضع الحصار أمام المدينة بإنشاء منظومة هائلة من التحصينات والخنادق . ولم يعرف فيليب السادس كيف يفيد من سقوط آرتفلد ، ضحية نكرة المدن الفلاماندية الذي

أعدمته الغوغاء بعد أن اتهمته بتسليم إنكلترا خزينة الفلاندر (١٣٤٥ م) ، كما انتظر فيليب السادس عاماً قبل محاولته تخليص المدينة . وفي ٢٧ تموز ١٣٤٩ م وصل إلى سانغات بغية معسكر للعدو . وخدمت شجاعته بتاريس الإنكليز الذين رفضوا عرضه للحرب في ساحة مكشوفة أو تسليم كالييه لمصيرها . وفي ٤ آب ١٣٤٧ م ، استسلمت المدينة في ظروف درامية . طرد السكان من المدينة وحلّ الإنكليز محلهم . وأصبح هؤلاء منذ الآن يتصرفون على القارة أمام دوفر بموقع استراتيجي وتجاري من الدرجة الأولى .

وهذه الهزائم المتكررة لم تحث ملك فرنسا على محاولة مجهود جديد . وفي سنة كريسي ، انطلقت حملة إنكليزية من الغوين ونهبت بواتيه . وفي ١٣٤٧ م ، تضاعفت خسارة كالييه بهزيمة شارل دو بلوا والقبض عليه في لاروش - درين . وفترت همة فيليب السادس . وفي المجلس الذي عقد بعد كالييه لم يأل نواب الكومونات في توجيه اللوم له .

أما من جهة ملك إنكلترا ، ومهما يكن نجاحه لامعاً ، فقد كان في أقصى موارده المالية . ورغب العودة إلى مملكته . ولذا لم يلق البابا أي عنت في دعوته إلى تعليق الحرب : إن هدنة كالييه (٢٨ أيلول ١٣٤٧ م) تركت المدينة لإنكلترا . وستدوم الهدنات ما يقارب سبعة أعوام ، ممتدة إلى ما بعد حكم فيليب السادس : ففي ١٣٤٨ م اجتاح الطاعون الأسود فرنسا ، وفي السنة التالية إنكلترا ، وما جرّ موكبه من اضطراب مادي ومعنوي . ولم تنج الأسرة الفالوية من شره ومات فيليب في ٢٢ آب ١٣٥٠ م .

تكرار النكبات في حكم جان الطيب

أ - خرق جان الطيب

وفي عهد خلفه ، جان الطيب (١٣٥٠ - ١٣٦٤ م) يبدو أن التاريخ يعيد

نفسه بفضاعة . لأن تسلسل الأخطاء والعناد ساق فرنسا للمرة الثانية إلى نكبة ، ولكن بنتائج أخطر بكثير . كان شغفاً كأبيه بمثل أعلى فروسي . وقد وصف المؤرخ جان الجميل الملك الجديد بقوله : « بطيء في الإعلام وقاس في انتزاع الرأي » ، وكان أيضاً أقل قابلية للحكم . وتشهد على ذلك أعماله الأولى . راكم الأخطاء السياسية ، وأخطرها أنه جعل ملك ناغار أخطر عدوله . كان شارل ناغار طموحاً ، وخالياً من وسوسة الضمير وقد أطلق عليه رعاياه لقب (الرديء) . وهو أمير فرنسي يملك كوتيتي إيشر و مورتين في نورمانديا ويعتبر في عداد شيوخ المملكة . ينظر عالياً ، وباعتباره حفيد لويس العاشر الماحك لأمه ، كان يرى بأن له حق في التاج الفرنسي كإدوارد الثالث بل وحتى كالثالوي . وكان مستعداً لاهتبال كل الفرص التي تساعد على توسيع دوميناته . وشجع جان الطيب بضعفه دسائسه . فقد عهد إليه أولاً بنبابة اللانغدوك و يد ابنته . ولكن الرديء قلق للأفضال التي يغدقها الثالوي على محظيين آخرين ، مثل شارل دو لا سردا فأوعز بقتله في كانون الثاني ١٣٥٤ م . وعوضاً عن معاقبته ، حاول الملك جان ، الذي يخشى خيانة ملك ناغار ، أن يكسبه لقضيته ، فمنحه دومينات جديدة في نورمانديا . وتشجع شارل الرديء بعدم العقوبة وقدم لإدوارد الثالث عونه شريطة أن يقطعه نورمانديا والشامبانيا واللانغدوك ؛ ثم حاول أن يجرض ولي العهد ، دوق نورمانديا على أبيه . وعندئذ قرر جان الثاني أن يقوم برد فعل : وفي ١٣٥٦ م أمر بتوقيف شارل الرديء في روان . ولكن بعد فوات الأوان ، حين أضيفت حرب ناغارية إلى الحرب الإنكليزية .

ولم تكن سياسة جان الطيب المالية أفضل ، فلمجابهة نفقات البلاط الجنونية وتأمين فن زخرفة فاخرة للملك ، لجأ المستشارون مرة أخرى إلى التلاعب بالنقد . ففي السنوات الخمس الأولى للحكم ، فقد النقد ٧٠ ٪ من قيمته . والأخطر

من ذلك أيضاً عدم الاستعداد العسكري ؛ لأن الملك لم يعرف كيف يفيد من أي درس مفيد من إخفاق كريسي ، بل بالعكس ، وضع سلامة فرنسا أكثر من أي وقت مضى في الفروسية التي فكر بتنظيمها من جديد . وأحدث نظاماً للفرسان العلمانيين ، وهو (نظام النجم) الذي ضم نخبة من الشجاعة والنبيل ، أي من الشجعان ومن الطبقة النبيلة . وفي الحقيقة لم يكن العاهل الوحيد الذي فتن بموضة القصص الآرثورية^(١) . ففي ١٣٤٨ م أنشأ إدوارد الثالث (نظام رباط الجوارب) ، وكان شعاره : « يا لعار من يفكر به سوءاً » ، ويحمل الفرسان هذا الشعار على الركبة اليسرى ، والملكة على الذراع . ورؤيسه العاهل نفسه . ولم يتجاوز عدد أعضائه ٢٦ عضواً .

.. ولكن على نقيض العاهل الإنكليزي ، قصر الفالوي على هذا الإجراء كل استعداده لاستئناف الحرب .

ب - الغويين مسرح جديد للحرب : كارثة بواتيه

ولم تتوقف الحرب تماماً ، بالرغم من الهدنة . ففي بروتانيا استمر الإنكليز في النهب والسلب . وفي الجنوب - الغربي خلص الفرنسيون بواتيه ولوزينيان ، وحرروا سان - جان - دالجيلي . وإخفاق مفاوضات السلام التي بدئ بها ، في نيسان ١٣٥٤ م ، قرر عودة عامة للنزاع وأصبحت الغويين في ذلك الحين أهم مسرح للحرب . وعادت مبادرة العمليات لابن إدوارد الثالث ، أمير الغال ، الملقب بالأمير الأسود ، بسبب لون درعه . كان رجل حرب حاذقاً ، وكان تحت تصرفه ٥٠٠٠ رجل ورؤساء أخيار مثل تشاندوس ، وانطلق في ١٣٥٥ م ، من بوردو إلى ناربونه بجولة اجتاحت إقليم اللانغدوك كله .

وفي ١٣٥٦ م ، قام الأمير الأسود بعملية من نفس النوع ، ولكن هذه الجولة ، في هذه المرة ، أخذت جهة بوج . وفي طريق العودة ، لاحقه (١) الملك آرثور أو أرتوس ، ملك أسطوري في بلاد الغال (ق . ٦٠ . ب . م) اشتهر بغامراته .

الفرنسيون وكانوا أكثر عدداً ، وحوالي بواتيه دارت كريسي جديدة . وألقت سهام النبالة الإنكليز الاضطراب والذعر في صفوف جيش الفرسان الفرنسي ، حتى أن كثيراً من عناصره لاذت بالفرار . وحول ملك فرنسا ، المحاط بمربع من الأوفياء جرت من بعد عدة معارك فريدة يائسة .

الثورة في فرنسا : إيتين مارسيل

أخذ جان الطيب أسيراً إلى لندن ، وعومل بكل رعاية وأكرمت وفادته . وكان مقتنعاً بأنه أنقذ شرفه . وكلف عناده البطولي المملكة غالياً . وهزت فرنسا أزمة قومية خطيرة ، فاضطرت إلى توقيع السلام المسبب للمحن والمصائب .

وفي غياب الملك ، من يأخذ على عاتقه إدارة الشؤون ؟ إن ابن الملك البكر ، شارل ، الذي فرَّ إلى بواتيه كان دون سلطة . وأمام خور السلطة الملكية ، بدا أن الوقت قد حان للمجالس أن تأخذ بيدها حكم البلاد . وبدأت الأخطاء المتكررة للملكية تبرر وضعها تحت الوصاية : وكان هذا رأي قسم من البورجوازية الباريزية . ولكن يمكن أيضاً الحكم بأن النظام لم يخرعزمه ، وإنما الرجل ؛ لأن عدم قدرة الثالوي بررت مزاعم شارل دو نافار إلى التاج وعززت عدد أنصاره . وفي مجالس لغة الأويل (لغة أهل الشمال في فرنسا) التي دُعيت في خريف ١٣٥٦ م ، ثم في ١٣٥٧ ، لمنح المعونات ، تجاهت نظريتان في شخص رجلين مصممين : الأول روبير لو كوك ، أسقف لان الذي يدعم قضية ملك نافار . وقد استطاع هذا أن يفر من السجن حيث كان حبساً ؛ والثاني إيتين مارسيل وهو تاجر أجواخ غني ورئيس التجار ، يمثل تطلعات البورجوازية الباريسية التي يمارس عليها نفوذاً حقيقياً . وتفاهم الرجلان لمطالبة المجالس بالإصلاحات : عقاب مستشاري جان الطيب السيئين ، إعادة النظر في النظام الإداري . وفي ١٣٥٦ م ، تهرب شارل ، ولكنه في السنة التالية ، اضطر إلى دعوة

المجالس للحصول على معونات ، وإلى التطهير المطلوب ، والقيام بإصلاحات إدارية واسعة بموجب البراءة الملكية الكبرى في أيار ١٣٥٧ م . وفي الواقع ، عندما انقضى المجلس ، بقيت السلطة الملكية سليمة لم تمس . أما خصوم الملك فأمام إخفاق الأصول القانوني سيحاولون منذ الآن العنف . وحاول إيتين مارسيل أن ينقل إلى الصعيد البلدي الثورة التي لم يعرف مجلس المملكة العام القيام بها .

نظم إيتين مارسيل باريس على نسق المدن الفلاماندية ، كما نظم البورجوازية ، وألبس أنصاره القبعة الزرقاء والحمرء دليلاً على الانضمام والتألب .

وفي ٢٢ شباط ١٣٥٨ م ، عرفت باريس أول يوم ثوري لها . ولما رفض شارل المسمى وصياً على المملكة أن يضع نفسه تحت الوصاية ، اجتاحت أنصار إيتين مارسيل المعتمرون بالقبعة الحمراء والزرقاء - ألوان باريس - قصر المدينة وقتلوا أمام أنظار الوصي اثنين من مستشاريه اعتبروا مسؤولين ، وهما ماريشالا شامبانيا ونورمانديا . وكان على شارل أن يعترف بقبعة ألوان باريس . وهكذا أصبحت المدينة في يدي رئيس التجار .

وهبت ريح الثورة أيضاً على المدن الأخرى والأرياف . ففي منطقة بوفيه ، في شهر حزيران ١٣٥٨ م ، قتل الجاكيون (اليعقوبيون) - الاسم الشعبي الذي كان يطلق على الفلاحين ، ومنه كلمة الجاكية (اليعقوبية) أي ثورات الفلاحين في فرنسا ، وأشهرها هذه الثورة التي قامت بعد هزيمة بواتيه - النبلاء ونهبوا القصور . وكانت الفرصة مناسبة لشارل الرديء . وعلى رأس جيش من النبلاء أخذ بيده قمع ثورة الجاكيين (اليعقوبيين) . ودخل باريس منتصراً

ونودي به رئيساً عسكرياً للمدينة . وأراد إيتين مارسيل أن يزعج ولي العهد ، فتحالف مع الناقاري . ولكن الوصي تحت مظاهر شاب ضعيف وخجول ، نضج

بسرعة تحت تأثير المصائب : هرب من باريس وجمع مجالس الشامبانيا ففتحته معونة وألف جيشاً صغيراً ، وأصبح الآن يجسد الوحدة القومية ؛ هذا فضلاً عن أن خصومه بدأوا يفقدون ثقتهم ببعض . وبعد أن عرف الجميع التفاهم بين ملك ناغار والإنكليز ، اضطر ولي العهد إلى مغادرة باريس . وشعر إيتين مارسيل شيئاً فشيئاً أنه معزول فلم يتردد بالخيانة هو أيضاً : وترك المسلحين الإنكليز يدخلون المدينة . ولكن الشعب طردهم ، وعندئذ تهيأ لإرجاع الناغاري من جديد . وفي رعشة الوطنية والولاء لولي العهد أيضاً ، قتل جان مايار رئيس التجار إيتين مارسيل (٣١ تموز ١٣٥٨ م) ، وانتصر الوصي ، وعاد إلى العاصمة يهتف به الباريزيون مهللين مرحبين .

معاهدة بريتينى^(١)

وبعد كل هذا تطلعت فرنسا إلى السلام . وفي لندن أراد جان الطيب إطلاق سراحه وحريته ، وقبل عن خفة أن يوقع مقدمات السلام التي تتنازل للإنكليز عن نصف فرنسا (١٣٥٩ م) . واجتمعت مجالس اللانغدوك واللانغدويل لأول مرة في جلسة مشتركة ، ورفضت هذه المعاهدة (غير المقبولة ولا يعمل بها) ، وصوتت على اعتمادات للإعداد لحملة جديدة تدور رحاها في شتاء ١٣٥٩ - ١٣٦٠ م . وكانت إخفاقاً . ولكن الفرنسيين ، الذين أنضجت المحن عندهم حب الوطن والعاطفة الوطنية ، قاوموا في كل مكان . فقد أظهر فلاح بسيط من ريفكور ، في منطقة كومبين ، واسمه فيريه العظيم ، إرادة لمقاومة الأجنبي ، وأخذ مكانه مع فلاحين آخرين بالقرب من دير القديس - كورمي ونجح في رد الإنكليز على أعقابهم .

(١) قرية في منطقة البوس قريبة من شارتر .

ومن جهة أخرى ، إن الوصي ، وقد حنكته التجربة ، اضطر أيضاً تحت نقص الجنود أن يتبنى تكتيكاً جديداً : أعطى الأمر للسكان بأن يغادروا البلاد المسطحة بحاصيلهم وقطعانهم ويلجؤوا إلى المدن المحصنة ليحدثوا الفراغ أمام الإنكليز . وعندما نزل إدوارد الثالث في كالييه قام بنهب بورغونيا ولكنه أخفق أمام أسوار رنّس وباريس وبدأ انسحابه باتجاه بروتانيا . وهبت عاصفة فظيعة دمرت في يوم (الاثنين الأسود) قسماً من قافلته العسكرية ، وانتهت بإقناعه بأن يعتدل في شروطه ليحصل على السلام . وفي بريتيني تم الاتفاق على بنود معاهدة السلام (٨ أيار ١٣٦١ م) وهي : تشكيل أكيثانيا الكبرى الإنكليزية من جديد بالتخلي عن الآجونييه ، وكيرسي ، وروويرغ ، وغاسكونيا وبيغور . وقدرت فدية الملك ٣٠٠٠٠٠ ليرة ذهبية . وحرر العاهل بعد أن سلم كثيراً من الرهائن . وأخيراً إن تخلي ملك فرنسا عن سيادته على أراضي الجنوب - الغربي ، وسيادة ملك إنكلترا عن حقوقه بتاج فرنسا ، يجب أن تكون موضوع عمل منفصل ، عند تنفيذ المعاهدة . وظاهراً انتهى النزاع بهذا التقسيم الجذري للأراضي والنفوذ . ولكن العاطفة القومية التي استيقظت في فرنسا بالحرب هل يمكن أن تقبل بهذا الاقتطاع ؟

شارل الخامس ونهوض فرنسا

عاد جان الثاني ووجد فرنسا لقليل من الزمن : لقد أفقرت البلاد كثيراً والملك مسرف كثيراً لتدفع الفدية الموعودة بسرعة . والبارونات الموقوفون في لندن رهائن جزعون ، ودوق أنجو الأسير ، بناء على قول بسيط في كالييه ، هرب . وجان الطيب القلق دوماً والمهتم باليمين الذي أقسمه قد قفل راجعاً إلى الأسر ، ومات في لندن في نيسان ١٣٦٤ م . وكان قد وزع بكرم على أولاده غير البكر أوقافاً : الأنجو والمين إلى لويس ، والبرّي والإفيرني إلى جان ، وإلى فيليب بورغونيا التي كان دوقها فيليب دو روثر ، آخر متحدر من ذرية طويلة من

أصل كابسي ، وقد توفي دون وارث في (١٣٦١ م) . أما الابن البكر ، الوصي ، فقد كانت له تجربة طويلة بالسلطة عندما توفي جان الثاني ، واعتلى العرش في ١٣٦٤ م تحت اسم شارل الخامس . وبدأ حكم مصلح في فرنسا .

شارل الخامس (العاقل)

يشبه الملك الجديد على قدر الإمكان أباه وجده . فالمرض والعجز - يدها نصف مشلولتين - أبعده مبكراً عن الحياة العسكرية وميادين القتال . إن حسه السليم الصلب ، وذوقه المعتدل ، وفكره (العاقل والثابت) كما تقول ترجمة حياته (كريستين دو بيزان) تتناقض مع الكرم الجنوبي لأسلافه الفالويين . ذكاؤه متوسط ، ولكنه واضح جداً . كان شارل العاقل ملكاً سياسياً خلف عواهل - فرساناً ؛ وإذا كان يملك حساً حاداً للجلالة الملكية واليقين بأن المباركة تحوله سلطة صانع المعجزات . فمن دراسة الكتاب المقدس أو أرسطو كان يطلب التوجيهات ليقم حكماً (صالحاً) . وهكذا كان يقيم عدة مفكرين لخدمته : ومكتبته الغنية بالكتب الثمينة شكلت الرأسمال البدائي للمكتبة الوطنية في باريس . وفي بلاطه ، الذي يريده لامعاً مشرقاً ، لأنه يرى أن الأبهة والبذخ لا غنى عنهما للسلطة والجاه الملكي ، كان يستقبل الفنانين ويجمع روائع الفن في قصور : بوتيه - على - المارن (الجمال على نهر المارن) ، وفانسين واللوفر . ويحيط نفسه خاصة بمستشارين مختارين لعلمهم : إن المستشارين جان وغليوم دو دورمان ، بيير دورجمون الذي ترجم (مدينة الله) وأوحى بتحرير (تقاويم فرنسا الكبرى) ، وحاكم باريس ، هوغ أوبريو ، كانوا مستشاريه السياسيين ؛ ونيقولا دوريسم ، رئيس الجامعة ، الذي ترجم عدة أعمال لأرسطو وحرر : (كتاب العملات) الذي كان أول عمل في الاقتصاد السياسي ، أوحى بقراراته في الصعيد المالي . فأى ملك آخر غير هذا العاهل الانتهازي والعاقل الفطن أوفق بشكل أفضل لفرنسا ، التي بعد الطاعون الكبير ، والثورة الباريزية ، وثورة

الفلاحين (الجاكية) ، بعد النكبات العسكرية ، بدأت تنهض ؟ ذلك لأن الظرف كان مهياً لعمل التعمير ؛ وبعد الجرح الديموغرافي الكبير لسنوات ١٣٤٨ - ١٣٥٠ م بدأ النهوض وإصلاح ما أفسد الدهر .. فن ذلك أن باريس التي كانت تضيق كثيراً في سور فيليب أوغست ، امتدت على ضفة السين اليمنى حيث أنشئ حي جديد (حي البستان) . وبعد أن ملّ الفرنسيون من المنازعات الداخلية ، تطلعوا إلى النظام ؛ ولكن الرغبة في الثأر من الإنكليز رقدت في قلوبهم اليقظة بالعاطفة القومية .

توطيد النظام في المملكة

إن أول عمل أخذه شارل الخامس على نفسه هو تصفية جميع أسباب الفوضى التي مازالت موجودة في مملكته . كان يجب أولاً رد شارل ناغار إلى حظيرة الطاعة . وعهد بمهمة توجيه الحرب النافارية إلى نبيل بروتاني ، برتران دو غيكلن وسماه كونيتابل أي قائداً أعلى للجيش الملكي (دام اللقب في فرنسا من القرن الثاني عشر إلى ١٦٢٧ م) نظراً لصفاته العسكرية . وأحرز دو غيكلن النصر تلو النصر في نورمانديا الدنيا . وبعد أن أخذ مانت ومولان أحرز فوزاً حاسماً في كوشل حيث سحق (في ١٣٦٤ م) الأمير ، دو بوش ، أفضل نقيب لدى شارل الرديء . وفي معاهدة آفنيون (آذار ١٣٦٥ م) ، كان على ملك ناغار أن يتخلى عن أراضيه في النورمانديا . وفي العصر نفسه ، سويت لحسن الحظ قضية بروتانيا : ففي أوريه ، قتل شارل دو بلوا ، في أيلول ١٣٦٤ م . وانحنى شارل الخامس أمام قضاء الله الذي خول الدوقية إلى مونفور . ولكن في معاهدة غيراند قدم الدوق جان الرابع إليه ولاءه وطرد الحاميات الإنكليزية . وبقيت قضية صعبة الحل كثيراً وهي قضية العصابات الكبرى : فنذ معاهدة بريتيني ، كون الجنود المرتزقة بعد تسريحهم ، عصابات قطاع طرق ؛ وهم أناس لا إيمان لهم ولا قانون . وهؤلاء المغامرون من كل أصل ، الذين ساهم الشعب للتبسيط

(الإنكليز) اجتاحوا بفضاعة أقاليم بكاملها . وأخفق المشروع الذي أريد منه تحويل هؤلاء المغامرين إلى محاربين صليبيين . وفكر شارل الخامس باستخدام هذه العصابات الخيفة في النزاع الذي شغل به ، لأجل عرش قشتالة ، كل من هنري دو تراستامار وأخيه النصفى پيير الشرس وكلف دو غيكلن بأن يؤدي خير الأداء هذه المهمة الدقيقة ، وأن يعمل على نصره قضية هنري دو تراستامار . وكانت إسبانيا مسرحاً لمجابهة جديدة فرنسية - إنكليزية . وفي الواقع استنجد پيير الشرس بمجنود أمير غال . وفي معركة ناجيرا (١٣٦٧ م) أسر الأمير الأسود دو غيكلن . وكانت نهاية النزاع لصالح فرنسا أخيراً . ففي قتال فريد ، انتصر هنري دو تراستامار بعد قليل ، وأمن لفرنسا حلف قشتالة ؛ ولكن فرنسا بخاصة ، تخلصت من العصابات الكبرى التي هلكت في النزاع . واستحق دو غيكلن ، لدفع فديته ، أن تبدأ كل نساء بروتانيا بقتل مغالهن ، وأن ينهل ملك فرنسا من خزينته عن سعة .

وعندئذ لم يفكر شارل الخامس بغير عودة النضال ضد إنكلترا . ولكن يجب ، قبل كل شيء ، إعداد فرنسا : وهذا هو معنى التدابير الأساسية التي اتخذها في السياسة الداخلية . فقد اقتضت الضرورة في المقام الأول الحصول على موارد ثابتة للمملكة . فمن ذلك أن التحول الذي اتخذته الحوادث شجع على تأسيس ضريبة دائمة : فنذ أسر الملك جان الطيب فرضت ضريبة منتظمة لدفع الفدية اعتبرها الشعب غير قانونية . و (حالات الضرورة) التي سمحت المجالس من أجلها بفرض أتاوة تدفع على الدار (أو النار) حصلت كل سنة ، وأخيراً بدأ يفرض على المكلفين شراء كمية من الملح الملكي (ضريبة الملح) . ولتوزيع الرسوم وجبايتها أبقى شارل الخامس (المختارين) الذين أنشأتهم المجالس ، ولكنه جعل منهم ممثلين عن الملك . ومقابل الجهود الضريبية الذي فرضه شارل الخامس على رعاياه ، تخلى عن تغييرات العملة التي انتقدت كثيراً ، وحاول توطيد العملة

الصالحة . وهذه النية التي تستحق المدح لم تتوج بالنجاح ، وذلك ، بموجب قوانين العملة التي ماتزال تغيب عن العاهل ومستشاريه ، العملة الرديئة تطرد العملة الطيبة . وبفضل الموارد الجديدة التي يتصرف بها الملك انطلق في تنظيم عسكري ، يساعده فيه دو غيكلن وأخوه دوق أنجو ، الرئيس العسكري الممتاز . وتوقع دفع منتظم لأعطيات فصائل الجنود المجندة ، وحتى في زمن السلام . وتبنيبت أسلحة جديدة ، من قوس طويلة ، ومدفعية ، ورمحت الحصون وأعيدت إلى حالتها السابقة ، وأنجز سور باريس مع حصن (باستيل) القديس - أنطوان . وأخيراً فكر شارل الخامس تعمير أسطول ؛ وبدئ العمل في ترسانة كلو دي غاليه بالقرب من روان . وأنجزت ترتيبات دبلوماسية هذا الإعداد ؛ فقد شدت أواصر الحلف مع إيكوسيا وقشتالة ؛ ولتجنب قضية فلاماندية جديدة أعاد الملك للكونت لويس دو مال المدن التي أخذها فيليب الجميل . وخطبت وارثة الفلاندر مارغريت لأخ الملك ، دوق بورغونيا فيليب الجريء .

شارل يعاود الكفاح منتصراً

قدر شارل أنه على استعداد لاستئناف النزاع ، وتكفيه الآن حجة للقيام بالحرب : ففي ١٣٦٨ م ، رفض الكونت جان دارمانيك ، تابع أمير الغال ، أن يدفع لهذا الأخير أتاوة الدار (النار) التي فرضت حديثاً واستنجد بملك فرنسا « باعتباره أميراً صاحب سيادة على الدوق وعلى دوقية الغويين كلها » . وفي سياق الدعوى اكتشف برلمان باريس بالمناسبة عيباً في الأصول يلغي التخلي عن السيادة الذي أجري في برييتيني . ووجه شارل الخامس دعوة للمثول أمام البرلمان للأمير الغال وحكم بمصادرة الإقطاع . وكانت الحرب قد استؤنفت ودارت رحاها في أكتانيا وفي شمال فرنسا معاً . وفي الجنوب - الغربي ، ساعدت خمس سنوات من النزاع الفرنسيين ، بتوجيه من لويس أنجو ودو غيكلن ، يساعدهما الأسطول القشتالي ، على تحجيم السيطرة الإنكليزية على جييين ، أحدهما حول بوردو ،

والآخر حول داكس وبايوتون ، كما اعترف المتحاربون بذلك في هدنة لا ريؤل في ١٣٧٤ م . وفي الشمال ، كانت الحرب أقل ملاءمة للفرنسيين : إن تكتيك الأرض المحروقة التي استخدمها دو غيكلن أنهكت العدو ، ولكنها دمرت سطح البلاد والفلاحين أيضاً وكذلك الجولات والصولات الإنكليزية الفظيعة أيضاً . ولكن الإنكليز احتفظوا بكاليه وكسبوا من جديد رأس جسر في بروتانيا وفي شبه جزيرة كوتانتن : فقد ثار الدوق جان الرابع ضد الملك وتركهم يستقرون في برست ، وسلمت إليهم شربورغ بخيانة شارل الرديء .

في ١٣٨٠ م ، دخلت العمليات العسكرية من جديد في إغفاء . بيد أن الحرب لم تنته بعد . وإذا كانت الوحدة الفرنسية قد أعيد بناؤها تقريباً ، فإن الوجود الإنكليزي ، مهما كان محجماً على القارة ، لا يمكن إلا أن يؤدي إلى عودة النزاع . ولكن صفحة من تاريخ فرنسا وإنكلترا قد قلبت ؛ لأن كل الذين كانوا حتى الآن يناصرون النزاع قد زالوا أو يزولون : ففي ١٣٧٧ م مات إدوارد الثالث ، وبعد بضعة أشهر أمير الغال . وفي فرنسا ، دو غيكلن المكلف مرة جديدة بالقضاء على قطاع الطرق المقيمين في الإثيرني ، مات في حصار شاتونوف - دو - راندون في ١٣٨٠ م ، وتبعه إلى القبر بعد بضعة أسابيع ، ملك فرنسا ، شارل الخامس .

هل ستقضي الملكية الإنكليزية على الأمة الفرنسية ؟

في الربع الأخير من القرن الرابع عشر ، بدأ لفرنسا كما لإنكلترا دور قصور شرعي . فهنا وهناك وقعت السلطة الملكية في أيد ضعيفة كثيراً وزعزعتها المنافسات الأميرية بشدة ، والأزمات الاقتصادية والاجتماعية والأزمة الداخلية التي أضنتها أجبرت المتحاربين على وقفة طويلة . ولكن فيما كان فساد الحالة في فرنسا يضعف البلد شيئاً فشيئاً ، نهضت إنكلترا بهزة رفعت إلى السلطة سلالة

جديدة . وظلت فرنسا ثلاثة أرباع القرن بعد كريسي مسحقة من جديد على ساحة القتال . ولكن في بداية القرن الخامس عشر هذا ، كان وجودها كأمة موضع تساؤل .

أ - فرنسا ممزقة : أرمانياكيون وبورغينيون

بين ١٣٨٠ و ١٤١٥ م كانت الحالة في فرنسا ما تزال في تدهور وتدمير ، وحتى آخر القرن الرابع عشر مع ذلك يمكن الاعتقاد أنه كان يفكر بأن المصاعب عابرة ومرتبطة بشباب العاهل الجديد . فعند وفاة شارل العاقل لم يكن لابنه شارل السادس غير اثني عشر عاماً . وأكثر من الحكم ، وهذا الأمر لا يمكن أن يفاجئ ، أن الملك الفتى كان يهتم بالجولات والمبارزات والحفلات الراقصة . وفي الحقيقة ، كانت تظهر عليه علامات العصبية المرضية ، ولكن الشعب كان يشعر تجاهه بالعطف وأطلق عليه اسم شارل الحبيب .

ب - حكم الأعمام

لقد توقع شارل الخامس براءة ملكية تنظيم الوصاية وبموجبها على معاونيه الأساسيين تأمين استمرار الحكم . ولكن السلطة الملكية التي تركت في أيدي كائن ضعيف ، أثارت كثيراً من الأطماع . وأعمام الملك الفتى حين افتتحت قضية قصوره ، كانوا بعمرهم وقوتهم في أفضل موقع في المنافسة . أبعدها مستشاري الملك الراحل باتفاق مشترك ، وتقاسموا السلطات والمكاسب . ولكن (حكومة الأعمام هذه) لم تنطلق دون صدامات أكيدة : لأن هؤلاء الأمراء الإقطاعيين الذين كانوا على رأس دول صغيرة حقيقية ، ونصف مستقلة ، كانت لهم أطماع شخصية تضع بعضهم ضد بعض . كان لويس الثاني دو بوربون خال الملك شخصية محمية . وجان دو برّي كونت بواتيه عمه يأمل بزيادة موارده بغية إشباع ذوقه المسرف في الجمع : كان حاكم لانغدوك ونهب البلد دون تحفظ أو رادع ومانع ، واستطاع أن يعمل من قصره نوعاً من متحف للفن . والأطماع السياسية المفرطة نصبت

دوق آنجو ودوق بورغونيا ، الواحد ضد الآخر . أما دوق آنجو فقد تبنته الملكة جانّ دو نابولي (١٣٨٠ م) وعينته وارثاً لها ، لذا لم يفكر إلا في حيازة مملكته الإيطالية : وقبل مغادرته (١٣٨٢ م) حاول طلب جزية من خزينة ابن أخيه الملك . وفي هذه المحاولة ، كان له منافس في شخص دوق بورغونيا ، فيليب الجريء « الذي ينظر إلى بعيد » كما يقول فرواسار . وله خططه الخاصة . ففي ١٣٦٩ م تزوج مارغريت الفلاندر : وكان يهتم قبل كل شيء بالدفاع عن الإرث الذي يعود إلى زوجته ، وعندما ثار الفلامنديون ، بقيادة فان آرتقلد ضد عمه أبي زوجته ، لم ير الراحة إلا عندما جرد الجيش الفرنسي لقمع الثورة واقتضى الأمر حملتين ضروريتين لضرب المتآمرين ، ووطد انتصار روزبك (٢٧ تشرين الثاني ١٣٨٢ م) سلطة لويس دو مال . وبعد أخذ كورتريره نقل فيليب بورغونيا إلى ديجون شعار جاكومار لوضعه على برج كنيسة نوتردام رمزاً للاتحاد الغريب للإمارتين . وفي ١٣٨٤ م ، حصل في الواقع على إرث ابن حميه : كوتية فلاندر ، هينوت ، آرتوا ، روتيل ، نوفير والكوتية أي الفرانش - كوتيه . لقد امتد النفوذ الفرنسي ، ولكن في الوقت نفسه ، تشكلت قوة بنورغونية يخشى خطرهما على الملك . كما حاول فيليب أن يزيدها أيضاً : ففي حرب الغلدر ، حيث جرّ ملك فرنسا ، حصل لأخيه أنطوان ، على ليمبورغ والبرابان اللذين تخلت له عنهما جانّ دو لوكسمبورغ معترفة بفضله . وفي ١٣٨٥ م ، زوج ابنه ووارثه ، جان ، من مارغريت باقاريا ، فأثت لزوجها بهولاندة وزيلاندة والفريز . وهكذا فإن القسم الأعظم من مملكة لوتيرانجيا القديمة وجد معمرأ لصالح البيت البورغوني . ولتفضيل دبلوماسيته في الإمبراطورية ، ضم فيليب ملك فرنسا إلى ترتيباته الزوجية ، ففي ١٣٨٥ م ، زوجه إيزابو باقاريا أخت مارغريت .

وبسلوك هذه السياسة الخاصة ، ظلّ فيليب الجريء فرنسياً معادياً جداً

لإنكلترا ؛ حتى أنه هياً في بولونيا أسطول إنزال . ولكن عاصفة هبت فدمرت (مدينة الخشب) وأرجئ المشروع .

ولدعم سياسة الأعمام الطموحة ، وجب ، مرة أخرى ، إرهاب الشعب بالضرائب ، فكان الاستياء عظيماً ؛ حتى أن شارل الخامس أخذه الندم ، وعلى سرير نزاعه الأخير حذف علناً كل الرسوم والضرائب التي أحدثت من جديد . وجرت الآمال الخائبة الثورات في الأرياف : ففي لانغدوك قامت عصابات (التوشن) ، التائهة على الأرض البراح ، البور ؛ وفي نورمانديا رجال القبعات البيضاء . وفي المدن زجرت الثورة : فإلى ثورة البؤس ، في روان ، أجابت ثورة المايوتن (المطارقة ، لأنهم كانوا مسلحين بالمطارق الخشبية ذات الرأسين) في باريس .

وبعد انتصار روزبك ، يرى أن الأمراء الذين صبروا حتى الآن ، قد استثمروا في القمع دونما رحمة .

في باريس ، ألغيت رئاسة التجار ؛ ووضعت المدينة تحت إشراف حاكم ملكي . وكل هذه الصعوبات زعزعت ولا شك حكومة الأعمام : فقد قامت ثورة قصر أبعدهم عن السلطة في ١٣٨٩ م ، وشكرهم الملك وأعرب عن نيته بأن يحكم بنفسه . وفي الواقع كان الملك دوماً لا يهتم بالحكم ، وهذا العمل السلطوي أوحى إليه من قبل مستشاري أبيه السابقين ومن أخيه الشاب دوق أورليان . فقد بدأ الأوائل بعمل إصلاح إداري وبفضله عرفت فرنسا نهوض بضعة سنوات . وهؤلاء المساعدين لشارل الخامس الذين عادوا للسلطة مسنين ، أطلق عليهم الشعب بحبث لقب (الأقزام) ، مستخدماً كلمة تدل على الصور المضحكة التي ترى على مطارق الأبواب أو المناصب المعدنية في المواقف . وسمي أوليفيه دوكليسون قائداً أعلى واهتم بتنظيم الجيش . واهتم بورو دولاريفير ولوميرسيه بتحسين الإدارة المالية : فقد أحدث ديوان الضرائب غير المباشرة وديوان الخزينة . وأرسل

مفوضون مصلحون إلى الأقاليم للاحقة التجاوزات التي ارتكبتها جباة أو عمال الضريبة . ولمصلحة البورجوازية الباريزية أعاد الأقسام وظيفة رئيس التجار في شخص جان جوفنيل . ولكنهم لم يستطيعوا مس الأمراء الواقفين (المستفيدين من الوقف) الذين ظلوا يأخذون المعاشات ويحافظون على حيازة الضرائب الملكية التي تجبى من إماراتهم . وزادوا التكاليف التي أثقلت كاهل الشعب ، وهذا ما جعلهم لا يحظون بحبة الشعب . أما لويس أورليان أخو الملك ، فقد ترك (للأقسام) أعمال الإدارة التي تورث السأم والملل ، وخص نفسه بكل المتع المتعلقة بالسلطة وبفوائد السياسة الخارجية التي يوجهها . ووجد لويس أورليان في الملكة إيزابو الشابة رفيقة مأخوذة بالذائد مثله . وكلاهما جرا البلاط والملك في دوامة جنونية من الرقص المقنع والحفلات والموائد . ومع ذلك فإن لويس لم ينس أهدافه الطموحة ؛ فقد تخلى عن مشاريع الحرب ضد إنكلترا حيث تحرر ريتشارد الثاني الشاب من وصاية هيئة البارونات (البارونية) ، وكان مستعداً تماماً للتقرب من ابن خاله الفالوي ، ووقع في لولينغن في ١٣٨٩ م هدنة لثلاث سنوات قابلة للتجديد . وكعمه ، دوق أنجو ، اتجه نحو إيطاليا حيث كان عدم الوجود الإمبراطوري يشجع النفوذ الفرنسي . وتزوج فالنتين فيسكونتي وقدّر أن يقتطع لنفسه مملكة شخصية في رومانيو وفي المارش . ومنذ ١٣٩١ م ، بدأ يعبئ الجيش الملكي لحملة إيطالية كبرى .

جنون الملك

إن كل هذه المشاريع وكذلك دور العفو والصفح الذي عرفته فرنسا تحت حكم الشيوخ المسنين (الأقسام) انتهت عندما انفجر جنون الملك . إن ظروف الدراما معروفة جيداً . إن القائد الأعلى للجيش أوليفيه دوكليسون ، محطي شارل السادس ، كاد أن يكون ضحية محاولة اغتيال كان ساعدها أمير بروتاني ، بيير كراون والموحي بها دوق بروتانيا نفسه ، جان الرابع دومونفور . ولأخذ

بثأر أوليفيه دوكليسون ، بمعاقبة ببيير دوكراون ، جال وصال ملك فرنسا محاطاً برجاله في غابة مانس ، في ٥ آب ١٣٩٢ م . وفجأة هجم رجل وأمسك بلجام حصان الملك وصرخ ، لا تذهب إلى أبعد ، أيها الملك النبيل ، لقد خُنتَ ، عندئذٍ أخذ الملك فرط جنون مخيف ، واستل الملك السيف على مرافقيه ، وجرح كثيراً منهم قبل التمكن من تجريده من سلاحه . والحادث الذي أثار الأزمة ، حتى ولا الحرارة العظمى لذلك النهار الصيفي لم تكفياً لشرح هذه الدراما . لقد كان شارل السادس ضحية وراثية ثقيلة جداً ؛ فقد ظهر اختلاله العصبي قبل ١٣٩٢ م ، ولكن تحت أشكال أقل عنفاً . وإن حياة اللذائذ المرهقة التي مافتى يسلكها في البلاط ما كان منها إلا تفاقم المرض . ومنذ الآن فصاعداً تعاقبت على العاهل البائس أزمت عيفة وأدوار خور ؛ وعلى فترات نادرة أكثر فأكثر ، كان يتتبع بوضوح لا يفيده إلا في تحديد سعة بلائه . والأطباء ، بفصدهم ، والسحرة بأعشاهم السحرية ، كانوا غير قادرين على أن يأتوه بأقل مسكن أو راحة . والحج لجبل سان-ميشيل ، والقداسات ، والصلوات ، لم تنجح أيضاً . وفي حاشية الملك ، لم يستسلم أحد لقضاء الله بسرعة : فالحفلات الراقصة التنكرية ؛ مثل حفلة الأجاجين في ١٣٩٣ م ، واللعب بالورق ، والمآذب عاودت مساقها . أفلا يجب إلهاء الملك عن كآبته ؟ ولكن بالنسبة لفرنسا (المصابة برئيسها) ، كانت الضربة قاسية ، إن الطبيعة السرية والمتقطعة للضرر أبعدت فكرة وصاية رسمية : ولكن في الوقت نفسه ، فسحت مجالاً لانطلاق الطموحات والمنافسات لاستلام السلطة . وأكثر عنفاً بكثير من فترة القصور الشرعي ، نمت المنافسات الأميرية . وبالحال ، بعد دراما غابة مانس ، أخذ أعمام الملك ثأرهم من الشيوخ المسنين (الأقزام) الذين عزلوا ووضعوا رهن المحاكمة . ولكن لويس أورليان لا يفهم بأن يستسلم لنزع ملكيته . وفي الواقع ، اندفع ، مثل لويس الثاني دأنجو ، لفتح مملكة نابولي التي تركت لأبيه ، كذلك دوق برّي اهتم بمجموعاته

الفنية العزيزة عليه والغالية أكثر من مصير فرنسا ، وعلى اعتبار أن دوق بوربون غير أهل للسلطة ، بقيا متنافسين وجهاً لوجه : دوق بورغونيا ، فيليب ، ودوق أورلئان . أحدهما مجهز بدومينات واسعة وبتجربة مديدة ، والثاني أقل ثراء بكثير ولكنه أكثر جشعاً ، يتنافسان بالدسائس والمكائد للسيطرة على الملك المريض ، وكلاهما كان أيضاً بحاجة للأموال الملكية لتحقيق طموحات أمراء يحبون تملك الأراضي . وكلاهما له أهداف أو تطلعات للتاج الفرنسي . وفي سنوات طويلة ، حتى ١٤٠٤ م ، تاريخ وفاة فيليب الجريء ، كان النزاع سرياً ومغطى : لويس أورلئان تغلب ، أثناء أدوار صحو الملك التي يسترجع فيها الملك كل عطفه على أخيه . وأفاد فيليب من أدوار الأزمة ليبسط نفوذه . ولما كانت مصالح المتنافسين في كل نقطة متعارضة ، فقد صدمت السياسة الفرنسية بشكل فريد : في إيطاليا ، أورلئان ، حليف آل فيسكونتي دعم ميلانو ، بينما البورغوني ، المرتبط بآل فيتلسباخ ، شاطر سياستهم المعادية لميلانو والملائمة لفلورنسا . وفي ألمانيا انتصر فيليب لروبير بافاريا ، وأتى أورلئان بمساندته إلى فينسلاس بورغونيا الذي عهد إليه بحكم دوقية لوكسمبورغ ، وفي ذلك تهديد مباشر لوحدة الممتلكات البورغونية . وكل واحد من الأميرين يدعم في قضية الحيدة الدينية الكبرى بابا يختلف عن الآخر . وتحت النفوذ المعتدل الذي كان عليه فيليب بورغونيا ، تحسنت العلاقات الفرنسية - الإنكليزية : فمن ذلك أن إيزابل فرنسا ، أخت الملك ، بزواجها من ريتشارد الثاني ، هيأت المصالحة بين البلدين . فضلاً عن أن ملك إنكلترا أعاد شربورغ في ١٣٩٤ م للشاب شارل الثالث دونافار التابع الوفي لملك فرنسا ، وأجلى عن برست . ولكن أورلئان ، في ١٣٩٩ م ، تنكر للنجاحات البورغونية وشجع هنري لانكاستر على ثل عرش ريتشارد الثاني .

مقتل لويس أورلئان

فتحت وفاة فيليب الجريء (١٤٠٤ م) دوراً حاداً في النزاع ، إذ لم يشعر لويس أورلئان بأنه ملتزم حيال ابن عمه « جان دون خوف » بنفس المراجعة تجاه عمه . وخلال ثلاثة أعوام انطلق الأميران في حرب لا هوادة فيها كان فيها شخص الملك موضع رهان . وعلى هذا النحو ، في ١٤٠٥ م ، زحف جان على باريس : وعندما اقترب هرب لويس مع الأسرة الملكية . وعندما لحق به في جوفيزي فصيل بورغوني ، اضطر إلى الرجوع إلى العاصمة وتقبل هتافات البورغوني المرائية والمداجية . وبالرغم من الجهود التي بذلها بيّري وبوربون لمصالحتهما ، لم يخف الخصمان حقدتهما المميت الذي كان يحرضهما : اتخذ لويس عصا كرمز ، وبالحال اختار جان أن يأخذ منجراً رمزاً له . وفي ٢٣ تشرين الثاني ١٤٠٧ م ارتكب ما لا يمكن إصلاحه ، أمر جان دون خوف بقتل دوق أورلئان .

وغداة القتل بدأت حرب أهلية فظيعة مزقت البلاد بأكملها لسنوات طويلة . أما جان دون خوف المعترف به مقترباً الجريمة فقد فرّ أولاً إلى مدينة ليل ، وبعد أقل من ثلاثة أشهر ، بدأ مفاوضات مع البلاط وقفل راجعاً إلى باريس . ولم يشعر بأقل ندم ، وتجراً عندئذٍ بتبرير جرمه : فقد كلف أستاذ الجامعة جان بوتي ، أن يقوم بالدفاع عن قتل الظلم . واتهم لويس أورلئان بكل الجرائم وأدين بعنف ، وأُثني على القاتل لأنه أنقذ المملكة ، وهكذا حصل جان دون خوف على عفو الملك (٩ آذار ١٤٠٩ م) .

الأرمانياكيون والبورغينيون

الاشتباكات الأولى

لقد عرف دوق بورغونيا كيف يضم إليه الملكة إيزابو ، وحصل في آخر ١٤٠٩ م على أن يوضع ولي العهد لويس تحت حراسته . وهذه الجراءة المتعاطفة

لجان دون خوف حشدت ضده أنصار دوق أورلئان الراحل الذين لم ينسوا جميعاً ذكراه . وكان عمه أبو زوجته ، كونت أرمانياك ، برنارد السابع على رأسهم . وبموجب ميثاق-جَيْنَ (نيسان ١٤١٠ م) انضم إليه بيرى وبوربون ، وهكذا تألف الحزب الأرمانياكي واتخذ لنفسه رمزاً الوشاح الأبيض والقُرَاص ، بينما اعتمر البورغونيون القبعة الخضراء وصليب القديس - أندره . فأمام القوة البورغونية ، سيدة شمال وشرق فرنسا ، وقفت فرنسا الجنوبية الأرمانياكية . كانت رهانات النزاع شخص الملك ، دمية بسيطة في أيدي الأشياء ، ويد ولي العهد . وكان القتال أيضاً لامتلاك العاصمة . ولكن المعارضات السياسية ، في باريس ، أخذت مظهر نضال اجتماعي نصب البورجوازيين والشعب ضد الطبقة النبيلة . وعلى هذه الأرضية ، كان جان دون خوف ، الذي اعتاد على تسوية المشاكل المدنية في ممتلكاته الفلاماندية أكثرهم مهارة . فأمام الأرمانياكيين الذين يؤلفون حزب كبار الإقطاعيين ، عرف ، منذ عودته إلى العاصمة ، كيف يكسب بكلامه المتعلق الشعب الباريزي ويجعله حليفاً له . ولم ينس الباريزيون إذلالات سنة ١٣٨٢ م : وكما في زمن إيتين مارسيل ، كانوا يريدون أن يديروا أنفسهم بأنفسهم ويمارسوا إشرافهم على تسيير الشؤون القومية . وفي الواقع ، كان وسط العاصمة يضم عناصر مختلفة : الجامعيون ، أعضاء البلاطات العاهلية ، لاهوتيون أو حقوقيون ، وكلهم منظرون يحضرون برامج عالمة للإصلاح الإداري ؛ وأصحاب البنوك ، وتجار الأجواخ كانوا بخاصة حساسين بالقضايا الضريبية . وأخيراً ، الأصناف المهنية المحتقرة من الجزارين وباعة أحشاء الحيوانات ، والدباغين ، ويؤلفون جمهور رماة بالمقلع مستعداً للثورة والنهب .

وخلال أربع سنوات يتقاتل فيها الحزبان ، الأرمانياكيون والبورغونيون ، ويتصالحان طوراً وطوراً ويبدأ كل واحد من جهته بمفاوضات مع إنكلترا ، ظل جان دون خوف سيد العاصمة . ولكن في ١٤١٣ م ، طفق الكيل مع جان دون

خوف المثلث بالمزايدة ، وتجاوزته الحركة الشعبية التي شجعها : ورأى شعب المهن الصغير والمشاعب بأن الإصلاحات التي أعلن عنها تتطلب الانتظار . وفي ٢٧ نيسان انفجرت الثورة في ضاحية القديس - أنطوان . وكان زعيمها اللحام الغني سيمون كابوش . وفي بضع ساعات ، أصبح الكابوشيون سادة باريس . وشتما ولي العهد والملكة إيزابو . وبدأ الجامعيون ، والنبلاء يخافون . وحاول جان دون خوف أن يناور أيضاً : فقد وعد بأن ينشر براءة إصلاحية ؛ ولتهدة الجمهور ، قرر أن يعمل شيئاً ؛ ولئلا يقلق البورجوازية ، حدد الإصلاحات ما أمكن : فالبراءة التي تسمى البراءة الكابوشية ، هي ، في الواقع ، من عمل بعض الحقوقيين والدوق نفسه ، وأقل جرأة بكثير من عمل ١٣٥٦ م ، واقتصرت على بعض التنقيحات الإدارية . وقد لعب دوق بورغونيا اللعبة وخسرها : وبينما ظل الثوار يقتلون وينهبون ، تفاهم بعض كبار البورجوازيين مع ولي العهد وبدأوا بمفاوضات مع الأرمنياكيين الذين استقروا في بونتواز . واضطر جان دون خوف إلى الفرار . وبينما كان برنارد السابع كونت دأرمانياك يدخل باريس ، استشرى القمع ، وأبرم الحزبان المتنافسان هدنة جديدة في أيلول ١٤١٤ م . وكان الأرمنياكيون والبورغونيون يراقب بعضهم بعضاً ، كانوا يحاولون كسب الوقت لأن هؤلاء وأولئك بدأوا من جديد بمفاوضات مع إنكلترا مفضلين الأحقاد الحزبية على مصلحة الأمة . كانت اللعبة خطيرة : فأمام فرنسا الممزقة دوماً ، خرجت إنكلترا من أزمة طويلة ووجدت تلاحها وقوتها .

النهوض الإنكليزي السريع والفوضى الفرنسية

أ - آل لانكاستر والنهوض الإنكليزي

خلال العقود الأخيرة ، اجتازت إنكلترا أزمة شبيهة بالأزمة التي هزت فرنسا ؛ ولم تستطع ، بهذا الواقع ، كيف تفيد من الانقسامات الفرنسية للحصول على تفوق حاسم . وفي الواقع ، في ١٣٧٧ م ، عند وفاة إدوارد الثالث الذي سبقه

ابنسه ، الأمير الأسود ، إلى القبر ، افتتح دور القصور الشرعي : فلم يكن لريتشارد الثاني حفيد العاهل الراحل ، غير عشرة أعوام ، عندما اعتلى العرش . وتشكل مجلس مؤلف من أعمام الملك ، وبخاصة جان غانند ، وبعض كبار البارونات ، واستولى على السلطة ، كما في فرنسا . ونهبت الخزينة الملكية . ولملئها ، أكثر المستشارون القائمون على العمل الضرائب : ففي ١٣٨٠ م ، تقرر دفع ضريبة الرأس ، التي أعفي منها (المتسولون الحقيقيون) وحدهم . وهذا الإفراط في الضرائب أدى في ١٣٨١ م إلى ثورة شعبية فظيعة (الثورة العمالية) كانت أكثر عنفاً من الثورة التي قام بها في الوقت نفسه المطرقيون : كانت ثورة الفلاحين (اليعقوبية) أولاً موجهة ضد جباة الضرائب والأمراء ، ثم وصلت لندن ، وهدد الثائرون الملك . وأخيراً ، قضى النبلاء على الثائرين بعد مذبحة فظيعة . ومع ذلك فما زال الاستياء موجوداً ، وانتقل إلى الصعيد الديني . فقد شايع الفلاحون والحرفيون بعدد كبير المذهب الهرطقي الذي بشر به جون ويكليف . وبدأت ثورة هؤلاء اللولارديين تثقل على البلاد وتقلقها كثيراً .

وعندما أصبح ريتشارد راشداً ، أبعده في ١٣٨٩ م أعمامه عن السلطة ، وتخلص من البارونات الذين يضايقونه ونفى ابن عمه الأقرب القوي هنري دو لانكاستر ١٣٩٨ م . وفي الحال ، بدأ سياسة سلام وتقارب نحو فرنسا : ويبدو أن هدنات لينغن تسمح بتسوية نهائية لجميع القضايا المعلقة بين الخصمين (١٣٨٩ م) . وأفاد مذهب السلام ، الذي تبناه العاهل ، أعداءه في الداخل ، فاتهموه بالضعف وأخذوا عليه بخاصة سلطته المستبدة . أما لانكاستر المنفي فقد جعل من نفسه زعيم المعارضة الإقطاعية : وفي ١٣٩٩ م ، نزل في إنكلترا ، وضم إليه جميع المستائين واستطاع أن يستحوذ على شخص ريتشارد الثاني . وانتزع من أسيره تصريحاً بالتنازل عن العرش وصادق البرلمان على ضربة القوة هذه ، وفي شهر تشرين الأول ١٣٩٩ م ، نودي بهنري لانكاستر ملكاً على إنكلترا تحت اسم هنري

الرابع . وبعد بضعة أشهر ، توفي ريتشارد معتضداً في زنزانته . ومنذ ذلك الحين بدأ النهوض الإنكليزي . وكان حكم هنري الرابع قصيراً كثيراً (١٣٩٩ - ١٤١٣ م) ، والحالة الداخلية ما تزال متوترة ليستطيع العاهل الجديد ، بالرغم من رغبته ، - وقد أضاف إلى ألقابه لقب ملك فرنسا - استئناف الحرب على القارة . إلا أنه على الأقل هياً استئناف الحرب بتوكيد السلطة التي سينقلها إلى ابنه : انتصر على مورتير ، عم الملك المخلوع الذي قام ضده مطالباً بالعرش . وبوشر بحملات في بلاد الغال وفي إيكوسيا . وأخيراً ناضل بشدة ضد اللولاردين ولاحقهم وحكم عليهم بالحرق . وعندما اعتلى هنري الخامس العرش ، فكر باستئناف أطماع إنكلترا القارية والإفادة من الاضطرابات الداخلية في فرنسا . وكان العاهل اللانكاستري الثاني فكراً بارداً ، واقعياً ، ومخادعاً . بدأ عمله أولاً بالطريق الدبلوماسي ، ليقسم ولا شك خصومه بشكل أفضل . وباشر بمفاوضات مع جان دون خوف وأراد حليفاً ، ولكنه كان بجواره كنافس . وفي الوقت نفسه بدأ بتعاقدات مع الأرمنياكيين : وظاهراً ، يبدو أنه قرر أن يقلب التخلي عن (حقوقه) بالتاج الفرنسي . ولكن مطالبه ازدادت في كل مؤتمر وأصبحت غير مقبولة حتى بالنسبة للحكومة الأرمنياكية الضعيفة . وبيد كاترين ، ابنة شارل السادس طالب في الواقع بكل إمبراطورية آل پلانتاجونيه ، بما فيها النورمانديا والسيادة على الفلاندر وبروتانيا . وفي تموز ١٤١٥ م قطعت المفاوضات وبدأت الحرب من جديد .

النكبة الفرنسية في آزينكور وعودة الحرب الأهلية

كان هنري الخامس مستعداً ، ترك إدارة الشؤون الإنكليزية إلى أخيه الدوق دو بدفورد وسماه وصياً وأبحر في ١١ آب ١٤١٥ م بجيش معبأ جيداً نحو السواحل النورماندية . استولى على هارفلور (١٨ آب - ١٨ أيلول) ، وكإدوارد الثالث قبل قرن اتجه بجولة نحو الشمال واجتاز نهر السوم (١٩ تشرين الأول) . ولكن

جيش هنري الخامس ، تضايق بسبب رداءة طقس الخريف ، وأنهكه عدو يفوقه عدداً : وإذا بقي جان دون خوف في حال انتظار وتوقع ، فقد جهز الأرمانيكيون جيشاً قوياً . وكان العاهل الإنكليزي في وضع سيء : فقد جدد الأمراء الفرنسيون خطأ كريسي وبواتيه ، وتنازلوا له عن نصر لا يمكن التنبؤ به . وأمام الإنكليز المتخندقين وراء سياج من الغابات ، كان الفرسان الفرنسيون محتشدين على هضبة آزينكور الضيقة ، ولا يمكنهم أن يحملوا على الإنكليز ، وترجلوا عن خيولهم وضاقوا بدروعهم الثقيلة ، وأمطرهم النبالة الإنكليز بوابل من السهام وأنهى عليهم ذود الدروع الدقيقة النسج (٢٥ تشرين الأول ١٤١٥ م) . وبين ضحايا المجزرة وجد القائد الأعلى للجيش دألبرت ، أنطوان دو برابان وفيليب دو نوفير ، أخوا جان دو خوف . وأسر آرثور دو بروتانيا ودوق دو بوربون وكذلك شارل دورلثان الذي بحث في الشعر عن عزاء لأسره .

وعلى هضبة آزينكور ، أخفق الفرنسيون إخفاقاً جاداً ، ولكن نصر هنري الخامس أبعد من أن يكون حاسماً ، وبعد ثلاثة أسابيع على المعركة أبحر ثانية إلى كاليه بكل جيشه . كان الحادث خطيراً ولا سيما بانعكاساته الداخلية : فقد زاد قليلاً في الفرة بين الفرنسيين . وغلب الأرمانيكيون وفقدوا الثقة . أما دوق بورغونيا الانتهازي فقد انزلق قليلاً قليلاً في المعسكر الإنكليزي . واستؤنفت الحرب الأهلية بأعنف مما في الماضي بينما باشر هنري الخامس بفتح غرب فرنسا . وفي هذه المرحلة الجديدة من النزاع الذي قاوم فيه الأرمانيكيون البورغونيين ، خسروا تبعاً أفضل حظوظهم : ففي ١٤١٥ م ، توفي ولي العهد لويس قبل أوانه ، وتبعه بقليل أخوه الذي ولد بعده . وسمي ولي العهد الجديد شارل نائباً عاماً للمملكة ، وكان طفلاً خجولاً ودون وجاهة . أما إيزابو فقد اختلفت من جديد مع ابنها ومع الزعماء الأرمانيكيين ، وهربت لدى جان دون خوف ؛ وجرت الملك المريض معها ، ونظمت في تروا حكومة وعهدت بها إلى جان دون

خوف . وأخيراً ، فقد الأرمنانيكيون دعم باريس . لقد كانت المدينة جائعة وفقيرة بسبب الرسوم والقروض الإجبارية ، وسُئمت الإرهاب الذي نشرته عصابات برنارد السابع الغاسكونية .

وكانت العاصمة باريس حساسة بدعاية دوق بورغونيا . وكان هذا مسيطراً على الأرياف المجاورة ، عندما فتح فتى يافع لجنوده باب سان - جرمن - ديه - پريه (٢٨ - ٢٩ أيار ١٤١٨ م) . وفي باريس التي عادت بورغونية أفلت العنف الشعبي زمامه ، واستطاع ولي العهد شارل الفرار إلى بورج حيث أقام حكومته . ولكن الزعماء الأرمنانيكيين الأساسيين ، وبخاصة برنارد السابع قتلهم الجمهور الذي استشرى على جثثهم .

قتل جان دون خوف ومعاهدة تروا

منذ آب ١٤١٧ م ، اطمأن هنري الخامس لحياة دوق بورغونيا ومشاركته في الجرم وللعجز الأرمنانيكي ، وباشر بفتح نورمانديا . وفي الأشهر الأولى من عام ١٤١٨ م ، سقطت تباعاً بايو ، كن ، وفاليز في يديه . وقاومت روان مقاومة فظيعة : حوَصر السكان وأهلكهم الجوع ولم يستسلموا إلا في نهاية ستة أشهر (تموز ١٤١٨ م - كانون الثاني ١٤١٩ م) . ومنذ الآن ، أصبح ملك إنكلترا سيد نورمانديا كلها ، وتقدم حتى بونتواز . وقلق جان دون خوف لهذا التقدم الإنكليزي . وحاول التقرب من ولي العهد ؛ وفي ١٠ أيلول ١٤١٩ م نظم لقاء على جسر مونتره بين الرجلين يرافقه بعض الخدم . وجرى تبادل السباب والشتائم . فهل يستل جان دون خوف سيفه ؟ إن ما حدث هو أن أحد أعضاء حاشية ولي العهد ، تانغي دو شاتيل ضرب دوق بورغونيا ببلطة . إن جريمة مونتره تذكر بالثأر ، لأنها جواب للاغتيال الذي جرى في شارع باربيت : إذ لم يفكر فيليب الطيب ، دوق بورغونيا الشاب ، بأكثر من فقد عدوه ولي العهد شارل . وكان مستعداً في سبيل الوصول إلى غاياته ، لأن يقبل بكل مزاعم هنري الخامس .

ووجد حليفة في الملكة إيزابو التي انجرفت بحياة طويلة من الفجور بصحبة زوج مجنون ولم تغفر لابنها لإبعادها عن السلطة . ولم تتردد باعترافها العام بسوء سلوكها الماضي وتركت إشاعة تنتشر بأن ولي العهد ولد غير شرعي . فكيف ، في عصر امتزجت فيه الوطنية (حب الوطن) المتلجلة بعد مع الوفاء حيال عاهل شرعي ، لا يستولي الاضطراب على عقل الكثير من الفرنسيين ، المستعدين لقبول كل حل يأتهم بسلام يرغب فيه بحرارة وشدة ؟ ففي هذا الجو تم التفاوض والتوقيع في ٢١ أيار ١٤٢٠ م على معاهدة تروا بين هنري الخامس من جهة ، وإيزابو وفيليب الناطقين باسم شارل السادس ؛ ومن جهة أخرى ، قبل هنري الخامس يد كاترين فرنسا ونودي به وارثاً لشارل السادس ومكلفاً بالقيام بالسلطة حالاً باسم حميه المريض . وأعلن أن فرنسا وإنكلترا متحدتان بصورة أزلية . ولكن باتحاد شخصي يترك لكل من البلدين قوانينه الخاصة .

وقبل شعب باريس والجامعة بما يشبه الإجماع المعاهدة . ووافق عليها مجلس الطبقات الثلاث وسجلها البرلمان وجعلها قانوناً أساسياً للمملكة . ومنذ توقيعها بدأت في حيز التنفيذ : وفي ٢ حزيران بورك زواج هنري وكاترين في تروا ؛ وفي الأول من كانون الأول ، دخل الملكان باريس : ووضع شارل السادس في دارة سان - پول ، بينما هنري الخامس أقام بلاطه في قصر اللوفر . وفي الوقت نفسه بدأت حملة ضد ولي العهد : واضطر هذا إلى التخلي عن بعض المواقع التي ظلت أمينة على عهده في (جزيرة فرنسا) وأن ينطوي نحو بلاد اللوار (١٤٢١ م) . ويبدو أن الصدفة نفسها شجعت الإنجاز السريع لبنود المعاهدة : ففي ٣١ آب ١٤٢٢ م ، مات هنري الخامس في فانسين . وبعد شهرين انطفأ البائس شارل السادس بدوره . وتقبل طفل لم تبلغ سنه العام الواحد ، هنري ، ولد من زواج كاترين فرنسا مع اللانكستري ، ورث الإرثين ، وبعناية عمه دوق بدفورد الوصي ، أعلن ملكاً على فرنسا وإنكلترا . فهل تاريخ فرنسا وإنكلترا سيترك المكان لتاريخ الملكية المزدوجة ؟

النهوض الفرنسي

في هذه السنة ١٤٢٢ م ، كانت فرنسا مقسمة ، محرومة من كل وسائلها ، لاتعرف ماتقول وما تفعل ، وأصبحت على شفا الهاوية . وبعد سبعة أعوام جسدت فتاة ساذجة معجزة النهوض القومي . وأصبح ولي العهد شارل السابع ، وكان عليه استرداد مملكته .

فرنسا الثلاثية

أ - فرنسا البورغونية

ملكان ، ثلاثة نفوذ ، أربعة أنظمة إدارية : فرنسا ممزقة . إن هنري السادس ، ملك فرنسا بموجب معاهدة تروا ، لم يعترف به إلا في الشمال - الغربي من البلاد وغربها ، في الميراث القديم للملوك إنكلترا وفي قسم من المملكة الموروثة عن شارل السادس . وكان الشمال الشرقي كله ممتلكاً لدوق بورغونيا ، ويؤلف عملياً إمارة مستقلة . وأخيراً ، في وسط فرنسا ، في (مملكة بورج) ، ما أن علم ولي العهد نبأ وفاة أبيه إلا ونودي به ملكاً .

في ١٤٢٢ م ، كانت الدولة البورغونية في حالة تشكل : فقد كان فيليب الطيب على رأس مجموعة ممتلكات ، بعضها واقع على الحدود النظرية لمملكة فرنسا ، والبعض الآخر في أرض الإمبراطورية ؛ دوقية وكونتية بورغونيا ، كونتية نوفيير الواقعة على جانبي نهر الصون ، وفلاندر وأرتوا تؤمنان له سلطة عظيمة . والمناطق البورغونية ، التي أبقتها الحروب ، تنتج بوفرة الخمر ، والملح ، والصوف ؛ والبلاد الفلاماندية غنية بزراعتها المحسنة ، وبصناعاتها النسيجية ، تجهز الدوق بموارد هامة وتساعد على إقامة جيش لا يمكن إهماله . وقد حاول فيليب بهذه الأراضي المتجمعة عن أسلافه أن يؤلف كلاً متجانساً ، دولة حقيقية . وليلحم جزأي دومينه ويوسعه ، سلك دبلوماسيّة طموحة : لقد هيا

كسب هينوت وهولانده وزيلانده والفريز التي تخلت له عنها جاكين باقاريا في ١٤٢٨ م وكذلك كسب البرابان في ١٤٣٠ م ، وأخذ يحدث البلبلة في دوقية لوكسمبورغ وفي دوقية اللورين . ومن جهة أخرى ، عمل على تنسيق إدارة مختلف البلاد (الأراضي) : وفي الحقيقة ، اصطدم ببعض المقاومة في القومونات الفلاماندية ، وظفر بالحصول بمهارة على سند له على الشعب الصغير ، وباحترام الأصالة اللغوية للمنطقة . وأحدثت مؤسسات (نظم) مشتركة لكافة ممتلكاته : المجلس الأكبر ، والمستشار الذي أخذ وجه الوزير الأول ؛ مع جان دو توازي ثم نيقولا رولن . وهذه الاهتمامات الخاصة لم تحول الدوق عن السياسة الفرنسية . فقد كان فيليب يشعر بكامل أهمية الدور الذي يمكن أن يلعبه فيها . وبين فرنسا اللانكاستريين التي يعتبر رسمياً حليفاً لها ، ومملكة بورج التي لم يقطع العلاقات معها نهائياً ، كان حكماً مستعداً ليكون في صف معسكر من يقدم أكثر من غيره ، حسب تطور الحوادث .

ب - فرنسا (الإنكليزية)

يبدو في ١٤٢٢ م ، تفوق اللانكاستريين في ميزان القوى : إن نصر أسلحتهم أصبح ، بفضل معاهدة تروا ، وبفضل تلاحم السلطتين المتشككتين ، انتصار الحق والشرعية . وفرنسا اللانكاسترية تضم عناصر مختلفة : أولاً ، أراضي تنوزل عنها بكل سيادتها إلى ملك إنكلترا بموجب معاهدة ١٣٨٠ م : الغوين ، ملك إرثي قديم ، وكاليه التي أصبحت مستعمرة استيطان ؛ وأضاف لها النورمانديا مع أطرافها الحدودية ، فيكسن ، بلاد شارترن ، ومين ، وهي دومين قديم لآل بلانتاجونية استرجع بالفتح ، وتعتبر السلالة الجديدة نفسها وارثته . ومن مملكة فرنسا الأصلية التي خلفها شارل السادس يشرف اللانكاستريون على بيكارديا ، والشامبانيا وأيل - دو - فرانس . وفي مجموع هذه الأراضي ، سلك الدوق بدفورد ، الرئيس العسكري والوصي الحاذق ، سياسة مرنة جداً . إن

الأموال الموروثة عن الأبوين ، بما فيها النورمانديا تتمتع بنظام إداري خاص :
 المصالح العامة ترتبط بلندن لا بباريس ؛ ولكن ، في الوقت نفسه ، ولضم
 السكان بشكل أفضل ، تنازل بدفورد عن بعض الاستقلال الذاتي المحلي وترك
 الجهاز الأهلي في مكانه . وهكذا ، في نورمانديا ، يرى أن روان ، مع مجلس
 كبير ، ومستشارية ووزارة مالية ، أخذت وجه عاصمة سياسية . ومهرت كن
 بجامعة (١٤٣١ م) . وشايع قسم من السكان النظام الإنكليزي . إن الأكليروس
 الذي يتطلع للسلام كان مطيعاً لأن الكونكورداتوأمنت للحكومة نفوذاً قوياً
 على سؤقه . ورضيت البورجوازية التجارية في المدن عن حالة تفيد مصالحها
 المادية ، فلا شيء بعد الآن يعيق التجارة التي تربط تقليدياً هذه البلاد الغربية
 بإنكلترا . ولكن إلى جانب هؤلاء (الفرنسيين الجاحدين) أظهر (الفرنسيون
 الطيبون) معارضتهم : فقد ظلت الطبقة النبيلة النورماندية على العموم وفيه
 لشارل السابع حتى ولو اقتضى هذا الموقف مصادرة أموالها ونفيها .

والفلاحون ، الذين كانوا في نورمانديا بخاصة يشكون الضرائب الثقيلة ،
 ومتطلبات أمرائهم ونهب الحاميات ، دعموا ضد المحتلين ، حرب أنصار حقيقية .
 والنضال الذي قام به الأنصار لم يكن دوماً نقياً جداً ولا خالياً من المنفعة ،
 ووجدت فيه عصابات قطاع الطرق حسابها .

وفي مملكة فرنسا الأصلية ، وعلى الأقل في القسم الذي يسيطر عليه
 الإنكليز ، كان هؤلاء يمارسون سياسة محافظة جداً : فلم يس هنري الخامس
 ولا بدفورد المؤسسات الفرنسية (النظم) ، فقد تركاها كما وجداها مأهولة
 بالأنصار البورغونيين ؛ وفي حكومة الملك الإنكليزي وجد رجال مثل بيير
 كوشون ، أحد مؤلفي البراءة الكبرى لعام ١٤١٣ م ، مقرر مجلس الدولة في القصر
 وأسقف بوفيه ، أو كاللحام الباريسي جان دو سان - يون الحاكم العام للمالية ،
 فقد ساعدت أعمالهم على حسن الإدارة . وكان التحالف البورغوني لا غنى

عنه هنا للحفاظ على النفوذ الإنكليزي . وهذا يعني أن هذا النفوذ كان قليل الصلابة ، هذا فضلاً عن وجود جزر مقاومة للمحتل ظلت قائمة ولا يمكن تحجيمها في منطقة الأرغون أو الباروا . وإذا كان الأكليروس الأعلى وأساتذة الجامعة والبرلمانيون قد شايعوا النظام الأخير فإن كثيراً من الناس كانوا أنصار ولي العهد (قلباً وقالباً) أي أنصار شارل . وكان الحكام الإنكليز يستأثرون منهم .

ج - مملكة بوج

كان على اللانكاستريين ، لتأمين سيطرتهم بصلابة ، أن يجمعوا (مملكة بوج) . وهذه المملكة بالرغم من الاسم الذي أطلق عليها ، تمثل مجموعة أراضي عظيمة : جنوب فرنسا كله ، باستثناء الغويين . وبين الأقاليم التي اعترفت في ١٤٢٢ م بسلطة شارل ، كان بعضها ، التورين والدوفينه ، تابعاً له بصفة وقف ؛ والأخرى وصلت إليه بطريق أمراء ظلوا أوفياء ، آل أنجو ، آل أورليان ، آل بوربون ؛ وفي غياب شارل دورليان ، والشاعر الأسير في إنكلترا ، كان أخوه النصفى غير الشرعي ، جان كونت دو دونوا ، قد وضع نفسه في خدمة شارل السابع ، والدوقة ماريا ، وزوجها الدوق دو بوربون الذي كان أسيراً ، انضمت إلى ملك فرنسا . وفي الجنوب الغربي ، الكونت دو فوا والكونت دآرمانياك كانا أيضاً منضمين إليه . وأخيراً في ليون وفي تولوز ، فرضت البورجوازية الكبرى الوفاء لوارث آل قالوا الشرعي . وهذه المملكة ، مملكة بوج ، كانت إدارتها حسنة . وتشكلت فيها الهيئات الإدارية من جديد . وفي بوج ، مقام العاهل العادي ، أقيم المجلس الملكي ، والمستشارية وديوان المحاسبات . وفي بواتيه وجد برلمان وديوان المساعدات ، ووجد جهاز مختص وكفؤ . وإن لم يكن دوماً شريفاً كثيراً - وضع نفسه في خدمة شارل السابع : ويقصد به عملاء ملكيون عزلوا على إثر النصر البورغوني في باريس وتبعوا ولي العهد في منفاه مثل جان جوفنيل (أبو المؤرخ جوفينال) ، وهو حارس قديم لرئاسة التجار في باريس ، رئيس

ديوان المساعدات . أو هم خدوم للأمراء المنضمين ، مثل جان لوفيه ، وهو عميل سابق لدوق أنجو ، وضع على رأس الإدارة المالية . وسعة الأراضي التي يشرف عليها ، وكفاءة الجهاز الإداري أمنا لشارل السابع موارد أعلى ثلاثة إلى أربعة مرات من موارد فرنسا اللانكاسترية ، بفضل الضرائب غير المباشرة ، وضرائب الشاي التي قبلتها المجالس وإلى تزييف العملة ذات التداول الشرعي . فياذن من أين أتى أن فرنسا الدلفينية تظهر ضعيفة جداً أمام التهديد الإنكليزي ؟ لقد كان ينقصها الزعيم بصورة أساسية . إن شارل السابع الذي كان عمره عشرين عاماً في ١٤٢٢ م لم يكن له المظهر الجسماني الوجيه ولا السمو المعنوي اللذان يصنعان قادة الرجال . فجسمه النحيل والضعيف ، ووجهه الأحمر بعينين نصف مغلقتين هي لرجل يحمل وراثه ثقيلة . وجوده ، وحذره المرضي ليسا من طبيعة تثير التفاني العاطفي . ومع ذلك فشارل لم يكن مجرداً من الذكاء كما يبرهن النصف الثاني من حكمه . إن الثقة بالنفس هي التي تنقص ملك بوج ، الذي تراوده ذكرى موترو ، وتقلقه قضية ميلاده . لذا كان لعبة الفئات المتآمرة التي تشكلت في بلاطه : الأرمانياكيون الذين يحركهم بخاصة روح الحزب ، وهم أمراء لم يتخلوا مطلقاً عن أن يلعبوا لعبة شخصية ، وكان يجب تغذية تفانيهم بالتنازل لهم عن جزء من المبالغ التي جبيت بصفة ضريبة ، وأخيراً ، محظيون مغامرون عن غير سعة ذكاء وإرادة . ولهذا الأسباب كلها ، بقي المجهود العسكري الذي بذلته مملكة بوج ضعيفاً : إن عصابات أرمانياكية يقودها زعماء مثل لاهير أو مثل أموري دو سيفيراك ، مرتزقة أجانب يعيشون باللصوصية وقطع الطرق ، هذا هو كل جيش شارل السابع . لقد كان ينقص الزعيم ، كما ينقص جنوده ، الإيمان بالقضية التي يدعمونها وهذا ماستأتي به جان دارك .

ملحمة جان اللورينية الطيبة

أ - من عمليات ضعيفة إلى حصار أورلئان

لم تنقطع الحرب ضد الإنكليز ، بالنسبة لأنصار ولي العهد ، بمعاهدة تروا . ولكنها حتى ١٤٢٧ م امتدت في أقصى اللبس والاضطراب . إن البورجوازي الباريسي الذي تعتبر يومياته بالنسبة للمؤرخ مصدراً ثميناً جداً يشير بكثير من الدقة إلى هذه الصفة : « في هذا الوقت بالذات لم يأخذ الإنكليز ، في أي مرة ، حصناً بيدهم من الأرمانياكيين ، وإذا كان الأمر كذلك صباحاً ، أضاعوا اثنين مساءً » وهكذا دامت الحرب التي لعنها الله .

لقد انحل النزاع إلى مجموعة أعمال مبعثرة ودون مقياس واسع . وذلك لأن زمن المعارك الواسعة التي يتقابل فيها جيشان والجولات الكبرى قد مضى . وفرضت التجربة جيش المشاة على حساب جيش الفرسان وتكتيك الهجومات المفاجئة . وفي المعسكرين ، عهد بالعمليات إلى ممتهنين : وذلك بأن تعقد الحكومة عقداً مع زعيم يتعهد بتطوع الجنود ، وهؤلاء الزعماء الحرييون ، عندما لا يقومون بالعمليات لحسابهم الخاص ، يحاولون أن يداروا جنودهم القليلي العدد دوماً : إن ثلاثة إلى أربعة آلاف رجل يؤلف جيشاً عديداً . ولكن هذا لا يكفي للقيام بعملية واسعة للفتح أو الاسترداد .

إن كل نجاح محلي يلغى بنجاح معادل من الخصم . وهكذا ، خلال السنتين اللتين أعقبتا معاهدة تروا ، دارت عمليات نشيطة بكفاية ، ولكن مامن واحدة منها كانت حاسمة : ضرب ولي العهد الحصار أمام كرافان - على - يون (١٤٢٢ م) ولكن بيرينه غريسار الذي كان في خدمة اللانكاستريين ، استولى على شاريته - على - اللوار ؛ وفي نورمانديا ، حقق جيش فرنسي نصراً في لاغراويل (أيلول ١٤٢٣ م) ولكنه سحق في ثرنوي (آب ١٤٢٤ م) . ومن جهة

أخرى ، انقطعت الحرب بالمفاوضات : فقد وجد أمراء في المعسكرين مدفوعون بالمصلحة أو بروح الانتقام ، كانوا مستعدين في كل وقت للمفاوضة : فبين ١٤٢٤ و ١٤٢٧ م عززت عدة تعاقدات دبلوماسية موقف ولي العهد وانتزعت مؤقتاً من اللانكستريين حليفين من أقوى حلفائهم : أولاً دوق بورغونيا نفسه : ففي أصل برودة العلاقات الأنغلو - البورغونية وجدت مغامرة جاكين باثاريا الصاخبة وارثة هولانده وزيلانده وهينوت . تزوجت جان برابان ، ابن عم دوق بورغونيا الذي يعتبر آنفاً أراضى مهرها كامتداد طبيعي لإمارته الخاصة . وفي ١٤٢١ م ، تركت الدوقة الطائشة زوجها ، وكسرت زواجها وتزوجت الكونت غلوسستر ، أخ بدفورد (١٤٢٣ م) . ورأى فيليب بورغونيا بياس الأقاليم التي طالما طمع بها تفر من يديه ، فضلاً عن أن غلوسستر نزل في كالييه ليتملكها . وعليه قرر أن يتقرب من ولي العهد ، وفي أيلول ١٤٢٤ م ، وقعت هدنة مؤقتة دامت ثلاثة أعوام . وفي الوثيقة يخلع فيليب للمرة الأولى على ابن عمه شارل اللقب الملكي . وفي الوقت نفسه ، اصطف كونت بروتانيا ، جان الخامس ، في معسكر ولي العهد . وإثر ثورة قصر حقيقية في بوجر سمي الكونت ريشمون ، أخوه ، قائداً أعلى للجيش . ولم يبق التفوق الدبلوماسي طويلاً لشارل السابع : فقد عرف بدفورد كيف يطمئن بوعود دوق بورغونيا . وبإسقاط حظوة ريشمون لصالح دساس دون قيمة ، لاترموال ، حوّل ملك بوجر عن نفسه التعاطف البروتاني بهذه المناسبة .

وفي ١٤٢٨ م حدث حادث وقطع فجأة التعاقب الرتيب للمراحل الصغيرة الدبلوماسية أو الحربية : فبعد أن أنجز جيش إنكليزي فتح مين والآنجو ، وضع الحصار أمام أورليان . لقد وجد ثلاثة آلاف وخمس مئة رجل تحت أوامر سالسبري ، ثم تحت أوامر تالبوت ، حاصروا الموقع حيث تخندق الباسل دونوا مع بضع مئات من الرجال فقط .. وكان الجميع مقتنعين بأن نهاية الحرب متعلقة

بمصر المدينة : ومدينة أورلئان تقع على كوع نهر اللوار وتهين على واديه . وهذا النهر يؤلف ، بقصوره الأميرية ومدنه التجارية ، قلب فرنسا . وإذا ضاعت المدينة ، أصبح طريق الجنوب مكشوفاً للإنكليز . ولكن أورلئان أكثر من ذلك لكثير من الفرنسيين : إنها رمز . وفي الواقع ، وضعت المدينة في حالة حصار ، على حين أن أميرها ، الدوق دورلئان ، كان أسيراً في لندن ؛ ولم يتردد بدفورد في تجاوز كل التعاملات الفروسية والعدول عن الوعود الشخصية التي أعطاها للدوق . وإذا وقعت المدينة في أيدي الإنكليز بالرغم من الاعتداء على الحق ونكث العهد ، أفلا يكون ذلك دليلاً على أن الله قضى بذلك وانحاز لهزري السادس ؟ في هذا الاضطراب العام كان كل واحد ينتظر إشارة تخلصه من الشك . وفي محيط ولي العهد فهم رهان اللعبة : لقد بذل جهد عظيم لتخليص المدينة . فمن ذلك قطع التموين عن العدو لإجباره على رفع الحصار : ففي ١٢ شباط ١٤٢٩ م ، هاجم جيش فرنسي قافلة مؤن مخصصة للمحاصرين . إن نهب (سمك الرنكة) ، الذي يؤلف الأساسي من الحولة في دور الصوم الكبير أو الأربعيني ، مئى بإخفاق ذريع للفرنسيين . وبالرغم من المقاومة البطولية التي أبدتها أورلئان إلا أنها على ما يبدو قد ضاعت . وتصور ولي العهد أن يهاجر إلى إيكوسيا ؛ وكانت أخبار الحصار تنتظر بقلق في فرنسا كلها ، حتى على أطراف المملكة ، في قرية دومريمي الصغيرة . ومن هنا انطلقت راعية ساذجة . وتبيأت لتأتي باليقين والثقة إلى ولي العهد الذي يشك بحقه ، وإلى الفرنسيين الذين يشكون بالنصر .

ب - جان دارك تهب لنجدة فرنسا

ولدت جانّ نحو ١٤١٢ م في دومريمي ، القرية الصغيرة الواقعة في وادي نهر الموز ، على أطراف إقليم الشامبانيا واللورين ، في باروّا . أبواها ، جاك دارك وإيزابل روميه ، كانا فلاحين ميسورين . لهما خمسة أولاد ، ثلاثة غلمان ،

وقتاتان ، إحداها جانبيت قبل الأخيرة . لم تتلق أي تعليم ، متفرغة عادة للعناية بالمنزل ، وسوق الحيوانات إلى المرح . وهذه الراعية التقية جداً ، كانت تشارك بالمناولة غالباً ، وتحب الخشوع في قابلة بوا - شونو وتصفي طواعية إلى خوري الكنيسة ، غليوم فرون الذي يبشر بإيمان مصطبغ بالحنان الفرنسيكاني . وكانت تسمع أيضاً الأخبار المحزنة التي تصل إلى القرية بواسطة الطريق الكبير الذي تقع عليه القرية ، وإلى المحادثات التي يثرى فيها بشفقة كبرى لحال المملكة . لأن دومريمي وجدت في إمارة فوكولور التي ظلت وفية لشارل السابع . كان عمر الراعية ثلاث عشرة سنة تقريباً عندما رأت ، لأول مرة ، نوراً عظيماً في حديقة أبيها وسمعت صوتاً يحثها على حسن السلوك . ومن ثم ، وعلى طول السنين ، كانت الرؤى كثيرة ، والأصوات أكثر دقة : القديس ميشيل أحد شفعاء المملكة ، ترافقه قديستان ، كاترين ومارغريت يدفعونها للذهاب (لفرنسا) لمباركة ولي العهد . وعندما حوصرت أورلئان أتاها الأمر لتخليص المدينة ، وبعد أن مضى الإرهاب (الرعب) الأول ، ظلت جانّ مترددة . وأخيراً قررت أن تطيع « لأن الله أمرها بذلك ويوافق على ذلك . فهل كان لها مئة أب ومئة أم ، هل كانت ابنة الملك ، لتذهب مع ذلك » . ولأول مرة يرافقها ابن عم أمها . ذهبت لتجد روبر بورديكور الرئيس العسكري الملكي في فوكولور (أيار ١٤٢٨ م) . فهزئ بها وردّها ناصحاً بصفعها . ومع ذلك ، اقتربت الحرب من دومريمي : وكان حاكم الشامبانيا مكلفاً من قبل بدفورد بالقضاء على المنطقة المحصورة الموالية لولي العهد ؛ ودمر الجنود القرية . وفي الوقت نفسه ، وصلت من أورلئان أخبار محزنة أكثر فأكثر . وعندما عادت جانّ لدى بودريكور ، وجدت الرئيس العسكري أكثر استعداداً لتصديقها . وأرسلها أولاً إلى دوق اللورين الذي سألها وبعد أن أخضعها لللين ، أرسلها لولي العهد نفسه . وفي آخر شباط ١٤٢٩ م ، غادرت جانّ فوكولور على حصان مرتدية لباس جندي يرافقها حرس قليل . وسلمها بودريكور سيفاً ورسالة إلى شارل السابع . وبعد جولة دامت أحد عشر

يوماً ، وصلت راعية دومرمي إلى شينون في ٦ آذار . وسبقتها إلى الملك ضجة عامة بأنها تحمل رسالة موجهة إلى الملك . ألم تخبر نبوءة بأن المملكة التي أضاعتها امرأة (إيزابو) ستنقذ على يد فتاة عذراء ؟ وكانت مشاكل تنتظرها أيضاً : كان عليها أن تناقش طويلاً لتقبل في القصر ، لأنها رفضت أن تتكلم إلى أي كان غير ولي العهد نفسه . وأخيراً استقبلت في الصالة الكبرى ، حيث كان شارل حذراً دوماً ومتنكراً بألبسة متواضعة وسط جمهور من الأمراء . ودون تردد ذهبت جانّ رأساً إليه وحيته بقلب ولي العهد اللطيف الحبيب . وتبع ذلك حديث سري خرج شارل منه يشع فرحاً ؛ لقد هدأت جانّ الروع الذي كان يعكر ولي العهد في مكان ميلاده .

شعر شارل بالثقة ، وأراد مع ذلك قبل أن يعهد بجيش إلى العذراء أن يحيط نفسه بضمانات . أخضع الفتاة لتحقيق كنسي . وعقدت لجنة برئاسة رئيس أساقفة رنس ، رينيول دو شارتر ، في مدينة پواتيه ، وحصلت من جانّ على أجوبة تبرهن على حسنها السليم وتواضعها العميق وإخلاص إيمانها معاً : فهل كانت متأكدة بأنها في حالة فضل من الله ؟ « إذا لم أكن كذلك ، فإن الله يريد أن يضعني فيه ، وإذا كنت فيه ، فالله يحفظني ويرعاني » . وهل كانت متأكدة من الحصول على النصر ؟ « باسم الله يحارب الجنود وما النصر إلا من عند الله » . وصرحت اللجنة في ختام تحقيقها بأنها مشجعة لجانّ ، وجاء جواب اللاهوتيين الذين استشارهم شارل السابع بصفة شخصية مماثلاً ، مثل جان جرسون الذي نصح « بقبول العون الإلهي الذي يبدو بوضوح يدعو إلى الإعجاب » .

جـ - من حصار أورلئان إلى مباركة رنس

تهيأت جان منذ الآن للحرب ، وأسست (بيتها) الذي يدخل إليه اثنان من إخوتها ، بيير وجان ، ولونت راية ، وقبل المبادرة إلى السلاح ، أرسلت إلى ملك إنكلترا تهديداً بالانسحاب من فرنسا .

وفي آخر نيسان ١٤٢٩ م ، غادرت جانّ بلوا إلى أورلئان على رأس جيش عهد إليها به شارل السابع . وكان يرافقها الدوق دالنسون ، ابن عم الملك . المدينة محاصرة جائعة وانحطت معنوياتها . ولكن المحاصرين أنفسهم ملوا هذا الانتظار الطويل ، وكانوا غير قادرين على إبقاء حصار كثيف حول المدينة . وهكذا ، في ٢٨ نيسان استطاعت العذراء أن تدخل عن طريق النهر مؤناً إلى أورلئان ، وفي اليوم التالي انطلقت بنفسها على الموقع ، وأعادت للسكان شجاعتهم ، وكهربت دونوا ورجاله ووجهت بنفسها مخارج المدينة .

ومن ٤ إلى ٧ أيار سقطت تباعاً ثلاثة حصون قائمة على الضفة اليسرى لنهر اللوار كان فيها الإنكليز حبيسين .

وثبّطت همة التلبوت فأعطى في ٨ أيار الأمر بالانسحاب . وبعد حصار دام تسعين يوماً تحررت أورلئان . وهكذا قالت الفتاة العذراء الحق ، ولم يشك الفرنسيون بالصفة الإلهية لرسالتها ، واستعادوا ثقتهم بالقضية التي يدافعون عنها . وفي المعسكر الإنكليزي وصل فتور المهمة إلى بدفورد واضطر أن يوجه إلى إنكلترا نداء « ضد الجنود والرؤساء العسكريين الذين تخلوا عن مواقعهم برقي فتاة » . ويانقاذ أورلئان حققت جان دارك نصراً مبيناً معنوياً واسعاً خلص الفرنسيين من اليأس الذي وقعوا فيه .

ومع ذلك لم يكن شارل بعد ، في نظر الفتاة العذراء التي تعكس عواطفها على ما يبدو عواطف جزء عظيم من الرأي العام ، إلا (ولي العهد الحبيب) . ولإنجاز رسالتها ، كان عليها أن تقود شارل إلى رنس وتباركه . وتردد ولي العهد أمام صعوبات حملة تضطره إلى اجتياز بلاد تحت سيطرة الأنفلو - بورغينيونيين . وكان لاترموال ، يحسد جانّ ، فحده بمخاوفه . ولكن إرادة الفتاة تغلبت أخيراً ، لاسيما وأن الانتصارات العسكرية كانت تتعاقب . وفي النصف الأول من شهر حزيران ، نظفت منطقة اللوار بكاملها ، وانتزع الدوق

دالنسون تباعاً مونخ ، جارجو ، وبوجانسي . وفي ٢٨ حزيران ، أحرز لاهير الرئيس العسكري بحملة شديدة نصر باتاي . وهلك العديد من الأعداء . وبين الأسرى المرموقين ، وجد تالبوت . واحتشد جيش المباركة في جين : ومن كل جانب ، توافد المتطوعون الذين انضموا لصالح ولي العهد . وفي عداد هؤلاء ، يمكن أن نحسب الكونت ريشمون . وعلى طول الطريق ، انكشفت المدن : تروا ، شالون - على - المارن وهتفت بولي العهد ، وقدمت للجنود المواد الغذائية الضرورية . وفي ١٦ تموز ، دخل شارل باحتفال مهيب رنس ، وفي الغداة ، ١٧ تموز ، باركه رئيس أساقفة رنس رينيول دو شارتر الذي ثبتته الحملة على كرسيه . وعند قدم المذبح ، حضرت جانّ والراية في يدها وشهدت إنجاز تمنياتها جميعاً .

د - اليأس والشهادة

يبدو أن كل شيء يدل على أن جان دارك كانت تعتبر آنذاك أن رسالتها قد انتهت ، وتفكر بالانسحاب إلى دومريي . غير أن رفاقها في السلاح حصلوا على إذن لها لتظل في خدمة الملك . وبعد ظفر رنس ، بدأ لجان دارك دور شكوك وإخفاقات : لقد كانت قليلة الاستعداد للمناورات الواسعة ، وضايقتها دسائس البلاط وحسده ، وأساء الملك دعمها ، ووقع ثانية في جموده المتعارف ، وعرفت جان إخفاقات برّدت الرأي الطائش . فمن ذلك أن مغامرات ، مثل كاترين دو لاروشل ، ربما أثرن من قبل أعدائها ، زعمن هن أيضاً بأنهن مكلفات بمهمة إلهية ، وأدخلن الشك في الأفكار .

بدأ الزحف أولاً على باريس . وكانت الحملة تحت رعايات ملائمة : فمن ذلك أن مدن الحوض الباريسي ، لان ، سواسون ، بروفن ، كومبين ، سانليس ، سان - دوني فتحت أبوابها . ولكن باريس كانت بورغينية القلب كثيراً فلم تنضم للملك . ومحبة جيداً وكثيراً من قبل بدفورد حتى ليصعب أخذها عنوة : ففي ٨

أيلول ، وجه هجوم ضد باب سان - أونوريه فرد على أعقابيه . وجرح جان دارك بطعنة سهم . ولم يظهر الملك في الكفاح ، بحجة أن هدنة أبرمت مع فيليب بورغونيا ، حاكم المدينة ، وكافأ جان بتبيل أسرتها وإعفاء دوميري من الضرائب ؛ ولكنه فرض وقف العمليات . وانكسرت حدة الاسترداد . وكان مع الأعداء وقت لاسترجاع قواهم ، وبينما شارل السابع يعود لبورج ، حاولت جان أيضاً أن تناضل ، ولكنها أخفقت أمام شاريتيه - على - اللوار ، واستطاع هجوم معاكس أن ينظم نفسه . وفي شهر أيار ١٤٣٠ م حوصرت كومبين من قبل جنود فيليب الطيب . وفي ٢٣ أيار فكرت جان بأنها تستطيع تحديد فوز أورليان ، وألقت بنفسها على المدينة . وفي اليوم نفسه ، وأثناء خروجها ، اندفعت بحمستها إلى بعيد ، وعندما اندحر رفاقها لم يكن لديها من الوقت ما يمكنها من الدخول إلى داخل سور المدينة . وأسرها الزعيم البورغوني ، التابع لجان دو لوكسمبورغ . وعاملها هذا الأخير بشرف . وما كان شارل السابع ليهتم بمصيرها الذي كان موضع مساومات ومناورات نشيطة : وأخيراً ، في تشرين الثاني ١٤٣٠ م ، سلمت جان إلى فيليب الطيب الذي سلمها إلى بدفورد مقابل ١٠٠٠٠ ليرة ذهبية . ونقلت إلى روان ، وبدأت شهادتها .

لقد زجت جان في قصر روان الملكي ، في ظروف مادية قاسية جداً ، وبين شتم الجنود . لقد كانت بالنسبة للإنكليز ، أسيرة حرب . ولكن بدفورد اقتنع بأن تقاضى أمام محكمة كنسية ، فإذا مثلت أمام محكمة التفتيش وأدين ، أفلا تفسد القضية التي تدافع عنها نهائياً ؟ لقد جاءت الفكرة من أكليركي جامعة باريس : أرادوا أن يبرهنوا بأن لجنة بواتيه الكنسية التي أقرت الصفة الإلهية لرسالة جان ، قد خدعت وأن الفتاة العذراء ساحرة . وتشكلت محكمة وترأسها كوشون لأن أسرها تم في أبرشيته . لقد كان محباً للإنكليز قانعاً بذلك ومؤمناً ، ووجد هنا الفرصة لظفر طموحاته السياسية ، وفي الوقت نفسه إشباع أحقاد الشخصية .

إن جولة المباركة ، في الواقع ، كانت قد طردته من أبرشيته . جلس إلى جانبه نائب المفتش جان استيفه محرراً ، والحقوقي جان دو لا فونتين مشاوراً مع كهنة روان . وعدة آباء من نورمانديا وأساتذة من جامعة باريس قاموا بوظيفة مساعدين . وجنب كل من لا يؤمن لهم .

لقد خدم هؤلاء القضاة حزباً ، وأحياناً طموحاتهم الشخصية . ولكنهم كانوا مخلصين : ففي نظرهم تحزبت جان ودعت الملك المزيف ، وشجعت على الحرب ، وقامت بعمل سيء ، ولا يمكن أن تكون غير ساحرة . إن الشيطان يختبئ فيها ، ولذلك كانوا يرغبون بطرده . ولبلوغ هذه الغاية كانت جميع الأصول شرعية : من تخويف ، وأسئلة مخادعة ، وأسئلة منهكة ولم يطبقوا التعذيب بعد . إن محاولة فهم وشرح حالة رأي الرجال الذين يحكمون بمعايير غير معاييرنا ، ليس فيها مطلقاً ما ينقص شجاعة جان النبيلة . وطوال المحاكمة كلها ، كانت بحسبها السليم الصلب والمتين وحتى أحياناً ببشاشتها الخبيثة ، تعرف كيف تتجنب الفخاخ المنصوبة لها في بعض الأسئلة ، وبكل بساطة مثيرة للشفقة أعلنت عن إيمانها بالله الذي لا يتزعزع وبحبها لفرنسا . ولكنها فسحت مجالاً لمتهميها بإقامة تمييز بين خضوعها المباشر لله والخضوع للكنيسة الذي يطلب منها . وتوالت الاستجابات حتى ١٧ آذار ١٤٣١ م . وفي ٢٧ منه ، قرئ قرار الاتهام بحضور جان . وعندئذ سقطت مريضة . وما كادت تستعيد صحتها حتى أقيدت إلى مقبرة سانتوان (٢٤ أيار ١٤٣١ م) حيث طلب منها أن توقع صيغة استدراك أي الرجوع عما صرحت به سابقاً . وإذا انتصر كوشون ، غضب بدفورد ، ولكن جان استدركت قولها . ولدى رجوعها إلى سجنها ، رجعت عندئذ عن جحودها . ومنذ الآن لاشيء يمكن أن ينقذها واعتبرت هرطقية ومذنبية وحكم عليها بالموت حرقاً .

وبعد أزمة يأس قصيرة ، تقدمت جان بشجاعة إلى كومة حطب المحرقة التي

رفعت في ساحة السوق - القديم : وفي ١٣ أيار ١٤٣١ م لاقت تعذيبها ، وهي تعلن حتى النهاية عن إيمانها . وألقي رماد جسمها المحترق بنهر السين . واعتقد أعداؤها أنهم نجوا منها ، ولكنهم جعلوا منها ، في نظر الشعب ، قديسة وشهيدة . لقد فتحت جانّ للمملكة طريق التحرير .

شارل السابع وتحرير المملكة

ولزم أيضاً أكثر من عشرين عاماً لطرد الإنكليز ، حسب أمنية جانّ ، خارج فرنسا .

أ - المصالحة الفرنسية - البورغونية

إن أول شرط ضروري للوصول بهذا العمل إلى نهاية طيبة والنجاح به ، كان في المصالحة الفرنسية - البورغونية . وفي ديجون كما في بوردو ، كانت الظروف مهيأة : فنذ حزيران ١٤٣٢ م ، تخلى لاتريموال الجريح عن موقعه لدى شارل السابع إلى ريشمون ، الذي كان يبشر منذ زمن طويل بتقارب مع فيليب البورغوني . وهذا الأخير ، من جهته ، شعر بأن الوقت حان للخيار بين المعسكرين بغية الإسهام في النصر . ومنذ موت الفتاة العذراء ، بدا أن ميزان القوى قد رجح لصالح شارل السابع . فلم ينطلق الرؤساء العسكريون الذين كانوا في خدمته بفوز التجريدات فحسب في أطراف نورمانديا أو حول باريس التي ضيقوا عليها تموينها ، وإنما في كل فرنسا . وما فتئت العاطفة المضادة للإنكليز آخذة في التعاضم شاملة في الشجب نفسه (الفرنسيين الجاحدين) . وفي الواقع ، لقد أصبح الاحتلال الإنكليزي غير شعبي : ففي باريس أمر بدفورد بمباركة الشاب هنري السادس في كانون الأول ١٤٣١ م ، ولكنه لم يستطع أن يحو من الأذهان الانطباع القوي الذي حدث باحتفال رنس ؛ ثم طوى حكومته إلى روان ، وفي المدينة التي نفذ مالها ، ازداد الاضطراب ؛ ولزم قمع المؤامرات .

وازداد الاستياء بالضرائب الثقيلة التي أثقل بها بدفورد منطقة باريس والنورمانديا لدعم هذه الحرب التي لا تنتهي . وفي هذه المنطقة الأخيرة قامت الثورات مرات عديدة بين ١٤٣٤ و ١٤٣٦ م .

واقترضت المصلحة الشخصية أيضاً من فيليب الطيب أن يتصالح مع شارل السابع : وفي الحقيقة ، منذ ١٤٣٣ م ، انتهت قضية جاكين باقاريا تماماً ، وأصبح فيليب كونت هولانده وزيلانده ، وهينوت . أما في الأجزاء الأخرى من دوله ، في لياج ، وبرابان ، فقد كان ملك فرنسا ، بعد تحالفه مع الإمبراطور سيغيسموند ، يغذي ثورة خطيرة على سلطة الدوق .

وأتيحت فرصة التقارب بانعقاد مؤتمر عام للسلام في الغرب : لقد كان البابا أوجين الرابع منهمكاً في تثبيت جاهه ، ولذا حشد في آراس جميع المتحاربين في آب ١٤٣٥ م ، وحاول المصالحة بينهم . وفي ٣١ آب ، رفض مندوبو هنري السادس جميع التنازلات ، وانسحبوا . واستمر البورغونيون في المفاوضات دون الإنكليز ؛ وقدم المستشار الجديد لبورغونيا ، نيقولا رولن ، للدوق حجة لتغيير سياسته : وبهذه المناسبة ، عرف فيليب أن هنري الخامس توفي قبل أن يأخذ إرث شارل السادس ، ولذا لم يستطع نقل هذا الإرث بشكل مقبول إلى ابنه . والمحادثات التي كانت تساق بعجل وعزم وحماسة ، فيما شلّ موت بدفورد ، في ١٤ أيلول ١٤٣٥ م ، العمل الإنكليزي ، أدت إلى توقيع معاهدة أراس في ٢٠ أيلول ١٤٣٥ م . فقد استنكر الملك رسمياً جريمة مونتر و قدم للدوق فيليب تعويضات : حقوقية . وذلك بأن يلاحق المسؤولون عن القتل ؛ ومعنوية ، مؤسسات ديرانية تشاد على حساب شارل السابع وتكلف بالصلاة على راحة روح الضحية ؛ مادية أخيراً ٥٠٠٠٠ ليرة ذهبية ، وأن تكون كونتيات ماكون وأوسير وقصور بار - على - السين ، ودير لوكسوي ، وقصور بيرون ، ومونديديه وروا ومدن السوم (سان - كاتن ، أمثين ، ابثيل) ، غرامات مادية يعطيها الملك تعويضاً عن

القتل . وهكذا صفى الماضي ، ونظم شارل السابع وفيليب علاقاتها المستقبلية ، وأعفى دوق بورغونيا شخصياً من أجل أملاكه كلها من كل ولاء للملك . وبالمقابل ، على ورثته أن يقدموا له ولاءهم ، وبإمكان شارل السابع أن يفقد مدن السوم . ومن جهة أخرى ، أبرم فيليب والملك تحالفاً ، وذلك بأن يقطع الأول علاقاته مع الإنكليز ، والثاني مع الإمبراطور سيجموند ؛ فإذا هاجم هنري السادس بورغونيا ، يتعهد ملك فرنسا بأن يبادر لنجدها .

ب - تحرير المنطقة الباريزية وهدنات تور

كان صلح آراس قاسياً على شارل السابع بسعة التنازلات التي أجريت للدوق ، ومخزية بالشكل الذي أخذته : كان على مستشار الملك أن يتوسل على ركبتيه عفو فيليب ، وعلى الملك أن ينفصل عن مشاوريه الألمانياكيين . ولكن شارل السابع لم يعد وجهاً لرئيس حزب . واعترف به منذ الآن بأنه ملك فرنسا . ولم تدع نتيجة هذا التحويل مجالاً لانتظار : إن جزء المملكة كله الذي انضم إلى هنري السادس بعاطفة بورغونية ، أي بصورة أساسية باريس ومنطقتها ، استرجعها شارل السابع بعد قليل من الزمن . ومنذ الأشهر الأولى لعام ١٤٣٦ م ، استولى الرؤساء العسكريون الملكيون على جميع المواقع الحصينة في المنطقة الباريزية ؛ وبسد الطرق والأنهار ، وجدت العاصمة خاضعة لحصار . وزبحر الاستياء ، وفي ١٣ نيسان نشبت ثورة طردت الحامية الإنكليزية ، واستطاع ريشمون أن ينفذ دون كفاح إلى المدينة التي حررت نفسها .

وفي هذه الانطلاقة التي جرت السكان ، هل سينتهي تحرير الأرض في بضعة أشهر ؟ لقد حدثت ثورات في كل مكان في نورمانديا ، وفي بلاد الكو ، في منطقة فير ؛ وذهب ولي العهد لويس لنجدة أهل مدينة ديب الشائرين . ولكن كل هذه الثورات كانت عجلة وينقصها التنظيم ، وظل هنري السادس سيد الأرض كلها ويعتبرها إرثاً شخصياً له : كاليه ، النورماندي ، الغويين . وفي

الواقع كان الفرنسيون ، كالإنكليز منهكين كثيراً ليستروا في الحرب . واضطروا إلى توقيع هدنة . وفي الحقيقة ، إن الوضع الإنكليزي كان أبعد من أن يكون لامعاً : ففي حكم الملك الطفل هنري السادس عادت من جديد اضطرابات قصور ريشارد الثاني ؛ وقسم إنكلترا حزبان تشكلا حول عمين للملك أفادا من أوقاف واسعة . الأول همفري دو غلوسستر ، أخو هنري الخامس وبدفورد ، وتجمع حوله أنصار الحرب حتى النهاية . وكانت إلى جانبه البورجوازية التي تكره الأجانب كثيراً . والثاني ، هنري بوفور ، الكاردينال وأخو جد الملك الشاب ، وقد جعل نفسه بطل السلام . وتبعه قسم من البارونات الذين يرغبون التمتع بالنعيم المكدسة بفضل العمليات العسكرية . وبينهم ريشارد يورك ، وهو ينتسب من بعيد لريشارد الثاني ، وكان مكلفاً بأن يحل محل بدفورد في فرنسا ، ويميل على التوالي لهذا الحزب وللحزب الآخر . ولكن شارل السابع كان غير قادر على أن يفيد من هذه الحالة . فقد عرف في داخل مملكته كثيراً من المصاعب : أولاً ، إن وقف النضال الفرنسي - البورغوني حرر عصابات عديدة . وهؤلاء الجنود القطاع الطرق الذين ساهم الشعب (السلاخين) عملوا من جوار باريس صحراء حقيقية ، واجتاحوا الشامانيا ، وبورغونيا والماسيف سنترال . ومن جهة أخرى ، تحرك الأمراء : لأن فديات الحرب التي يدفعونها دمرت تماماً ، ويريدون من الملك معونات مالية . وتحزب نبلاء مستأؤون لبعض كبار البارونات أو أمراء الدم الذين عادوا إلى دسائسهم . ففي عام ١٤٣٧ م ، أحبط شارل السابع مؤامرة أعداها الدوق دو بوربون . وفي ١٤٤٠ م ، كان الإنذار أكثر جدّاً : فقد ضم تالب دوق بروتانيا ، وكونت أرمانيك ودوق آلانسون ، وأفاد من مشاركة ولي العهد لويس بالجرم . وهذه (البراغرية) - اسم أطلق ذكرى لاضطرابات بوهيميا - ما كادت تقمع حتى بدأ فيليب بورغونيا يتحرك : اعتمد على شارل أورليان الذي تحرر على يده بعد أسرخس وعشرين عاماً وعلى جمع من الأمراء (١٤٤٢ م) . وفي هذه الظروف ، منذ سقوط باريس ، كانت متابعة

الحرب رخوة من هذا الجانب أو ذاك : لقد أخفقت جميع ردود الإنكليز ؛ ومن جهة شارل السابع ، لم يستطع أن يستولي إلا على بعض المواقع ، بعض مدن نهر الواز (كريل وبنواز) أو ، بعد حملة في الغويين ، على تارتا وداكس . ومنذ ١٤٢٩ م ، بوشر بمحادثات . وأخيراً في ١٤٤٤ م ، أبرمت في مدينة تور هدنة عامة لعشرة أشهر ، ومن تمديد لتمديد دامت حتى ١٤٤٩ م . وخطبة هنري السادس لمارغريت دأنجو ، ابنة أخ شارل السابع كان هدفها الإعداد للمصالحة .

ج - نهوض فرنسا

لقد كان تعليق الحرب مفيداً لفرنسا بخاصة : لقد تثبتت الملكية الفرنسية . وأدت سلسلة براءات ملكية كبرى إلى ترميم البلاد وإصلاح ما أفسدت الحرب . وتحقق هذا العمل ارتجالياً ، دون خطة عامة ، ولم يجد دوماً تطبيقاً مباشراً وعاماً ؛ ومع ذلك ، فإن البراءات سهلت العودة إلى الحياة الطبيعية التي لا غنى عنها لعودة النزاع المنتصر . لقد أعيد تنظيم الإدارة الملكية : ووطدت عودة الهيئات الأساسية في الدولة إلى باريس ، وحدة التوجيه ؛ ولكن الجهاز الإداري كان عديداً . وأفاد شارل من ذلك لتطهيره بفطنة وتعقل وحذر في البدء ، لأنه وعد في هدنة آراس بأن يحافظ على عدد من المستشارين البورغونيين ، ومن ثم بكثير من الشدة والقوة . وهكذا أصبح تحت تصرفه إدارة كفؤ يطمئن لها . ولإعطائها الكثير من النفاذ ، شرع بدقة : من ذلك أن مهلات العدالة يجب أن يقصر أجلها ، وسجلت الأعراف ، ودفع للمستشارين أجرهم بانتظام لئلا يطلبوا شيئاً من المتظاهرين . وأخيراً ، إن التعقيد المتزايد لمشاكل حث شارل السابع على اللامركزية : قسمت فرنسا إلى أربع دوائر عمومية للمالية ؛ ووزعت صلاحية المحاكم العدلية : أحدثت محاكم المالية في مونبليه وروان ، وبرلمانات في تولوز وبوردو وغرونوبل . وبصورة موازية ، بوشر بإصلاحات مالية : فالعواهل منذ بدايات الحرب ، لم يعيشوا من دومينهم ، ومن أموالهم العادية التي أصبحت غير

كافية . والأموال الاستثنائية ، أي الضريبة ، تؤلف الأساسي لمواردهم . وفرض الضريبة ، كان على الملك أن يحصل على موافقة المجالس وتحمل ظلاماتها . واستغنى شارل السابع عن مساعدة المجالس في البلاد اللانغدويل وثبت بنفسه مبلغ ضريبة القامة (١٤٤٠ م) . وفي لانغدوك ، وفي الإقطاعات الكبرى التي انضمت أخيراً للمملكة مثل الدوفينه ، لم يجزؤ على الاستغناء عن دعوة المجالس . وظل الإصلاح إذن ناقصاً ولكن الموارد المالية تحسنت ، ونظراً للعناية بإدارتها لم يكن من الضروري اللجوء إلى تغييرات العملة .

وبفضل هذه الموارد ، استطاع شارل السابع أخيراً أن يباشر بعمل تنظيم عسكري جديد . كان من اللازم أولاً النضال ضد السلاخين المشلحين : إن الإجراءات الأولى التي اتخذت في ١٤٣٩ م والتي تخص الملك بحق السؤق لم يكن لها نتيجة ، بالرغم من بعض الأمثلة ، مثل إعدام بعض الرؤساء العسكريين ، مثل النغيل دو بوربون . وبفضل هذات ١٤٤٤ م ، لم يكن الملك مباشرة بحاجة إلى جنود قطاع طرق لتعزير جيشه ، واستطاع أن يتخلص منهم بإرسالهم إلى القتال في سويسرا ، والألزاس واللورين . وكان من اللازم تجهيز جيش يقبض أعطياته بانتظام بفضل فرض رسم لإمداد رجال الحرب ، ويخدم الملك بطاعة ونظام ، ويترك المكان للجيش المتكيفة مع الحرب الحديثة .

ولم يجدد شارل السابع بشكل تام . فقد تناول جزئياً براءة شارل الخامس . ومع ذلك ، فإن تطبيق هذه التدابير أبعد من أن يكون تاماً . لأن قطع الطرق لا يزول بين يوم وآخر . وتجربة النبالة الأحرار اصطدمت بمعارضة شديدة من قبل السكان لأنها تعني لهم زيادة في الضرائب . هذا ويجب الاعتراف بأن هذه التدابير أدخلت في الجيش فكرة جديدة تماماً عن النظام وهيأته لاسترداد الأقاليم التي مازالت في أيدي الإنكليز .

د - عودة الكفاح والحرب الأهلية في إنكلترا

وبوشرت مفاوضات مع إنكلترا طبقاً لبنود هدنات ١٤٤٤ م : ولكن الإنكليز الذين وعدوا بتسليم إقليم المين لم يبد أنهم عازمون على التنفيذ . أما شارل فربما على ما يبدو أنه خرج أخيراً تحت نفوذ أنيس سوريل محظيته الرسمية ، من مراقبة غافلة جامدة ، وقرراستئناف النضال . وبفضل مستشارين مهرة مثل بيير دوبريزه استطاع أن يحبط دسائس الأمراء . وكان جيشه مستعداً . ثم نقح تكتيك جديد من قبل رؤسائه العسكريين منذ عصر باتاي^(١) والزحف على رنس . فقد عرف هؤلاء أخيراً بأنه كان من الواجب مهاجمة النبالة الإنكليز قبل أن يكون معهم وقت للاعتصام في الخنادق . وعلى أي حال ، إن نمو المدفعية الفرنسية جعل النظام الدفاعي الإنكليزي ضعيفاً . وأخيراً ، استطاع شارل السابع بدوره أن يفيد من أزمة داخلية شلت إنكلترا : إن شكوك السياسة الإنكليزية شجعت خططه التي رسمها . ففي لندن ، كان هنري السادس شاباً ضعيفاً وتقياً انزلق بهدوء في الجنون كجده لأمه ، وتخلّى عن السلطة لزوجته مارغريت آنجو ومركز سوفلك . وكان هذا نصيراً للسلام أوقف غلوسستر دون أن يجرؤ أيضاً على مجابهة الرأي . أما على القارة ، فإن نائب الملك في نورمانديا ، الدوق دوسومرست ، طبق بالعكس سياسة إثارات : فنظراً لكونه مستاءً من دوق بروتانيا فرانسوا الأول الذي جاء وقدم ولاءه واحترامه لشارل السابع ، أطلق على مدينة فوجير ، زعيماً من زعماء قطاع الطرق (آذار ١٤٤٩ م) . وأصبح منذ الآن للملك فرنسا حجة لاستئناف الحرب : ترك أولاً رؤسائه العسكريين يقاتلون في خدمة الدوق فرانسوا ، ثم ، في تموز ١٤٤٩ م ، صرح بكسر الهدنة وقطعها . ومنذ العمليات الأولى ، المعاكسة للإنكليز ، قامت الحرب الأهلية في إنكلترا . استدعي سوفولك وأعدم : فبين آل يورك أقرب الورثة لريتشارد الثاني ، وآل لانكاستر بدأت الحرب الفظيعة المسماة (حرب

(١) باتاي Patay مدينة على نهر اللوار غلبت فيها جان دارك الإنكليز في ١٤٢٩

الوردتين) . فكيف تستطيع حاميات النورمانديا والغويين ، التي شعرت بأنها تركت وشأنها ، تستطيع أن تقاوم الهجوم الفرنسي ؟ لقد تم (استرجاع نورمانديا) بأقل من عام ، وسط حماسة السكان الذين ثاروا في كل مكان عند اقتراب الجنود الفرنسيين : وفي آخر تشرين الأول ١٤٤٩ م ، فتحت روان أبوابها بعد أن كانت مطوقة . وحاول الإنكليز أن يقوموا برد فعل : جرى الصدام في فورميني ؛ وتحندق النبالة الإنكليز . ولكنهم أخذوا تحت نار مدفعيتين فرنسيتين وسحقهم الفرسان الفرنسيون في (١٥ نيسان ١٤٥٠ م) وأجبرت الجيوش الإنكليزية على عجل . أما من لم يكن لهم وقت للهرب وصمدوا في جيب شربورغ فقد استسلموا في ١٢ آب .

وتبع ذلك أخذ الغويين ، ولكنه بدا صعباً . ففي هذا الإقليم المرتبط منذ ثلاثة قرون بإنكلترا ، كان السكان أقل تحبباً بكثير للفرنسيين . بدأت الحملة بانتصار في صيف ١٤٤٩ م بأخذ برجراك وبازا ، وانتهت باستسلام بوردو (تموز ١٤٥١ م) ، وأمر شارل السابع بمعاملة أهل بوردو بكرم . ولكن هؤلاء شكوا من الموقف المنهمك بأصغر الجزئيات والتفاصيل الذي وقفه رجال الإدارة المملكيون ، ومن مطالب رجال الحرب وبخاصة من بطء تجارتهم مع إنكلترا . واستدعوا الإنكليز ، فدخلوا بوردو في تشرين الأول ١٤٥٢ م بفضل ثورة شعبية . وفي ربيع السنة التالية ، دارت حرب حاسمة أمام كاستيلون (١٧ تموز ١٤٥٣ م) . وأيّد الفيلق الإنكليزي من قبل المدفعية الفرنسية وقتل تالبوت . وفي تشرين الأول ، اضطّر أهل بوردو للاستسلام للمرة الثانية ، وعوقبوا ، بسبب تخليهم وانفصالهم ، بغرامة ثقيلة . وعاد الجنوب الغربي فرنسياً ، ولم يبق للإنكليز في فرنسا إلا مدينة كاليه ، وهي معسكر متخندق محاط بأرض بورغونية .

وانتهت الحرب ظاهراً ، وبالرغم من أن أي معاهدة لم تأت وتؤيد نهاية هذا النزاع الطويل ، وبالرغم من أن العوالم الإنكليز يحافظون على امتلاك كاليه على

القارة ، فلم يتخلوا عن لقبهم ملك فرنسا . وكانت راحة الشعب دون حدود .

وقدم الاحترام الرسمي إلى التي كانت الصانع الأول للنصر : فنذ أن دخل شارل السابع روان ، وضع يده على أوراق دعوى جان دارك وأمر بالتحقيق الذي انتهى بإعادة الاعتبار لها (في ٧ تموز ١٤٥٦ م) . وإنها لخاتمة حروب متوالية انتهت بنصر فرنسا وظفر ملكيتها في الوقت الذي وقعت فيه إنكلترا في الفوضى .

لقد أخفق مشروع السيطرة الإنكليزية على فرنسا ، لأن العواهل اللانكاستريين لم ينجحوا في ضم ومشايعة رعاياهم من الفرنسيين . لقد بقي هؤلاء في أكثريتهم موالين للوارث الطبيعي للسلالة القومية . وهكذا ظهر في فرنسا التلاحم الناشئ لدولة .

لقد كان من نتائج حرب المئة عام أنها حولت تماماً وجددت البنية السياسية في أوربة الشمالية الغربية .

وعندما نشبت الحرب كانت فرنسا وإنكلترا مائز الان ملكيتين إقطاعيتين : أي سيادة ملكية وروابط تبعية أوصالية تتداخل وتتناقض على القارة لتولد نزاعاً إقطاعياً .

إن العمليات العسكرية ، التي قامت بها فرنسا في الجزء الأول من الحرب ، ترجع ، هي أيضاً ، بأسلوبها ، إلى الماضي : فقد تأخر الفرنسيون في كفاح جيش الفرسان عن عصر بطل التعامل به وهذا مادفعها على خط مستقيم إلى نكبة .

أما النهوض ، الذي قام به شارل الخامس فكان قصير الأمد ، في النصف الثاني من القرن الرابع عشر ، وذلك بتشكيل إقطاعية جديدة أكثر خطراً على السلطة الملكية من الإقطاعية الأولى : وهي إقطاعية الأمراء الوقفيين . وهذه العملية التي دفعت إلى الحد الأقصى على القارة ، حيث تشكلت إمارات حقيقية في

داخل مملكة فرنسا ، أدت بهذه الملكية إلى الخسران والضياع .

وإن نشأة العاطفة القومية التي أيقظتها الهزائم وتبلورت حول شخصية جان دارك ، توضح في الجزء الأعظم منها سرعة الاسترداد في عهد الملك شارل السابع .

لقد خرجت فرنسا وإنكلترا من الحرب محولتين ، وأصبحتا منذ الآن دولتين قوميتين حقتا وحدتهما حول الملكية ، وحلتا روابطهما الأوصالية البالية وفصلتا مصيريهما نهائياً .

الفصل السابع

الآفاق الأوروبية الأخرى

إن تاريخ فرنسا وإنكلترا ، عبر حرب المئة عام ، له ، نوعاً ما ، قيمة شاهد يضرب به المثل على التطور السياسي لأوربة الكاثوليكية بين بداية القرن الرابع عشر ومنتصف القرن الذي يليه . وفي الواقع ، لقد اضطربت البلاد الأخرى أيضاً بنزاعات مماثلة ، ولكنها أكثر تعقيداً بكثير . والتحويل فيها إلى دول حديثة ارتسم بوضوح أقل ، لأنه تمّ بنغم أبطأ . لذا ينبغي الاكتفاء ، من أجل المناطق الجرمانية ، والإيطالية ، والإيبيرية ، برسم الخطوط الكبرى للتاريخ .

١ - ألمانيا وهوامش الجرمانية

في ألمانيا ، كان أفول السلطة الملكية والإمبراطورية الموضوع الكبير في تطور هذا القرن والنصف الذي يليه . ومع ذلك ، ففي داخل هذه التجزئة السياسية ، تشكلت بتواضع بعض الدول ، مثل دولة آل هابسبورغ ، التي تهيأت لتعطي من جديد للعنصر الألماني مكاناً من الصعيد الأول في أوربة . ولكن ، في الواقع الحالي المباشر ، يلاحظ أفول النفوذ الجرمني في البلاد المجاورة لألمانيا حيث كان يمارس منذ عدة قرون . وفسر بانمحاء الملكية الألمانية .

أ - أفول السلطة الإمبراطورية

على عتبة القرن الرابع عشر لم تكن ألمانيا غير تعبير جغرافي : كانت مقسمة إلى إمارات بلاد صغيرة مستقلة عملياً . وكان هذا نتيجة السياسة الطموحة في

الهيئة العامة التي سلكها عواهل القرون السابقة ؛ فقد كانوا منهمكين بمنازعات منهكة ضد البابوية ، وتحولوا زمناً طويلاً عن مملكتهم الجرمانية التي استطاعت فيها المدن أن تتحرر وكذلك الأمراء . إن ملك جرمانيا ، بالرغم من اللقب الإمبراطوري الذي تقلده ، لم تكن له إلا سلطة اسمية . وهذا التطور ، لم يشعر به المعاصرون مباشرة ؛ ففي النصف الأول من القرن الرابع عشر ، في عهد لويس بافاريا (١٣١٤ - ١٣٤٦ م) ، يرى ، كما في أجل زمن قوة آل شتاوفن ، عودة اشتعال النزاع بين الكهنوت والإمبراطورية . فقد كانت كل من السلطتين الروحية والزمنية تدافع عن مثل عليا عفى عليها الزمن ، التيقراطية لأجل بابا آفنيون ، والإمبراطورية العامة لأجل الملك الذي يسيء الجلوس على عرشه في ألمانيا . وكان المدافعون عن أفكارهم في كل جانب ، يكررون أعمالاً وأقوالاً في عصر ليست من أهله وفي غير زمانها دون كبير نفاذ .

لويس بافاريا والصوفية الإمبراطورية

غداة وفاة هنري السابع ، في آب ١٣١٣ م ، انتخب لويس بافاريا في ظروف ضعيفة من قبل قسم من الناكبين فحسب ، بينما القسم الآخر من الهيئة الانتخابية رفع إلى السلطة المرشح الهابسبورغي ، فريديريك الجميل ، دوق النمسا (تشرين الأول ١٣١٤ م) . ولم يستطع لويس البقاء على العرش إلا بفضل فوز سلاحه في مولدورف (في أيلول ١٣٢٢ م) ، الذي ساعده على الاستيلاء على شخص منافسه . وبالرغم من بداياته الصعبة ، فقد التمس بالحال من البابا التتويج الإمبراطوري ، ولكن جان الثاني والعشرين لم يكن مستعداً لقبول طلبه . وبالرغم من أن الحبر الأعظم كان مضطراً للإقامة خارج إيطاليا ، في آفنيون ، كان يفكر بمشاريع سياسية كبرى . فقد ثبتت من جديد علناً المزاغ التي أعلنها سلفه ، كليمان الخامس ، بشأن سيادة البابا على الإمبراطورية ؛ وهذه الصفة طالب للبابوية بحكم الإمبراطورية عندما يكون العرش شاغراً . واحترس

من التدخل في نزاع يضعف ألمانيا ويشجع مصالحة . وربما كان يفكر بحذف الإمبراطورية بكل بساطة . والأكثر تأكيداً هو أنه كان يخطط ، للإفادة من شغور العرش الإمبراطوري ، وبمساندة تابعه روبير نابولي ، بوضع إيطاليا الشمالية تحت إشرافه المباشر . ومنذ ١٣١٨ م ، باشر فيها جان الثاني والعشرون ، مستعملاً طوراً وطوراً الحرمان والقوة المسلحة ، بالنضال ضد القوات الجيبيلية ، وبخاصة ضد آل فيسكونتي في ميلانو . غير أن النجاح غير المنتظر للويس باقاريا في ألمانيا ، وإرادته الحازمة في لبس التاج الإمبراطوري ، والعودة إلى سياسة سابقة الإيطالية ، جاءت جميعاً على نقیض مشروعات البابا .

لقد رفض جان الثاني والعشرون أن يعتبر أن النصر قد يكرس سلطة لويس ، وأن المليك أرسل نجات إلى الميلانيين المحاصرين . لأن هذا يعادل إعلان حرب . ونشب النزاع على صعيد الأفكار وبنفس القوة التي كانت في زمن فريديريك بارباروسا أو فريديريك الثاني : الحرمان (الطرد من الجماعة) ، الدعوة إلى مجمع ، الاتهام بالهرطقة ، ولم يهمل أي سلاح روحي تقليدي . وأمام المزاعم الحبرية ، استعمل لويس حججاً سياسية وروحية .

بادئ ذي بدء ثبت النظرية الألمانية في الانتخاب : وهي أن منتخب الأمراء يملك كل السلطات بما فيها سلطة الحكم ، الإمبريوم ؛ والمصادقة على الانتخاب والتتويج الإمبراطوري على يد البابا ليس لها إلا قيمة إعلان رسمي . لقد انحاز لويس لصالح النظرية التي دعمها مارسيل بادوا وجان دوجاندين مؤلفا كتاب (حامي السلام) ، الذي صدر في باريس ، في ١٣٢٤ م ، ودعم فيه بأن الكنيسة تابعة للدولة بدقة وعليها أن تقصر دورها على الصعيد الروحي ، ووجدوا ملجأ في بلاط لويس (صيف ١٣٢٦ م) . وفي الوقت نفسه ، حاول ملك جرمانيا التشكيك بأرثوذكسية الحبر الأعظم : عقد حلفاً مع الإخوة الصغار ،

وبخاصة الروحانيين ، الذين كانوا في ثورة ضد البابا في قضية فقر المسيح المطلق .

وأعلن عن نزاع عنيف ، ولكن الخصمين ، لم يكن لكل منهما القدرة الكافية للدفاع عن الأيديولوجيات التي يبشر بها . لم ينجح البابا في تحريض عدو ملك ضد لويس ، حتى ولا تشكيل حزب معارضين لسياسة العاهل في ألمانيا . ولويس ، من جهته ، لم يحصل على نتائج إيجابية : ففي سياق حملة إيطالية (١٣٢٧ - ١٣٢٩ م) استطاع أن يتوج إمبراطوراً في روما ودعا إلى انتخاب عدو بابا راهباً صغيراً وهو بيير دو كوربارا الذي أخذ اسم نيقولا الخامس ؛ ولكن الإمبراطور عندما غادر شبه الجزيرة في آخر ١٣٢٩ م ، لم يؤمن لنفسه أي سلطة حقيقية في إيطاليا ، ومنذ ١٣٣٠ م ، قدم نيقولا الخامس خضوعه لجان الثاني والعشرين . إن حل النزاع الذي تخلد في عهد خلف جان الثاني والعشرين ، وهو بنوا الثاني عشر ، جاء من الذين كانت لهم السلطة الحقيقية في صنع الأباطرة ، الأمراء الناخبين الألمان . غير أن الناخبين ملوا ترددات السياسة الخارجية للعاهل الذي انتقل من الحلف الإنكليزي إلى الحلف الفرنسي ، في النزاع الذي بدأت تتعارض فيه أمتان قلقتان غالباً من سياسته الأرضية التي تهدف إلى تعزيز سلطة بيته بإقطاعه لابنه البراندبورغ والتيرول وكارنتيا ، ولذلك تخلوا عن قضية لويس . وبموافقة البابا الجديد كليمان السادس الذي حرم لويس مرة أخرى ، قاموا بانتخاب شارل مورافيا (تموز ١٣٤٦ م) وساعد موت لويس المفاجئ ، بعد بضعة أشهر ، شارل الرابع على استلام السلطة دون كبير صعوبة .

سياسة شارل الرابع الواقعية

لقد كان إخفاق لويس بافاريا ضربة مميتة للصوفية الإمبراطورية ، فمنذ الآن فصاعداً يسود عند العواهل الجرمانيين حالة فكر واقعية ، ويقدم شارل

الرابع عنها أوضح مثال . كان جان دولوكسمبورغ ، ابن ملك بوهيميا ، عاهلاً شاباً تختلف شخصيته عن شخصية أسلافه . وفي بلاط فرنسا ، حيث أرسله أبوه ، تلقى التربية الفروسية التي كانت دارجة على الموضة ، وعلى ساحة القتال ، عرف كيف يعطي عن نفسه صورة طيبة : وعلى هذا النحو شارك في معركة كريسبي إلى جانب أبيه الذي لقي فيها وجه ربه . ولكن أذواقه الشخصية وجهته نحو الدراسة بخاسة . وفي باريس تابع شارل دروس الجامعة ، وبخاصة دروس بيير روجه ، أب فيكامب ، كليمان السادس في المستقبل . وهذه الثقافة بشكلها التقليدي أثرت بآتي الأدب الإنساني الإيطالي الناشئ : لقد كان العاهل صديق بترارك وأقام معه علاقة مراسلة متابعة ولذا كان بغريزته يفضل الوسائل الدبلوماسية على الحرب .

وفي هذا الفن السياسي ظهر شارل الرابع أستاذاً : كان ماهراً في حبك الترتيبات المحكمة ، ويعمل متفائلاً ، ولا يتردد أبداً في اختيار الوسائل . ففي ألمانيا التي أصيبت في عصر وصوله للحكم بوباء الطاعون الأسود ، وهزتها حركات الإبادة ومظاهرات المطوعين المتعصبين كان حكمه الرشيد والمعتدل حكماً مصلحاً لما أفسد الدهر .

وما أن تخلص من معارضة الحزب البافاري الضعيفة ، حتى سعى إلى ازدياد سلطته الشخصية . وفي هذا الاتجاه الذي يجب أن تفسر فيه حملاته في إيطاليا وفي مملكة آرل ، لم يستحسن العاهل التخلي عن اللقب الإمبراطوري . ولكن طموحاته كانت محدودة أكثر بكثير من طموحات أسلافه : فلم يكن قصده في هذه المناطق إحياء السلطة الإمبراطورية كما أوحى إليه بترارك ، حتى ولا أن يلعب فيها دور المصالح والموفق ، كما دعاه إلى ذلك وبشكل ملح كولا دي ريانزو . لقد كان لقب الإمبراطور ، في نظره ، مصدر موارد ثينة ، وواسطة أيضاً لتأمين انتخاب ابنه ، وبالتالي ، مستقبل السلالة . وهذا ماظهر

جيداً من الحملة الإيطالية الأولى الهامة أكثر من غيرها . إن إقامة شارل في شبه الجزيرة الإيطالية لم يتجاوز الوقت الضروري لتهيئة تتويجه ، في ٥ نيسان ١٣٥٥ م : أي أقل من عام . وفي خلال جولته ، لم يحاول التدخل في منازعات المدن أو الإمارات . وفي كل مكان اعترف بالأمر أو الأحزاب القائمة على السلطة ، مكتفياً بسحب فوائد مالية عظيمة . والإيطاليون الذين عقدوا الآمال على تدخله يذكرون له شدة وصرامته . وهكذا ترجم المؤرخ الفلورانسي فيلاني استياء مواطنيه بقوله :

« لقد عاد الإمبراطور إلى ألمانيا وكيسه مفعم بالذهب ، ولكنه مغطى بالعار لأنه حط من قدر الجلالة والإمبراطورية » .
وكان بترارك أكثر عنفاً إذ يقول :

« في الحقيقة ، كان حملتك الرومانية رحلة جميلة ؛ ونقلت إلى ألمانيا تاجين ، التاج الحديدي والتاج الفضي ؛ لم تنقل المجد ، لا ، وإنما فقط اللقب الإمبراطوري الخالي من كل محتوى . ومنذ الآن بإمكانك أن تسمي نفسك إمبراطوراً ، وفي الواقع ، لن تكون غير ملك بوهيميا » .

وعلى الأقل ، إن هذه الحملة الإيطالية حولت زمناً طويلاً الإمبراطور عن السياسة الألمانية . لقد كان شارل الرابع أمير بلاد ألمانيا ، قبل كل شيء ، وحاول أن يؤمن لسلالته سلطة استثنائية . وتمثل نواة هذه السلطة بصورة طبيعية بمملكة بوهيميا . ولذلك لزم فيها أيضاً توطيد السلطة الملكية ؛ فنذ أن انطفأت سلالة آل برزميسليد القومية في ١٣٠٦ م ، تحررت الطبقة النبيلة التشيكية ؛ وسبق أن الإمبراطور هنري السابع كان قد أقطع المملكة في ١٣١٠ م إلى ابنه جان دولوكسمبورغ ، غير أن هذا ، خلال حكمه الطويل ، اهتم بالمغامرات والمفاخر الفروسية أكثر من اهتمامه بالإدارة . ومنذ وفاة أبيه ، وبخاصة بعد عودته من

إيطاليا (١٣٥٥ م) ، هياً شارل مشروع مجموعة قوانين تحدد بدقة تحكم النبلاء . وسياسته الاقتصادية ، التي تهدف إلى إخراج بوهيميا من عزلتها ، وتنمية استثمار مناجم الفضة وإنشاء صناعات حديثة ، أمنت ازدهار البلد وكانت بالنسبة للكثيرين في نجاح مشروعه السياسي . وأخيراً عرفت بوهيميا في حكمه حضارة براقة شعت في ألمانيا كلها : ففي براغ أنشأ شارل مدينة جديدة ، وشاد على مخططات قصر اللوفر في باريس قصراً ملكياً وبدأ ببناء كاتدرائية جديدة ، كاتدرائية القديس - فيت . وأسست فيها جامعة ، وهكذا جعل من براغ عاصمة فكرية وفنية .

وحول مملكة بوهيميا ، استطاع شارل الرابع أن يجمع كثيراً من الأراضي باستعمال وسائل سلمية دوماً ، مثل الاتحادات الزوجية : إن كسب البالاتينا البافارية وقسم من سيليزيا ولوزاس التي لم يضمها أبوه ، وأخيراً البراندبورغ ، يدل على الاهتمام بأن يحصل لمملكته على منافذ تجارية هامة . وأخيراً ، إن زواج ابنه الثاني من وارثة هونغاريا ، هياً كسب هذه المملكة لآل لوكسمبورغ .

المرسوم الذهبي

وما أن تأمن جاء شارل الرابع بكسب اللقب الإمبراطوري ، وسلطته المادية النامية بسياسة أرضية حاذقة ، إلا وحاول أن يوقف تفتيت مملكة جرمانيا ، والحيلولة دون وقوعها في الفوضى . ولم يفكر هذا الأمير الواقعي مطلقاً باسترجاع السلطة القديمة التي كانت للملكية الجرمانية ولا بركوب التيار الذي يجر ألمانيا نحو الاتحادية (الفدرالية) . لم يبحث إلا في وضع السد أمام هذا التيار وصيانة ماتبقى من السلطة الملكية . فعلى هذه ألا تكون رهان التنافسات التي تزيد في ضعفها في كل انتخاب : ولهذا أعلن شارل الرابع أول عمل دستوري لألمانيا ، المرسوم الذهبي (١٣٥٦ م) - من اسم الظرف الذهبي الذي يضم الختم الملكي - وينظم هذا المرسوم بدقة الانتخاب الملكي بغية تجنب جميع المنازعات في

المستقبل . أولاً ، الحق الانتخابي ثبت نهائياً . وخفض التقليد شيئاً فشيئاً الهيئة الانتخابية إلى سبعة أعضاء : ثلاثة ناخبين كنسيين ، رؤساء أساقفة ماينس ، وكولونيا وتريف . وأربعة ناخبين علمانيين ، ملك بوهيميا ، وكونت بالاتينا الراين ، ودوق ساكس ومارغراف براندبورغ . ويؤمن المرسوم الذهبي لهؤلاء الأمراء امتيازهم الانتخابي ، ولكنه ينظم التعامل بالنسبة للناخبين العلمانيين : فمنذ الآن يمكن للابن البكر وحده أن يرث الصوت الانتخابي المرتبط بإمارة ؛ وهكذا ينبغي أن تجنب منذ الآن المنازعات بين فرعي أسرة واحدة والممارسة المتواجدة من أميرين لحق التصويت الذي ينجم عنها . وتوقع أيضاً ، في الحالة التي تنطفيئ فيها عائلة ، أن يعود الصوت الانتخابي إلى الملك ليتصرف به كيف يشاء . ومن جهة أخرى ، ثبت أصول الانتخاب أيضاً وهو : إن من يحصل على أكثرية الأصوات في مجلس فرانكفورت هو منتخب . ومن ثم يتوج في إكس - لا - شابل . إن نص المرسوم صوري . فليس التتويج هو الذي يملك العاهل حقوقه الملكية ، وإنما الانتخاب . أما الموافقة الحبرية فلم يرد بها أي ذكر : لقد علمت الإمبراطورية أي أصبحت علمانية .

وقبل إعلان هذا المرسوم شاور شارل الرابع ، في مجلس نورامبرغ ، الأمراء الناخبين . فقد كان يعلم بأنه لا يستطيع عمل شيء دون مساندتهم ، ولهذا يخول المرسوم الذهبي الأمراء الناخبين وضعاً ممتازاً بين الأمراء الألمان الآخرين : ففي كل عام يجتمعون للمناقشة مع الملك بشؤون المملكة ؛ واعترف لهم بخاصة ، في داخل إمارتهم ، بممارسة كل الرسوم الملكية في العدالة ، ورسوم الطرق والجسور والتقود . وهكذا حول المرسوم الذهبي الإمارات الانتخابية إلى دول صغيرة حقيقية . وبالمقابل ، ضحى عن عمد بمصالح المدن لمصالح الأمراء : ففي المرسوم الذهبي مادة تمنع كل رابطة بين المدن .

وبعد فهل بلغ شارل الرابع الهدف الذي اقترحه على نفسه بنشر المرسوم

الذهبي ؟ إذا نظر إلى التطور اللاحق للإمارات الألمانية ، يمكن القول إنه أخفق : لأن الملكية الاتحادية التي أقامها شارل الرابع كشفت عن عجزها في عهد خلفائه السياسيين : لأن الأمراء الناخبين يعتبرون أنفسهم منذ الآن حلفاء أكثر منهم رعايا للملك الذي لا يؤمن له الرسوم الذهبي لا جيشاً ولا أموالاً متينة . ومن جهة أخرى ، إن التجزئة السياسية لألمانيا لم تتوقف ولم تلجم : لقد حاول جميع الأمراء الألمان أن يحصلوا على امتيازات مماثلة لامتيازات (الأمراء الناخبين) ، وبالمقابل ، وبشكل متناقض جداً ، إن الرسوم الذهبي ، الذي يعلن الصفة الانتخابية للملكية ، قد سمح أخيراً للمبادئ السلافية أن تظفر وتنتصر . إن الأمراء الناخبين وقد اطمأنوا بالاعتراف الصريح بحقوقهم الانتخابية قبلوا قليلاً قليلاً فكرة انتخاب ملك الرومانيين من أسرة واحدة . وقد تم هذا التطور على مرحلتين : لقد أفاد أولاً أسرة شارل الرابع ، أسرة آل لوكسمبورغ ، وفي الواقع لقد نجح العاهل ، وهو على قيد الحياة ، أن يحصل في الواقع ، على الاعتراف بابنه الخاص فنسلاس وارثاً له . غير أن فنسلاس (١٣٧٨ - ١٤٠٠ م) كان ضحية الانقسامات الناشئة في ألمانيا عن (حيدة الغرب الكبرى) ، وخلع في ١٤٠٠ م ، ولكن بعد فاصلة قصيرة لحكم روبرت بافاريا (١٤٠٠ - ١٤١٠ م) اعتلى العرش الملكي من جديد لوكسمبورغي ، أخ لفنسلاس وهو سيجيسموند (١٤١١ - ١٤٣٧ م) عن طريق الناخبين وعرف كيف ينهي الشقاق . وبه انطفأت أسرة آل لوكسمبورغ . وطبقاً لاتفاق وقع في ١٣٦٤ م ، في برون ، ورث بيت آل هابسبورغ كل أملاكهم الوراثية وكان أيضاً زعيم هذا البيت صهراً للإمبراطور الراحل ، وانتخبه الناخبون ملك الرومانيين . ومنذ الآن فصاعداً ، وانطلاقاً من هذا الحكم ، حكم ألبرت الثاني (١٤٣٨ - ١٤٣٩ م) ، توالى آل هابسبورغ خلال أكثر من أربعة قرون دون انقطاع على عرش جرمانيا . وهذا الظرف لم يساعد على توحيد ألمانيا ، ولكنه شجع على استرجاع السلطة الجرمانية في أوربة الوسطى .

ب - تراجع النفوذ الجرمانى فى أوربة

الحدود الجنوبية والغربية : ومع ذلك ففى الطرف المباشر ، انتهت المشاكل الداخلية ، التى جابهتها الملكية ، بتراجع عام للجرمانية على كل الحدود . فقد انفصل مصير إيطاليا أكثر فأكثر عن مصير ألمانيا : ففى بعض مناطق إيطاليا الشمالية تماسكت السيادة الإمبراطورية ؛ ولكن بعد الحملتين الإيطاليتين ، اللتين شنها شارل الرابع ، ظهر العواهل الألمان بشكل استثنائي جداً فى شبه الجزيرة . فبين خلفائه المباشرين كان سيجيسموند الوحيد الذى ذهب إلى إيطاليا واعتمر فى روما التاج الإمبراطوري (١٤٣٣ م) . وتراخت الروابط مع مملكة بورغونيا بشكل أوضح أيضاً ، فقد تشكلت إمارات مستقلة أو تدور فى الفلك الفرنسى . وهكذا فإن القسم الجنوبي ، باستثناء الساقوا التى بقيت فى نطاق الإمبراطورية ، شكل (مملكة آرل) . وفى ١٣٧٨ م أقطعت هذه نهائياً إلى شارل دو فالوا . وكبروفانس وكونتية بالاتينا البورغونية (الفرائش - كوتته) ، دخل الوادي الأوسط لنهر الرون على هذا النحو فى منطقة النفوذ الفرنسى . وفى غرب ألمانيا نفسها شكلت منطقتان هيأتين مستقلتين ذاتياً : انتقلت إمارات البلاد المنخفضة ، إثر انطفاء السلالات المحلية ، إلى أيدي الأمراء الفرنسيين ، أدواق بورغونيا . وكان العواهل الجرمانيون عاجزين عن تطبيق الحق الإقطاعي للإمبراطورية الذى بموجبه يجب أن ترجع الإقطاعات الشاغرة إلى الإمبراطور . ومن جهة أخرى ، استطاعت طوائف الجيبيين فى الألب أن تتحرر . وفى القرن الثالث عشر ، ناضل سكان الثلاث (كانتونات الغايبية) ، أوربي ، شويتز وأنترفالدين للحصول على حق إدارة أنفسهم بنفسهم ، وقضائهم بنفسهم . ومنذ ١٢٩١ م ، اتحدوا ضد تهديد دولة آل هابسبورغ الذين يملكون فى المنطقة مختلف حقوق السيادة ومعريفات عديدة كنسية . وفى القرن الرابع عشر انتصروا على أدواق النمسا بفضل سلسلة انتصارات عسكرية ودبلوماسية حاذقة ، وعلى هذا

النحو دعوا لويس باقاريا ضد منافسه في الإمبراطورية فريديريك النسا ، وحصلوا على أن تسحب جميع الحقوق التي كان يمارسها آل هابسبورغ في الكونتونات الغاية . وهذه النجاحات جذبت إلى الاتحاد البدائي تلاحمات جديدة من قبل المدن أو الطوائف الجبلية (لوسرن في ١٣٣٢ ؛ زوريخ في ١٣٣٦ ؛ برن في ١٣٥٣ م ...) . وهكذا تشكل (الاتحاد السويسري) الكونفدرالي . وابتداء من الوقت الذي توصل فيه آل هابسبورغ بشكل شبه وراثي إلى الإمبراطورية ، كان من المحتم أن يتحول نضال الكانتونات السويسرية ضد السلالة القائمة على السلطة إلى نضال ضد الإمبراطورية نفسها .

وقف الزحف نحو الشرق

وشهد القرن الرابع عشر أيضاً وقف (الزحف نحو الشرق) نظراً لضعف السلطة المركزية وبطء حركة الاستعمار اللذين قضيا عليه .

لقد كان التطور بخاصة واضحاً في بولونيا . ومع ذلك ، ففي آخر القرن الثالث عشر ، كانت البلاد مسحوقة بالفرسان التوتونيين ، ومغمورة بالفيالق الألمانية ، ولذا كانت فريسة الفوضى لدرجة أن العواهل الضعاف من السلالة القومية ، سلالة آل پياست كانوا غير قادرين على الوقوف في وجهها . وقد حدث النهوض الأول في عهد كازيمير الكبير (١٣٣٣ - ١٣٧٠ م) الذي أعاد النظام وضم إلى الجنوب - الشرقي غاليسيا وقسماً من فولهيني . ولكن النبلاء البولونيين أعطوا له خلفاً ، أميراً أجنبياً ، لويس آنجو (١٣٧٠ - ١٣٨٦ م) الذي كان من قبل ملك هونغاريا ، ولم يكن له من خلف سوى ابنتين ؛ وكانت البنت البكر مخطوبة إلى لوكسبورغي ، وهو سيجيسموند ، الأمر الذي جعل بولونيا تخاطر كثيراً بوقوعها نهائياً تحت السيطرة الجرمانية . غير أن رعشة قومية أبعدت هذا التهديد : فقد نودي بالبنات الثانية للملك لويس ، وهي الأميرة هدويج

(ملكة بولونيا) ثم فرض عليها النبلاء البولونيون زوجاً ، دوقاً ليتوانياً جاجلون (١٤٣٤ م) . وألف اتحاد ليتوانيا وبولونيا في أوربة الشرقية ، دولة جديدة كبيرة قادرة على مقاومة الضغط الجرمانى : وفي ١٥ تموز ١٤١٠ م حقق الجيش البولوني - الليتوانى نصراً ميبناً في تاننبرغ (أو غرونيفالد) على فرسان النظام التوتونى وخلال نصف قرن ، توالى النزاع : واضطر الصليبيون الجرمانيون أن يتخلوا تباعاً على طول بحر البaltيك عن الساموجيتيا والبوميرليا ويقبلوا السيادة البولونية على بروسيا الأصلية . ونحو الشرق أصبحت بولونيا حصن الكاثوليكية : لأن الأميرة هدويج ، التي أصبحت قديسة ، صبا زوجها جاجلون الوثني ودان بالكاثوليكية . وناضل خلفه لاديسلاس السادس (١٤٣٤ - ١٤٤٤ م) بشدة ضد الأتراك .

ويلاحظ تقهقر الجرمانية أيضاً في بوهيميا . فالسياسة الحاذقة ، التي سلكها شارل دو لوكسمبورغ (الإمبراطور شارل الرابع) لتقوية سلالته ، فسدت بسرعة على يد خلفائه . ففي عهد ابنه فنسيسلاس انفجرت الأزمة الهوسية الفظيعة : إن جان هوس وجميع الكهنة التشيكيين الذين كانوا يطالبون بإصلاح الكنيسة وينفجرون ضد مساوئ الأكليروس الأعلى من أصل ألماني غالباً ، وجدوا مستمعين مهووسين بين التشيكيين الذين يريدون تحرير بوهيميا من النفوذ الجرمانى . وفي شهر تموز ١٤١٥ م ، عندما مثل جان هوس أمام مجمع كونستانس ليبرر نفسه ، طرح في غياهب السجن ثم أحرق على كوم من الحطب المشتعل . أما أخو فنسيسلاس ، ملك هونغاريا سيجيسموند الذي سلم البشر بطاقة المرور فقد اتهمه التشيكيون بأنه كان سبباً في موته . وعلى وجه الدقة ، إن سيجيسموند هو الذي خلف في ١٤١٩ م أخاه على رأس بوهيميا . وانفجرت ثورة كبرى هائلة وحرّم سيجيسموند من حقوقه . وخلال عشرة أعوام ناضل دون نجاح ضد جيوش الفرسان والفلاحين الصغيرة . وفي ١٤٣١ م ، قامت حرب صليبية يوجهها قاصد

رسولي ، ولكنها لم تنجح . واضطرت البابوية أن تفاوض : وترك اتفاق ١٤٣٦ م للتشكيكين استعمال المناولة بعرضيها الخبز والحر ، رمزاً لفرديتهم الدينية . وعلى الصعيد السياسي غلبت المصالحة أيضاً : فقد استطاع سيجيسموند أن يعترف به ملكاً لبوهيميا . ولكن السلطة الملكية خرجت من هذا النزاع ضعيفة والعاطفة القومية التشيكية قوية . وفي ١٤٣٧ م تمكن سيجيسموند قبل وفاته أن ينقل ، طبقاً لمعاهدة برون ، بوهيميا مع كل أمواله الأخرى إلى رئيس بيت آل هابسبورغ ، ألبرت الثاني ؛ ثم انتقلت إلى ابنه الثاني لاديسلاس الضعيف (١٤٥٧ م) . ولكن ، في ١٤٥٨ م انتخب عاهل قومي وهو جورج دو بوديرادي .

وخلال كل هذه السنوات ، عرفت هونغاريا مصيراً مطابقاً لمصير بوهيميا ، ماراً بلعبة الوراثة إلى أيدي العواهل الجرمانيين أنفسهم . وقامت ضد هؤلاء أيضاً معارضة قومية تحركها الطبقة النبيلة المجرية . ولكن في هونغاريا نقلت هذه المسألة إلى الصعيد الثاني بتهديد أكثر خطورة وهو أن الأتراك أثقلوا على البلاد منذ هزيمة نيكوبوليس (١٣٩٦ م) . غير أن رئيساً عسكرياً باسلاً ، جان هونياد حاول تنظيم المقاومة . وعندما توفي الملك لاديسلاس ، أعطيت هونغاريا هي أيضاً ملكاً قومياً في شخص ابن جان هونياد وهو ماتياس كورثن . وفي كل مكان في أوربة الشرقية ، انتصرت ، في منتصف القرن الخامس عشر ، القوميات المعادية بعمق للهيمنة الجرمانية .

النفوذ الجرمانى في البلاد الشمالية

لقد كان تطور البلاد الإسكندنافية أقل وضوحاً . فهو يتصف أولاً ببقاء نفوذ جرمانى قوى تغفل عن سعة في الحياة الاقتصادية وحول قليلاً قليلاً النظم الاجتماعية ، وانتزع من هذه البلاد الشمالية جزءاً من أصالتها . وبالرغم من جهود الإسكنديناقيين للإشراف على البحر البaltيك ، كانت الهانس الجرمانية أقوى

وأقدر . لقد كان بإمكان الهانسيين أن يسمحوا لأنفسهم بإقامة ضريبة المرور على مضيق سوند ؛ وفي جميع الموانئ كان التجار من مدينة لوبيك أو إقليم وستفاليا يشكلون مستعمرة أجنبية عديدة تجرمن النظم المدنية . وتغلغلت العناصر الجرمانية بقوة في الطبقة النبيلة أيضاً ، وتبنت أعراف الإمبراطورية في الإقطاعية والنظام الدوميني : فقد كان الفلاحون معتصرين برسوم كبار الملاكين ، ودمرهم بشكل قطعي الطاعون الأسود ووقعوا في تبعية ظلت تجهلها البلاد الشمالية حتى ذلك الحين . وكان الأكليريكيون يذهبون إلى ألمانيا لتحصيل دراساتهم في مدارسها .

والصفة الثانية للتطور الإسكاندينافي هي الميل إلى تجمع البلاد الشمالية الثلاثة في وحدة سياسية واحدة . والاتحاد هنا ليس له نفس المعنى الذي له في بلاد أوربة الأخرى في نفس العصر : فلم يكن القصد حركة قومية برنامجها النضال ضد النفوذ الجرمني . لقد كان ، لكل من البلاد الإسكاندينافية ، أصالته القومية ، والتوحيد يتفق وإرادة دولة واحدة من هذه الدول ، وهي الدانمارك ، التي ترغب في الإفادة منه ، وإلى إرادة طبقة اجتماعية واحدة وهي الطبقة النبيلة التي كانت متضامنة اقتصادياً من طرف لآخر مع العالم الشمالي ، وترجح أن تؤلب مصالحها ضد عاهل وحيد . ولذلك حافظ الاتحاد على خصائص بناء مؤقت ، دون انصهار حقيقي في المؤسسات (النظم) ، وكان هذا الاتحاد يطرح على بساط البحث دون انقطاع بتأثير ثورات . ومنذ بداية القرن الرابع عشر ، جعلت صدف الوراثة لبضع سنوات من ماغنوس وارثاً لملكة النورفيج وملكة السويد . ولما كان العاهل فتي قاصراً جداً ، فقد استطاعت الطبقة النبيلة أن تتذوق بعض الوقت فوائد فترة قصوره . وربما شجع هذا تجديد فكرة الاتحاد ابتداءً من ١٣٧٥ م : فقد تزوج هاكون السادس ملك النورفيج وارثة الدانمارك ، ووجد ابنه أولاف على رأس مملكتين ، ثم ثلاث ممالك ، إثر حملة فظة

قاسية في السويد . وعندما توفي أولاف انعقد مجلس من الوجهاء والأساقفة في البلاد الثلاثة ، في كالمار ، وقرر الإبقاء على الاتحاد ، وكلفت الملكة - الأم ، مارغريت ، بممارسة السلطة باسم حفيد أخيها إيريك بوميرانيا . وأقامت سياسة إيريك الخرقاء المفضلة كثيراً للعنصر الدانماركي ، ثورة فظيعة : فمن ذلك أن الفلاحين السويديين بقيادة إنجلبركت إنجلبركتسون ، طردوا الحاميات الدانماركية . وفي بضع سنوات ، تراخت الروابط السياسية بين الدول الثلاث . وكان على ملك الدانمارك كريستيان الأول أن يعيد توحيدها بشخصه في منتصف القرن الخامس عشر . وفي ظل هذا العاهل القوي الذي حاول أن يخلص حكومته من نفوذ النبلاء والأحبار ، وأسس جامعة كوبنهاغن ليحد من هجرة الأكليركيين نحو المدارس الألمانية ، بدا أن إسكاندينايفيا الموحدة في حالة تمكنها من أن تصبح دولة كبرى .

٢ - شبه الجزيرة الإيطالية

حروب وتحويلات الخارطة السياسية

لقد كانت إيطاليا أكثر من أي منطقة في أوربة الغربية ، بين بداية القرن الرابع عشر ومنتصف القرن الذي يليه ، عرضة لمنازعات معقدة جداً تتعارض فيها المدن والإمارات ، وفي داخل كل منها الشيع والأحزاب . وطبيعة المعارضات (المقاومات) ليست من طبيعة التي كانت في القرن الثالث عشر : إن المنازعات بين البابوات والأباطرة ، التي مزقت خلال زمن طويل شبه الجزيرة ، أصبحت في ذمة الماضي . فلا هؤلاء ولا أولئك قادرون على دعم مزاعمهم ، وإن ضعف السلطة الإمبراطورية ، بعد أن ظهر ، منذ آخر القرن الثالث عشر ، لم يساعد العواهل الجرمانيين على ممارسة سلطة حقيقية على مملكة إيطاليا في الشمال ، وأيضاً ولو بصورة أقل ، التدخل في الجنوب . إن نزول هنري السابع إلى إيطاليا (في ١٣١٢ م) ، وحملة لويس بافاريا (١٣٢٨ - ١٣٢٩ م) كانتا آخر الظاهرات المؤقتة العابرة للسلطة الإمبراطورية في شبه الجزيرة . ومن جهة بابوات القرن الرابع عشر ، المنفيين في أفنيون ، كان عليهم ، بالرغم من بعض المحاولات القوية كالتي قادها جان الثاني والعشرون ، أن يقتصروا على محاولة استرداد دولتهم الخاصة ؛ وبالتالي فإن الحيدة بإضعافها سلطتهم الروحية ، أعاققت نشاطهم الزمني . وأخيراً ، إن الحليفة التقليدية للأحبار العظام ، أي مملكة نابولي الأنجفية ، عرفت ، منذ ثورة صقلية في ١٢٨٢ م ، مشاكل داخلية شلتها . وبالتالي ، إن المعارضة التقليدية بين الحزبين الإيطاليين الكبيرين ، الغلفيين والجيبيليين ، ضعفت بسرعة لتزول منذ النصف الثاني للقرن الرابع عشر . ومنذ

أول القرن يرى أن الغلفيين انقسموا على أنفسهم : وهكذا ، في فلورنسا ، في ١٣٠٢ م ، فإن الجزء المتشدد في الحزب ، السود ، طرد البيض من المدينة باعتبارهم معتدلين كثيراً واتهمهم بالميل لصالح الجيبيلىنية . وبالتالي ، إذا ظلت المدن الإيطالية تعلن عن نفسها غلفية أو جيبيلىنية ، فالقصد من ذلك آداب سلوك لا تؤثر في شيء على سياستها الخارجية : من ذلك أن فلورنسا خلال كثير من المرات عقدت حلفاً مع مدن اشتهرت بأنها جيبيلىنية ، وفي ١٣٥٤ م هددتها ميلانو ، ولم تتردد بدعوة ملك الرومانيين شارل الرابع لنجدها .

إن حروب القرن الرابع عشر لها أسباب جديدة : لقد كان الأمراء والمدن يناضلون لتحقيق طموحاتهم الأرضية . وقد أسهم حادثان في إعطاء صفة زمنية لهذه الحروب : عدم استقرار الأحلاف بادئ بدء ؛ والعصابات الوقتية العابرة ؛ وتشكل حسب مصالح الحين ، وتنحل منذ أن يظهر حليف اليوم أقوى من عدو الأمس . ومن جهة أخرى ، إن عدم الأمن العام كان يغذى ، كما كل مكان في أوربة ، بوجود جيوش من المرتزقة الذين يؤجرون خدماتهم لمن يقدم أكثر من غيره .

وهذه العصابات المغامرة (كما تسمى في إيطاليا) تتألف أيضاً في القرن الرابع عشر من أكثرية أجنبية : فرسان ألمان أو هونغاريون يرافقون العواهل أو الأمراء الألمان في حملاتهم في وراء الجبال ، ويبقون بعد ذهابهم قطاع طرق فرنسيين وإنكليز محررين بموجب معاهدة بريتينى (١٣٦٠ م) ، وبيحثون في إيطاليا عن مستخدمين جدد . ولكن في القرن الخامس عشر ، كان الرؤساء العسكريون والجنود في معظمهم إيطاليين : يزجون أنفسهم بصورة وثيقة بالدسائس ومكايد السياسة الإيطالية . وهؤلاء الطغاة ينتقلون من معسكر لآخر ويعملون في الغالبون ليؤلفوا لأنفسهم إمارة . وهكذا كانت الحرب تتولد دون انقطاع .

وفي هذه المنازعات ، كان مركز ثقل إيطاليا ينزلق قليلاً قليلاً من الجنوب نحو الشمال وتتحول الجغرافيا السياسية بشبه الجزيرة بعمق . والتشكيلان السياسيان الهامان ، الدول الحبرية ومملكة صقلية ، المتشكلين في القرون السابقة في جنوب إيطاليا ، فقدوا المبادرة في تسلسل السياسة الإيطالية : إن البابا المنفي أو الحاضر كان منشغلاً في حماية نفسه ضد أطماع جيرانه ليفكر أيضاً في بسط سيطرته ونفوذه ؛ ومملكة صقلية التي ردت إلى جنوب الجزمة الإيطالية تدخلت أيضاً وبصورة متفرقة في الشمال ؛ ولم يتدخل عواهلها تماماً عن سلوك سياسة إيطالية كبرى . ولكن مملكة صقلية التي كانت ضحية مشاكل سلالية أصبحت بسرعة فريسة تتنازع عليها دول أجنبية في شبه الجزيرة : ملك هونغاريا ، وأسرة فرنسية من آل أنجو - فالوا - ولا سيما ملك أراغونة ، الذي كان سيد صقلية . وفي شمال إيطاليا ، بالعكس ، يجري تجمع سياسي هام : فعوضاً عن غبار الكومونات التي تجزأت بينها المنطقة في بداية القرن الرابع عشر ، حلت محلها ، بعد مئة وخمسين عاماً ، ثلاث إمارات تشكلت حول ثلاث مدن ، ميلانو ، فلورنسا ، والبندقية . وأصبح هذا التركز السياسي ممكناً بتطور مزدوج : لأن تحويل الأنظمة السياسية الذي ظهر بنو الإمارة المدنية ؛ وتشكيل إمارة من قبل أمير يتمتع بسلطة دكتاتورية على الكومون . إن هذه الدول ، التي كانت في حالة تشكل متنافسة في سياستها التوسعية ، انصرفت لحروب مستشرية حتى منتصف القرن الخامس عشر إلى أن بلغت أخيراً بعض التوازن .

إيطاليا الجنوبية

وكذلك الدولتان الجنوبيتان كانتا تتنازعان أيضاً بين كثير من المرشحين للسيادة ، واستسلمتا للفوضى وخرجتا منها ضعيفتين جداً في منتصف القرن الخامس عشر .

أ (الدول الخبرية

في الدول الخبرية كانت سلطة الخبر الأعظم معرضة للخطر بإقامة البابوية في أفنيون . وهذه السلطة ، والحق يقال ، هوجمت بشدة في آخر القرن الثالث عشر ، لأن حالة عدم الأمن التي غذتها المنازعات بين الأمراء العلمانيين وبين أشياع الكومونات التي دفعت كليمان الخامس إلى الإقامة والاستقرار في فرنسا مؤقتاً : وإن غياب الأبحار الطويل لم يكن منه إلا تفاقم الحالة . ففي كل إقليم من الأقاليم الخبرية الخمسة ، كلف رئيس بتأمين الإدارة والعدالة ؛ وفي عهد هؤلاء الموظفين الذين كانوا في الغالب غير أكفاء وأحياناً غير معتبرين بإزعاجاتهم ، كثرت المحاولات لحرصاية الحكومة الخبرية . وكانت من عمل الأسر الإقطاعية القديمة التي تؤلف دوماً ، في توسيا وفي كامباني - البحرية ، العنصر السياسي الهام أكثر من غيره : مثل آل فرانجياني وآل كولونا ، وآل غيتاني ، أو آل أورسيني ، وأكثر من ذلك ، وبفضل غياب الأبحار ، يرى أن الاستقلال الذاتي الكوموني ، الذي ظهر متأخراً (في بداية القرن الثالث عشر) وخجولاً ، قد نما في المدن الأساسية ، في أورفيتو ، وفيترب ، وبيروز ، وسبوليت وبولونيا حيث وضع الشعب مؤسسات لنفسه . وروما نفسها ثارت غدة مرات في القرن الرابع عشر ضد السلطة الخبرية ؛ وفي ١٣٤٧ م ، وخلال بضعة أشهر ، أصبحت المدينة تقريباً شبه مستقلة تحت دكتاتورية كولا دي ريانزو . وهذا الكاتب العدل الرسولي ، صديق بترارك ، كان رأسه مفعماً بنصوص قديمة معروفة في المخطوطات أو على أحجار المدينة القديمة . وعندما حمل إلى السلطة إثر ثورة شعبية ، كان يحلم بأن يعيد للشعب الروماني حكم روما ، وحكم إيطاليا وحكم الإمبراطورية . ويرغب أيضاً بعودة البابا إلى روما لتستعيد المدينة دورها كعاصمة للمسيحية . وبعد أن استقبل في الكاييتول ، لقب عمدة المدينة ، ونودي به (الزعيم المبارك بإرادة يسوع - المسيح) . بيد أن كليمان السادس أطلق ضده

مرسوماً بالحرمان يشجب هذا التعدي الصريح على السلطة الخيرية . وفي ١٤٣٨ م ، طرد كولادي ريانزو من روما من قبل حزب البارونات الذي اعتمد عليه الحبر الأعظم . وبعد سقوط المحامي عن الشعب حافظت روما على مؤسسات ذات صفة شعبية ، مجلس (المحافظين) ومليشا دائمة .

وأكثر من هذه التجاوزات غير المنطقية التي كانت ترتكبها الكومونات ، كان يقلق السلطة الخيرية ظهور إمارات مدنية في ثغر أنكون ورومانيو : وذلك أن أمراء أعطوا لأنفسهم بطريق الكومونات كامل السلطات وشكلوا إمارات صغيرة حقيقية . وهذه حال آل مونتيفلتره في أوربين ، ومالاتيستا في ريمينى ، وآل بولاتا في رافينه . وقوة آل إيست في فراره وكانت أكثر أهمية لأنها تجاوزت ، بامتدادها على مودينا نطاق الدولة الخيرية . وقامت محاولة أولى للاسترجاع بوشربها انطلاقاً من منتصف القرن الرابع عشر ، وإثرها ، جاء الأبحار للاستقرار في روما ، ولم تحصل إلا على نتائج جزئية : ففي ١٣٥٣ م ، عهد البابا إينوسان السادس إلى الكاردينال البورنوز بسلطات واسعة لتوطيد النظام . والعمليات العسكرية المشتبكة لم تساعد الكاردينال على إخماد نأمة الأمراء ، واضطر أن يقر بشرعية سلطتهم بالتنازل لهم عن لقب نواب الحبر الأعظم . وإثر هذه المهمة ، خيل لأوربينو الخامس أنه يستطيع العودة والاستقرار في روما (١٣٦٧ م) ؛ ولم يقيم بها إلا بضعة أشهر ، وكان مهدداً بجنود قطاع الطرق التي دخلت في خدمة بيروز الشائرة ، واضطر أن يعود إلى أفنيون في ١٣٧٠ م . وبعد قليل امتدت الثورة إلى المدن الأخرى في الدولة ، بولونيا ، فيتر ، وإلى بعض الأمراء . وتحالف المتمرّدون مع ميلانو وفلورنسا ، الدولتين الشماليتين اللتين كانتا تؤملان الإفادة من الفوضى للتوسع (١٣٧٥ م) . ولزم عدة شهور لغريغوار الحادي عشر ، الذي جاء للاستقرار من جديد في روما ، لتوطيد النظام وفرض معاهدة على جيرانه .

وما كادت السلطة الحبرية تعود ، وهي ضعيفة جداً أيضاً ، إلا ووضعتها الحيدة الكبرى على بساط البحث : لأنه لم ينضم للحبر الروماني أوربينو السادس وخلفائه إلا جزء من المسيحية ، أما الجزء الآخر فقد اعترف ببابوات أفنيون ، كليمان السابع وخلفائه . وفي الدول الحبرية كانت سلطة الحبر (المدني) مع جاهه المعنوي الذي مس ، عرضة لتهديدين : لقد أفادت الكومونات من الحالة وشارت وطردت روما نفسها مراراً عديدة الحبر الأعظم ؛ وثار كبار الإقطاعيين أيضاً وتآمروا مع الأعداء في الخارج ، ودفع أحبار أفنيون ملك فرنسا وأمراء أنجو على حل الشقاق لصالحهم بضربة قوة في روما . وفي الحقيقة إن ملك نابولي لاديسلاس وضع نفسه حامياً (للمدينة) وللبابا الروماني . ولكن هذه الوصاية الضيقة كانت أيضاً أكثر خطراً . وفي ١٤١٧ م ، عندما أعاد جمع كونستانس إلى المسيحية زعيماً وحيداً في شخص مارتن الخامس ، كانت الدولة الحبرية في فوضى كاملة . ولزم البابوات أيضاً ريع قرن ليستطيعوا نهائياً الاستقرار من جديد في المدينة (١٤٤٣ م) ، بعد نضال صعب جداً ، ضد الطغاة الطموحين مثل فرانسوا سفورزا وفورتبر اكتشيو .

ب - مملكة نابولي

بالرغم من ضياع صقلية (١٢٨٢ م) والتخلي عن كونتيه أنجو إلى بيت آل قالوا بسبب زواج مارغريت أنجو بشارل قالوا ، ماتزال ملكية نابولي الأنجفية بعد في النصف الأول من القرن الرابع عشر ، دولة قوية . إن الملك روبير الذي خلف في ١٣٠٩ م أباه شارل الثاني ، فيما أقام أخوه البكر فرعاً من العائلة الأنجفية على رأس هونغاريا ، كان يحكم على كونتية بروفانس وعلى كل جنوب إيطاليا . وكان يطالب عدا ذلك بلقب ملك القدس والسيادة على إمارة آكاي (منطقة من إغريقية القديمة) في شمال البولوبونيز ، شكلت في القرن الثالث عشر إمارة من الإمبراطورية اللاتينية ثم ارتبطت من جديد بالإمبراطورية البيزنطية في بداية

القرن الخامس عشر) . وتأسست سلطته بإدارة مركزية جداً موروثية عن العواهل السؤايبين ، وكانت من أصلب السلطات في إيطاليا . والحركة الكومونية لم تتغلغل عملياً في دوله . وبتاريخ وفاته في ١٣٤٣ م بدأ ، لملكة صقلية دور طويل من الفوضى . وكان خلف العاهل الراحل ، جانّ الأولى ، حفيدته ، تحكم المملكة بشكل بغيض كرية . ولتهدئة معارضة النبلاء الذين رفعوا رؤوسهم ، نهبت مال الخزينة ، وأخذت تغدق المعاشات والامتيازات . ومنذ ذلك الحين لم تعد مملكة صقلية تلعب دوراً من الصعيد الأول في السياسة الإيطالية . وتفاقت الحال بواقع قضية الوراثة : فقد كان أقرب وارث لجانّ أحد أحفادها وهو شارل دودورازو (أو دوراس) . وعلى ما يبدو لم تقم أي صعوبة بهذه المناسبة ، عندما وضعت الحيدة الحبرية ومسألة إطاعة المملكة كل شيء على بساط البحث . وإثر الانتخاب الحبري المزدوج ، اعترفت جانّ الأولى بكليمان السابع . وفي روما ، كان أوربينو السادس قلقاً من التهديد الذي قد يتضمنه هذا الانتخاب بالنسبة له ؛ ولذلك قرّر أن يتجنبه بالشكل التالي : استنجد بشارل دوراس وتوجّه تحت اسم شارل الثالث ، وقلده مملكة صقلية . ردت الملكة بتبني وريث لها أخي شارل الخامس ، ملك فرنسا ، لويس ، دوق أنجو (١٣٨٠ م) . ومنذ ذلك الحين بدأت منافسة طويلة بين عائلتي دوراس وأنجو على التاج : ففي شخص شارل الثالث الذي دخل نابولي في ١٣٨١ م ، وقتل الملكة جانّ ، استولى آل دوراس على المملكة . ولكن حزباً أنجفياً تشكل فيها ودعم عدة محاولات قام بها أدواق أنجو ، ولكنها منيت بالإخفاق . وثبت ابن ووارث شارل الثالث ، الملك لاديسلاس (١٣٨٦ - ١٤١٤ م) ، سلطة سلالته بالنضال ضد كبار البارونات واستطاع أن يسلك سياسة نشيطة في إيطاليا الوسطى حيث حاول توسيع نفوذه . ولكن جانّ الثانية ، أخته ، التي خلفته كانت آخر ممثل لأسرة منيت بالانطفاء . أما آل أنجو الذين كانوا قد كسبوا البروفانس ، فلم يستطيعوا الإفادة من الفرصة للاستقرار في نابولي . وكالصل الثالث في الخرافة ، دخل ملك

أراغونة ألفونس الخامس ، بموجب زواجه ، في تملك صقلية وسيطر على ساردينيا وقسم من كورسيكا ، وعرف كيف يجعل نفسه سيد نابولي (١٤٤٢ م) . وإلى صقلية التي كان عاقلها الفعلي ، أضاف الأرض اليابسة من جنوب شبه الجزيرة الإيطالية التي اعتبر عواقلها أنفسهم دوماً ملوك صقلية : ولهذا أخذ ملك أراغونة لقب (ملك الصقليتين) .

ج - إيطاليا الشمالية

خلال كل هذا الدور ، تغيرت بعمق الخارطة السياسية لإيطاليا الشمالية : ففي منتصف القرن الخامس عشر ، تركت كثرة الكومونات المستقلة الصغيرة المكان لبعض الإمارات الكبرى . وبأشكال مختلفة ، حسب المناطق ، جرت في كل مكان العملية نفسها التي ربطت تجمع الأراضي بتطور الأنظمة السياسية . ووجدت نقطة الانطلاق في الزخم الذي مارسه الطبقات الدنيا ، طبقات الشعب النحيل في آخر القرن الثالث عشر في الكومونات اللومباردية والتوسكانية لتنتزع من الشعب الطرير حصر الحكم . ولإنهاء المنازعات الأهلية كلف المواطنون في الغالب شخصية ماهرة : هنا حاكم ، وهناك رئيس الشعب ، بحكم المدينة . وهؤلاء الموظفون الكبار من ذوي الصفة الاستثنائية ، والمنتخبون مبدئياً لعام واحد ، نجحوا غالباً في البقاء في السلطة خلال دور طويل ، وأحياناً طوال حياتهم وحصلوا في هذه الحالة على حق تعيين خلفهم . وفي الوقت نفسه ، نمت سلطتهم دون حدود وأصبحوا سادة (أمراء) المدينة . ويكفي لفرد أن يصبح سيداً لعدة مدن ليؤلف لنفسه إمارة . ولم يحدث هذا التطور دون صدام ، لأن الإمارة المدنية التي قبلت كمخرج مؤقت طرحت قطعاً من عدة مدن ؛ ومن جهة أخرى ، إن الرابطة التي توحد مدن إمارة واحدة هي رابطة شخصية صرفاً ويمكن أن تنقطع أخيراً : ولذا ، منذ بداية القرن الرابع عشر ، يرى أن صروحاً سياسية لم تعرف

إلا وجوداً عابراً مؤقتاً قبل أن تتصلب ، في منتصف القرن التالي ، سيطرة البندقية ، وميلانو وفلورنسا .

ويجب أن نضع جانباً الشمال - الغربي من شبه الجزيرة ، إذ تشكلت فيه إمارات محشورة بقوة في الوديان الآلية وتتجاوز النطاق الجغرافي لإيطاليا الأصلية . ويقصد بذلك إمارات من أصل إقطاعي كان واضع اليد عليها تابعاً للإمبراطور . وتوسعت فيها حركة المدن قليلاً . وفي بداية القرن الخامس عشر جرى في هذه المناطق تجمع سياسي واسع . إن كونتات الساقوا الذين وضعوا يدهم منذ ١٣٨٨ م على كونتية نيس وكسبوا منفذاً بحرياً ، أخذوا الإرث من فرع أصغر مقيم في بيوننت . وأخذ رئيس الإمارة الواسعة على هذا النحو اللقب الدوقي . ولكن وضع الدوقية في ملتقى الطرق الآلية جعل منها دولة في أوربة الوسطى أكثر منها دولة إيطالية .

أ - البندقية

تمثل البندقية نموذج المدينة التي ظلت في مرحلة الكومون ، أو على الأرجح نموذج سيادة تمارس جماعياً بالأرستقراطية التي تحتكر السلطة ، وهذا لم يمنعها من أن تتشكل في إمارة . وتعكس نظمها مختلف مراحل تطورها السياسي البطيء : وكان الدوج وارثاً للدوق البيزنطي السابق . واحتفال الزواج مع البحر الذي يطبع تسنمه العرش ، ولباسه الفخم وألقابه تذكر بأنه الأمين على سلطة ملكية . ولكن منذ ١١٤٣ م ، لم يمسك هذه السلطة عن طريق الإرث بل عن طريق الانتخاب . ومن جهة ثانية ، إن سلطته المحددة بوعود يتعهد بها لدى اعتلائه العرش ، هي بخاصة معنوية : فالدوج لا يمكن أن يبت بأي قضية . بل يستطيع فقط بآرائه أن يوجه سياسة البندقية . ومجلس الشعب (الآرنغو) يدل على الدور الذي أخذه العنصر الشعبي في القرن الثاني عشر . ولم يكن المجلس ، منذ ١٢٦٨ م ، هو الذي ينتخب الدوج . وفي القرن الرابع عشر قلما كان يدعى لاتخاذ

قرار . والشكل الذي له دلالاته في البندقية هو أن التعبير (كومون) أخفى عليه الدهر في القرن الخامس عشر . وحل محله التعبير إمارة وبه يدل على الهيئات الأساسية في الحكم البندقي ، أي المجالس . وهذه المجالس تساق في ذلك العصر على سبيل الحصر من الطبقة الأرستقراطية . إن المجلس الصغير يشخص الدولة البندقية ، لأنه يمسك بالسلطة التنفيذية : وخص غالباً باسم الإمارة . وإلى جانبه مجلس الشيوخ ، ويهتم بوسائل التجارة والملاحة والإدارة . والكوارانتيا يؤمن العدلية . وأخيراً مجلس العشرة ويكلف بالسهر على أمن الدولة . وأعضاء هذه الهيئات الحكومية المختلفة ينتخبهم مجلس انتخابي يسمى (المجلس الكبير) . واستبعد من هذا الأخير ، في بداية القرن الرابع عشر ، كل الشعب . وفيه يجلس فقط أعضاء الأرستقراطية ، أي كل من هم مسجلون على الكتاب الذهبي . وعلى هذا النحو تأمنت سيطرة طبقة اجتماعية واحدة دون نزاع أهلي ، ودون اللجوء إلى حاكم . ويرجع نجاح الأرستقراطية البندقية إلى تلاحمها . فهي بكاملها تتفانى في خدمة الدولة وتساعد على نمو إمبراطورية واسعة في البحر والبر .

وفي الواقع ، لقد عرفت البندقية كيف تبقى وتتماسك وتوسع دومينها فيما وراء البحار خلال مئة وخمسين سنة . ومع ذلك فلم يكن هذا العمل سهلاً : باستثناء بحر الأدرياتيك ، حيث ، بفضل ممتلكاتها في إيستري (تريستا) وفي دالماسيا (زارا ودورازو) تمارس حصراً تجارياً حقيقياً ، ولكنها ما فتئت تصطدم بمنافسة جنوة على البحر . لقد كان الجنويون يسيطرون على جزء من تجارة البحر المتوسط ، بفضل وكالاتهم التجارية في إفريقية الشمالية وإسبانيا ، وكانوا حاضرين أيضاً في بلاد الشرق الأدنى حيث كانوا ينافسون البندقية . وهاتان المدينتان البحريتان تملكان أيضاً وكالات تجارية في القسطنطينية ، في لاجازو (أرمنية الصغرى) ، وفي مملكة قبرص ، وفي الإسكندرية . ومن جهة أخرى ، بينما أمنت البندقية لنفسها مواقع عديدة في اليونان شبه الجزيرة والجزيرة ، في

مودون وكورون في طرف الموريه ، وفي كريت ، وفي جزر سيكلاد وسپوراد وفي أوبيه ، وابتداءً من ١٣٨٢ م في كورفو ، أقام التجار الجنوبيون بخاصة على شواطئ البحر الأسود ، في كافا وتانا . وفي القرن الثالث عشر تحولت المنافسة بين هاتين الدولتين الملاحيتين على ضفاف البوسفور ، إلى نزاع . ولكن خلال النصف الأول كله من القرن الرابع عشر ، وبالرغم من أعمال القرصنة المتقابلة ، عاشت البندقية وحنوة بسلام . ولكن السياسة الجريئة لحنوة حرّضت النزاع . وفي منتصف القرن باشر التجار الجنوبيون وبشكل مقلق بتوسيع ممتلكاتهم : كورسيكا ، جزيرة كيو ، مدينة فوسيه ، المشهورة بغناها بكبريات الألومنيوم والبوتاس (حجر الشب) أصبحت بين أيديهم . وفي كل مكان ، ولا سيما في قبرص ، ظهوراً منافسين متشددين . وأخيراً كانوا يزعمون بحصر تجارة البحر الأسود ، وإجبار السفن البندقية على ألا ترسو إلا في ميناء كافا وأن تدفع رسماً مرتفعاً . انفجرت الحرب في ١٣٥٠ م وتتابعت مع انقطاعات حتى ١٣٨١ م . وخرجت البندقية ظافرة من النزاع : واحتفظت بمواقعها فيما وراء البحار التي ظلت أقوى من أي وقت مضى ، بالرغم من التهديدات التركية .

ومنذ بداية القرن الرابع عشر ، دشنت البندقية سياسة جديدة تماماً أمنت لها أرضاً على اليابسة . فما هي الضرورة التي دعت البندقية إلى كسر عزلتها اللامعة وزجّ نفسها في السياسة الإيطالية وبسط سيطرتها في وادي نهر البو ؟ يرجع ذلك أولاً إلى دواعي اقتصادية : فقد كان تجار اللاغون (الفرجة البحرية التي أمام البندقية) يقيمون علاقات تجارية نشيطة جداً مع البلاد الجرمانية . ولذا كانوا بحاجة إلى السيطرة على طرق الوصول إلى الشمال ؛ ومن جهة أخرى ، رأت البندقية أن توطد سيطرتها السياسية على مدن الخليج ، للحفاظ على حصر تجاري شديد ؛ وأخيراً إن الخسارة المؤقتة ، العابرة ، التي منيت بها في بلاد المشرق لم يكن منها إلا حثها على البحث عن تعويضات لها في إيطاليا نفسها . ومنذ

ذلك الحين زجت البندقية نفسها في الترتيبات السياسية في شبه الجزيرة . وقد اصطدم برنامج فتحها بإمارات صغيرة متشكلة من قبل في الجزء الشرقي من سهل الپو ، مثل إمارة آل سكاليجر في فيرونه ، وإمارة آل كزاره في بادوا التي اضطرت لتدميرها . ولكنها أخذت بعين الاعتبار أيضاً الطموحات المتنافسة بين المدينتين الكبيرين ميلانو وفلورنسا اللتين كانتا الواحدة تلو الأخرى حليفيتين لها أو عدوتين . لقد كانت السياسة البندقية الجديدة بائسة في القرن الرابع عشر كله . أما في القرن الخامس عشر فقد شكلت لنفسها أرضاً على اليابسة : ففي ١٤٠٦ م كسبت البندقية الإمارة على تريفييز ، وفيسانس ، وبادوا ، وفيرونه . وفي ١٤٢٨ م ، أضافت إلى هذه المجموعة بريشيا وبرغام . وعندئذ أصبحت قوة الدولة البندقية عظيمة .

ب - دوقية ميلانو

لقد اشتركت نشأة ونمو الإمارة الميلانية باسم أسرتين توالتا تباعاً على الإمارة : آل فيسكونتي وآل سفورزا . هذا ويصعد تولي الإمارة بصفة شخصية في المدينة اللومباردية الكبرى إلى آخر القرن الثالث عشر : أولاً كانت متنازعة بين الغلفيين والجيبيليين ، وثبتت في ١٣١١ م في أسرة آل فيسكونتي ، بفضل مساندة الإمبراطور هنري السابع . ومن ماتيؤ الأول ، مؤسس السلالة ، انتقلت السلطة دون كبير صعوبة إلى ذراريه الذين حملوا مثله لقب (النائب الإمبراطوري) . وقد استطاع آل فيسكونتي في عهد جان غاليا (١٣٧٨ - ١٤٠٢ م) المخاتل المخادع والسياسي العظيم أن يخطوا خطوة جديدة : فقد رفع الإمبراطور فنسيسلاس النيابة إلى المرتبة الدوقية . وأصبح دوق ميلانو تابعاً للإمبراطور ، ويتصرف منذ الآن بسلطة معززة . وكانت سلطاته شبيهة بسلطات الأمراء الأرضيين الألمان . ومن ثم قلده أمراء إيطاليون آخرون منحهم الإمبراطور أيضاً ألقاباً إقطاعية . وعلى هذا النحو رفع أمير مانتو إلى رتبة مركيز (١٤٣٣ م) ، وأمير فراره إلى

رتبة دوق (١٤٥٢ م) . ورافق صعود آل فيسكونتي ازدياد الأراضي التي وضعت تحت نفوذهم . فمن ذلك أن أوائل آل فيسكونتي شكلوا إمارة واسعة تضم لودي ، بافيا ، پليزانس ، كريمون ، كوم ، وبرغام ، وبريشيا . وعندما استلم جان غاليا السلطة ، كانت له مشاريع طموحة ، كان يحلم جزئياً على الأقل بتحقيق الوحدة الإيطالية . بيد أن تطلعاته اصطدمت بالضرورة بتطلعات البندقية وتطلعات فلورنسا . ونحو الشرق ، استطاع أن يفرض إمارته على فيرونه ، وفيسانس ، وبادوا التي كان البنادقة يطمعون بها عبثاً . وفي سياق السنتين ١٣٩٩ و ١٤٠٠ م ، حول أطماعه نحو إيطاليا الوسطى : واعترفت تباعاً بإمارته كل من بيزا ، وسين وبيروز . وكان جان غاليا يجمع إلى حرارة الفتح المرونة في الحكم : فكل مدينة من المدن التي كان أميرها ، كانت تحافظ على استقلالها الذاتي ، وأنظمتها الأساسية وامتيازاتها ، هذا فضلاً عن الأموال التي تأتي وتكافئ الخدمات التي تقدم . وكان له برنامج أعمال كبرى : مثل بناء كاتدرائتي ميلانو والشارتروز في بافيا أمناً العمل . وكانت دوقية ميلانيا في أوجها . فقد فرض جان غاليا السلام على البندقية وهدد مدينة فلورنسا عندما وافته المنية في أيلول ١٤٠٢ م .

وخلال عشرة أعوام ، اجتازت الدوقية أزمة خطيرة جداً . لقد تجزأت بين أبناء الدوق الراحل ، وأصبحت عرضة لمنافسات الأحزاب ، وقدمت لفلورنسا والبندقية إمكان الأخذ بثأر عظيم . ففي ١٤١٢ م عادت وحدة الدوقية لصالح فيليب - ماري فيسكونتي . ولم يكتف هذا الأخير بتوطيد إمارته على المدن التي كانت جزءاً من الإمارة ، بل هاجم ، في ١٤٢١ م ، مدينة جنوة التي تشكل بالنسبة لمجموع الدوقية منفذاً بحرياً ممتازاً . أما جنوة التي مزقتها النزاع بين الأحزاب النبيلة التي تستعمل تطلعات الشعب وسيلة سياسية ، فقد حاولت أن تعطي لنظمتها (مؤسساتها) نوعاً من الاستقرار وذلك بإقامة الدوج على مدى الحياة (١٣٣٩ م) ثم باللجوء إلى إمارة أجنبية ، إمارة ملك فرنسا

(١٣٩٦ - ١٤٠٩ م) . ولم تتخلص الكومون من هذه السيطرة إلا منذ اثنتي عشرة سنة ، عندما اضطرت تحت القسر أن تتنازل إلى فيليب - ماري بالسلطات الأميرية . وكان هذا مهتماً بالتدخل في رومانيو وفي توسكانا . وهذه الطموحات غير الخفية عقدت ضده حلف البندقية وفلورنسا (١٤٢٥ م) . وبعد حرب طويلة ، اضطر فيليب - ماري أن يتخلى عن برغام وبريشيا للبندقية وأن يتعهد بالألا يتدخل في توسكانا (١٤٣٣ م) . وكان ذلك ضربة توقف موجهة لسياسة الفتح التي سار عليها أدواق ميلانو . وتفاقت الحالة أيضاً عندما توفي فيليب - ماري في ١٤٤٧ م دون أن يترك وارثاً شرعياً .

استأنف عمله رجل ، حديث عهد بالمجد ، وهو فرانسوا سفورزا . كان ابن طاغية شهير في بداية القرن الخامس عشر ، وشكل طغيانه الخاص ووضعه تباعاً لخدمة البابا ، وملكة نابولي ثم فيليب - ماري فيسكونتي . ثم إن سفورزا أدرك بأنه مالم يتصرف بأرض لإقامة جنوده وتأمين تموينهم ، فلن يكون غير زعيم عصاة متواضع . وبوضوح إن دوق ميلانو كان يرغب بالتأثر من البابا الذي ترأس التآلب المعادي لميلانو ، وحض طاغيته السابق على البحث عن ثروة في ثغر أنكون . وعرف فرانسوا كيف يفرض نفسه على المدن وحتى على البابا ، ومنذ ذلك الحين ، أخذ يتدخل في السياسة الإيطالية كأمر يطلب تحالفه أكثر مما هو زعيم مرتزقة تستأجر خدماته . وقد ساعدته عدة تغيرات في المواقف في الوقت المناسب على الاستيلاء على السلطة : دخل أولاً في خدمة العصبة البندقية - الفلورنسية ضد مستخدمه السابق فيليب - ماري ، وحصل لنفسه ، في معاهدة ١٤٠٣ م ، على يد بنت غير شرعية لدوق ميلانو مع مدينتي كريمون ومونترموولي . واستطاع بهذا أن يتخلى عن ممتلكاته في ثغر أنكون . وبعد موت فيليب - ماري استمر في السياسة نفسها : ففي ميلانو ، تشكلت ، بفضل زوال

آل فيسكونتي ، جمهورية تسمى الجمهورية الإمبروزية على شرف القديس إمبروز شفيح المدينة .. غير أن هذه الجمهورية الناشئة كانت هدفاً لصعوبات عديدة ، واتخذت لخدمتها سفورزا ضد البندقية . ثم انتقل الطاغية لخدمة البندقية للنضال ضد الجمهورية الإمبروزية . وكانت هذه في آخر أنفاسها . وقبلت بأن تعهد بالإمارة إلى فرانسوا سفورزا الذي أخذ لقب دوق في آذار ١٤٣٠ م . وفي فترة بضع سنين وطد وضع الإمارة : تخلى للبندقية عن كل الأراضي الواقعة في شرقي نهر الآدا ووقع مع البابا وملك نابولي ميثاقاً لمدة خمسة وعشرين عاماً (لسلام إيطاليا) ووجدت دوقية ميلانو توازنها الأرضي .

فلورنسا وآل ميديتشي

في جنوب دوقية ميلانو ، جمهورية مدنية ، فلورنسا ، ظلت زمناً طويلاً متعلقة بحرياتها الكومونية . وهذا لم يمنعها ، في القرن الرابع عشر ، من أن تمتد بأرضها على قسم من توسكانا . وإن وصول الإمارة المدنية في القرن الخامس عشر ، تحت الشكل الخاص جداً (إمارة) كوزم دو ميديتشي يتطابق مع عودة إلى سياسة سلمية .

في بداية القرن الرابع عشر ، كانت فلورنسا مهددة بالسياسة الإمبراطورية التي كان يسلكها أمير لوقا ، كاستروكشيو كاستراكاني ، ثم بتطلعات وأهداف جان ملك بوهيميا . فقامت بتجربة مقتضبة لإمارة مدنية . ووضع الفلورنسيون حريتهم بين يدي دوق كالابر (١٣٢٦ م) ومن ثم بين يدي طاغية حقيقي ، غوتيه دو بريين (١٣٤٢ م) . ولم يبق هذا على السلطة غير عام واحد . ومنذ ١٣٤٣ م ، عادت فلورنسا إلى النظم الكومونية : فألى جانب الحاكم ورئيس الشعب العسكري اللذين يؤخذان دوماً من الأجانب ، شكلت (السنيوريا) الهيئة الأساسية للحكم . واستقرت في القصر الذي شاده في آخر القرن الثالث عشر

آرنولفو دي كامبيو ، وكانت تضم ثمانية رؤساء أديرة ، وموظف عدلية يؤمنون السلطة التنفيذية خلال شهرين ، ومجلسين يبقيان خلال ستة أشهر . ويجري تعيين هؤلاء الموظفين حسب أصول معقد يجمع بين وضع قوائم للمرشحين والسحب بالقرعة لأسمائهم . وكانت القضية معرفة من يشارك فعلاً بالحياة السياسية للمدينة . ومن حيث المبدأ الحكم خاص بالشعب ، وبتعبير آخر ، إن النبلاء والماغانات محرومون من جزء من الحقوق السياسية ولا يمكنهم أن يشغلوا أي وظيفة شعبية . ولكن (الشعب) لا يمارس سلطاته السياسية إلا بواسطة الأصناف المهنية ، (الآرتي) . وعليه فإن قسماً من الشعب الفلورنسي ، صغار الحانوتيين (الدكانيين) ولا سيما جمهور عمال النسيج ، ليس له الحق في أن ينتظم في صنف . ولذا فهم بالتالي مبعدون عن حياة الكومون . وإذن فالنظام أبعد من أن يكون ديموقراطياً . إنه يميل ، بالعكس ، في اتجاه الأوليغارشية (الأقلية الحاكمة) . وفي الواقع بين واحد وعشرين صنفاً يتوازعها أعضاء (الشعب) ، يرى أن الأصناف السبعة الكبرى التي تضم متعهدي النسيج وأصحاب المصارف يلعبون دوراً أهم بكثير وينزعون إلى أن يحتجزوا لأنفسهم إدارة الحكومة . ولمقاومة الضغوط الخارجية كانت هذه الأوليغارشية من (الشعب الطرير) مضطرة لتطبيق سياسة متأرجحة دقيقة جداً . وفي السنوات التي تلت سقوط غوتيه دو بريين ، بين ١٣٤٣ و ١٣٧٨ م ، تحالف (الشعب الطرير) في بعض الأحيان مع الماغانات ؛ وعندما يطالب هؤلاء الأواخر بكثير من العجرفة حقوقهم السياسية ، يتقرب من (الشعب النحيل) والبورجوازية الوسطى . ولكن البورجوازية العليا لا ترى مع ذلك بأن تقوم بتنازلات كبرى لأناس الشعب الصغير (الصغار) . وكان هؤلاء ، في سبيل رغبتهم في المشاركة بالحكم ، يتوصلون بدورهم إلى تطبيق سياسة مغامرة . وبما أن مطالبهم كانت تدفع ، لذلك كانوا يحاولون ، لصالحهم ، استخدام ثورة (عمال النسيج) . ولكن ممثلي المهن الصغرى قلقوا من الحركة الثورية التي أثارها هؤلاء العمال ، وفي آخر الأمر

وحدوا مصالحهم مع (الشعب الطرير) لسحق (عمال النسيج) (صيف ١٣٧٨ م) . وعندئذ قرئ السلام على كل محاولة حكم ديمقراطي في فلورنسا . ومنذ الآن فصاعداً ، ظفر النظام الأوليغارشي : وبوجهه يكون الحكم لحزب واحد يضم عدة أسر هامة من المدينة تحت إدارة أسرة آل ألبيزي . ويفرض هؤلاء قراراتهم بتغيير نظام سوق الموظفين لإبعاد الأصناف الصغرى عن الحكم ، وبنفي الأسر من الحزب المنافس : آل ألبرقي ، وآل ستروزي ، وآل ميديتشي . وهكذا انطفأت الحياة السياسية في المدينة التوسكانية الكبرى . فهل للقضايا التي تضعها السياسة الخارجية أن تولدها من جديد ؟

إن البورجوازية العليا التي كانت ، منذ ١٣٤٣ م ، توجه باستمرار تقريباً السياسة الخارجية للكومون ، وفي ركبها آل ألبيزي اقترحوا على أنفسهم أن تكون رسالتهم صيانة مصالح التجارة الكبرى الفلورنسية . وكان القصد من ذلك أن يؤمن لفلورنسا الإشراف على الطرق التي تجتاز جبال الآبين ، وأن يفتح لها من جهة أخرى منفذ على البحر . ومنذ منتصف القرن استطاعت فلورنسا أن تبسط نفوذها ، بفضل المنازعات في داخل الكومونات ، على مدن : بيسويا ، وپراتو ، وسان جيمينانو ، وسان مينيأتو ، وفولترّا . وبهذه البداية للإمارة الفلورنسية أعطى آل ألبيزي فتحة على البحر . وكانت فلورنسا من أجل وارداتها وصادراتها ، تابعة لبيزا ومينائها الأمامي بورتو بيزارو : ويا لها من رعية مخزية للمدينة الغلفية الكبرى أن تكون تابعة لعدوتها الجيبيلية القديمة . وانتهت هذه الحالة عندما استطاع آل ألبيزي في الاستيلاء ، في ١٤٠٦ م ، على أريزو وپيزا . وقد أرضى هذا النصر كبرياء الفلورنسيين أكثر من مصالحهم الاقتصادية . وفي الواقع إن ميناء بيزا غطته الرمال أكثر فأكثر . ولذا وجب إيجاد منفذ بحري آخر . فقد كسبت ليفورنزة في ١٤٢١ م . وبالرغم من انتصارات السياسة الخارجية ، لاقى آل ألبيزي مصاعب كبرى للحفاظ على سيطرتهم على فلورنسا .

وذلك لأن الحروب والتعاملات الدبلوماسية تكلف غالباً جداً : ولتدارك هذه النفقات لم يكتف الحزب القائم على السلطة باللجوء إلى القرض ، واضطر في ١٤٢٧ م فرض ضريبة على الثروة . وقد استاء لهذا كثير من المواطنين ، وبخاصة في البورجوازية العليا . ويكفي إخفاق عسكري ، وحملة خاسرة ضد لوقا لتبلور المعارضة . واضطر آل ألبيزي إلى النفي ، بينما دعي أعداؤهم السياسيون في المدينة (١٤٣٤ م) . ولم يكن القصد ثورة مخصصة لتوطيد الحريات القومية ، وإنما تغيير بسيط للأحزاب القائمة على السلطة . وحل آل ميديتشي محل آل ألبيزي . والفارق الوحيد هو أن السلطة الحقيقية ستارس منذ الآن من قبل رجل واحد ، زعيم أسرة آل ميديتشي ، كوزم .

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يلعب فيها آل ميديتشي دوراً سياسياً في المدينة الفلورنسية . أصل أسرته من توسكانا وتتحدث على ما يبدو من طبيب قديم ، جد الأسرة ، كما يوحي بذلك الاسم والرصاصات الست الحمراء التي توجد على أسلحة البيت : ويقصد بها أقراص طبية . لقد أقام آل ميديتشي في فلورنسا ، وكانوا أصحاب مصارف ، وبدأوا يشاركون في الحياة العامة منذ آخر القرن الثالث عشر : اعتمدوا تقليدياً على (الشعب الصغير) وانضموا للحزب المعادي لآل ألبيزي ، ومع ذلك فقد كانوا يعملون بكثير من الحذر والفطنة ، ويتجنبون المجازفة والمخاطرة بغية صيانة مصالحهم المالية . وعندما أصبح كوزم دو ميديتشي زعيم الأسرة في ١٤٢٩ م ، لم يحكم عليه بالنفي إلا في ١٤٣٣ م ، أي في الوقت الذي شعر فيه آل ألبيزي أن السلطة تفر من أيديهم . ثم عاد كوزم إلى فلورنسا في ٥ تشرين الثاني ١٤٣٤ م واحتفظ فيها حتى وفاته (١٤٦٤ م) بالسلطة التي نقلها إلى ذرائه . ومن الصعب تحديد طبيعتها . إن كلمة برنسيبا لا تطبق إلا بصورة ناقصة على هذا النفوذ الذي مورس خلال ثلاثين عاماً في فلورنسا . وفي الواقع ، على خلاف أوغست الذي يشبه به الميديتشي ، وإذا

استثنيت وظيفة موظف العدلية التي تسلمها ثلاث مرات خلال مدة كاملة من ستة أشهر ، فإن كوزم طوال كل باقي وقته ، لم يمارس أي وظيفة رسمية ولم يأخذ أي لقب خاص . لقد بقي مواطناً بسيطاً ، رجل أعمال ، يقضي في قصره الشخصي قصر ريكاردي الحالي حياة بسيطة ونشطة . ومع ذلك كان السيد الحقيقي للدولة الفلورنسية : كان محاطاً بأصدقائه ، ويقرر السلام والحرب والقوانين . وفي داره تناقش الشؤون العامة ، ويختار الموظفون . ولديه ، حسب تعامل جديد في إيطاليا ، يعتمد السفراء المليون والمليونيرات . فمن أين أتته إذن السلطة الغيبية التي يمارسها ؟ أولاً من ثروته الواسعة : لقد كان آل مينديتشي يملكون أضخم ثروة في فلورنسا . ومصرفهم أول مصرف في المدينة ، ويقوم بعمليات ذات صفة دولية . والأموال الجاهزة لديه كبيرة جداً ، حتى استطاع ، في ١٤٢١ م ، أن يسلف كومون فلورنسا بالمبلغ الضروري لشراء ليفورنة من الجنوبيين . وكذلك مؤل أبو كوزم بالجزء الأعظم لتعمير كنيسة سان لورنزو بعد حريقها في (١٤١٧ م) . ونظراً لأن كوزم كان قوياً بالقدرة التي يعطيها المال ، فقد عرف كيف يسلك سياسة توازن حاذقة بين مختلف الطبقات الاجتماعية في المدينة ، لقد رد للماغنان حقوقهم السياسية - التي أصبحت مع ذلك وهمية - ، وأمن لنفسه تعاطف الشعب الصغير بما عهد من وظائف إلى بعض أعضائه . وبقي (الشعب الطرير) الذي ينتمي إليه : لم يستطع كوزم أن يتجنب بأن لا يتشكل فيه حزب معاد لنفوذه . ولكنه مع أعدائه ظهر قاسياً ومتشديداً دون أن يكون دموياً : النفي ، الفرض الاعتباري لأعباء ضريبية ثقيلة ساعدته على تحجيم هذه المعارضة . وبالمقابل أمن لنفسه صداقات متينة بين أنصاره الذين شجعهم بإتقان منظم للضرائب أو بهبات كريمة . وأخيراً أفادت حكومته فلورنسا بكاملها : فعلى نقيض أمراء الشمال ، كان كوزم محباً للسلام بعزم وشجاعة . وبلعبة الدبلوماسية أقام توازناً بين الدول الكبرى وصان مصالح الإمارة الفلورنسية . ومن جهة أخرى كان كوزم أميراً مثقفاً جداً لأنه يعرف قليلاً الإغريقية ودشن الحماية

للفنون والآداب والعلوم . وأمر ببناء دير القديس - مرقس والمكتبة المجاورة .
 وقصر « الشارع الواسع » حيث أقيم مصرفه ، ودارة (فيلاً) في فيزوله . وحمى
 كذلك الفنانين والمهندسين المعماريين : برونيليسشى وميكيلوزو ، والنحات
 دوناتللو ، والرسامين مثل فرا فيليپو لبي وفرا آنجيليكو ، وفي الوقت نفسه قدم
 الشغل للعمال الفلورانسيين . وفي عهده تفتحت المدينة الفلورانسية الكبرى وبدأت
 الحضارة الفلورانسية تشع في إيطاليا كلها .

٣ - شبه الجزيرة الإيبيرية

النعرات القومية

منذ ١٢٧٠ م لم يعد النضال ضد الكافرين (المسلمين) في شبه الجزيرة الإيبيرية المشروع الكبير الذي يوحد جميع المسيحيين في جهد واحد . وبالرغم من المنازعات الداخلية التي تضعف مملكة غرناطة الإسلامية فقد ظلت متماسكة في الجنوب - الشرقي . وذلك لأن الدول الثلاث المسيحية ، التي تقاسمت شمال البلاد : قشتالة ، والبرتغال ، وممالك تاج آراغونة ، أصبحت لها منذ الآن مصالح مختلفة تفرق بعضها عن بعض ، عندما لا تجعلها تتعارض مع بعضها . لقد كانت كل مملكة من هذه الممالك منهكة بالمنازعات الأهلية والثورات الإقطاعية والثورات المدنية الضارة كثيراً بالسلطة الملكية . إن إسبانيا القرن الرابع عشر تبدو مؤهلة للتجزئة السياسية .

أ - قشتالة

إن قشتالة ، التي تقع مراكزها الحيوية في الهضاب الداخلية ، استمرت وحدها في النضال ضد المسلمين . ويقصد بذلك الكفاح على الحدود الغنية بالمفاخر الفردية ، ولكن دون تأثير محسوس على حدود مملكة غرناطة . لقد ضعفت المملكة القشتالية كثيراً جداً لتشتبك في كفاح حاسم يساعدها على طرد أواخر المسلمين من شبه الجزيرة . واستعملت قواها في النضال ضد طبقة نبيلة مشاغبة تساعدها الظروف . بدأت الثورات منذ آخر حكم ألفونس العاشر ، فاتح قادس : فسد هذا العاهل المتسلط الذي يحلم بالتاج الإمبراطوري ، دعم النبلاء تمرد ابنه الثاني سانش على أن يتخلوا عن هذا الأخير عند موت أبيه (١٢٨٤ م) للنضال لصالح وارثين

آخرين . وبعد كل سنوات الحرب الأهلية هذه انتهى توالي القصور الملكي ، قصور فرديناند الرابع وقصور ألفونس الحادي عشر ، بدمار سلطة الملك . وعندما زعم بيير الأول (١٣٥٠ - ١٣٦٩ م) أن يرجع السلطة الملكية ، اصطدم بثورة عامة قامت بها الطبقة النبيلة . وعلى رأس هذه الطبقة النبيلة وجد أخوه النصفى ، الابن غير الشرعي ، هنري كونت ترانستامار ، الذي طالب بالتاج . وحصل هذا على دعم شارل الخامس ، فقد اتخذ ملك فرنسا حجة تدخله طرد عاهل قشتالة للأميرة الفرنسية ، بلانش دو بوربون ؛ ولكنه قدم طوعاً مساعدته العسكرية إلى هنري ليستطيع على هذا النحو التخلص من العصابات الكبرى التي أرسلت إلى إسبانيا تحت قيادة دو غيكلن . وبالرغم من مساندة إنكلترا ، فقد غلب بيير الشرش في موتيل وأسر وقتله منافسه خلال مبارزة . والأرستقراطية ، التي حملت إلى السلطة السلالة الجديدة ، فرضت قانونها على هنري (١٣٦٩ - ١٣٧٩ م) وعلى خلفيه الضعيفين جان الأول (١٣٧٩ - ١٣٨٨ م) وهنري الثالث (١٣٨٨ - ١٤٠٦ م) . وخلال هذا القرن من الحروب الأهلية تشكلت هذه الأرستقراطية حول الأسر الكبرى في أحزاب قوية وقادرة . وكان كبار الأمراء يتصرفون بأسلحة خاصة . ويتحصنون في قصور واسعة ، مثل قصر بينافيل ، وهي ملاجئ منيعة في عصر لم تعرف فيه المدفعية بعد في قشتالة . وانتزعوا من العواهل مرتبات وتنازلات أرضية وامتيازات اقتصادية تركت الملكية فقيرة حائرة لا تدري ماتقول وما تفعل .

ب - البرتغال

إن النهوض الاقتصادي اللامع الذي شهدته البرتغال في القرن الرابع عشر يختلف بشدة عن الركود والبؤس اللذين كانا ثمن الفوضى في قشتالة . لقد كانت البرتغال منصرفة كلياً إلى نشاطاتها التجارية وتنزع إلى التحول عن الشؤون الداخلية في شبه الجزيرة لتنظر نحو الطرق الأطلسية . لقد وجد بعض عواهل

لهم قيمتهم ، مثل دوني الليبرالي (١٢٧٩ - ١٣٢٥ م) ، ألفونس الرابع (١٣٢٥ - ١٣٥٧ م) ، وفرديناند الأول (١٣٦٧ - ١٣٨٣ م) أخذوا على عاتقهم التنمية الاقتصادية لبلادهم : اهتموا باستقلال المناطق الواقعة في جنوب نهر التاج ، وشجعوا المنشآت البحرية ونظموا جهاز تأمين متبادل يغذيه رسم على حمولة السفن . وانتقلت العاصمة من بورتونحو لشبونة . وهي ميناء يحتك فيه التجار الإنكليز والفلامانديون والجنويون وأصبح مركز البلاد الحقيقي . ومع ذلك فإن الطبقة النبيلة الريفية والمحاربة لم تتخل عن زج نفسها بشؤون قشتالة . وفي النصف الثاني من القرن ، دفعت العواهل إلى الإفادة من الاضطرابات التي تمزق المملكة المجاورة . ولم تكن حجج التدخل صعبة الإيجاد : لقد تشابكت ذراري سلالات المملكتين بزواجات عديدة . وهكذا ، عندما قتل بيير الشرس من قبل الابن غير الشرعي هنري دو ترانستامار ، طالب ملك البرتغال ، بأن يكون خلفاً له . وانفجرت الحرب ، وكانت مدمرة للبرتغال : فقد اجتاحت البلاد وحوصرت لشبونة واضطر فرديناند الأول إلى طلب السلام وأن يزوج ابنته بياتريس لجان قشتالة ، ابن ووارث هنري دو ترانستامار . وعندما توفي فرديناند البرتغال في (١٣٨٣ م) انقلبت الحالة . فقد طلب ترانستامار قشتالة باسم زوجته ، الوارثة الوحيدة للراحل بتاج البرتغال . وكانت الطبقة النبيلة في هذا البلد مستعدة تماماً لقبول اتحاد المملكتين . وعندئذ قامت البورجوازية التاجرة في لشبونة وجماعة الحرف ورفعوا إلى السلطة الابن غير الشرعي للملك ، جان دافيس . وأحرز هذا على جيش الفرسان القشتالي نصراً مبيناً في الجبازوتا (١٣٨٥ م) . ولإنهاء الحرب في ١٤١١ م ، قررت قشتالة الاعتراف رسمياً بالسلالة الجديدة . وكان نصر جان الأول نصراً للروح القومية المتجسدة بالبورجوازية التجارية التي أبت أن تترك البلاد لقمة سائغة لقشتالة . لقد انتصر الملك جان بفضل القروض التي قبل بها تجار المدن الكبرى . وانتهت السياسة الخارجية بجر المملكتين على طرق مختلفة . فبينما بقيت قشتالة ، بعد اعتلاء هنري ترانستامار العرش ، حليفاً أميناً لفرنسا في

نزاعها الطويل ضد إنكلترا ، دخلت هذه الأخيرة في حلف مع البرتغال . وتزوج جان البرتغال فيليبين دو لانكاستر ؛ ووضع الأسطول البرتغالي نفسه في خدمة إنكلترا ، وانعقدت علاقات تجارية متينة بين البلدين .

جـ - تاج أراغونة

لقد عرفت المناطق الشرقية في شبه الجزيرة الإيبيرية تطوراً مشابهاً لتطور البرتغال . فقد كان (تاج أراغونة) يضم بلداً فقيراً ، الجبال والوديان الأراغونية ، إلى واجهة بحرية ، الكاتالونيا واللوفانت (فالانس) اللتين تنعشها تجارة كثيفة . ومملكة ماجورقة ، التي تشكلت في القرن الثالث عشر ، لصالح فرع ثان من الأسرة الملكية ، تضم الباليار ، والروسيون ، والسردانيا ، حافظت على استقلالها حتى ١٣٤٤ م . وكان العواهل الأراغونيون مدفوعين ببورجوازية الموانئ الكاتالونية ، وباشروا سياسة توسع متوسطية ، وطمعوا بصقلية منذ القرن الثالث عشر : فقد حصل جيم الأول ، من أجل ابنه بيير ، على يد بنت ملك صقلية مانفرد . ولكن هذا الأخير خلعه شارل دأنجو وطرده . ولذا وجب الاستيلاء بقوة حية على الجزيرة المتوسطية الكبرى . وقد أعطى احتلال تونس ، في ١٢٨٠ م ، الأراغونيين قاعدة عمليات قريبة من صقلية ، وما فتئوا يكيدون ضد العاهل الأنجفي . وعقب المجزرة العامة للفرنسيين في صقلية^(١) في ١٢٨٣ م ، لم يكن أمام بيير الثالث إلا أن ينزل ليؤمن لنفسه ، بقليل من الزمن ، السيطرة على الجزيرة . أما من جهة جيم الثاني (١٢٩١ - ١٣٢٧ م) ، ملك ماجورقة فقد تنازلت له البابوية عن حقوقها على كورسيكا وساردينيا . وخطوة خطوة أبعد

(١) المجزرة العامة للفرنسيين الموجودين في صقلية في ١٢٨٣ م كانت في اثنين عيد الفصح في الوقت الذي كانت الأجراس تقرر لتدعو لصلاة (الستار Vêpres) الصقليين الثائرين ضد شارل الأول دأنجو ويدعمهم بيير الثالث ملك اراغونة . وعلى إثرها أصبح البيت الاراغوني سيد صقلية .

البيزانين الذين استقروا فيها . وعندما جمع پير الرابع في ١٣٤٤ م مملكة آراغونة ومملكة ماجورقة ، وجد على رأس إمبراطورية بحرية واسعة يضاف لها وكالات في بلاد شرق المتوسط وموره حيث استقرت عصابات قطاع طرق كاتالانين . وهذه السياسة الخارجية العظيمة ، ولكن المكلفة ، الشاغلة للبال ، أجبرت العواهل الآراغونيين على كثير من التخلي تجاه الطبقة النبيلة عن أفقر جزء من مملكتهم ، آراغونة . وانتزعت الأرستقراطية من الملوك امتيازات باهظة : فعليهم أن يعقدوا المجلس ويخضعوا لإشراف المستشارين الدائمين الذين تعينهم الطبقة النبيلة ؛ وأخيراً اعترف ألفونس الثالث للكبار بحق خلع العاهل الذي يخل بتعهداته . وفي منتصف القرن الرابع عشر ، باشر پير الرابع باسترجاع السلطة الملكية : ففي الحرب الأهلية التي نشبت ، سحقت الطبقة النبيلة أخيراً . وحذفت كل الامتيازات السياسية (١٣٤٨ م) . واعتمد الملك في النزاع على بورجوازي المدن المتوسطة ومنحها حريات كومونية عريضة وتمثيلاً هاماً في الكورتيسات (المجالس) .

ظهور قوى الاتحاد

في النصف الأول من القرن الخامس عشر بدأت تظهر في شبه الجزيرة الإيبيرية قوى الاتحاد . وفي الحقيقة ، إن البرتغال ظلت تتطور بشكل مستقل : فقد مهر العواهل البلد نظماً (مؤسسات) إدارية وحقاً عاماً . وبخاصة عززوا السياسة الغربية والأطلسية لسابقيهم . إن كسب سبتة في ١٤١٥ م وأعمال رسم المصورات الجغرافية والكونية التي قام بها هنري الملاح ، الابن الثاني لملك البرتغال جان الأول (١٣٨٥ - ١٤٣٣ م) ، والمقيم في رأس سان - فانس ، وأخيراً الرحلات الإفريقية التي جرت الملاحين البرتغاليين أكثر فأكثر نحو الجنوب ، أعلمت وهيأت المغامرة البحرية الكبرى التي انطلقت فيها المملكة الغربية الصغيرة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر .

وبالمقابل إن تطور الآراغون وقشتالة هياً بصورة غير محسوسة المملكتين نحو التوحيد . وإذا تابعت الآراغون سياسة الهيمنة في إيطاليا حيث اعترف بألفونس الخامس (١٤١٦ - ١٤٥٨ م) وارثاً من قبل الملكة جانّ نابولي ، فإن التنصيب على العرش الآراغوني لعائلة قشتالية ، وهي فرع ثان لأسرة ترانستامار ، بدأ بتقارب مع المملكة المجاورة ؛ وعند وفاة الملك مارتن الأول (١٤١٠ م) الذي لم يترك وارثاً ، وضعت قضية اختيار عاهل . وكان المطالب بالعرش فرديناند دانتكويرا الولد الثاني من سلالة قشتالة ، ابن أخ الملك الراحل ، ومن قبل ابن عمه الكونت دورجل . ولوضع حدٍ لحرب تجابه فيها المدعيان بالعرش ، قررت النيابات الدائمة في الكورتيسات التي تستمر في تأمين إدارة المملكة ، أن تتدخل : وبموجب تسوية (حل وسط) كاسب (١٤١٢ م) ، حكمت لصالح فرديناند . وعليه وجد منذ الآن عاهلان من أسرة ترانستامار في شبه الجزيرة .

ومع ذلك هيات قشتالة نفسها لتلعب دوراً موحداً . وفي الظاهر تغير القليل من الأشياء في حياة المملكة المركزية بالنسبة للقرن الرابع عشر ، فتحت حكم جان الثاني (١٤٠٦ - ١٤٥٤ م) الضعيف ، كانت البلاد فريسة الفوضى والحروب الأهلية أكثر من أي وقت مضى . إن محظي الملك بدرو دولونا ، سيد (مقدم) نظام سنتياغو (شنتياق) والقائد الأعلى للجيش ، كان السيد الحقيقي للحكم . وكان عليه أن يواجه استياء الطبقة النبيلة الحريصة على سلطتها . وبفضل الطاغية رودريغ دو فيلاندراندو ، استطاع أن يسحق ثورة عامة في معركة أوليدو (١٤٤٥ م) . ولكن الملك أعدمه أخيراً في ١٤٥٣ م . وبالرغم من هذه الظواهر ، بدأت قشتالة تصبح دولة كبرى ، وقد بدأ الشعور من قبل بالفوائد الظاهرية المتعلقة بتوسعها الجغرافي ووضعها المركزي (الأوسط) في شبه الجزيرة وتفوقها الديموغرافي : لقد كانت قشتالة تضم ، في بداية القرن الخامس عشر ، نحو خمسة إلى ستة ملايين نسمة ، على حين أن كلاً من جيرانها لم يكن ليضم أكثر من

مليون . وأخيراً بدأ نهوض البلاد الاقتصادي بعد أن أخلته الحروب الأهلية زمناً طويلاً . وقشتالة غنية بتربية الحيوانات على هضاب الداخل وتفوق الزراعة بشكل واضح . وكانت (المستا) الرابطة القومية التي تضم كبار نبلاء الملاكين ، كما تضم أيضاً صغار ومتوسطي المربين ، وتنظم انتجاع الأغنام التي تقيم شتاء في الجنوب وتصعد صيفاً مرتفعات الشمال . وقد حصلت من العواهل على تحديد الرسوم التي تضرب القطعان على طرق الانتجاع . وفي الوقت نفسه ، كانت نتاجات هذه التريبة تقدر لتبنيها ، في سياق القرن الرابع عشر ، عرقاً جديداً ظفر في القرن الخامس عشر . وذلك بتخليها عن خروف الشرو ، الخروف الأهلي الأصلي ذي الصوف المرصوص قليلاً ، لصالح خروف الميرينوس الذي جاء ولا شك من مراكش بلاد آل مرين . وجزته المرصوصة جهزت فيما بعد أفضل أصواف أوربة ، وكان الصوف الذي يتاجر به في الأسواق الموسمية الكبرى في مدينة دل كامبو يغذي تجارة تصدير مثمرة . وجنت قشتالة ربحاً أيضاً من ثروتها بالفلذات المعدنية : حديد بلاد كانتابر ، والباسك ، وكبريتات البوتاس والفوسفات من قرطاجنة وزئبق المعدن التي كانت تصدر أيضاً . وأخيراً بدأت قشتالة تفيد من جبهاتها البحرية المتعددة : على الأطلسي ، في الشمال ، كان الملاحون الباسك ناقلين يؤجرون عمائرهم إلى تجار جميع البلاد ، ويختلفون إلى لاروشل ، ونانت ، وبروج ، بل وحتى إلى الموانئ الإنكليزية . وفي خدمة جنوة تغلغلوا في البحر المتوسط . وعلى ساحل الأندلس كانت إشبيلية وميناؤها الأمامي بوائته دو تريانا تستقبلان بصورة وحيدة تقريباً عمائر أجنبية تحط رحالها لنقل فلذات قشتالة وصوفها . وأخيراً ، فتح ميناء قرطاجنة ، في مملكة مرسية القديمة ، لقشتالة نافذة ضيقة على البحر المتوسط ، وليس الزمن ، الذي ستقطف فيه قشتالة ثمار هذا التقدم الاقتصادي ، ببعيد .

الفصل الثامن

نحو عالم جديد

المقدمة

في منتصف القرن الخامس عشر يرى أن المنازعات السياسية والدينية ، التي قسمت الغرب بشكل فظيع خلال أكثر من مائة عام ، أخذت تهدأ : وعلى وجه العموم ، إن المشاكل الاقتصادية الخطيرة قد أمكن التغلب عليها ؛ وإن عاطفة القلق والاضطراب التي عكرت صفو الأجيال السابقة بدأت تنقشع . وفي جميع الأصعدة فتح لأوربة دور تعمير . ولكن لم يكن القصد إرجاع النظام القديم الذي اضطرب بالحرب خلال فترة من الزمن ، والجذب والحيدة الكبرى . إن الأزمة ، التي هزت أوربة وضحت ضرورة تشكيل دول قوية ومركزية ، وكشفت عن حاجات اقتصادية جديدة يجب أن تسد ؛ وأيقظت أخيراً تطلعات دينية ، فكرية ، وجمالية جعلت من المستحيل العودة بكل بساطة إلى مواضع التفكير والحس التي كانت في القرن الثالث عشر . ففي أوربة آخر القرن الخامس عشر أو على وجه الدقة في بعض قطاعاتها ، بدأ تجديد عميق (نهضة) بالمعنى الواسع للتعبير . وفي الحقيقة ، لم تجنب كل التهديدات : وأكثرها خطورة سقوط القسطنطينية الذي تمثل باستقرار الأتراك العثمانيين في أوربة نفسها ، في البلقان . وهذه الإمبريالية العثمانية المهاجمة لم تترك راحة للممالك المسيحية القائمة في جوارهم . أما في العالم القديم أي العصر القديم والعصر الوسيط ، الذي عرفته البلاد الآسيوية ؛ الصين ، اليابان ، الهند ، فقد تجزأت هذه البلاد وجمدت في تأمل ماضيها . وظلت إفريقية تحت رحمة المجاعات والأوبئة والمنازعات القبلية ، في وقت كان فيه الغرب الأوربي يؤكد تفوق حضارته ؛ ويستعد لفتح العوالم الجديدة وتوطيد نفوذه في كل مكان .

على عتبة الأزمنة الحديثة

١ - حول الأفق السياسي

لقد كان الدرس من قرن ونصف من الخلافات الدولية والمنازعات الأهلية مزدوجاً : إن فكرة المسيحية ، حلم بعض الأكليركيين المتجهين نحو الماضي الروماني ، المتجسد في القرن الثاني عشر بطفرة الحروب الصليبية ، عاشت نهائياً ؛ وإن أفول السلطات التي أرادت أن تكون عامة وكونية ، أفول البابوية التي تريد أن تؤكد مزاعمها في الحكم الإلهي (التيوقراطية) ، كأفول الأباطرة الذين يهدفون إلى التفوق ، كان لها صورة . وستكون أوربة الجديدة أوربة الأمم . ولكن من الواضح أيضاً بأن الأمة لا يمكن أن تعيش إلا إذا دعمت بقوة دولة منظمة بشكل صلب تحت إدارة ملكية مركزية . وهكذا ارتسمت لأوربة ، منذ منتصف القرن الخامس عشر الخطوط الكبرى لتطورها السياسي القادم ؛ ولكن هذا الأخير بدأ بشكل متفاوت حسب المناطق .

أوربة الإمارات والأمم

في أوربة الوسطى الجرمانية والإيطالية ، أسرف الإمبراطور والبابا في السلطة التي كانا يتصرفان بها في أحلام الهيمنة على العالم . وكانا غير قادرين على إنجاح عمل أكثر تواضعاً ولكنه أكثر واقعية ، والوصول به إلى نهاية طيبة وهو : أن يخشدا حولهما الطاقات القومية ويؤلفا دولة ألمانية ودولة إيطالية . وظلت ألمانيا وإيطاليا مكرستين للتجزئة السياسية .

أ - إيطاليا

في إيطاليا ، إن حركة المركزية السياسية والأرضية معاً التي جرت في القرن الرابع عشر ، توقفت في النصف الثاني من القرن التالي قبل أن تبلغ نهايتها . لقد ظلت شبه الجزيرة مقسمة إلى إمارات ذات نظام سلطوي ولكنه في الغالب غير مستقر . وفي نقصها السياسي كانت أكثر من أي وقت مضى فريسة معرضة لأطباع الدول الأجنبية .

إيطاليا الأمراء

إيطاليا آخر القرن الخامس عشر هي إيطاليا الأمراء . والحكم الجمهوري للبلديات لم يجد فيها مكانه . فمن طرف إلى الطرف الآخر في البلاد ، في الدول الست الأساسية التي تثبتت في سياق القرن السابق ، انتصرت أنظمة ملكية أو شبه ملكية .

في طرفي شبه الجزيرة ، في مناطق هياؤها الجغرافيا والتاريخ لتكون أوروبية أكثر منها إيطالية ، ولم تم فيها الحركة البلدية بشكل كامل ، كانت سلطة الأمير تعتمد على تقليد قديم يؤمن لها بعض الثبات . في الشمال - الغربي ، شكل أدواق الساقوا على سفحي جبال الألب ، في الساقوا وفي البيوننت ، إمارة قوية متينة تشرف على طرق الشعب الجبلية ، وتملك مع نيس منفذها الخاص على البحر المتوسط . وفي الشمال الغربي صانت البندقية ، جزءاً من إمبراطوريتها البحرية ، وأثمت منذ قليل هيمنتها في اتجاه اليابسة . ووجدت منذ زمن طويل توازناً داخلياً يبرر الصيغة (صاحبة الشوكة الجمهورية) . وهذا التعبير الأخير لا يمكن أن يضلل : لأن السلطة في أيدي أوليغارشية (أقلية) ضيقة من التجار بخاصة ، ولكن أيضاً من مجلس الشيوخ ، لأجل السياسة الخارجية ، الذي يمارس ، بواسطة مجلس العشرة ، دكتاتورية حقيقية . ومن بعد ألا يقال

(الإمارة) للدلالة على أعضاء هذا الحكم ! وأخيراً في الجنوب ، في مملكة نابولي ، ورث الملوك الآراغونيون عن أسلافهم النورمان والجرمان ، والأنجويين نظاماً إدارياً مركزياً جداً . وسمح الملك ألفونس الشهم لنفسه بأن يحكم دون أن يدعو في (برلمانات) البارونات وممثلي البلديات (الكومون) . ومع ذلك ، فعند وفاته ، في ١٤٥٨ م ، افتتح دور ينقصه استقرار كبير . لقد ترك الملك ألفونس دوله الوراثة : الآراغون ، ساردينيا وصقلية لأخيه جان الثاني ، وتاجه الإيطالي لأخيه غير الشرعي فرّان . وفي هذه الحال سمى رونيّه دأنجو نفسه ملكاً على نابولي . وهكذا وجد فرّان ضده ميلاده غير الشرعي وثورة حزب البارونات ، المفضلين للأنجفين . وحاول جان كالابرا ابن الملك رونيّه حملة إيطالية ولكنه هزم في تروجا (١٤٦٢ م) . وهذا النصر عزز نوعاً ما وضع فرّان على عرشه .

وفي المناطق الأخرى من إيطاليا ، ظهرت الحركة البلدية (الكومونية) بقوة أكثر وبشبات ومثانة أكثر ، وانتهت السلطة السياسية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر بتركزها بين يدي رجل واحد . ولكن سلطة هؤلاء الأمراء الحديثي العهد ظلت ضعيفة : من طغاة سعداء أو تجار أغنياء . وهؤلاء الحديثي العهد بالسياسة كانوا تحت رحمة خسارة ثروة أو إخفاق عسكري . بين هذه الإمارات ، جنوة ، لم تعد تذكر إلا في الذاكرة لأنه لم يكن لها تاريخ خاص بها : فقد كانت تنتقل بين تارة وأخرى من إمارة ملك فرنسا في (١٤٥٨ م) إلى نفوذ دوق ميلانو (في ١٤٦٤ ثم في ١٤٨٧ م) ، فلا تكاد تجدد بصورة عابرة استقلالها إلا وتقع في الفوضى . إن مصير الدول الحبرية ، دولة فلورنسا ، ودولة ميلانو ، تبين بشكل أفضل تطور السلطة الأميرية .

الدول الحبرية

إن حكومة وسياسة الحبر الأعظم في دوله لا تختلف عن حكومة وسياسة أي أمير إيطالي . وفي الواقع ، إن معظم الأحبار في النصف الثاني من القرن

الخامس عشر لم يتخلوا فحسب عن ممارسة (سيادة العالم) ، وإنما تخلوا أيضاً في الغالب عن أعبائهم الروحية ليكرسوا أنفسهم لشؤون تركتهم الزمنية . وباستثناء البابا الإسباني كاليكست الثالث (بورجيا) فإنهم جميعاً إيطاليون ، واثنان منهم ينتهيان إلى أسر قديمة أرستقراطية ، بيوس الثاني الذي ينتمي إلى أسرة آل بيكولوميني ، وسيكست الرابع إلى أسرة آل لا روفير . وهذا يوضح في الجزء الأعظم المصلحة التي يعلقونها على الحياة السياسية الإيطالية . وفي داخل دولهم كانت القضية الأساسية إرجاع سلطتهم ، التي كانت بفضل (أسر بابل) و (الحيدة الكبرى) ، قد هوجمت بشدة من قبل بلدية روما والأمراء الذين ألفوا لأنفسهم إمارات صغيرة . ونراهم من عهد نيقولا الخامس (١٤٤٧ - ١٤٥٥ م) إلى إينوسان الثامن (١٤٨٤ - ١٤٩٢ م) ، حاولوا أن يصبحوا ملوكاً مطلقين السلطة . وهذه السلطة ، التي لا يمكنهم قبولها ولا نقلها بشكل وراثي ، كالأمراء الآخرين ، حاولوا أن يوسعوها ويمددوها باللجوء إلى « النيبوتيسم » أي منح الأفضال إلى أعضاء الأسرة وإساءة الثقة المخولة له . وهناك بابوات آخرون كانوا قد تفضلوا على أعضاء أسرهم ، وسارعوا في المنصب الكنسي لأقربائهم . والشئ الجديد هو أن هذه الممارسة أصبحت وسيلة حكم . وقد دشّن هذا النظام البابا بورجيا ، كاليكست الثالث (١٤٥٥ - ١٤٥٨ م) . ففدأة انتخابه بادر كردينال فالانس السابق بتوظيف عدد من أبناء وطنه في روما فألى أبناء أخواته الذين تبناهم ونقل إليهم اسم (بورجيا) أوجد مكانة ممتازة ، من ذلك أن بيير - لويس ، وإن لم يدخل في النظام الكنسي ، رَكَم عدة وظائف إدارية : رئيس عام للكنيسة ، حاكم قصر القديس - أنج وعدة مواقع حصينة أخرى ، وعميد التركة في توستشيا . ورودريغ بورجيا رفع وهو شاب لمرتبة الكردينالية ، وورث بعد سبع وثلاثين عاماً العرش الحبري تحت اسم ألكسندر السادس . وإذا لجأ الخلفاء المباشرون لكاليكست إلى قليل من العلانية في تنفييع الأقارب ، فإن سيكست الرابع (١٤٧١ - ١٤٨٤ م) وإينوسان الثامن (١٤٨٤ - ١٤٩٢ م)

حولاه إلى مبدأ حكم . فن ذلك أن اثنين من أبناء أخوات سيكست الرابع جوليان دولا روفير وبطرس رياريو سميا كرينالين . وثلاثة آخرون خدموا في العصر مصالح أسرة لا روفير ؛ وأمنوا لها في الدول الحبرية وضعاً متفوقاً حتى أن لعبة الأحلاف الزوجية أتت تم بمساندات خارجية : فن ذلك أن ليونارد محافظ روما تزوج ابنة الملك فراند ؛ وأخذ جان إمارة صغيرة في ثغر أنكون ويد ابنة فريديريك دومونتوفلتره ، أمير أورينو . وليشكل سيكست الرابع إلى جيروم الذي ارتبط بزواجه بدوق ميلانو ، إمارة في رومانيو ، لم يتردد في الانطلاق في حرب ضد فلورنسا . وتنفيعية إينوسان الثامن أيضاً أكثر فضيحة على الصعيد الأخلاقي : وذلك أن هذا الحبر الذي جاء متأخراً إلى الكنيسة بعد شباب خليع ، تجرباً وأعلن في روما أن له ولداً وبنثاً ، ولكنه كان قليل النفاذ على الصعيد السياسي : فرانثيسكو سيبو تزوج في ١٤٨٨ م بنت لوران دوميدتيشي ، ولكن هنا يتحدد الدور الرسمي لهذا الابن الضعيف للبابا .

وفي الحقيقة لقد أعطى الباباوات لبلاطهم ، حيث أكثروا الأعياد والمآدب ، الأبهة الدنيوية ، وحمو الفنانين ، ولجؤوا إلى فرض ضريبة ثقيلة أكثر فأكثر ، وإلى بيع الوظائف في البلاط الروماني ، وشاركوا في الدسائس الدبلوماسية وأحياناً العسكرية التي تقسم إيطاليا ، ولذا لم يختلفوا مطلقاً عن سائر العواهل الإيطاليين . وسلطتهم الزمنية علقت بنفس التهديدات . أولاً تهديد الكرادلة الذين كانوا يميلون في كل انتخاب إلى ربط البابا بالأيان ؛ ثم تهديد الأمراء الذين شكلوا إمارات صغيرة في الدول الحبرية . واضطر بيوس الثاني إلى النضال ضد سيجموند مالاتيستا ، أمير ريميني والزعيم اللامع .

وكان على بولس الثاني أن يكافح آل أنغيلارا الذين يملكون عدة قصور حصينة في توسشيا . والأعجب ، إن لم يكن خطراً ، ظهور المعارضة الجمهورية في روما وتمثل بجماعات الإنسانيين الذين ينهلون من عبادتهم للتقديم إعجابهم

بالنظام الجمهوري . ومنذ ١٤٤٧ م ، غداة وفاة أوجين الرابع ، وبفضل شغور العرش الحبري ، حاول نبيل روماني فقيه باللغة والأدب اللاتينيين ، ستيفانو بوركارو أن يثير الشعب على (حكم الكهان المخزي) . وبعد أن عفا عنه نيقولا الخامس ، دبر في ١٤٥٣ م مؤامرة جديدة كان هدفها سجن البابا والكرادلة . ولكن اكتشف أمره وشنق هو وشركاؤه في شرفات قصر سانتانج . وفي ١٤٦٧ م ، انفجرت قضية أخرى : وذلك أن بيوس الثاني الأديب الإنساني نفسه ، عهد إلى الإنسانيين بعدة وظائف في الإدارة الحبرية . وقرر خلفه بطرس الثاني بطرد هؤلاء (المختزلين) . فاستاء الإنسانيون وكان من عاداتهم الاجتماع في دار بونونيوس ليتوس ، مقر الأكاديمية الرومانية ، التي كانت تحاول بعث العبادات الوثنية . فهل هيؤوا بحق مؤامرة ضد السلطة الحبرية ؟ على أي حال ، أوقفوا واهتموا بالتآمر على الدين المسيحي وعلى حياة البابا ، وزجوا في غياهب السجن .

فلورنسا في عهد آل ميديتشي

في فلورنسا ، وفي نفس العصر ، تطورت أيضاً الإمارة التي دشنها كوزم دوميديتشي في اتجاه الملكية . ولكن النفوذ السلطوي للأسرة الكبيرة لأصحاب المصارف فقد جزءاً من سلطته السياسية وأصبح عرضة للتهجم . لقد خلف كوزم دون صعوبة في إدارة البنك ، كما في حكم فلورنسا ، أولاً ابنه بيير (١٤٦٤ - ١٤٦٩ م) ثم حفيده لوران (١٤٦٩ - ١٤٩٢ م) وبهما كادت الإمارة (البرانسيا) أن تصبح إمارة مقنعة . والجهة الجمهورية التي حاول كوزم الحفاظ عليها تداعت من كل جانب : فمن ذلك أن العديد من أجهزة الحكم الجمهوري السابق ، المجلس الأعظم ، والرئيس العسكري للشعب قد حذفوا بكل بساطة ؛ وانتزع من الآخرين الأساسي من وظائفهم . وهكذا انتهى لوران (في ١٤٨٠ م) بالاحتكام إلى مع مجلس واحد وهو مجلس السبعين ويسمى أعضاؤه مدى الحياة ،

وملأه بصنائعه . وفي داخل المجلس تفحص كل اقتراحات القوانين وتتخذ جميع القرارات الهامة . وفي الوقت الذي شدد فيه آل ميديتشي سيطرتهم السياسية على فلورنسا تخلوا عن غط بيت كوزم البورجوازي ليعيشوا أمراء . وفي الحقيقة ، إن بيير ولوران ، على خلاف أمراء العصر الآخرين ، تدربا على حياة البنك لا على الفن العسكري . ولكن التربية الخالية عن الغرض التي تلقاها لوران لا تتفق مطلقاً والمفاهيم البورجوازية . وكانت أمه من أسرة تورنا بوني ومثقفة جداً . سهرت على دراساته الأولى ، ثم كان عنده أساتذة منتقون من بين أفاضل الإنسانيين في العصر ، أرجيروبولوس للإغريقية ، مارسيل فيتشينو للفلسفة ، لاندينو للآداب الإيطالية ، وكان لوران العظيم مؤلف أغاني وقصائد ، وشغفاً بالفن ، وحامياً لرجال الفنون والآداب ؛ حمى فيروكيو وبوتيشيلي ، وأقام في إحدى فيلاته (الأكاديمية الأفلاطونية) . وكان كريماً ومحباً للآلهة ، وأقام ، دون أن يكون له بلاط بصورة حقيقية ، أعياداً كثيرة ، ونظم استقبالات وأدخل المباريات إلى فلورنسا . وكان لكبار الأمراء ، من أسرة الميديتشي ، من الجيل الجديد ، مزاج شديد متسلط ، وفيما يتعلق خاصة بلوران ، كان عنده بعض الاحتقار لقضايا المال . وكان بيير يجهل الفن الذي طبقه أبوه لاستخدام المال لغايات سياسية : وذلك بإقراض المبالغ من المال دون أن ينوي المطالبة بها ، وبذا شكل زبائن أوفياء للأسرة الميديتشية . وما كاد بيير يصل إلى السلطة إلا وطلب دفع كل الديون ، وبذلك دمر الحزب الذي كان أبوه يعتمد عليه . ولوران يهتم قليلاً بالشؤون المصرفية ويتركها لمديري الشركات . ولا يمكن لقوة وسنا حكومة لوران أن تخفياً تماماً الطابع الضعيف لنفوذ آل ميديتشي على فلورنسا في آخر القرن الخامس عشر . إن النفوذ الذي كسبه كوزم في الشؤون العامة كان مرتبطاً بشكل وثيق بالتفوق المالي لمصرفه . ومنذ بداية حكم لوران ، بدأت الصعوبات المالية تظهر : فقد كان الأمير الشاب يصرف دون حساب ولا يراقب بشكل وثيق إدارة مديري الشركات المحليين . ومن جهة أخرى ، إن القروض المقبولة

للعواهل ، بفضل مال المودعين ، تحولت حسب الحوادث السياسية إلى عمليات خاسرة ، وتسببت بكوارث . لقد توالى إفلاسات الشركات التي كان لآل ميديتشي مصالح فيها : تدمرت شركة لندن بحرب الوردتين (١٤٧٧ م) ، وشركة بروج بهزيمة شارل الجريء (١٤٧٨ م) . والشركات الفرعية في ميلانو ، في ١٤٧٨ م ، وفي آفنيون ، في ١٤٧٩ م ، تدمرت بدورها . وتحرضت المعارضة السياسية بسبب سلطة آل ميديتشي المتشددة ، ونمت في الوقت نفسه : ودبرت ضد بيير ميديتشي مؤامرة كان ساعدها الطاغية بارتولوميو كولليوني . ولم يثبط إخفاقه عزم المعارضين الذين جددوا محاولتهم ضد لوران وكادوا أن يبلغوا أهدافهم . وفي وسط المؤامرة الجديدة وجدت أسرة أصحاب مصارف فلورنسيين آل پايزي ، وكان لوران يحذر منهم ويبعدهم عن المجالس ، وفي ١٤٧٣ م ، أقرض البنك البازي للبابا سيكست الرابع المبلغ الضروري لشراء إمارة إيمولا التي خصصها لأحد أولاد إخوته . وبالمقابل نقل البابا إلى بنك آل پايزي إدارة حساب المجلس الرسولي . وكان ذلك بالنسبة للوران خسارة مالية عظيمة ، وفي الوقت نفسه إخفاقاً سياسياً لأنه نفسه كان يطمع أيضاً بإيمولا . وكشف النضال بين الأسرتين . فقد عزم آل پايزي على التخلص من نفوذ لوران ، ولذلك تحالفوا مع ممثل لأسرة فلورنسية أخرى عدوة لآل ميديتشي وهو فرانسوا سالفياقي ، رئيس أساقفة پيزا الذي منعه معارضة لوران من حوزة كرسي أبرشيته . وانتظر المتآمرون اللحظة التي يجتمع فيها لوران وأخوه جوليان ، بغية القضاء على عائلة الميديتشي بأسرها . وسنحت الفرصة في يوم الأحد في ٢٦ نيسان ١٤٧٨ م : فقد كان جوليان ولوران يحضران القداس جنباً إلى جنب . وفي اللحظة التي لفظ فيها الكاهن انطلقوا « تلي القداس » انقض المتآمرون على الأخوين : سقط جوليان بعد أن طعن عدة طعنات وجرح لوران ، واستطاع الفرار . وعندئذ ظن المتآمرون أن الوقت حان للاستقرار في قصر الإمارة . غير أن سرعة بديهة وولاء موظف العدلية الذي أمر بإغلاق الأبواب ، أوقعهم في الفخ وأنقذ لوران . كان

القمع دامياً : شق فرانسوا بازي ورئيس الأساقفة ، بالرغم من الغضب العظيم الذي أبداه البابا سيكست الرابع ، وحرّم لوران ، حتى أنه دعم حرباً قصيرة ضده (١٤٧٨ - ١٤٨٠ م) . إن حياة وسلطة لوران ، الذي يعزز أيضاً الطابع الطاغوي لحكومته ، كانتا سليميتين ومعافيتين ، ولكن بالإضافة إلى الصعوبات المالية والسياسية ، ظهر تهديد آخر واضح : فنذ ١٤٩٠ م وبخاصة انطلاقاً من ١٤٩٤ م ، أقيم راهب دومينيكي في دير القديس - مرقس ، يدعى سافونارولا ، وبدأ يهاجم في وعظه أخلاق الفلورنسيين المنحلة والاستبداد الذي يستعبدهم أيضاً . ووجد جميع المستأئين في انتقاداته تبريراً لحقدهم على آل ميديتشي . ومع ذلك كان الحظ السياسي للأسرة يبدو دوماً في أوجه . ولكن بعد عامين على وفاة لوران ووصول ابنه بيير إلى السلطة (١٤٩٢ م) ، تقوض نفوذهم في ١٤٩٤ م .

الإمارة الميلانية

كان تطور الإمارة الميلانية موازياً في عدة نقاط لتطور فلورنسا ، فقد أصبح الطاغية السابق ، فرانسوا سفورزا دوقاً وفرض على المدينة طغياناً جديداً . وكانت أجهزة الإدارة المتمركزة جداً فيها ، التي تقحت منذ عهد آل فيسكونتي ، ناجعة ونافذة جداً وظلت تعمل بعد موت فرانسوا (١٤٦٦ م) ، عندما عادت السلطة إلى الضعيف والضيئل غاليا ماري ، ابنه . ومع ذلك فقد كان النظام ضعيفاً وتراوح بين خطرين : الثورة ضد الاضطهاد والانتقال الذي نجح لمغامر آخر . ففي ١٤٧٦ قتل نيبيلان ميلانيان أولجياتي ولامبونياني غالياماري ، ولكن جرمهم غير مفيد ، واقتيدا إلى التعذيب دون أن يفكر الشعب ، الذي اعتاد على العبودية ، بالثورة . وشجعت الحالة عندئذ أهداف طموح آخر وهو لودوفيك لومور ، الابن الثاني لفرانسوا سفورزا وأخو الدوق القتل ، فقد أخذ مكانه في المجلس إلى جانب بونّ دوساقوا ، زوجة أخيه ، التي تمارس الوصاية لصالح الفتى جان غاليا . وفي ١٤٧٩ م أبعد الوصية وحكم وحيداً

باسم ابن أخيه . ولكن طموحه لم يشبع ، وأراد منصب الدوقية . فهل يمكنه اغتصابه دون عداوة الملك الآراغوني في نابولي ، بعد أن تزوج ابن أخيه أميرة من آراغونة ؟

إيطاليا الممزقة

وفي الواقع ، في إيطاليا الممزقة ، كان للحوادث التي تجري في إمارة انعكاسات بصورة حتمية تقريباً في الإمارة المجاورة ، عندما لا تجد فيها أصلاً وسبباً . إن مصالح الأمراء ، الذين تنارة يتحالفون ، وتارة يختلفون ، نسجت الورطة الإيطالية التي امتزجت فيها التعاملات الدبلوماسية التي يعقدها السفراء والعمليات التي يقودها العسكريون . ومع ذلك فإن السلام الموقع بين ميلانو والبندقية في لودي في ١٤٥٤ م ، بدأ أنه يفتح دور سلام لإيطاليا . وبعد بضعة أشهر ، انضم البابا وفلورنسا وملك نابولي إلى الأمراء لإبرام ميثاق الخمسة وعشرين عاماً (العصبة الإيطالية) . ولم تكن الأسباب لتعوز الأمراء الإيطاليين ليستكتوا تنافسهم . فلقد دوى فتح الأتراك للقسطنطينية كقصص الرعد في إيطاليا . وفي الحقيقة ، إن جهود نيقولا الخامس وكاليكست الثالث ويوس الثاني لتنظيم حملة صليبية لم تجد صدى في إيطاليا كما في باقي البلاد المسيحية ، وبادرت البندقية لعقد سياسة اتفاقات تجارية مع الأتراك . ولكن البنادقة لا يجهلون بأن الأتراك يمثلون بالنسبة لإمبراطوريتهم البحرية تهديداً فظيماً يتجسد بخسارة مورة (١٤٦٠ م) ، ونيفروبون (١٤٧٠ م) وكافا (١٤٧٥ م) وأوترانت (١٤٨٠ م) . والسبب الثاني يعود إلى خطر التدخل الأجنبي في إيطاليا . ففي ١٤٥٣ م ، تدخل ملك فرنسا شارل السابع والسابع في النزاع الذي كان يقسم شبه الجزيرة . وأكدت عصبة لودي على أن إيطاليا يجب أن تبقى للإيطاليين . وأخيراً إن وفاق ١٤٥٤ م كانت غايته الحفاظ بين الإمارات الإيطالية ، التي كانت قوتها متساوية تقريباً ، على توازن سياسي : فقد تعهد أعضاء العصبة أن يأتوا

لنجدة أي منهم يقع ضحية عدوان . وإذا لم تتوصل إيطاليا إلى توحيد نفسها ، فإن تقسيم النفوذ ترك لها على الأقل بعض الثبات والاستقرار .

ومع ذلك ، فبعد عشرين عاماً على توقيع ميثاق لودي ، مزقت الحروب شبه الجزيرة من جديد . إن قضية إيمولا التي أثارها تنفيعية سيكست الرابع ومؤامرة آل بازي ، التي كان لها فروع في روما ، نصبت فلورنسا والبابا الواحد ضد الآخر . وبينما كان الفلورانسيون مدعومين من البندقية وميلانو ، عقد البابا تحالفاً مع الملك فرّاند (١٤٧٨ م) وانقطعت عصبة السلام . وما كاد يعقد اتفاق في ١٤٨٠ م إلا ونشب خلاف آخر ، نشأ عن الشقاق بين البندقية وفراره (١٤٨١ - ١٤٨٤ م) . وأمام تألب ميلانو وفلورنسا و نابولي لم تجد صاحبة السيادة البندقية الجمهورية سلامتها إلا بتهديدها بدعوة ملك فرنسا لنجدها . وبعد عام ، أثار البابا خلافاً جديداً عاماً بمهاجمة الملك فرّاند ، بحجة أنه لم يؤد منذ زمن طويل الضريبة الحبرية . واصطفت فلورنسا وميلانو إلى جانب النابوليين (أهل نابولي) ، وفي هذه المرة تكلم البابا إينوسان الثامن بأن يدعو لمساعدته ملك فرنسا . وفي كل مرة تقترح فيها المساعدة ، يجنب اللجوء للدولة الأجنبية بفضل دبلوماسية لوران العظيم الحاذقة ، لأنه كان يدرك الخطر الذي يمثله على حرية إيطاليا . ولكن لوران العظيم مات في ١٤٩٢ م . وما من إرادة تعارض منذ ذلك الحين تطوراً كان في بداية نموه في الحالة الإيطالية . وبين أعضاء ميثاق لودي الذي ينادون عالياً « إيطاليا للإيطاليين » وجد بينهم أجنبي ، وهو ملك نابولي الآراغوني . أما فرّاند وارث ألفونس الشهم فقد ظل حتى الأعماق مرتبطاً بسياسة عمه جان الثاني الآراغوني ، ثم ابن عمه فرديناند الكاثوليكي . ولكن الأنجويين لم يتخلو عن تاجهم النابولي ، وإذا كان وراء فرّاند يوجد الآراغوني ، فوراء رونييه أنجو توجد فرنسا . وتكفي دعوة الأجنبي لتتحول إيطاليا برمتها إلى ساحة مغلقة للمنافسات الأورينية . وكان الأمراء الإيطاليون

يعتقدون بأنهم يستطيعون استعمال الحلف الأجنبي كسلاح يمكن طرحه فيما بعد حسب هواهم . وكان أقلهم وسوسة لودوفيك لومور الذي أثار تدخل الأجنبي : فليستولي على التاج الدوقي دون محذور ، كان عليه أن يحرض على ملك نابولي عدواً هائلاً : ولذا اختار ملك فرنسا شارل الثامن . وهذه الدعوة التي أطلقها في ١٤٩٤ م أثارت حروب إيطاليا الفظيعة .

ألمانيا وهوامش الجرمانية

تبدي ألمانيا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر منظرًا يشبه من عدة جهات منظر إيطاليا : ففي إطار إمبراطورية ليس لها إلا حقيقة اسمية وهمة تتفتح نعمة الإمارات .

أفول السلطة الإمبراطورية

إن أفول المؤسسة الإمبراطورية الذي تأيد في ١٣٥٦ م بالمرسوم الذهبي ، قد ثبت أكثر فأكثر . لقد كانت الإمبراطورية دون عاصمة ، دون إدارة ، ودون موارد خاصة باستثناء بعض التكاليف الضئيلة التي تدفعها المدن . لذا لم تكن غير منصب شرقي . وفقدت كل الجاه الديني الذي يخولها إشعاعاً عالمياً عاماً . كان فريديريك الثالث آخر ملك للرومانيين الذي كلف نفسه عناء الحجيء إلى روما بحشاً عن التاج الإمبراطوري (١٤٥٢ م) . والحادث ، الذي يختم رمزياً دوراً كاملاً من التاريخ الجرمانى ، لا يثير أي حركة ، لأن هذا المسعى لم يكن له أي أهمية سياسية . لقد كان الإمبراطور يتسلم منصبه بالانتخاب وحده ، وعليه أن يحسب حساب الأمراء الناخبين . وهؤلاء يعتبرون أنفسهم حلفاء للعاهل أكثر منهم رعايا له . ويعملون كسادة في داخل أرضهم ، ويققدم في ذلك سائر الأمراء الآخرين : وفي هذه الظروف لم يكن الإمبراطور غير رئيس لاتحاد

دول . ويرمز فيه إلى الوحدة ولكنه لا يحكم . وكان دياط الإمبراطورية (الرايخشتاع) يضم ثلاث هيئات : هيئة الناخبين ، هيئة الأمراء ، هيئة المدن ، وهو وحده يستطيع اتخاذ قرارات هامة تتعلق بالتشريع والضرائب والسياسة الخارجية . وقراراته تربط الإمبراطور . وإذا بقي من حيث المبدأ المصدر الأعلى للعدل ، فإن معظم القضايا تحتكرها المحاكم المتكاثرة في البلاد . وقضاء الاستئناف أمام المحكمة الإمبراطورية تخلى الناخبون طوعياً عنه ، وكذلك الأمراء الآخرون .

تفتت ألمانيا

لقد تغلبت القوى المبعدة عن المركز وتفتتت ألمانيا . ففي آخر العصر الوسيط حسب فيها ما يقرب من ٣٥٠ (دولة) . وكانت هذه الدول في الحقيقة متفاوتة السعة والأهمية : فإلى جانب المدن والإمارات الصغيرة ، التي تتبع الإمبراطور مباشرة ، أي التي تحكم نفسها بشكل مستقل ذاتياً وتضخم رقم المجموع ، لا يوجد إلا بعض عشرات من الإمارات الحقيقية . ولكن ينقصها الثبات والاستقرار . لقد كان معظم الأمراء غير قادرين على استغلال تفتت السلطة الإمبراطورية لصالحهم . ويبعدون قواهم ويسرفون مواردهم في منازعات عقية ينازع فيها بعضهم بعضاً . كانوا يعتبرون إمارتهم تركة ويتقاسمونها في كل خلف ، وهذا يزيد تجزئة البلاد الألمانية : ففي القرن الخامس عشر وجدت دوقية بافاريا مقسمة إلى أربع إمارات ، والبرنشتيك وممتلكات آل هابسبورغ إلى ثلاث . وأخيراً ، كان على الأمراء ، نظراً لفقدان الموارد الضرورية لإيجاد إدارة حقيقية أن يجابهوا معارضة (المجالس) حيث يجلس مندوبو الفرسان والمدن . والفرسان سواء كانوا داخلين في دولة أو حصلوا على التبعية المباشرة للإمبراطورية ، يتصرفون بإقطاعات قلت مواردها بحادث التطور الاقتصادي . ولما وصل بهم الأمر إلى الاستدانة والدمار ، بحثوا للبقاء عن تفاهم استغلال العالم الريفي أو أصبحوا قطاع طرق مثل الشهير غوتزفون برليشنغن . وفي كل

الأحوال ، عكروا النظام العام . أما المدن التي أفادت بالعكس بصورة عريضة من نهضة المبادلات التجارية ، فكان لها نظام متغير : فقد استطاعت بعض المدن ، مثل مدن الإمبراطورية أو المدن الكنسية أن تتحرر من الوصاية الأميرية ومثلت نفسها في دياط الإمبراطورية . ونظمت نفسها جميعاً تحت إدارة مجلس (RAT) يوزع ويفرض الرسوم البلدية ويؤمن السلطة القضائية على سكان المدينة . وكان الأمراء والفرسان يطعمون بثرواتها . وبين هذه القوى الثلاث كانت الخلافات أمراً مألوفاً . ونادراً ما ترفع أمام المحاكم . وفي هذه الفوضى العامة ، كان كل واحد ينزع إلى أن يأخذ حقه بيده ؛ ولإعادة السلام العام كان من الضروري إصلاح البنية السياسية للإمبراطورية . وكان هذا الإصلاح موضع مناقشات عديدة لم تؤد إلى أي نتيجة محسوسة . وفي الواقع ، إن الحل الوحيد الواقعي الذي يرجوه الإنسانون والشعب ، أي توطيد السلطة الملكية ، رده الأمراء بالإجماع لاهتمامهم بمصالحهم وحدها .

الآمال بنهضة جرمانية

ومع ذلك ففي آخر القرن الخامس عشر ظهرت بعض مؤشرات لتحسين في الوضع الألماني . ولم تأت هذه المؤشرات من الملكية وإنما من بعض البيوت الأميرية التي عظمت شوكتها . وهذه البيوت مازالت بعد غير قادرة على توحيد العالم الجرمانى من جديد . ومع ذلك كانت تجنب ألمانيا من أن تصبح كإيطاليا رهان المنازعات الأوربية . وبين الأمراء الألمان في القرن الخامس عشر ، وجد رجال لهم قيمتهم ، مثقفون ، وأهل لأن يكونوا لأنفسهم فكرة سامية عن الدولة وتوطيدها . لقد اعتمدوا على رأي عام ملّ الفوضى ، وعلى الشركات التجارية التي أمدتهم بالقروض ، فعمروا دومينهم ومهروا دولتهم بإدارة أقل بدائية من ذي قبل منسوخة عن إدارة فرنسا ، وبجيش قوي نافذ ، ونظموا ماليتهم . وأخيراً ، نشروا قواعد للوراثة من شأنها تجنب التقسيم : مثل آل فيتلسباخ في بافاريا والكونت

إيرهارد دو فرتامبرغ . على أن تقدم البيتين الأميرين بيت آل هوهنتسولرن وبيت آل هابسبورغ يستحقان عناية خاصة .

كان فريديريك دو هوهنتسولرن بورغراف نورامبرغ متواضعاً ، خدم بإخلاص سياسة الإمبراطور سيجموند الدينية وكافأه هذا الأخير بإعطائه مارغرافية براندبورغ التي وقعت ثمانية بين يديه . واكتفى فريديريك الأول (١٤١٥ - ١٤٤٠ م) وفريديريك الثاني (١٤٤٠ - ١٤٧٠ م) بتقوية وتأمين دوميניה . ولكن خلفها ألبرت - آشيل دو هوهنتسولرن ، وهو أمير موهوب يدعو إلى الإعجاب ، بدأ بتوسيع ممتلكاته من جهة بوميرانيا . وكان أحد مؤسسي الدولة البروسية في المستقبل .

ومنذ آخر العصر الوسيط كان حظ آل هابسبورغ وضاءً ، بفضل اللامبالاة التي تحيط الآن بالوظيفة الإمبراطورية ، وبفضل الانتخابات المتعاقبة ، احتكروا بشكل شبه وراثي التاج الملكي ، وبخاصة وسعوا بصردولهم الوراثية . وفي ١٤٣٧ ، انتقل بموجب معاهدة برون مجمل أموال آل لوكسمبورغ ، عدا براندبورغ ، من سيجموند إلى صهره ألبرت هابسبورغ ، دوق النمسا ، الذي انتخب ملك الرومانيين . وفي ١٤٣٩ ، عندما توفي ألبرت الثاني وانقسم الإرث ، اعترف بابنه الشاب لاديسلاس ملكاً على بوهيميا وهونغاريا . وبدأت هاتان المنطقتان تتطوران خارجاً عن الفلك الجرمانى . ومع ذلك فإن فريديريك شتيريا ، ابن عم ألبرت ، أصبح زعيماً لبيت هابسبورغ ولبس بدوره التاج الملكي (١٤٤٠ - ١٤٩٣) . وكانت أموال الأسرة التي ما زالت بعد مبعثرة بين عدة فروع : النمسا ، التيرول ، شتيريا ، الكارنيول ، وقسم من الألزاس ، تؤلف مجموعة هامة . ويقصد بها في الواقع المناطق التي تسيطر على المعابر الألبية والتي كانت ، من جهة أخرى ، غنية بالفلذات . وكان فريديريك عاهلاً مسالماً كسولاً ومهملاً . يهزأ به معاصروه غالباً . ولكنه كان مقتنعاً بأن الدبلوماسية أنجع من

الحرب . وما كان ليهتم بألمانيا ، ولكنه كان يهيئ ترتيبات تساعد على ضم مختلف ممتلكات الأسرة في كل متجانس . وحقق نجاحه الأعظم ، نحو الغرب ، بمفاوضات حاذقة مع أدواق بورغونيا وسبق أن أباطرة أسرة لوكسمبورغ كانوا قد اتخذوا حيالهم موقفاً معادياً ، حتى أنهم تحالفوا مع الملك شارل السابع ضد فيليب الطيب ، والسبب في ذلك بسيط : فقد كسب دوق بورغونيا ، وبفضل اتصالات زواج ، عدة امارات في البلاد المنخفضة قد تعود للإمبراطور ، إثر انطفاء نسل الذكور في سلالاتها . وبخاصة تبني فريديريك الثالث سياسة مختلفة جداً : اعترف بالمكاسب التي حققها فيليب الطيب وخلفه شارل الجريء . ولمح إليهما بإنشاء ممكن لمملكة بورغونيا تابعة للإمبراطورية وترك شارل الجريء يأمل بأن بإمكانه أن يخلفه على عرش الإمبراطورية . ودون أن يتعهد تماماً ، ومقابل وعود غامضة ، حصل فريديريك الثالث لابنه ماكسميليان على يد الوارثة لبورغونيا ، مارية . وبعد موت شارل الجريء (كانون الثاني ١٤٧٧ م) انتقلت كل أملاكه ، باستثناء دوقية بورغونيا الأصلية ومدن السوم التي كسبها لويس الحادي عشر ، إلى آل هابسبورغ . وهكذا أصبحت دولتهم من أقوى سلطات الغرب . وتنبأ فريديريك الثالث بمستقبل بيته وأطلق شعاره العزيز العالي : (A.E.I.O.U) وهذا يعني بالألمانية (Alles Erdreich Ist Oesterreich Untertan) أو باللاتينية : (Austriacae Est Imperare Orbi Universo) أي أن تعود إلى النسا السيطرة على العالم . وكان أرشيدوق النسا ، الإمبراطور منذ ١٤٩٣ م ، ماكسميليان (١٤٩٣ - ١٥١٩ م) أول سلالة كبار عواهل آل هابسبورغ . وقد ورث من أبيه طبعه المتردد والمتقلب بالإضافة إلى إشرافه الجنوبي . ولكنه كان ملكاً عظيماً جداً .

وهذا الأمير الفارس الذي يحمي الفنانين والعلماء بدا أيضاً سياسياً حاذقاً : فقد جمع كل تركة أسرته بين يديه وأعلن أنها غير قابلة للقسمة . لقد كان بحق مؤسساً لنفوذ وسيطرة آل هابسبورغ .

الشغور الشرقية والشمالية في أوربة الكاثوليكية

بالرغم من هذه التحويلات التي هيأت لبعض الإمارات الألمانية مستقبلاً لامعاً ، فإن ضعف الإمبراطورية كانت نتيجته المباشرة تشكيل دول قومية وانحسار النفوذ الجرمانى .

أوربة الشرقية

وهذا الانحسار في الغالب محسوس في شرقي البلاد ، التي تؤلف أمام الروس الأرثوذكس والأتراك المسلمين ، ثغور المسيحية الرومانية . وتؤلف هونغاريا المثال الأول . فنذ انطفاء السلالة القومية لآل أربادين (١٣٠٨ م) أصبح تاج القديس - إيتين رهان منازعات بين عدة بيوت أميرية في أوربة . وبعد قرن مضى تحت إدارة العواهل الأنجوفيين (١٣٠٨ - ١٣٨٢ م) ، دخل في حوزة سيجيسموند دو لوكسمبورغ الذي أورثه آل هابسبورغ مع مجموع أملاكه . وبدا مصير هونغاريا منذ ذلك الحين مرتبطاً بمصير النمسا ، وهذا وضع ملائم لتقدم الجرمانية في هذه المناطق . وستمنح الظروف مع ذلك إلى هونغاريا قرناً أيضاً من الاستقلال القومي . فقد اصطدمت سلطة الأباطرة الجرمانيين أولاً بوجود طبقة من كبار الملاكين النبلاء ، الماغنات الذين عظمتم سلطتهم بفضل المنازعات السلالية . وبخاصة إن عدم كفاءة بيت النمسا ممثلاً بآلبرت الثاني ولاديسلاس أمام الخطر التركي ، فرض زعيماً قومياً في شخص الماغنا جان هونياد وكان هذا مكلفاً باسم لاديسلاس الشاب ، تأمين حكم البلاد . وعظم دوره بقرب الجيوش التركية التي اجتمعت صربيا وهددت مدينة بلغراد . وبنتيجة هذا النصر ، أصبح هونياد بطلاً قومياً . وعند وفاته نودي بابنه ماتياس كورفن وله من العمر خمسة عشر عاماً فقط ، ملكاً (١٤٥٨ - ١٤٩٠ م) . كان رئيساً عسكرياً كبيراً ، ورجل دولة مستنيراً ، وإنسانياً متميزاً ، ترأس مصير هونغاريا المستقلة والمزدهرة . وفتحت وفاته أزمة سلالية جديدة : فقد عاد تاج القديس - إيتين

إلى أمير پولوني ؛ وكانت هونغاريا مأخوذة بين خطرين ، خطر أن تصبح تابعة لبولونيا ، وخطر أن تكون فتحاً جديداً للإمبراطورية العثمانية . وما لبثت أن ضحت باستقلالها ووضعت نفسها لعدة قرون تحت وصاية آل هابسبورغ .

وتاريخ بوهيميا في عدة نقاط مواز لتاريخ هونغاريا ، فبعد انطفاء السلالة القومية ، سلالة آل برييسليد (١٢٨٣ م) انتقلت هي أيضاً إلى أيدي آل لوكسمبورغ . ولكن العاطفة القومية تبلورت في بوهيميا بفضل خلافات دينية : لقد كانت الهرطقة الهوسية أيضاً رد فعل ضد الضريبة الخيرية كما هي ضد السيطرة الجرمانية . وكانت الحركة عنيفة جداً حتى أنها اضطرت أخيراً البابا والإمبراطور إلى القيام بتنازلات . لقد أمنت الكومباكتاتا (١٤٣٦ م) لبوهيميا نوعاً من استقلال ذاتي ديني . وخرجت البلاد متحولة بالأزمة : فقد ارتفع مستوى أكليروسها .. ووجدت اللغة التشيكية كل حقوقها . وهكذا تفتحت حضارة لامعة . ومن جهة أخرى ضعفت سلطة العاهل بشكل عظيم أمام طبقة نبيلة نقادة مشاكسة ومعاكسة . وهكذا فإن الشاب لاديسلاس هابسبورغ ، الذي ورث بعد أبيه تاج بوهيميا ، الذي أورثه إياه بيت آل لوكسمبورغ لم يستطع أن ينتخب ملكاً على بوهيميا إلا مقابل (امتيازات) تمنح الطبقة النبيلة المحلية امتيازات عظيمة . وغداة وفاته (١٤٥٧ م) ، أعطيت بوهيميا عاهلاً قومياً ، جورج دو بودريبرادي (١٤٥٨ - ١٤٧١ م) . وفي عهد هذا الملك المحب للسلام الذي يحلم بتأسيس جمعية أمم مسيحية لمواجهة التهديد التركي ، بدأ أن الهرطقة تولد من جديد . فمن ذلك أن فلاحاً قليل التعليم ولكنه كان تلميذاً لجان هوس ، وهو بيير شليشي ، كان في أصل تأسيس وحدة الإخوة التشيكيين التي انفصلت عن الكنيسة الرومانية . وكان على جورج دو بودريبرادي أن يناضل ضد هونغاريا التي أطلقها البابا ضده . وعند وفاته ، كانت حالة البلاد مضطربة : فقد تحركت الطبقة النبيلة القوية الشوكة ، ورفضت أن تنتخب ماتياس هونغاريا ، صهر

العاهل الراحل ، وقدمت التاج للأمير بولوني وهو لاديسلاس جاجلون . ولم تعرف بوهيميا كيف تستفيد من ظرف ملائم لتثبيت استقلالها القومي .

بولونيا

لقد ضمت بولونيا في آخر القرن بوهيميا وهونغاريا تحت إدارتها ، وكانت قطعاً المملكة التي أفادت من أفول النفوذ الجرمانى في أوربة الشرقية . وترجع سلطتها إلى اتحادها مع ليتوانيا الذي تحقق في ١٣٦٨ م تحت إدارة سلالة آل جاجلون . فقد استطاع هؤلاء العواهل أن يخدموا طبقة نبيلة قلما تيل إلى الطاعة . ومع مشاركتهم في النضال ضد الأتراك الذي امتاز به لاديسلاس السادس الذي مات بمجد أمام قارنا في ١٤٤٤ م ، كانوا يناضلون بصورة أساسية في الغرب ضد الدفع الجرمانى . وقد صلبت نتائج انتصار تاتنبرغ المدوي الذي سحق فيه الفرسان التوتونيون ، بفضل كازيمير الرابع (١٤٤٧ - ١٤٩٢ م) : وحقق هذا انتصارات جديدة مثل نصر مارينبورغ (١٤٥٧ و ١٤٦٠ م) ، وفي سلام (تورن) أجبر النظام التوتوني على تسليم كل أراضيهِ إلى بولونيا ، باستثناء بروسيا الشرقية التي احتفظ بها كتابع للملك بولونيا (١٤٦٦ م) . وهكذا كانت بولونيا ، تحت قيادة آل جاجلون في أوج سلطتها . وبدافع من نشاط اقتصادي شديد ، امتد نفوذها من الأدرياتيك إلى الدنيبر ومن البالطيك إلى البحر الأسود . وكانت جامعة كراكوفيا مركزاً لامعاً للآداب الإنسانية . وعن تقدم العاطفة القومية يشهد أيضاً (تاريخ بولونيا) الذي أصدره رئيس الكهنة لونجينوس في ١٤٨٠ م . ومنذ هذا العصر بدأ يظهر رد فعل الطبقة النبيلة ضد السلطة الملكية ومع الزمن أصبح خطراً .

وهكذا ، في شرق أوربة الكاثوليكية ، تشكلت على حساب الجرمانية ثلاث دول قومية : وكان ينقص كل واحدة منها وجود نظم ملكية قوية بشكل كاف لتحشد بشكل دائم الطاقات القومية التي بعثتها الثورة غير المنظمة التي قامت بها

الطبقة النبيلة المشاغبة . وهكذا فإن هونغاريا التي أثقل عليها بشكل مقلق التهديد التركي ، كما أثقل على بوهيميا ، ستضطربان أخيراً منذ بداية القرن التالي إلى الدوران من جديد في فلك الدولة النمساوية . أما بالنسبة إلى بولونيا فأمامها بعد قرن لامع من الاستقلال .

أوروبا الشمالية

لقد أخذ تطور البلاد الشمالية ، التي استيقظت فيها أيضاً عواطف قومية ، مظهراً أكثر تعقيداً في آخر القرن الخامس عشر . إن النفوذ الألماني ، الظاهر بخاصة في الصعيد الاقتصادي ، ظل شديداً أكثر مما في مناطق أوروبا الشرقية . وإن كريستيان الأول دولدنبورغ الذي وطد لصالحه وحدة الممالك الثلاث وأحيا من جديد اتحاد كالمار ، حاول أن يعاكسه ، ولذا أسس جامعة كوبنهاغن لمنع الأكليروس من الذهاب والدراسة في المدارس الألمانية ، ولكنه لم يستطع أن ينتزع إسكاندينافيا من النفوذ التجاري لمدن الهانز الجرمانية . ورد الفعل ، الذي ظهر عندئذ في البلاد الشمالية ، كان موجهاً ضد الدانمارك التي فرضت اتحاداً كانت المستفيد الأساسي منه .

كان كريستيان الأول آخر عاهل دانماركي جمع إلى تاج السدانمارك (١٤٤٨ م) تاج النرويج (١٤٤٩ م) وتاج السويد في (١٤٥٧ م) . وفي ١٤٧١ م أحرز حزب الاستقلال السويدي في برونكبرغ نصراً حاسماً طرد الملك الأجنبي . وأخذ الزعيم القومي شتن شتور بيده مقاليد الأمور في البلاد . ومنذ هذا الحين ارتسمت لعدة قرون الجغرافيا السياسية للعالم الإسكاندينافي : لقد قسم هذا العالم بين مملكتين لا تنطبق حدودهما تماماً مع حدود الجماعات القومية . ولكنها ألقت تحت إدارة الملكيات السلطوية دولاً ذات بنية ثابتة ، والسويد التي تحافظ على سيطرتها على فنلندا ، تهيأت لتصبح في عهد خلفاء الملك غوستاف

فازا ١٥٢٣ م دولة كبرى . أما الدانمارك ، التي كان ملكها هانس بن كريستيان الأول ، ومهرها بأسطول حربي عظيم ، فقد احتفظت في تبعيتها بالنورفيج وأفادت من نهوض اقتصادي واسع .

أوربة الدول القومية

من الجزر البريطانية إلى شبه الجزيرة الإيبيرية ، أخذت أوربة الغربية سياها السياسية الحديثة . ففي إسبانيا وإنكلترا ، كما في فرنسا ، يرى ملوك أقوياء يناضلون ضد القوى الخارجة عن المركز التي تغرق ممالكهم في آخر أزمات العصر الوسيط ، قد أنجزوا حولهم جمع دول قومية ونظموها بقوة وصلابة .

تشكيل الملكية الإسبانية

في منتصف القرن الخامس عشر ظلت شبه الجزيرة الإيبيرية مقسمة إلى ثلاث ممالك : القشتالة ، الأراغونة ، البرتغال ، بدت تتجه في سياق القرن السابق نحو مصائر مختلفة . وبالرغم من الظواهر تهيأت الوحدة .

قشتالة

كانت قشتالة مهيأة لتأخذ فيها دور التوجيه ، وواقعة في وسط شبه الجزيرة . وبدأت تفيد من النهوض الاقتصادي ، الذي تفوقت به واجهاتها البحرية على المحيط الأطلسي .

إن البورجوازية التي تعززت سلطتها على هذا النحو وتلعب في الكورتيسات دوراً هاماً ، كانت ترغب فيه أن تدعم توطيد سلطة ملكية قوية ومركزية ضد الطبقة النبيلة المشاغبة دوماً . وأخيراً ، إن قشتالة التي ظلت وحدها تناضل في القرن الرابع عشر ضد المسلمين ، كانت تتمتع في شبه الجزيرة كلها بجاه ديني عظيم . ومع ذلك فقد وجدت عقبات تقاوم مع ذلك تحقيق الوحدة تحت

الإدارية القشتالية . فهي توجد أولاً في داخل المملكة نفسها ؛ فالنظام الملكي فسد بعواهل ضعفاء أو موضع جدل ، كان حكمهم في صالح كبار المملكة ولتحريرهم ؛ فقد كان جان الثاني البليد المهمل (١٤٠٦ - ١٤٥٤ م) وابنه هنري الرابع غير قادرين على قمع ثورات الطبقة النبيلة التي أفلقت البلاد . وإلى هذه الحالة البائسة أضيفت من بعد قضية سلالية خطيرة : وهي أن الملكة جان تزوجت هنري الرابع . وولدت منه بنتاً ، أميرة ، أطلق عليها أيضاً اسم جان ولكن الإشاعة لم تنسب أبوة البنت إلى هنري الملقب بالعاجز وإنما إلى محظي الملكة بلتران دو لا قونقة . وإذا كانت جان بنتاً غير شرعية فالتاج يرجع إلى أخت الملك إيزابل . وبتأثير الضغوط التي مورست عليه ، غير هنري الرابع مراراً عديدة أحكامه الوراثية ففاقم بذلك الاضطراب العام . وانقسمت الطبقة النبيلة إلى فئتين : بعضهم دعم قضية جان (البلترانية) ؛ والآخرين قضية إيزابل . وقامت حرب أهلية كان الملك فيها في موضع حرج ومزقت البلاد وعرضتها للفوضى .

وتجاوزت قضية الوراثة حدود قشتالة . وفي الواقع ، تزوجت إيزابل ابن عمها فرديناند ، وارث تاج أراغونه (١٤٦٩ م) بينما عرض ملك البرتغال ألفونس الخامس على البنت جان أن يتزوجها ويدعم قضيتها . وفي ختام الخلاف السلالي الذي اختلفت فيه البنتان يتعلق الشكل الخارجي السياسي لمستقبل شبه الجزيرة حسباً تتحد قشتالة بالبرتغال أو بأراغونة .

البرتغال وأراغونة

ماهي حظوظ البرتغال ؟ كان فيها استقرار سياسي عظيم ، مبني على تنظيم إداري ممتاز وضعه لها عواهلها . وتم هذا العمل في عهد ألفونس الخامس (١٤٣٨ - ١٤٨١ م) وجان الثاني (١٤٨١ - ١٤٩٥ م) : إن (البراءات الألفونسية) تقنن التشريع البرتغالي في اتجاه تعزيز الدولة الملكية وذلك بإيجاد مكان لدور الكورتيسات التشريعي . فقد أخذ جان الثاني آخر هزة ثورة للطبقة

النبيلة بإعدامه المحرك الأساسي فرديناند دو براغانس . ولكن البرتغال ولت
ظهرها أكثر فأكثر لشبه الجزيرة وكرست نفسها لميلها البحري . وعلى العكس ،
مملكة أراغونة التي تأثر نشاطها التجاري في البحر المتوسط بظهور الأتراك وبنو
القرصنة في إفريقيا الشمالية ، انسأقت في حشر نفسها عن عزم في الشؤون
الإسبانية . وفي الحقيقة ، إن المملكة الأراغونية اجتازت أزمة داخلية خطيرة
أضعفتها بشكل خطر . وبفضل الغياب الطويل لألفونسو الشهيم الذي قضى كل
حكمه في دومينه في نابولي ، استولى كورتيسات كاتالونيا على السلطة . وأثار موت
العاهل ، في ١٤٥٨ م ، أزمة زادت تفاقمًا شؤون ناغار . وكان جان الثاني ، الملك
الجديد ، قد تزوج بلانش دو ناغار والابن الذي ولد من هذا الزواج ، شارل ،
ورث مملكة البيرينه الصغيرة . وانفجر خلاف بين الأب والابن ، وتحزبت
الكاتالونيا لهذا الأخير ، وثار على الملك واضطرته إلى تنازلات خولها في
امتيازات فيلافرانكا في ١٤٦١ م . وإثر موت الأمير شارل سرت في الجمهور إشاعة
أن الملك مسؤول عن ذلك ، فأشعلت ثورة حقيقية . وقدمت البورجوازية
الكاتالانية التاج الكونتي إلى الملك رونييه دأنجو ، العدو السابق للأمراء
الآراغونيين . وحافظ جان الثاني على مساندة القسم الأعظم من الطبقة النبيلة ،
والفلاحين . ولكن الحالة كانت خطيرة جداً ، حتى أن الملك لويس
الحادي عشر ، ملك فرنسا ، كان حكماً على الحالة : وحاول جان الثاني نفسه عبثاً
أن يتصالح مع ملك فرنسا وذلك بأن يترك له روسييون . ولكن ملك فرنسا دعم
على الأقل الحملة التي أطلقها ابن رونييه دأنجو ضد بارشلونة . وانضم الغزو الأجنبي
إلى الحرب الأهلية لإغراق البلاد خلال عشرة أعوام في الفوضى . وأخيراً ، استغل
الدبلوماسي الحاذق جان الثاني السأم العام ونجح في إخضاع بارشلونة (١٤٧٢ م)
وأعلن الملك عفواً عاماً وصادق على الامتيازات الكاتالانية وأرجع وحدة المملكة
حول شخصه . وهذه المنازعات لم تمنعه من العمل على تحقيق الوحدة الإسبانية .
فهو الذي عرف كيف يدبر زواج ابنه ووارثه فرديناند بإيزابل قشتالة .

وعندما فتحت ، ب وفاة هنري الرابع ، قضية وراثة قشتالة ، في ١٤٧٤ م ، أطلقت البرتغال والأراغونة قواهما في النزاع . فصد جانّ التي يدعّمها قسم من الطبقة النبيلة القشتالية وألفونس الخامس ملك البرتغال ، اعترفت الكورتيسات بإيزابل واعتمدت على الجيش الأراغوني لزوجها وناضلت أيضاً أربعة أعوام قبل تحقيق النصر . وبمعاهدة الكاسوفاس (أيلول ١٤٧٩ م) رضخت البرتغال ، ولم تعد تهتم بشؤون شبه الجزيرة ، وانطلقت بحماسة في مغامرة المحيط الأطلسي .

اتحاد أراغونة وقشتالة

من اتحاد المملكتين القشتالية والأراغونية ولدت إسبانيا الحديثة . وأصبح فرديناند ملك أراغونة عند وفاة أبيه (١٤٧٩ م) وحكم وإيزابل معاً ، وخدمها في ذلك إشعاع شخصيتها .

وهذا الاتحاد الشخصي بين الملكين لا يعني مع ذلك توحيد الأراضي التي يحكمها . لقد حافظت كل من المملكتين على نظمها الخاصة ولكن الانحاء الاقتصادي لكاتالونيا أعطى في الواقع لقشتالة دور التوجيه . وعمل الملكان على تحقيق الوحدة الإسبانية ، بتوطيد السلطة الملكية أولاً : ففي قشتالة بخاصة ، خمدت نأمة الطبقة النبيلة ووضعت الكورتيسات تحت الوصاية بينما أقيم الكوروجيدورات ، نوع من المفتشين الملكيين ، في كل مكان . وتم تجمع الأمة الإسبانية أيضاً بفضل المشاريع المشتركة في المملكتين ، ثم إرجاع روسيون بالحصول عليها من ملك فرنسا ، وبخاصة اتجهت الطاقات نحو إنهاء الاسترداد الذي انقطع منذ زمن طويل . ففي ١٤٩٢ م ، أدى أخذ غرناطة إلى زوال آخر جزء من النفوذ الإسلامي على التراب الإسباني . وأعلم فرديناند البابا إينوسان الثامن بالخبر بحماسة .

وبتأصيل العاطفة القومية مع الإيمان المسيحي والأصولية الكاثوليكية حاول

الملك تحقيق الوحدة الإسبانية . وفي الحقيقة ، لقد عاودا النضال ضد المسلمين والهراطقة ، ولم يجمعوا وراءهم الأكليروس القلق على الإيمان ، فحسب ، وإنما الجماهير الشعبية الحاسدة لنفوذ اليهود في أوساط المجتمع العليا وللنجاح الأكثر تواضعاً للحرفيين والفلاحين المسلمين . وبشكل له دلالاته ، كانت سنة سقوط غرناطة السنة التي بدأت فيها حملة الصبء القهري ضد اليهود والمدجنين ، الموديجار (المسلمون الذين لم يرتدوا عن دينهم) . وصدرت براءة ٣٠ آذار ١٤٩٢ م وأمهلت اليهود في كل المملكة أربعة أشهر ليرتدوا عن دينهم ويقبلوا التعميد أو يغادروا المملكة . وفي هذه الحالة ليس لهم حق في أن يبيعوا عائلاتهم أو يأخذوا معهم الذهب والفضة . وغادر مئتا ألف يهودي إلى البرتغال ، ونافار وإيطاليا أو إفريقيا الشمالية . وبالرغم من الوعود المقطوعة أثناء استسلام غرناطة ، سلك الإسبان سياسة مماثلة ضد المسلمين . وفي الوقت نفسه نظم مجمع الكرادلة من جديد محكمة التفتيش القديمة ، ولاحق المرتدين المشبوهين . وانطلق لتوحيد شبه الجزيرة بالعاطفة الدينية . وسيتحقق لصالح ورثة الزوجين الملكيين ، ابنتها جان وبخاصة حفيدهما شارل ، شارل كنت المستقبل . وأخيراً في هذه السنة ١٤٩٢ م ، فتح ملاح إيطالي دخل في خدمة إيزابل ، للمغامرين الإسبان والمبشرين ، طرق العالم الجديد ، حيث امتدت الإمبراطورية الإسبانية . وهكذا فإن حكم (الملكيين الكاثوليكين) ، الذي يختم العصر الوسيط في تاريخ إيبيريا هياً لإسبانيا الحديثة عصرًا ظافراً .

إنكلترا

لقد طردت إنكلترا بهزائم فورميني (١٤٤٩ م) وكاستيون (١٤٥٣ م) من القارة ولم تحتفظ إلا بمدينة واحدة وهي مدينة كاليه . وهكذا انفصل مصر إنكلترا عن مصر فرنسا بعد أن ربطهما انتصار هاستينغس منذ أربعة قرون . لقد كان انهيار الإمبراطورية الإنكليزية - الفرنسية لآل بلانتاجونيه في الواقع تحريراً

إنكلترا . وفي داخل الوحدة الجغرافية التي تمثلها الجزر البريطانية أصبح بإمكان الشعب الإنكليزي أن يتشكل في أمة متجانسة حول سلالة قومية وينظم نفسه في إطار دولة حديثة . وهذا التعديل لا يمكن أن يجري دون أزمة . وفي الحاضر المباشر ، تسيطر على المعاصرين الحرارة والغضب ضد العواهل الذين كانوا غير قادرين على تجنب الهزيمة . ولذلك فتحت أزمة نصبت ، ضد آل لانكاستر القائمين على السلطة ، فرعاً من أسرة بلانتاجونيه ، وهو فرع آل يورك . ولكن التاج ، الذي يتنازع عليه آل لانكاستر ، ورمزهم الوردة الحمراء ، وآل يورك حملة الوردة البيضاء ، لم يكن الرهان الوحيد في الصراع . وتحت هذا النزاع السلالي ، قلبت أزمة اجتماعية إنكلترا وفاقت هذا النزاع ومددته . إن الطبقة الأرستقراطية المحرومة بشكل فج من الإقطاعات والموارد التي تحصل عليها من الأراضي المحتلة على القارة ، حاولت أن تجد تعويضاً بالاستيلاء على السلطة . وهكذا وضعت السلطة الملكية على بساط البحث ومعها إمكان إنكلترا بأن تصبح دولة قوية .

لقد رفع هنري لانكاستر إلى السلطة بعاطفة قومية ، وخلع في ١٣٩٩ م ابن عمه ريتشارد الثاني المحب للسلام كثيراً . والاتصارات التي أحرزها على القارة هنري الخامس تبرر الاغتصاب الذي ارتكبه بيت آل لانكاستر . والهزائم التي تراكمت في حكم هنري السادس أفقدته الثقة به . ومنذ هذا الحين فإن الحقوق بالتاج للملك الضعيف وغير الكفء ، هنري السادس ، الذي سيطرت عليه زوجته الفرنسية مارغريت دأنجو ، وضعت موضع شك . أفلا تعين خلافة النسب للعرش ذرية إدموند يورك بدلاً عن ذرية جان دو لانكاستر . انقسمت الطبقة النبيلة : فأمام الحزب الذي يدعم هنري السادس وقف حزب يوجهه دوق وارويك الذي تحزب لريتشارد يورك . وقام نزاع حاقدموي لاتنقصه الخيانات ولا انقلابات التحالف .

أثار دوق يورك ، ريتشارد ، النزاع ، زاعماً بأن يفرض نفسه وارثاً على

هنري السادس . وحصل على لقب (الحامي) . ولكن إلى جانب هنري السادس الذي كان عقله مغلخاً كعقل جده ، ملك فرنسا شارل السادس ، كانت الملكة ساهرة ، وجابهت التهديد بقوة . ونشبت الحرب بين السلالتين ولكن نهايتها ظلت خلال عدة أشهر غير أكيدة : لقد أحرز ريتشارد في شهر تموز ١٤٦٠ م نصراً في نورثامبتون ، ولكنه في شهر كانون الأول من السنة نفسها غلب وقتل في ويكفيلد . وعاد ابنه إدوارد النزاع معتداً على كونت ورويك وتمكن من القبض على شخص هنري السادس وسجنه في برج لندن ، بينما فرت الملكة مارغريت . وبتتويج إدوارد الرابع ملكاً في ١٤٦١ م ، انتصر آل يورك . وفي الواقع كان ورويك يقبض على السلطة ولكن إدوارد فيما بعد أراد أن يتحرر من وصايته وتزوج فتاة تنسب إلى الأسرة المنافسة لأسرة ورويك وهي أسرة وودويل . عندئذ غير ورويك المعسكر بشدة . وتصالح مع مرغريت دأنجو ، بفضل المساعي الحميدة التي بذلها الملك لويس الحادي عشر ، ونجح في إعادة البائس هنري السادس إلى العرش (تشرين الأول ١٤٧٠ م) . وجاء دور إدوارد الرابع للفرار . وانتصرت الوردة الحمراء لآل لانكاستر . ولكن ورويك (صانع الملوك) دوماً هو الذي يحكم . وأراد لويس الحادي عشر أن يدفع له ثمن المساندة التي قدمها : لقد أراد أن يعقد ضد عدوه ، دوق بورغونيا ، تألباً إنكليزياً - فرنسياً ، ولم ينجح إلا في قيام الحرب الأهلية من جديد في إنكلترا ، كما أشار إلى ذلك المؤرخ الإخباري توماس بازين .

عبر إدوارد الرابع المضيق ، في نيسان ١٤٧١ م ، يدعمه في ذلك ابن حميه وحليفه الطبيعي ، شارل الجريء . وقعت المعركة في بارنه حيث هلك ورويك (نيسان ١٤٧١ م) وفي تيوكسبري (أيار ١٤٧١ م) حيث أخذت مارغريت أنجو أسيرة وأعدم ابنها . وأمنت هاتان المعركتان نهائياً العرش لإدوارد الرابع الذي أزال خصمه في السجن ، وكرستا هزيمة آل لانكاستر .

وفي هذه المرة وجدت الحوادث الإنكليزية انعكاساتها في فرنسا . فمقابل المساعدة التي قدمها دوق بورغونيا ، تعهد إدوارد الرابع باستئناف النزاع ضد ملك فرنسا . وأمنه شارل الجريء بأنه ما أن يصل الأرض الفرنسية حتى تثور الطبقة النبيلة ضد لويس الحادي عشر ، وإن نزهة عسكرية حتى مدينة رنس تساعد له للذهاب إليها وقبول تاج فرنسا . نزل إدوارد الرابع في كالييه ، في ٤ تموز ١٤٧٥ م ، ولكنه لاقى في الحال المصاعب : إن سن - كاتن ، التي اعتقد بأنها معه ، قاومت . ومن جهة أخرى ، اشتبك شارل الجريء مع دوق اللورين فترك لإدوارد كل ثقل النضال ضد فرنسا . وكان إدوارد واقعياً ولا يريد أن يضحي بحياة اللذائذ التي يحبها لتاج فرضي . وفي ١٤ آب ، دخل في محادثات في ديث مع مبعوثي لويس الحادي عشر . وفي ١٩ آب أقسم الحزبان في بيكينني على السوم على احترام المقترحات التي اتفقا عليها . وباختصار ، إن إدوارد تلقى مقابل إبحاره وعودته إلى إنكلترا مبلغ ٧٥٠٠٠ إيكو تمثل نفقات الحرب ووعد بصداقته مقابل مرتب مدى الحياة قدره ٥٠٠٠٠ إيكو تعهد بدفعها له ملك فرنسا . وهذا الاتفاق المقبول طوعاً أنهى عملياً حرب المئة عام .

وعندما عاد إدوارد الرابع إلى إنكلترا ، حدد مطامعه في التمتع بأسباب الحياة وسط بلاط فرح وفاسد . ولم يقف أي عائق أمام تحقيق هذا البرنامج : لقد هلكت الطبقة النبيلة بحرب الوردتين ، وهذه الحرب ، بالعكس ، شجعت العنصر البورجوازي الذي أفاد من نهضة البلاد الاقتصادية . لقد تركت البورجوازية السلطة التشريعية ، واهتمت ، في داخل مجلس العموم الذي تمثلت فيه ، بمراقبة أموال المملكة بصورة أساسية . وبفضل المعونات الفرنسية كانت طلبات الملك إدوارد من المال في البرلمان قليلة الأهمية ، الأمر الذي شجع حسن التفاهم بين العاهل وبرلمانه .

ومع ذلك فإن إنكلترا لم تنته من الأزمات السلائية . إن موت إدوارد الرابع

قبل أوأنه (نيسان ١٤٨٣ م) ترك العرش لابن عمره اثنا عشر عاماً ، وهو إدوارد الخامس . واستحوذ أخو المليك الراحل ، ريتشارد دو غلوسستر على الملك الفتى وأخيه : وحبس (ولدي إدوارد) في برج لندن ، واعتبرها ابنين غير شرعيين وأعطى التاج لنفسه بطريق برلمان مباشر . ثم تخلص من ابني أخيه بقتلهما . ومع ذلك كان حكم الملك القاتل قصير الأمد جداً (١٤٨٣ - ١٤٨٥ م) . فقد قام ضد مطالب جديد ، هنري تيودور . وهو ينتسب من جهة أمه إلى بيت آل لانكاستر ، وحليف بزواجه إلى بيت آل يورك . وبذا حصل على دعم الحزبين الكبيرين اللذين قسا إنكلترا خلال ثلاثين عاماً . وأمكنها أن يتصالحا في شخصه . حصل في بوزورث (٢٢ آب ١٤٨٥ م) على نصر حاسم على ريتشارد الثالث الذي قتل في المعركة . ورفع هنري السابع (١٤٨٥ - ١٥٠٩ م) إلى السلطة برغبة الأمة بكاملها بالسلام ، ووطد بشكل حازم جداً سلطته ، وأسس سلالة صنعت في المستقبل عظمة إنكلترا في القرن السادس عشر . وتعرزت السلطة الملكية وأصبح بإمكانها إنهاء تجميع الجزر البريطانية ، وضم إيكوسيا التي مازالت مستقلة بعد وإيرلاندة الخاضعة بشكل سيء دوماً في آخر العصر الوسيط ، في مملكة متحدة ، بريطانيا العظمى .

فرنسا

لقد تجمعت الأمة الفرنسية وراء الملك شارل السابع بحماسة وطنية جديدة تماماً . واستطاع هذا الملك أن يحرر البلاد من الاحتلال الإنكليزي . ومع ذلك فإن مملكة فرنسا التي دمرتها الحرب ، لم تجد بعد توازنها في منتصف القرن الخامس عشر . والوحدة الفرنسية لم تتحقق بحق ، لأن السلطة الملكية لا تحكم في كل مكان دون تقسيم . وهكذا فإن دوق بورغونيا ، الذي تصالح مع ملك فرنسا ، وبدا أن هذه المصالحة ضعيفة ، كان سيداً على مجموعة أراضي تشكل دولة في دولة وتقنحه سلطة أعلى من سلطة عاهل المملكة . ومن جهة أخرى ، مامن

معاهدة أنهت الحرب مع إنكلترا : إن هنري السادس ظل يسمي نفسه في أعماله الرسمية (ملك فرنسا وإنكلترا) وترك التهديد يثقل بعودة الحرب من جديد . إلا أن ملوك فرنسا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، شارل السابع في آخر حكمه (مات في ١٤٦١ م) ، لولويس الحادي عشر بخاصة (١٤٦١ - ١٤٨٣ م) ، وأخيراً ، باسم الشاب شارل الثامن ، الوصيان : آن وبيير دو بوجو (١٤٨٣ - ١٤٩٢ م) ، كانوا يعملون على عودة السلطة الملكية وإنجاز الوحدة الفرنسية بوضع حد نهائي لحرب المئة عام .

فرنسا في آخر حكم شارل السابع

كانت فرنسا ١٤٥٠ م فرنسا الإقطاعية أيضاً . والدومين الملكي ، أي مجموع الأراضي التي تمارس عليها سلطة العاهل مباشرة ، دون وساطة كبار الإقطاعيين ، ضيق المساحة نسبياً . وهو على كل حال أقل امتداداً مما كان في بداية القرن الرابع عشر . وباقي البلاد مؤلف من إقطاعات كبيرة مجموعة في أيدي بعض العائلات القوية . كان بيت بورغونيا يملك أموالاً عظيمة على جانبي الحدود التي تفصل في الشمال الشرقي الإمبراطورية والمملكة . وهذه الأموال تشكل فئتين متميزتين يفصل بينهما اللورين والشامبانيا ؛ في داخل القارة كوتية ودوقية بورغونيا يضاف لهما الشاروليه والماكونيه ؛ وعلى شواطئ بحر الشمال مجموع (البلاد المنخفضة) التي تمددها الآرتوا والبيكارديا واللوكسمبورغ . وإقطاعات بيت أنجو : أنجو ، مين ، بروقانس ، باروا ولورين ، مبعثرة كثيراً . أما الإقطاعات المتجمعة جيداً ، بالعكس ، تمتد في داخل فرنسا . وهي أموال بيت بوربون : بوربونيه ، المارش ، فوريز ، بوجوليه . وغرب فرنسا مقسم بين دوقية بروتانيا ، دوقية أورلئان ، ودوقية آلانسون . والجنوب الغربي ، منذ ضم كوتية كومبين إلى التاج (١٤٠٤ م) ، في أيدي ثلاث عائلات : بيت ألبريت ،

بيت أرمانياك ، بيت فوا . وأخيراً في الجنوب الشرقي ، الدوفينه تؤولف تقليدياً وقفاً لوارث العرش .

إن واضعي اليد على هذه الأموال الواسعة يشكلون إقطاعية جديدة : فهم في الواقع ، ليسوا أنسال العائلات الإقطاعية القديمة ، لأن هذه العائلات قضت عليها الملكية في القرن الثالث عشر . إنهم أمراء دم تكرم عليهم الملوك ، وبخاصة في القرن الرابع عشر ، بمنحهم أوقافاً : وهكذا تخلى شارل الخامس عن أنجو وبورغونيا إلى أخويه ، وعن إقليم أورلئان إلى ابنه الثاني . وهؤلاء الإقطاعيون الجدد أكثر خطراً بكثير على السلطة الملكية من القدامى . لقد كان هؤلاء يشعرون بأنهم مرتبطون بالولاء وبالواجبات التي يقتضيها تجاه سيدهم الملك . وفي منتصف القرن الخامس عشر انقطع الوفاء التابعي للأمير السيد كما انقطعت عاطفة الشعور بها . وكان شارل السابع يعي في هذه النقطة عدم نفاذ النظم التابعة القديمة لدرجة أنه لم يعد يطلب من دوق بروتانيا ولاء وثيقاً ، وقرر بسهولة أن يعفي نفسه من ولاء دوق بورغونيا فيليب الطيب (١٤٣٥ م) . وهؤلاء الأمراء وأمثالهم يعتبرون أنفسهم مستقلين ، وأعلى الأقل ، معفين من كل التزام تجاه الملكية ، ويتصرفون بسلطة عظيمة : فإلى الامتيازات الأميرية القديمة ، مثل حق سك النقود ، والقبضاء العدلي ، أضيف امتياز أهم بكثير في هذا القرن الذي بدأت فيه الثروة المنقولة تحسب مساوية ، إن لم تكن أكثر ، للثروة المتأتية عن الأرض . ويقصد بذلك جباية كل أو جزء من الضرائب الملكية التي تخلى الملوك لهم عنها . وعندما يجد الأمراء أصحاب الوقف في دوميناتهم مناطق غنية تاجرة ، يتمتعون بموارد هامة ، ويمكنهم أن يقدموا مرتبات للطبقة النبيلة الصغرى والمتوسطة التي حكم عليها التطور الاقتصادي بحياة العوز ، ووظائف إدارية أو عسكرية ، وتشكل لهم هذه الطبقة زبائن سياسية قوية ، تملكهم عاطفة الغلو والاستعلاء . أما الشعب فيرى فيهم مدافعين عن الامتيازات

الإقليمية وحماة ضد الضريبة الملكية الثقيلة . وفي الحقيقة كان هؤلاء الأمراء الوقفيون أغنياء ومقتدرين ، تدفعهم نعمة إقليمية قوية جداً في الأقاليم الفرنسية . ولذلك كانت تغريهم بتحويل دوميناتهم إلى دول حقيقية ومهرها بنظم موحدة ومركزية ومنسوخة عن نظم الملكية الفرنسية ، ويأخذون عندئذ وجه ملوك حقيقيين ولا يترددون في تسمية أنفسهم (أدواق بفضل الله) . وتقدم بورغونيا فيليب الطيب المثل الدامغ لهذا التطور . فمن ذلك أن مجلساً كبيراً نظم في ١٤٦٦ م ، وأعطى آراءه إلى الدوق من أجل القرارات الهامة ، ودرس جميع العرائض التي قدمت له . وهو الجهاز الأساسي في الإدارة المركزية التي امتد نفوذها على مختلف عناصر المجموعة البورغونية . وتخلص فيليب الطيب من الولاء الشخصي إزاء شارل السابع ، واستطاع أن يشعر نفسه بأنه عاهل ، وقد قال شاستولان : « ظاهره وحده يعتبره إمبراطوراً » . ويتعامل مع جميع الملوك معاملة الند للند . وبمناسبة زواجه من إيزابل البرتغال أحدث نظام المجزة الذهبية منافساً للأنظمة الملكية . وبلاطه الذي تفتح فيه أدب وفن بورغوني - فلانندي تجاوز بسناه بلاط ملك فرنسا . وأخيراً غداة فتح القسطنطينية من قبل الأتراك ، أقسم على مائدة التدرج (١٤٥٤ م) أن يشن الحرب الصليبية وبدا كأوائل أمراء المسيحية .

وهكذا تشكلت الإمارات الكبرى دولاً في دول . وكانت الحالة على هذا النحو أخطر على الملكية ، لأن الأمراء الذين ينجون من مراقبتها يملكون أراضٍ خارج حدود المملكة ، أو أن لهم ألقاباً على ممتلكاتهم . وهكذا فإن أدواق بورغونيا ، بالبلاد المنخفضة ، وبيت أنجو باللورين يعتبرون أنفسهم ملاك أراضٍ في الإمبراطورية : إن شارل دورليان ابن فالانتين فيسكونتي طالب بدوقية ميلانو ؛ ورونيه دأنجو رغب في استعادة مملكة نابولي ، التي طرده الآراغونيون منها (١٤٤٢ م) .. وعليه فإن الأمراء ، أصحاب الوقف ، لهم سياسة خارجية

شخصية خاصة بهم تمر عبر الأهداف الدبلوماسية لملك فرنسا . فتارة يزعمون بأن العاهل يضع قواته في خدمة طموحاتهم الخاصة ، وعندئذ يخاطرون بجر فرنسا في مغامرات ليس فيها ما تريحه ، ويثيرون ضدها ، على كل حال ، عداً بعض العواهل الأجانب . وهكذا فإن ملك فرنسا بدعه مزاعم الأنجويين في نابولي ، تسبب في حقد ملك أراغونة عليه . وأحياناً لا يترددون في دعم سلطة أجنبية ضد فرنسا ، أو التحالف مع أعدائها إذا كان هذا يمكن أن يزيد في قدرتهم . فمن ذلك أن الارتباط الإنكليزي - البورغوني شكت منه الملكة الفرنسية كثيراً ، على ما يبدو ؛ لأن المتألبين عليها حلفاء الدول الأجنبية كانوا من كبار إقطاعيين القرن الخامس عشر ، وأقوى من الملك . ومن حسن حظه أن المنازعات ، التي كانت تقوم بينهم ، ويقاوم فيها بعضهم بعضاً ، لا تمكنهم دوماً من تشكيل جبهة موحدة تدوم لفترة طويلة ضده ؛ وأن الأعداء في الخارج ، وبخاصة إنكلترا ، كانوا غارقين في أزمت داخلية خطيرة لا تساعد على التدخل إلا دورياً على الساحة الدولية . ومقابل هذه التهديدات المتقطعة والمتفرقة ، عززت الانتصارات والإصلاحات قوة شارل السابع وأحاطت بالملكية هالة الواجهة وجعلت منها مؤسسة ثابتة تقف وتقاوم التجزئة والفوضى . ولذلك مثلت ، بالنسبة للجزء الأعظم من السكان ، الوحدة والاستقلال القومي والسلام . وفي نظر الطبقة الصاعدة ، أي البورجوازية حجت السلطة الملكية شغب الإقطاعيين والثورات الشعبية ، وكفلت النظام الذي لولاه لما استطاعت أن تفيده من النهضة الاقتصادية . وهي التي منحت هذا التنبل الذي تطلعت إليه كما تطلعت إلى تنويع نجاحها المادي . وفي الكفاح الذي شنته لنصرة سلطتها استطاعت الملكية أن تعتمد على القوى العميقة للأمة .

وكان على شارل السابع ، في آخر حكمه ، أن يناضل ضد المعارضة الإقطاعية . ففي ١٤٤٠ م اصطدم بتألب دبره دوق بوربون ودعه ولي العهد

لويس . غير أن تدخلاً قوياً في الأوفيرن ساعده على خنق الحركة . وبعد بضعة سنوات (في ١٤٤٥ م) تآمر دوق آلانسون مع دوق يورك وتهياً لاستقبال إنزال إنكليزي في شبه جزيرة كوتنتن . فأوقف في أيار ١٤٥٦ م ، وزجّ في سجن لوش وصودرت دوقيته . وفي الوقت نفسه لوحق خصم آخر للعاهل ، وهو كونت أرمانيك ، أمام برلمان باريس تحت اتهام مزدوج : فقد كان يطمع بكونتية كومنج ، وتآمر هو أيضاً مع إنكلترا ؛ وجرم بسفاح ذوي القرابة ، ورفض رغم الحرمان الحبري أن يصلح نفسه . وساعده الهرب وحده على الفرار من الحكم الصادر بحقه .

وبالرغم من النجاحات التي أحرزها شارل السابع العجوز فقد تساءل بقلق عما سيحصل لعمله بعد وفاته : وعلى ما يبدو أن وارث العرش ، ولي العهد لويس غير قادر على إتمامه . وهذا المراهق الذي لاتنقصه الشجاعة لأنه مارس شؤون السلاح منذ سن أربعة عشر عاماً أثناء حملة ديب وأظهر تهافتاً على الحكم مفسداً يزيل كل اعتبار آخر أو عاطفة . وكان غير محب لأبيه ، وشارك تقريباً في كل المؤامرات التي حيكت ضده . وملّ أبوه شارل السابع من دسائسه المستمرة ومن الوقاحة التي يعامل بها علناً المحظية الملكية ، آنيس سوريل فأرسله إلى الدوفينه في ١٤٤٧ م . وهنا أخذ ولي العهد أنفاس الطبقة النبيلة ونظم المؤسسات من جديد ، وتبنى عدة تدابير للتنمية الاقتصادية في وقفه وتعلم أساليب الحكم . ووضع أيضاً كل اهتمامه في تطبيق سياسة خارجية معاكسة لسياسة أبيه . وعلى هذا النحو ، وبالرغم من أوامر شارل السابع ، تزوج ابنة دوق ساكوا . وفي كل مكان ، في إيطاليا ، في إسبانيا ، في إنكلترا اصطدمت سياسة الأب بسياسة الابن . ولما علم أن شارل السابع ساخط عليه ومتجه بأسلحته نحو الدوفينه ، فرّ وطلب اللجوء عند دوق بورغونيا الذي أقامه في جيناب في إقليم البرابان . ومن هنا استمر أكثر من ذي قبل في التآمر مع بلاط إدوارد الرابع ، محرضاً العاهل

الإنكليزي على استئناف الحرب ضد فرنسا . وبدأ أن الملكة على شفا أزمة جديدة وفظيعة فخاف شارل السابع من أن يسممه ابنه ، ومات في تموز ١٤٦١ م .

فرنسا في عهد لويس الحادي عشر

أ - الملك

بدأ الحكم الجديد تحت رعاية ملائمة قليلاً . دخل لويس الحادي عشر باريس برفقة فيليب الطيب . وإلى جانب دوق بورغونيا الذي يعامله بأعظم آيات الاحترام ، بدأ الملك وجهاً صغيراً جداً . ولاحظ الشعب الباريزي ذلك .

وفي الحقيقة أن هذا السلوك الذي يتمثل فيه الخضوع مكنه من الحصول ، مقابل دفع المبلغ الموعود في آراس ، من استرجاع مدن السوم (١٤٩٢ م) . ولكن التدابير الأولى التي اتخذها العاهل الجديد لم تتكلم لصالحه : فقد عجل بطرد مستشاري أبيه ، وأمر بتحرير دوق الأنسون واستدعاء جان الخامس دأرمانياك وعفا عنه . ومع ذلك فإن الأمير الثائر ، الذي اشترك بالثورة التي نشبت في فرنسا في ١٤٤٠ م ضد إصلاحات شارل السابع وأخذها هذا الملك ، تكشف على العرش بأنه أشد المدافعين حماسة عن السلطة الملكية . وهذا المعارض ، الذي كان يدعو برغبته التدخل الأجنبي ، أظهر وهو على السلطة حساً قومياً واقعياً . لقد كان وجهاً حائراً تائهاً ومعقداً ، أصلاً وقبيحاً ، وبنيته ضعيفة ، خالياً من الهيبة ومن الكياسة أيضاً ولا يتظاهر بما ليس فيه .

وهذه المظاهر الخارجية التي قلما تعجب ، لم تمنع لويس الحادي عشر من أن يمارس على من يقترب منه ، من بورجوازيين أو أجانب ، بسحر بيانه وألفة سلوكه ، سلطة جاذبية حقيقية . ورسم مستشاره المقرب إليه فيليب دو كومين في (مذكراته) بكثير من الدقة الأساليب التي يستعملها الملك لكسب الثقة والصدقة .

وكان طبع العاهل متناقضاً أيضاً . فمن تقوى ضيقة ومنحرفة تجمع الصور التقية والطلاسم ، كان لويس الحادي عشر أيضاً أميراً من أمراء النهضة واقعياً كما يريد ماكيافيللي ومجرداً من كل وسوسة ضمير .

ولا يمكن القول أفضل من قول كومين ، بأن الانتهازية الوقحة من عاهل لا يثق إلا بنفسه ويستخدم للعمل رجالاً وضيعي الأصل ، وغالباً خالعة العذار مثل أوليفيه لو دَمْ أو تريستان لرميت ، لأن هؤلاء كانوا مدينين له بكل شيء ، وعلى هذا النحو يمسك بهم . وهناك تناقض آخر : فمن عدة جهات كان لويس الحادي عشر رجل الاندفاعات الفجة ؛ فلتلطيف غضب أقبح خصم له ، دوق بورغونيا ، شخص إليه ووضع نفسه تحت رحمته . ولا شيء يمكن أن يمنعه من الأخذ بثأره من أعدائه بأفطع شكل . إن تاريخ الكردينال بالوالذي حبس في باليسّي - له - تور في قفص من حديد ، حسب الأسطورة ، ليكفر عن خيانتة ، حاضرة في كل الذاكرات . ولكن لويس الحادي عشر يعرف أيضاً كيف يكون صبوراً إلى الحد الأقصى للوصول إلى أهدافه وغاياته : (عنكبوت عام) ينسج شباكه في الظل ليأتي أعداؤه ويرموا أنفسهم بها ، يفضل دوماً الدبلوماسية على الحرب . فهل كان على درجة عالية من المهارة ؟ قد يكون في مثل هذا القول مبالغة ، لأن النشاط الفوضوي ، والظلام الطائش ، والقرارات العاجلة تضعه مراراً في وضع محزن ، وقد اعترف بذلك المؤرخ كومين .

وفي الواقع ، إن قوة لويس الحادي عشر لاتأتي عن أنه يمتنع عن كل خطأ سياسي ، وإنما مما يعرف كيف يستدرك بمهارة الأخطاء التي ارتكبها .

وشيئاً فشيئاً تعلم ألا يصادم خصومه مجابهة وألا يباشر كثيراً دفعة واحدة . وبالإجمال لقد كان ملكاً عظيماً وينبغي ألا يحكم عليه بأخطاء شبابه . ولا بالعزلة القائمة في آخر أشهر حكمه ، وإنما بسعة العمل الذي أنجزه في الظروف الحرجة .

ب - ثورات الأمراء

لقد ثلّ لويس الحادي عشر بوصوله إلى العرش بعد طول انتظار وصبر ، وبدأ باتخاذ تدابير غاشمة ، عزل الضباط بكثرة وإزعاجات ضريبية ضد رجال الكنيسة ، حذف امتيازات ورواتب النبلاء ، مما أثار ضده مقاومات عنيفة : مقاومة الأمراء التي عرف أنها كانت على حسابه ، وكانت أكثر هولاً من غيرها . فقد غضب فرانسوا الثاني أمير بروتانيا عندما طلب منه العاهل الجديد ولاء مباشراً . واستاء منه بيت آل أنجو لأنه لم يدعم سياسته الإيطالية ، ولأنه بعهدة بايؤنّ تحالف مع الملك جان الثاني آل أراغونة ، وأرسل إليه جيشاً لإخضاع كاتالونيا الشائرة وحصل كرهن على روسيون وسرداني . وغضب فيليب الطيب من روح الاستقلال التي أبداهها عمه السابق . وتصالح مع ابنه شارل ، كونت شاروليه الذي سيدير منذ الآن دوقية بورغونيا ، وترأس منذ الآن تألباً ضد ملك فرنسا ، حتى أن من سيكون أكبر عدو للويس الحادي عشر لا يشبهه أبداً . كان أسود الشعر له عقائص ، ولون زيتوني ورثه عن أمه البرتغالية ، بقامتها الطويلة والقوية التي تخلع عليها هيئة اعتزاز ونبل .. وكان وفياً ومخلصاً ودقيقاً في حياته الخاصة ، ومثقفاً وموسيقياً جيداً جداً . وكان زعيم حرب ممتازاً وإدارياً ممتازاً معاً . وقد خولته شجاعته وجراته الجنونية لقب المتهور . ولا يعادلها إلا طموحه المفترس . وكان أمام لويس الحادي عشر (متواضعاً في لباسه وكلامه) وبتذوقه للأبهة وكبريائه غير المحدود كان ممثلاً للطبقة النبيلة الكبرى .

جمع شارل أمير شاروليه الأمراء المستائين وراءه . ووجد بينهم الضئيل شارل فرنسا ، دوق بيري ، أخو الملك ووارثه . وفي آذار ١٤٦٥ م أطلق من بروتانيا بياناً طالب فيه باسم (الخير العام) بإصلاح الدولة . وكان يقصد مشايعة الرأي العام لقضية الإقطاعيين . واشتبكت العمليات الحربية : توجه لويس الحادي عشر نحو وسط فرنسا لمعاينة دوق بوربون الذي شارك في الحركة .

ولكنه اضطر للعودة إلى باريس بعد أن أخبر بأن الجيوش البورغونية والبروتانية اتجهت نحو العاصمة . وحصل الصدام بالقرب من مونليري ؛ غير أن هذا القتال الذي اشتبك فيه الجيشان في ١٦ تموز ١٤٦٥ م وكان غير حاسم ، لم يستطع فيه لويس منع انضمام أعدائه إلى بعضهم ، غير أنه جنب التهديد عن باريس . ولم يبق للملك إلا أن يجرد المتألبين من سلاحهم ويحل العصبية بمنح امتيازات لكل منهم . وكان ذلك موضوع معاهدي كوفلان وسان - مور . وبموجبها استعاد شارل شاروليه مدن السّوم ؛ ودوق بوربون نيابته في اللانغدوك ؛ وأخذ أخو الملك وقفاً غنياً في نورمانديا .

وفي السنوات التالية ، حاول لويس الحادي عشر الرجوع عن تنازلاته الخطرة ، وأفاد من ثورة تعهدها بعنايته في غاند ولييج وثلث شارل شاروليه ، واسترجع نورمانديا من أخيه . وقد بررت اتفاقات هذا الأخ مع إنكلترا ، والأهمية الاستراتيجية للإقليم هذا القرار . ولكن الملك كان مهتماً أيضاً بأن يؤمن لنفسه الرأي العام ، وطلب الموافقة من المجلس المجتمع في تور (١٤٦٨ م) ؛ وحلّ المجلس لويس من تعهده ، وأعلن بأن نورمانديا غير قابلة للتصرف أيضاً .

ومع ذلك فإن هجمة ثانية تهيأت ضد الملكية : فقد ألجا دوق بروتانيا شارل دو فرانس وثار . أما شارل المتهور الذي خلف فيليب الطيب (١٥ حزيران ١٤٦٧ م) فقد تزوج مارغريت يورك ، أخت إدوارد الرابع (١٤٦٨ م) . ولنع إبرام تألب جديد كان جان الثاني دأراغون ، المستاء من حليفه بالأمس ، مستعداً للمشاركة به ، حاول لويس الحادي عشر أن يجرد شارل المتهور من سلاحه أثناء مقابلة خاصة . وارتركب « أكبر جنون » (كومين) بشخصه إلى الدوق في بيرون (تشرين الأول ١٤٦٨ م) . وفاجأه خبر بشكل مزعج أن ليج ثارت على صراخ (ليحي الملك) فأثار غضب البورغوني الذي يعامل لويس كأسير . وربما كانت حياة الملك مهددة . غير أن كومين مستشار دوق بورغونيا آنذاك ، دبر تسوية :

وبموجبها على لويس أن يعد في معاهدة بيرون (١٤ تشرين الأول) أن يعطي إلى شارل فرنسا الشامبانيا والبري تعويضاً له عن خسارة نورمانديا ؛ وكان عليه أن يتحمل الإذلال الأقصى في مرافقة الدوق وحضور القمع الذي حلّ بالليجين حلفائه السريين .

وجنب ما هو أقبح . فمقابل تضحيات ضخمة ، حال لويس الحادي عشر نهائياً دون تشكل تآلب خطير . فإلى أعضائه ، المنفصلين الآن ، حاول الملك الوفي لتكتيكه أن يسترجع بالتفصيل كل ما قبل بالتخلي عنه جملة في وقت الخطر . ونجح في أنه أقنع شارل فرنسا ، بعد أن خدع مستشاريه بأن يقبل عوضاً عن الشامبانيا المجاورة بصورة خطيرة لدوقية بورغونيا ، بالغوين البعيدة . وشجعت الظروف على ذلك . إن ميلاد ولي العهد ، الذي سمي هو أيضاً شارل (٣٠ حزيران ١٤٧٠ م) انتزع من الأخ المشاغب للملك كل أمل بأن يكون خلفه ، وإن رجوع آل لانكاستر وضع على عرش إنكلترا عاهلاً ملائماً لملك فرنسا . ووجد دوق بورغونيا نفسه معزولاً . وأكدت عدة مؤشرات على أن الميزان لا يرجح لصالحه : فقد أتي مجلس تور (١٤٧٠ م) إلى السياسة الملكية بدعم الأمة ، وأجلت لويس الحادي عشر من تعهده في بيرون ، بينما اتهم الكردينال بالو بأنه كان مشجعاً جداً لقضية المتهور وزج في السجن . وكان أحذق مستشاري دوق بورغونيا ، كومين ، قد انتقل لخدمة ملك فرنسا . وتوج موت الدوق شارل المفاجئ في الغوين ، في أيار ١٤٧٢ م ، بشكل مناسب قوي عمل لويس . وبصورة قاسية ، اتهم خصوم الملك ، وشارل المتهور على رأسهم ، الملك - خطأ - بأنه سجن أخاه . وهذه هي الحجة التي ساعدت معارضة الأمراء على التجمع للمرة الثالثة ضد الملك لويس . وفي الحقيقة لقد رجع إدوارد الرابع ملكاً على إنكلترا وأصغى لإيحاءات ابن حميه البورغوني ، الذي حرضه على معاودة النضال القديم العهد ضد المملكة الفرنسية . وأخيراً عندما أصبح ملك آراغونة سيد بارسلونة

دخل هو أيضاً في التآلب الجديد . ومن حسن حظ ملك فرنسا أن خصومه لم يعرفوا كيف ينسقون دفاعهم . واشتبك شارل بورغونيا في الكفاح دون أن ينتظر استعداد شركائه . والطرق الفظة التي استخدمها صلبت ، في كل مكان ، مقاومة ومنها مدينة بوفيه التي تحمست بشجاعة جانّ لينييه ، جان هباشيت الأسطورة ، أعطت المثال . أما الأمراء الآخرون فقد تبعوا بفتور عمل المتهور الذي وقع هدنة مع الملك . وهذه الهدنة ساعدت الملك على القضاء على أحد خصومه المستحرين ، الكونت جان دارمانيك . وفي ١٤٧٣ م ، استولى جيش ملكي على لكتور حيث قتل الكونت . وصودرت أملاكه ، ودخلت قوات ملكية أخرى الروسيون والسرديني التي كان جان الثاني داراغون قد استرجعها بفضل مصاعب لويس الحادي عشر . وفي ١٤٧٥ م ، كان إدوارد الرابع مستعداً للتدخل فنزل في كاليه بعشرين ألف رجل ، ولكن بعد فوات الأوان . لأن شارل بورغونيا كان آنئذ مشتبكاً في الشرق في عمليات صعبة ، وحصار نوس أمسك بالأساسي من قواته . وكان ملك أراغونة منشغلاً بخاصة بإرث قشتالة الذي فتح أمامه . ويؤس إدوارد الرابع من مقاومة المدن مثل سان - كنتن ، ومن الدعم الضعيف الذي قام به الأمراء الفرنسيون ، فقبل المفاوضة مع لويس الحادي عشر . وصنعت معاهدة بيكينيني منه حليفاً لملك فرنسا . واضطر دوق بورغونيا أن يفاوض من جديد بشأن هدنات سولور (أيلول ١٤٧٤ م) . وتكلف القائد الأعلى للجيش دو سان - پول الذي راوغ بين الحزبين ، نفقات هذا الاتفاق . فقد سلمه دوق بورغونيا وحكم عليه برلمان باريس بالخيانة وقطع رأسه (كانون الأول ١٤٧٥ م) . وتوطد السلام ، ولكنه كان سلاماً مؤقتاً .

النزاع الفرنسي - البورغوني

إن وجود الدولة البورغونية ، وأكثر من ذلك طموحات الدوق لاتتفق وأمن المملكة . فن مختلف الأقاليم التي جمعها الأسلاف حاول شارل المتهور أن يصنع

دولة متجانسة وقوية . وهذا المشروع يهدد فرنسا مباشرة . وفي السنوات السابقة عمل شارل على جمع القطع المتناثرة لدومينه : فنذ ١٤٦٩ م حصل كرهن لقرض من ٥٠٠٠٠ فلورن لدوق النمسا سيجموند على حقوق هذا الأخير الوراثية في الألزاس . وفي ١٤٧٣ م ، بسط نفوذه على اللورين التي سمح دوقها الشاب رونية الثاني بعبور الجنود البورغونية عبر إمارته . وفي السنة نفسها ، عزز مواقعه الرينانية باحتلال الغلدر بفضل نزاع في عائلة الدوق ومحاولة التدخل في انتخاب رئاسة أسقفية كولونيا . ومن هذه الإمارة التي تشرف على كل شاطئ المانش وبحر الشمال ويؤلف ظهيرها أحد المراكز الصناعية الأكثر نشاطاً في أوربة ، أراد من يسميه المعاصرون (دوق الغرب الأكبر) أن يصنع مملكة تكون بعثاً لمملكة لوتارنجيا القديمة . وفي الواقع لم يشعر شارل مطلقاً بأنه أمير فرنسي : « لقد أصبح من طبيعة أخرى غير فرنسية » كما قال عنه شاستيلان . وفي أيلول ١٤٧٣ م ، التقى في تريف بالإمبراطور فريديريك الثالث وأمل أن يحصل منه على لقب ملك بل وحتى وراثته الإمبراطورية . وفي آخر لحظة ، قلق فريديريك من معارضة الأمراء ومدن الإمبراطورية فقطع المحادثات . ومع ذلك لم يثبط عزم شارل من هذا الإخفاق ولا من الإخفاقات التي مني بها في محاولاته ضد ملك فرنسا . ولكن زمن ضعف الملكية الفرنسية قد مضى . ومنذ الآن يستطيع لويس الحادي عشر استغلال كل الثغرات في سياسة خصمه . وكانت القضية المالية من أخطر المسائل التي وضعت للجريء (المتهور) . ولتحسين جيشه استعاض عن الخدمة المفروضة على التابعين والمدن برسوم مالية تساعد على تجنيد جيش دائم وبناء مدفعية ماهرة بعتاد ممتاز . ولكن كان يضطر دون انقطاع أن يطلب من مجالس أقاليمه المال الذي لا تمنحه هذه الدول دون طلب امتيازات بالمقابل ، والدومين المسمى ، لعدم وجود ما هو أفضل ، البورغوني ، يجمع مناطق وشعوباً مختلفة ، وبعضها ، وثورة ليجج تؤكد ذلك ، يتحمل بشكل سيء مطالب وسلطة

الدوق . ومن جهة أخرى ، إن سياسة الجريء التوسعية أقلت جميع جيرانه ، أمراء الإمبراطورية مثل الكونفدراليين السويسريين . وتقتضي حذاقة لويس الحادي عشر العمل على تدمير الدولة البورغونية دون مهاجمتها مباشرة . شجع أعداء شارل ، وقدم إليهم سراً مساندته العسكرية والمالية . وخدم ملك فرنسا بالطموح والثقة الشديدين اللذين جرا دوق بورغونيا في مغامرات خطيرة أكثر فأكثر . وفي ١٤٧٥ م ، انطلق شارل طائشاً في النزاع الذي كان رهانه أبرشية كولونيا . فقد ألقى الحصار أمام نوس على الراين . وبينما كان منشغلاً على هذا النحو ، شجع لويس الحادي عشر توقيع تحالف بين السويسريين ، والدوق سيجيسموند النمسا واتحاد الألزاس - الدنيا : وألف عصبة كونستانس . وفوجئ شارل بذلك فلم يستطع في الوقت الملائم نجدة عامله الأكبر في الألزاس الذي قتل . ثم إن رونية اللورين تشجع بلويس الحادي عشر ودخل بدوره في عصبة كونستانس . وفي الحقيقة لم يستطع منع شارل الجريء من فتح دوقيته . ولكن الأمير البورغوني الذي كان جيشه مجرباً بحملاته المتعاقبة ، تدخل ضد السويسريين الذين أبدوا عداؤهم لحليفته ، دوقة الساكوا . وبدأت نكبات دوق الغرب الأكبر . وفي آذار ١٤٧٦ م ، مني جيشه بهزيمة بالقرب من غراندسون أمام المدفعية السويسرية الهائلة . وفي مرة (٢٢ حزيران) دمر نصف الجيش . وحرضت هذه الهزائم أعداء المتهور على رفع رؤوسهم . فمن ذلك أن ثورة قامت وطردت من اللورين الحاميات البورغونية . وفي تشرين الأول ١٤٧٦ م حاول شارل بجيش مرتجل أن يسترد نانسي . ولكن المحاصرين أحاطت بهم الجنود التي جمعها رونية اللورين بفضل الأموال الفرنسية ، وفي القتال فقد المتهور حياته (في ٥ كانون الثاني ١٤٧٧ م) . ووجد نصف جسده الذي التهمته الذئاب بعد بضعة أيام في الطين المتجمد . ونشر لويس الحادي عشر الخبر السعيد في كل مكان . ولكنه في فرحه ارتكب حماقات . فمن ذلك أنه عرض رسمياً على ابنة المتهور ،

الأميرة الشابة ، مارية ، المنعزلة في غاند ، حمايته الملكية . وطن نفسه حاذقاً بإطلاق جنوده على السوم ، والآرتوا ، والبيكارديا ، بل وحتى بورغونيا ، وقاومت المدن البورغونية ، ولا سيما مارية الفرعة التي قررت أن تتزوج ماكسمليان النمسا ، ابن الإمبراطور فريديريك الثالث (آب ١٤٧٧ م) ونشبت حرب عندئذ بين ملك فرنسا وماكسمليان . وبعد هزيمة مربكة في غينيغات (في البادوكاليه) ، قرر لويس الحادي عشر توقيع السلام في أراس (١٤٨٢ م) . واحتفظت فرنسا بالبيكارديا ودوقية بورغونيا . وانتقل كل باقي دول المتهور إلى النمسا . ومع ذلك نصت المعاهدة على أن تشكل الآرتوا والفرانش - كوتته مهراً لمارغريت النمسا ، بنت مارية وماكسمليان ، المخطوبة لولي العهد . ولم يكن لويس الحادي عشر من الإرث البورغوني أخيراً إلا شيئاً قليلاً ولا سيما أن طيشه بخاصة عزز قوة بيت آل هابسبورغ . وعندما يتزوج فيليب الجميل ابن ماكسمليان ومارية وريثة الملكين الكاثوليكين فرديناند أراغونة وإيزابل قشتالة ، فإن هذه القوة ستطوق تماماً مملكة فرنسا .

ومع ذلك فإن انهيار القوة البورغونية كان حاسماً من أجل تشكيل الوحدة الفرنسية . لأن الانضمام إلى الدومين الملكي تكاثر : فإقطاعات بيت آرمانياك وآلانسون قبض عليها أثناء النزاع . وفي ١٤٨٠ م ورث لويس من رونييه دانجو إقطاعه الأنجفي والبروفانس اللذين أمنا للمملكة السيطرة على ساحل البحر المتوسط . وبصورة موازية ، تثبتت سلطة ملك فرنسا . وفي هذه المناطق التي ضمت إلى التاج أبقى الملك على الهيئات المحلية : برلمانات ، دواوين المحاسبات ، محكمة المساعدات ، ونشط مركزية الإدارة . وتأمينت هذه المؤسسة بأجهزة حكومية مختصة أكثر فأكثر . ونزع المستشار إلى أن يلعب دور رئيس العدلية والحكومة ؛ وترك أكثر فأكثر شؤون المستشارية الأصلية إلى (موظفي السر) وهؤلاء يتقاسمون مختلف الأعمال حسب كفاءتهم . وثبت بخاصة مذهب

السلطة الملكية . وفي الحقيقة لا يقصد بذلك الملكية المطلقة . وقد أشار كومين في « مذكراته » أن العرف ينظم سلطة الملوك على رعاياهم .

ولكن للرعايا الحق في التعبير عن آرائها بواسطة مجلس المملكة العام ، ولكن القرار الملكي هو الذي يتغلب في آخر الأمر . وعندما ضعف لويس الحادي عشر بحكم السن اعتزل في بليسي - ليه - تور ، ومات في ٣٠ آب ١٤٨٣ م ، وتحققت الوحدة الفرنسية حول العرش .

قصور شارل الثامن

لقد شهد دور القصور الذي تلى وفاة الملك لويس الحادي عشر ، بعد أزمة قصيرة ، أن عمله تم وتصلب . وكان شارل الثامن فتى لا يستطيع تأمين الحكم ، ولذلك عهد لويس شفهاً بالوصاية إلى ابنته آن التي تزوجها بيير دوبوجو أخو ووارث دوق بوربون ، وكان الخيار ممتازاً . ولكن ابن عم الملك ، لويس أورليان ، حاول أن يفيد من الوضع ليستولي على مقاليد قيادة الحكم . وكان وراءه كل ماتبقى من الإقطاعية الفرنسية . وتمت اللعبة في مجلس المملكة العام الذي اجتمع في تور في كانون الثاني ١٤٨٤ م : ولم يحصل لويس أورليان إلا على رئاسة المجلس ، بينما عين آل بوجو جميع الأعضاء . وخاب ظن ابن عم الملك وتقرّب من دوق بروتانيا الذي شعر بأن استقلال دوقيته مهدد : فقد قام دوق أورليان بمخادّات بغية زواجه بالوارثة آن . وفي الحال طلب آل بوجو يدها لشارل الثامن . ولكنهم في عجلتهم بربط بروتانيا بالدومين الملكي ارتكبوا خطأ : فقد تفاوضوا مباشرة مع عدة نبلاء بروتانيين لأجل أن يعترف هؤلاء ، بعد وفاة فرانسوا الثاني ، بملك فرنسا دوقاً . وما أن علم فرانسوا الثاني بذلك إلا وتملكه غضب عنيف . وترأس تألباً إقطاعياً ضم لويس أورليان ، وجان دوفوا ، وآلن دالبريت ، وماكسمليان النمسا : وكانت (الحرب المجنونة)

(١٤٨٥ م) . وفي ١٤٨٨ م ، عندما أعلن سقوط لويس أورليان وفرانسوا الثاني أطلق الجيش الملكي بقيادة لويس دولاتريموال ، هجوماً حاسماً . وتوج بنصر سان - أوبان - دو - كورمييه ، وبأخذ فوجير . وأسر لويس أورليان ، وقرر دوق بروتانيا توقيع معاهدة فرجه : وبموجبها وعد ألا يزوج ابنته دون موافقة الملك وسلم عدة مواقع حصينة رهناً لذلك . ولكن عندما توفي فرانسوا الثاني في ١٤٨٨ م ، قفزت ثانية قضية بروتانيا . فقد طلب ملك إنكلترا والإمبراطور يد الدوقة الشابة وقدمها لها مساندها . وأسرع شارل الثامن وأطلق حملة جديدة ساعدته على الاستيلاء على نانت وارين (١٤٩٢ م) . وفي كانون الأول من السنة نفسها احتفل بزواج شارل الثامن وأن . وإذا مات الملك قبل آن ، فعلى هذه أن تتزوج خلفه . وهكذا هيء ارتباط بروتانيا بالدومين الملكي .

وعندما انتهى العصر الوسيط ، ظهرت مملكة فرنسا (كأحدث) دولة قومية في أوربة . وعادت الملكية فيها من جديد مركز الأمة : وخارجاً عن بعض الإمارات الأكيثانية والبيرينية ، وجد وقف كبير ، وقف دوق بوربون الذي نجح من السيطرة المباشرة للحكومة الملكية . واعتاد ممثلو كل الشعب الفرنسي أن يجتمعوا في مجلس عام ويأتوا للسلطة الملكية بمساندة الرأي . وفي أعمال الإدارة الملكية بدأت لغة الدومين ، الفرنسية ، تصبح منافسة للغة اللاتينية ، لغة رسمية . وبالإجمال ، إن شخص الملك يجسد وحدة الأمة ، والوفاء للعاهل يختلط بالعاطفة القومية .

وفي الحقيقة أن أوربة النصف الثاني من القرن الخامس عشر قد تحولت بعمق في صورتها السياسية ، وشعرت أيضاً بكاملها بحاجات جديدة وبتطلعات غريبة على التقاليد القديمة . وهذه الحاجات والتطلعات في خطوطها الكبرى يتقاسمها الغرب الأوروبي كله . ولكن بما أنها أوربة الأمم فإن حياتها المادية وحضارتها تنزعان لتكونا في نطاق الدول الآخذة بالتشكل . وإذا أسهمت القوى

الاقتصادية بقوة في تشييد ممالك مركزية ، فعلى العكس انتظم الاقتصاد بصورة عفوية أو بعمل العواهل ، على صعيد قومي . وهكذا فإن (نقاش المنادين بالحرب في فرنسا وإنكلترا) الذي تألف في ١٤٥٦ م يقارن ثروة المملكتين : وفرة السكان ، خصب التربة ، نمو التجارة ، بأنها تقيم كعوامل قدرة قومية ، وعلى الأمير أن يسهر عليها . وفي الصعيد الروحي يعتبر الأكليريكيون والمؤمنون أنفسهم ، منذ الحيدة الكبرى ، أعضاء كنيسة قومية قبل أن يشعروا بأنهم متضامنون مع المسيحية العالمية . والأشكال (الصيغ) الجمالية نفسها لم يعد لها ، كما في عصر الرُّوماني أو الفوطي ، قيمة أوربية ؛ وعلى صورة الآداب عرّف الفن بأنه إيطالي أو فلاماندي . لقد أصبح الغرب الآن بحضارته كما في حياته السياسية واحداً ومتعددأ معاً .

الفصل التاسع

العمران الاقتصادي

والحاجات الجديدة

النهضة الاقتصادية العامة في أوربة

كانت تهدة الخلافات الدولية وتوطيد النظام العام ، تحت حماية الأمراء والملوك ، ظروفاً ملائمة ل نهضة عامة في الحياة الاقتصادية في أوربة النصف الثاني من القرن الخامس عشر : فقد عاد المنحنى الديموغرافي إلى الصعود ببطء ، وأعطى لكل الفعاليات دفعة جديدة ؛ وأصبح بإمكان اليد العاملة الموفرة أن تسد حاجات مستهلكين كثيراً . وساعد توطيد التيارات التجارية الكبرى على أن تأخذ السلع طريقها نحو مراكز الاستهلاك الهامة . ولكن الاضطرابات السياسية والأزمة أتت بتقلبات دائمة في اقتصاد (ما قبل الحرب) كما في المجتمع .

والخارطة الاقتصادية لآخر القرن الخامس عشر لاتنسخ بأمانة خارطة القرن الثالث عشر : فمن ذلك أن مراكز الإنتاج القديمة قد أفل نجمها . واستيقظت مراكز أخرى جديدة . وغيّرت طرق المبادلات أماكنها . وهذه التحويلات العامة على سبيل المثال محسوسة جداً في الصناعة التقليدية للنسيج : فقد احتفظت لمشاعلها الخاصة بصوف أغنامها ، وأصبحت المادة الأولية لصنع الجوخ تجهز أكثر فأكثر من قطعان الميرينوس في إسبانيا . ومنذ الفتح التركي ، غدت مادة حجر الشب تصل من آسيا الصغرى إلى أوربة بصعوبة . واكتشاف مناجم في شمال

روما ، في تولفا ، صنع من الدولة الحبرية مجهزة أساسياً لهذا الإنتاج الثمين لكل أوربة . وكذلك البيكارديا التي اجتاحتها الحرب استعاض عنها باللانغدوك لإنتاج العظم الذي يزرع بصورة أساسية حول تولوز ويصدر بواسطة ميناء بايون ، بينما تنمو (الفوة) حول سبير . وامتدت زراعة الكتان ، المادة الأولية للأقمشة الناعمة الثينة للأرستقراطية الأميرية ، وزراعة القنب في بيكارديا والبلاد المنخفضة وألمانيا . وهكذا تحولت جغرافيا النسيج تماماً . وبصورة عامة إن الاضطرابات قد سببت ضرراً دائماً للتجارة الكبرى في القارة . وفي الحقيقة ، عندما عاد السلام تكاثرت الأسواق الموسمية ، وقدمت للتجار نقاط لقاء في ملتقى الطرق الكبرى البرية . ولكن الجزء الأعظم من البضائع أخذ يسلك الآن الطريق البحرية التي تصل البندقية وجنوة بلندن أو بروج بمضيق جبل طارق ، وبحر البaltيك وبحر الشمال بممرات السوند ؛ وموانئ البحر المتوسط ، في شبه الجزيرة الإيطالية ، التي تتمتع بازدهار قديم مثل موانئ الأطلسي ، لشبونة ، إشبيلية ؛ وأنفوس ، التي بدأت تحل محل بروج التي غطتها الرمال ، أصبحت مركزاً من أنشط مراكز الحياة الاقتصادية .

وتحسنت التقنيات أيضاً بالخروج من دور الأزمات . إن نقص اليد العاملة ، والرغبة في اقتصاد الأجور المرتفعة شجعا اختراع الآلات القادرة على أن تحل محل الإنسان . ومن جهة أخرى كانت الحرب نفسها عامل تقدم : فخارجاً عن تحسين التقنية العسكرية كظهور أسلحة نارية في أوربة ، شجعت الحرب إنتاج وتحويل الفلزات المعدنية وكانت أكبر مستهلك لها . وفي هذا الصعيد الأخير ثبت التقدم التقني . فخلال زمن طويل كان يكتفى بحك وكشط العروق السطحية . ونصوبها في الوقت الذي ازداد فيه الطلب عليها ، يوضح استخدام طريقة استخراج أكثر نفاذاً . فقد حفرت آبار أكثر عمقاً بكثير . وأوصلت إلى دهاليز على طبقات وثبتت بأخشاب . وهذا الاستغلال لما تحت التربة العميق

أصبح ممكناً بعد أن حلت قضيتان كبيرتان : قضية التهوية أولاً ؛ وقد تأمنت هذه التهوية بفتحات عديدة أشعلت أمامها النيران لتنشيط المبادلات الجوية . غير أن المياه أجبرت في السابق على هجر المناجم التي بدئ بها ؛ أما الآن فتؤمن الآلات العظيمة سحب المياه . والمضخات تحرك بدواليب كبرى تديرها الخيول . ومبدؤها مرتبط باكتشاف جهاز الحركة الدافعة ، التي تبدل حركة دائرية مستمرة إلى حركة مستقيمة متوالية متناوبة . وبالمقابل : وبفضل هذه المستجدات تكاثر إنتاج فلذات الحديد والفضة والنحاس ، في النصف الثاني من القرن الخامس عشر بما يعادل الأربع أو الخمس مرات تقريباً . وفي شأن المعدنين الآخرين يجب أن نضيف ، كعامل تقدم ، اكتشاف طرق تساعد على فصل الفضة عن الرصاص الفضي ، وفلذات النحاس الفضية . وتستعمل الفضة لسك النقود ، ويدخل النحاس في تركيب خليطة جديدة ، الصُّفْر ، التي تمزجه بمجر التوتيا (الكالامين) . وبقيت الصناعة المعدنية للحديد أهم من غيرها : ففي أفران عالية ذات حرارة متزايدة أنتج الحديد الخام الذي يصهر ثانية في الفرن ويخرج منه الحديد الحلو بفضل مطارق مائية قوية ، بيد أن غو الصناعة الحديدية مازال محددًا بعد لنقص المحروقات . وكانت الغابات تجهز بفحم الخشب ولكنها اجتاحت بكاملها . أما فحم (الأرض) ، فقد ظل استخراجه قديماً جداً . وإذا استثنيت مناطق ليبج ونيوكاسل فهو ينتج بصورة أساسية ويستعمل من قبل فلاحين يستخرجونه بجر ثقب في حقلهم . والصناعات الأخرى هي أقل تحويلاً : فمن الممكن أن نذكر مع ذلك للحريير ظهور أنوال قادرة على تنفيذ رسوم معقدة . وغو صناعة الزجاج التي وجدت في الحياة اليومية تطبيقات عديدة بدأ من البيوت الزجاجية لنباتات البلاد الحارة إلى زجاج البيوت ، ومن الأدوات المنزلية إلى النظارات والمرايا . وللتقدم التقني نصيبه في نهوض الإنتاج الزراعي . وأكثر من ذلك تمكن الإشارة إلى أن المكاسب السابقة مثل المحراث الصباب قد تعممت ، وأن طرق التجفيف قد تحسنت أيضاً : ففي هولندا كثرت طواحين

الهواء التي تشغل مضخات ماصة تساعد على كسب أراضي جديدة . وأخيراً ظهرت بعض الزراعات الجديدة في أوربة : الرز الذي زرع أولاً وحده في إسبانيا الإسلامية ، ووصل إلى سهل البو الأدنى ، والقمح الأسود ، الذي أدخل إلى أوربة الشرقية منذ الإمبراطورية المغولية وتبنيت زراعته في آخر القرن الخامس عشر في النورمانديا وفي بروتانيا وأعطت قيمة للأراضي الفقيرة .

وأخيراً ، إن التقنيات التجارية والمصرفية ، دون أن تعرف تجديدات حقيقية ، انتشرت هي أيضاً بصورة عريضة في أوربة النصف الثاني من القرن الخامس عشر . إن التأمين وضع التجار في ملجأ من أخطار البحر وهجمات القراصنة ؛ وعلم الحسابات في جزء مزدوج ، الذي يسهل الرصد والموازنات ، والسفينة (الكبالية) التي تجنب نقل رأس المال والصرف اليدوي للعملة . وشجعت على غو أشكال بدائية للرأسمالية : الشركات التي تجمع رؤوس أموال عدة مساهمين ، تسيطر على البنك والتجارة الدولية الكبرى . إن شركة آل ميدتيشي ، مع فروعها في بروج ، ولندن ، وناپولي والبندقية تعتبر أشهرها . ولكن الرأسمالية الناشئة تغلغت أيضاً في قطاعات الاقتصاد الأخرى . فمن المؤكد أن التاجر - المتعهد ، الذي يشغل الحرفيين ويجهزهم بالمادة الأولية ليس جديداً ؛ ولكن نوعاً من الرأسمالية يمكن وصفها برأسمالية صناعية ، ظهر منذ آخر القرن الخامس عشر في بعض مناطق أوربة : وارتبط بنمو النشاطات التي تتطلب حشد عدة عمال يتعاونون لإنجاز عمل واحد ، ومواد مكلفة للحصول عليها وصيانتها : إن الرحاب البحرية ، التي تجمع أحياناً في موانئ البحر المتوسط عدة ألوف من العمال ، معامل زجاج ، أفران عالية ، تتطلب كفاءة إنتاجها المتزايد جهازاً عديداً ؛ وطواحين مائية خاصة بطحن القمح ، وقشر الدبغ ، العظم (نبات يصنع لوناً أزرق) أو عجينة الورق .

والنشاطات المنجمية في عز نهضتها تقدم مثلاً آخر من هذا النموذج في

التنظيم : إن تجهيز المناجم ، في الواقع ، يحتاج أيضاً إلى وضع أموال متزايدة ، ولذلك تشكلت شركات رأسمالية ، لشراء المستغلات القديمة أو الحصول على امتيازات جديدة . ويتمثل رأس المال بمحصول تباع إلى أفراد ، يتركون تسيير المنجم إلى المدير ، والمنجمين ، الذي لا يشتغلون لحسابهم أصبحوا عمالاً مأجورين . وهذه الأشكال الجديدة للنشاط الاقتصادي تقدم صفة مازالت استثنائية ولكنها نجحت أحياناً في تفجير إطار عمل العصر الوسيط ، التنظيم الصنفي للحرف . وهكذا يرى في صناعة النسيج عدد من المشاريع أقامت الآن خارج المدن لتجد بقرها المادة الأولية أو مجاري الماء التي تجهزها بالطاقة . ولكن أيضاً للإفادة من اليد العاملة التي لا ترتبط بالأنظمة الصنفيه . وهذه حالة الفلاندر التي نمت فيها صناعة الأقمشة في الأراضي المستوية الخالية من التضاريس .

وبعد ، فهل تكيف الإنتاج والتوزيع مع الطلب ؟ في كثير من الدومينات كان الطلب يزداد بأسرع من كمية المحاصيل الجاهزة للاستهلاك . ومع النهضة الديموغرافية وتحسين مستوى الحياة ودخول عدد كبير من الفئات الاجتماعية في اقتصاد المبادلات ، تكاد سلع الاستهلاك الجاري تغطي في الغالب الحاجات . وكذا الحال من أجل الحبوب : لأن السطح النسبي للأراضي المزروعة نقص في أوربة لصالح مستغلات زراعية أخرى أكثر عائداً بالربح ، مثل تربية الحيوانات وزراعة الكرمة . وبالرغم من أن التغذية بخاصة في المدن تترك مكاناً أقل للحبوب ، فإن هذه كانت تنقص لأقل طقس سيء يأتي ويفسد المحصول . وعليه لا يوجد تخلية ممكنة من الغابات في الجزء الغربي من أوربة لإعدادها صالحة للزراعة . وكذلك الطلب على السمك لا يشبع بالصيد في بحر الشمال وبلجيكا ، وهذا بالرغم من اختراع طريقة للحفظ ، أي تكديس سمك الرنكة المملح أو المدخن في برميل . وأكثر أيضاً أن بعض محاصيل البنخ تفقدها زبائنها الفنية

في البلاطات الأميرية في عز توسعها والطبقة البورجوازية ذات الدخل الأفضل . والتوابل تصل بسهولة أقل منذ أن احتل الأتراك الطريق المغولي وغلا ثمنها كثيراً . والسكر أيضاً الذي يفضلُه أصحاب الذوق على العسل ، ولا ينتجه الغرب ، بالرغم من بعض محاولات الجنوبيين ، في قبرص ، وفي البرتغال . وأخيراً ، وبالرغم من الاستثمار الكثيف للمناجم الأوربية ، فإن المعادن الثمينة ، ولا سيما الذهب ، الذي يتضمن باستعماله الآن جزءاً كبيراً من النشاط الاقتصادي ، تنتج بكمية غير كافية للإجابة على الحاجات النقدية .

الأوربيات الثلاث الاقتصادية

إن التعمير الاقتصادي وتحسين الإنتاج وإشباع الحاجات الجديدة ، كل هذه القضايا وضعت بصورة مختلفة حسب البلاد ووجدت فيها حلولاً مختلفة . والحياة الاقتصادية المنظمة منذ زمن طويل على السلم المدني أو الإقليمي مع ارتباطها بالنشاط الأوربي بكامله ، قد استقرت في الواقع في الإطار القومي . والتضامن الجديد يقرب المنتجين عمال الأمة الواحدة أمام المنافسة الأجنبية . والحركة بخاصة قوية حيث يتزعمها العواهل . وتدخل الدولة في الحياة الاقتصادية له في الغالب هدف ضروري . ولكن تشريع آل تيودور في إنكلترا ، وتشريع الملكين الكاثوليكين في إسبانيا ، أو تشريع لويس الحادي عشر في فرنسا ، كان من نتيجته الإنتاج القومي وحمايته . وكذلك توسع الحق الملكي في تحت تربة المناطق الغنية بالفلذات ، ولا سيما في الجبال ، حيث لا يستطيع أي مالك أن يفيد من حقوقه ، كان هدفه المباشر أن يحصل للعواهل على موارد جديدة لأنهم لا يمنحون الاستثمار إلا مقابل عشر الإنتاج ، ولكن كان من نتيجته تأمين رقابة الدولة على الإنتاج المنجمي القومي . والبلاد الأوربية ، حسب اتجاهات اقتصادها ، يمكن أن تصنف في ثلاث جماعات أساسية . فبينما ظلت الممالك الشرقية متجهة شطر الماضي ، وكانت ممالك أوربة الوسطى والغربية تجدد ازدهار دون أن تنجو تماماً

من بعض الصعوبات ، دخلت شبه الجزيرة الأيبيرية عن عزم في طرق المستقبل التي تساعد على إشباع الطلبات الجديدة للاقتصاد الغربي .

أ - بلاد الشرق الأوربي الكاثوليكية

لم تتبع البلاد الكاثوليكية في شرقي أوربة : هونغاريا ، بوهيميا ، بولونيا ، ألمانيا فيما وراء نهر الأيلب باقي أوربة في تطوره . وظلت إلى آخر القرن الخامس عشر وقبل كل شيء بلاداً زراعيةً ، ونشاط التجار فيها في أيدي الأجانب .

وهنا كما روسيا الموسكوفية الأرض موفورة أكثر من الناس ، وكان الأمراء ، وحدهم يتصرفون بالسلطة في أراضي فتحت حديثاً ويؤلفون لأنفسهم في الأراضي العذراء دومينات واسعة . ويفرضون على فلاحي هذه المناطق الذين لا يملكون لأرضاً ولا عتاداً زراعياً ، مقابل التمتع بقطعة أرض صغيرة وب حمايتهم ، سخرات ثقيلة على الذخر ، أي الدومين الخاص بالأمراء . وفي الشرق الأوربي المتجه شطر الماضي ، تشكلت (عبودية ثانية) ونظام أميري جديد يكرس هذه المناطق لقرون الركود الاقتصادي ، بينما تمنع سلطة الأمراء الإقطاعيين إقامة دول مركزية . ونظراً لغياب المدن الهامة والبورجوازية التاجرة ، كانت التجارة من النموذج الاستعماري في أيدي الأجانب ، وأوربة الشرقية تجهز البلاد الغربية ، بالمحاصيل الزراعية والمواد الأولية التي لا توجد عندها ، وتجار الهانز الجرمانية يأتون إليها ويبحثون عن بعض محاصيل البذخ مثل العنبر والفراء التي يبيعونها من جديد فيما بعد بثمان غالٍ جداً . ولكن التجارة تتناول بصورة أساسية البضائع الفقيرة والثقيلة ، والكبيرة الحجم ذات السعر الضعيف نسبياً : حبوب ألمانيا الشرقية وبولونيا التي تصدر نحو الفلاندر ، وإنكلترا وأكيتانيا ، وخشب المناطق البولونية والإسكندنافية وكل ماتحت محاصيل الغابة ، الصمغ ، الزفت

(القار) ، رماد الغابات الضروري لصباغة القماش ، والحديد ، وبخاصة السمك الآتي من إسكاندينافيا .

ب - وسط وشمال غربي أوربة

وبالمقابل ، يرى في وسط وشمال غربي أوربة ، اقتصاد أكثر تطوراً يترك إلى جانب الزراعة مكاناً هاماً للحرفية والتجارة . إن وجود مدن عديدة وفي الغالب مأهولة جداً بالسكان ، وسعة العمليات النقدية التي تنفذ إلى كافة الفعاليات الاقتصادية توضحان فيها أفول النظام الأميري ونهضة الطبقة البورجوازية الغنية والقوية التي شجعت مساندتها جهود الأمراء والملوك نحو المركزية . وفي هذا القطاع من أوربة ، يرى أن الحياة الاقتصادية في كل بلد لها سيئاتها الخاصة وقضاياها الفردية .

البورجوازيات التاجرة ، محرك الاقتصاد في أوربة الوسطى

لم تكن في ألمانيا الغربية وفي إيطاليا سلطة مركزية قوية ، ولذلك كان دور البورجوازيات أساسياً في المدن التاجرة ، المتنافسة تارة ، والمتضامنة تارة أخرى على الصعيد القومي .

(١) - إيطاليا

كانت شبه الجزيرة الإيطالية ، المحظية بقدرة تقاليدها وكمال تقنياتها التجارية والصناعية والمصرفية ، هي أيضاً من أكثر المناطق ازدهاراً في الغرب . والإيطاليون يحافظون في التجارة والبنك على دور دولي من الصعيد الأول . وفي الحقيقة ، إن الفتح التركي أوقف بفظاظة التوسع الإيطالي في الشرق بتدمير الوكالات كلها ، ولكنه لم يحرم التجار الإيطاليين من دورهم كوسطاء في تجارة السلع الشرقية الثمينة ، التوابل وبخاصة ، وظلوا وحدهم يوزعونها في كل أوربة . وبنفس الشكل ، وبالرغم من ردود الفعل التي تكره الأجانب عند البورجوازية

القومية ، فإن البنوك الإيطالية ما فتئت تمول جزءاً هاماً من الفعاليات الاقتصادية في البلاد الأوربية ، وعلى سبيل المثال في البرتغال ، أو المشاريع السياسية للعواهل الإنكليز أو الفرنسيين ومشاريع الأمراء البورغونيين . وأخيراً إن النصف الثاني من القرن الخامس عشر يتصف في إيطاليا نفسها بالتقدم الزراعي المرتبط بأعمال كبرى في التجفيف والري وبنهوض صناعي في صعيد الصناعات النسيجية والمنشآت الملاحية ، وصناعة الورق ، والزجاج والأسلحة . ومع ذلك فإن توزيعاً جديداً جغرافياً أخذ يتجه إلى نقل المراكز الاقتصادية نحو الشمال وتركيز أكثر الفعاليات أهمية لصالح بعض هذه المراكز . فبينما أقل نجم مملكة نابولي ، المستعبدة للمصالح الآراغونية ، كانت المدن التي تتمتع بازدهار عظيم . وجنوة ، التي تنافسها فلورنسا والبندقية اللتان عرفتا كيف تؤمنان حصر التجارة الشرقية ، كانت المدينة التي تأملت أكثر من غيرها من نتائج الفتح التركي . ولكن إذا رأى ميناء جنوة تجارته تميل إلى الأفول ، فإن التجار الجنوبيين حافظوا في خارج إيطاليا على نشاط كثيف : لقد كانوا حاضرين في إنكلترا ، والبلاد المنخفضة ويلعبون دوراً من الصعيد الأول في البروفانس حيث استقرت أسرة دوريا التي حكم عليها بالنفي ، وبخاصة في البرتغال . ففي لشبونة كان آل لوميليني صيارفة الملوك . ويسيطرون مع تجار شركاء آخرين على تجارة الحنطة ، وبينون سفناً . وفي البندقية ، المنافسة السعيدة لجنوة ، تتطابق الدولة مع مصالح أوليغارشية تجار : وكان المجلس الأكبر ومجلس الشيوخ ينظمان قوافل السفن وينتخبان البضائع التي تنقل ، ويمنعان استعمال السفن الأجنبية . وكان البنادقة سادة تجارة التوابل ، وتذهب سفنهم لتبحث عنها في الشرق وتأتي بها إلى أسواق أوربة الشمالية : بروج ، لندن ، أنفرس بقوافل منظمة تجتاز مضيق جبل طارق . وكان الأسطول البندقي يضم ، في آخر القرن الخامس عشر ، أكثر من ٣٠٠٠ سفينة قادرة على الملاحة حتى في الشتاء ، و ٣٥٠٠٠ ملاح . وكانت مدينة الأدواج تسحر بسناها وازدهارها كل من يزورها من مختلف الطبقات .

وفي داخل القارة ، تمتع ميلانو بموقع تكشفت محاسنه حديثاً : فهي تقع على منافذ المعابر الألبية الهامة ، وتفيد من نمو العلاقات بين شبه الجزيرة وألمانيا وتشرف عليها ، وهي تضيف ، إلى صناعة في عز نهضتها ، ازدهار (كونتادو) كانت أريافه مسرحاً لجهد كبير في تحسين الأراضي . وأخيراً فلورانس ، بين كل المدن الإيطالية ، في آخر العصر الوسيط ، كانت أكثرها لمعناً وضياءً . فنذ ضم پيزا وتشكيل دولة توسكانية ، أصبحت فلورانس دولة بحرية ، وأطلقت سفنها الخاصة على البحر المتوسط والأطلسي . وكان البنادقة مع الفلورنسيين أنشط التجار في القسطنطينية وفي كل الإمبراطورية العثمانية . وزادت هذه النهضة البحرية الازدهار ، الذي كانت المشاريع القديمة ، صناعة النسيج ، وتوسع الشركات التجارية والمصرفية في الغرب ، مستمرة في تأمينه .

٢ - ألمانيا

لقد استيقظت ألمانيا الغربية بصورة أحدث من إيطاليا على النشاطات الصناعية والتجارية ، ولكنها كانت آخذة في سد تأخرها الاقتصادي ، وكانت هذه الیقظة مرتبطة بنمو التجارة في بحر الشمال وفي البaltic . إن الهانس الجرمانية ، التي تضم المدن التجارية في ألمانيا والرينانيا وتسيطر عليها هامبورغ ولوبيك حارستا المرور بين البحرين ، حافظت على نشاط كبير : لقد وضع الهانسيون الشرق الأوربي على صلة مع الغرب الأقصى لتكامل إنتاجاتها . يسوقون نحو الغرب المحاصيل الخام من أوربة الشرقية ، والحبوب والسمك ، والخشب والفرو ويجهزون أوربة الشرقية بالمنسوجات من الفلاندر وإنكلترا . والملح من لونيورغ أو من الأطلسي وحتى التوابل التي يأتي بها الإيطاليون إلى بروج . ومع ذلك فإن تجارة الهانس بدأت تنحط . وفقد التجار الألمان امتيازاتهم في لندن ، لاسيما وأن السفن الإنكليزية والهولندية بدأت تنافسهم في دومينهم الخاص . إن مركز ثقل الاقتصاد الألماني انتقل نحو الجنوب لصالح مدن ألمانيا

الجنوبية . ومنذ أقول الطرق والأسواق الموسمية الشامبانية ، أفادت هذه المنطقة من نمو العلاقات البرية المباشرة مع إيطاليا ؛ ومن جهة أخرى ، إن الجبال القديمة في ألمانيا الجنوبية الغنية بالفلذات أفادت من النهضة الكبرى في النشاط المنجمي في وقت أخذ الطلب على الأشياء المعدنية بالازدياد وازدهرت مدن بسرعة : ليبزيغ ، أوغسبورغ ، نورمبرغ ، راتسبون وفرانكفورت على الماين ، وأصبحت مراكز أسواق موسمية شهيرة . وتأسست فيها شركات كبرى على مثال إيطاليا : لقد أنشئت (شركة ألمانيا) في رافنسبورغ في آخر القرن الرابع عشر على يد جوزيف هومبيس ، وكان آل فوجر حائكين متواضعين ، في أوغسبورغ ، أثروا بتجارة النحاس نحو البندقية ، وكانوا في آخر القرن الخامس عشر قادرين على إقراض العواهل مبالغ عظيمة .

الملكية توجه النهضة الاقتصادية في أوربة الغربية

وفي البلاد الأخرى ، في الوسط الغربي من أوربة ، أخذت الحياة الاقتصادية طابعاً قومياً بوضوح ، لاسيما وأن العواهل أنفسهم كانوا يحاولون توجيهها .

أ - الدولة البورغونية

تقدم الدولة البورغونية المثل الأول . فقد نهضت منذ بداية القرن الخامس عشر من الأزمات المرتبطة بالأوبئة والحروب التي أصابتها أقل مما أصابت فرنسا . ويرجع ازدهارها جزئياً إلى السياسة الحاذقة والنشطة التي سلكها أدواقها : فقد أغنى هؤلاء ، ولا سيما فيليب الطيب الكروم البورغونية ، وحملوا صناعة إمارتهم ضد المنافسة الإنكليزية وبحثوا في اللوكسمبورغ عن مناجم الفلذات . وشجع شارل الجريء التجارة بصورة خاصة . وقام في ١٤٧٠ م بأعمال كبرى لإزالة رمال الزووين وإنعاش نشاط بروج ؛ وصحبت الروابط السياسية التي عقدها مع الدول الأيبيرية والإيطالية مبادلات اقتصادية . وأخيراً ، إن

العملة الممتازة التي سكها الأدواق (الفيرلاندر) الذهبية لعبت دوراً سعيدياً في الفاعلية الاقتصادية . ومن جهة أخرى ، عرف العواهل البورغونيون كيف يضمنون تحت نفوذهم مناطق اقتصادية مختلفة ومتكاملة تؤمن للحياة الاقتصادية في إمارتهم توازناً قومياً حقيقياً : وهذه المناطق الزراعية الغنية في بورغونيا تشاركها بسعادة المراكز الحرفية وتجار البلاد المنخفضة . إن الخمر الأوسرية والكوت دور ، ومركوريه ، نُوي وبون . أغنت دوقية وكونتية بورغونيا اللتين تصدرانها بالطريق النهري انطلاقاً من أوسير وشالون على الصون نحو الفلاندر وإنكلترا . وهذا الغنى أدى إلى تقدم عام في النشاط . فقد أصبحت شاتيون - على - السين مركز أقمشة محلية ، ولاسيما ديجون ذات الموقع الجيد في نقطة عبور بين فرنسا الشمالية والجنوب ، ومكاناً لتجارة هامة ، وتغطت بعائرفخمة . وفي البلاد المنخفضة كان الازدهار العام أقل من غيره . وأحدث تحويل الصناعة والتجارة فيها انتقالاً لمراكز النشاط كان غير ملائم للمدن الفلاماندية الكبرى . وفي مضار الصناعة ، شكت صناعة الأجواخ أكثر فأكثر من منافسة الأجواخ الإنكليزية التي أخذت مكان الإنتاج الفلاماندي في أسواق عديدة وحتى في بروج . وكانت المدن الكبرى للأقمشة في عزأفولها : ففي يپر ، في آخر القرن ، تدمرت عدة بيوت ، ورد ثلث السكان إلى التسول . ومع ذلك فإن المراكز الصغرى التي تصنع الأقمشة من النوعية الجارية ، مثل كاسل ، توركوانغ ، كورترية ، استطاعت أن تنجو من الأزمة ، وحاول الحرفيون الفلامنديون أن يتكيفوا من جديد بالتوجه نحو فعاليات جديدة مثل صناعة النسيج الصوفي الخفيف ، وصناعة السجاد والأقمشة الكتانية في المدن الكبرى مثل بروكسل ، ولاسيما في المراكز الريفية الصغرى مثل ثرفيه أو أودينارد . وتم تطور التجارة أيضاً على حساب الميناء الفلاماندي الكبير ، بروج . وفي الحقيقة ، إن بروج مازالت مشرقة جداً بعد في منتصف القرن الخامس عشر ، وكانت ميناءً كبيراً لترانزيت التجارة الدولية ، ومركز الفروع الأساسية للشركات الإيطالية . وما زالت تتمتع بنشاط كثيف .

وكان العصر أكبر عصر للهندسة المعمارية والتصوير (الرسم) في بروج ،
العصر الذي بنيت فيه كنيسة القديس - المخلص وكنيسة قبر السيد - يسوع
المسيح ، العصر الذي اشتغل فيه جان فان آيك وملنغ . ولكن تراكم الأموال
المتزايد ، بالرغم من الأعمال التي أجريت في ذراع زوين ، والتنظيم الدقيق
والشديد هربا للتجار الأجانب وأعدا لبروج أفولاً سريعاً . ففي آخر القرن
وجدت عدة آلاف البيوت في حالة دمار . وأفادت من هذا الأفول في المدن
الفلاماندية مناطق واقعة إلى الشمال منها : ميناء أنفرس يستقبل التجار الأجانب
الذين يغادرون بروج . وكان ذلك الميناء نشيطاً منذ القرن الرابع عشر ، ويملك
منذ فيضانات بداية القرن الخامس عشر طريقاً أسهل إلى البحر . والسفن
الأجنبية لا تضرب برسوم ثقيلة ، وتستقبل أسواق المدينة جميع التجار وجميع
الصرافين . وقرفيه أصبحت ، في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، أول
سوق مالي للتجارة الأوربية : فالتجار من كل البلاد يعالجون فيها قضاياهم على
نماذج (مساطر) ويقومون فيها بعمليات تجارية أو مالية على أسعار البضائع
والعملة . ولم تعمل أنفرس مع ذلك سوى أن حلت محل بروج في وظائف التجارة
والترانزيت . ولم يكن لها جهاز بحري خاص أكثر من بروج . أما في الشمال ، في
الموانئ الهولاندية ، مثل أمستردام فقد ولدت بحرية جديدة : فالملاحون
الهولنديون يصدرون براميل السمك إلى كل بحر الشمال ، وبالرغم من جهود
الهانس ، نفذوا إلى الباطيك . وكان النهوض الاقتصادي لهولاندة عاماً : فنبو
المروج الاصطناعية ساعد على حذف الأراضي البور وتربية الحيوانات الكبرى .
وبدأت الزبدة والجبن الهولاندية تصدر . ونهضت أيضاً صناعة الأقمشة في المراكز
المدنية مثل دلفت وليدن وبيعت الأقمشة الهولاندية في أسواق عديدة في شرق
أوربة .

ب - مملكة فرنسا

في مملكة فرنسا ، جرى الإعمار الصعب وتقدم الاقتصاد تحت الإدارة الملكية أيضاً . لقد خربت فرنسا بفضاعة من جراء اجتياحات الحرب وأصيبت بنقص عام في السكان . والإعمار الذي بدأ في آخر حكم شارل السابع ، تقدم ببطء شديد . ونهاية الحرب الرسمية لاتعني في الواقع الرجوع مباشرة إلى السلام التام . وخلال زمن طويل أيضاً ظلت الأرياف والطرق تشكو من أعمال الشقاوة التي يرتكبها قطاع الطرق الذين كانوا في الغالب جنوداً سابقين ؛ بينما العدواة الصماء ، التي تسود بين فرنسا وإنكلترا ، تغذي على البحر حرب قرصنة . وأخيراً ، إن ثورات الإقطاعية الفرنسية أفسدت حتى نحو ١٤٧٥ م جهود الملكية لتوطيد النظام . ووجدت أصعدة أخرى نجت من العمل الملكي ، مثل صعيد الديموغرافيا أولاً : فالشعب لا يمكن أن يعمر نفسه إلا بعد عدة أجيال . ويلاحظ عودة الاستيطان في بعض المناطق ، ولكن يبدو أنها على الأرجح تنقلات داخلية للسكان أكثر منها نهضة ديموغرافية تكاد تبدأ . وظلت اليد العاملة نادرة . ومن جهة أخرى ، إن نقص رؤوس الأموال أعاق أيضاً النهوض الاقتصادي في فرنسا . وهنا أيضاً بقي العواهل عاجزين . وفرنسا لاتنتج تقريباً الذهب ، وصادراتها ضعيفة كثيراً لتأتي به إليها . والعمليات التي ينبغي بموجبها استعمال التوابل أو تخصيص أموال على المقبوضات (الدخول) يضيق عليها ، ورؤوس الأموال قلما كانت مجمعة ومركزة . ولم يكن لفرنسا كجاراتها شركات ذات رأسمال مرتفع . والعملة التي أصدرها الملك ضعيفة القيمة ، وفي المملكة تتداول قطع عديدة من النقود الأجنبية .

ودور جاك كور ، الذي يدخل في عهد شارل السابع ، يصور جيداً صعوبات النهضة الاقتصادية بإظهاره بداياتها . كان ابن تاجر فروفي بروج . تلقى في شبابه تعليماً عملياً تماماً . كان ذكياً ، شغليلاً ، جريئاً ودون وسوسة ضمير .

ويعرف كيف يفيد بشكل أفضل من الظروف المواتية . إن أول حظ له هو أنه ولد في بروج حين كانت هذه المدينة عاصمة فرنسا ولي العهد : فاهتبلها جاء كور بربط حظه بحظ من سيكون شارل السابع في المستقبل . شارك أولاً ضارب النقد في بروج . وبما أنه يغامر عن عدم بصيرة على النقود التي خفت قيمتها ، ويصنع قطعاً أدنى من نماذج البراءات الملكية ، فقد لوحق في ١٤٢٩ م . ولكنه عرف كيف يحصل على عفو ولي العهد ، ومنذ ١٤٣٠ م ، أصبح مجهز بالبلاط ، وكانت فرصة جيدة للانطلاق في تجارة بلاد شرقي المتوسط مع الإيطاليين . وفي ١٤٣٥ م أصبح سيد النقد في بروج ، وتبع الملك إلى باريس وبصفته ناظر المالية (١٤٤٠ م) تقبل حراسة حلي العاهل ووظيفة نفقات بيت الملك . وبقرض ٤٠٠٠٠ ايكومول فتح نورمانديا . وفي قبة حياته الرسمية دخل المجلس الأكبر (١٤٥٠ م) وتنبل (١٤٥١ م) وهذا الصعود السياسي وفضل الملك خدما مصالحه بصورة عظيمة . وبمختلف أعبائه كموظف ملكي حقق كسباً عديداً ، دون حساب المبالغ التي تدفع له سراً ليمتتع بمساعيه الحميدة لدى الملك . ودوره كمجهز للبلاط ساعده على تحقيق أرباح جوهريّة على الأقمشة الثمينة ، والتوابل ، والأثاث ، التي يجهز بها . وألف لنفسه على هذا النحو ثروة شخصية عظيمة يمكن أن تفيده كرأس مال للانطلاق . وهذا الرأس مال ضخمة الملك الذي يعهد إليه بالمال . وبفضل رؤوس الأموال هذه تمكن جاك كور أن يجازف في مشاريع هامة بفضل الملك ، كالحصر والإعفاء من الرسوم . وأصبح له جاه عظيم في نظر التجار الأجانب . وكان نشاطه متنوعاً للغاية . ويعتمد أولاً على التجارة الكبرى مع بلاد شرقي المتوسط . كان جاك كور يملك أسطولاً صغيراً من السفن التي بنيت في رحاب مارسيليا . ونقاط ارتباطها هي مونبليه ، إينغ - مورت ومارسيليا . وخوله الملك حق رفع رايته وحصر التجارة مع بلاد شرقي المتوسط (المشرق) . وكان لجاك كور ممثلون في كل شرقي المتوسط ، في الإسكندرية ، بيروت ، دمشق ، فاما غوست ، رودوس ، في إفريقية الشمالية ، في تونس وفي بوجه ، وفي

كل المراكز الإيطالية الكبرى ، وفي بارشلونة . ويحصل منها على التوابل ،
والحرائر ، والبورسولين ، والعمود ، وتعهد بنقل السياح وتجارة الدقيق .
وحاول أيضاً بسط شبكته التجارية إلى شمال - غرب أوربة . وعلى هذا النحو
صدر من باريس توابل إلى إيكوسيا ، ولكن المتول الكبير لم يقتصر على
التجارة ، ولتثير رؤوس أمواله والحصول بسعر رخيص على وسائل تبادل مع
الشرق ؛ وظف أموالاً ، مشاركاً مع تجار آخرين ، في مشاريع حرفية
أو استثمارات منجمية . وكان عنده مصنع للحرائر في فلورانس ، ومصبغة في
مونبليه ، ومعمل ورق في روستاينه في منطقة ليون . وفي هذه المنطقة الأخيرة
يشرف على الإنتاج المنجمي . والتزم فيها لاثني عشر عاماً رسم العشر الذي فرضه
الملك على المناجم . ويملك وحده ، أو مع شركاء في شركة عدة مناجم فضة
ونحاس . ومن بورج ، حيث شاد لنفسه منذ ١٤٤٣ م قصراً حقيقياً ، يحكم
إمبراطوريته الاقتصادية .

إن سنا نجاحه يوضح فظاظة سقوطه . ولم ينقصه الأعداء : من تجار كان
سبباً في خرابهم ، ومن رجال بلاط مدينين له ، ومن حاسدين بذخه القح . حتى
إن الملك نفسه بدأ يقلق من نجاح يمكن أن يرتاب فيه . وليس من الصعب أن
يوجد في نشاطاته شذوذ يذهب به إلى ارتكاب أخطاء . وأضيف إلى هذا الاتهام
أنه تأمر على الملك وأن له ضلعاً في موت أنيس سوريل محظيته ، أي الملك .

وفي ١٤٥٣ م ، حكم عليه بالنفي المؤبد ، وصودرت أمواله ، وأخيراً ، ومهما
يكن نجاح جاك كور الشخص وضاءً ولامعاً ، فإن دوره على مقياس الاقتصاد
القومي ، إذا ما قورن بنشاط الشركات الإيطالية الكبرى ، يبقى متواضعاً . إن
ضعف هذا النجاح المؤسس بصورة أساسية على الفضل الملكي يكشف عدم كفاية
الرأسمالية الفرنسية وصعوبات الإعمار .

وفي عهد الملك لويس الحادي عشر أصبحت نهضة الإعمار حاسمة . لقد أظهر

هذا العاهل أكثر من أبيه اهتماماً حقيقياً بالمسائل الاقتصادية ، وساعدته كفاءاته على القيام في هذا المضمار بسياسة تدخل جديدة تماماً . ففي شبابه ، قضى عدة سنوات في الفلاندر ، وارتبط مع العديد من الإيطاليين . ولما أصبح ملكاً أراد أن يزور مملكته « كما يزور بستاني بستانه » كما يقول طبيبه شوانيه . أمر بتنفيذ بعض الأعمال : مثل تحويل ذراع من نهر اللوار ، وخرق جبل فيزو ، وأحاط نفسه ببورجوازيين على علم بهذه القضايا الاقتصادية . وأفكاره الشخصية ، والمجالس التي يصغي إليها ، كانت في أصل تشريع اقتصادي هام . حقاً ، إن سياسته بقيت عملية ؛ والتدابير التي اتخذها لا تمثل مطلقاً خطة عامة ، وإنما قرارات خاصة ، تقتصر على بعض صعد الصناعة والتجارة ، بينما الاقتصاد الريفي كان أهم منهما بكثير ، ولم يكن موضع أي تدبير . وأخيراً إن الاقتصاد لم يكن للويس الحادي عشر إلا واسطة لتجهيز الملكية بالموارد المالية التي تساعد على تعزيز نفسه . وهذه السياسة ، كما هي ، سهلت عمل إعمار فرنسا لجعل الفرنسيين يثقون بأنفسهم .

والنهضة الزراعية متفاوتة جداً حسب المناطق ، والصعوبة الكبرى تأتي عن نقص اليد العاملة . وقد ترافق الإعمار بهجرات فلاحين غادروا بلادهم عفواً أو لدى نداء الأمراء نحو مناطق قليلة السكان : بروتون ، نورمانديون ، بواتيون وليموزينيون جاؤوا وأقاموا بعدد عظيم في منطقة بوردو وفي جنوب الحوض الباريزي . وصحب جهد حقوقي نهضة الزراعة : فأصحاب الأقطان القدامى قد تهدموا في الغالب ، وحدود قطع الأراضي زالت ، وأخيراً كان الفلاحون حديثين ، ووجب تسجيل أعراف جديدة . لقد نسخت عن القديمة فكان لها صفة محافظة بوضوح . ووسعت المدخرات من الأراضي الاحتياطية ، وأعيد توطيد التعامل الإيجباري والعام لغرض خاص بالأمير مثل استعمال مطحنة الأمير لطحن الحبوب ، أو عصر العنب في معصرته إلخ .. ومع ذلك فإن ندرة اليد العاملة

اضطرت الأمراء إلى تخفيف بعض الشروط : فمن ذلك يلاحظ تراجع جديد للقنانة ، وحلت الضريبة المالية في الغالب محل الأتاوات العينية . وفي النهاية القصوى للعصر يبدو أن الاقتطاع قد تحقق قليلاً قليلاً في كل فرنسا : وساعد الإنتاج في السنوات السمينية على تصدير الحنطة والقمح . ولكن عندما يقع طقس رديء تقع البلاد تحت رحمة المجاعة من جديد .

وفي المضمار الصناعي ، كان التدخل الملكي غالباً . فمن أجل النشاطات التقليدية كان القصد بخاسة تشريعاً مهنيّاً ضيقاً . فقد صادق الملك أو أحدث تنظيم الحرفة بناء على طلب البورجوازية الصغيرة الحرفية التي تمسكت بأن تحتفظ لنفسها بمحصر نشاط ، وجعل الوصول إلى المعلية صعباً على الخدم . وهذا التشريع له قيمة اقتصادية ضعيفة . والأهم من ذلك نمو نشاطات جديدة بإيحاء من الملك . فقد تقدمت الصناعات الاستخراجية بسرعة . إن استخراج الفحم وفلزات الحديد القليل في نورمانديا والدوفينه ترك للمبادهة الفردية الخاصة . ولكن التدخل الملكي كان حاسماً من أجل مناجم النحاس والفضة والرصاص في منطقة ليون . وحفر أروقة ومعالجة الفلزات جذب الملك الألمان واستثناهم من الضرائب . ويراقب الاستخراج موظفون ملكيون يقتطعون للملك رسم العشر على إنتاج المناجم . وشجع لويس الحادي عشر أيضاً لحاجات جيشه ، الصناعة المعدنية . كما شجع أخيراً في الملكة صناعة الحرير ، التي دخلت إلى فرنسا في ١٤٦٠ م . فقد تأسس مشغل متواضع في ليون ، وكان عرضة لعداء التجار الإيطاليين في المدينة ، وعاش ضعيفاً . وعندئذ اهتم لويس بالمشروع .

وفي ١٤٧٠ م لاحظ لويس الحادي عشر قلة حماسة الليونيين ، أهل ليون ، فقرر نقل المشغل إلى تور . ولكن صناعة الحرير الغنية بالمستقبل لم تصل إلى عز نهضتها إلا بعد وفاة الملك . فتحت حكمه بقيت الصناعات التقليدية ، ولا سيما صناعة الأقمشة ، أكثر أهمية من غيرها . وتبع النشاط التجاري نمو الإنتاج

الزراعي والصناعي ، وأفاد هو أيضاً من التدابير الملكية . فقد اهتمت هذه أولاً بالطرق التي تسلكها التجارة . فإذا بقيت الطرق بحالة ضعيفة ، وإذا لم يكن لتنظيم محطات البريد في ١٤٧٩ م لنقل الرسائل إلا غايات سياسية وعسكرية ، فبالقابل وافق الملك على ثقب جبل فيزو بغية تحسين العلاقات بين فرنسا وإيطاليا ، وبخاصة قام بأعمال على مجاري الماء مثل سد نهر اللوار وحفر نهر الأور . وظهر عمله أيضاً في خلق أو المصادقة على أسواق موسمية تفيد من إعفائها من الضرائب : مثل أسواق ليون التي كانت نجاحاً . وبفضل منع الملك للتجار الفرنسيين من الذهاب إلى أسواق جونييف أو الأجانب من اجتياز المملكة للذهاب إليها في ١٤٦٢ م ، كسفت ليون جونييف كملتقى دولي . وخول الملك من جهة أخرى دعمه للتجار : وحاول عبثاً إشراك الطبقة النبيلة الفرنسية على مثال الأمراء الإيطاليين أو الإنكليز في (البضاعة) بتخليصها من فكرة مسبقة عن فقدان صفة النبيل .

وبشكل أكثر نفاذاً شجع لويس الحادي عشر البورجوازية التاجرة ودعم جهود غليوم دو قاري ، وهو ساعي بريد سابق لدى جاك كور ، استأنف جزءاً من أعماله ، وأعمال خلفه بيير دوربول ؛ وهي شركة تؤمن استيراد التوابل من البحر المتوسط الشرقي أخذت في ١٤٧٦ م حصراً . ولكن لويس الحادي عشر لم يحصل من مندوبي المدن على رؤوس الأموال الضرورية لتشكيل شركة هامة من أجل تجارة بلاد شرقي المتوسط . وبالإجمال ، وبالرغم من جهوده ، فإن نشاط فرنسا التجاري ظل ضعيفاً . وهذا يرجع أولاً إلى الاهتمامات النقدية أساساً التي أوجت بسياسة الملك المحبة للكسب . فقد كان الملك مهتماً تماماً بتجنب خروج العملة وحدد الاستيراد . وإذا كان لهذا الموقف نتائج سعيدة في الصعيد الصناعي لأنه يعين تحريات للبحث عن حجر الشب وبخاصة إقامة صناعة الحرير في فرنسا ، فقد حدد بصورة فريدة المشاريع التجارية . ومن جهة أخرى ، نظراً

لفقدان رؤوس الأموال الكافية ، ظلت الملاحة الفرنسية ضعيفة وقديمة والمواني سيئة التجهيز . وأخيراً ، إن مصلحة الملك والتجار الفرنسيين اتجهت بخاصة صوب المتوسط لاسيا وأن فرنسا بعد كسب البروفانس تملك فيه مع مارسيليا منفذاً هاماً . وإذا وضعنا جانباً عودة نشاط الموانئ النورماندية التي تتاجر من جديد مع إنكلترا وشبه الجزيرة الأيبيرية ، فإن الجهود باتجاه الأطلسي ضعيفة للغاية وتشير إلى روح رتابة التجارة الفرنسية .

ج - إنكلترا

بدافع من العواهل من آل تيودور ، قامت إنكلترا ، هي أيضاً بإعمار اقتصادها الذي تضرر بشكل خطير في حربها مع فرنسا ، وأكثر من ذلك أيضاً بحرب الوردتين . ولكنها في الوقت نفسه ، بدأت بقلب حاسم لنشاطها الاقتصادي . ففي الأرياف الإنكليزية ، تراجعت زراعة الحبوب أمام مراعي الأغنام ، لأن بيع الصوف بدأ أكثر فائدة وربحاً للمالكين العقاريين من بيع الحبوب . إن الأمراء ، أصحاب الأرض ، هم الذين حققوا لصالحهم هذا التحويل . ولتنمية تربية الحيوانات ، وجب تأسيس مراعي واسعة وتسويرها بغية حمايتها ضد إحياء الأرض وإعدادها للزراعة ، وضد قطعان المستأجرين . أما قطع الأراضي المدخرة التي بقيت غابات أو أراضي براح ، بوراً ، فكانت مكرسة لهذا النشاط . ويكفي الأمير أن يعوض خسارة المجتمع الريفي عن ضياع حقوق الاستعمال ، وذلك بأن يترك له قسماً من أراضيه . ولكن تعشيب المدخر ، بعد أن كرس حتى الآن للزراعات ، بدأ عملية صعبة . ولما كانت قطع المستأجرين والقطع المستغلة من قبل الأمير مختلطة عموماً وبشكل معقد ، لذلك وجب القيام بجمع الأراضي المتناثرة في أرض واحدة . وأخيراً ، إن بعض الأمراء يرون أعظم من ذلك . وهو أنهم يريدون أن يستعيدوا دومينهم كله لتغذية قطعان خرافهم . وعند انتهاء التأجير ، أو حال وفاة ، يطردون المستأجر . وبما أن رقابة القطعان

تتطلب أذرعاً أقل من زراعة الحبوب ، فإن الفلاحين المحرومين من العمل يتركون الأرض ويهجرون القرى ؛ حتى أن السلطة الملكية قلقت لذلك . فمن ذلك أن براءة ١٤٨٩ م ، التي تشير إلى « حيث يوجد ٢٠٠ شخص يشتغلون في الأرض لا يرى إلا راع أو راعيان » ، تحاول تجنب الحركة . لأنه يرى ، في الحاضر المباشر ، أن الفلاحين المطرودين ، الذين لا يجدون جميعاً عملاً ، لاستخدامهم في الصناعة ، يشكلون عصابات خطيرة من المتسولين . وتدخل الملك لا يمكن أن يمنع الثورة الزراعية التي بدأت الأرياف الإنكليزية لتكون مسرحاً لها ، لاسيما وأن هذا التحول في النشاط الريفي ، الذي كان حتى الآن مسيطراً في الاقتصاد الإنكليزي ، أصبح مرتبطاً بنهضة جديدة في الأصناف الحرفية وفي التجارة . فالأقمشة المصنوعة في إنكلترا من الصوف الذي كان يمّون قديماً المدن الجوخية في الفلاندر ، خلف الآن ، على السوق العالمية ، القماش الفلامندي . والآن يرى التجار والسفن الإنكليزية ينشرونها على الطرق الكبرى للتجارة الدولية . وأصبحت إنكلترا الآن في حال الكشف عن موهبتها البحرية . فمن ذلك أن التجارة الإنكليزية ، تجارة (الأجواخ الطويلة) ، عهد بها إلى المغامرين التجار . وهؤلاء يضعون في الرحاب البحرية سفناً عديدة وينازعون بشدة الإيطاليين والهانسنيين تجارة بحر الشمال ؛ حتى أنهم يرتادون موانئ البحر الباطيك وموانئ البحر المتوسط . وأكثر من ساوثامبتون التي يسيطر عليها الإيطاليون ، وأكثر أيضاً من لندن التي يحافظ فيها الهانسنيون على دور هام ، يرى أن نهضة بريستول ترمز ليقظة قومية للاقتصاد الإنكليزي .

د - شبه جزيرة إيبيريا تفتح للاقتصاد طرقاً جديدة

بالرغم من أن كل بلاد أوربة الوسطى والشمال - الغربي منها وجدت ازدهارها ، فقد لاقت في آخر القرن الخامس عشر معوقات لنمو نشاطاتها الاقتصادية . إن ضرورة الخضوع لمطالبات الأتراك ولحصر البندقية وفلورنسا

للحصول على المحاصيل الثمينة من الشرق بأسعار تضخمت دون حدود بفقدان كل منافسة ، وتقص المعادن الثمينة الذي يلجم نهوض الرأسمالية التجارية ، أوجدت لها مصاعب مشتركة . غير أن بلدين في الجنوب الغربي من أوربة حاولا بنجاح طرقاً جديدة جعلت منهما رائدي الاقتصاد الحديث .

الظروف المواتية للاكتشافات الكبرى

في آخر العصر الوسيط بدأت البرتغال ، ومن بعدها إسبانيا متأخرة كثيراً ، بالبحث عن طرق بحرية جديدة . وهذه المحاولات كانت في أصل الاكتشافات الكبرى . ومن الوجهة التقنية ، أصبحت الرحلات البعيدة ممكنة بالتقدم والتحسين اللذين حققتهما الملاحة في القرون الأخيرة من العصر الوسيط ، وترجع إلى الاتصال بالعرب والتجربة المتوسطية . لقد كانت الرحاب البحرية ، في القرن الخامس عشر قادرة على بناء سفن كبرى تتسع حتى ٥٠٠ تونو ، وعلى درجة من المتانة تستطيع بها مجابهة العواصف في عرض البحار ، وأكثر سهولة في الاستعمال بتبني السكّان (دفة السفينة) الذي تحمله قطعة الخشب أو المعدن التي تشكل الحد الخلفي من القسم الغائص من السفينة . وقد ظهرت هذه الدفة في الغرب ، منذ القرن الثالث عشر ، ولكنها لم تفرض إلا ببطء . والسفينة (الكرك الجنوبية) تقدم نموذجاً لهذه السفن المحسنة . ومن جهة أخرى ، لم يكن الملاحون مجبرين على متابعة السواحل لأنهم قادرون على التوجه في عرض البحار . وكان لديهم البوصلة التي هي اختراع صيني أتى به العرب إلى الغرب منذ القرن الثالث عشر ؛ ومنذ آخر هذا القرن ، فكر إيطالي أن يرفع الإبرة المغناطيسية على محور ويضع الكل في علبة ، وأصبحت البوصلة أداة استعمال سهل . وكان الملاحون عدا ذلك قادرين على تصور ولو بشكل غشيم صورة الأراضي والبحار المعروفة وموقع سفنهم . وفي الواقع ، إن معارف العصر القديم الإغريقي بالرياضيات وعلم الفلك نقلت إلى الغرب منذ القرن الثاني عشر بواسطة العرب . ونظام بطليموس في رسم

الخرائط ، بطليموس العالم الإسكندري الشهير في القرن الثاني ق.م ، قبله بيير دايي الجامعي الباريسي في كتابه (صورة العالم) الذي ألفه في ١٤١٠ م . لقد علم العلم الإغريقي على تعيين موضع نقطة على سطح الكرة الأرضية بواسطة خطوط العرض وخطوط الطول ، وفي الوقت نفسه إعداد أنظمة انعكاس تساعد على تمثيل سطح منحن على سطح مستو . والكرات الأولى صنعت في الغرب ورسمت على سطحها المجموعة المزدوجة لدوائر التحديد ، خطوط الطول وخطوط العرض . وفي آخر القرن الثالث عشر ظهرت الخارطيات الأولى التي رسمها الجنويون ؛ وفي القرن الرابع عشر تمت المدرسة الكاتالانية التقاليد الجنوبية ورسمت خارطيات جميلة مثل الخارطة التي قدمت في ١٣٧٥ م إلى شارل الخامس . وفي القرن التالي اشتغل خريطان ألمانيان عظيمان جيروم مندر ونيقولا بهام في خدمة ملك البرتغال . وبما أن أسماء الموانئ تكتب عمودياً على السواحل التي يشيرون إلى رسمها ، فإن هذه الخارطيات سميت الخارطيات المينائية . وأصبح بإمكان الملاحين استعمال خرائط نصف الكرة الأرضية والخرائط العادية ، لأنهم أصبحوا قادرين على تعيين النقطة أي على تعيين موقع سفنهم . ومن الممكن مع الإسطرلاب قياس ارتفاع كوكب فوق الأفق ، وبالتالي بالرجوع إلى الجداول الفلكية (كالجداول الألفونسية) التي وضعت في قشتالة في القرن الثالث عشر ، حساب مسافة بعد الكوكب عن خط الاستواء .

لقد كانت هذه التقنيات وهذه المعارف منذ زمن طويل تحت تصرف ملاحى الغرب كله . فكيف إذن الإيضاح بأن هذه الوسائل الجديدة المقدمة للملاحة لم تستخدم قبل القرن الخامس عشر ؟ ومن جهة أخرى ، إن المشاريع الجديدة في الأطلسي كانت في بدايتها من عمل الدولتين الإيبيريتين وحدهما وبخاصة البرتغال ؟ ذلك لأن الغربيين لم يفيدوا من هذا التقدم لمجابهة البحار المجهولة إلا عندما مست الحاجة ودفعتهم بشكل حازم . لقد كانت البرتغال ، من

بين جميع بلاد الغرب ، أحد البلاد التي شعرت أكثر من غيرها بضرورة الانطلاق على الطرق الجديدة ، وفي الوقت نفسه كانت المملكة التي تتمتع بظروف مواتية لمحاولة المغامرة .

البرتغال أول مستفيد من هذه الظروف

في أصل الاكتشافات الكبرى ، يبدو أن البواغث الاقتصادية كانت قاطعة وجازمة . إن حصر الارتباطات مع الأتراك من أجل تجارة التوابل ، من قبل البندقية وفلورنسا ، دفع المنافسين البائسين من المدينتين التاجرتين إلى البحث عن طرق أخرى للوصول إلى البلاد المنتجة لهذه السلع . وكالبلاد الأخرى ، كانت البرتغال في هذه الحالة . كما أن نقص الذهب دفع الغربيين أيضاً إلى الاستيلاء على مصادر المعدن الثمين ، في السودان التي يأتي منها كميات ضعيفة من الذهب تصل بطريق إفريقية الشمالية وشبه الجزيرة الإيبيرية إلى أوربة . وكان البرتغاليون كسائر الغربيين بحاجة ملحة إلى الذهب . ولكن موقعهم الجغرافي يضعهم بشكل أفضل من غيرهم قادرين على تحويل تيار الذهب السوداني لصالح طريق أطلسي يكون لهم فيه الحصر . وأخيراً ، إن التوسع ضرورة حيائية للبرتغال ، فهو بلد صغير لم يحظ بإنعام الطبيعة ، ويشكو من عجز دائم في الحبوب . وهو بحاجة للحصول على أراضي للحنطة وبسط سطح الصيد أيضاً . وإلى الأسباب الاقتصادية تضاف أيضاً العوامل الدينية . ففي الغرب كله أخذ المسيحيون بتقدم المسلمين الأتراك وتطلعوا إلى منازعتهم . وتوجد أسطورة تصنع من (الكاهن جان) سيد إمبراطورية مسيحية غنية في قلب إفريقية ؛ وحضت المشروع الذي يشق بمقتضاه طريق يؤدي إليه ، لإبرام حلف معه للتغلب على الأتراك . ولكن لتحقيق هذا المشروع الوهمي ، كان يعوز العواهل والمؤمنين حاسة الصليبيين الأوائل . ولم تنجح جهود البابوية لإعداد حملة لهذا الغرض ، لأن الإمبراطورية البيزنطية في نظر غالبية الغربيين تمثل عالماً بعيداً وأجنبياً ومصيره يختلف عن

مصيرهم . وبالمقابل لم ينقطع النضال ضد المسلمين بالنسبة لسكان شبه الجزيرة الأيبيرية ، لانتزاع التراب القومي من أيديهم . إن الخطر الإسلامي الذي ظهر عند تدخل المرابطين والموحدين في إسبانيا ظل واقعاً ملحاً ولدفع التهديد لماذا لا يعبر في هجمة الاسترداد مضيق جبل طارق ؟

إن الأوربيين ، وبخاصة البرتغال ، كانت لهم في القرن الخامس عشر أسباب واضحة للقيام برحلات استكشافية . وتجمعت ظروف مادية وسياسية شجعت مشاريع هذا البلد الأخير . أولاً موقعه الجغرافي . فهذه المملكة الصغيرة من الفلاحين والصيادين ترى في القرن الخامس عشر أن توسعها القاري تحده قشتالة . لذا كان من الطبيعي أن يتحول نحو المحيط الذي ينفتح عليه بواجهة بحرية عريضة ؛ كما أن قرب إفريقية يغري بحملة نحو الجنوب . ولعبت أيضاً لصالح البرتغال عوامل اقتصادية وتقنية . فقد كانوا يتصرفون في الواقع ببحرية ممتازة . والبرتغاليون أنفسهم بحارة مجربون . وفي القرن الرابع عشر بسطوا سطح ملاحتهم حتى بحر الشمال . وفي القرن التالي نفذوا إلى البحر المتوسط . ولكن البورجوازية البرتغالية لم يكن عندها ما يكفي من رؤوس الأموال لتمول بنفسها وحدها توسعاً تجارياً عظيماً . ولذا كان خط البرتغال في إقامة رجال أعمال إيطاليين ، جنوبيين بخاصة حذفهم من البحر المتوسط الغربي البنادقة والفلورنسيون الذين يستخدمون البرتغال لنقل نشاطاتهم إلى الغرب . فمن ذلك أن شركات إيطالية استثمرت الثروات الطبيعية في البلاد ، الفلين على سبيل المثال ، وأقرضت المال إلى الملك وبخاصة استأجرت عمائر لتجارة الشمال أو البحر المتوسط . وأخيراً ، إن هذه الكفاءات القومية والأجنبية استخدمتها الأسرة الملكية نفسها التي تدفع الزخم الحاسم ، وتترأس حركة التوسع . لقد كان العاهلان البرتغاليان إدوارد الأول (١٤٣٣ - ١٤٣٨ م) وألفونس الخامس الإفريقي (١٤٣٨ - ١٤٨١ م) يهتمان شخصياً بالشؤون البحرية ، وفي رحابها الملاحية في

نهر التاج ، أنشأ أسطولاً من السفن التي تسير بالقلاع والمجاديف وأسها في شركات تجارية . وإلى جانب الملوك لعب الأبناء ، أبناءهم دوراً هاماً : وأشهرهم هنري الملاح الأخ الثاني للملك إدوارد الأول . وكان هذا الأمير المثقف يهتم معاً بمعاودة النضال ضد الإسلام وتأسيس عظمة بلاده الاقتصادية ، وذلك بأن يؤمن لها الذهب والتوابل وحقول الحبوب . ففي لاغوس مقامه الاعتيادي ، أو في منطقة رأس سان فنان ، حيث يقيم أحياناً ، جمع الوثائق الضرورية لرحلات الاكتشافات ، وجمع خارطات جنوية وكتلانية ، وأقام مراسلة أتبعته بعلماء وفلكيين من مختلف بلاد أوربة ؛ وأخذ مذكرات عن النتائج التي أتت بها الحملات التي أطلقت على البحر . ومن جهة أخرى ، أخذ لخدمته أو مصلحته ملاحين وتجاراً إيطاليين حسنوا له سفن الاكتشاف السهلة التشغيل عوضاً عن السفن الثقيلة الجنوية المخصصة لنقل البضائع . وسفن الاكتشاف هذه هي الكرافيل ، السفن السريعة والصغيرة السعة .

لقد اتجه التوسع البرتغالي شطر إفريقية . ففي الحملات العسكرية وجد أبناء الطبقة النبيلة الفقيرة ممن أتوا بعد البكر ما يشغلهم ، وتوالت الاكتشافات السلمية . بدأ البرتغاليون في مطلع القرن يهتمون بمراكش الغنية بالخنطة والتي تفيد موانئها منافذ لذهب السودان (الغربي) . وأفادوا من ضعف السلالة المرينية وأطلقوا أول حملة على سبته على شاطئ مضيق جبل طارق (١٤١٥ م) . وفي ١٤٣٧ م ، أخذ فرديناند ، أخو هنري الملاح ، أسيراً في فاس ومات بعد أن تحمل ألماً شاقاً ، وبهذا أخذ اسم الإبن المقدس ، ولكن وكالات تأسست في صافي وفي أنفا ، وفي ١٤٧١ م أخذت طنجة أخيراً . وفي الوقت نفسه بدأ الملاحون البرتغاليون يتقدمون في أرخبيلات الأطلسي وعلى طول الشواطئ الإفريقية : في ١٤١٩ م ، اكتشفت جزر ماديرا ؛ وفي السنتين التاليتين (١٤٢٤ - ١٤٢٥ م) حاول البرتغاليون أن يوطدوا مواقعهم على شواطئ جزر كاناري التي لم يحتلها

القشتاليون بعد . ولكن قشتالة خصت نفسها بكل جزر كاناري في مجمع بال في ١٤٣٤ م ، وبين ١٤٤١ و ١٤٤٥ م استطاع مونيو تريستاوتباعاً الرأس الأبيض قبل قرن . ثم بدأ الاكتشاف البطيء للسواحل الإفريقية : وبالرغم من الأساطير التي ترعب الملاحين ، وبالرغم من خسارة سفن في العواصف ، ساعدت كل رحلة على الذهاب إلى أبعد من قبل نحو الجنوب فقد تم تجاوز رأس بوغادور في ١٤٣٤ م ، وبين ١٤٤١ و ١٤٤٥ م استطاع مونيو تريستاوتباعاً الرأس الأبيض والرأس الأخضر . وفي ١٤٤٦ م اكتشف بارتلمي دياز أفواه نهر السنغال وكان أول ملاح دخل مباشرة بتاس مع العالم الأسود . وبارك البابا نيقولا الخامس تقدمه بنشر مرسوم يعهد به إلى ملك البرتغال حصر وكالات إفريقية الغربية . وعند موت الأمير هنري ١٤٦٠ م ، صوب خليج غينه ، ثم اجتيز خط الاستواء (١٤٧١ م) . وفي ١٤٨٠ م بلغ بارتلمي دياز أقصى إفريقية الجنوبي وأطلق عليه اسم (رأس الرجاء الصالح) . وبعد اثني عشر عاماً طاف فاسكودو غاما حول الرأس واستطاع بلوغ الهند مباشرة .

كانت نتائج هذه الرحلات البرتغالية مزدوجة : ففي الحاضر المباشر ساعدت على استغلال الأرخبيلات والأراضي التي عرفت لصالح البرتغال . ففي جزر آصور أغنى البرتغاليون زراعة القمح ؛ وفي ماديره غرسوا الكرمة وقصب السكر . ومنذ ١٤٧٢ م انطلقت أول قافلة سكر إلى الفلاندر . وكانت الوكالات التجارية في غينه في أيدي (شركة لاغوس) التي تأسست في ١٤٤٤ م ؛ وبين مراكش وجزر آصور التي تجهز الوطن الأم بالقمح والخيول ، كانت البرتغال تقدم المنسوجات ومواد الجلد . وغينه ، التي تجهز بالذهب ، والعبيد ، والتوابل ، نظمت الشركة نوعاً من تجارة (ثلاثية) أمنت ، بفضل موارد متممة ، الازدهار البرتغالي . وهذا هو الاستثمار الاستعماري الحديث مع ما يتمه تجارة الزنوج الذين يباعون في لاغوس أو في لشبونة .

إسبانيا تنطلق على طريق المحيط

وبعد ذلك حملت الاكتشافات البرتغالية ثماراً أخرى . فقد تكشف الطريق الجديد نحو الهند وتوابلها على أنه أعلى من طريق المتوسط . لأن المرور (الترانزيت) الصعب برأ حتى الإسكندرية والرسوم المقتطعة في المرور من قبل الأتراك تجعله غير سهل ، غير مريح ، ولأن التوابل تصل بكمية كبيرة إلى الأسواق الأوربية . إن البحث عن طريق من جهة الغرب ، وهو مشروع جاء متأخراً لحساب إسبانيا ، لم يؤد إلى نتائج ملموسة إلا ببطء . نشأ المشروع من متابعة أخطاء ظهرت في آخر الأمر سعيدة . الأول ، الخطأ الذي ارتكبه جغرافي معاصر لبطلينوس وهو مارن الصوري الذي قصر بشكل عظيم في تمثيله للعالم المسافة التي تفصل أوربة الغربية والصين ، ولم يضع بينهما غير محيط أطلسي ضيق . والخطأ الثاني ، هو خطأ كريستوف كولومب الذي وثق بهذه المعطيات وباشرا الوصول إلى آسيا عن طريق المحيط الأطلسي . كان كريستوف ابن حائك جنوي ، وعامل سابق لأصحاب مصارف في مدينته ، عرض مشروعه أولاً على ملك البرتغال ، ومن بعد على هنري السادس ملك إنكلترا ، ولكن دون نجاح . وفي ١٤٨٦ م ، لاقى من الملكين الكاثوليكين أفضل ترحيب . وفي ١٤٩١ م سمحت له إيزابل بتشكيل أسطول صغير من ثلاث كراويل . انطلق من قادس في ٣ آب ١٤٩٢ م باتجاه الغرب . وفي ١٣ تشرين الأول بلغ كولومب إحدى جزر باهاما . وبعد أن زار كوبا قفل راجعاً ومقتنعاً بأنه لامس جزراً مجاورة للصين . ودون أن يعلم ، اكتشف قارة جديدة : أمريكا .

لقد فتحت المشاريع الأيبيرية لأوربة الحديثة عوالم جديدة للفتح والاستغلال .

وهكذا نرى أن أوربة تحولت تماماً في آخر العصر الوسيط :

في الشرق ، كانت الدولة العثمانية في عز توسعها ، والإمبراطورية البيزنطية والممالك البلقانية (بلغاريا ، صربيا) تحيا حياة وقف التنفيذ . أما روسيا الموسكوفية فقد تحررت من سيادة المغول وتهيأت لقبول الإرث البيزنطي ، بينما اتحدت بولونيا بليتوانيا وألقتا مع هونغاريا حصناً أمامياً للمسيحية الرومانية تجاه تقدم الأتراك .

وفي أوربة الوسطى ، تخلت الإمبراطورية ، كالبابوية ، عن الحلم القديم للسيطرة على العالم . ولم يبلغ تجميع الأراضي ، الذي تحقق لصالح بعض الإمارات ، نهايته . وظلت شبه الجزيرة الإيطالية شهيدة التجزئة ، وعرضة لطمع الممالك المجاورة . وألمانيا لم تكن إلا تعبيراً جغرافياً . لقد تفتتت فيها القوة السياسية بين العديد من الإمارات الصغيرة والمدن المستقلة . ومع ذلك ، بدأت بعض البيوت الأميرية ، كبيت آل هابسبورغ ، تثبت سلطتها .

وأخيراً ، أخذت أوربة الغربية صورتها الحديثة : ففي شبه الجزيرة الأيبيرية ، عندما وحدث قشتالة وأراغونة مصيرهما ، وفي إنكلترا بعد هزات حرب الوردتين الفظيعة بين آل يورك وآل لانكاستر ؛ وفي فرنسا ، حيث استطاع لويس الحادي عشر دفع الخطر البورغوني ، أنجز العواهل تنظيم دولهم بجمع الطاقات القومية حولهم .

الفصل العاشر

التطلعات الجديدة

الإنسانية والنهضة

إن الاكتشافات الكبرى التي تطبع آخر العصر الوسيط هي أيضاً اكتشافات الفكر والذوق : وهذه التطلعات الجديدة جذبت الأفكار المثقفة نحو طرق جديدة ، طرق الأدب الإنساني (الإنسانية) والنهضة .

بقاء التقاليد الفكرية والفنية

ومع ذلك لم تكن القطيعة مع الماضي فظة . فما زال التقليد يحافظ في القرن الخامس عشر على سيطرته الكبرى على الأفئدة والنفوس . ويتمثل أولاً بالكنيسة عدوة كل تجديد . وفي الحقيقة ، لقد ارتفعت في داخلها انتقادات عنيفة ضد المساوئ والمفاسد التي تشوه صورتها : كالوظائف الكنسية التي يتنازع في التعيين لها العواهل والبابا والهيئات الانتخابية ، حتى أصبحت رهان الأطماع المادية لأبناء الطبقة النبيلة من غير البكور أو المجازين من الجامعة الباحثين عن أسباب حياتهم ؛ أو غياب الأخبار بل وحتى الكهان الذين يراكون عدة وظائف في آن واحد ويعيشون بعيداً عن رعاياهم بزهو كثرة الإنفاق ؛ واضطراب الحياة الديرانية في أنظمة تضئها خلافات داخلية خطيرة ؛ وضعف التعليم اللاهوتي الذي تعطيه الجامعات ؛ والتقوى الغشمية الفجة والباطلة عند المؤمنين الذين أسيء تطيرهم بـ (طبقة كادحة إكليركية) من الوكلاء الذين يساء دفع أجورهم ، أو هم جهلة أو فاجرون . وفي الحقيقة ، إن التطلعات إلى إصلاح الكنيسة لم تنطفئ

تماماً . فقد ناضل بعض رجال النخبة للإتيان بأدوية لهذه الآلام . وبمساندة شارل السابع أعدّ الكاردينال ديستوفيل إصلاحاً لامتحانات ؛ وجان بوربون ، أب كلوني (١٤٥٦ - ١٤٨٥ م) حاول إصلاح نظامه ؛ وجان ستاندوك ، أحد ممثلي التقوى الحديثة أخذ على عاتقه الكلية (مدرسة ثانوية) المدمرة في مونتيفو التي أصبح رئيسها (مديرها) وفرض فيها نظاماً دقيقاً شديداً واستقبل فيها الطلاب الفقراء . ولكن هذه الجهود المبعثرة والمتقطعة لا تعطي إلا نتائج دون غد . لأن الجمود يغلب عند من يمكنهم التحريك أو القيام بإصلاح شامل : من أبحار أغنياء ، وعواهل راضين عن أنهم انتزعوا من البابوية كونكوردات تساعدهم على بسط سيطرتهم على كنيسة مملكتهم . والجميع يخشون تحويلاً للكنيسة يهدد فوائدهم وامتيازاتهم . وأخيراً إن البابوية غير قادرة على أن تتأسس إصلاحاً . لقد خرجت ضعيفة من محنة الحيدة الكبرى ، واقتصرت بابوات النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، أمام المزاعم المتعاطمة للدول الحديثة ، على صيانة ماتبقى من سلطة حبرية ، وصيانة مصالحهم الزمنية في إيطاليا . ومن جهة أخرى ، إن شخصية أواخر أبحار العصر الوسيط لم تكن أهلاً لرفع الجاه الروحي والأخلاقي للكرسي الأقدس . فقد اقتضح ألكسندر السادس بورجيا ، المنتخب في ١٤٩٢ م بلا أخلاقية حياته الخاصة وبالمحسوبية التي يمارسها لصالح أقربائه ومقربيه . ومثل هؤلاء الأبحار لا يمكنهم ولا يريدون أن يستجيبوا لتطلعات بعض المؤمنين .

وتحت مؤشر التقليد يدخل أيضاً جزء كبير من الإنتاج الأدبي والفني . فقد أنهت اللغات العامية تطورها البطيء . وأعطى تقدم اللغة الفرنسية وتوحيدها أفضل مثال ؛ وإذا بقي التمييز بين لغة الشمال (الدويل) ولغة الجنوب (الدوك) ، فإن أدب الدوك لم ينتج مطلقاً أعمالاً كبرى . وفي مدن جنوبي فرنسا تبنى المجتمع المثقف لغة الشمال ؛ وكذلك كومين ، رغم أنه فلاماندي الأصل ، استعمل في

مؤلفاته لغة إيل - دو - فرانس . وإن ظفر اللغة الفرنسية ، التي بسطت لفظها ، وانتظم نحوها ، هياً ولا شك لجمهور أعرض النهضة الأدبية في القرن السادس عشر . ولكن في الحاضر المباشر ، بقي أدب النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، وفيماً للأغراض التقليدية . وبالرغم من عودة السلام والازدهار ، فما زال الطالع التشاؤمي مستحكماً . فنحو ١٤٦٥ م ، أصدر رفيق سابق لجان دارك ، واسمه جان دو بوي رواية سيرة ذاتية (الشاب) تصف بواقعية مصائب الحرب . وفكرة الموت المستحوذة والفساد اللذين يكرس لهما الجسد لم تزل . وهذا هو الغرض المألوف عند أكبر شعراء ذلك العصر وهو فرانسوا فيلون . وهذا الطالب من أصل متواضع الذي اختلف غالباً في زمن (شبابه المجنون) إلى أماكن السوء كما اختلف إلى دروس كلية الفنون حيث قبل أستاذاً في ١٤٥٢ م . هذا الغلام السيء كان طوراً وطوراً لصاً ، وطفيلياً على حساب امرأة عامة ، وقاتلاً ، هذا المحكوم عليه سابقاً بالموت ، ولكن عفى عنه ، وغاب ، في ١٤٦٣ م ، دون أن يترك أثراً ، وجد ، في تجربته الأليمة للحياة والشر ، نغمات مؤثرة تذكر بالواقع المفجع للوجود الإنساني . ومع فيلون بلغ الشعر الغنائي إحدى قممه .

وربما ، كرد فعل ضد هذا الوسواس بالموت ، ظهرت عودة إلى روح الفروسية وإلى الحب المهدب . وحاول الأمراء إحياء تقليد الفرسان الشجعان بالإكثار من المباريات ، وأوجدوا نظماً جديدة . وعدلت أغاني الملاحم القديمة ، وأغنيت بتوسيعات جديدة ، وأخرجت نثراً ، وألفت قصصاً كانت لذائذ للمجتمع الناعم المصفى .

غير أن العقل الرشيد الصلب للبورجوازية لا يمكن أن يتكيف مع هذا المثل الأعلى الذي عفى عليه الزمن . فمن أجل جمهور بورجوازي ، يرى أن قصة جهان دو سنتره هجاء لقصة فروسية تخرج شاباً نبيلاً في خدمة أمير يطوف العالم من

أجل حب جميلته ، بقرها أباتي سمين يأخذ مكانه دون جهد . وإثر ترجمة بوكاشيو من قبل لوران دو بروميرفيه عرف (جنس) القصة نجاحاً كبيراً ، وأفضل مثال على ذلك هو (مئة قصة جديدة) . وانتصر الفكر الإيجابي (الوضعي) للبورجوازية في أوصاف دون زينة وتكلف للمؤرخ كومين (١٤٤٧ - ١٥١١ م) الذي يبحث عن تحديد وتعيين أسباب الحوادث ، وإيجاد بواعث الأمراء والملوك . ونجح بخاصة في مسرح الملهاة (الكوميديا) : من ذلك جنود مثل الأطفال دون اكتراث بياريس يمثلون مسرحية هزلية مضحكة وحماقات ، مثل هزلية الأستاذ (المحامي باثولن) التي أبدعت نحو ١٤٥٤ م ، وهي وصف تهكمي للخداع العام الديني .

والفن الغوطي ، بعد أن بدا أنه ضعف في القرن الرابع عشر ، عرف في القرن التالي تجديداً حقيقياً في الأسلوب الوهاج . وفرض نفسه وقاوم الموضات الجديدة خلال أكثر من مئة وخمسين عاماً بفضل اختراعات وبحوث مستمرة جددت شباب العبقريّة الغوطية .

ولكن تجديد الأشكال كان عاماً . فالدعائم ذات الحروف الحادة تصعد حتى القبة في البناء دون أن تنقطع بتيجان ؛ والقباب تثقل بتعاريق (زخارف ناتئة كالعروق) إضافية ، مضلعات القبة وأضلاع العقد (في القبة الغوطية) ، ترسم نجوماً أو وروداً . والواجهات تغطي بنقوش منحوتة وسدائل (مايرخي من السقف على شكل المظلة ويجلس الملك تحته) وذرى (مسلات البناء الغوطي) ودرازين خفيفة وجبهات مثلثية تتوج باب الكنيسة فتحول الأجزاء العليا إلى دنتلا من الحجر (تخاريم) . وقد انتصر الفن الوهاج في كنيسة السيدة في مدينة إپين بالقرب من شالون / على المارن ، وفي سان - ريكيه ، وفي بو ، وتغلغل في ألمانيا ، في أولم وأرفورت ، ونورمبرغ ؛ وفي إنكلترا تحت الاسم (الأسلوب العامودي) بدا أنه أقل تواشجاً وأكثر تجريداً (عراء) كما في كنيسة هنري السابع

في وستنستر . وفي هذه الكنائس تخلد التماثيل الجنائزية المسجاة على القبور ،
والتماثيل التي لا عد لها من الحجر أو الخشب ، نماذج أنواع فن التمثال الغوطي ، كما
تخلد مدرسة سيين أو مدرسة إسبانيا فن الرسم .

ولذا فإن التقاليد الفكرية والفنية للعصر الوسيط كانت أبعد من أن تركز
لزوال فج ، وتجاوزت الخط الفاصل الذي وضعه المؤرخون بين العصر الوسيط
والعصور الحديثة . وهي تملك أحياناً في ذاتها ، كما هي حالة الفن الغوطي ، قدرة
إبداع وتجديد تساعدها على الخلود حتى في عز قلب القرن السادس عشر . ولكن
المستقبل لم يكن هنا ، إنه في أشكال جديدة للفكر والحس ظهرت في القرن
الخامس عشر تحت اسم : الإنسانية والنهضة .

الإنسانية

إن نمو الأفكار الجديدة التي أطلق عليها اسم (الإنسانية) يتضح بمناخ ملائم
للتخمر الفكري . ففيه ردت الفلسفة المدرسية (السكولاستيكية) إلى رياضة
لفظية ورتيبة ، وتزعزعت فلسفة توماس الاكوينى بالنقد الأوكامي (بالنسبة إلى
غليوم أوكام) . ولم ترض كل هذه الأفكار ، وتركت المجال رحباً أمام الأبحاث
الجديدة . لقد ظهرت رحلات الاكتشاف ، ونشطت حب الاطلاع الفكري بعد
أن استيقظ بتأمله مع عوالم مجهولة . وأخيراً ، على الصعيد المادي ، شجع التطور
السياسي والاجتماعي نشاط المفكرين . وكان العواهل وأمراء القرن الخامس عشر
أغنياء وأقوياء ، وفي الغالب مثقفين ويحبون أن يحاطوا بالأدباء والكتاب
ويأخذوا وجه حماة لرجال الآداب والفنون بحمايتهم وتأمين عيشهم . وكانت
الأبحاث الجديدة تعدّ وتهياً أحياناً في ظل الجامعات التقليدية ، ولكنها نمت في
الغالب في الأكاديميات والحلقات التي تضم علماء وأمراء وكبار البورجوازيين .
وكانت إيطاليا في قمة ازدهارها الاقتصادي الذي شهد كثرة البلاطات الأميرية ،
وقدمت الأمثلة الكثيرة من هذه الحماية . لقد كانت الثقافة تشرفاً في بلاط

الأمراء الصغار مثل فريديريك دو مونتفلتره في أوربينو أو آل إيست في فراره ، وفي بلاط آل ميديتشي في فلورنسا . وأعطى كوزم ميديتشي لابنه لوران أفضل أساتذة إيطاليا المعاصرين : بكشي ، أرجيروبولوس علمه الإغريقية ، ومارسيل فيتشينو الفلسفة الأفلاطونية . وجذب لوران بدوره إلى فلورنسا الأدباء الإيطاليين مثل أنج بوليسين أو لاندنيو ، وألجأ في مدينته كارجي الأكاديمية الأفلاطونية التي أحيها مارسيل فيتشينو . وكذلك حمى أحبار النصف الثاني من القرن الخامس عشر الإنسانيين : فقد أعاد نيغولا الخامس (١٤٤٧ - ١٤٥٥ م) تنظيم جامعة روما ودعا إليها مشاهير الإنسانيين مثل لوران فالالا وتيودور دو غازا . وهو الذي أنشأ (مكتبة الفاتيكان) التي كانت تضم عند وفاته ما يقرب من ألف كتاب . وأخيراً أمر بترجمة آثار إغريقية إلى اللاتينية . وييوس الثاني كان نفسه إنسانياً . ثم سيكست الرابع . وقد أتم هذان الأخيران عمل نيغولا الخامس . ودعا سيكست الرابع أرجيروبولوس ليدرس في جامعة روما ، وأمنى مكتبة الفاتيكان بشكل عظيم ، وأنشأ مصلحة للإعارة ، وشجع على انتشار الأعمال النادرة غالباً . وفي ألمانيا ، كانت المدن التاجرة التي تضم أغنى البورجوازية ، نورمبرغ ، أوغسبورغ ، في القرن الخامس عشر ، مراكز كبرى للنشاط الفكري الجديد .

إن قضية أصول الإنسانية مرتبطة بشكل وثيق بتعريف حركة الفكر هذه . فقد جرت الفكرة على أن الإنسانية نشأت من (اكتشاف جديد) للأدب القديم ، أو ، حسب إيضاح أقل إجمالاً ، من معرفة مؤلفي العصر القديم الكلاسيكي الذين ظلوا حتى ذلك الحين مجهولين ، كبعض الأدباء اللاتين مثل شيشيرون ، لوكريس ، وسينيكا ولا سيما الإغريق . إن مجيء عدة علماء إغريق إلى إيطاليا في القرن الخامس عشر مثل لاسكاريس أو بساريون ، الذين طردهم الفتح التركي من القسطنطينية وأتوا ومعهم مخطوطات ثمينة ، أعطى الثقة لهذه النظرية . وفي

الحقيقة ، إن هؤلاء الأدباء أسهموا في الحركة الإنسانية ، ولكنهم ليسوا مؤلفيها . إن دراسة العصر الوسيط تدل على أن هذه القرون التي وصفت على عجل بالبربرية ، كان يغذيها الفكر القديم . وإذا قُبل تعريف الإنسانية بأنها اكتشاف العصر القديم فيجب إرجاع (نهضة القرن الثاني عشر) ، وحتى النهضة الكارولنجية ، بداية هذه الحركة . وبين فكر أكليركي القرن التاسع والقرن الثاني عشر وفكر إنساني القرن الخامس عشر توجد هوة . وفي الحقيقة ، ليست معرفة كمية كبرى من الآثار اللاتينية والإغريقية هي التي تميز الإنساني . إنها موقف جديد إزاء التراث القديم . وبالنسبة لأساتذة وطلاب العصر الوسيط ، أخذت نصوص العصر القديم طابعاً مقدساً وظهرت كأنواع من الخوارق ويجب محاولة فهم معناها السري . ويقتضي العمل البحث عن الحقيقة المحتواة في النص كما نقلتها الرواية مع الاختصار على تفسير يحترم ودون الرجوع إلى الواقع الماضي أو المعاصر . أما موقف الإنسانيين فيختلف جداً . إن الحماسة للقديم لم تخنق فيهم روح الفحص . وإن احترام فكر المؤلف يثير بالعكس فيهم مطالب نقد لغوي : ففي أصل الإنسانية يوضع أولاً الشعور بنقصان ، عدم كمال ، النصوص التي نقلتها الأجيال العديدة من الناسخين . لقد أدخل هؤلاء شروحاً ، وصححوا بجرأة أو عن غير وعي كل مالم يفهموه . وعليه فإن أول عمل للإنساني هو أن يعيد النصوص المشوهة بجمع أكثر عدد ممكن من نسخ المؤلف نفسه لتحذف منه الأخطاء بالمقارنة . ومن بعد الاطمئنان عن معنى الكلمات ، وبخاصة تعابير مجموعة المفردات الإغريقية وذلك بسؤال الفقهاء البيزنطيين بشكل لا يمل ولا يكل . وعندئذ فقط يصبح من الممكن محاولة فهم فكر المؤلف . وفي هذه المرحلة ، تدخل في أعمال الإنسانيين اهتمامات النقد التاريخي . لقد كفَّ الإنسانيون عن اعتبار المؤلفين القدامى ، وبخاصة أرسطو ، (حيوانهم الأسود) ، كهواتف غيبية ، وسلطات معصومة لمعاملتهم مفكرين كالآخرين ، أي محددين بالعصر والمجتمع الذي كانوا يعيشون فيه ، وأنهم أهل لأن يخدعوا أو يجهلوا بعض

القضايا . وهكذا فإن المؤلفين المعروفين أفضل من غيرهم في العصر الوسيط ، مثل فيرجيل أو أرسطو ، قد اكتشفهم من جديد الإنسانيون الذين يضعون آثارهم في ظرفهم الحقيقي . إن فكرة عالم ثابت ، غير تاريخي أوحى به المنطق الأرسطاطاليسي ، قد دفعت ، لأن المعرفة ليست كشفاً (وحيّاً) يعبر عنه مرة واحدة من فم هاتف غيبي . إنها فتح تدريجي تقدمي للفكر الإنساني .

هذا وتشرح طرق العمل ، التي أوضحها الإنسانيون ، الاتجاهات الأساسية لتفكيرهم . وهم أعداء المذاهب الفلسفية ، ولا يزعمون أن يبنوا (كاتدرائية أفكار) تنظم وتحبس ، في مجموعة نظام منطقي مقرر مسبقاً ، الكون كله وتخضع كل بحث إلى لاهوت مفترض مسبقاً . وهذا الموقف وكرههم لأرسطو يساعدان ، في الصعيد الفلسفي ، على فهم تفضيلهم لأفلاطون الذي يضعونه في مركز ثقافتهم : فعوضاً عن الكتب الأرسطاطاليسية القاسية الصلبة يفضلون أسلوب الفكر الأفلاطوني المرن الذي يعبر ، في جدل الحوارات عن تناقضات الواقع . ومن جهة أخرى ، إن اكتشافهم للواقع القديم هو اكتشاف للإنسان في بحثه عن المعرفة والحقيقة . ولذلك فإن الإنسان و (العلوم الإنسانية) ، على عكس اللاهوت ، الذي هو علم الخلود الإلهي ، في مركز اهتمامات هؤلاء الفقهاء الذين يسمون بشكل دقيق (إنسانيين) .

وبتواضع ، يتصور الإنسانيون إذن تحقيقات محسوسة وواضحة في مضمار العلوم الأخلاقية (المعنوية) أولاً ؛ ومن الملاحظ أن كثيراً منهم يقومون ، إلى جانب الأعمال اللغوية صرفاً ، بعمل المؤرخين : فمن ذلك أن ليوناردو برونو (١٣٧٠ - ١٤٤٤ م) مؤلف (تاريخ فلورنسا) يمكن أن يعتبر ، بصحة طريقتة ، أنه أول مؤرخ حديث . والمعروف أكثر منه ماكيافيلي (١٤٦٩ - ١٥٢٧ م) الذي حلل في كتابه (الأمير) بكل برودة علمية ، حيث نُظر عن خطأ ، وعن عدم تبصر ، « كيف تكتسب إمارة ، وكيف يحافظ عليها ،

وكيف تفقد » . واهتم الإنسانون بعلوم الطبيعة ؛ والطريقة النقدية ، التي وضحوها لدراسة النصوص ولدراسة المدينة الإنسانية ، ليست غريبة عن النجاحات التي سيعرفها البحث العلمي في القرن السادس عشر .

ليس فقط في هذه الإنسانية التي اكتشفوها مع حدودها ، ولكن أيضاً مع إمكانيات تحسينها وكلها وتفتحها ، وثق الإنسانون بها ثقة عظيمة . والإنسان الذي يفهمونه ويتصورونه ليس وضعياً أمام الله ، ساقطاً بذنبه الأصلي ، ولكنه قادر على النضال ضد مصابه والظفر عليه بفضيلته .

والإنسان بقدرته على الإبداع ليس كائناً ساقطاً ، وإنما هو صورة عن الله . وبتنمية جميع قدراته يتقرب من النموذج الخالد الذي خلق عليه .

وظهر مثل أعلى إنساني جديد بعيد جداً عن مفاهيم العصر الوسيط في الخضوع والخنوع . فهل هذا يعني أن الإنسانين هراطقة ؟ لقد ظل معظمهم مسيحيين متحمسين يحترمون تعاليم الكنيسة ، ويأبون على أنفسهم معالجة القضايا الميتافيزيكية (ما وراء الطبيعة) التي لا تستطيع التجربة عليها أن تعلمهم . وموقفهم موقف تواضع وليس موقفاً لا دينياً . وكان بعضهم ، وبخاصة مارسيل فيتشينو ، يعون التناقضات التي تقوم بين إيمانهم ومفهوم الإنسان ، ويحاولون أن يوقفوا ويوحدوا الوثنية القديمة والفكر المسيحي . ولكن هؤلاء الفقهاء اللغويين وصل بهم الأمر حتماً إلى معالجة النصوص المقدسة بنفس الشكل الذي عالجوا به المؤلفين الدنيويين ، رغبة منهم في إرجاع مظهرها الأصلي . ومع الزمن ، أعدّ هذا الفكر النقدي حرية عقيدة البروتستانتية وعدم الإيمان اللاديني . ولكنه لم يكن موضع بحث بعد في آخر القرن الخامس عشر .

وكانت إيطاليا وطن الإنسانية كما كانت إغريقية وطن الفكر القديم ؛ ولكن من إيطاليا ، حيث نشأ الفكر الجديد ونما ، وصل البلاد الأخرى ، ولا سيما

فرنسا وألمانيا ، فقد عرفت فرنسا من قبل في القرن الرابع عشر ، تحت التأثير الإيطالي (إنسانية أولى) اشتهرت برجال مثل : نيقولا دو كلامانج ، وبيير كول ، وغوتيه كول . ولكن بعد ١٤٥٠ م فقط عادت الحركة إلى باريس : ففي ١٤٥٨ م ، أخذ غريغوار دوسيتا دي كاستيلو كرسي الإغريقية في الجامعة ؛ وفي ١٤٥١ م ، دخل إلى السوربون السافوياردي غليوم فيشه الذي ألف (فن الفصاحة) الحماسية . وتابع عمله فلاماندي وهو : روبير غاغن . وهكذا تألفت في العاصمة الفرنسية جماعة من أصدقاء الآداب القديمة وتستقبل إيطاليين أو إغريق مثل جورج هرمونيم . وفي هذا الوسط تثقف كبار الإنسانيين الذين شرفوا مطالع القرن التالي : كالفرنسيين جاك لوفيشر ديتابل وتلميذه غليوم بوديه ، والهولاندي إرزموس الذي تابع في ١٤٩٥ م دروس كلية مونتيغو . وفي ألمانيا تألفت أيضاً مراكز للفكر الجديد : في نورامبرغ ، حيث يشتغل إلى جانب رسامي الخرائط مثل مارتن بهين ، إنسانيون مثل بيرهايمر ؛ وفي أوغسبورغ حيث يعيش الإنساني بوتنغر .

وهذا الانتشار للإنسانية ، في بلاد جديدة وفي أوساط أكثر سعة ، خدم باختراع المطبعة . وقد أعدت هذه بتقدم صناعة الورق ، لأن الرق لا يكون رقيقاً بشكل كافٍ ولا مرناً أيضاً للمرور في مكابس المطبعة . والورق اختراع صيني نقله العرب إلى الغرب وظل حتى القرن الخامس عشر إنتاجاً نادراً ومكلفاً . وكان ثخيناً وخشناً ويمتص الحبر وتنقصه المتانة . وفي القرن الخامس عشر كثر الاستعمال الزائد للباس الجسم من القماش والنمو المتعلق بزراعة الكتان والقنب ، وكثرت الخرق البالية التي جهزت معامل الورق بمادة أولية من أفضل نوعية . وفي إيطاليا بخاصة ، في فابريانو ، تحسنت التقنيات ، وحلت مطرقة الخشب محل حجر الطاحون ، وفتت بقوة أكثر الخرق من الأقمشة الرديئة . وتطلب التصنيع النهائي الهلام الحيواني الذي يعطي للورق رقة ونعومة وصقلاً . وانتعشت صناعة

الورق على أيدي تقنيين إيطاليين وانتشرت في كل أوربة : في الشامانيا ، في الأوفيرن ، في المنطقة الباريزية ، في رينانيا . ومهارة الصانع تضمن نوعية الإنتاج الذي يكلف أربع أو خمس مرات أقل من كلفة الرق . وأعدّ ورق الطباعة . وعلى هذا الورق تبنت أولاً طريقة الطباعة بالأحرف الخشبية أو الألواح الخشبية (الكسيلوغرافيا) المطبقة سابقاً على المنسوجات وتساعد على إنتاج صور تجمع في كتيبات . ونحو ١٤١٨ م ، ظهرت في البلاد المنخفضة الطباعة الخشبية لإيضاحات محفورة على خشب وضعت على هامش هذه الصور . وبصورة موازية لهذه البحوث في الطباعة الخشبية وجد مخترعون آخرون ، ومن بينهم بخاصة جواهر يون ، يحاولون إيجاد طريقة أكثر مرونة لطباعة نصوص طويلة . ومع الأحرف المتحركة وجد الحل . وجرت المحاولات الأولى في ستراسبورغ في ١٤٣٩ م ، وفي هولاندة في ١٤٤٠ م ، وفي آفنيون في ١٤٤٥ م . ثم وضع الاختراع ونقح على يد جان غوتنبرغ في مشغله في مدينة ماينس (١٤٥٠ - ١٤٥٥ م) . وتحسن أيضاً وتكامل في ماينس على يد پير شيفر : ففي قالب يمثل في حفر رموز الكتابة ، يصهر القصدير أو الرصاص . والحروف المصنوعة على هذا الشكل ، المجموعة في أشكال لتأليف النص المراد نسخه ، تدهن بجر أسود كثيف ؛ وبواسطة مكبس ، تترك انطباعها على الورق ؛ وباعتبارها متحركة ، يمكن استعمالها من جديد بتركيب وطباعة نصوص أخرى .

ومن بعد انتشرت المطبعة في البلاد الأوربية الأخرى . وهكذا في فرنسا ، في ١٤٥٨ م ، أرسل شارل السابع إلى ماينس ، للتجسس على الصناعة الجديدة سكاك النقد في باريس ، نيقولا جانسون الذي استقر فيما بعد طباعاً في البندقية . ولكن النساخ الفرنسيين كانوا معادين لهذا الاختراع الذي يخاطر بخراب نشاطهم . وفي ١٤٦٣ م ، طردوا من باريس روست الماينسي الذي جاء إليها ليعرض الكتاب المقدس مطبوعاً . ومع ذلك ، في ١٤٧٠ م ، فإن الألماني جان

هيلن قيم مكتبة الصوروبون والسافواردي غليوم فيشه الأستاذ في الجامعة ، فرضا المطبعة بوضع ثلاثة حرفيين ألمانين في الكلية . ثم ظهر طباعون باريزيون مثل باسكيه بونوم الذي طبع في ١٤٧٧ م أول كتاب باللغة الفرنسية وهو (التقاويم الفرنسية الكبرى) . وفي ليون ، في ١٤٧٣ م استقر الليجي غليوم برسي الذي نشر ترجمة فرنسية (للأسطورة الذهبية) (١٤٧٦ م) . وتشجعت الصناعة الجديدة بلويس الحادي عشر الذي استخدم الطريقة الجديدة لنشر نص معاهدة سانليس (١٤٨٢ م) . وغت في ليون ، التي كانت ، بمئة مشغل للطباعة ، أول مركز فرنسي في آخر القرن . كما انتشرت في تولوز وألي . وفي خارج فرنسا ، أصبحت بال ، أنفرس ، والبندقية بخاصة ، مراكز كبرى للطباعة الأوربية . وفي هذه المدينة الأخيرة استقر في ١٤٨٩ م مؤسس سلالة الطباعين الكبرى ، آلد مانوتشه . فقد أبدع هذا الفقيه مطبعة خرجت منها روائع نموذجية للطباعة . واخترع الحرف المائل . وبادئ بدء استعملت المطبعة لنشر مؤلفات تقيية ، ومن بعد ، ظهرت أفضل وسيلة لتقدم التعليم ونشر الأفكار الجديدة .

نهضة الفنون

في الوقت الذي انتشرت فيه الثقافة الإنسانية بالكتاب الجديد ، كان الفنانون العديدون ، ولا سيما في إيطاليا ، يكثررون الآثار الفنية المستوحاة من علم جمال جديد ، علم جمال النهضة . وكانت الروابط وثيقة بين هاتين الظاهرتين للعبقرية الإيطالية . وهذا الفن ، الذي ازدهر في إيطاليا ، وانتشر في أوربة كلها ، يعرف أولاً ، هو أيضاً ، بطابعه الإنساني العميق . فبينما كان بناء العصور السابقة يوجهون أنظارهم نحو مدينة الله ليأتوا منها بقبس وانعكاس ، كان مبدعو الفن الجديد يشتغلون لمدينة الناس . وآثارهم : من قصور ، وفرسكات ، ولوحات كانت زينة فخمة في الحياة الدنيا . وهذا لا يعني أن تفتح الفن الدنيوي أدى إلى زوال الفن المقدس . فقد شيدت كنائس بعدد عظيم ، وأوحت

الموضوعات الدينية للرسمين والنحاتين عن سعة . ولكن العائز المقدسة لم تكن هرباً هائماً لصور بناء نحو السماء . وبتوازن حجومها التي تعتمد بصورة صلبة على الأرض ، تكون على قدر الإنسان . ففي المشاهد الدينية الممثلة ، يرى الإنسان بعواطفه وتطلعاته في الصعيد الأول . وفن النهضة إنساني لأنه ، كما هو ، صنع للناس ، ولأنه ثروتهم . ودور الحماية أهم أيضاً في مضمار الفنون مما هو في مضمار الثقافة . فقد كان الحماة يشجعون ويسهلون ، بمساعدتهم المادية ، عمل المثقفين ، ويستطيعون أحياناً توجيهه بإحسانهم . وبالمقابل ، يفرضون برامج بناء على المهندسين المعماريين ويعينون بطلباتهم الموضوعات التي يجب على الرسمين والنحاتين معالجتها . وحرية الفنان تبقى كاملة في أسلوب معالجة الغرض المقترح . ولكن الأثر يظل مطبوعاً غالباً بطابع شخصية من طلبه . وفي الغالب يرى أن الأمراء أنفسهم يحمون الفنانين والإنسانيين ، في إيطاليا بخاصة . ففي فلورنسا ، كان كوزم ميديتشي يسر بجمع المداليات والأواني القديمة ، ويحيط نفسه بفنانين ، مثل برونيللسشي ودوناتيللو ، ويقدم إليهم طلبات ؛ وشغل لوران العظيم فيروكيو وبوتشيلي . وفي روما ، عهد البابا نيقولا الخامس إلى المهندس المعماري الكبير ألبرتي تنفيذ مشروع واسع لتعمير كنيسة القديس بطرس وقصر الفاتيكان . غير أن وفاة البابا قبل الأوان أدى إلى وقف هذه الأعمال ، ولم تستأنف إلا في القرن السادس عشر . ودعا أوجين الخامس إلى روما فرا أنجيليكو ليزين له القابلة (الكنيسة الصغيرة) ، المسماة قابلة نيقولا ، بفرسكات تحكي بالتفصيل أدوار حياة القديس إيتين وحياة القديس لوران . وسلك سيكست الرابع الطريق نفسه . وأمر بتشيد القابلة التي تحمل لذكراه اسم سيستين (قابلا سيستينا) وبدأ بتزيينها فنانون توسكانيون مثل بوتشيلي وغير لاندايو ، أو أومبري (من أومبري) مثل البيروجي ، مثلوا على الجدران الجانبية ، بمجموعتين متوازيتين ، مشاهد تذكر بحياة موسى وحياة يسوع ، حسب برنامج حدده سيكست الرابع نفسه . وروما أيضاً مدينة لمباهة هذا البابا باني كنيسة

(القديسة مارية السلام) وكنيسة القديسة - مارية - الشعب ؛ وإلى مبادهة كرادلته أيضاً لبناء قصر البندقية وقصر الإدارة . ولم تكن فلورنسا وروما المركزين الوحيدين للنهضة الإيطالية . فقد كان آل فيسكونتي في ميلانو ، وآل غونزاغ في مانتو ، وآل إيسته في فرارة ، وآل موتوفيلتره في أورينو ، والطاغية مالاتيسا في ريمني . وكانت الأسر النبيلة الكبرى في البندقية تتنافس بجمرة لجذب الفنانين ليخلعوا بآيات فنهم على دارات هذه الأسر كل رونق وجمال وإشراق تزيد من قدراتها . ولم يكن الولع بالفن الجديد وقفاً على الأمراء وأصحاب المصارف الإيطاليين : إن عدداً عظيماً من لوحات المدرسة الفلاماندية أو الرينانية مدينة بوجودها إلى طلبات نبلاء أو تجار البلاد المنخفضة وألمانيا . وارتبطت البلاطات الفرنسية أيضاً بفنانين : ففي مختلف ممتلكاته ، في آنجو ، كما في البروفانس ، كان الملك رونه نفسه رساماً وهاوية للرسم الفلاماندي وعاش حياة فنية نشيطة . وفي الدومين الملكي طلب جاك كور إنشاء قصره الفخم في بروج ، واستوحى تزيينه منه وكسف نوعاً ما الملك . ولكن الفنانين في آخر الحكم تكاثروا حول شارل السابع . واستقبل هذا الملك في بلاطه بخاصة الرسام التورانجي جان فوكيه الذي نفذ صورة شخصية له وصورة شخصية لمحظيته آنيس سوريل . ولكن البلاط المشرق أكثر من غيره كان بلاط ديجون : فقد أتى أدواق بورغونيا ، الذين قلدتهم موظفونهم مثل نيقولا رولن ، وفيليب پوت ، إلى بلاطاتهم من ممتلكاتهم في البلاد المنخفضة بجهاز كامل من النحاتين والرسامين ، ومنهم الهولاندي كلاوس سلوتر ليشتغل في ضريح فيليب الجريء ، والرسامين الفلامانديين جان فان آيك وروجه فان درفيدن .

والفن الجديد أخيراً إنساني بعمق لأن إعجاب المعاصرين ، فيما وراء الأثر ، يذهب إلى الفنان الذي أبدعه . وفي مجتمع القرن الخامس عشر يتمتع الفنانون باعتبار جديد : لأن نشاطهم ينفصل بوضوح عن نشاط الحرفيين . وقوة إبداعهم

في نظر الإنسانيين دليل على عظمة الإنسان . يضعه مساوياً للملائكة ، كما كتب جيانوزو مانيتي وشبه إله حسب مارسيل فيتشينو . ولذا كان الفنانون يعيشون في دالة الأمراء ، الذين يتشرفون بصادقتهم . لقد وهبتهم السماء عبقرية ، فهم أبطال المجتمع الجدد . وبقدر المساعدة المادية التي يتقبلونها ، يشجع الاعتبار ، الذي هم موضعه ، تفتح شخصيتهم والتعبير عن هذه الشخصية في آثارهم .

وعلى مثال الإنسانيين ، كان المهندسون المعماريون والرسامون والنحاتون في القرن الخامس عشر يهونون القديم . والإيطاليون بخاصة يرغبون بالتالي ، ربط تجربة العصر الوسيط مع الفن القديم ؛ وفي هذا الرجوع إلى الأصول ، يفكرون بإيجاد التعبير عن عبقريتهم الخاصة المتحررة من التأثيرات الأجنبية ، التي انتصر بها الفن الغوطي ، في رأيهم . وهذا هو القصد من النهضة . واتجه الفنانون إلى مدرسة أعمال الماضي الإغريقي ولا سيما الروماني ، وذهب برونيللسشي ودوناتللو معاً يدرسان الأوابد القديمة في روما . ومانتينيا فعل الشيء نفسه في جوار البندقية . وأكب المهندسون المعماريون على قراءة فيتروف المهندس المعماري الروماني . ودرس النحاتون دون إبطاء المجموعات القديمة التي جمعها حماة الفن ، وحلم الرسامون بمساواة آيبل وزوكسيس ، هذين الساحرين الإغريقيين اللذين يخدعان النظر برسومهما . وهكذا فإن تأثير الدرس القديم يقرأ تقريباً في كل ظواهر الفن . وبنى المهندسون المعماريون أبنية من الآجر وغطوها من الخارج بغطاء من الرخام أو من الحجر ؛ ومن الداخل بالرخام أو الجص المخلوط بمطحون الرخام أو بالرسوم الجدارية (الفرسكات) . ولتغطية الأبنية استعملوا الطاق (على شكل عريش الكرمة المحدث) أو القباب من الآجر المتلاصق باللياط (المونة) أي خليط الرمل والكلس ؛ أو أخفوا السطح المصنوع من القرميد بطابق نهائي يعتمد على طنف أو بدرابزين بغية الإيحاء بفكرة سطح . والتس تركيب الواجهات النظم القديمة ، ولعب بالأعمدة والدعائم (العضادات) المزدانة

بالزخارف أو المقناة والملتصقة بجدار البناء . وعلت الجبهات المثلثة النوافذ والبوابات ، مع طنف بإفريز قصير في قمة الأبنية . وفي النحت شدد على النقش الكامل البروز . وتحررت التماثيل من العبودية التي فرضها الإطار المعماري عليها وتصورها تبعاً له ، وعبرت عما لم يعبر عنه منذ عهد الإغريق : وهو التعبير عن الجسم البشري بكامل مرونته . وكان رمز هذا التجديد تمثال الطاغية غاتاميلاتا الذي نحته دوناتيللو ومثله فيه وهو ممتط صهوة الجواد ، وكان أول تمثال من هذا النوع منذ العصر القديم . وعلى مثال النحاتين بدأ الرسامون يعرون الجسم البشري ليدرسوا فيه العناصر الشكلية ، حتى أن بعضهم ، مثل بوتيتشلي ، عالجوا موضوعات من وحي وثني صراحة .

وتحت تأثير الإنسانية ، كان فن النهضة فناً عالمياً أو بالأحرى فن علماء وفقهاء متبحرين . لأن الفنانين لم يكتفوا بالاقتباس عن الروائع القديمة علم تركيب الأشكال التي يكيّفونها بحرية حسب عبقريتهم ، وإنما كانوا يتساءلون عن مبادئ فهم نفسها ، ويفكرون ملياً بتركيب روائعهم . وتفكيرهم هذا يقربهم من الإنسانين الذين تربطهم بهم في الغالب روابط صداقة . وكان عند بعضهم صوفية أشكال تمت بصلة إلى الأفلاطونية - الحديثة عند مارسيل فيتشينو . وهكذا ينتقل الفن من التجربة إلى العلم . وكان ليون باتيستا ألبرتي (١٤١٠ - ١٤٧٢ م) نموذج هؤلاء الفنانين النظريين : فهو كمهندس معماري نشر مؤلفات حاسمة في الرسم وفي النحت ، وأخيراً مؤلفاً عظيماً في البناء (١٤٦٠ - ١٤٧٢ م) متكيفاً بحرية مع فيتروفي . وكتب النحات غيبرتي نفسه أيضاً تفسيرات وشروح لفنه . والرسام بيير ديللا فرانشيسكا حرر مؤلفاً مطبوعاً في رسم (المنظور) وانصرف بأولو أوتشيللو دون نهاية إلى بحوث رياضيات وصفية . ودون ليوناردو دو فنشي في (دفاتره) أسرار علمه . وظهرت نتيجة هذه البحوث في الآثار المعمارية بادئ بدء : وذلك أن إيقاع المكان يحصل عليه بالهندسة لا بالحدس ، وأن نسبة أعضاء

البناء محسوبة بشكل عضوي وعام ، تسهان في إعطاء قصور وكنائس النهضة توازناً وبساطة تبلغان الكمال . وفي الوقت نفسه فتح فن الرسم المكان : وذلك أن رسم (المنظور) الذي يضع الأشخاص والأشياء حسب قياس نسب كبرها ، يوهم بالعمق ؛ وينفذ إلى الخلفيات التي ظلت زمناً طويلاً مذهبة أو موشاة . وأصبحت اللوحة منذ الآن نافذة مفتوحة على عالم بثلاثة أبعاد . وفي كل ما يعبر بقوة في العمل الفني للحجوم ، يسهم تقدم العلوم التشريحية فيما يتعلق بالجسم البشري : فقد أعطي تشريح الجثث الرسامين كالتحاتين معرفة عميقة بعلم التشريح البشري . وكما كان الإنسانيون بالنسبة للمطبعة ، كان عند هؤلاء الفنانين العلماء أيضاً تذوق شديد جداً للإمكانات التي تقدمها اكتشافات الثقافة . وأخذ الرسامون يستعملون أكثر فأكثر الرسم بالزيت الذي حسنه وكمّله الأخوان فان أيك والذي أعطى للون شفافية ظلت مجهولة حتى ذلك الحين . وساعد تقدم صهر الصفر (البرونز = خليطة النحاس والقصدير) غيرتي على إنجاز منحوتاته لأبواب كنيسة المعمودية في فلورنسا ، ودوناتيلو على سبك تماثيله العظيمة التي تدعو إلى الإعجاب . وبفضل تحسين البرنيق (طلاء صيني لامع يطلى به) استطاع لوقا دلا رويبا أن يتخصص في صنع الخزف المختلف الألوان . ولؤناردو دوفنشي الرسام والمهندس والميكانيكي ، ألقاب أمكنه أن يفتخر بها عندما قدم إلى دوق ميلانو ، جمع في شخصه الفنان والتقني . إلا أن المثل الأعلى الإنساني يحدد كل تخصص ويرمي بالعكس إلى تفتح جميع المواهب الموجودة في الإنسان . إن مهندساً معمارياً يدون كتاباً مطولاً في الفلسفة ، ورساماً يخترع آلة حربية ، وأميراً يتداول قلم المصور والريشة بموهبة ، لم يكونوا في ذلك العصر أعجب من فنان قادر على أن يعبر عن نفسه أيضاً في الرسم والنحت والبناء ؛ وحتى عندما لا يمتاز مبدعو القرن الخامس عشر إلا في صعيد واحد ، يعرفون كيف يفيدون درساً من كل التجارب . ولا يعلم أبداً ولا شك ، على سبيل المثال ، كل ما يدين به الرسم الحديث إلى النحت في اكتشافه للجمال .

إن حب القديم ، وتقجيد الإنسان ، وتذوق العلم ، كل هذا يسهم قطعاً في أن يجعل من الفن الجديد موضة تعبير ، لا عن أحوال النفس الداخلية ، وإنما ، بالعكس ، عن الواقع الخارجي . والرسم أكثر من كل شيء آخر ، لأنه يعتمد في الانطلاق على تقليد يدل على هذا الطابع الواقعي . وبفضل اختراع المنظور يرد إلى المجتمع صورة عالم بدئ بتمثيله عموماً في كرويته ، ثم أخذ الرحالة يجوبونه في كل الاتجاهات . وأنانب التزيين المحسوس للحياة اليومية عوضاً عن التزيين المجرد للخلفيات الذهبية . فن ذلك تلك المسافات الواسعة عن الريف التي تنفتح في خلفية اللوحات . وغرز الرسامون مسندهم على الساحات أو في شوارع مدينتهم . حتى أن نظرهم كان ينفذ إلى داخل المنازل التي يصفها الفنانون الهولنديون بدقة . وفي وسط هذه المناظر الواقعية ، يضعون صورة الناس الذين يؤكدون أنفسهم باعتبارهم أفراداً ، ويريدون أن يكونوا معروفين . وهكذا نهض فن رسم الأشخاص في الوقت الذي نهض فيه فن رسم المناظر .

وكانت الفلاندر مع جان فان آيك وروجه فان در فيدن وإيطاليا المجذوبة في ثلم التجربة الفلورنسية ، المركزين الهامين للفن الجديد . وأقيمت بينهما علاقات ترمز لها في منتصف القرن رحلة فان در فيدن إلى فراره . وفي منتصف طريق المناطق الفلاماندية والإيطالية كانت فرنسا أرض لقاء . وهكذا استيقظت أوربة كلها تدريجياً لهذه النهضة التي ستفتح في القرن التالي .

أسماء الأعلام الأجنبية

القسم الأول

Aubenton	اوبنتون	A	
Aumale	اومال	Abbeville	آبيشيل
Aunis	اوني	Achaïe	أكايي
Auvergne	أوفيرني	Agnès de Meran	أنيس دو ميران
Ausculta Fili	اوسكولتا فيلي	Aigues-Mortes	ايغ-مورت
	(مرسوم بابوي)	Alachan	آلاشان
Auvergne	أوفيرني	Alacros	الأرك
Avranches	أفرانش	Albert L'Ours	البرت الدب
Altaï	الطاي (التاي)	Alexandre de Halès	الكسندر دو هاليس
		Amaury	أموري
		Amiens	أمين
Badajoz	باداجوز (بطليوس)	Anaclet II	اناكلت الثاني
Bakufu	باكوفو	Angkor	انغكور
Bamberg	بامبرغ	Anany	أناني
Barrois (le)	باروا (إقليم)	Anjou	أنجو
Barbarousse	بارباروسا، فريديريك الأول	Aquila	أكويلا
Bar-Sur-Aube	بار-على-أوب	Arles	آرل (مدينة)
Bénévent	بينيفنت	Arnaude de Brescia	أرنود دو بريشيا
Benoît de St-Maure	بنوا دوسان مور	Arras	أراس
Bannockburn	بانوكورن	Aimeric de Peguilhan	ايميري دو بيغيلهان
Bayon	بايون	Artois	آرتوا
Bearn	بيارن	Arthur	أرثور
	إقليم في جبال البرانس وعاصمته پو Pau	Jean Asen	جان آزين
Béatrice	بياتريس	Asti	آستي
Beaune	بون		

Cade	كاد (غليوم)	Becket (Thomas)	بيكيت ، توماس
Caffa	كافا	Beja	باجة
Cahorsin	كاهورسي	Benarès	بيناريس
Catalayub	قلعة أيوب	Bernard de Quintavalle	برنارد دو كانتافال
Calatra	قلعة رباح	Bernard d'Anhalt	برنارد دانهالت
Calixte	كاليكست	Berry	بري
Canossa	كانوسا	Bethune	بيتون
Castelnau	كاستيلنو	Béziers	بيزيه
Champa	شامپا (مملكة)	Birger	برجر
Cathare	الكاتاري (المهرطقي)	Bischio	بيشيو
Catharisme (le)	الكاتارية (هرطقة)	Bogomiles	البوغوميليون (هراطقة مانويون)
Chalus	شالوس	Bithynie	بيتينيا
Chan-Si	شاني	Boileau (Etienne)	بوالو (ايتين)
Chao-Yong	شاو يونغ	Boinebroke (Jean)	بوانبروك (جان)
Cimabue	تشيابو	Boleslaw Bauche Torse	بوليسلاف بوش تورس
Clarisses (les)	الكلاريسات	Bologne	بولوني (مدينة في إيطاليا)
Chaumont	شومون	Bordeaux	بورديو
Chieri	شييري	Boudha Aida	بوذا الرحيم
Celestin III	سيلستين الثالث	Boulogne	بولون (في فرنسا)
Chretien de troyes	كريتين دو تروا	Bouvines	بوفين
	مؤلف رواية إيفان Yvain (١١٧٢)	Brie	بري
Chaumont	شومون	Boves	بوف
Chenu	شونو (الأب)	Bruges	بروج (ميناء)
Cîteaux	سيتو	Brunswick	برنسويك
	مدينة في الكوت - دور (بورغونيا) في فرنسا	Bushido	بوشيدو
	أسس فيها روبرت دو موليسم في ١٠٩٨ طائفة	Burgos	برغش
	رهبانية وإليها نسب النظام الديري السيستري		
	Cisterciens		
Clarendon	كلارندون	Caïffa	كايفا
Clériceis laicos	كليريسي لايكوس	Chalukya	شالوكيا
		Cefalu	سيفالو

C

Djurtchet (les)	جورتشيت	-	(مرسوم بابوي) في ١٢٩٦
Domfront	دومفرون	Chinon	شينون
Dominique de Guzman	دومينيك دو غوزمان	Çiva	شيفا
Douai	دوويه	Colonna (les)	كولونا (آل)
Duccio	دوكتشيو	Companagium	كومپاناجيوم
Duns Scot	دونز سكوت		(الحبازون)، بائعو الخبز
Duro	دورو	Conan	كونان
Duroca	دروقة		اسم أربعة أدواق في بروتانيا في العصر الوسيط
Durazzo	دورازو		(القرن العاشر - الثاني عشر)
E		Conway	كونوي (معاهدة في ١٢٧٧)
Eike Von Repgau	آيك فون ريپغاو	Constance	كونستانس
ELY	ايلي	Corbeil	كوربي
	مدينة في بريطانيا - العظمى	Courcelles	كورسيل
Enguerrand de Marigny	انغيران دو ماريني	Courtrai	كورتريه
Estramadoure	ايسترامادور (الجوف)	Courtenay (Pierre)	بيير كورتنيه
Etienne Langton	ايتين لانغتون	Crescenzi (Pietro)	پيترو دو كريسانتزي
Eugène III	اوجين الثالث	Crespin	كريسپين (آل)
Evora	يابرة		أسرة في أراس
F		Cuenca	قونقة
Flandre	فلاندر	Curia regis	البلاط الملكي
Foix	فوا	Cydnus (le)	نهر قره صو (سيدنوس)
Folkung	فولكونغ، سلالة	D	
Fou Kien	فوكين	Daï-Viet	داي - فيت
	فرانشيسكو دي برناردون	Damme	دام
Francesco di Bernardon		Dandolo	داندولو
Frejus	فريجيوس	Démétriza	ديميتريزا
Les Frescobaldi	فريسكو بالدي (آل)	Diego	دييغو
Frétéval	فريتيفال	Djagatay	جاغاتاي
Fujiwara	فوجيوارا (حزب)	Djébé	جيبه
		Djoutchi	جوتشي

Henri de Babenberg	هنري دو بابنبرغ	G	
Henri Focillon	هنري فوسيون	Gaillard	غايار (قصر)
Henri Raspe	هنري راشپ	Gaillon	غايون
Hesdin	هسدن	Gand	غاند
Holstein	هولشتاين		غانجايكانداشولابوران
Honan	هونان	Gangeikandacholapuram	
Hoysala	هويسالا	Garlande (Yean)	جان دو غارلاند
	هوغ الأسمر دو لوزينيان كونت المارش	Gautier d Aunay	غوتيه دو ني
Hugues le Brun de Lusignan		Gentils (les)	الوثنيون
Hubert Gautier	هورت غوتيه	Gérone	جيرون
Hugolin	هغولن	Geoffroi de Monmouth	جوفروا دو مونموث
			جوفروا دو فيلهاردون
	I	Geoffray de Villehardouin	
Isidore	ايزيدور	Grégoire	غريغوار
Isambour	ايزامبور	Gilson	جيلسون
Innocent	اينوسان	Gibelins (les)	الجيبيلين
Ivanhoé	ايفانوويه	Giovanni Villani	جيوفاني فيلاني
	J	Goulet	غوليه
Jean de Garlande	جان دو غارلاند	Gratien	غراسيان
Jacques de Molay	جاك دو مولي	Guido Cavalcanti	غيدو كافالكاتي
Jean III Vatatzès	جان الثالث فاتاتزيس	Graindor de Douai	غريندور دو دوويه
Jacques de Voragine	جاك دو فوراجين	Guillaume de Breton	غليوم البروتاني
Jacques Vitry	جاك فيتري	Guillaume de Nogaret	غليوم دو نوغاريه
Jaime per	جيم الأول	Guyenne (la)	غوين (لا)
Jayavarman	جايافارمان	Gui de Dampierre	غي دو دامپير
Joinville	جوانفيل	Guillaume de Puylaurens	غليوم دو بويلورنس
John Peckam	جون پيكام		
	K	H	
Kana (les)	كانا	Haakon IV	هاكون الرابع
K ai Fong	كاي فونغ	Hans	هانس
Kanauj	كانوج	Heian	هيان

Lewes	ليويس	Kan-Sau	كان - سو
Li	لي (قانون الطبيعة)	Kaviri	كافيري (نهر)
Linga	لينغا	Kerala	كيرالا
Long Tsiuan	لونج تسيوان	Kara Kitay	كارا كيتاي
Lübeck	لُبيك	Karakorum	كارا كوروم
Lucques	لوك (مدينة)	Kereyt Oengut	كيريت اونغوت
Léon IX	ليون التاسع	Khanbalik	خانباليك
Leonin	ليونين	K I-Tan	كيتان
Limousin	ليموزن	Khitan	خيطان
Lisieux	ليزيو	Kin	كن
Lipari	ليپاري (جزر)	Koubilay	كويلاي
Lothaire III	لوثير الثالث	Kra	كرا (برزخ)
Lothaire de Supplenburg	لوثير دو زوبلنبرغ	Kuammue	كوامو
Lusace	لوزاس	Kulm	كولم
M		Kutub Minar	كتب مينار
		Kyoto	كيوتو
Madhva	مادهفا	L	
Maine	مين		
Magnus	ماغنوس	Lacopo Torriti	لاكوبو توريتي
Manfred	مانفرد	Lagny-sur- Marne	لاني - على - المارن
Manou	مانو	Laroche - Aux - Moines	لاروش أوموان
Maria de Trastevere	ماريا دو تراستيڤيري	Lameloria	لاميلوريا
Marie de France	ماري فرانسوا	Las Formaiguas	لاس فورميغاس
Martin IV	مارتن الرابع		لاس نافاس دو تولوزا (العقاب)
Melfi	ملفي	Las Navas de Tolosa	
Michelet	ميشليه	Lavaur	لافور (قصر)
Mecklembourg	ميكلامبورغ	L Ecluse	ليكلوز
Menam	مينام (وادي)		مدينة في هولندا وتسمى أيضاً (سيويس)
Merkit	مركيت		Siuis
Messine	مسينا	Leicester	ليستر
Minamoto	مينا موتو	Llewelyn	ليوولين

P			
Pala (les)	بالا (آل)	Mohien	موهين
Pandya	پانديا	Mongka	مونكا
Patarins (les)	الباتاريون	Monreale	مونرياله
	البرشال أو قصة غرال	Mons - en - Pévèle	مونس - أن - پيڤيل
Perceval Graal		Montpellier	مونبيليه
Perigord	بيريجور	Montfaucon	مونفوكون
Perotin	بيروتن	Morosini (Thomas)	موروزيني (توماس)
Perouse	بيروز أو فيروز	Mortain	مورتن
Petit - Quevilly	بوتي - كوفيلي (كنيسة)	Mortimer	مورتيير
Pierre de la Bosse	پير دولا بوس	Murano	مورانو
Pir (les)	پير (القديسون)	Musciatto	مونتشيأتو
Pierre Flotte	پير فلوت	Mysie	ميزيا
Nicolas Pisano	نيكولا پيزانو	N	
Philippe Auguste	فيليب اوغست	Naiman	نايمان
Philippe le bel	فيليب الطيب	Nara	نارا
Philippe Hurpel	فيليب هوربل	Neamia	نياميا
Pierre de Tarentaise	پير دو تارانتيز	Nevers	نوڤير
Pietro Cavallani	بيترو كافالاني	Nicheren	نيشيرن
Phocée	فوسيه أو (فوقيه)	Northampton	نورثامبتون
	مدينة في آسيا الصغرى	O	
Pistoia	پيستويا	Obodrites	الابودريت
Poissy	پواسي	Ogoday	اوغوداي
Poitou	پواتو	Ogive	العقد
Polabe (les)	الپولاب	Oirat	اويرات
Pomeranie (la)	پوميرانيا	Onon	اونون (نهر)
Les portulans	الخارطاط البحرية الأولى	Opus Majus	اوبوس ماجوس
Prémontrés (les)	البريمونترين	Osma	اوسما
	نظام الكهنة القانونيين أسسه القديس	Otakar	اوتاكار
Norbert	نوربير	Othon de la Roche	اوتون دولا روش
	في ١١٢٠ في بريمونترية	Ouïgour	اويغور

Saintes	سنت	ويخضع لقاعدة القديس اغسطينوس	
St- Ives	سن- إيف	بروفن (مدينة)	Provins
St- Denis	سان- دوني	Q	
St- Botolph	سن- بوتولف	القنچاق	Qiptchag
	سان- فيليكس دو- كارامان	كيرسي	Quercy
St- Felix- de- Caraman		R	
	سن- جرمن- دي- بريه	راجاراجا	Rajaraja
St- Yermain- des- Prés		رامير الأول	Ramire per
St- Gottard	سن- غوتار	رامسي	Ramsey
la Sainte Graal	الإناء الأقدس	راماينا كامبار	Ramayna de Kambar
	سان جاك كومبوستيل	رايخشتاغ	Reichstag
St- Jac ques de compostelle		زنس	Reims
	أوستياغو	روس (نهر)	Reuss
	أوشتيق	روفال	Reval
Sanche le Grand	سانش الكبير	ملك الرومانيين	Rex Romanorum
Saintonge	سانتونج	روبير بروس	Robert Bruce
Shoën (ies)	شون (الضرائب)	روبير دو كلاري	Robert de Clari
Salamanque	سالامنكا	روبين هود	Robin Hood
Schwerin	شويرين	ريازان	Riazan
Sei Shonagon	سي شوناغون	رودريغ دياز دو بيفار	Rodrigue Diaz de Bivar
Shinran	شينران	ريكاردي (آل)	Les Ricardi
Shinto	شنتو	ريفا	Riga
Schwyz	شويتز	رومانيو	Romagne
Schisme (ie)	الحيدة	روان	Rouen
Scrovegni	سكروفيني	رونبيد	Runnymead
Seu- Ma Kouang	سو- ماكوانغ	روتوبوف	Rutebeuf
Shogoun	شوغون		
Siam	سيام	S	
Siene	سيين	سال (زاله)	Saale
Siger de Brabant	سيجييه دو برابان	الزلاقة	Sagrajas

Thibaut IV	تیبو الرابع	Si - Hio	سي هيا
Thibaut	تیبو	Silesie (la)	سيليزيا
Thaurout	توروت	Simon de Monfort	سيمون دو مونفور
Toumat	تومات	Sorabes (les)	السورابيون
Tournai	تورنيه	Souboutay	سوبوتاي
Trévisé	تريفيز	Souzdal	سوزدال
Tristan et Iseut	تريستان وإيزوت	Spire	سپير
Troade	ترواد	Sorbon	سوربون (روبير دو)
la Tour de Nesle	برج نيل	Sordel	سورديل
Troyes	تروا (مدينة)	Srivijaya	سريفيجيا
la Tuscia	لا توشيا	Stafford	ستافورد
U		Staufen (les)	شتاوفن (آل)
Ubaye	اوباي	Stockholm	ستوكهولم
مسيل في جبال الألب في إقليم بروفانس العليا	في فرنسا	Styrie	شتيريا
Ubeda	عبدة	Suger	سوجه
Unterwalden	اوتترفالدين	Syncretisme	وحدة الآراء
Uppsala	اوبسالا	T	
Utula	اوتولا	Tage	التاجه (نهر)
V		Taïga	التايفا
Valdemar	فالديمار	Tagliacozzo	تالياكوزو
Valenciennes	فالانسين	Taïra	تايرا
Valois (les)	فالوا (آل)	Tangouts	تانغوت
Valdisme (le)	الفالدية	Tai - tsu	تاي - تسو
Vaudais de Valdenses	فودوا دو فالدانس	Tanjore	تانجور (معبد)
Vaud	فود (إقليم)	Tarim	تاريم
Vexin	فيكسن	Tchan	تشان
Vigoureux de Baconia	فيغورودو باكونيا	Tchöking	تشوكنج
Vezelay	فيزليا	Temoudjin	تيوجين
Villard de Honnecourt	فيلارد دو هونكور	Thessalie	تساليا
		Tchou - Hi	تشوهي

Warta	فارتا	Viking	فايكنغ
Welf (les Guelfes)	الولف (أو الغلف)	Villette (la)	لا فيللت
Wenceslas	فانسيسلاس	Vincent de Beauvais	فانسان دو بوڤيه
Wendes (les)	الفيند	Viollet-le-Duc	فيوليه - لو - دوك
Winchester	وينشستر	Virgile	فيرجيل
Wittelsbach	فيتلسباخ	Visby	فيبي
Worms	فورمس	Vladimir	فلاديمير
W			
	Y	Wace	واس
Ypres	يبر	Wagriens	فاغرين
Yue	يو	Waiblingen	فايبليغن
		Walter Scot	ولتر سكوت
	Z	Walter (Henley de)	ولتر دو هنلي
Zen	زين (مذهب)	Wang - Ngan - Che	وانغ - نغان - شي

القسم الثاني

Amedée VIII	أميديه الثامن		
Amou Daria	نهر سيحون	Abaga	أباغا
Anagni	أناني	Achaïc	أكاي
Ancône	أنكون	Adda	أذا (نهر)
Andronic II	أندرونيك الثاني	Agenais	أجونييه (إقليم)
Angers	أنجييه	Amerigot Marchès	أميريغو مارشيز
Angkor	أنغكور	Aix	إيكس
Anguillara	أنغيلارا (أل)	Alain d'Albret	ألن ألبريت
Anjou, Charles (d')	شارل دانجو	Alberti	البرتي
Apelle	أپيل	Albi	ألبي
Apuléc	أبوليه	Albret (d')	البريت
Argyropoulos	أرجيرو پولوس	Al Bizzi	البيزي (أل)
Arghoun	أرغون	Albornoz	البورنوز
Arnaud de Cervole	أرنو دو سرفول	Alcaçovas	الكاسوفاس
Arnolfo di Cambio	أرنولفو دي كامبيو	Alde Manuce	ألد مانوتشه
Arles	أرل	Aljubarrota	الجباروتا
Arpadiens (les)	الأرباديون (ال)	Alençon (d')	النسون (دوق)
Arras	أراس	Ilkhan	إيلخان
Arta	أرتا	Almaden	المعدن
Arti (les)	الأصناف المهنية	Alphonse IV	الفونس الرابع
Ascen	أزن (أل)	Alphonse V	الفونس الخامس
Assise	أسيز	Alphonse le magnanime	الفونس الشهم
Ashikaga	أشيكاغا (حزب)	Amaury de Sévérac	أموري دو سيفيراك
Athos	أتوس (جبل)	Amboise	أمبواز

Béguins	بيغن	Audenarde	أودينارد
Beltran de la Cueva	بلتران دو لا قويا	Auray	أوريه
Benoît XI	بنوا الحادي عشر	Auxerre	أوسير
Bergen	برغن	Avignon	أفينيون
Bernard VII	برنارد السابع	Ayuthia	أيوثيا
Bernard de Poujet	برنارد دو پوجيه	Azicourt	أزيكور (هضبة)
Bertrand du Guesclín	برتران دو غيسكلن		
Bessarion	بشاريون	B	
Bethune	بيتون	Bahmani	بهاني (مملكة)
Bihzad	بهزاد	Bâle	بال أو بازيل
Bořana	بوايانا	Balue	بالو
Bořars (les)	البويار (الأمراء)	Baraq	برق
Bois - Chenu	بوا - شونو	Barbette	باربيت
Boug	بوغ	Bardi	باردي
Bonne de Savoie	بون دو سافوا	Bari	باري
Boulogne	بولوني	Barnet	بارنه
Botticelli	بوتشيلي	Bartolomeo Colleoni	بارتولوميو كولليونو
Boucicault, de	بوسيكو (دو)	Barthelemy Diaz	بارتيلمي دياز
Bourges	بورج	Bartolomeo Prignano	بارتولوميو پرينيانو
Bosworth	بوزورث	Basin (thomas)	بازين (توماس)
Bourgneuf	بورنوف	Baza	بازا
Braban	برابان	Bazadais (le)	بازاديه (إقليم)
Berry	بري (منطقة)	Bayeux	بايو
Brescia	برشيا	Beauvais	بوشيه
Brest	بريست	Béarn	بيارن
Bretagne (la)	بروتانيا (إقليم في فرنسا)	Beaugency	بوجانسي
Bresse	بريس (منطقة)	Bedford	بدفورد
Brétigny	بريتيني	Bellini, Gentile	بيليني، جانتيل
Brigitte de Suède	بريجيت دو سويد	Beaune	بون
		Begards	بيغار

Chandos	شاندوس	Bristol	بريستول
Chaucer	تشوسر	Bruges	بروج
Charité- Sur- Loire	شاريته - على - اللوار	Brunelleschi	برونيللسشي
Charles de Blois	شارل دو بلوا	Brunkeberg	برونكبرغ
Charles d'Orléans	شارل أورلئان	Brünn	برون
Charles le bien-aimé	شارل الحبيب	Brunswick	برنسويك
Charles de Durazzo	شارل دورازو	Bureau de la Rivière	بورو دو لا ريفيير
Charles de Moravie	شارل مورافيا		
Charles - Quint	شارل كنت (شارل الخامس)		
Chastellain	شاستيلان	Caen	كن
	شاتونوف - دو - راندون	Caffa	كافا
Chateaufneuf- de- Randon		Chah Rokh	شاه روخ
Chen - tcheou	شن - تشيو	Calais	كاليه
Chay	شاي	Champa	شامپا
Chinon	شينون	Calixte III	كاليكست الثالث
Chio	كيو (جزيرة)	Cambrai	كامبريه
Chitor	شيتور	Casimir le grand	كازيمير الكبير
Choinet	شوانيه	Cantacuzène (Jean)	كانتاكوزين (جان)
Chora (Kahriye Cami)	كورا (كاهري كامي)	Carrare	كراره
Christien Per	كريستيان الأول	Caspe	كاسب
Christine de Pisan	كريستين دو پيزان	Castillon	كاستيلون
Civa	شيفا	Catherine de Sienne	كاترين دو سينين
Claus Sluter	كلاوس سلوتر	Caux	كو (بلاد)
Cocherel	كوشرل	Caltabelluta	كالتابللوتا
Clos des Galées	كلو دي غاليه	Careggi	كاريجي
Cola di Rienzo	كولا دي رينزو	Castruccio Castracani	كاستروكشيو كاستراكاني
Colleone	كولليونيه	Céphisos de Beotie	سيفيزوس بيوتيا
Cominges.	كومينج (كونتية)	Cerdagne	سرداني (في إسبانيا)
Comnenes (les)	كومنين (آل)	Cerisy	سيريزي
		Certaldo	سرتالدو
		Ceuta	سبته

Foix	غاستون فوبوس كونت فوا	Eubée	اوبيه
Gaston Phocubus		Evreux	ايثرو
Giattamelata	غاتاميلاتا	Ferdinand de Bragança	فرديناند دو براغانسا
	غوتيه أثينة (الأثيني)	Formigny	فورميني
Gauthier d'Athènes		François Villon	فرنسوا فيلون
Geoffrois d'Arcourt	جوفروا داركور	Fugger	فوجر (أل)
Gauthier de Brienne	غوتيه دو بريين	Heures	كتب الصلوات الكنسية
Genappe	جيناب		
	الملقب سكاندريغ Skanderbeg	F	
Georges Castriota		Falaise	فاليز
Georges Hermonyme	جورج هرمونيم	Fecamp	فيكامب
Georges de Podiebrady	جورج دو بوديبرادي	Ferdinand d'Antequera	فرديناند دانتكويرا
Geoffroi de Boucicaut	جوفروا دو بوسيكو	Ferrand	فران
Gerard de Groote	جيرار دو غروت	Fiesole	فيزوليه
Gerson	جرسون	Fondi	فوندي
Ghazan	غازان أو قازان	Formigny	فورميني
Ghiberti	غيبيرتي	Fougères	فوجير
Ghirlandaio	غيرلاندايو	François Salviati	فرانسوا سالفياتي
Gianozzo Manetti	جيانوزو مانيتي	Fra Angelico	فرا انجيليكو
Gien	جين	Francesco Petracolo	فرانشيسكو بتراكولو
Givry	جيفري	Francesco cibo	فرانشيسكو سيبو
Gilles l'Aveugle	جيل الأعمى	François Sforza	فرانسوا سفورزا
Gille de Rais	جيل دوريه	Frangipani	فرانجيباني (أل)
Giovanni delle ubaldini	جيوفايني دله اوبالديني	Fra Filippolippi	فرا فيليبولبي
Gloucester	غلوستر	Fratricelles	فرا تيسيل
Gontier Col	غونتيه كول	Froissart	فرواستار
Goujerat	غوجرات	Gaetani	غيتاني
Gueldre	غلدر	Gibelins	الجيبيلون
Guelfe	الغلف (حزب)	Gallipoli	غالپولي
Guérande	غيراند	Gand	غاند
Gour- Emir	غور- أمير		

Memling	ملنخ	Maïna	ماينا
Ménan	مينان	Maine	مين
Mende	ماند	Malacca	مالاكا
Mengli Girei	منغلي جيرى	Malatesta	مالاتيسا
Mercurey	مركوريه	Malestroit	مالستروا
Meung	مونخ	Mali	مالي
Metz	ميتر	Malwa	مالوا
	ميشيل دو لاندو	Manfred	مانفرد
Michel de Lands		Mans	مانس
Michelozzo	ميكلوزو	Mansa Musa	مانسا موسى
Mileseva	ميليزيفا	Mantes	مانت
Miliotine	ميليوتين	Mantegna	ماتينيا
Miranchah	ميران شاه	Manuel	مانويل
Mistra	ميسترا	Marin de Tyr	مارن الصوري
Modène	مودينا	Martin Per	مارتن الاول
Moajokerto	مؤجوكرتو	Mathias Corvin	ماتياس كورفين
Modjopahit	مودجو باهيت	Mantouc	مانتو
Modon	مودون	Marco Polo	ماركو پولو
Mondidier	مونديديه	Mari Jata	ماري جاتا
Monemvasia	مونيفازيا	Marcile de Padoue	مارسيل بادوا
Montefeltre	مونتيفيلتره	Martial	مارسيال
Mong - Fou	مونخ - فو	Martin Behain	مارتن بهين
Mongka	مونغا	Mathios Coruin	ماتيس كورين
Monlhery	مونليري		ماتيو جيوفانيلي
Montreau	مونترو	Matteo Giovanelli	
Morat	مورا	Maxime le Grec	ماكسيم الاغريقي
Morée (la)	موريه		ميهن - على - ايقر
Munio Tristao	مونيو تريستاو	Mehun - sur - Yvre	
Montiel	مونتيل	Medici (les)	ميديتشي (آل)
Montpellicr	مونبيليه		الدوق الاكبر ميغاس دوكس
		Mégas Dux	

Nürnberg	نورامبرغ	Morée	موره
Nymphæum	نيفوم	Mortain	مورتن
		Mortimer	مورتير
O		Montremoli	مونترومولي
	أوديريك دو بوردونون	Mühldorf	مولدورف
Oderic de Pordonone		Murano	مورانو
Ohrid	أوهريد		
Oise (l)	لواز (نهر)	N	
Oka	أوكا (نهر)	Nancy	نانسي
Olaf	أولاف	Négrepont	نيغروپون
	أوليفيه دو كليسون	Neva	نيشا (نهر)
Olivier de Clisson		Nepotisme	التفضيل العائلي
Olgiati	أولجياتي		أو تنفع الأقرباء أو المحسوبة
Olivier le Daim	أوليفيه لو ديم	Nevski	نيشكي
Olmedo	أوليدو	Nessèbre	نسير
Orléans	أورلئان	Nérézi	نيريزي
Orsini	أورسيني (آل)	Neuss	نوس
Orvieto	أورفيتو	Nevers	نوفير
Oslo	أوسلو	Nicephore Grégoras	نقفور غريغوراس
Otri	أوتري	Nicolas de Cues	نيقولا دو كوس
Otto Colonna	أوتو كولونا	Nicolas dOresme	نيقولا دوريسم
Ougra	أوغرا		نيقولا دو كلامانج
Oulough Beg	أولوغ بك	Nicolas de Clamanges	
Ouzbeks	الأوزبيك	Nicopolis	نيكوپوليس
		Nicolas Rolin	نيقولا رولين
P		Nicone	نيكون
Paléologue, Michel	باليلولوغ (ميشيل)	Nicopolis	نيكوپوليس
Pâli	پالي (لغة)	Nogaret	نوغاريه
	پاليسي - ليه - تور	Northampton	نورثامبتون
Palissis- les- tours		Novgorod	نوفغورود

Pierre Chelcicky	پير شليكي	Pampapati	پامپا پاتي
Pierre Bersuite	پير برسويت	Plantagenet	پلاتناجونيه (آل)
Pierre col	پير كول	Pantanassa	پانتاناسا
Pierre Cauchon	پير كوشون	Paolo Uccello	پاولو اوتشيللو
Pierre de Corbara	پير دو كوربارا	Pasquier Bonhomme	پاسكيه بونوم
Pierre Craon	پير كراون	Patay	پاتاي
Pierre d'Orgemont	پير دورجومون	Pathelin	پاتولن
	پيرو بالدي ديغلي اوبالدي	Pavic	پافيا
Piero Baldi Degli Ubaldi		Pedro de Luna	بدر دولاونا
Pierre - Louis	پير لويس	Pélogonie	پيلاغونيا
Pierre Roger	پير روجيه	Penafiel	پينا فيل
Pisa	پيزا	Peniscola	پنيسكولا
Pirheimer	پيرهايمر	Perm	پروم
Pistoia	بيستويا	Péronne	بيرون
Pléthon	افليطون	Perouse	بيروز
Podolie (la)	بودوليا	Perrault	پيرو
Poitiers	پواتيه	Perrinet Gressart	بيرينه غريستار
Pologne	بولوني	Perruzzi	بيروزي
Polenta (les)	بولانتا (آل)	Petrarque	بتراڪ
Pomérclie	بوميريليا	Peutinger	بوتينگر
Pomestié (le)	بوميستيه	Philippe de Commynes	فيليب كومين
Ponponius Lactus	بونبونوس ليتوس		فيليب ماري فيسكونتي
Ponthieu	بونتيو	Philippe - Marie - Visconti	
	بون - سن - اسبري	Philippe Pot	فيليب پوت
Pont - Saint - Esprit		Philippe de Vitry	فيليب فيتري
Pontoise	پونتواز	Phnom - Penh	فنوم بينه
Poperinghe	پوپرينغ	Phocée	فوسيه (أو فوقيه)
Procope le Grand	پروكوب الكبير	Picquigny	بيكينيني
Provins	پروفن	Pie II	بيوس الثاني
Porto Pisaro	پورتو پيزارو	Pierre de Beaujeu	پير بوجو

Richard d'York	ريشارد يورك	Prato	پراتو
Rimini	ريميني	Przmyslide (les)	برزميسليد (آل)
Robert d'Artois	روبير دارتوا	Pskov	بسکوف
	روبير دو بوديکور	Puente de Triana	پوانته دو تريانا
Robert de Baudicourt		Q	
Robert Bruce	روبير بروس	Qiptschaq	کيپتسشاق أو القفجاق
Robert le Coq	روبير لو کوک	Quarantia (la)	الکوارانتيا
Rocher des Domes	روشيہ ديه دوم	Quercy	کيرسي
Robert de Genève	روبير دو جونيڤ	R	
Rochetaillé	روشتايہ	Radjpoutes	الراجبوت
Rodrigue Borgia	رودريغ بورجيا	Radonège	رادونيچ
	رودريغ دو فيلاندراندو	Ramadhipati	رامادهيپاتي
Rodrigue de Villandrando		Ramaswami	راماسوامي
Roger de Flor	روجه دو فلور	Raubritter (les)	رؤبريتير (آل)
	روجه فان در فيدن	Ravenne	رافين
Roger Van der Weyden		Ravensburg	رافنسبورغ
Rolin	رولن	René d'Anjou	رونيه دالنجو
Romagne	روماني	Rennes	رين
Roosebeke	روزبک	Restov	رستوف
Rostov	روستوف	Rethel	روثيل
Rouen	روان	Richmont	ريشمونت
Rouergue	روويرغ	Reims	رئس
Roubliov (Andreï)	روبليوف (آندري)	Rian	ريان
Romagne	رومانيو	Riazan	ريازان
Roumelie	روميلي	Riccardi	ريکاردی (قصر)
Roye	روا	Riga	ريغا
Ruste	رُست	Riario	رياريو
S			ريشارد غلوسستر
	سان - اوين - دو - کورميه	Richard de Gloucester	
Saint - Aubin - du - Cormier			

Wou	وو	فيلهاردون ، غليوم
		Villhardouin, Guillaume
Y		فيلنوف - ليز- آفينيون
يفي تشري (الجيش الجديد = الانكشاري)		Villneuve- Lès- Avignon
Yeni cheri		Vincennes
Yong- Lo	يونغ- لو	Vincent Ferrier
Ypres	يپر	Viterbe
Yuan	يوان	Vitruve
		Volhynie (la)
Z		Vijayanagar
Zadonchtchina (la)	الزادونشتشينا	
Zantha	زانتا	W
Zelotes (les)	الزلطيون	Wakefield
اسم أطلق على اليهود المتحمسين الذين قاموا		Warwick
بالثورة في العام ٧٠ ب. م		Wat Tyler
Zemène	زيمين	West- Roosebeke
Zen	زين	Wiclif
Zeuxis	زوكسيس	Windesheim
Zwynn	زوين (مصب نهر)	Witold
Zwyn	زوين	

المحتوى

القسم الأول

تاريخ القرنين الثاني عشر والثالث عشر

المقدمة

نهضة الغرب الأوربي من القرن العاشر إلى القرن الحادي عشر ص ٩ .

الفصل الأول

توسع الآفاق الاقتصادية وتحول مجتمع العصر الوسيط

الثورة التجارية والعمل المدني ١٤ . أصول الثورة التجارية ١٠ . تحولات
الخارطة الاقتصادية . أ - بلاد بحر الشمال ٢١ . ب - الفاعليات الإيطالية ٢٦ .
ج - أسواق الشاميانيا موعد لقاء التجار الأوربيين ٢٨ . ٢ - تحول الاقتصاد
الريفي : توسع السطوح المزروعة وصل إلى نهايته ٣٠ . ازدياد المردود بنسب
ضعيفة ٣٢ . تغلغل اقتصاد المبادلة في الأرياف ٣٤

الفصل الثاني

المدن

الشعب الطيرير والشعب النحيل ٣٩ . مدن شمال غربي أوربة . أ - لفيف
أغنياء التجار يفرض سيطرته الاقتصادية ٤٠ . ب - احتفاظ النبلاء بالحكم
المدني ٤٢ . ج - الثورات المدنية ٤٤ . المدن الإيطالية ٤٥ . الأرياف : الأجلاف

والارستقراطية الطينية ، تحول اقتصاد الأملاك ٤٧ . اضطراب سلم الثروات ٥٠ .
محاولة رد فعل الطبقة النبيلة ٥٣

الفصل الثالث

توطيد الملكيات

فرنسا وانكلترا ٥٥ . الامبراطورية الأنجفية ضد الملكية الكابسية . فيليب
أوغست وآل پلانتا جونية ؛ ١ - تشكيل الامبراطورية الأنجفية ٥٧ ؛ ٢ - فيليب
أوغست : حكم حاسم لفرنسا ٦٣ . توسيع الدومين الملكي ٦٤ . النضال ضد آل
پلانتاجونية . أ - فيليب وريتشارد ٦٥ . ب - فيليب وجان ٦٧ . توطيد
السلطة الملكية ٦٩ . انتصارات آخر حكم المليك ٧٢ . ب - فرنسا من القديس
لويس إلى فيليب الجميل . أوج السلطة الكابسية ٧٥ . ١ - في زمن الملك الصالح .
وصاية بلانش قشتالة وحرب لويس الصليبية ٧٥ . لويس التاسع عاهل تقي
ولكنه متسلط مستبد ٧٤ . لويس التاسع عاهل « عادل » ٨٠ . العاهل داعية
سلام ٨١ ؛ ٢ - فيليب الجميل وبدايات الأزمة الفرنسية . فيليب الجميل وجه
غامض ٨٣ . فيليب الجميل وأتباعه ٨٥ . فيليب الجميل وبونيفاس الثامن ٨٦ .
المشكلة المالية . قضية فرسان المعبد (الهيكل) ٨٨ . انكلترا من جان دون أرض
إلى ادوار الثالث ٩٢ ؛ ١ - جان دون أرض وأصول الأزمة : الميثاق الكبير ٩٢ ؛
٢ - هنري الثالث (١٢١٦ - ٢ - ١٢٧٢ م) : عودة الأزمة ونشأة البرلمان . نشأة
انكلترا البرلمانية ٩٨ ؛ ٣ - نهضة السلطة الإنكليزية تحت إدوارد الأول (١٢٧٢ -
١٣٠٧) وإدوارد الثاني (١٣٠٧ - ١٣٢٧ م) ١٠٠ . توسع انكلترا الأرضي في القرن
الثالث عشر ١٠٢

الفصل الرابع

ألمانيا وإيطاليا

توطيد الملكيات ١٠٤ . أ - آل شتاوفن وآخر بريق للسلطة الامبراطورية

(١١٣٧ - ١٢٥٠ م) ١٠٦ . ١ - نزاع الكهنوت والامبراطورية وسياسة آل شتاوفن الإيطالية ١٠٦ ؛ الفوز الامبراطوري ؛ فريديريك بارباروسا وهنري السادس ١٠٧ . ظفر بارباروسا أولاً ١٠٨ . اضطراب بارباروسا للذهاب إلى كانوسا ١١١ . حكم هنري السادس الامبراطوري ١١٣ . اينوسان الثاني وفريديريك الثاني . اينوسان الثالث والتيوقراطية (المشيئية) الظافرة ١١٤ . فريديريك الثاني عاهل فريد ١١٦ . عودة النزاع ١١٨ ؛ ٢ - تطور ألمانيا في حكم آل شتاوفن ١٢١ . التوسع الجرمانى ١٢١ . أفول السلطة الملكية في ألمانيا ١٢٤ . تصدع الصرح الامبراطوري ؛ ١ - الألمانية . فترة خلو العرش الكبرى ١٢٨ . محاولات إرجاع السلطة الإمبراطورية في آخر القرن الثالث عشر ١٢٩ ؛ ٢ - سويسرا وإيطاليا ١٣٢ . بدايات الكونفدراسيون السويسري (الهلفيتي) ١٣٣ . خلاص إيطاليا من السلطة الامبراطورية ١٣٣ . أ - إيطاليا الجنوبية متنازعة بين الأنجليين والأراغونيين ١٣٤ ؛ مجزرة عامة للفرنسيين في صقلية في ١٢٨٢ م ص ١٣٦ . إيطاليا الشمالية الممزقة بنزاع الغلفيين والجيبيليين ١٣٧

الفصل الخامس

الكنيسة في كفاح جديد

قرن المسيحية الذهبي ١٣٩ . المرطقات ١٤٠ . التطلع إلى الفقر والمرطقة الفودوازية ١٤١ . التطلع إلى الطهارة والمرطقة الكاتارية ١٤٤ . قمع المرطقة : مكافحة الالبيجوازيين ومحاكم التفتيش ١٤٧ . تطور الحياة الدينية : أنظمة المتسولين ١٥١ . الأخوة الصغار ، أخوة القديس فرانسوا ١٥٢ . أخوة القديس دومينيك المبشرون ١٥٤ . تعزيز السلطة الحبرية ١٥٥

الفصل السادس

الأشكال الجديدة

الجامعات ١٥٩ . أصول الجامعات ١٦٠ . تنظيم الحياة الجامعية ١٦٤ .

مشاكل العالم الجامعي ١٦٦ . الأدب العالم والاكليكي ١٧٠ . الأدب السديوي
والعلماني ١٧٣ . نهاية العصر البطولي ١٧٥ . الأدب المهذب والغنائي ١٧٧ . الشعر
الغنائي ١٨٠ . ظفر الأدب البورجوازي ١٨١ . بدايات الأدب الإيطالي :
دانتي ١٨٤

الفصل السابع

الفن القوطي (الغوطي)

فن حديث ١٨٩ . الكاتدرائية الغوطية ١٩٣ . التزيين الغوطي ٢٠٢ .
بدايات فن التصوير (الرسم) الإيطالي ٢٠٩

الفصل الثامن

الحملات الصليبية في الغرب الأوربي

المقدمة

الشرق والغرب . إسلام الغرب وحرب الاسترداد . الأتراك
والصليبيون ٢١١ . ظهور المغول ٢١٣ . الحملات الصليبية في الغرب
الأوربي ٢١٥ . فتح النورماندين لصقلية ٢١٦ . أصول الاسترداد في
إسبانيا ٢١٧ . الحرب الاستردادية الأولى وهجوم المرابطين المعاكس ٢١٩ . عودة
الهجوم المسيحي ودفاع الموحدين ٢٢٠ . إسبانيا الموحدين ٢٢٣ . الاسترداد في
القرن الثالث عشر ٢٢٤

الفصل التاسع

الحملات الصليبية في المشرق العربي

المقدمة ٢٢٧ . وضع الصليبيين في الأراضي المحتلة ٢٢٩ . وضع أبناء البلاد
الأصلاء ٢٣٢ . الدفاع الإسلامي ٢٣٣ . الحملة الصليبية الرابعة ٢٤٠ . ضعف
بيزنطة ٢٤٢ . تحويل الحملة وأخذ القسطنطينية . تجزئة الامبراطورية

البيزنطية ٢٤٤ . الامراتورية اللاتينية المؤقتة . نهاية الحملات الصليبية في
المشرق ٢٤٨ . نتائج الحملات الصليبية ٢٥١

الفصل العاشر

آسيا الوسطى والشرقية

المقدمة ٢٥٢ . آسيا الوسطى ، الحضارات المتهددة وتغلغل الإسلام . الهند
الشمالية الإسلامية ٢٥٦ . شبه الجزيرة ملاذ الحضارة الهندية ٢٦٠ . عالم التخيير .
بلد الحضارة الهندية ٢٦٢ . الشرق الأقصى : الصين واليابان قبل الغزو المغولي
صين آل سونغ المسالمة والناعمة ٢٦٥ . اليابان الإقطاعية والعسكرية ٢٧٠

الفصل الحادي عشر

آسيا الوسطى والمغول

المغول قبل جنكيزخان ٢٧٥ . ملحمة جنكيزخان ٢٧٩ . أول خلفاء
جنكيزخان وإنجاز الامراتورية المغولية ٢٨٣ . كوييلاي والسلالة المغولية
الصين ٢٨٥ . عودة العلاقات بين الشرق والغرب ٢٨٩

القسم الثاني

تاريخ القرنين الرابع عشر والخامس عشر

الفصل الأول

العوامل الشرقية

تاريخ القرنين الرابع عشر والخامس عشر

المقدمة ٢٩٧

- ١ - الشرق الأقصى : الصين وامبراطورية اليوان الصينية - المغولية ٢٩٩ . صين آل منغ القومية ٣٠١ . جيران الصين : اليابان ٣٠٥
- ٢ - الإسلام في آسيا وأفريقية : أ - تفتت الامبراطورية المغولية إلى خانات مستقلة ٣٠٩ : ١ - خانة منغوليا : ٢ - خانة فارس ٣١٠ : ٣ - خانة روسيا الجنوبية ٣١٢ : ٤ - خانة تركستان ٣١٣ . مشروع تيمورلنك الدموي . أ - مزيج من الفطاطة والنعمو ٣١٤ . ب - الفتح الفوضوي ٣١٦ . ج - تداعي النفوذ التيموري ٣٢٠ : ١ - فارس الغربية ٣٢١ . إيران الشرقية ٣٢١ . الإسلام في الهند ٣٢٢ . مصر المماليك ٣٢٦ . أندونيسيا ٣٢٩ . الإسلام في الغرب ٣٣١
- ٣ - الأتراك ومسيحيو أوربة الشرقية : نهضة بيزنطة وموتها . صعوبة إرجاع الامبراطورية البيزنطية ٣٣٤ . ميشيل الثامن والنهوض السياسي ٣٣٥ . النهضة البيزنطية الثانية ٣٣٨ . نضوب القوى البيزنطية ٣٤٠ . تشكيل الأمم البلقانية ٣٤٣
- ٤ - نمو السلطة العثمانية ونشأة روسيا الموسكوفية : الزخم الأول للفتح العثماني ٣٤٦ . فتح البلقان وأخذ القسطنطينية ٣٤٧ . نشأة روسيا الموسكوفية . محاولة نوفغورود ٣٥١ . السوزداليا وموسكو تفرضان نفسيهما ٣٥٤ . حكم إيثان الثالث الحاسم ٣٥٦ . روما الثالثة ٣٥٨

الفصل الثاني

مصاعب أوربة

- المقدمة ٣٦١ . الصعوبات المادية : ١ - عصر النوائب . الطاعون والجاعات ٣٦٣ . حرب المئة عام ٣٦٧ . الأجاجون والجلادون ٣٧٢ . الحلل الاقتصادي و انقلاب الظروف ٣٧٤ : ٢ - بؤس

الأرياف . الأرياف محتاجة وبلاقع ٣٧٧ . النهضة الزراعية البطيئة ٣٧٨ . ضعف النظام
الدوميني ٣٨٠ . يؤس الفلاحين وغضبهم ٣٨٣ : ٣ - التكيف البطيء للاقتصاد المدني . مصاعب
الاقتصاد المدني ٣٨٦ . غواخلافات الاجتماعية ٣٨٨ . التكيف الاقتصادي المدني : أ - التنظيم
الجديد للإنتاج ٣٩٤ . ب - تحولات الجغرافية التجارية ٣٩٧ . ج - تحسين التقنيات المالية ٤٠٢

الفصل الثالث

عصر الاضطراب والقلق

١ - الفاترون والنشيطون . دمار الكنيسة ٤٠٨ . نقص الإطار الأكليريكي ٤٠٩ . تقدم
السحر ٤١١ . نضوب الحياة الفكرية والفنية . أفول الحياة الجامعية ٤١٣ . جفاف الأدب
والفن ٤١٧ . الحساسية والفكر الجديدان ٤١٩ . الأفكار الجديدة : الإنسانية الأولى
والأدب ٤٢٦ . التقوى الحديثة ٤٢٨

الفصل الرابع

آفنيون أو روما

آفنيون أو روما ٤٣٥ . الإقامة في آفنيون . الاستقرار التدريجي ٤٣٦ . آفنيون عاصمة
جديدة للمسيحية ٤٤٠ . العودة إلى روما ٤٤٣ . تحول البابوية بالنفي في آفنيون . ملكية
مركزية على رأس الكنيسة ٤٤٧ . أفول الإشعاع السياسي والروحي للبابوية ٤٥١

الفصل الخامس

حييدة الغرب الكبرى كنيسة أو كنائس

الانتخاب الثنائي في ١٣٧٨ م ٤٥٦ . المسيحية منقسمة ٤٥٨ . اضطراب الحياة
الدينية ٤٦١ . الجامعة في نجدة الكنيسة ٤٦٢ . مجمع بيزا ٤٦٤ . مجمع كونستانس ٤٦٥ . مجمع
بال وإخفاق النظرية الجمعية ٤٦٩ . نشأة كنائس قومية . يقظة القومية الدينية ٤٧٠ .
كونكوردات وغالليكانية ٤٧٢ . المهرطقات القومية : أ - إنكلترا : ويكليف
واللولارديون ٤٧٤ . ب - بوهيميا : جان هوس ٤٧٦

الفصل السادس

الحرب تمزق أوربة

الحرب تمزق أوربة ٤٧٨ : ١٠ - فرنسا وإنكلترا : حرب المائة عام ٤٨٢ . فرنسا وإنكلترا
في مطلع القرن الرابع عشر . أ - أسباب الخلاف ٤٨٤ . ب - القوى العتيدة
أ - الممالك ٤٨٧ . ب - العواهل ٤٨٨ . ج - الجيوش . د - الأحلاف ٤٩١ . خسارة فرنسا

معركتين ، وكسبها الجولة الأولى . هزائم فرنسا في عهد فيليب السادس . أ - العمليات الأولى ٤٩٣ . ب - كريسي وهزيمة الفروسية الفرنسية ٤٩٤ . ج - كاليه وهندسة ١٣٤٧ م ٤٩٥ . تكرار النكبات في حكم جان الطيب . خرق جان الطيب ٤٩٦ . الغويين مسرح جديد للحرب : كارثة پواتيه ٤٩٨ . الثورة في فرنسا : ايتين مارسيل ٤٩٩ . معاهدة بريتيني ٥٠١ . شارل الخامس ونهوض فرنسا ٥٠٢ . شارل العاقل ٥٠٣ . توطيد النظام في المملكة ٥٠٤ . شارل يعاود الكفاح منتصراً ٥٠٦ . هل ستقضي الملكية الإنكليزية على الأمة الفرنسية ٥٠٧ . أ - فرنسا ممزقة : أرمانياكيون وبورغينيون . ب - حكم الأعمام ٥٠٨ . جنون الملك ٥١١ . مقتل لويس أورلئان ٥١٤ . الأرمانياكيون والبورغينيون ، الاشتباكات الأولى ٥١٤ . النهوض الإنكليزي السريع والنفوذ الفرنسية . آل لانكستر والنهوض الإنكليزي ٥١٦ . النكبة الفرنسية في : أزينكور (٢٥ تشرين الأول ١٤١٥) وعودة الحرب الأهلية ٥١٩ . قتل جان دون خوف ومعاهدة تروا ٥٢١ . النهوض الفرنسي . فرنسا الثلاثية : أ - فرنسا البورغونية ٥٢٢ . ب - فرنسا (الإنكليزية) ٥٢٣ . ج - مملكة بورج ٥٢٥ . ملحمة جان اللورينية الطيبة . أ - من عمليات ضعيفة إلى حصار أورلئان ٥٢٧ . ب - جان دارك تهب لنجدة فرنسا ٥٢٩ . ج - من حصار أورلئان إلى مباركة زنس ٥٣١ . د - اليأس والشهادة ٥٣٣ . شارل السابع وتحرير المملكة . أ - المصالحة الفرنسية - البورغونية ٥٣٦ . ب - تحرير المنطقة الباريزية وهندسات تور ٥٣٨ . نهوض فرنسا ٥٤٠ . د - عودة الكفاح والحرب الأهلية في إنكلترا ٥٤٢

الفصل السابع

الآفاق الأوروبية الأخرى

١ - ألمانيا وهوامش الجرمانية

أ - أفول السلطة الامبراطورية ٥٤٦ . لويس بافاريا والصوفية الامبراطورية ٥٤٧ . سياسة شارل الرابع الواقعية ٥٤٩ . للرسوم الذهبي . ب - تراجع النفوذ الجرمانى في أوربة . الحدود الجنوبية والغربية ٥٥٥ . وقف الزحف نحو الشرق ٥٥٦ . النفوذ الجرمانى في البلاد الشمالية ٥٥٨

٢ - شبه الجزيرة الإيطالية

حروب وتحويلات الخارطة السياسية ٥٦١ . إيطاليا الجنوبية ٥٦٣ . الدولة الحبرية ٥٦٤ . مملكة نابولي ٥٦٦ . إيطاليا الشمالية ٥٦٨ . البندقية ٥٦٩ . دوقية ميلانو ٥٧٢ . فلورنسا وآل ميديتشي ٥٧٥

٣ - شبه الجزيرة الايبيرية

النعرات القومية ٥٨١ . أ - قشتالة ٥٨١ . ب - البرتغال ٥٨٢ . ج - تاج
آراغونة ٥٨٤ . ظهور قوى الاتحاد ٥٨٥

الفصل الثامن

نحو عالم جديد

نحو عالم جديد ٥٨٨ . على عتبة الأزمنة الحديثة : ١ - حول الأفق السياسي : أوربة
الإمارات والأمم ٥٨٩ . إيطاليا . إيطاليا الأمراء ٥٩٠ . الدولة الحبرية ٥٩١ . فلورنسا في عهد
آل ميديتشي ٥٩٤ . الأمانة الميلانية ٥٩٧ . إيطاليا الممزقة ٥٩٨ . تفتت ألمانيا ٦٠١ . الآمال
بنهضة جرمانية ٦٠٢ . الثغور الشرقية والشمالية لأوربة الكاثوليكية . أوربة الشرقية ٦٠٥ .
بولونيا ٦٠٧ . أوربة الشمالية ٦٠٨ . أوربة الدولة القومية . تشكيل الملكية الإسبانية .
قشتالة ٦٠٩ . البرتغال وآراغونة ٦١٠ . اتحاد آراغونة وقشتالة ٦١٢ . إنكلترا ٦١٣ . فرنسا .
فرنسا في آخر حكم شارل السابع ٦١٨ . فرنسا في عهد لويس الحادي عشر . أ - الملك ٦٢٣ .
ب - ثورة الأمراء ٦٢٥ . النزاع الفرنسي - البورغوني ٦٢٨ . قصور شارل الثامن ٦٣٢

الفصل التاسع

العمران الاقتصادي والحاجات الجديدة

النهضة الاقتصادية في أوربة ٦٣٥ . الأوربيات الثلاث الاقتصادية ٦٤٠ . أ - بلاد
الشرق الأوربي الكاثوليكية ٦٤١ . ب - وسط وشمال غربي أوربة . البورجوازيات
التاجرة ، محرك الاقتصاد في أوربة الوسطى : ١) إيطاليا ٦٤٢ . ٢) ألمانيا ٦٤٤ . الملكية
توجه النهضة الاقتصادية في أوربة الغربية . أ - الدولة البورغونية ٦٤٥ . ب - مملكة
فرنسا ٦٤٨ . ج - إنكلترا ٦٥٤ . د - شبه جزيرة إيبيريا تفتتح للاقتصاد طرقاتاً
جديدة ٦٥٥ . الظروف المواتية للاكتشافات الكبرى ٦٥٦ . البرتغال أول مستفيد من هذه
الظروف ٦٥٨ . إسبانيا تنطلق على طريق المحيط ٦٦٢

الفصل العاشر

التطلعات الجديدة الإنسانية والنهضة

بقاء التقاليد الفكرية والفنية ٦٦٤ . الإنسانية ٦٦٨ . نهضة الفنون ٦٧٥

الشكر الجزيل لمن أسهم في نشر هذا الكتاب

